

د. حسن أحمد محمود
استاذ التاريخ الإسلامى
بكلية الآداب جامعة القاهرة
وجامعة الرياض

د. أحمد ابراهيم الشريف
أستاذ التاريخ الإسلامى
بجامعة عين شمس
وجامعة الكويت

الطبعة الخامسة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى



العالم الإسلامي

في العصر العباسي

دكتور حسن أحمد محمود
أستاذ التاريخ الإسلامي
بكلية الآداب جامعة القاهرة
وجامعة الرياض

دكتور أحمد إبراهيم الشريف
أستاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة عين شمس
وجامعة الكويت

الطبعة الخامسة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تصدير

لم تعد الكتابة في التاريخ الاسلامي مجرد سرد لسير الخلفاء ، ووصف لمجالس طربهم ولهوهم وللحياة في قصورهم ، أو ذكر لحروبهم ووقائعهم • وانما أضحت نظرة واسعة للحياة الاسلامية كأرحب ما تكون النظرات ، وهذه النظرة الواسعة ليست مجرد معلومات محشوة بعضها في اثر بعض ، وانما لابد أن تعطى لهذا التاريخ مفهوما يعبر عنه ، وديناميه تسير حركاته وتسبر غور أعماقه •

ولعل ذلك ما دفعنا الى أن ننظر في الحياة الاسلامية في العصر العباسي هذه النظرة الواسعة ، فعرضنا لتطوراته السياسية ، ولم نهمل قضاياه الاقتصادية وتطوراته الاجتماعية والثقافية •

ولعل البحث عن مفهوم التاريخ الاسلامي في العصر العباسي ، هو الذي دفعنا الى البحث عن جذور الدعوة العباسية ، وكيف تحولت الى ثورة شاملة ، كان العصر العباسي الأول تطبيقا لمبادئها • وكيف تركت هذه الثورة انطباعا عميقا في جميع نواحي العصر السياسية والاجتماعية والثقافية • ثم كيف فتحت هذه الثورة أمام المسلمين من غير العرب باب الظهور في تلك المجالات جميعا •

ثم كيف فقدت الخلافة العباسية فعاليتها في العصر العباسي الثاني نتيجة لضعف الحزب العباسي فلسفة وتنظيما • ولكن المبادىء التي نادت بها الثورة ظلت تؤتي ثمارها على الرغم من ضعف الخلافة • ولم يصبح التاريخ لذلك ، تاريخ الخلافة وانما أصبحت الشعوب الاسلامية هي التي تصنع هذا التاريخ وتوجهه ، فقد برزت القوميات الاسلامية تحت ظل شعار المساواة بروزا واضحا ، واستجابت الخلافة للمصالح الاقليمية في مرونة سياسية كبيرة الأمر الذي أدى الى سيادة النظام الفدرالي والحكم اللامركزي • ولم تعد نظرة المؤرخ

تتجه الى شخصية الخلفاء قوة وضعفا وانما تتجه الى العالم الاسلامى ككل . والى الشعوب الاسلامية كجماعات تسعى الى تنمية شخصياتها ومصالحها فى نطاق هـذا الكل ، ومن ثم برزت على مسرح التـاريخ شعوب لم يسمع التاريخ لها ذكرا من قبل ، وحققت لنفسها مجدا كبيرا ، كما أعطت للعالم الاسلامى حيوية دافقة ، وهى وان أثرت فى مركز الخلفاء أنفسهم فأضعفت من شخصياتهم ، الا أنها مدت نفوذ العالم الاسلامى ودافعت عنه وأمدته بحيوية متجددة .

وقد أدى هذا كله الى امتزاج حضارى كبير ، والى تعدد المراكز الثقافية بظهور المدارس الاقليمية المستقلة ، مع اكتمال حركة الترجمة ودخـول الموالى ميـدان الفكر الغـربى بميراثهم الثقـافى وتراثهم الحضارى ، الأمر الذى أدى الى نهضة شاملة فى كل المجالات الحضارية أينعت فى القرن الثالث وآتت أكلها فى القرنين الرابع والخامس .

وقـد تعاونا فى اعطاء العصر العباسى تلك الأهمية التى اليهـا أشرنا ، كما بذلنا الجهد فى محاولة اكتشاف المفاهيم التى أوضحنا ، والكشف عن التطورات التى اليها ألمعنا .

فاختص أحدنا (حسن أحمد محمود) بالقسم الأول من الكتاب ، وهـو القسم الذى أفرد للعصر العباسى الأول ، وعرض فيه لقيـام الدولة العباسية ، وتحدث عن الثورة وتنظيماتها وفلسفتها وشعاراتها ، والعوامل التى مكنت لها من النجاح ، وأحداث هذه الثورة منذ اندلاع شرارتها الأولى ، حتى تمت البيعة للخليفة الأول ، فتحدث عن تقـدم العناصر الايرانيـة سياسيا وفكريا ، ثم عرض للخلافة ونظم الدولة فى ضـوء مبادىء الثورة وفلسفتها . وتحدث عن العباسيين والموقف الدولى ، وكيف حققوا السـلم الاسلامى . ثم تابع نتـائج الثورة فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

واختص الآخر (أحمـد ابراهيم الشريف) بالقسم الثانى من الكتاب ، وهو القسم الذى أفرد للعصر العباسى الثانى ، وقد بدأ بالقاء

نظرة عامة على هذا العصر تحيط بالدولة الاسلامية فى خطوط عريضة ، أبرز فيها آثار الشعارات التى نادت بهـا الثورة العباسية وألم الى أهميـة النظرة الشاملة للعـالم الاسلامى ، وتعرض لمناقشة الآراء المختلفة فيما يتعلق بقوة العالم الاسلامى ومصلحته من خلال النظرة الى تاريخ الخلافة وتاريخ الأمم الاسلامية • ثم عرض لظهور الشعوب الجديدة ودخولها فى مجال الحياة الاسلامية • ثم عرض لنفوذ الأتراك والصراع بينهم وبين الخلفاء ، وضعف الخلافة وظهور منصب امرة الأمراء • ثم تحدث عن ظهور الدول المستقلة بالاشارة الى تطور الحكم الفدرالى وظهور المتغلبين فى المغرب والمشرق ، ومقدار فعالية هـذه الدول وأثرها فى قوة العالم الاسلامى ونموه ماديا وحضاريا ، وفرق بين نوعين من الدول : الدول الثغرية والدول الداخلية • ثم عرض آخرا الأمر العصرين البويهى والسلجوقى وبين أوجه الشبه والخلاف بينهما • ووامل الحديث الى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ، وتلقى دول أخرى مسئولية العالم الاسلامى فى ظروف أخرى •

ولما كانت دراسة العالم الاسلامى ، وبخاصة فى العصر الثانى ، من كل جوانبها لا يتسع لها سفر واحد ، فقد رأينا أن نقصر هذا الكتاب على الناحية السياسية ، ونلحقه بجزء آخر نخصصه للناحية الحضارية فهى قمينة أن يفرد لها بحث خاص نأمل أن نخرجه قريبا بعون الله •

هذا وقد بذلنا فى اخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الجهد المضنى ، وأملنا أن نكون قـد أفلحنا فى اعطـاء العصر العباسى الأهمية التى يستحقها ، وأن نكون قد وفقنا فى عرض وجهـات النظر والتعبير عن الأفكار فى صورة واضحة مفهومة ، وعسى أن نكون قد أحرزنا بعض النجاح ، ولا ندعى الكمـال فليغفر لنا القارىء الكريم ما نكون قـد وقعنا فيه من زلل ، وكل رجائنا أن نكون قد فتحنا الطريق الى مزيد من الدراسات فى هذا العصر الهام من حياة الأمة الاسلامية •

المؤلفـان

البابُ الأوّلُ

قيام الدولة العباسية

القسم الأول

العصر العباسى الأول

الثورة العباسية

لم يكن قيام الدولة العباسية مجـرد بيعـة خليفة دون آخر ، أو انتقال الحـكم من الأمويين الى العباسيين • يقول المؤرخ برنارد لويس ، « كان حلول العباسيين محل الأمويين فى حـكم الجمـاعة الاسلامية أكثر من مجرد تغيير الأسرة الحاكمة • لقـد كانت ثورة فى تاريخ الاسلام تعين نقطة فاصلة فيه ، ولها من الأهمية ما للثورتين الفرنسية والروسية من الأهمية فى تاريخ الغرب » (١) •

وذلك ليس بالقياس الى أحـداث الثورة نفسها ، انما لفعاليتها وقدرتها على التغيير الجـذرى فى المجتمع الاسلامى ، فقد ظلت آثار هذه الأحداث تحدث التغير الجذرى فى المجتمع الاسلامى طوال العصر العباسى الأول،بل تجاوزت أصداؤها حدود ذلك العصر ، ونعتقد أن أمورا ثلاثة قد اجتمعت لتحدث هذا التطور العميق ، وأن تتم النقلة فى تاريخ الاسلام • وهـذه الأمور الثلاثة هى :

١ — أنها قامت على أساس دعوة دينية نظمت تنظيما دقيقا كتب للثورة النجاح ومكن لجذورها فى الأرض •

٢ — أن الدعوة العباسية أفادت من انتشار الاسـلام فى ايران الذى زاد شـدة وسرعة عن غيرها من الأمصار الاسـلامية ، ومكن الدعاة العباسيين من أن يستغلوا هذه الطاقة الجديدة ويتموا تحالفا بين الدعوة العباسية وبين هذه الجماهير المـاضية صعدا •

٣ — أن الدعـوة أفادت من طاقات عظيمـة من السخط تجمعت فى ايران وعلى الخصوص فى الفترة من عام ١٠٠ هـ الى ١٣٢ هـ ، وذلك لأسباب اقتصـادية واجتماعية ، وأسباب أخـرى تعزى الى سياسة

(١) العرب فى التاريخ ، ص ١١٣ •

الخلفاء الأمويين الأواخر ، ولابد أن نناقش هذه الموضوعات بالتفصيل لنلقى أضـواء على هـذه الأحداث الهامة التى غيرت وجه التاريخ الاسـلامى .

الثورة والتنظيم العقائدى

وقد ثبت أن التنظيم العقائدى فى فترة التحضير للثورة ينم عن عبقرية فذة فى الترتيب والتنظيم ، وقد وضع هؤلاء المنظمون العباسيون نهجا تكرر كثيرا عبر التاريخ فيما بعد ، فقد نسج القرامطة والفاطميون على منوالهم وتعلموا دروسهم وترسـموا خطـواتهم ، وأفادوا من تجاربهم . وكان هـذا التنظيم العقائدى يقوم على السرية المطلقة ، أعنى أن الدعوة توفر لها عنصر السرية الى أبعد الحـدود ، خصوصا بعد الكوارث التى نزلت بآل البيت منذ مصرع الحسين ، وما عمدت اليه الدولة الأموية من تصفية الحركات العلوية ، والقضاء على زعمائهم بكل وسيلة مستطاعة حتى تخمد أنفاسهم ولا تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، وقد ظلت الدعوة سرية تقوم على أساس الدعوة لامام مستور عن أعين الأمويين الى أن قـدر لهـا أن تظهر على السطح بعد نجاح الثورة مبـاشرة .

زعامة الثـورة :

وكانت هذه الدعوة السرية تقوم حول امام من آل البيت يدير دفة هـذه الحركات السرية ، ويرعى هذه التنظيمات ، ويوجه الدعاة ويقودهم ، وقد آلت الامامة فى هذا التنظيم السرى الى بنى العباس فى فترة مرحلية عظيمة ، وقدر لهم أن يقودوا الكفاح حتى النصر .

وكان بنو العباس خارجين عن نطاق هذا النزاع ، وانما تأخروا لتأخر سابقة العباس ، ثم تقدموا بفضل ما جمع عبد الله بن العباس من العلم ، وبفضل عكرمة الذى نشر علم ابن عباس فى المشرق ، وعندئذ

ظهر فضل هذا البيت وعرفه الناس واحترموه لقرابته القريبة من بيت الامام على ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الى أن اتفق حـول رأس القرن الثانى للهجرة أن فقـد البيت العلوى رياسته فى حياة على بن عبد الله بن العباس ، وقـد أسن ، فأصبحت الظـروف تقضى بالتطلع اليه كشيخ كبير وقور من شيوخ آل البيت الكريم . ولهذا تذكر المراجع الدعوة العباسية عام ١٠٠ هجرية على يد على بن عبد الله بن العباس ، ولا تذكر هذه المراجع قبله أحدا .

والواقع أن الموت أذهب جيـلا من العـلويين : فان الامام على السجاد زين العابدين توفى فى المدينـة المنورة قبل هـذا التـاريخ بست سنين ، وكذلك توفى أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قبل هـذا التاريخ بسنتين تقريبا . وكان ابنا السجاد وهما محمد الباقر وزيد لا يزالان فى أول شبابهما غير ظاهرين ، على حين لم يعقب أبو هاشم من بعده من يخلفه .

ونرجح أن الناس لم يحتاجـوا الى أن يفرقوا يومئـذ بين آل البيت ، وكل القرائن تدل على أنهم نظروا الى آل البيت جملة ، على أنهم كل متضامن لا ينازع أحد منهم أحدا . وان كانوا بيوتا مختلفة لكل بيت دوره ووجاهته .

ونرجح كذلك أن محمـد بن الحنفية انما ظهـر عقب استشهاد الحسين ، لأن الشهامة كانت تقضى بالتضامن دون أن يكون فى خاطره أن يستأثر لنفسـه بشىء . والراجح أن آل البيت أنفسهم بعـدوا أم قربوا لم يكونوا ليتنازعوا على أمر لا يزال فى قبضة غيرهم ، فأيهم قام بالدعوة قام عن الجميع ، ولهذا كانت الصلة بين أبى هاشم وبين باقى ذرية على صلة قوية ودية .

وبهذا الروح صار على بن عبد الله بن العباس حول عام ١٠٠ هـ وهو شيخ آل محمد قادرا على أن يتكلم باسمهم دون أن ينازعه أحد

أو يشك فى نواياه . وكان من الطبيعى أن ينظر آل البيت بعين الرضا لكل تنظيم يدعو الى آل محمد .

واغتنم هذه الفرصة على بن عبد الله بن العباس ، وكانت فرصة ذهبية ، فلما نجح بيته استأثر بالأمر ، مع أنه لم يدخل فيه الا منذ وقت قريب . وكان نجاح هذا البيت بسبب فرصة ثانية مماثلة سنحت بعد استشهاد زيد وابنه يحيى .

وانتهى الأمر بنجـاح العباسيين فى الجيل الثالث (جيل على المؤسس ثم جيل ابنه محمد ثم جيل حفيده ابراهيم) ، وولى الخلافة من هؤلاء الحفدة اثنان هما أبو العباس عبد الله بن محمد ثم أبو جعفر المنصور بن محمد .

ونلاحظ عندما نستعرض تاريخ الدعوة العباسية بين عام ١٠٠ هـ الى أن ظهرت عام ١٢٩ هـ أن الدعوة العباسية كانت تنشط اذا خـلا الجو من رؤساء علويين ، وتضعف اذا ظهر منهم أحـد ، كما نشطت بعد وفاة زين العـابدين مرة ، وكمـا نشطت بعد استشهاد زيد مرة أخرى . ومن هنا كان من الضرورى أن نقف قليلا أمام علاقة الدعوة العباسية بالدعوات العلوية .

كانت الدعوة اذن تقوم على أكتاف الأئمة العباسيين المستورين الذين يقيمون فى مدينة الحميمة ، ويديرون خيوط الدعوة فى العـالم الاسلامى كله ..

وقد كانت الفترة من عام ١٠٠ هـ الى ١٣٢ هـ . حافلة بطائفة من الأئمة والأفذاذ الذين أظهروا قدرات ادارية فذة ، وكانوا بحق سلفا كبيرا لخلف أكبر . تجلى فى صـورة أبى العباس السفاح أو المنصور أو الرشـيد أو المـأمون أو المعتصم ، وهم من أعظم أفـراد البيت العباسى قدرة على التنظيم .

وقد نظم الدعوة من البيت العباسى ثلاثة لم يقدر لهم أن ينالوا ثمرة غرسهم • وأولهم على بن عبد الله بن عباس وكان يكنى بابنه محمد كما يكنى بأبى الحسن ، وقد رأس الدعوة أكثر من عشرين سنة حتى مات عام ١١٧ هـ ، وقد قارب الثمانين ، وهو الذى نظم الدعاة والنقباء فى كل من العراق وخراسان •

وولى أمر الدعوة بعد ذلك ابنه محمد (١١٧ — ١٢٥ هـ) (١) والراجح أنه كان أكثر مسالمة وايثارا للعافية • ثم ولى أمر الدعوة ابراهيم وهو الذى وصل بها الى الذروة • وكان هؤلاء الأئمة الثلاثة كما قلنا يقيمون بالحميمة ويتصلون بخراسان عن طريق دعاة العراق (٢) •

الدعاة والنقباء :

وهؤلاء الأئمة الذين يقعدون على القمة فى هذا التنظيم السرى كان يساعدهم طائفة من الدعاة ، هم وحدهم الذين يعرفون سر امام الوقت ويحتفظون بهذا السر لأنفسهم ، وكان الدعاة فى الحقيقة جميعهم من طراز واحد : قدرات عسكرية خلاقة ، واخلاص للدعوة وفناء فيها ، وقدرة بارعة على الدبلوماسية والدهاء ومداراة الأحوال أو اجتذاب الأنصار • ومنطق فى المخاطبة فيه أدب وبلاغة وفن ومراعاة مقتضى الحال •

وقد لبست الدعوة لبوسا ثقافيا ، وأغلب الدعاة تعمقوا فى العلوم الاسلامية وبرعوا فى الحديث أو الفقه أو اللغة ، وتولوا التعليم ، وأخذ الناس عنهم •

---

(١) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ •

(٢) الطبرى ، ج ٨ ، ص ١٣٦ •

النقباء الذين اختارهم ابو عكرمة السراج هم :

سليمان بن كثير الخزاعى والاعز بن قريظ التميمى وقحطبة بن شبيب الطائى وموسى بن كعب التميمى وخالد بن ابراهيم ابو داود والقاسم ابن مجاشع التميمى وعمران بن اسماعيل ابو النجم ومالك بن الهيثم الخزاعى وعمرو بن اعين وشبل بن طهمان وعيسى بن اعين •

ونعتقد أن ثمة مدرسة للدعوة العباسية برزت فى هــذه الفترة تدرب هؤلاء وتعدهم نفسيا وثقافيا وعسكريا ، وتعدهم لليوم المرتقب . هــذا النشاط الأدبى والنفسانى الذى قام به الدعاة فى هــذه الفترة فى حاجة الى دراسة واستقصاء أدبى وتاريخى ، للكشف عن هــذه الجهود التى تتابعت نحوا من ٣٢ سنة حافلة بالنضال ، ونسوق كلمة عن دعاة العــراق والكوفة وخراسان مستخلصة من الحوليات القديمة ليتبين قدر هؤلاء الدعاة وقدرتهم :

دعاة العــراق :

وأمر الدعاة بالعراق واضح ، فقــد نظم الدعوة هنــاك ثلاثة هم : ميسرة العبدى ، ثم بكير بن ماهان ، ثم سلمة الخلال الذى عرف فيما بعد باسم وزير آل محمد .

أما ميسرة فقــد كان مولى لعلى بن عبد الله بن العباس ، وهنا نلاحظ أن الدعــوة قامت بالعــراق على يــد مولى من موالى البيت العباسى ، وأنها قامت بخراسان على يد مولى نفس البيت العباسى . ونلمس بذلك كيف كان المــوالى يحرصــون على رفع البيوتات التى ينتمون اليها ، غير أن ميسرة العبدى عوجل بالموت فلم يرأس الدعوة بالعراق الا بضع سنين (١٠٢ ــ ١٠٥ هـ) .

وتولى بعده رياسة الدعوة بكير بن ماهان (١) ، وهو الذى تمركز فى يده أمر الدعوة نحــو ٢٢ سنة ، فهو من هــذه الناحية أهم دعاة العراق ، وكان صاحب جهاد واخلاص لا يدخر فى سبيل الدعوة جهدا ولا مالا ، فانه كان فى أول أمره مرابطا بثغر السند ، واقتنى هنــاك مالا قدره أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب ، فأنفق كل ذلك فى سبيل الدعوة ، ويرجع الفضل فى ضمه الى الدعوة الى عكرمة السراج مولى

---

(١) الخضرى : الدولة العباسية ، ص ٢٢ . قدم من السند وكان بها مع الجنيــد بن عبد الرحمن .

ابن عباس . ويروى كذلك أنه هو الذى أرسل الى خراسان بعض دعاتها .

أما ثالث دعاة العراق وآخرهم فهو أبو سلمة الخلال وهو الذى قاد الدعوة فى العراق فى السنين الخمس الأخيرة قبل ظهور بنى العباس .

دعاة خراسان :

أما عن الدعوة بخراسان فقد قام بها جماعة كثيرة يبلغ عددهم سبعة ، وأولهم أبو عكرمة السراج (١) مولى ابن عباس ، وقد تجمع حوله أربعة أو خمسة نقباء ، وكانوا جميعا نواة الدعوة . منهم محمد بن خنيس وحيان العطار (٢) وعمار العبادى .

وكان أبو عكرمة يلقب بأبى محمد الصادق ، وهذا تلقيب يشعر بأهمية صاحبه وان كان من الموالى . وكان أبو عكرمة متصلا بالبيت العباسى : اما بحكم الولاء واما بحكم مكانته فى الدعوة ، ويروى أنه زار بنى العباس فى الحميمة وحضر ولادة على بن عبد الله بن عباس . وقد هاجر عكرمة الى خراسان بعد ابن عباس ونشر فيها علمه الكثير ، فكان أهل المشرق يجلون ابن عباس عن طريق تلميذه ومولاه أبى عكرمة، والراجح أن أبا عكرمة لم يكن داعيا بل كان مجرد وجوده عنوانا لفضل البيت العباسى .

وأساس الترجيح أنه أمضى معظم حياته قبل أن تبدأ الدعوة الا السنين الخمس الأخيرة ، وينسب اليه مع ذلك أنه هو الذى اختار النقباء وأنه الذى اختار بكير بن ماهان ، ومن الطبيعي أن يجتمع حوله جماعة وأن تظهر منهم مقالات فى حق بنى العباس ، ووقعت بسبب ذلك أزمة ، فقد سمع بهم والى خراسان يومئذ وهو أسد بن عبد الله القسرى فأخذ جماعة منهم وفر جماعة منهم زيادة الناجى .

---

(١) ويسمى أحيانا أبا محمد الصادق .
(٢) فلهوزن : الدولة العربية ، ص ٤٧٨ — ٤٧٩ .

أما الداعى الثانى ، فهو من أهل بلخ الذين اشتهروا بالحماسة للدعوة وهو حرب بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة .

والداعى الثانى كان مركزه فى بلخ أيضا ، وفى مرو ، وانتهى أمره بأن قتله والى خراسان كما قتل زياد الناجى .

أما الداعى الثالث ، فقد قدم من الكوفة ونزل فى بلخ مركز الدعوة بالمشرق ونزل فى بيت أبى النجم ، وهو كثير الكوفى (١١٠ — ١١٧ هـ) وكان رجلا أميا متحمسا لبقا ذا نشاط ، وقد رفع أمرهم الى أسد فحبس جماعة منهم ثم أطلقهم .

ثم قدم على هذه الجماعة البلخية داع آخر اسمه خداش ، ولا يعرف عنه غير هذا الاسم (١) وأظهر خداش مقالات تفرقت بسببها الجماعة الى فرقتين ، فريق معه وفريق عليه ، ويدل ما يروى عنه أنه كان يبيح ترك العبادات ويقول بتأويل القرآن : فكان يتأول الآية **« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ... »** وكان يقول الصوم هو التستر على الامام ، والحج قصده ، والصلاة الدعاء له ، وكان أيضا يطعن على أبى بكر وعمر .

وقد اتهم بسبب هذه المقالات بالزيغ وباحياء دين الخرمية بما أحل من الاباحات ، وقيل أيضا انه لم يكن مخلصا فى اسلامه ، لأنه كان نصرانيا ثم أسلم ، وانتهى أمر خداش بأن أخذه أسد وقتله بأن قطع لسانه ثم سمل عينيه فى آمد ، كما قتل أسد بعض أصحابه .

والراجح أن هذه الفتنة أدت الى حذر الأئمة العباسيين فتركوا مكاتبة دعاة خراسان ولم يبعثوا اليهم بكتب ولا رسل . وقد قامت

---

(١) يقال كان اسمه عمارة وسمى خداشا لانه خدش الدين . ويقال ان اسمه كان عمار بن يزيد . انظر فلهوزن ، ص ٤٨٢ .

هـذه الفتنة فى أول رياسة محمد بن على بن عبـد الله بن العباس الدعوة . وكان محمد صاحب علم وميل الى السلم ، وكان هو الذى ترك مكاتبة الدعاة بخراسان .

ومن القـرائن على ميله الى السـلم أنه التقى بزيد بن على فى الكوفة ونصحه بعدم الخروج ، فأرجف الناس بسبب موقفه هذا من زيد بأنه يطمع فى الأمر لنفسه ، ثم ان محمدا عاصر الفترة التى ازداد فيها نشاط الزيدية ، ومثل هذا النشاط كان من شأنه أن يصرف الأنظار عن العباسيين (١) .

واستمرت الجماعة البلخية قائمة برغم ترك الامام محمد لهم(٢) ، وظهر فيهم زعيم جديد عالم هو سليمان بن كثير ، ولعله ولد كثير داعى الكوفة الذى أشرنا اليه . فان صح فانه فخر لأبيه فقد أشاد المنصور فيما بعد بأثره فى الدعوة وافتخر له فقال : « هو أحد فتياننا » ، وقد اختاره أبو مسلم فيما بعد اماما للصلاة عند اعلان الثورة ، وهو الذى أعاد طقوس صلاة العيد على نحو ما نصليها الآن .

ويظهر أنه كان صاحب استقامة ورأى ، وأنه اختلف فى النهاية مع أبى مسلم حين لجأ أبو مسلم الى العنف الظـالم فى خراسان ، فاتهمه أبو مسلم وقتله . ونحن نسمع به لأول مرة وهو يقدم موفدا الى الامام محمد والى الامام ابراهيم من قبل شيعة خراسان ، فأعرض عنـه الامام ثم أعطاه كتابا وأمره ألا يفضـه الا فى خراسان أمام أصحابه ، فلما فضوا الكتاب لم يجـدوا فيه الا البسملة ، ومعناها الغضب بسبب ما هم فيه من فتنة (٣) .

ثم أوفد الامام الى شيعة الخراسانية كبير دعاة العراق ، وهو بكير بن ماهان (٣) وأمره أن يعلم صحابة آل البيت بكذب خداش ،

---

(١) الاخبـار الطـوال ، ص ٣٣٧ .
(٢) فلهوزن ، ص ٤٨٤ .
(٣) انظر الطبرى ، ج ٩ ، ص ٤٧ .

فلما قدم بكير عليهم طلبوا منه علامة ليصدقوه ، فعاد وجاءهم بعلامة الى النقباء هى عبارة عن عصى مضببة ، وأعطى كل واحـــد عصـــا ، ولا نكاد نفهم ما ترمز اليه هذه العلامة ، وتاريخ الخبر عام ١٢٠ هـ(١)• ونحن نستبعد هذا الخبر ونرى أن استئناف العلاقات على هذا النحو جاء بعد خروج زيد وابنه يحيى وفى أيام الامام ابراهيم •

ثم يتولى رياسة الدعوة العباسية أبو مسلم الخراسانى ويبقى سليمان بن كثير على حاله ، وكان قدوم أبى مسلم من جهـــة الامام ابراهيم ، فنزل فى بلخ عند أبى النجم ، ولم يلبث أن صاهره وأن رزق ببنت اسمها فاطمة ، وكان عقبه منها ومن زوجها محرز بن ابراهيم • وكان من وجوه أصحابهم فى بلخ أيضـــا أبو منصور طلحة بن زريق وكان « عالمـــا بحجج الهاشمية ومعايب الأموية » •

وكان أبو مسلم رجل علم ، أخذ العلم عن جماعة ، منهم أبو عكرمة مولى بن عباس ، ومنهم الامام محمد نفسه ، ومنهم ثابت البنانى ، ومن هنا تأتى الصلة بفرقة البنانية • وممن أخذ عنهم العلم أيضا أبو الزبير المكى وغيره • وقد روى عبد الله بن المبارك عن أبى مسلم (٢) •

النقبـــاء :

والمرتبة التالية فى كادر الدعـــوة العباسية هم النقباء ، وكانوا يأتمرون بأمر الدعاة ولهم قدراتهم الدعائية والعسكرية ، ولم يكونوا يقلون عن الدعاة قيمة انما كانوا يجهلون امام الوقت ، فقد كان العلم به سرا لا يعرفه الا الدعاة فحسب • ومن هؤلاء النقبـــاء من برزوا

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ، ص ٤٧ •

(٢) نبـــذه عن أبى مسلم :

« اصل ابى مسلم غامض والروايات فيه مختلفة . اما الذى لا شك فيه فهو انه لم يكن عربيـــا بل كان اعجميا . كان مملوكا او مولى فى الكوفة. وتـــ ـسترعى وهو ما يزال فى سن الصغر انتباه شيعة بنى العباس هناك مما دعا الى ارساله الى ابراهيم بن محمد فأخذه ابراهيم وضمه الى اسرته وعلمـــه لنفسه وجعله من خاصته » •

فى أحــداث الثورة العباسية وصنعوا الأعاجيب ، وكان لكل داعيــة اثنا عشر نقيبا ، وكان النقباء بدورهم تتبعهم طبقات أقل فى مراتب الدعوة وهى طبقة العمــال ، وكان لكل نقيب سبعون عاملا يديرون الجهاز السرى ويساعدون النقباء . ثم يمضى التشكيل فى عمقه الى أن ينتهى بالخلايا السرية التى كانت تندس فى جميع الأمصار الاسلامية .

وفى استطاعتنا الآن أن نتعــرف على منطــق هؤلاء الدعاة ، والشعارات التى كانوا يرددونهــا ، والآمال التى كانوا يطلقونهــا لاجتذاب الجماهير والأنصار . وهذه الشعارات مهمة جدا فى دراسة التفكير العباسى كله فى فترة التحضير للثورة ، وهى أشد أهمية فى فترة نجاح الثورة لأنها ستحكم على العباسيين وهل أطلقوا الشعارات رغبة فى كسب الأنصار أم صدقوا ما وعدوا . وفى الامكان أن نعرف شعارات الدعوة بدراسة مفصلة لسير الدعاة وما نسب اليهم من أقوال أو أفعال كما رواها الطبرى مثلا ، أو بتصفح كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، أو قراءة الرسائل العباسية خصوصا رسائل الخميس .

شعارات الدعاية للثورة :

لكل دعوة أو مذهب شعارات خاصة تنادى بهــا وتجعلها رمزا يؤمن بضرورة تحقيقــه . واذا قسنا الدولة العباســية بشعاراتهــا وبالفوائد التى حققتها هذه الشعارات ، لاعتبرنا الدعوة العباسية من أكبر الثورات فى التاريخ العالمى . ولفظ ثورة ولفظ دعاية من الألفاظ المولدة المستحدثة فى أيامنــا ، ولا بأس من استعمالها بدلا من لفظ الدعــوة .

المســاواة :

وأول هــذه الشعارات هو شعار المساواة بين الشعوب ، وهو شــعار ساهم فى انجاح الثــورة العباسية ، وأنصف الشعوب التى أسلمت واستعربت واندمجت فى ظل دولة عربيــة اسلامية وصــارت تتطلع الى المساواة .

وهذا الشعار فى ذاته مبدأ انسانى جليل لا تزال الأجيال تتعلق به منذ القدم وتتخذه مثلا أعلى • وهو شعار له معنى خاص فى حضارتنا العربية الاسلامية ، وهو عدم التفرقة بين الناس بحسب ألوانهم أو دمائهم أو تاريخهم ، والغاء هذا التقسيم المتعارف الى شعوب ، على أساس أن تعدد الشعوب ليس الا ضرورة من ضرورات التعارف بين الناس : وعلى أساس أن الشعوب قد عمها الاستعراب واندمجت فى الحضارة العربية فى ظل دولة اسلامية واحدة عزيزة الجانب •

والواقع أن أساس الاستعراب كان أساسا طبيعيا فى دولة ذات حضارة عربية اللغة يعتز أهلها بلغتها المقدسة التى هى لغة القرآن قبل أن تطرأ عليهم بوادر الاستعجام ومقتضياته ، فلا فرق بين فارسى أو تركى أو عربى ما داموا أهل تقوى واعتزاز بأمتهم •

ومبدأ المساواة مبدأ أصيل فى شريعتنا الاسلامية ، لأنه مستند الى القرآن والسنة واجماع الفقهاء ، حتى اننا لنعتبر أى خروج عن خط المساواة لابد أن يكون استثناء اقتضته مصالح مؤقتة أو ضرورات ملزمة •

وقد كان من الضرورى أن تسارع الشعوب المستعربة الى طلب المساواة بين الشعوب على المستوى الجماعى قبل المستوى الفردى • ومن البديهى أن يقف الفقهاء الى جانبهم باسم المبادىء الاسلامية الأساسية ، ويقف الى جانب الفقهاء أهل التقوى والصلاح والفروسية من فرسان الثغر ، انتصارا للعدل والسنة وانكارا للجور •

بل ان المطالبة بالمساواة قد تنصرف الى المساواة بين العرب أنفسهم • مثال ذلك شاعر فارس من عبد القيس فى خراسان يسوؤه أن تتمتع قريش بالخيرات دون القبائل الأخرى ويتمنى لقريش الزوال•

ومن الفرس من كانوا يدعون الى المساواة بروح شعوبية ، مثل

القائد الفارسي قحطبة حين يقول لجند من خراسان « يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لآبائكم » .

ومن الدعاة الذين يدعون الى الاسلام من كانوا ينتصرون لمبادئه دون اعتبار لسياسة الدولة . ومن هؤلاء نعرف بعض أسماء مثل (أبو الصيداء وأبو فاطمة الايادي ، وصالح بن طريق مولى بني ضبة ، والهيثم الشيباني والربيع بن عمران التميمي ، ونعرف بعض أسماء مشهورة مثل ثابت قطنة الشاعر ومثل الحارث بن سريج) (١) . وأبو الصيداء وأصحابه هم الذين كانوا قد حملوا عمر بن عبد العزيز على تقرير المبادىء التي قررت ، وكانوا من الداعين الى الاصلاح والمساواة بين العرب والموالي . ومن قبيل ذلك محاولة أخرى في طريق الاصلاح وتحقيق مبدأ المساواة ، ومساعدة مسلمي الأعاجم على المساواة الكاملة بالعرب في الحقوق والواجبات ، كان بطلها الحارث بن سريج . وكان من المحاربين الأشداء الأقوياء . يقال انه كان في مستهل أمره أحد ثوار الخوارج الغلاة ، ولكنه لم يدع الخلافة لنفسه ولا بايع غيره عليها ، ثم أخذ برأي المرجئة وكان كاتبه الجهم بن صفوان أشهر متكلمي هذه الفرقة . وكان الحارث نفسه يناظر على مبادئها ، ودعا المرجئة الى التوفيق بين المتخالفين وطرح مسائل الخلاف خصوصا مسألة الامام الحق ليحكم الله فيها ، ونادت الجماعة الثائرة بمبدأ تتفق عليه كافة الطوائف المختلفة وهو الدفاع عن حق المساواة . ومعارضة الاستبداد ، ونصرة الحق الذي قدمه الاسلام ، ومحاربة الظلم والعسف . وقد بدأ الحارث وجماعته محاولتهم في تأكيد الاصلاح بالثورة مستفيدا من التذمر الذي شاع في البلاد بسبب سياسة الأمويين ضد الموالي ومناداتهم باسقاط الجزية-واشراكهم في العطاء . وأيده الدهاقنة وأهل القرى . وكأنه ترسم خطا أبي الصيداء ، واذاك أيده أشياع أبي الصيداء مثل أبي فاطمة الايادي وبشر بن جرموز الضبي . فكانت في الحق ثورة عربية تولاها العرب

---

(١) فلهوزن — الدولة العربية ، ص ٤٤٢ .

لانصاف الأعاجم الذين أسلموا ، واشترك فى هذه الثورة عرب من تميم والأزد . ولم تكن الثورة الا بزعامة المرجئة فحسب وكانوا يقبلون كل من يؤيدهم فى الرأى . وكانت هـذه الثورة ارهاصـا لنجاح الدعوة العباسية وتأصيلا لمبادئها فى نفوس الناس ، فقد رفع الراية السوداء فى بلاد ما وراء النهر فى السنوات الأخيرة من ولاية الجنيد . وفى ولاية عاصم بن عبد اللـه امتدت الثورة الى طخارستان ثم بلخ ، وضمنت الحـارث طخارستان كلها . وتضخم جيش الحارث بعـد انتصاراته تضخما كبيرا ، فتقدم الى مرو ، وتصدى لهذه الدعوة الى الاصلاح الوالى الأموى أسـد بن عبد الله القسرى . ولم يتخل الحارث عن دعوة الاصلاح على مبادىء المرجئة ، فقد وضع نفسه من أول الأمر فى خدمة قضية الأعاجم فكتب لهم كتبا بسيرته وسياسته وأغراضه فى احقاق الحق والعدل . وكان رجاله يقرأون ذلك فى الطرق والمساجد .

وعلى هـذا نجد نزعات مختلفة تتستر خلف مبدأ الدعوة الى المساواة . يؤيده العرب بما عرف فيهم من تقديس للعـدل ، ويؤيده الفرس وجميع الموالى لمـا يتحقق لهم من الكسب . ويؤيدونه أيضا بدافع من العصبية الشعوبية ، ويؤيده بنو العباس تشنيعا على بنى أمية وطلبا لمنفعة البيت العباسى دون اهتمام بنزعات الناس .

الامامة للرضا من آل محمـد :

وكان هذا الشعار غير محدد بتحديد آخر بالنسبة لعامة الناس أما الخاصـة فهم يعرفون رياساتهم ولمن يدعـون من آل البيت . والعامة والخاصة معا يريدون ألا تبقى الامامة فى بنى أمية ، والشعار ينادى بضرورة نقل الخلافة عنهم واعتبارهم مغتصبين .

ونستطيع أن نجـد صـورة لآراء الثوار المعارضين فى رسائل الجاحظ . ونرى فى رسائله انكارا للأساس الذى أقام عليه بنو أمية خلافتهم وهـو أساس تحقيق الجماعة والخروج بالناس من الفتنة ، والحقيقة فى نظرهم أن الجماعة التى يفخر بها بنو أمية « قهر وجبر

وغلبة » وأن بنى أمية وقعوا فى « الضلال والفسق » حين حولوا الخلافة الى ملك ، وأنهم حين حادوا عن السن المنصوبة وقعوا فى الكفر . وأن أول كفرة كانت من الأمة رد معاويه قضية رسول الله فى ولد الفراش واستلحاقه زيادا ، وأن أهل عصر معاوية كفروا بترك اكفاره .

ويشير الجاحظ فى رسائله الى طائفة أخرى تقول ان سب ولاة السوء فتنة (١) وهذه الطائفة لا تستحل سب السلطان الجائر ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه حتى لا تكون فتنة .

ويضاف الى أقوال الجاحظ ما أشيع عن يزيد بن معاوية وعن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة الشاعر من طعن فى سلوكهما وحبهما للهو واستهتارهما بالدين والحادهما وزندقتهما وشربهما للخمر (٢) .

ويضاف كذلك ما أشيع عن مروان آخر خلفاء بنى أمية من أنه جعدى معطل .

وكذلك وجه الشيعة عامة (من عباسيين وطالبيين) الطعن الى ولاة بنى أمية وسموهم ولاة الجور ، واشتهر بين الناس استنكار عمر بن عبد العزيز لأفعال عمال السوء ، ومن ذلك كتاب لعمر يذكر ما أصاب أهل الكوفة « من جور فى أحكام الله ، وسنة خبيثة سنها عمال السوء » .

وعلى أساس تكفير بنى أمية أو على الأقل معاوية ويزيد والوليد ابن يزيد ، واستنكار جور عمالهم ، يجب أن نفسر ما جاء فى خطبة داود بن على عند البيعة لابن أخيه أبى العباس الملقب خطأ بالسفاح : « انا والله ما خرجنا فى هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر

---

(١) رسائل الجاحظ : رسالة فى بيان مذاهب الشيعة ، ص ١٧٨ — ١٨٦ .

(٢) نفس المصدر .

نهرا ولا نبنى قصرا ، وانما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والتعصب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم . لكم ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال فى آخر خطبته : «ألا وانه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد» (١) .

والمهم فى هذا العرض هو أن نلمس كيف صار أمر الامامة أمرا نتحمس له الفرق سعيا وراء هدف ، وهو جعل الامامة فى أهلها المستحقين لها ، أملا فى أن يكون صلاح الأمة على يد هذا البيت الذى هو أصلحها . ونحن نلمس أيضا كيف أن هذه الفرق توزعت الناس وصرفتهم عن بنى أمية ومهدت الطريق أمام آل محمد . ولم يكن أحد يتوقع أن يكون الفائز من آل محمد هم العباسيون .

الدعوة الى الاصلاح :

من شعارات الدعوة العباسية الاصلاح أو الدعوة الى الكتاب والسنة وهو شعار عام ، وهو أشمل من الشعارات الأخرى ، فالمساواة مثلا من مطالب رجال الفقه ومن مطالب الشعوبيين . والامامة كذلك من مطالب آل البيت وشيعتهم ، أما الاصلاح فهو صيحة الأجيال على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم .

وأهم من صاغ هذا المبدأ فى المشرق الحارث بن سريج التميمى(٢)،

---

(١) الطبرى ج ٩ ، ص ١٢٦ .

(٢) كان المرجئة اكبر شأنا من الخوارج فى خراسان ، وقد تدخلوا بقيادة الحارث بن سريج فى تاريخ العصر الأموى الأخير تدخلا كبيرا ، وقد استنكروا كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين .

وجهم بن صفوان (١) مولى راسب وأولهما تسمى باسم صاحب الفئة العادلة ، وثانيهما عرف أتباعه باسم الجهمية ، وقد برزت الى جانبهما بعض الأسماء مقترنة بتفاصيل هامة خاصة بالدعوة الى الاسلام وبالتمسك ببعض الأصول الاسلامية الخاصة بالجزية ، وبسيرة الولاة والخلفاء ، وباقرار العدالة المثالية ، وقد أشرنا الى هذه الأسماء تحت باب شعار المساواة .

والواقع أن أحداثا كثيرة تركت فى النفوس آثارا مريرة ، مثل حصار الكعبة وانتهاك حرمة المدينة المنورة يوم الحرة ، وسفك دماء أهل البيت . وسياسة الجبر والقهر والاستبداد واضطهاد المعارضة ، والابتعاد عن سيرة السلف الصالح ، وحب الترف واللهو وكثرة مظاهره ، وكثرة المذاهب وتصارعها ، وظهور أقوال كثيرة غير مألوفة من قبل ، والاعتماد على العصبية فى الحكم مع أن العصبية لم تمنع مثل الحارث بن سريج من أن يدافع عما يراه حقا .

ويبدو أن جهود هؤلاء الدعاة والأئمة قد تضافرت لنشر هذه الدعوة ، ومصداق ذلك دراسة ما رواه صاحب الأخبار الطوال (٢) عن الذين انضووا تحت لواء أبى مسلم وبايعوه . وقد جاءته الوفود من مدن خراسان كلها ، ومن القرى الصغرى ، ومن أهل الثغور من كرمان وكابل وخوارزم وجرجان والديلم وأهل ما وراء النهر وأهل طخارستان ، بل آمن العرب بهذه الدعوة ودخلت فيها قبائل عربية مثل خزاعة وطيىء وبكر وتغلب وتميم . وبالطبع انتشرت الدعوة فى العالم الاسلامى كله ولكنها تركزت فى ايران بعامه وفى خراسان بخاصة .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، ص ٤٦ — ٤٧ فى حديثه عن الجهمية .

(٢) الدينورى ، ص ٣٦٠ . .

انتشار الاسلام فى إيران

حاول الدعاة العباسيون اســتغلال التيار الاســلامى فى ايران وايجاد نوع من التحالف الوثيق بين الدعــوة العباسية وبين هــذه القوى الاسلامية فى ايران •

وهو موضــوع يتطلب المزيد من الاهتمام والعناية ، لأنه يفسر القوى الايرانية الصاعدة نحو القوة والتى أيدت الدعوة العباسية ، ليمضى النفوذ الايرانى صاعدا فى حركة مطردة نحو القوة السياسية والاحياء الثقافى •

ولا شك أن الثورة العباسية ثورة ايرانية انبعثت من خراسان ووجدت صدى ومنطلقا فى مدن ايران وريفها ، وخرج المــد الثورى منها الى كافة الجهات الاسلامية ، وأن العباسيين بعد نجاح ثورتهم كانوا من أحرص ما يكونون على ايران وعلى ولاء أهلها •

وأنهم كانوا يلجأون الى الخراسانية كلما احتاجوا الى سند من القوة ، فقد لجأ المــأمون مثلا الى الخراســانية فى نزاعه مع الأمين ، ولجــأ المعتصم الى الأتراك حين أحس بحاجة الدولة العباسية الى دم جديد ، وموضوع انتشار الاسلام فى ايران اذن موضوع مهم يفسر أحداث الثورة العباسية وأسباب نجاحها •

فلابد من أن نعرض لهذا التيار الاسلامى الدافق الذى استغله الدعاة ، ونلاحظ أن هنالك صلة قوية جدا بين الثورات الايرانية وبين انتشار الاســـلام ، ولم تكن الثورة العباسية بداية الثورات الايرانية انما كانت أكثرها تنظيمــا ونجاحا ، واستفادت الى حــد بعيد من الثورات السابقة •

على كل حال نستطيع أن نقــول ان من مظاهر هــذه الحــركة الاسلامية زيادة أعداد المسلمين وبداية اشتراكهم فى الحياة الاسلامية

العامة . ففى عصر الراشدين بدأ الايرانيون يدخلون الاسلام وخصوصا تصعد من هذه الطبقات وتنتشر بين الطبقات الأخرى وخصوصا الطبقة
تصعد من هذه الطبقات وتنتشر بين الطبقات الأخرى وخصوصا الطبقة
الأرستقراطية .

وما كاد العصر الأموى يبــدأ حتى كانت الحــركة الاسلامية فى ايران قد قطعت شوطا واضحا نحو الظهور ، ففى مدينة الكوفة قام الموالى المسلمون بأول ثورة اسلامية سنة ٤٣ هـ (١) فى عهد الوالى المغيرة بن شعبة ، واضطر معاوية بن أبى سفيان الى أن يواجه هــذه الحركة الاسلامية الآخذة فى الظهور ، فعمل على تهجير طبقــات من الموالى وحملهم على الاقامة فى بلاد الشام (٢) .

وفى نفس هذا العصر وضحت الحركة الاسلامية أيضا فى ناحية أخرى ، هى اشتراك طبقات من المسلمين فى الجيش الاسلامى وخصوصا فى عهــد زياد بن أبى سفيان الذى اتخــذ من الموالى جيشا ســماه « المحاربة » وعدته اثنا عشر ألفا (٣) .

ونعتقد أن الحركة الاسلامية مضت قدما بعد معاوية ، وأنهــا بدأت تزداد وضوحا فى عهد يزيد بن معاوية وبعد وفاة يزيد بقليل ، والدليل على هــذا مستمد من حوادث المجتمع الايرانى فى عهد يزيد وفى عهد خلفائه ، ذلك أن المسلمين من الايرانيين زادت أعدادهم زيادة واضحة ، فى الوقت الذى رأوا فيه الطبقات العربية تتضاعف امتيازاتها

---

(١) فلهوزن — الدولة العربية ، ص ٤٧٢ ، يقول فلهوزن :
« ان اسقاط الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقــوا على عجمتهم وعلى عدائهم للعــرب ، بل جاء من قبل من أسلم من أهــل خراسان وهم انما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين الى الاسلام . والاسلام هو الذى جمــع كلمتهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون حكومة بنى أمية مهتــدين بالمبــادىء التى يجب أن تقــوم عليها الدولة الثيوقراطيــة فى نظــر الاسلام » .

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٢٠ — ٢٢ .

بمضى الوقت فى جميع النواحى العسكرية والادارية والاجتماعية ، بل حتى فى الناحية الاقتصادية •

وقد بدأ الايرانيون فى هذا الوقت أيضا يصبحون قوة مرجحة ذات وزن كبير فى الحياة الاسلامية ، والدليل على هذا موقف الايرانيين المسلمين من ثورتين عارمتين حدثتا فى هذا العهد : هما ثورة الزبيريين ، ثم ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى • ولا تعنينا تفاصيل هذه الثورات ، انما الذى يعنينا هو مدى اشتراك عنصر الموالى فيها تعبيرا عن سخطهم والتماسا لحقهم الطبيعى فى المساواة • وقد اعتقد الايرانيون المسلمون أن الفرصة مواتية والصف العربى منقسم على نفسه ، فبدءوا يستغلون الثورة الأولى وهى ثورة الزبيريين •

ونكاد نلمح من مصادر العصر شعور الايرانيين الحقيقى ووزنهم الحقيقى فى ترجيح كفة الطرفين المتنازعين • فواضح أن الايرانيين المسلمين بعثوا الى عبد الله بن الزبير يطلبون الدخول فى دعوته ، وهم يعتقدون أن الدخول فى هذه الدعوة ربما يعطيهم بعض الحقوق التى لم يستطيعوا الحصول عليها فى ظل الحكم الأموى •

وكان عبد الله بن الزبير وأنصاره من قصر النظر بحيث لم يستطيعوا الاستفادة من هذه الثورة الجديدة النامية ، ثورة الايرانيين المسلمين ، التى بدأت تظهر على مسرح الحوادث فى ايران الى جانب القوة العربية صاحبة السلطان • ونعتقد أن فشل الزبيريين فى الاستفادة من هذه التطورات يرجع اليه ما أصابهم من اخفاق ومن استطاعة الأمويين القضاء على حركتهم •

غير أن هذه القوة الاسلامية النامية ظهرت بصورة واضحة فى ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى • فقد كانت هذه الثورة تهدف الى المطالبة بثأر الحسين الذى قتل على يد يزيد بن معاوية ، فكانت فى الحقيقة ثورة شيعية ، وبدأت تلقى تأييدا من عنصر الموالى ، وكان

هذا التأييد بداية التحالف المعروف بين الفرس وبين الشيعة ، هــذا التحالف الذى سوف يؤدى الى نجاح الثورة العباسية والى قيــام الخــلافة العباسية •

المهم أن المختار هذا استطاع أن يستفيد من هذه القوة النامية وأن يعتمد عليها ، وقــد اشترك فى ثورته نحو ٣٠ر٠٠٠ من الفرس المسلمين (١) ، ورغم أن هذه الثورة لم تحقق أغراض الايرانيين كاملة ، الا أنها كانت بمثابة التعبير الأول عن أهدافهم الثورية ، وعن رغباتهم المتزايدة فى التحــرر والحصــول على حقهم المشروع فى المساواة ، والمؤرخون يجدون شبها بين هذه الثورة الفارسية الأولى وبين ثورة أبى مسلم فيما بعد ، فكلتاهما تعبير عن وجهة النظر الفارسية •

ويبدو أن هــذه الحركة الاسلامية قطعت شوطا آخر فى طريق التقدم ، وظهرت ظهورا أوضح خصوصا فى عصر عبد الملك بن مروان ، وفى عصر الحجاج بن يوسف الثقفى ، وسنتخذ حوادث عصر عبد الملك وعصر الحجاج مقياسا لهذا التطور الاسلامى العظيم •

ونعتقد أيضا أن الأمويين فى هــذا العهد بدأوا يواجهون حركة اسلامية كبرى وتيارا اسلاميا دافقا • ودليلنا على هــذا مستمد من السياسة الأموية فى عهد عبد الملك وخصوصا السياسة الاقتصادية التى بدأ الحجاج بن يوسف الثقفى يطبقها فى ايران ، فمثلا تبين أن الحركة الاسلامية النامية تهدد الاقتصاد الأموى تهديدا خطيرا ، فبدأت الجزية يتناقص مقــدارها بالتدريج ، بل بدأت تختفى باعتبارها موردا من موارد بيت المــال ، ولعل هذه الحقيقة هى التى دفعت الأمويين ودفعت الحجاج بن يوسف الى ابقــاء الجزية على من أســلم ، لأن الحركة الاسلامية العظيمة كانت تبدد هذا المصدر تبديدا خطيرا (٢) •

(١) الطبرى ، ج٧ ، ص ١٥٩ •
(٢) الطبرى ، ج ٨ ، ص ٣٥ •

يضاف الى هــذا أيضا موقف الأمويين من ملكية الأرض ومن ضريبة الخراج ، لأن الحركة الاسلامية أيضا بدأت تهدد هــذا المورد كما هددت الموارد السابقة • لأن الدخول فى الاســـلام كان معناه أن الأرض الخراجيــة التى كان أهل الذمة يقومون بزراعتها ، سيملكها المسلمون ، وتتحول الى أرض عشرية ، ومعنى هذا أن الخراج سيقل أيضا مثلما قل مقــدار الجزية • وبدأت الدولة تتدارك أثر الحــركة الاسلامية فى هذا المورد بابقاء الخراج على ما كان عليه (١) ، بل بدأت هــذه الحركة أيضا تتخذ مظهرا آخر هــو أن المسلمين الجدد بدأوا يهاجرون من الريف الى المدينة ويقيمون فى المــدن الكبرى ، رغبة فى الحصول على العطاء ، أو استفادة من التطورات الاقتصادية الجديدة • ووجــدت الدولة الأموية نفسها مضطــرة الى مقاومة تيار الهجرة ، أو بمعنى آخر مقاومة هذه الحركة الاسلامية الكبيرة •

وكان موقف الشعب الايرانى المسلم من هــذه السياسة يدل فى وضوح على مدى زيادة التيار الاســـلامى ، اذ المعروف أن الرأى العام الاسلامى فى ايران لم يرض عن هذه السياسة ، وبدأ عدم رضائه عنها يتخذ شكل ثورات أو حركات سياسية أشد وضوحا من الحركات السابقة ، وأشــد قوة منهــا وأوضح نتيجة من الحركات السابقة ، وخصوصا الثورة المنسوبة الى عبد الرحمن بن الأشعث ، فكانت ثورة ابن الأشعث ثورة فارسية حقيقية تتناسب مع زيادة التيار الاسلامى (٢) •

والدليل على هذا أن الذين اشتركوا فى حوادث هذه الثورة بلغ عددهم نحو ٢٠٫٠٠٠ من المقــاتلين الايرانيين ، وانضم اليهم بعض الحريصين على مبادىء الاسلام من العرب وخصوصا فقهاء المسلمين (٣) ،

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٤١٦ •

(٢) عن ثورة ابن الأشعث : أنظر : اليعقوبى ، ج ٣ ، ص ٢٢ •

(٣) يذكر الدينورى أن ابن الأشعث انضم اليه الشيعة والخــوارج والقــراء والعباد والمسيحيون بل انضم اليهم الأساورة والزط •

أو طبقة حفاظ القرآن الكريم ، فهم الذين اشتركوا فى هــذه الثورة مع أهل البلاد على قــدم المساواة .

وكان من الطبيعى أن هــذه الحركة الاسلامية ستزداد وضوحا وشدة بعد عهــد الحجاج وعهد الوليد ، ولدينا أيضا أدلة مستمدة من حوادث العصر الأموى أو من سياسة العصر الأموى بعد عصر الوليد ابن عبد الملك ، فمثلا نلاحظ أن السياسة الأموية فى ايران بعد عصر الوليــد تتســم بظاهرتين : الظاهرة الأولى يمكن أن نسميها ظاهرة التراجع عن السياسة الســابقة . والثانية سياسة الاعتراف بالأمر الواقع والتمشى مع الحركة الاسلامية المطردة .

أما المظهر الأول وهو مظهر التراجع فقد وضح فى عهد سليمان ابن عبد الملك ، وبدأت الدولة الأموية تغير من سياســة الحجاج (١) ليس كرها فى الحجاج بقدر ما كان محاولة لاسترضاء طبقات المسلمين ، فمثــلا عزلت الدولة الولاة الذين عينهم الحجــاج ، وأطلقت آلاف الايرانيين من سجون البصرة والكوفة ، وأشركت الايرانيين المسلمين فى الجيش الاسلامى . وضوعف العطاء حتى بلغ نصيب الفرد كل شهر نحوا من ٢٥ درهما (٢) . كما بدأت فى نفس الوقت تعدل عن مقاومة الهجرة بالأساليب العنيفة التى ظهرت فى عصر الحجاج . كما بدأت من ناحية أخرى تخفف من وطأة الظاهرة الاقتصادية .

حتى اذا جاء عهد عمر بن عبد العزيز وضح المظهر الآخر « وهو سياسة المسالمــة » أو الترضية . وأهم ما يلاحظ أن هــده السياسة لم تكن من وحى أخلاق عمر وتقواه فحسب ، انما كانت مواجهة لتيار اســلامى كبير ، اما أن تترضــاه الدولة واما أن تسقط تحت وطأته ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٤ ، ص ٤٠ .

فامتازت سياسة عمر بن عبد العزيز (١) بأنها سياسة التوفيق بين التيار الاسلامى وبين المصالح الأموية الرئيسية ، والدليل على هذا سياسة عمر بن عبد العزيز الاقتصادية التى يمكن أن نسميها « سياسة أنصاف الحلول » ومظاهرها أن الجزية لا تفرض على المسلمين انما تضاعف على من بقى على دينه الأول ، والخراج يقل على المسلمين ، وتقوم الدولة بمضاعفة الخراج على أهل الذمة ، وأغرب من هذا أن عمر بن عبد العزيز يبيح الملكية للمسلمين ، وهو فى نفس الوقت يصدر قانونا بتحريم بيع الأرض للمسلمين . فاذن هى سياسة التوفيق بين التيار الاسلامى وبين المصالح الأموية ، وان كان عهد عمر يمتاز بالقيام بحركة تبشيرية كبرى لنشر الاسلام فى كافة الجهات وخصوصا فى منطقة آسيا الوسطى .

ومضت الحركة الاسلامية فى طريقها بعد عمر بن عبد العزيز (٢) وبدأت تتخذ صورة جديدة أو شكلا جديدا ، هو التحالف بين الحركة الاسلامية وبين الدعوة الهاشمية سواء للعلويين أو للعباسيين ، ومضى التطور حتى اكتملت الصورة سنة ١٣٢ هـ بنجاح الحركة الاسلامية ، ومعها نجاح الدعوة العباسية . وبداية ظهور الايرانيين المسلمين على مسرح الحوادث .

ونحن نريد بعد هذا وبعد أن عرفنا كيف انتهى التطور الى هذه الخاتمة ، أن نعرض للنتائج الهامة التى ترتبت على هذه الحقيقة التاريخية الكبرى .

---

(١) عن سياسة عمر بن عبد العزيز فى العراق وايران .
انظر الطبرى ، ج ٨ ، ص ١٣٢ ، وابن الحكيم ، سيرة عمر ابن عبد العزيز ، ص ٩٩ . وفلهوزن ، ص ٢٥٩ — ٣٠٢ . وابن الجوزى مناقب عمر بن عبد العزيز ، ص ٥٤ .

(٢) ذكر يحيى بن آدم ، ص ٤٤ « ان عمر بن عبد العزيز رفض تحويل الخراج على قوم دخلوا فى الاسلام الى مضر وانه فوق ذلك اعلن ان من بقى منهم على جدوله يدفع ما كان يدفعه من قبل وان من يهاجر الى المدن ترد ارضه الى اهل القرية » .

اذن كانت الحركة الاسلامية فى ايران أسرع منهـا فى أى قطر آخر ، فقد كانت سنة ١٣٢ هـ هى سنة هـذا التحول العظيم فى تاريخ ايران ، على حين تم هـذا التحول فى مصر فى سنة ٢٥٤ هـ مع ظهور الدولة الطولونية (١) ٠

وفى حديثنا عن أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الاسلام فى ايران وأتاحت له فرصا كثيرة للنجاح ، نعتقد أن أهم هذه العوامل هـو ما يمكن أن نسميه بالسياسة العامة للدولة الاسلامية فى ايران بعد الفتح ، هـذه السياسة التى وضعت أصولها زمن الفتح أو بعده بقليـل ٠

وهـذه السياسة تتألف من أركان كثيرة ، وأهم ما فيها مسألة معاملة أهل الذمة من جميع الوجوه ، لأن هذه المعاملة ستكون من أهم الأسباب التى تهيىء الذميين نفسيا لتقبل الدعوة الى الاسلام والاقبال على الحضـارة العربية ، والمعروف أن الدولة العربية كانت سياستها تنبع من المعاهدات وعقود الصلح التى عقدت مع المـدن المفتوحة ، فمثلا المعاهدة التى عقدت مع الحيرة ومع الرى ومع مدينة طبرستان واذربيجان وغيرها من المـدن الايرانية ، ونصوص هـذه المعاهدات موجودة فى كل من البلاذرى : « فتوح البلدان » (٢) ومحمد بن جرير الطبرى : « تاريخ الأمم والملوك » ٠

هـذه المعاهدات كلها تكاد تتجه اتجاها واحدا وتنبع من مصدر واحد ، وكلها تتضمن منح أهل الذمة من الايرانيين حرياتهم الدينية ذلك أن المجوس اعتبروا أهل ذمـة على قـدم المساواة مع الديانات الأخرى ، وفوق هذا منحوا أيضا الحريات المدنية ، وتكفل المسلمون بحماية هؤلاء الناس وتوفير أسباب الطمأنينة لهم ، وذلك فى مقـابل

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ١٢٣ — ١٢٨ ٠
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٩٩ ، ٣١٣ ٠

واحد هو دفع الجزية (١) ، وهذه الجزية كانت تتراوح كثرة وقلة بين الغنى والفقير ، وتعفى منها طبقات كبيرة من الناس •

وهذه العقود فوق هذا أعطت أهل الذمة حقوقا لم تكن متوفرة لهم من قبل • والى جانب ذلك كله تضمنت هـذه السياسة استخدام الايرانيين من غير المسلمين فىوظائف الدولة الادارية وخصوصا الوظائف المـالية ، لأن ايران كانت بها طبقة تسمى « طبقة الدهاقين » عرفت بمهارتها المـالية وبنبوغها فى أعمـال الخراج واطلاعها على الأسرار الادارية والسياسية (٢) هؤلاء الناس استخدموا فى عهـد الراشدين واشتد استخدامهم فى عهد الأمويين •

وفوق هذا أبقى العرب على التنظيمات الادارية ، فمثلا سجلات الضرائب ظلت فى ايران تكتب باللغة الفارسية نحوا من خمسين سنة ، وظلت فى منطقـة خراسان تكتب باللغة الفارسية بعد الفتح بنحـو ١٠٠ سنة • وفوق هـذا أيضا استخدم العرب نفس العملة الفارسية القديمة ، فبقى الدرهم الفارسى بنفس الصـورة القـديمة أساسا للمعاملات المـالية والاقتصادية (٣) •

هذه هى روح السياسة العربية واتجاهاتها • ومما تجب الاشارة اليه أن هذه السياسة طبقت نصا وروحا فى عصر الراشدين ، وجميـع الوثائق العربية المتعلقة بايران فى العصر الاسـلامى كلها تجمع على ذلك ، وهذا لم يكن غريبا ، فقـد كان عهد الراشدين هو عهد المثالية الاسلامية وعهد الدعوة الى الاسلام ، بل هناك من الشواهد ما يجعلنا نخالف اجماع المؤرخين من أن العصر الأموى كان خروجا على هـذه المبادىء ، فقد ثبت أن الأمويين حافظوا على روح هـذه السياسة . وظل التسامح الدينى مستمرا وقتـا طويلا ، وبقيت عقـود الصلح كما هى دون أن تتغير •

(١) البلاذرى : فتـوح البلدان ، ص ٢١٥ .
(٢) البلاذرى : فتـوح البلدان ، ص ٢٦٥ وفلهوزن ، ص ٤٦٩ .
(٣) . الكرملى : النقـود العربية ، ص ٩١ .

بل توسع الأمويون فى استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة ، وكل ما يؤخـذ عليهم هو أنهم نحوا نحوًا ماليا فى مضـاعفة بعض الضرائب لاعتبارات تطلبتها حياة العصر ومشاكله ، ويكفى أن يقال ان عهد عمر بن عبد العزيز كان عهـدا اسلاميا مثاليا ، وسنرى أنه سيكون له شأن فى تطور الحركة الاسلامية .

واذا كان الأمويون قـد حافظوا على هذه الروح فبالتالى حافظ عليها العباسيون ، فقد كان العصر العباسى هو عصر النفوذ الفارسى على نطـاق واسع ، وأصبح الفرس أو الايرانيون هم العامل الموجه للحياة الاسلامية كلهـا .

وقـد كان هذا التسامح الاسلامى ذا أثر كبير فى الاستعداد النفسى لأهل ايران ، لأن الاضطهاد دائمـا هو الذى يبيح للديانات البقاء ، وما من دين اضطهد الا وانتصر ، أما العـرب فانهم تركوا للاسلام الفرصة لأن يلتقى سلميا مع الديانات الأخرى ، وأتاح لهـذه الديانات ولغيرها الفرصة للمقابلة بين ما عند الاسلام وبين ما عندهم . ونحن نعتقد أيضـا أن أغلب الاستجابة للاسلام كانت عن اعتقاد ، والدليل على هذا أن طبقات المسلمين من أهل ايران هم الذين تولوا الدفاع عن الاسلام بعد أن تسلموا زمامه وقد دافعوا عنه كما دافع عنه العـرب .

وكذلك كان للاعفاء من الجزية الذى قررته التقاليد الاسلامية أثر عظيم ، لأن الجـزية فى ايران كان لهـا مفهوم غير الجزية فى البلاد الأخرى ، فكانت الجزية فى مصر البيزنطية يفرضها شعب غالب على شعب مغلوب ، أما الجزية فى ايران الساسانية فقد كانت نظاما يفرض على الساسانيين أنفسهم ، فكانت فرص الاعفـاء تجعل طبقات كثيرة من الفقراء تستجيب للحركة الاسلامية .

ونلاحظ مثلا فى عهـد عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف سخطا عظيما من المسلمين على محاولات الدولة الأموية ابقاء الجزية

على من أسلم ، وشارك فى هذا السخط العرب ورجال الدين ، وانتهى الأمر بأن أعفوا من الجزية فى عهد عمر بن عبد العزيز . على كل حال كان عامل الجزية هذا من العوامل التى كان لها أثر كبير فى تقرير موقف الفلاحين والعمال من الحكم الاسلامى ، ومن العقيدة الاسلامية .

ويمكننا أن نضيف الى هــذا كله موقف الدولة الاســلامية من موضوع الخراج وموضوع ملكية الأرض ، فقد كان موقف الدولة من هــذه الناحية يمثل فى نظر الايرانيين المعاصرين تطورا بعيد المدى ، لأنه تضمن القضـــاء على الاقطاعية الساسانية ، وتحرير الملايين من الناس الذين كانوا يعيشون عبيداً للأرض وليس لهم من الحقــوق الا العمل الشاق المتواصل .

فجاء موقف الاسلام أو موقف الحكومة الاسلامية من تقرير مبدأ الحيازة والملكية لكافة الفلاحين الذين كانوا محرومين منها ، تطورا بعيد المدى ، وصحب هذا التطور فرض ضريبة الخراج وهى بالقياس الى الضرائب القديمة كانت خفيفة العبء (١) فاذا كانت الحكومة الاسلامية تمنح أهل الذمة هذه الحقوق فبالأولى تتضاعف هذه الحقوق بالدخول فى الاسلام ، والايرانى اذا أسلم كان يستبدل بنظام الحيازة نظام التملك ، ويستطيع أن يملك الأرض ويتصرف فيهـا بالبيع أو الشراء أو بالهبة أو الوصية ، وذلك كله فى مقابل دفع ضريبة العشر فقط .

وقد كانت هذه السياسة بعيدة الأثر فى تطور الحركة الاسلامية ما فى ذلك شك . وقد حاولت الدولة أيضا فى عهد الحجاج بن يوسف وعهد عبد الملك أن توقف هــذا التطور ، ولكنها لم تستطع أن تغالب التيار الاسلامى الذى كان يشتد سنة بعد سنة .

والى جانب موضوع الخــراج وملكية الأرض ، هنالك موضوع فرض العطاء من بيت المـــال ، اذ أنه كان من المفروض أن الايرانيين

---

(١) انظر البلاذرى : أمر البطائح ، ص ٢٩٠ — ٢٩٢ .

اذا أسلموا من حقهم أن يشتركوا فى الجهـاد وقـد اشتركوا فيه ، فالجيش الأموى كان به فرق من المسلمين من أهل الذمة ؛ وهذه الفرق شاركت المسلمين العرب فى حركة الجهـاد واستطاعت أن تدافع عن الحدود الايرانية ، وأن تدافع عن حدود الاسلام ، وفرض لهم العطاء من بيت المـال ، فكان هذا العطاء فى عهد معاوية نحو ٢٥ درهما للفرد فى الشهر (١) الى جانب النفقات الأخرى ، وكان هذا العطاء يتضاعف بمضى الوقت ، وكان هـذا الجهاد وما يترتب عليه من عطاء من أهم العوامل التى كانت تساعد على نمو الحركة الاسلامية وكثرة الداخلين فى الاسـلام .

وفى ختام هـذه النتائج يجب ألا ننسى موضوع المحافظة على النظم الادارية والابقاء على الموظفين من أهل البلاد ، وهذه السياسة كان لها أثر عظيم جدا وخصوصا فى موقف طبقة البيروقراطية أو طبقة الموظفين ، هذه الطبقة تأثرت الى حد كبير بهذه السياسة الاسلامية ، واذا كانت قد استطاعت أن تحتفظ بوظائفها مع احتفاظها بدينها القديم فانها اعتقدت أن دخولها فى الاسلام سيضاعف من هـذه الحقوق ، وهذا ما حدث فعلا (٢) . ذلك أن اسلام أفراد هذه الطبقة كان يضاعف من حقوقها ويزيد من تمكنها من النواحى الادارية ، ويرى المستشرقون أن هؤلاء الناس لم يكونوا يدخلون فى الاسلام فحسب ، انما بدأوا للمحافظة على أوضاعهم ولزيادة حقوقهم يتخذون أسماء وألقاباً عربية .

والبلاذرى على وجـه الخصـوص يضرب أمثلة للأسماء التى اتخذوها مثل (أبو مسلم وأبو عون وغيرها من الألقاب الاسلامية) ، وقـد ظنوا أن استعرابهم على هـذا النحو ربما يزيد من اتصالهم بالحكومة العربية (٣) ، ويزيد بالتالى من امتيازاتهم ، بل نستطيع أن نؤكد أن هذه السياسة تسللت الى نفوس الطبقة العليا من المجتمع ،

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفـريد ، ج ٤ ، ص ٤٠ .
(٢) البلاذرى : نقـل ديوان الفارسية ، ص ٢٩٨ .
(٣) Browne, Literary History of Persia, pp, 127—135.

طبقة الأرستقراطية ، ولدينا من الشواهد والأدلة ما يثبت أن الكثيرين من الأستقراطية الفارسية دخلوا فى الاسلام ، واتخذوا أيضا أسماء عربية تمهيدا لاشتراكهم فى الحياة الاسلامية ٠

ولا ننسى الفــرق الواضــح بين تشريعين : التشريع الايرانى الرسمى الذى يتمثل فى الزرداشتية ، فهى لم تكن دينا فحسب ، انما كانت تنظيما للحياة الاجتماعية والاقتصادية ٠ ثم التشريع الاسلامى وهــو بدوره لم يكن تشريعا دينيا فحسب ، انما كان تشريعا اجتماعيا واقتصاديا ٠ ويكفى أن نبين ببساطة الفــرق الواضــح بين اتجاهى التشريعين ، وأثر هــذا الفرق فى نفســية الشعب الايرانى ، وأهم ما نلاحظه أن التشريع الايرانى كان تشريعا طبقيــا بمعنى أنه يعطى نظام الطبقات طابع القداسة ٠ ويفرض على غالبية الناس أن تعيش عيشة اجتماعية فى حدود مرسومة لا يمكن أن تتخطاها ، فقد كان من المستحيل أن يتم الانتقال الطبقى من فئة لأخرى (١) ٠

والاسلام نزعة نحو المساواة والقضاء على الطبقية ٠ وهى نزعة كانت أشــد وضوحا على الأقل فى زمن الفتح وفى زمن الراشدين ، واتجاه الشريعة الاسلامية الى هذه التسوية بين الطبقات كان له أثر نفسى بعيد المدى فى الطبقة الثالثة ، طبقة العمــال المدنيين وطبقــة الفلاحين ، فهى أسرع الطبقات دخولا فى الاسلام واستجابة له ٠

وهنالك فرق واضح أيضا بين التشريعين فى موقف كل منهما من نظام الأسرة ، باعتباره نواة للتشكيل الاجتماعى ، فالمعروف أن التشريع الايرانى القديم كان ينزل المرأة الى مستوى العبيد ، ويكاد يحرمها من حقوقها المدنية وحقوقها الاجتماعية ٠

وكان هذا التشريع يجيز نسب المولود لغير أبيه ، ويجيز أشياء أخرى لا تعمل على تقوية روابط الأسرة انمــا تساعد على انحلالها

(١) Levy, The Sociel Stauсture of Islam p. 00

ونفقتها . أما التشريع الاسلامى فهو يعطى الأسرة مكانا واضحا فى الحياة الاجتماعية ويعطى المرأة حقها الكامل فى النواحى المدنية والاجتماعية . ولا يعترف بالأبوة الا على أساس الدم وأساس النسب.

وهناك فرق آخر فى التنظيم الاقتصادى فى التشريعين الايرانى والاسلامى . هذا الفرق هو أن التشريع الايرانى فى الناحية الاقتصادية يقوم على نظرية الإحتكار . واعطاء كل الحقوق الاقتصادية لطبقات معينة من المجتمع . ثم حرمان غالبية الناس من حقها الطبيعى فى الحياه الاقتصادية . هذا فى الوقت الذى تتجه فيه الشريعه الاسلاميه اتجاها اشتراكيا واضحا . قوامه التكافل الاجتماعى والاقتصادى ، والمساواة بين كافة الطبقات على قدم المساواة .

أما أهم هذه العوامل وآخرها فهو الهجرات العربية الى ايران واستقرار العرب فى هذا الوطن واقامتهم فيه .

والمؤرخون الذين عرضوا لموضـــوع انتشار الاسلام فى ايران ، يعتقدون أن عامل الهجرة العربية كان من أهم العوامل وأقواها (١) . وهذا العامل يرجع اليه الفضل فى نشر الاسلام ليس فى ايران فحسب ، انما فى جميع البلاد الاسلامية . ذلك أنه من المعروف أن الفتح العربى لايران ولغيرها من البلاد لم يكن فتحا عسكريا فحسب . انمـــا كان فتحا بشريا . بمعنى أنه كان يمثل هجرة بشرية كبرى ، ويدل على هذا نظرة فاحصـــة الى الجيش العـــربى الذى قام بفتح ايران فى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كان هذا الجيش يتألف من جميع القبائل العربية المشتركة فى الجهاد على قدم المساواة . وأهم من هذا أن المقاتلة العرب كانوا يصـــحبون معهم أسرائهم وذويهم ، وكان الفتح عادة يعقبـــه استقرار للعنصر العربى فى البلاد المفتوحة .

وقـــد استمرت الهجرة العربية بعد عمر بن الخطاب . ووضحت

---

(١) البلاذرى : ٢٧٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٥٠ .

فى عهد عثمان ، ويكفى أن نذكر أن الثورة الكبرى التى أطاحت بعثمان جاءت من طبقة المقاتلة أو طبقـــة المهاجرين التى زادت زيادة كبرى فى عهد عثمان ، ولم يتوقف تيار الهجرة بعد عثمان ، انما استمر طوال العصر الأموى ، ففى عهد معاوية مثلا حدثت هجرة الأزد الكبرى ، فقــد هاجر الأزد واستقروا بمنطقة خراسان ، وأصبحوا عاملا هاما فى تشكيل الحياة السياسية والاجتماعية فى هـــذه المنطقـــة • ويرى الدارسون أن منطقة خراسان وحدها تجمع فيها من العرب نحوا من ٢٠٠ر٠٠٠ أسرة عربية • واتجه الأمويون اتجاها واضحا الى سياسة توطين العنصر العربى ، واسكان هذا العنصر فى مختلف أنحاء ايران ، وكانت سياسة مرسومة وضحت الى أبعد الحدود وخصوصا فى عصر الحجاج بن يوسف وعصر عبد الملك بن مروان ، وما كاد القرن الأول للهجـــرة ينتهى حتى انتشر العنصر العربى فى ايران كلها من أقصى الشرق الى أقصى المغرب [1] •

على أن المهم فى موضوعنا هذا ليس هو انتشار العنصر العربى على هذه الصورة من الاتساع ، انما المهم هو التقارب التدريجى بين العنصرين : بين العنصر العربى والعنصر الايرانى ، ولا نستطيع أن ننكر أن العـــرب فى عصر الراشدين كانوا طبقـــة استقراطية تتفرغ للحرب والجهاد ، انما بدأت الخطوات نحو الاقتراب بين العنصر العربى والعنصر الايرانى طوال العصر الأموى •

ونستطيع أن نحدد ملامح هذا الاقتراب ووسائله والنتائج التى انتهت اليه • فقد تم هذا الاقتراب فى المدينة والريف على حد سواء ، ففى المدن القديمـــة ، مثلا الرى وأصفهان ، كان العـــرب الوافدون ينزلون فى المواقع الاستراتيجية فى هـــذه المدن ، ويتعاونون مع أهل البلاد ويختلطون بهم بمضى الزمن : أما فى المدن الجديدة التى أنشأها العرب فى العراق وايران مثل البصرة والكوفة ، فبرغم أن سكانها كلهم

---

(١) البلاذرى : خراسان ، ص ٣٩٩ — ٤٠٩ .
انظر ايضا فلهوزن : الدولة العربية ، ص ٣٨٠ — ٤٦٧ .

كانوا من العرب الا أنها شهدت ظهور احياء جديدة هاجر اليها المسلمون من الفرس ، يعملون فى خدمة الطبقة العربية خصوصا فى الأعمال اليدوية والمشروعات الصناعية (١) .

وكانت طبقة المهاجرين الى المدن الجديدة يزيد عددها باستمرار ، وكان موضوع الهجرة هذا من أهم المشاكل الاجتماعية التى عمل الأمويون على حلها ، والى جانب هذه المدن الجديدة والقديمة ، تم الاختلاط بين العرب وبين الايرانيين فى الاقطاعات الكبرى المنتشرة فى المناطق الريفية ، وكانت وسيلة هذا الاختلاط بين طبقة العرب من ناحية وأهل البلاد الأصليين من ناحية أخرى ، هى الزواج وخصوصا ظاهرة الزواج بالكتابيات ، وترتب على هذا الزواج نشأة طبقة جديدة من المولدين آباؤهم عرب وأمهاتهم من غير العرب ، وكانت طبقة المولدين هذه يزداد عددها باستمرار وستصبح عماد الحركة الاسلامية فى ايران ، بل هى عماد التطور الاسلامى فى الوطن الايرانى كله .

وما لبثت الطبقة العربية الوافدة أن قلدت مظاهر الحياة الاجتماعية ، وبدأوا يستخدمون نفس الأساليب فى الحياة ، وفى الملبس ، وفى طريقة المعيشة ، وفى الاحتفال بنفس الأعياد الفارسية القديمة ، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول ان الهجرة العربية هى التى ساعدت على التقرب الطبيعى بين العرب والفرس ، بل هى التى ساعدت على تطور الحركة الاسلامية واشتدادها .

مساوىء الحكم الأموى

أما الأمر الثالث الذى أفاد منه الدعاة العباسيون أتم فائدة ، فهو تجمع طاقات عظيمة من السخط فى نفوس الايرانيين على الحكم الأموى ومساوئه ، وقدر لهذه الطاقات أن تبلغ أقصاها فى الفترة الأخيرة من العصر الأموى ، أى منذ عام ١٠٠ هـ حتى قيام الثورة

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : تمصير الكوفة ، ص ٢٧٤ .

العباسية ، ومن الغـريب أن تنشط الدعوة العباسية المنظمة منـذ عام ١٠٠ هـ على وجه التحديد ، فى الوقت الذى وضحت فيه سياسة التراجع الأموى أمام التيار الاسلامى الصاعد .

استطاع الدعاة العباسيون فعـلا أن يفيـدوا من التطـورات الاقتصادية فى ايران ، حتى أن الثورة العباسية يمكننا أن نبحث لهـا عن أسباب اقتصـادية أو تبرير اقتصادى ، ويخيل الينا أن المظاهر الاقتصادية لم تكن أقل أهميـة من المظـاهر السياسية ، ان لم تكن تفوقها أثرا ، ونعتقد أن الظواهر الاقتصادية هى التى أدت الى القضاء على الملك الأموى ومكنت الثورة العباسية من أن تنجح ، وهذه الأسباب تتمثل فى :

— سياسة اقتصادية معينة سار عليها الأمويون حققت لهم بعض المكاسب الوقتية ، ولكنها أدت فى النهـاية الى اضطرابات اقتصادية كانت سببا فى نهاية عهدهم وزوال ملكهم .

— تطورات اقتصادية بين طبقات الموالى من غير العرب فى جميع البلاد الاسلامية ، وخاصة منطقة ايران قلب الثورة العباسية ، والتى مكنت العباسيين من أن يحققوا أغراضهم السياسية ، ومكنتهم من نقل الخلافة اليهم .

وقد حدثت تطورات اقتصادية داخل طبقة الموالى أنفسهم ، ذلك أن الموالى كانوا مضطرين الى الهجـرة جمـاعات من الريف لأسباب اقتصادية أو غير اقتصادية.وكانت هذه الهجرة مشكلة المشاكل وخاصة فى بلاد العراق وفى منطقة ايران ، وكان هؤلاء المهاجرون يذهبون الى المدن الكبرى ، وينشئون أحياء جديدة حولها ، لخدمة الأرستقراطية العربية فى النواحى الفنية والصناعية (١) .

---

(١) البـلاذرى : فتـوح البـلدان ، ص ٣٧٩ .

وقد اكتسب هؤلاء المهاجرون أرباحا ضخمة عن هذا الطريق ، لأن العرب دائمـا كانوا يأنفون من الحرف والصناعات ، ولكن الذى حدث أن هذه الهجرات منذ النصف الثانى من العصر الأموى اشتدت وظهرت فى هذه المدن طبقات من الموالى اكتسبت الأموال قبل اشتداد الهجرة وتزاحمها ، وأصبحت المدن العراقية والايرانية بهـا طبقات كبيرة من العاطلين الساخطين على أوضاعهم ، وكان هؤلاء الساخطون وقودا هشـا للتطورات الثورية ، وخصوصا لحركة الشيعة وحركة العباسيين .

التطـورات الاجتماعية :

ويمكننا أن نضيف الى المظـاهر الاقتصـادية مظهرا اجتماعيا أو تطورا اجتماعيا معينا ، وهذا التطور سنراه واضحا فى جميع البلدان الاسلامية ، لكنه سيكون أشـد وضوحا فى مركز الثورة العباسية ، ونقصد منطقة العراق وايران ، فقد كان الموالى يمرون بتطور اجتماعى معين ، ذلك أن الفتح العـربى للعراق وايران والحكم العربى لهـذه البلاد ، قضى على النظام الطبقى القديم ، وكانت نتيجة هـذا تحرير ملايين من البشر من طبقات العمال والصناع والفلاحين ، وهم أفراد الطبقة التى كانت تسمى طبقة العمال المدنيين .

وكانت هـذه الطبقـة قبل الفتح العـربى تعيش فى الأغلال الاجتماعية والاقتصادية ، فكان تحررها ثم اعتناقها الاسلام مقدمة لظهور طبقة وسطى من بينهم تسكن المدن ، وتحرز الثروات ، وتجمع الى جانب الثروة الخبرة وتضم لجيلهـا عنصر الثقافة ، ولذلك كان الموالى أسرع من العرب تقبلا للحضارة وللتطورات الثقافية ، وسرعان ما ظهروا فى ميدان الفقه والأدب ، وبدأوا ينتجون فى مختلف العلوم الاسلامية ، واذا بهم بعد حصولهم على هذه الامتيازات الاقتصادية والثقافية يشعرون أنهم ليسوا أقل من العرب . وأنهم أحق بالحصول

على المساواة والحرية • هـذه الطبقـة الجديدة كانت عمود الثورة العباسية ، وهى التى ستوجه الحياة العباسية كلها وتلعب الدور الأول فى التاريخ العباسى (١) •

كما أنه بعد فتح العراق وايران أخذت الهجرات العربية تتجه الى هذه البلاد ، وسكن العرب المدن الجديدة وبعضهم نزل فى الريف ، وتبين لنا المراجع أن المهاجرين العرب انتشروا فى ايران كلها ووصلوا الى حدودها الشرقية • وهـذه الهجرات العربية لم تكن قاصرة على عصر الراشدين انما استمرت طول العصر الأموى • والعرب فى ايران والعراق خضعوا لتطورين عظيمين ، كان لهما أثرهما العظيم فى مستقبل العرب كجنس ومستقبلهم كأمة (٢) •

تركوا البـداوة الى الاستقرار ، واشتغلوا بالزراعة . وتأثروا بالتقاليد الاجتماعية فى البلاد التى هاجروا اليها • كانوا يرتدون نفس الأزياء ويأكلون نفس الأطعمة ويعيشون نفس الحياة (٣) ، وأهم من هذا أنهم بدأوا يتزوجون من أهل البلاد ؛ وبعد جيل أو جيلين انتشر عنصر المولدين ، وبدأت الدماء العربية النقيـة تذوب فى الشـعوب المغلوبة ، كمـا أن العرب كجنس بدأوا يفقدون مقومات وجودهم ، ووضحت هذه الظاهرة فى العصر الأموى الأخير •

وفى أماكنهم أو أوطـانهم الجـديدة ، حملوا معهم نفس بذور الانقسـام التى كانت موجودة فى الجزيرة العربيـة ، نفس النزاع التقليدى بين الجنوبيين والشماليين أى بين القحطانية والعدنانية ، فقد انتقل هذا النزاع الى كل بلد دخله العرب ، فنجده واضحا فى منطقة خراسان مركز الثورة العباسية ، فلا نعجب اذا وجدنا العرب وقـد ضعفوا كجنس ، انقسموا وحاربوا بعضهم بعضا ، واستطاع الموالى

---

(١) انظر الفصل الممتع عن الموالى فى :
Levy : The Social Struciure of Islam pp. 64.
(٢) فلهـوزن : الدولة العربية ، ص ٤٧٣ .
(٣) نفس المصـدر ، ص ٤٦٨ .

عندما نهضوا أن يجدوا عنصرا عربيا ضعيفا ، ولعل هذا الضعف هو الذى مهد لنجاح الثورة العباسية ، حتى ليرى المؤرخـــون أن الثورة العباسية كانت أسبابها الاقتصادية والاجتماعبة أوضح من أسبابهــا السياسية والعقيدية .

أحداث الثورة العباسية (١٢٩ — ١٣٢ هـ)

هذه السنوات الأربع فترة قصيرة زمنا عميقة تطورا وأحداثا ، بل هى من أهم السنوات فى تاريخ العباسيين ، فقد زاولت فيها تنظيمات الدعوة العباسية نشاطها ، وخرجت من الستر الى العلانية ، ووضحت فعاليتها وحان أوان الحكم لها أو عليها ، وبدأت شعارات الدعاة التى أشرنا اليها تمتحن صلابتها وأهميتها وقوتهــا ، بل وضحت فى هــذه السنوات القليلة جذور التطور التى شكلت الحياة العباسية كلها ، وقد تجلت فيهــا مظاهر الضعف الأموى فى أجلى مظاهرها : فى ســيرة نصر بن سيار ، وابن هبيرة ، ومروان بن محمد ، وكانت حافلة بالنضال العنيف والاشتباكات الدموية العنيفة ، وشهدت عملية تصفية للامويين ونفوذهم لم ير لها مثيل من قبل . فى هذه الفترة ظهرت القوى الجديدة من خلال غبار الحروب فى مرو ونيسابور والزاب ، هذه القوى التى ستطفو على سطح الحياة الاسلامية كلها ، وفيها تجلى ضعف العنصر العربى وانقسامه وتخاذله ليفقد نفوذه كله فيما بعد ، وفيها تحولت الامامة الى خلافة ، وظهر زيف شعار الدعوة للرضــا من آل محمد ليحل محله الرضا من آل عباس .

أبو مسلم يتزعم الدعوة العباسية فى الشرق

كانت سنة ١٢٧ هـ سنة حرجة فى تاريخ الدعــوة العباسية فى الشرق ، فقد تكون للشيعة بخراسان تنظيم استقل عنهم (١) وتفاقم خطره برئاسة خداش . وكانت رئاسة الدعــوة المحلية التى تكونت

---

(١) انظر : المسعودى « مروج الذهب » ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

فى مرو طيلة السنوات السابقة لا تريد أن تخضع لرئاسة الكوفة أو تأتمر بأمرها ، وان كان هذا لم ينتقص من ولائها لامام الوقت محمد بن على . وقد خشى العباسيون أن يفلت من ايديهم زمام أهل خراسان أو أن تكتسحهم دعوة الشيعة العلوية . وقد حاول محمد بن على أن يعيد طاعة جماعة خراسان لرئاسة الدعوة فى الكوفة ، واستطاع بنفوذه الشخصى أن يستميل زعيمهم سليمان بن كثير اليه ، واستطاع سليمان بن كثير أن يوجد التلاحم المنشود بين الجماعة الخراسانية وبين الرئاسة فى الكوفة ، فلما دخل وزير الكوفة الى مرو سنة ١٢٦ و ١٢٧ هـ رحب به أهل خراسان وساموه ما اجتمع عندهم من نفقات وخمس أموال ، وكانت هذه الأموال قبل ذلك تحمل الى الامام نفسه عندما كانوا يلقونه فى مكة المكرمة .

ثم استطاع ابراهيم بن محمد بن على أن يتخذ الخطوة الحاسمة للسيطرة على الموقف فى خراسان سيطرة تامة ، فوضع اللبنة الأولى فى صرح الدولة العباسية ، وذلك عن طريق أبى مسلم الخراسانى (١) . وقد سبق أن ذكرنا أنه لم يكن عربيا بل كان أعجميا وكان مملوكا أو مولى فى الكوفة . وقد استرعى انتباه شيعة بنى العباس ، فأرسلوه الى ابراهيم الامام ، فضمه الى أسرته وعلمه لنفسه وجعله من خاصته.

ويبدو أن أمور الدعوة فى المشرق قد استقامت لبنى العباس سنة ١٢٨ هـ وحلت المشاكل التى واجهها محمد بن على من قبل فى سنة ١٢٦ هـ ، بعد أن أصبح أبو مسلم داعى العباسيين فى خراسان وأصبح رئيسا للدعوة . وكان قد أصبح معروفا فى خراسان بعد زياراته المتكررة لها رسولا للأئمة ، ووجدت فيه الجماعة الخراسانية ، الخراسانى الحق الذى يرضى طموحها ويحقق أحلامها ، وقد كان اختياره موفقا ، فان مولى يرأس الدعوة فى خراسان أليق وأجدر بالثقة فى خراسان من عربى حر . ولم يقصد أن يتنحى سليمان بن كثير، فقد أوصاه ابراهيم الامام بألا يخالفه أو يعصيه وأن يرجع اليه .

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٢ .

واستطاع أبو مسلم بمــا أوتى من كفايات أن يكون الداعية العباسى المتحكم فى الشرق كله .

عمليات ابى مسلم فى خراسان وطخارستان وما وراء النهر :

ويمكننا اعتمــادا على ما رواه الطبرى وأبو الخطاب أن نتتبع الخطوات التى خطاها أبو مسلم ، منــذ زعامته للحركة العباسية فى خراسان حتى انتهى به الأمر الى النجاح .

فقــد عاد أبو مسلم الى مرو منصرفا من قومس يوم الثلاثاء ٩ شعبان سنة ١٢٩ هـ فنزل أول الأمر قرية تدعى قنين ، والثانى من رمضان خرج الى قرية سفيذنج ، وجعل يوم ٢٥ رمضان موعدا للجهر بالثورة ، وأخبر بذلك أتباعه فى مرو الروذ وطخارستان وخوارزم . وتم فى هــذا اليوم رفع أعلام العباسيين ، وأوقدت النيران للأنصار من سكان القرى المجاورة ، فاجتمعوا فى قرية سفادم فى ٢٧ رمضان ، حتى بلغ عددهم ألفين ومائتين من الرجالة وستة وخمسين من الفرسان.

وفى يوم عيد الفطر سنة ١٢٩ هـ أقيمت فى سفيذنج (١) أول صلاة لأنصار بنى العباس ، فلم يكن هنالك بد من الصدام الحتمى بين جند الثورة وبين قوات نصر بن سيار عامل بنى أمية ، فقد أرسل نصر حملة يقودها مولى له يسمى زيد . ولكن رجال أبى مسلم هزموا خيل نصر عند قرية آلين . وفى أول ذى القعدة كان خازم بن خزيمة التميمى قــد استولى على مدينة مرو الروذ (٢) . وكان أبو مسلم قــد مكث فى سفيذنج أربعين يوما . وفى يوم الأربعاء ٩ ذى القعدة نقل عسكره الى المــاخوان ، ومنها بعث حمــلة الى جيرنج لينفضــوا على نفوذ نصر بن ســيار فى مرو الروذ وكور بلخ وطخارستان ، ثم انتقل الى آلين واحتفل فيهــا بعيد الأضحى . ولم تستطع خيل نصر بن سيار أن تنال من رجال أبى مسلم المعسكرين فى آلين .

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٨٣ .
(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٨٦ .

ثم جاءت الظروف مواتية لأبى مسلم ولثورته الناشئة ، فقد رفض الحلف الذى جمعه نصر بن سيار لوأد الثورة فى مهدها ، فقد وقع الانقسام بين القبائل العربية (١) هناك • ولعل هذا التطور هو الذى دعا أبا مسلم الى أن يعود الى الماخوان مرة أخرى ، وأن يأمر أصحابه بابتناء المساكن والاستعداد للشتاء (٢) • وقد أقام أبو مسلم فى الماخوان ثلاثة أشهر ثم دخل مرو يوم الخميس ٩ جمادى الأولى• وقد هاجم مرو من ناحيتين ، فقد قام على بن جديع أحد رجال أبى مسلم بالهجوم من جهة ، كما قام قائد آخر بالهجوم من جهة أخرى ، فانتصر لدعوة بنى العباس ، ودخل أبو مسلم المدينة ومر نصر بن سيار لا يلوى على شىء •

وبعد أن أدرك أبو مسلم ذلك النجاح ، وجه أبا داود خالد بن ابراهيم البكرى أحد أنصاره المخلصين الى طخارستان • ومن الغريب أن كلمة العرب جميعهم فى تلك الناحية مضريهم ويمانيهم وربعيهم قد اجتمعت على مقاومة أبى مسلم وشيعة بنى العباس وانضم اليهم الأعاجم هناك ، ثم وقعت بينهم معركة على نهر السرجنان ، فترك العرب المتحالفون مدينة بلخ وتراجعوا الى مدينة ترمذ •

وصارت فى يد أبى مسلم فى أرض خراسان الحقيقية الولايات الشرقية الثلاث ، وهى مرو ، ومرو الروذ ، وهراة • أما فى القسم الغربى وأعنى ولاية نيسابور فلم يكن فى يده سوى مدينتى نسا وأبيورد • وقد كان نصر بن سيار ، العامل الأموى ما زال يقيم فى مدينة نيسابور ، على حين كانت سرخس يسيطر عليها شيبان بن سلمة الحرورى • وقد بدأ أبو مسلم يتصدى لقتال شيبان الذى اجتمعت له قبائل بكر ، فهزمه أبو مسلم وفر جنده الى نيسابور وانضموا الى نصر بن سيار ، ثم بدأ أبو مسلم يلتحم بقوات نصر • وهذا تطور كثير لا يخلو من تأمل وتدبر ، وهو ان دل على شىء فانما يدل على

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٣٧ — ٤١ •
(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٩٠ •

قدرات أبى مسلم وتعاظم قواته ، وتفشى دعوة بنى العباس ، وتناحر العرب فيما بينهم وافتقارهم الى اتحاد الرأى واجتمـاع الكلمة • وتداعى النفوذ الأموى فى تلك النواحى ، وكان ذلك بداية الاشتباكات الكبرى التى زلزلت قواعد النفـوذ الأموى • ولم يتول أبو مسـلم القيادة بنفسه فى هذا الاشتباك المصيرى بل ولاها قحطبة بن شبيب الطـائى •

والذى نخرج به من دراسة نصوص الطبرى ــ التى عرضنا لها فيما سبق عرضا موجزا مركزا أقرب الى الجولية منه الى شىء آخر ــ تلك القدرات العظيمة التى تجمعت لهذا المولى أبى مسلم الخراسانى والتى جعلته من أعظم الدعاة العباسيين قاطبة ، قـدرة واخلاصـا ، ومكنته من أن يرسى دعائم الدولة ويحقق آمال الدعاة منـذ انتقلت الزعامة الى بنى العباس • والذى نريد أن نعرفه وأن نؤكده هو كيف استطاعت الأحداث أن تبرز هـذه الشخصية الفريدة ، حتى أصبح أبو مسلم صـورة من زعامة القـوة النامية ، قوة الموالى الذين ظهروا على سطح الحياة الاسلامية وآلت اليهم مقاليد الأمور ، يتصرفون فيها كيف يشاءون ، فقـد كان أبو مسـلم مقـدمة للبرامكة والطاهريين والبويهيين • ولقـد وضع أبو مسلم أساس الدولة الخراسانية التى خشى المنصور أن تتحقق فى حياته ، فتحققت فى عهد المـأمون باستقلال الطاهريين • وكان جند أبى مسلم مقـدمة لعنصر الموالى الصاعد الى القوة والمجـد •

وفى استطاعتنا أن نستعرض قـدرات ذلك الزعيم الداهية وأن نكشف عن السياسة التى اتبعها فى طريقه الى النصر ، وكيف تجمعت له القدرات العسكرية الفائقة ، والقدرات السياسية الكبيرة ، وكيف كان عليما بنفسية الشعوب التى يخاطب ، والأرض التى عليها يحارب ، والعدو الذى يلقى •

ويمكننا أن نعزو تألق نجم أبى مسـلم وظهوره بخاصـة الى الأمور الآتية :

المعرفة بأسلوب الحـرب الذى يلائم أرض خراسـان واقليم ما وراء النهر ، وقدرته الخارقة على التنظيم التى جعلت منه الادارى الناجح ، الذى يجمع الأنصـار ولا يفرقهم بسوء التدبير وبسياسة لا أدرى أطبيعية متأصلة فى نفسه أم كانت أسلوبا من أساليب دهائه منقطع النظير • وهى المن على الأعداء المقهورين واطـلاق سراحهم وموادعتهم ، والبراعة فى اخفـاء الأهداف الحقيقية للدعوة العباسية حتى لا تفترق كلمـة شيعته أو كلمة الأحزاب الداعية الى الاصلاح ، ثم فهمه لطبيعة القبائل العربية المقيمة فى خراسان ومعرفته بنزواتهم واحنهم وكيف وادعهم وأفاد من انقسـامهم ، ثم كيف بطش وغـدر بمن قاومه منهم •

فيمـا يتعلق بالناحية الأولى وهى أسلوبه فى الحرب ، اختياره الشتاء دائمـا موعدا لعملياته العسكرية الناجحة ، ففيه تشل قوات العرب الذين لم يألفوا بعد هذه الأحوال القارسة البرد فى هذه البلاد . وفيـه ينشط الخراسانيون والأتراك الذين نشأوا فى هـذه المناطق وخبروها وألفوا جوها ، لذلك حدد أبو مسلم لأصحابه موعدا يخرجون فيـه فى قلب الشتاء الموافق ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ هـ ، وقـد اختار أبو مسلم فصـل الشتاء لأنه الفصل الذى جرت عادة الجنـد فيه بالانصراف الى الراحة فيه من جانب العدو ، وعدم قدرة هذا العدو على جمع الجيش فى الشتاء ، على حين كان جند أبى مسلم من أهل الخشونة الذين لم تقيدهم بعد عاذات خاصة ، وقد استغل أبو مسلم الى أقصى حـد قوة جنده على الحـرب شتاء وعجز جنود الخلافة فى خراسان عن الحرب فى الشتاء ، ولهذا نجده عندما يريد أن يوجه ضربة حاسـمة يختار لها قلب الشـتاء ، وبهـذا الأسلوب كسب كل خراسـان •

ولمـا تجمعت عليه الجيوش عقب ذلك كما رأينا ، اختار الشتاء التالى لوقفة عند أصبهان ، وقضى على نصف القوات المعادية ، كمـا نجح فى دخـول مرو شتاء • وانتصار أصبهان شتاء أكسب القوات

الثورية تنظيما وقوة وشجاعة . كما نلمس أيضا تقديره السليم لقواته ووجوه الانتفاع بهـا الى أقصى حد ، والقـدرة على اختيار الوقت المناسب للسكوت والحركة . وكذلك اختار مكان الاحتشاد بعيدا عن المدن ذات الأجناد ، وعن عاصمة خراسان . فلما تم اجتماع الأنصار رسم لهم فى مكان اجتماعهم سورا ليجعل من معسكره مدينـة قادرة على الدفاع عن نفسها ، وظل يفعـل ذلك نحو سنة كاملة حتى دخل مدينة مرو ، فاكتفى بها وبكثرة جنده وأنصاره .

والناحية الأخرى التى تتكشف لنا من تحليل الأعمـال المنسوبة الى أبى مسلم ، هى قـدرته الخارقة على التنظيم الذى جعـل من جماعته ، وهم الفئة القليلة ، **القوة الضاربة فى حزم واحكام** . ويروى الطبرى أنه كان يعين العمال ويحصن الأمكنة ويأنف من اتخاذ مظهر الأمراء ، كما اتخذ لنفسه ديوانا للجيش ، لكى يطمئن على رزقهم ، فأمر أن يقيد فى السجل كل جندى بحسب اسم أبيه واسم قريته ، وكان الرزق الذى يعطيه لكل منهم يتراوح بين ثلاثة وأربعـة دراهم فى الشـهر (١) . ويبـدو أنه دبر الناحيـة المـالية مما جرت عليـه عادة الشيعة أيا كانوا ، وهى أن يدفعوا الخمس (٢) لأئمتهم ، واحتفظ أبو مسلم لنفسه بالناحية الحربية والادارية ، وترك امامة الصـلاة لداعية آخر من رجال الدعوة وهو سليمان بن كثير الخزاعى الكوفى . فكأنه وضع نواة حكومة عباسية مصغرة فى خراسان تتسـع دائرتها بالتدريج كلما ازدادت الثورة سعة فى الانتشار ، وهى قائمة على أساس أن تختلط الأمور السياسية بالناحية العقيدية التى قامت الثورة على أساسها . وكانت حكومته تلك على صلة وثيقة ، حرص هو عليها كل الحـرص ، بقيادة الدعوة فى الكوفة أو الحميمة . وكان يتلقى تعاليم ابراهيم الامام وينفذها فى دقـة وأمانة واخلاص . فى الوقت الذى

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٩٠ .

(٢) يذكر الطبرى ان الأموال التى حملت الى ابراهيم الامام سـنة ١٢٩ هـ هى ٢٦٠ الف درهم .

انقطعت فيه أسباب الاتصال بين نصر بن سيار والخلافة الأموية ، وتبددت الطاقات الأموية فى دوامة الصراع القبلى العنيف .

ثم ناحية ثالثة نكتشفها من تحليل أعمال أبى مسلم خلال هذا الدور الخراسانى من أدوار الثورة العباسية ، وهى سياسة المن على الأعداء وموادعة المهزومين ، كسبا للقلوب وتأكيدا لزعامته بين الناس ، وهى لغة غير مألوفة فى مثل هذه الفترة الدموية من تاريخ الدعوة ، التى كانت أقرب أن تكون حرب حياة أو موت . ويشير الطبرى الى زيد مولى نصر بن سيار الذى بعثه لمصر لوأد الحركة العباسية غب ظهورها ، وكيف هزم زيد وجرح وأسر ، فأمر أبو مسلم بأن يعالج هذا القائد من الجراحات التى أصيب بها وأن يحسن تعهده ، حتى اذا اندملت الجراح دعاه أبو مسلم وخيره بين الاقامة معه والدخول فى الدعوة (١) أو الرجوع الى مولاه نصر ، على أن يعطى عهد الله ألا يحارب أبا مسلم وقومه ، ولا يكذب عليهم ولا يقول فيهم غير ما رأى . وأراد أبو مسلم أن يكون هذا المولى شاهدا على أبى مسلم وشيعته فى اقامتهم الصلاة وتلاوة القرآن . ومن الغريب أن يكرر نفس هذا المسلك فى مناسبات أخرى عندما هاجمه بعض أنصار نصر بن سيار على مقربة من مرو . وقد وقع فى يده بعض الأسرى مجروحين ، فأمر أن يعالجوا ، وكساهم وخلى سبيلهم . لقد كان أبو مسلم يريد أن يقيم القيادة الأسوة ليجتذب القلوب ويطبق شعارات الدعوة .

وتتجلى حنكة أبى مسلم كداعية ، وبراعته كزعيم فى فجر الثورة الأولى فى عمله على كسب ولاء جميع الفئات التى كانت تدعو الى الاصلاح وتعمل على تغيير الأوضاع التى أفسدها الخلفاء الأمويون الأواخر ، لتتوحد الحركات الثورية خلف هدف واحد للاطاحة بالنظام الأموى . كما لم يحد عن الدعوة للرضا من آل محمد برغم نجاح

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٨٦ .

حركته ، ولم يكشف عن خبىء الدعوة العباسية ، بل جعلها تبدو للناس أمرا عاديا مألوفا يجمع الناس ولا يفرقهم . ومن قبيل ذلك ما يرويه الطبرى من أن فتية نساكا من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا اليه فى معسكره ليسألوه عن نسبه ، فقال لهم (١) « خبرى خير لكم من نسبى » فلما سألوه عن أشياء فى الفقه قال لهم « أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا ، ونحن فى شغل ، ونحن الى معونتكم أحوج منا الى مسألتكم ، فاعفونا » . وقد دخل أبو مسلم فى مرو على رأس الهاشمية . ومن الهاشمية أمر أن تؤخذ البيعة بعد دخوله . أما هذه البيعة (٢) فكانت « أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبدأ بحكم ولاتكم ، وان كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولاتكم » . ومما يستلفت النظر فى هذه البيعة أنها لا تطلع الجند على غايتها الحقيقية بل هى بيعة اجمالية فى صيغتها ، وهى لا تصرح بشخص الامام العباسى من بين أهل البيت ، وأول ما أخذه على الجند هو الطاعة التامة لولاتهم . والواقع أن هؤلاء الثائرين قد استخدموا الدين على مبادىء حربية ، فلم يكن الرجل العادى بحاجة الى أن يعرف أسرار قادته ، بل كان يكفيه الايمان بالراية السوداء (٣) وقد لا تكون هذه السياسة من عنديات أبى مسلم وقد تكون مخططا عاما طبقه الدعاة فى كل مكان ، حرصا على وحدة الكلمة الهاشمية ، لكن يكفى أن أبا مسلم طبق هذا المخطط فى دقة وأمانة .

على أن الناحية الأخيرة فى سياسة أبى مسلم فى الدور الخراسانى التى تحتاج الى تفسير ، هى موقفه من القبائل العربية وفهمه الجيد لاحنها وثاراتها وتجمعاتها وتحركاتها ، وافادته من اجتماعها وافتراق

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٨٩ .
(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٤٥ ــ ٤٦ .
(٣) فلهوزن : ص ٥٠٣ .

كلمتها على حد سواء ، وقد مر موقفه ذلك في مراحل ثلاث ، الحيدة المطلقة — الانحياز لفريق على فريق — القمع للعرب المعادين لهم في شدة وقسوة أخذت عليه بالمحل الأول ، وأخذت على الأئمة بالمحل الثاني ، وأعتقد أن انتقاله من مرحلة الى أخرى كان يتوقف أو يرتبط بقدرته وكثرة أنصاره ورغبته في الحرب أو الموادعة .

بدأ بالحيدة المطلقة بين القبائل المتقارعة حتى ظن كل فريق أنه على هواه ، ويعزى ذلك الى أن أبا مسلم لم يكن له في أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحديا صريحا ، فاستوقفهم وذر الرماد في عيونهم ، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مصر الى حد يجعله عدوا صريحا لهم ، واذا كان قد دعا الى الثورة على الحكومة الأموية فان ذلك لم يكن بالأمر المستنكر في مثل هذا الجو المصطخب بالحروب والثارات . وثمة أمور أخرى دفعته الى هذه الحيدة والموادعة ، فقد رأى والى خراسان مشغولا بحرب الخوارج ، وبحرب العصبية اليمنية بقيادة الكرماني ، وبحرب الحارث بن سريج وأصحابه الزيدية تحت قيادة عبد الله بن معاوية بن عبد اللـه بن جعفر الطيار . ورأى من مصلحته أن يبتعد عن هذه المعمعة ، فقد دخل فيها الحارث بن سريج وجماعته التى سمت نفسها بالفئة العادلة ، وانتهى أمرها الى الهزيمة على يد العصبية اليمنية . بل وادع أبو مسلم الزيدية « ونظر أبو مسلم الخراساني في الديوان فقتل كل من وجد له اسما فيه ممن شارك في قتل يحيى بن زيد » (١) ولهذا كله اتخذ أبو مسلم سياسة الحياد والتربص حتى يتأكد أن الفئات المقاتلة قد أجهد بعضها بعضا وبأن لا مدد لهم .

ومن أمثلة هـذه الحيدة ما يرويه الطبري من أن نصر بن سيار أرسل الى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر ، وأرسلت ربيعة وقحطان اليه بمثل ذلك ، فطلب أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين لكي يختار أحدهما — وأمر من عنده من الشيعة أن يختاروا قحطان

---

(١) البغدادي : محمد بن حديد . المحبر ، ص ٢٨٤ .

وربيعة ، فلما أقبل الوفدان أدخل وفد قحطان فى بستان فأجلسهم فيه وبقى هو فى البيت ، وأذن لوفد مضر فدخلوا عليه ، وكان مع أبى مسلم سبعون رجلا من الشيعة وقد أوعز اليهم بما يقولونه ، فقام رجل منهم فقال « ان مضر قتلت آل الرسول ، وهم أعوان بنى أمية وعمال مروان ، وان دماء المسلمين فى أعناقهم وأموالهم فى أيديهم وان نصر ابن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعو له » وانتهى الأمر بالانحياز الى على بن الكرمانى وأصحابه من ربيعة وقحطان على نصر بن سيار وأصحابه من مضر •

واذا كان قد أفلح فى استمالة ربيعة وقحطان الى جانبه الا أنه لم يفسد علاقته بمضر • والحق أن الجميع كانوا يسعون الى كسب مودته ورضاه ، وأصبحوا لا يتجاسرون على معاملته معاملة العدو ؛ بل دخل مرو قاضيا وحكما لينهى النزاع القاسى الذى استنفدت فيه القبائل العربية قوتها • وقد حكم أبو مسلم لربيعة وقحطان على مضر • ولم تكن هذه المواقف من أبى مسلم الا دهاء ومكرا • فالحقيقة أنه لم يكن له فى أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحديا صريحا ، بل هو تصرف بحكمة سياسية فاستوقفهم وذر الرماد فى عيونهم • بل لم يترك أبو مسلم جماعة الا وحاول أن يكسبها ، فناظر فتية نساكا من أهل مرو وكسبهم الى جانبه ، وكان أكثر أتباعه من الزراع الأعاجم من الموالى من قرى مرو ، وكان بينهم بعض العرب وكان لمعظمهم مكان الرياسة ، وكانت الرابطة التى تربط بين أنصار أبى مسلم هى الدين والمذهب ، وكانت نواة جند خراسان من الهاشمية•

ثم أملت عليه الظروف ، وأملت عليه سياسة تفريق كلمة العرب والافادة من هذه الفرقة بقدر ما يستطيع ، أن يحالف ربيعة وقحطان دون مضر ، وقد خرج أبو مسلم لتحقيق هذه الغاية • ويروى الطبرى أنه أقام بعدئذ بآلين ثم رجع الى الماخوان وأمر أصحابه أن يبنوا المساكن ويستعدوا للشتاء لأن الله قد أعفاهم من اجتماع كلمة العرب • ولعل هذا هو الذى مكنه من دخول مرو •

وأثار هذا المسلك وهذا النجاح الذى أحرزه الدعاة العباسيون قلق العرب وريبتهم ، فاجتمع بنو بكر بزعامة شيبان الحرورى الى مصالحة نصر وانضم الى هذه الحركة على بن جديع الكرمانى ، وأغاروا على بعض القرى الخاضعة لأبى مسلم ، ولكن أمـد التحالف لم يدم فقد أفلح أبو مسلم فى افساد هذا الحلف ، فتوجه بنفسه من الماخوان الى مرو واستطاع أن يؤثر على على بن جديع الكرمانى ومن معه من ربيعة وقحطان حتى نقضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه ، وفى الوقت نفسه لم يجهر بعدوان نصر بل كان الجميع يسعون الى كسب وده ورضاه ، ولم يجرؤ أيهم على أن يعامل أبا مسلم معاملة العدو ، فأمكنه أن يدخل مرو قاضيا وحكما ، وأن يتدخل لينهى الصراع القاسى الذى استنفدت فيه القبائل العربية قوتها ، وقد روى أن أبا مسلم حكم لربيعة وقحطان على مضر .

هكذا تقلب أبو مسلم بين الحيدة المطلقة والانحياز المطلق لتعلو كلمته وتتحقق أهدافه ، ولكن كيف نفذ أبو مسلم هذين الخطين ومضى فى الشدة والقسوة والقمع واسقاط القبائل العربية من حسابه كقوة مؤيدة أو مساندة .

يفهم من رواية الطبرى أن هذا التطور حدث بعد هجومه على مرو من ناحيتين ، كما أشرنا ، وبعد أخذه البيعة للرضا من آل محمد ، وتحق له ذلك الظفر العظيم واجتمع له الأنصار . والحقيقة أن هذا التطور يحتاج الى وقفة قصيرة لنلقى بعض الأضواء عليه ، لأنه يمثل بداية مرحلة جديدة فى السياسة العباسية فى هذه الفترة الهامة من تاريخ الثورة . جاء فى احدى روايات الطبرى أن الامام ابراهيم ابن محمد نفسه أوصى أبا مسلم وصية صريحة « بأنه اذا استطاع ألا يدع فى خراسان من يتكلم العربية فليفعل وأن يقتل كل غلام بلغ خمسة أشبار يتهمه » ونحن نشك فى هذه الرواية من أساسها ونكاد نجزم بأنها وضعت وضعا ودست دسا على بنى العباس لافساد دعوتهم وتلطيخ حركتهم بالقسوة والدماء . ودليلنا على هذا ما يروى من

صـفات أبى مسـلم بعد دخوله مرو ، وفى المراحل التالية لذلك من مراحل الثورة ، فلم ترد فى روايات الطبرى الا اشارة الى أن أبا مسلم قتل أربعة وعشرين من ثقاة أصحاب نصر وصناديدهم بعد أن هرب نصر ، بل ان أبا مسلم أمر جنده بالتزام أدق نظام ، وحرم عليهم أن يقتلوا أحـدا من تلقاء أنفسهم ، اذ يبـدو أن هـذا القائد المحنك السياسى الداهية قد أحس بأن النصر الذى تم قد هز مشاعر الموالى وأبطرهم بصورة أو بأخرى وجرأهم على العرب ، لكن لم يفلت منه الزمام بل اسـتطاع أن يكبح جماحهم وأن يسيطر على مشاعرهم ، فلم يتحقق ما جاء فى وصية ابراهيم الامام المزعومة وكل ما فى الأمر أن الوضع فى خراسان بعـد توالى الانتصارات لم يكن بحاجة الى مصانعة المضرية أو القحطانية ، وكان على الدولة فى تلك الفترة أن تقرر سياسة مستقلة دون أن تتورط فى هذه الصراعات العنيفة ، أو أن تقتص من المعارضة فى شـدة وعنف ، وأن تفيد من المؤيدين وأن تسلكهم فى سلك جندها ، وأن تسـتفيد من طاقتهم فى المراحـل الأخرى من الصراع بينهم وبين السلطان الأموى المتداعى .

مرحلة قحطبة بن شبيب :

ما كادت الثورة العباسية تقر الأمور فى مرو ، وتفرغ من خراسان لتسديد الضربة الأخيرة لقوات نصر بن سيار المتقهقرة الى نيسابور ، ومعـه أنصاره من العرب الذين هربوا من خراسان ، وهم من قبائل تميم وبكر وقيس ، حتى نقلت قيادة العمليات العسكرية من أبى مسلم الخراسانى الى قحطبة بن شبيب الطائى ، ولم يجد أبو مسلم نفسه بدا من الاذعان لهذا التطور الجديد . ويلقى الطبرى أضواء على هذا التحول الجديد فى سير الثورة ، فيذكر أن قحطبة بن شبيب وكان عربيا من طيىء ، كان أثنـاء بداية الثورة الخراسانية غائبا فى مكة ، وكان قـد ذهب اليهـا للقاء الامام ابراهيم بن محمد فى موسم الحج . ولمـا انصرف قحطبة من عند ابراهيم عقد له الامام لواء وجعله على

مقدمة أبى مسلم ، وجعل له القيادة أو العزل والاستعمال (١) وكتب الى الجنود بالسمع والطاعة له ، وأن أبا مسلم رضخ لذلك الأمر وأسند القيـادة اليه ، وخرج قحطبـة فى الجيش وتحت امرته : أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى ، وخازم بن خزيمة التميمى ، وخالد بن برمك البلخى وغيرهم من القواد •

وأعتقد أن رئاسة الدعوة كانت تهـدف من وراء ذلك الى أمور جـد خطيرة ، وكانت تتطلع الى ما بعد خراسان من أحداث ، وأعتقد أنها أرادت ألا يتجاوز أبو مسلم خراسان مهما كانت الأحوال ، وأكاد ألمح هنا بداية لمـأساة أبى مسلم التى انتهت على يد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وأعتقد أن ثمة أمورا أخرى ألجأت رئاسة الدعوة الى اسناد القيادة فى هـذه الحرب الى هـذا القائد العربى الطائى ، وهو أنه لم يكن من المعقول أن تقتحم معاقل العروبة فى العراق والشام ومصر بقيادة أعجمية ، وانما بقيادة عربية خالصـة ، وأفلح ابراهيم الامام فى اسناد عمليات نيسابور وجرجان وما بعـدهما الى القـائد العربى قحطبة بن شبيب ، فنزعت القيادة من أبى مسلم ، كما سبق أبو العباس السفاح بعد اتمام بيعته فى الكوفة الى انتزاع القيادة من العسكريين المظفرين الى أبناء البيت العباسى من الاخوة والأعمام •

عمليـة قحطبة بن شبيب :

وقد سارع قحطبة عندما أسندت اليه القيادة العليا فى هـذه المرحلة فى فجـر الربيع الى نيسابور ، حيث تحصن نصر بن سيار انتظارا للأمداد الموعودة التى طلبها ، وحمى وطيس الحرب هناك ، فلما تأخر المدد العراقى انسحب نصر من نيسابور قاصدا الرى فالتقى بالأمداد عند قومس •

وبذلك اكتسب الثوار مدينة كبيرة جديدة من أهم مدن خراسان ،

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٠٤ •

وهى مع ذلك نتيجة لا تحسم النزاع ، ولم تكن هذه الا جولة متممة لمـا وقع بخراسان •

وابتـدأت جولة أخرى بقدوم الأمداد التى ذكرنا وصولها الى قومس ، وكانت عبارة عن جيش عظيم تبالغ الأخبار فى وصف عـدده وعدته ، وكانت قيادته الى قائد كبير هو نباتة بن حنظلة الكلابى عامل جرجان ، غير أن هذا الجيش قدم بعد فوات الأوان ، وكان المفروض أن ينقذ نيسابور ، فلما فاته هـذا الهدف تغيرت الخطة •

ورأى نصر أن يتجه الى جرجان بمن معـه وبجيش نبـاتة ، والراجح أن نباتة كان يتعجل القدوم الى ولايته فى جرجان • والراجح أن جرجان كانت أفضـل ميدان لبعـدها عن العصبية الفارسية التى ازدادت حميتها بنجاح ثوارها • واتخـذ نصر عند جرجان معسكرا وجعـل عليه خندقا ، ولم يستبعد قحطبة جرجان بل تقدم فى شجاعة ونازل عدوه وهزمه (فى ذى القعدة ١٣١ هـ) وضاعت هذه الجولة على نصر ، وطلب أمدادا أخرى من والى العراق ابن هبيرة •

وكان ابن هبيرة ككل ولاة العراق يمد اختصاصه على كل المشرق ، وكان عليه أن يواصل ارسال الأمداد •

وقد أرسل مددين ، أما المدد الأول ، فكان جيشا عظيما وصفوه بأنه جيش الجيوش ، وجعـل على قيادته ابنه ، وقائدا آخر هو عـامر ابن ضبارة المرى ، وأمرهما أن يقصدا قحطبة ، ثم أرسل ابن هبيرة مددا ثانيا جعل قيادته الى ابن غطيف ، وتتهم الأخبار والى العراق بالتهاون وتذكر أن مروان أمره بارسال هذا المدد الأخير وأنه لم يرسله من تلقـاء نفسـه • أما المدد الأول فوصل الى أصبهان ، وأما المدد الثانى فوصل الى نهاوند ، بينما بقى نصر بن سيار بالرى •

وبهـذا بدأت معركه الجبل ، ورأى قحطبة أن يحرص فى خطبه على منع التقـاء الأمداد واحتشـادها ، فوقف بقواته بين أصبهان

ونهاوند ، وظل يتحاشى المعركة الفاصلة حتى اشتد الشتاء ، فاستغله على عادة الخراسانية للهجوم على أصبهان ، وكانت وقعة انتصر فيها قحطبة . ثم تحول بعد ذلك الى نهاوند وقد جبن أهلها وتحصنوا بها ، وبهـا فلول المنهزمين من خراسان ورجال من أهل الشام ومدد ابن هبيرة ، فأقام محاصرا المدينة ثلاثة أشهر حتى استأمنت قوات المدينة ، فأمن أهل الشام وقتل قواد خراسان ومنهم ابن الحارث بن سريج ، وبذلك تقرر مصير بلاد الجبل .

ومات نصر بن سيار بالرى آخر الشتاء بعد وقعة أصبهان ، فى جو الهزيمة القاتم ، وهو جو ذاق فيه الفشل مرة بعد مرة ، دون أن يكسب معركة من المعارك ، وذاق فيه مرارة الهرب والترمل والثكل ، فقد وقعت امرأته فى يد أعدائه وهو فار من مرو واستشهد ابنه تميم عند نيسابور ، ثم استشهد بعد وفاته ولد آخر من أولاده عند نهاوند .

وبرغم هذه الهزائم نحس أنه وأبناءه كانوا من شجعان الناس وممن يشترون النصر بدمائهم ، وما من شك فى أنه فارس ، ولكنه كان أقل قدرة فى فن الحرب . ولذلك رفعت عنه الأخبار مسئولية الهزيمة وصورته فى صورة أسطورية نحس كأنها صورة من ملحمة ضائعة .

فهو لا يتكلم من فوق منبره على عادة القواد ، وانما يذيع ما يريد فى صيغة شعر ، ويكتب الى الخليفة رسائل شعر لا الرسائل الادارية المـألوفة ، وفيها انذار وتحذير وتنبؤ ، لا يعقل أن يكون حقيقة كلام نصر الوالى الى أمير المؤمنين ، وسر هذه الملحمة ان صح وجودها أن نصرا كان فارسـا جاد بنفسه وجاد أبناؤه بدمائهم وأصيبت امرأته فانتحرت — فى الليلة (حيث أسرت) فنالت عطف الجماهير ، كما أن سيرته تصلح فوق ذلك لتصوير انتصارات الفرس المتتالية .

وبعد ذلك بدأت الجولة الخامسة ، وهى جولة اشتركت فيهـا قوات الدولة الأموية من ناحيتين : من ناحية مروان بالشـام ، ومن

ناحية والى العراق • وهنا نجـد قحطبة يختار خطة سليمة وهى أن يهاجم العراق ، وأن يحتفظ ببعض قواته أمام ما يمكن أن يصـل من قوات من الشـام ، فان يكن قد قسم جنده الى قسـمين ، فان جند بنى أمية كانوا فى ناحيتين ، وكان من المتوقع أن يجتمعا عليه ، فاختار قحطبة أن يواجه قوات الخلافة على دفعتين ، دفعة فى العراق ودفعة فى الشام ، أما مروان فعالج الأمر بارسال نجدات الى ابن هبيرة •

واتجه قحطبة نحو العراق بينما كان ابن هبيرة يتحرك من العراق نحوه ، وكان من المتوقع أن يلتقيا فى الطريق ، ولكن قحطبة تحاشى المعركة وأسرع نحو الكوفة ، واضطر والى العراق أن يعود مسابقا قحطبة نحـو الكوفة أيضا ، وقحطبة يتحاشاه الى أن تراءيا وبينهما الفرات : قحطبة على الشاطىء الغربى ، وابن هبيرة على الشـاطىء الشرقى •

والخراسانية أسرع وأكثر جلدا ، فسبقوا ثم فاجأوا ابن هبيرة بعبور النهـر فى مخاضة بين الأنبار والكوفة ، وعندها نشبت المعركة وفيها انتصروا على ابن هبيرة أو على الأقل أوقفوه عن السباق ، ولكن قحطبة لم يعش ليرى النتيجة فقد مات غريقا فى المخاضة وخلفه ابنـه الحسن ، ولا شك أن قحطبة قام من الناحية العسكرية بالعمل الأكبر فى نصر العباسيين وعقد النصر للواء الأسود وتوطد فى الأذهان أنه لواء لا يغلب •

ووصل الخبر الى أهل الكوفة ففرحوا به • وثاروا على واليهم ورفعوا الألوية السوداء ، وتزعمهم ابن أحد ولاة العراق انتقاما لأبيه الذى عزله هشام ، وهو محمد بن خالد بن عبد الله القسرى ، ودخل الجيش الخراسانى الكوفـة دون أن يرفع سيفا ، بعد شهرين وأيام من استسلام نهاوند (المحرم سنة ١٣٢ هـ) وأظهروا أبا سلمة رئيس دعاة العـراق ، وأنزلوه فى معسكرهم بالنخيلة ثم فى حمام أعين • وأخذوا له البيعة بوصفه وزير آل محمد وأصبح أبو سلمة صاحب الأمر •

بهذا تقرر مصير العراق ، واضطر ابن هبيرة أن يحتمى بأسوار واسط ملتزما خطة الدفاع ، أما الجولة الأخيرة فقد تأخرت الى ما بعد الشتاء .

وكان استقرار الثورة بالعراق بعد سيطرتها على المشرق كله كسبا عظيما ، وأصبح من الممكن أن يظهر الدعوة ، وأن يعرف الخراسانية امامهم من آل محمد .

كانت القوى الزاحفة من خراسان الى الكوفة تحت لواء الدعوة الظافرة تسير فى خط مغاير للزحوف العربية التى رأتها ايران فى عهد عمر من القادسية الى مرو . كان هذا طريق الزحف . طريق النصر أمام هذه القوة الجديدة ، وسيشهد هذا الطريق زحف البويهيين ثم زحف السلاجقة ثم زحف المغول ، وقل أن رأينا زحفا على طريق عمر القديم .

رحلة الخليفة ابى العباس السفاح :

كان أبو العباس حين بويع خليفة (١) لا يملك الا ما ملكه جنده ، فقد كانت الجيوش تهتعد للجولة الأخيرة ، وكانت الأمور كلها بيد القواد والدعاة .

وقد خاض أبو العباس هذه الجولة وأشرك فيها اخوته وأعمامه وأبناء اخوته : العم سليمان بن على للبصرة ، والعم داود بن على للحجاز واليمن ، والعم عبد الله بن على لحرب مروان ، والأخ أبو جعفر المنصور لقتال ابن هبيرة فى واسط .

واستهل أبو العباس أيامه فى معسكر الجيش الخراسانى وبجانبه أبو سلمة وزير آل محمد ، ثم ترك المعسكر وتحول الى العاصمة الجديدة التى اختارها وهى هاشمية الكوفة ، نسبة الى هاشم الذى

---

(١) تمت البيعة للسفاح عام ١٣٢ هـ . انظر الطبرى : ج ٩ ، ص ١٢٣ .

يجتمع عنـــده نسب العلويين والعباسيين على السواء ، ولكن الدولة لم تسم بالدولة الهاشمية على نحو ما سميت العاصمة الأولى .

وحرص أبو العباس فى البداية على أن يفهم القواد بأن اشراك أهله نوع من الاشتراك التشريفى ، فقد كتب الى الحسن بن قحطبة حين جعل معه أخاه أبا جعفر « ان العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكن أحببت أن يكون أخى حاضرا » ولهذا الحرص ما يبرره ، فانه يروى أن أبا العباس كان لا يقطع أمرا دون أبى مسلم (مع وجـــود أبى مسلم بخراسان) وكان لأبى مسلم عين على أبى العباس يكتب اليه بأخباره . وكان أبو جعفر يحث أخاه الخليفة على قتل أبى مسلم ويقول له : « أخاف والله ان لم تتغده اليوم أن يتعشاك غدا » (١) . اذن كانت المجاملة ستارا يخفى وراءه خوفا وغدرا ، والهـــدف من الاشراك هو نقل السلطة تدريجيا من يد القواد الى يد أعضاء البيت العباسى ، ولكن هذا الانتقال لم يتم الا بعد التخلص من أبى سلمة الخلال ، وبعد التخلص من أبى مسلم ، بصرف النظر عما فى مثل هذا العمل من انكار للجميل .

أما عن جبهة القتال الهامة المقابلة للشام ، فانها ظلت كما تركها قحطبة ، أو بعبارة أخرى ظلت قوات خُراسانية مقيمـــة عند نهاوند فى أثنـــاء حملة العـــراق ، ودعمت هـــذه القوات نفسها بأن جندت خمســـة آلاف .

وكانت طلائع مروان قد قدمت من شهرزور نحو نهاوند ، فأرسل قحطبة لمقاتلتها قوات يقودها أبو عون عبد الملك بن يزيد الخراسانى ، فهزمها وردها ، ثم ثبت مكانه عند الزاب مدافعا طوال حملة العراق ، وهو الذى جند الخمسة الآلاف التى ذكرناها .

وفى مقابل قوات أبى عون قدمت قوات مروان بن محمد تحتشد

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٥٣ .

على الناحية الأخرى من الزاب ، وكانت مؤلفة من جند الشام والجزيرة والموصل ، وهم خير جند الشام .

واجتهـد كل فريق فى حشد قواته عند الزاب استعدادا للمعركة الفاصلة ، وتأخرت هذه الوقعة ستة أشهر . أما أبو العباس فقد أسند القيادة لعمه عبد الله بن على (ومعه من القواد أخوه صالح بن على ، ومعه خاصة الحسن بن قحطبة) وكذلك أرسل أبو العباس وراء عمـه أمدادا طائفة بعد طائفة .

ونشبت المعركة عنـد الزاب (١) ، واستمرت أحـد عشر يوما (فى جمادى الآخر ١٣٢ هـ) بعد انتظـار واستعداد دام طوال الشتاء السابق ، وكانت شبيهة بالقادسية فى شدتها ، وكان الظفر للخراسانية على العرب ، وبهذا الظفر استرد الفرس مكانتهم كمحاربين أشداء ، وبالغ بعضهم فقالوا ان وقعة الزاب كانت ردا على القادسية .

وانصرف الجيش الظـافر الى تتبع مروان ومنعه من الاستقرار فى أى مكان مخافة أن يجمع حشودا جديدة ، ولكن مروان كان يذوق فى هربه مرارة الهزيمة ، فقد أظهر الكراهية من كان يخفيها ، وكان عدد كبير من أقاربه وأعدائه فى سجنه فى مدينة حران ، ووجد مروان المدن تغلق أبواب أسوارها فى وجهه .

ولم يجد بالشام قوة كافية تقف معه ، ولا بمصر ، وظل الجيش الخراسانى يتتبعه حسب أمر الخليفة الى عمه عبد الله بن على ، فبعث عبد الله بن على أخاه صالح بن على ومعه عامر بن اسماعيل وراء مروان لتتبعـه فى مصر (٢) حتى أدركوه فى بوصير من أعمـال الأشمونين ، وبعث صالح بن على برأسه الى أمير المؤمنين أبي العباس (٣) وكتب

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٣٠ .

(٢) عن لجوء مروان الى مصر ، أنظر : الكندى : الولاة ، ص ٩٥ .

(٣) أنظر : الأغانى ، جـ ٤ ، ص ٢٩٢ . المسعودى : جـ٦ ، ص٧٦ . ابن الأثير ، جـ ٥ ، ص ٣٢٦ . واليعقوبى ، جـ ٢ ، ص ٤١٤ . ويروى الكندى (١) الولاة ، ص ٩٦ ، أن مروان قتل ببوصير يوم الجمعـة لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ .

اليه « انا أتبعنا عدو الله الجعدى حتى ألجــأناه الى أرض عدو الله شبيهه فرعون ، فقتله بأرضه » .

أما عامر بن اسماعيل الحارثى فانه بعد أن قتله « احتوى على عسكره ، ودخل الى الكنيسة التى كان فيها بناته ونساؤه ، فقعد على فراشــه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى ــ وتعرف بأم مروان ــ يا عامر : ان دهرا أنزل مروان عن فرشــه حتى أقعدك عليها تأكل من طعامه ليلة قتله ، حاكما فى ملكه وحرمه وأهله ، لقادر أن يغير ذلك » .

وقــد استهجن الخليفــة أبو العباس ما فعله عامر وكتب اليه يلومه : « أما كان لك فى أدب اللــه ما يزجرك أن تقعــد فى مثل تلك الساعة على مهاد مروان وتأكل من طعامه ، صم ثلاثة أيام وتب الى الله .. ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك » .

وماذا تفعل هــذه الروح التقية وسط جو كله قصاص وانتقام ووحشية ودماء ؟ لقد كان عبد الله بن على فى نفس الوقت يتتبع ذرية بنى أمية ما استطاع ، الى أن اجتمع عنده نحو تسعين رجلا وهــو فى مجلس له عند نهر أبى فطرس بالأردن ، فدخل عليه شاعر من موالى بيته هو شبل بن عبد الله » فأنشده قصيدة يحرضــه على بنى أمية ويطلب اليه ترك الاشفاق عليهم وانزال القصــاص بهم ، فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم ، وهكذا لم ينج من بنى أمية الا رضيع أو هارب . بل لم ينج الأموات ، فقد أمر عبد الله بن على بنبش قبور بنى أمية بدمشق ، وصلب جسم هشام لأنه الوحيد الذى وجد سليما ، وكذلك استصفى عبد الله بن على أموال بنى أمية ، وكذلك فعل أقارب أبى العباس الذين ولاهم على الولايات الكبرى .

اهميـــة نجاح الثورة العباسية فى تاريخ الاسلام

تعتبر بيعة أبى العباس السفاح وتصــفية الحكم الأموى ومصرع مروان بن محمد البداية التقليدية للعصر العباسى • ويهمنا قبــل أن نكتب أخبار هذا العصر مفصلة أن نتحدث اجمالا عن الميزات العــامة التى يتصف بهــا •

ليس من شك فى أن ظهور العباسيين على سطح الحياة الاسلامية قد صحبه انتقال جذرى وتطور عميق فى الحياة الاسلامية •

فقد فتح العباسيون صفحة جديدة فى الصراع العالمى وفى موقفة العالم الاسلامى من القوى المحيطة به ، فمثلا تطورت علاقات الدولة الاسلامية بالبيزنطيين ، ولم تعد الدولة العباسية تهتم اهتماما مباشرا ببلاد الشام وشرق البحر الأبيض المتوسط ، على حين كان الاهتمام الأموى يتركز كله فى بلاد الشام ومصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، حيث القواعد البحرية وحيث الثغــور الساحلية • وكانت معــارك الأمويين مع البيزنطيين معارك برية طاحنة ومعارك بحرية فى كل جزء من شرق البحر الأبيض ، بل امتدت المعركة الى غرب البحر المتوسط ، خصوصا بعد اتمام فتح المغرب ودخول العرب الى ميدان الأندلس •

هذا النشاط العظيم الذى شهده العصر الأموى قد قل شأنه فى العصر العباسى : تولت الامارات الاســلامية فى المغــرب والأندلس مسئولية الدفاع عن حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وخفت صوت البحرية الحربيــة الذى كان يدوى من موانى الشام وموانى مصر ، فقلت بالتالى الاشتباكات البحرية بالطابع الذى عرفه العصر الأموى ، وستظل هذه الاشتباكات غافية الى أن تستيقظ قليلا فى ظل نفوذ الطولونيين والأخشيديين فى مصر •

ولم تعد الاشتباكات البرية تتخذ ذلك الطابع القديم الذى شهده

عصر معاوية وخلفاؤه • انما تجمدت العلاقات حول نطاق الثغور الذى يحف بجبال طوروس شمال الشـام وهضبة أرمينية شمال العراق • وأقام العباسيون سلسلة من المحارس والحصون يتمركز فيها المرابطون المنصرفون للغارات الخاطفة الشاتية أو الصائفة ، أو ينصرفون الى لون من العلم والدراسة ، وكانت ثغور الشام تكتفى بصد غارات البيزنطيين فى الأغلب الأعم أو تقوم بغارات خاطفة ، هى الى سياسـة الدفاع أقرب من سياسة الهجوم ، وسيظل الحال على هذا النحو الى أن يقتحم سلاجقة الروم آسيا الصغرى مركز النفوذ البيزنطى •

كان انصراف العباسيين جـله صـوب الشرق ، ففى تركستان استطاع العباسيون الحيلولة دون الخطر الصينى ودون التطرق الى الغرب ، وقد سادت علاقات وثيقـة بعد ذلك بين الصين وبين الدولة العباسية ، وسلكت التجارة ذلك الطريق البرى القـديم المنحدر من الصين صوب الغرب ، وتدفقت واردات الصين على العالم الاسلامى •

كمـا أتم العباسيون التوسع العـربى فى اقليم السند ووطدوا النفوذ العربى هناك ، وأتاحوا لتجارة الهند أن تدخل الى أسـواق العـراق فى طمأنينة ، ومكنوا لثقـافة الهنـد من أن تواكب التجارة وتمضى فى أثرها ، ونمت البحرية العربية فى المحيط الهنـدى لتؤدى نفس الدور الذى أدته البحرية الأموية فى البحـر الأبيض • وبدأت السفن العربية والبحارة العرب يدخلون مياه جزر الهنـد الشرقية وجنوب الصين ، وأصبحت البصرة من أهم الموانى العـالمية ، تتجمع فيها المراكب القادمة من الشرق الأقصى ، وانطبعت هـذه المغامرات العربيـة الجـديدة فى ما ذكره الرحالة والجغرافيون ، وأفاد كثيرون من المسلمين فى العـراق وايران من هـذا التطور الجديد بتكوينهم ثروات طائلة •

وقد حمل العصر العباسى معه تطورا آخر لا يقل عمقا عن التطور الأول • ذلك أنه عصر نجاح الدعوة الى الاسـلام ، فقد كان لدخول

الايرانيين فى الاسلام جماعات أثرت فى نجاح الثورة العباسية التى يعتبرها الكثير من الدارسين ثورة جماهير الشعب الايرانى المسلم . وقد مضى الاسلام فى ايران تمكنا من الناس وانتصارا ، وصحب ذلك كله انتشار الاســلام فى تركستان وفى السند ، ونجاح الدعــوة الى الاسلام فى مصر والمغرب والأندلس الأمر الذى يجعل العصر العباسى عصر التحرر الاسلامى الكبير . وسيتخذ هذا التحرر لبوسا اقتصاديا ويسهم هؤلاء المسلمون فى ذلك النشاط الاقتصــادى العظيم الذى شهده العصر العباسى الأول . ويتخذ لبوسا فكريا فقد بدأت العناصر المسلمة الجديدة تدخل ميدان الثقافة الاسلامية بميزاتها وتجاربها ، فتكسبها قوة ، وبرع الكثيرون فى مختلف العلوم العربية وأصبحوا من أعلام النهضة الجديدة ، وانتهى ذلك بنجاح حركة الاحياء الفارسية حول اللغة الفارسية الجديدة .

على أن هــذا التحرر سيتخذ طابعا سياسيا ، فقد سيطرت هذه العناصر الجديدة على الجيش والنظام الادارى (١) فى العصر العباسى الأول ، وأصبح هؤلاء المسلمون وقودا للحركة الاستقلالية التى انطلقت فى العــالم الاسلامى كله ، تؤذن بفصل جديد من فصول التحــرر وما صحب هــذا التحرر من نشأة المدارس الاقليمية ونمــو الفكر الاســلامى .

وشهد العصر العباسى الأول تطــورا اقتصــاديا عظيم الشأن سيصل الى القمــة فى القــرن الثالث الهجرى ، فقــد عملت الثورة العباسية على تحرر طبقة العمال والفلاحين من أغلال النفوذ الأموى ، وتم الاعفــاء من الجزية وأبيحت ملكية الأرض وتخففوا من أعباء الضرائب ، وامتنعت الهجرة الى المدينة فرارا من كساد الريف . وتمتع هؤلاء بالاستقرار والطمأنينة فى ظل نفوذ الموالى الصــاعد . وليس من شك فى أن امتداد النفوذ العباسى الى الشرق الأقصى قــد أتاح

---

(١) فلهــوزن : الدولة العربية ، ص ٥٢٨ .

فرصــا جديدة أمام الحاصــلات والسلع ، وما جــر ذلك من رواج اقتصادى كبير يخالف صــورة الكساد التى غلبت على العصر الأموى الأخير ، وانطلقت الطبقة الوسطى التى كانت عمود الثورة العباسية وفتحت أمامها ميادين الاقتصاد ، تغامر فيها كيف يحلو لها ، وقــد استغلوا التجارة النامية واقتنوا الثروات الطائلة وأصبحوا من أرباب الملايين ، وتحول أغلبهم ليكونوا طبقــة أرستقراطية جديدة ذات قوة ونفوذ ، يصورها الجــو الذى يســود قصص ألف ليلة وما يرسم فى أخيلته عن حياة هؤلاء السراة من التجار •

وشهد العصر العباسى نشاطا اقتصاديا فى مجال الصناعة ، فقد توفرت المــادة الخام واستطاع العباسيون استغلال مناجم الفضــة والنحاس والذهب ، وفتحت السبل أمام التأثيرات الصينية والهندية ، وأصبحت الأسواق العــالمية غير موصــدة الأبواب أمام مصنوعات العباسيين ، ونشطت صناعة الترف التى تتطلبها حاجات قصور الخلفاء والأمراء ورجال الدولة والأغنياء الجدد ، ولعل الطراز العباسى فى الفن والصناعة يترجم عن هذه النهضة الصناعية الكبرى ، وسرى النشاط الى التجارة الدولية • ويصور المؤرخ هيــد Heyd فى كتابه « تاريخ التجارة » الآفاق الدولية التى فتحت أمام التجارة العباسية ، فقــد أدى تفاهمهم مع الصين الى فتح ســوق الشرق الأقصى أمام تجارة متبادلة غنيــة الى أبعد الحــدود ، وكذلك أدت مغامرات العباسيين فى الشرق الأقصى الى تدفق للتجارة فى هذه الآفاق ، وفتحت أسواق البلغاب وحوض الفولجا ، وقد عثر أخيرا على نقود عباسية فى هــذه البقاع تصور ذلك النشاط التجارى القديم •

ويبدو أن تفاهم العباسيين مع ملوك الفرنجة فى أوروبا قد مكن لمغامراتهم التجارية أن تمتد الى غرب أوروبا وشمالها الغربى ، وقــد لعب التجار اليهــود فى منطقــة الرين ويسميهم المؤرخــون العرب « بالرهدانية » دورا كبيرا فى عملية المبادلة بالأســواق ومهارتهم فى

الأعمال المصرفية واتقانهم للغات الأوربية والشرقية ، وقد عثر المنقبون على نقـود عباسية فى شمال غرب أوروبا هى بقية من ذلك النشـاط التجارى القديم • ونمت الحياة المصرفية لخدمة هذه العمليات التجارية الكبيرة وعرفت المصـارف والصكوك (الشيكات) وعمليات التحويل المصرفيـة •

وقـد انفرد العصر العباسى بتطور جديد فى النظم الاسلامية ، ونظرة فاحصة الى ما عرف من نظم حكم أموية ، والى ما كتب عن نظم العباسيين تقنعك بالطفرة الكبيرة التى قطعهـا العباسيون فى هـذه الناحية ، فقد اعتمدت الخلافة العباسية على نظرية الامامة التى كانت محور العقيدة العباسية والدعوة العباسية •

وقـد أعطت هـذه الامامة للخلافة العباسية مسحة جديدة من القداسة لم تكن معروفة فى العصر الأموى ، ولم تكف الخلافة العباسية عن أداء هذا الدور العقيدى على الاطلاق ، وظلوا يخاطبون الأنصار ويمسكون خيوط الدعوة طوال العصر العباسى الأول على الأقل •

ولعل هذا يفسر جنوح الخلفاء العباسيين الى الاستئثار بالسلطة والاستبداد والاحتجاب عن الناس ، مخالفين بذلك الروح العربيـة السمحة التى أطلت من حياة الأمويين •

وتأثرت حياة هؤلاء الخلفـاء وأسلوبهم فى العمل وطريقتهم فى الحكم بالأساليب التى عرفهـا الساسانيون ، حتى لقد اعتبرها بعض المؤرخين نوعا من الاحيـاء الفـارسى الذى امتد الى أكثر من ناحية فى ذلك العصر •

وقـد أحيـا العباسيون الديوانيـة الفارسية أو البيروقراطية الفارسية ، ولا شك أن بعث التقاليد الفارسية فى الحكم والادارة انما يعود الى عصر هشام بن عبد الملك ، لكن هذه التقاليد طغت على النظام

العباسى كله حتى أن المستشرق بارتولد يرى فيها الديوانية الفارسية مظهرا وروحا ، فطائفة الكتاب والوزراء ورجال الدولة ترسمت التقاليد الفارسية القـــديمة فى طريقة العمل وفى البروتوكول وفى المراسلات ، ويرى بعض الدارسين أن ذلك كان احيـــاء للفارسية أيضا . وتطورت النظم العباسية الأخرى ونما الجيش البرى العباسى وأصبحت غالبية الأجناد من هـــذه الطبقات المسلمة الجديدة ، فقد أصبحت لهم القوة والقيادة الى أن ينتهى الأمر بسيطرتهم على الحياة الاسلامية كلها .

وكان التطـــور فى ميـــدان الحضارة لا يقل عمقـــا عن الميادين الأخرى ، وقـــد وصلت الحضارة الاسلامية الى قمة التطور فى القرن الرابع الهجرى الأمر الذى دعا المستشرق آدم متز الى أن يؤرخ لهذه الظاهرة فى كتابه المعروف « الحضارة الاسلامية فى القـــرن الرابع الهجرى » متناولا فيه الأعماق التى انتهت اليهـــا حضارة الاســـلام اذ ذاك ، وليس غريبا أن تكون هـــذه النهضـــة مصـــاحبة للحركات الاستقلالية ولنمو المدارس الاقليمية والتنافس الشديد بينهما ولتمام حـــركة التدوين ، تدوين التراث الاســـلامى كله واكتســـاب العلوم الاسلامية صفة الوضوح والأصالة والعمق ، ولشيوع الثقافة الاسلامية فى العالم كله ، ليس باعتبارها ثقافة محلية بل باعتبارها ثقافة عالمية . وقـــد اجتمعت عوامل عدة للوصول بالحضارة الاسلامية الى هـــذه الصورة ، فقد كانت طبيعة العرب القائمة على تجنب السلبية ، والتعاون الدولى والتسامح مع الأقطار الأجنبية ، والافادة من كل خبرة وتجربة، من أهم ما ساعد على اكتمال حركة الترجمة فى الآداب العالمية المعروفة خصوصا الآداب الاغريقية . وقد ألف الأستاذ أوليرى كتابا عن العلوم الاغريقية التى انتقلت الى الفكر العربى ، ولم يكتف العـــرب بمجرد الترجمة بل هضموا وأضافوا وشرحوا وعلقوا ، ومن هـــذه العـــوامل أيضا دخول غير العرب فى معترك الحياة العلمية ومعهم طاقاتهم الفكرية وأصبحوا أعلام مدارس العراق وايران . كان منهم أعلام النحويين والمفسرين والمحدثين والأطباء والفقهاء والفلاسفة ، ولا ننس ما كان

للحـــركة الاستقلالية من أثر بالغ فى نشأة المدارس الاقليمية وتنافس هذه المدارس فيما بينها رغبة فى السبق أو التجويد .

وقد مست هذه النهضة الحضارية الفن الاسلامى الذى استفاد من أساليب عـــدة : من الأساليب الايرانية أو الهنـــدية أو البيزنطية أو القبطية ، وأخذت هذه الأسباب كلها الطابع الاسلامى العام .

ولعل العصر العباسى عامة والعصر العباسى الثانى بخاصة يتميزا بظاهرة هامة لابد من أن تدرس دراســـة مستقلة وتظفـــر بالعناية اللازمة ، وهى الحركات الإستقلالية التى ظهرت على سطح الحيـــاة الاسلامية منذ القرن الثالث الهجرى فصاعدا ، وذلك بقيام الامارات المستقلة فى الشرق والغرب على حد سواء مع اعتراف هؤلاء الأمراء بالتبعية للخليفة العباسى . ولابد من أن تدرس القوى المشكلة لهـــا والظواهر التى تنطوى تحت لوائها وهل هى تفكك للدولة الاسلامية ؟ أم هى مظهر من مظاهر النهضة وعلامة من علامات التحرر ... القوى السياسية المشكلة لهـــا والمختفية من ورائها ، وآثارها الاقتصـــادية والاجتمـــاعية والفكرية ؟ فقد كانت فى الحقيقة تطـــورا مرحليا بدأ تطوره منـــذ نجاح الثورة العباسية ، ولم يكن من المعقول أن تكتفى القوى النامية بمجرد المشاركة فى الثورة وتعضيدها ، بل انه معقول أن تحصل على مكاسب سياسية واقتصادية ، وأن تطرد هذه المكاسب نموا حتى تتحول الى سيادة ونفوذ واستقلال ، ولن يقف هـــذا المـــد الصاعد عند حدود القرن الثالث أو عند الأبعـــاد التى تنتهى اليها فسيصل هـــذا المد الى بغداد وتوضع الخلافة العباسية تحت وصاية هـــذه العناصر الجديدة ، حينمـــا دخل البويهيون بغداد بحجة حماية الخليفة والدفاع عنه أو كما دخل السلاجقة بنفس هذه الحجة .

وانتهى أمرهم باغتصاب السلطة تحت ظل من الخلافة الضعيفة المتهاوية ، الى أن يدخل المغول دنيا الاسلام على غير الاسلام ويغيروا غاراتهم الخاطفة المدمرة كأنها الأعصـــار ، فيفتحوا ايران ويطيحوا

بالسلاجقة ويدخلوا بغداد ، ويقتل الخليفة ويفر من بقى من سـلالة العباسيين معتصما بمصر زمن المماليك .

هـذه هى التيارات الكبرى التى ظهـرت على سطح الحيـاة الاسلامية أو تعمقت الى جوفها طوال العصر العباسى . هذا العصر الذى يمكننا أن نحدد له أبعاده الزمنية تحديدا واضحا منذ دخـول القـوات العباسية مدينـة الكوفة والبيعة للخليفـة العباسى الأول أبى العباس السفاح الى أن استطاع المغول دخول بغـداد والاطاحة بالخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ .

الباب الثاني

العصر العباسي الأول

من أهم قضـــايا الدراسات العباسية موضـــوع قســـمة تاريخ العباسيين الى فترتين : فترة يصطلح على تسميتها بالعصر العباسى الأول • وتشمل الخلفـاء العباسيين من الســـفاح الى وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) • والفترة الأخرى اصطلح على أن تسمى بالعصر العباسى الثانى وينساق فيها تاريخ بنى العباس حتى آخر العهد بهم •

وأعتقد أنه ينبغى بادىء ذى بدء أن نعرض لهذا التقسيم هل هو جذرى أم سطحى • ما أعماقه ما أصالته ما صلته بالواقع ؟ هل هو مجرد تقسيم سياسى فحسب أم هو تقسيم حضارى ، ويرى بعض الدارسين أن هذه القسمة ليست بذات جذور عميقة لأن قصة الحضارة الاسلامية واحدة لا ينبغى أن تخضع للتجزئة أو للتقسيمات •

وأعتقد أن وفاة الواثق كانت خطا فاصلا بين عصرين يختلفـــان فى جميع المقومات السياسية والاجتماعية والاقتصـــادية والثقافية ، وأن لدينـــا أسبابا كثيرة مستمدة من تاريخ بنى العباس تبرز هـــذه القسمة وتقويهـــا وتجعلهـــا خليقة بأن تكون أساسا صالحا لعرض التاريخ العباسى •

ولدينا فى هـــذا الموضوع ملاحظات منهـــا أن تطبيق شعارات الدعوة التى ظل الدعاة يرددونها منذ تنظيم الدعوة حتى عام ١٠٠ هـ حتى بيعة أبى العباس السفاح فى عام ١٣٢ هـ ، برزت بصـــورة ملحة فعالة فى فترة من التاريخ العباسى ، تبدأ بسنة ١٣٢ هـ وتنتهى بوفاة المعتصم . هذه الفترة وضحت فيها مكاسب الثورة العباسية وطبقت عمليا ، وقد شابت هذا التطبيق أخطاء وصحبته توفيقات ، ولابد أن يدرس هذا العصر من زاوية هذه الأخطاء أو التوفيقات فيصبح العصر العباسى الأول عصرا فريدا متميزا من وجهة النظر هذه •

أما ا... اللاحق على الواثق فقـــد بدأت فيه مكاسب الثورة تضيع لأسباب خارجة عن ارادة الخلفاء،وبدأت الأخطـــاء تتضـــاعفة

وتؤتى ثمـارها بظهور ثورات ذات طابع اصـلاحى مثل ثورة الزنج أو ثورة القرامطة أو الدعوة الاسماعيلية ، الى أن تنتهى هذه الثورات بنجاح الحركة الاستقلالية وتتسبب فى اضعاف نفوذ الخلفاء .

وثمة موضوع آخر يوضح البون الكبير بين العصر العباسى الأول والعصر العباسى الثانى ، وهو موضـوع قدرات الخلافة وفعاليتها ؛ فقد كانت هذه القدرات كأقوى ما تكون فى العصر العباسى الأول — أنظر سيرة أبى العباس والمنصور والرشيد والمـأمون والمعتصم وقارن بينهم وبين جيل الأئمة الكفاة منذ عبد الله بن على — وكانت الخلافة تتمسك بالامامة ورئاسة الدعوة فى قـوة ، وتحكم صلتها بالتنظيمات العقيدية ولا تريد أن تنقطع صلة القيادة الروحية فى العراق بجماهير الأتباع فى المغرب والمشرق . وقد تبين هذا من الرسائل المسماة باسم رسائل الخميس ، ولعل هـذا التمسك هو الذى أكسب خلفاء العصر العباسى الأول هذه الكفاية والقدرة .

أما بعـد الواثق فان الخلفاء العباسيين قد فقدوا هذه الفعالية وفقدوا الصلة بتنظيمات الدعوة وان لم تضعف شخصياتهم . ويبدو أن آخر رسالة من رسائل الخميس انما كانت تنسب الى عصر المتوكل ، وهـذا يتمشى مع ما ظهر فى ذلك الوقت من ضعف الخلافة وتهاويها وفقدانهـا نفوذها العقيدى ، وقد تعرضت الدعوة العباسية لدعوات ذات دم جديد أفادت من التجارب العباسية وطورتها ، فقـد ظهرت الدعوة الاسماعيلية فى اليمن والمغرب .

ومما يحدد أبعاد العصر العباسى الأول موضوع الجند من الموالى ودخولهم صفوف الجيش العباسى ، تحقيقـا للمكاسب التى نالوها ، فهم أصحاب الثورة الحقيقية ، وقد بدأ هذا الدخول منذ وقت مبكر جدا ووصلوا الى مراتب القيادة وكانوا عمود جند الخلافة ، ولم نسمع فى هـذه الفترة أن هؤلاء الجند طغوا على الخلافة أو تعرضوا لهـا أو سيطروا عليها ، بل كانوا عون الخلافة وأداتها فى فعاليتها ونضالها .

أما فى عصر الواثق فقــد ظهــر الجند الأتراك وتألق نجمهم ، واستبدوا بالسلطة حتى دخول البويهيين ، ووصلوا الى منصب أمين الأمراء وسيطروا على الولايات واستقل منهم كثيرون . وكانت الخلافة تقهرهم أحيانا ويقهرونها أحيانا أخرى حتى أطلق على هــذه الفترة عصر نفوذ الأتراك فى التاريخ العباسى .

حتى العنصر العربى نفسه وتطوره قوة وضعفا يشارك فى تحديد الفرق الواضح بين العصر العباسى الأول والثانى ، ففى العصر العباسى الأول لم يتقهقر هذا العنصر تماما ، صحيح أنه غلب على أمره ، ولكنه ناضل قبل أن يموت . وقــد طفا على السطح من وراء نكبة البرامكة وفى خــلال النزاع بين الأمين والمــأمون ، حتى استعان المــأمون بالخراسانية مرة أخرى لقهرهم .

ومن الواثق فصاعدا اختفى العنصر العربى على الأقل من الحياة السياسية تماما . ويبدو أنه اختفى من القوات المسلحة على الاطلاق بعــد اسقاطهم من العطاء ، وما تبع ذلك من تفكك القبائل العربيــة واختلاط أنسابهــا ، واستقرارها فى الريف وانســحاب بعضها الى الجزيرة العربية مرة أخرى .

ويمكن أن نتخذ موضوع نفوذ الموالى للتفرقة بين العصر العباسى الأول والثانى ، ففى العصر العباسى الأول كان نفوذ الموالى صاعدا ، الطبقات العــاملة دخلت القوات المسلحة ، وتحولت البرجوازية الى بيروقراطية بتوليها الوزارة والكتابة . ولكن نفــوذهم لم يكن طاغيا ، واذا رضيت الخلافة بالمشاركة فانهــا كانت قادرة على الحركة كمــا فعلت بالبرامكة .

أما فى العصر العباسى الثانى فقد انطلق نفوذ الموالى دون قيد فى وقت ضعفت فيه الخلافة ، فانقلبت امتيازاتهم السياسية فأصبحت

حركة استقلالية ضخمة بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ثم تغير وجه العصر العباسى بسيطرة البويهيين والسلاجقة .

حتى الناحية الثقافية والفكرية تظهر لنا فرقا واضحا بين العصر العباسى الأول والعصر العباسى الثانى . فقد كان العصر الأول هو عصر التحضير للنهضة بمعالمها الواضحة : دخول الموالى حلبة الفكر بعلمهم وتجربتهم المترجمة من الآداب الأعجمية دون قيد ، كما ظهرت بوادر التلقيح الثقافى والفكرى .

أما التألق فكان فى العصر العباسى الثانى ، وبلغ هـذا التطور الغاية فى القرن الرابع الهجـرى ، ثم بدأ دور الشيخوخة فى الثقافة العربية بعد حـركة الاحيـاء الفارسية وظهور الفارسية الجـديدة والتركيـة .

* * *

فى هذا العصر العباسى الأول الذى يمتد من بيعة السفاح فى سنة ١٣٢هـ الى وفاة الواثق فى سنة ٢٣٢هـ ، ونرى أن أهـم الموضـوعات الكبرى التى سنتناولها هى على الترتيب التالى :

الفصل الأول

تقدم العناصر الايرانيـة فى العصر العباسى الاول

موضوع الموالى عامة أو الطبقات غير العربيـة التى بدأت تسلم وتستعرب من أهم موضوعات الدراسـة فى العصر العباسى كله ، بل لعلها من أهم موضوعات التاريخ الاسـلامى كله ، لأنه فى الحقيقة موضوع تاريخ الشعوب الاسلامية وأثرها فى الحياة الاسلامية بجميع مظـاهرها .

واذا استعرضنا أقاليم الدولة العباسية لنتعـرف على التيارات الموجهة للشعوب التى دخلت فى الاسلام ، ولنتعرف على وجهة نظرها ونتبين مواقفها من مشكلات الاسلام ، لوجدنا مثلا أن موقف المصريين لم يثر مشـاكل كبيرة أمام العباسيين ، فقـد استقاموا على الطاعة للعباسيين فى عصر الولاة ، ثم ظهـر نفوذهم من وراء الطـولونيين والأخشيديين ، وكذلك الحال فى بلاد المغرب التى استقرت أوضاعها خلف الأغالبة أو الأدارسة .

غير أن مشكلة المشاكل عند العباسيين الأوائل كانت مشكلة عناصر الموالى من الايرانيين .

وقـد اختلفت فيها آراء الكتاب والمؤرخين منـذ القرن الثالث الهجـرى حتى اليوم . فالجاحظ أحـد كتاب القرن التاسع الميلادى يقول : « دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان أموية عربية » وطلع جوبينو (١) وغيره من مستشرقى القـرن التاسع عشر

---

(1) Gobineau : Histoire des Perses.
Browne : Literary History of Persis. vol I pp. 251—252
Dozy : Hist. de l'islamisme (trans.) pp 228—229
Sykes : History of Persis vol. I p. 586.

علينا بنظرة جديدة ، وذلك حين فسروا الصراع بين الأمويين والعباسيين ، والانشقاق الدينى كله على أنه صراع عنصرى بين المسلمين والآريين ، واعتبروا فوز العباسيين نصرا للفرس على العرب مكنهم من تأسيس امبراطورية فارسية جديدة متشحة بقناع فارسى اسلامى مكان الدولة العربية الزائلة ٠

وهنالك مؤرخون آخرون يفسرون أحداث الثورة العباسية على أسس اقتصادية إجتماعية ، فبرنارد لويس مثلا يقول « العداء العنصرى كان له أثره فى الثورات التى أدت الى سقوط الأمويين ، الا أنه لم يكن العامل الرئيسى المحرك لها ، وأنه على الرغم من وجود عدد كبير من الفرس بين المنتصرين الا أنهم لم يحرزوا النصر بوصفهم من الفرس كما أنهم لم يهزموا أعداءهم بصفتهم عربا ٠ وضمت جيوش الثورة عربا كثيرين وخاصة من قبائل الجنوب التى لم تكن بعد ثابتة القدم فى أرستقراطية الفاتحين ، ولم يكن الموالى كلهم من الفرس بأية حال ، بل كان بينهم عراقيون وسوريون ومصريون ، انما القوة المحركة للثورة ماثلة فى التذمر الاجتماعى والاقتصادى الذى سببه الحكم الأموى (١) ٠

ونحن نخالف أنصار الرأى الأول ، ونرى أن الأمر لم يصل الى درجة العنصرية بالصورة التى صوروها ، ولم تكن الصورة كما تصورها الجاحظ ٠ معترفين بأن طاقات من السخط قد تجمعت فى سماء ايران : اجتماعية واقتصادية ، وأن هذه الطاقة فجرها أو استغلها الدعاة العباسيون عندما كانوا يلوحون بشعارات الاصلاح والمساواة ، واستغلوا هذه الجماهير الساخطة فى اسقاط الحكم الأموى ونقل الخلافة اليهم ٠

وأن ثمة تحالفا وثيق العرى تم بين الايرانيين الساخطين وبين الدعاة العباسيين ، وأن نجاح الثورة ألزم العباسيين بأن يفوا بما

(١) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ١١٤ ٠

وعدوا وأن يطبقوا شعار المساواة ، وأن عناصر الموالى وجــدت بابا مفتوحا نحو مستقبل وأمل فانساقت فيه مؤثرة فى الحياة الاسلامية .

وقد واجه العباسيون هذا التيار فى العصر العباسى الأول بمـــا يحفظ لهم فعاليتهم ونفوذهم وما يعطى هذه العناصر ما تتمناه ، الا أن هـــذا التيار انقلب زحفا هائلا فى العصر العباسى الثانى نتيجة ضعف نفوذ الخلافة والحركات الاستقلالية التى انتشرت فى الشرق والغرب .

وأعتقد أنه من المستحب أن نستبدل لفظ الموالى باصطلاح أبلغ فى الدلالة على ما حدث ، وألا نستبدله بكلمة الفرس لأن الفرس كانوا قطاعا من مجموعة العناصر أعم وأشمل ، انما ينبغى أن نقول (العناصر الايرانيــة) لأن ايران كمصطلح جغرافى كانت بوتقة ترعرعت فيهـــا كل العناصر التى ظهــرت على مسرح الحيــاة العباسية ، فهى تضم الخراسانية الذين ظهروا مع أبى مسلم ومع الطاهريين ، وهى تضـــم أتراك ما وراء النهر الذين برزوا فى عهد المعتصم ، وهى تضم الفرس سكان المناطق الجنوبية ، والديلم سكان المناطق الشمالية الغربية،ومنهم بنو بويه الذين عرفتهم الحياة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

ويمكننا أن نرى فى هذا التيار الايرانى المؤثر فى الحياة العباسية قسمين : قسم يمثله تيار منافر لا يتجه الى البناء انما يتجه الى الهدم وقد اتخذ لبوسا سياسيا دينيا ثقافيا . وقد تصدى له العباسيون الأول بالمقاومة حتى استحقوا تقــديرا معينا فى التاريخ ، تصدوا له وهم أقوياء ، لأنه لو ظهر فى وقت ضعف العباسيين لكانت الفتنة القاضية .

وقسم آخر يمثله تيار متعاون ، أفاد منه العباسيون فى مراحل الثورة الأولى وأوجــدوا نوعا من المشاركة ، وتقــدم هؤلاء الناس فى جميع النواحى الفكرية والاقتصــادية والاجتمــاعية والسياسية ، فالتطور السياسى والعسكرى أفضى الى الحركات الاستقلالية ، والتطور

الاقتصـــادى الاجتمـــاعى أفضى الى رأسمالية الايرانيين ، والتطور الثقافى أفضى الى الاحياء .

التيـــــار المنـــــافر :

أما عن التيار المنافر الهدام فهو يتمثل فيما ورثه العباسيون من مشاكل التاريخ الايرانى ، خيره وشره ، فقـــد ورثوا نفس التيارات القديمة التى كانت مشـكلة الساسانيين والزرادشت وهى التيـــــارات المـــانوية والمزدكية (١) .

فقـــد كانت تعـــاليم مزدك الاشتراكية تثير الطبقـــات الدنيـــا والمتوسطة ، وكادت أن تقوض أركان النفوذ الساسانى فى القرن الرابع الميلادى ، وهى نفسها التى أقضت مضجع العباسيين فى القرن الثامن الميلادى ، ثم مذهب الثنوية المـــانوى ذو الطابع الصـــوفى الذى كان يثير المتاعب فى العصر الساسانى أصـــبح اليوم يثير المتاعب الفكرية فى العصر العباسى الأول .

وكل الحركات الهـــدامة التى ظهـــرت فى العصر العباسى الأول اذا حللت نجـــدها تتخـــذ تعاليمها الدينية من الهرطقات (المذاهب) الايرانية القديمة . كانت هذه الحركات سافرة أول الأمر وقـــد أدى سفورها الى سرعة فشلها ثم كبتها ، ثم بدأت بعـــد ذلك تتخذ نزعات توفيقية بنشر تعاليم هى مزيج من المزدكية والشيعة المتطرفة .

هذه الحركات السافرة ظلت مشكلة العصر العباسى الأول حتى وفاة المعتصم ، واليك استعراضا سريعا لأهم هذه الحركات :

كان مصرع أبى مسلم على يد المنصور من أكبر الصدمات التى عانتها القومية الايرانية ، وقد انتهز المزدكيون هذه الفرصة ، وتحت

---

(١) Browne : Literary Hist. of Persis. vol. I. P. 328.
حديثه عن المـانوية ، صفحات ١٥٤ — ١٦٦ ؛
والمزدكيـــة ، صفحات ١٦٦ — ١٧٣ .

علم الثأر لأبى مسلم رفعوا راية العصيان بزعامة سنباذ من أتباع أبى مسلم فى ما وراء النهر (١) .

وقد تمكن المنصور من القضاء عليه ولكن ذلك لم يقطع دابر هذه الحركات ، فقد قامت حركة أخرى منفعلة بالمزدكية ومأساة أبى مسلم على يد رجل اسمه أستاذ سيس (٢) واستطاع المنصور أن يقضى على هذه الحركة فى المهد . وكانت الخلافة فى أوج فعاليتها .

وتتابع الحركات الهدامة بعد ذلك مما يدل على اعتمادها على أقلية إيرانية كبيرة ويدل على تمسكها بالروح الايرانية تمسكا كاملا ، فقد أعلن المقنع الخراسانى (٣) الثورة فى منطقة مرو مركز نفوذ أبى مسلم فى خلافة المهدى ، وانتشرت فى ايران الشمالية وما وراء النهر وتجلت فيها المزدكية صريحة واضحة فى اباحة الملكية والفساد ، وقد استمرت هـذه الحركة ١٣ سنة (٤) .

واكتسبت هذه الحركات ضراوة فى القتال وخبرة عسكرية وأفادت من ظروف الدولة العباسية أحسن افادة تحت علم بابك الخرمى (٥) (٢٠١ — ٢٢٢ هـ) وكان بابك زعيما مزدكيا له مواهب قيادية وعسكرية عظيمة ، وكان معظم أتباعه من الفلاحين ، وبدأ يكسب ولاء الدهاقين ،

---

(١) كان سنباذ رجلا مجوسـيا من بعض قـرى نيسابور وكان من اصحاب ابى مسلم وصنائعه ، فلمـا قتـل ابو مسلم ثار سنباذ وكثر اشياعه واطاعه اكثر اهل الجبـال الواقعة جنوب بحر قزوين أو بحـر طبرستان وغلب على كثير من بلاد خراسان واضطر المنصور ان يرسـل اليه جيشا كثيفا خاض معه معارك واسعة . انظر ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٤٨ .

(٢) اعلن الثـورة فى هرات وبادغيس وسيستار واجتمع له نحو من ثلاثمائة الف من الانصار وقضى عليـه خازم بن خزيمة .

(٣) عن تعاليم المقنع انظر النويختى : فـرق الشيعة ، ص ٤٢ — ٤٣ ، طبرى ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤ ، و Browne, P.P. 318—319.

(٤) Browne : vol. 1 P. 328.

(٥) انظر : Browne, Literary History of Persis, P.P 821—831.
وهو يرد تعاليمه الى المزدكيـة . انظر الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤ .

وكان مركز الحركة في أذربيجان مركز القلاقل والفتن ، ونالت الحركة تأييـــد الأكراد والأرمن والقوقازيين وسعت الى ايجـــاد تحالف مع البيزنطيين (١) •

وكانت خطـــورة بابك الخرمى آتية من اعتصامه بوعورة المنطقة وتحالفه مع أعداء العرب واستيلائه على الطرق التجارية الشمالية ، وقاوم الدولة بقوة السلاح نحوا من سبع سنوات وهزم أربعة من قواد المـــأمون ، ولم يقم بالعمل العسكرى الحاسم الا المعتصم (٢) ، ولعل هـــذا هو الذى ألجأه الى الاستعانة بالترك •

وشهد عصر المعتصم صورة من هذه الحركات كان طابعها عسكريا أكثر منه عقائديا وأعنى بها حركة الأفشين (٣) فى ما وراء النهر •

على أن هـــذه الحركات الهدامة لم يكن لبوسها ثورات وحركات عسكرية فقط ، انما اتخـــذت لبوسا فكريا يتسرب فى طمأنينة وصمت ونقصد بها حركات الزندقة (٤) •

وكلمة زنديق تطلق على من اعتنق المـــانوية • والجـــاحظ الذى عاش فى عصر المـــأمون درس كتب الزُنادقة وعلق عليها وقرأها بدقة ، وقال انه ينطبق عليها ما عرفه عن المـــانوية ذات النزعة الصوفية ، كما ذكر الأصـــبهانى ما يفيد تأثر هـــــذه الحـــركة بتعاليم قريبـــة من المسيحية والزرادشتية والاســـلام •

---

(١) يعطينا براون بعض التفاصــــيل عن تعاليم بابك الخـــرمى — ص ٣٢٦ — ٣٢٨ . انظـــر كذلك البلخى : البـــدء والتاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) أسره الأفشين وحمله الى سرمن راى . انظر :
Browne vol. I. P. 329.

(٣) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٣٦٢ .

(٤) عن الزنادقة : انظر الغزالى : كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ، ص ٣٢ . الأغانى : ج ٣ ، ص ٧٣ ، ٨٦
Browne. Vol. I. P.P. 159.

ثم انقلبت الى نزعة تحررية تهاجم التقاليد وتنتشر فى أوساط المثقفين خاصة ، حتى لقد قيل ان أبا نواس (١) كان منهم ، وكذلك ولد لمعاوية بن يسار الوزير (٢) واتهم البرامكة بالزندقة فى عهد الرشيد(٣).

على كل حال كان العامة وأشباههم يطلقون على الماجن المستهتر كلمة زنديق ، فحماد عجرد وابراهيم بن سيابة الشاعر كانا يرميان بالزندقة ، وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز أتهم بالزندقة لأنه كان خليعا متهمكا فى الشراب . والواقع أن كثيرا من الشعراء فى ذلك العصر أفرطوا فى دعوة الناس الى الاباحية وحملهم على الاستهتار . وتعرضوا للدين أحيانا وجهروا بأقوال فيها تهكم وسخرية .

وقد رويت أشعار من هذا القبيل نسبت الى بشار وأبى نواس (٤) ، وشاع اتهام بعض الناس بالزندقة لا عن عقيدة انما ليشتهر بالظرف . قال صاحب العقد (٥) . « ان علامة الزندقة شرب الخمر والرشا فى الحكم ومهر البغى » .

وقد اتخذت الزندقة اتجاها آخر وهو اعتناق بعض الناس الاسلام فى الظاهر واستبطان دين الفرس القديم (٦) . وهؤلاء لم يؤمنوا بالاسلام انما آمنوا بسلطانه وأن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال الا بالاسلام . وقوم آخرون سعوا الى فساد العقيدة الاسلامية بالانتساب اليها حتى يستطيعوا أن ينفثوا تعاليمهم

---

(١) انظر راى الجاحظ فى بعض قصائد ابى نواس . الحيوان ، ، ص ١٤٣ — ١٤٤ . الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٣٤ .

(٢) الفخرى ، ص ١٦٣ — ١٦٦ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٤٨ .

(٤) اشار ابن النديم الى من رمى بالزندقة من الملوك والرؤساء ، منهم البرامكة ومحمد بن عبيد الله كاتب المهدى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات .

(٥) العقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٦) أشار صاحب الفهرست الى الذين اظهروا الاسلام وابطنوا الزندقة . ابن طالوت ، ابن الأعدى الحريزى ، صالح بن عبد القدوس ، ومن الشعراء : بشار واسحق بن خلف وعلى بن الخليل ، ص ٤٧٣ .

على أشكال مختلفة طورا فى العلم والدين وطورا فى الأدب ، وأحيانا كانوا يعملون أفرادا وأحيانا جماعات . ومن أمثلة هؤلاء عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى كان يفسد أحاديث الرسول ، وحماد الراوية الذى كان يفسد اللغة والأدب بما يدسه على الشعراء ، وأمثال هؤلاء كانوا يدينون بدين المجوس عن علم ويتظاهرون بالاسلام اضلالا للناس (١) . وقد عرف بهذا النوع من الزندقة فى هذا العصر حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان وبشار ابن برد وابن المقفع ويونس بن أبى فروة ومطيع بن اياس وصالح ابن عبد القدوس وعلى بن خليل ، وقد حفل كتاب الأغانى بتراجم الكثيرين منهم .

وأحيانا تطلق كلمة الزنادقة على أتباع ديانة الفرس دون انتحال الاسلام أو على الذين جحدوا الأديان كلها .

ولم يعرف عن المنصور امعانه فى اضطهاد الزنادقة . وكانت سياسته قمع الفتن الظاهرة . فلما جاء المهدى كان من أبرز الأمور فى عهده تنكيله بالزنادقة والبحث عنهم . وقد عين رجلا عهد اليه بأمرهم سماه « صاحب الزنادقة » (٢) .

وكان المهدى شديد الاهتمام بهذه الفتنة حتى لم ينس أن ينصح ولى عهده أن ينكل بهم (٣) . وقد نفذ الهادى وصية أبيه واشتد فى طلب الزنادقة . ولما آلت الخلافة الى هارون الرشيد نهج نهج من سبقه من الخلفاء فى تعقب الزنادقة (٤) واستمرت الدولة تواجه هذه الفتن بالتحدى والقمع فى عهد المأمون (٥) . وكانت محاكمة الأفشين فى عهد المعتصم صورة

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥١ .
(٢) الأغانى ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ . الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٩ .
(٣) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٤٢ .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٠ .
(٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

معبرة عن اهتمام الخلافة العباسية بهذه الحركة الهدامة ، فلما خرج الأفشين اتهم بالزندقة وألفت محكمة لمحاكمته من أعضائها محمد ابن عبد الملك الزيات وأحمد ابن أبى دؤاد (١) .

وقد تصدى أهل السنة لمقاومة هؤلاء الناس حتى أن طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر ومفكريه بذلوا الجهد الواضح فى مكافحة الزندقة ، وتصدى علماء الكلام لتسفيه الزنادقة والرد عليهم (٢) ، ومن ثم نشأ علم الكلام ، وكان واصل بن عطاء (٣) أول من تصدى للرد عليهم ، وكان لأبى الهذيل العلاف (٤) مناظرات طويلة مع الزنادقة .

وفى العصر العباسى الأول ظهرت نزعتان شهيرتان : نزعة تقول بأن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم .. والناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد . والتفاضل بين الأفراد وليس بين الأمم (٥) . وأصحاب هذه النزعة كانوا يسمون « بأهل التسوية » ويمثلهم أكثر المتحضرين من العرب والعجم ، وخصوصا أن روح الاسلام وقواعده تدعم هذا الرأى . وأطلق على أصحاب هذه النزعة اسم « الشعوبية » لأنهم يقولون « بالشعوب » أى يقولون بأنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم ، فاتخذوا هذا الاسم اعترافا بأن الشعوب سواء ، وسموا بالشعوبية ، ولم يكن فى اتجاه هؤلاء ما يضير العرب أو يغضب الحكومة العباسية . فقد كانوا يستجيبون لشعار

---

(١) انظر محاكمة الافشين الطبرى ، ج ١٠ ، س ٣٦٤ .
(٢) ابن الخياط : الانتصار ، ص ٨١ .
(٣) احمد امين : ضحى الاسلام ج ١ ، ص ٩٧ — ٩٨ .
(٤) من اقوى الشخصيات فى مدرسة البصرة . كان رئيس الاعتزال فى عصره واليه يرجع الفضل فى تطعيم مبادىء الاعتزال بمبادىء الفلسفة وهو محمد بن الهذيل العلاف من موالى عبدالقيس . ولذلك يقال له العبدى . وقد عمر نحو مائة سنة فقد ولد سنة ١٣٥ ومات سنة ٢٣٥هـ فى أول خلافة المتوكل ، وبلغ ذروته فى أيام المأمون . انظر احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ، ص ٩٨ — ١٠٦ .
(٥) العقد الفريد : ج ٢ ، ص ٨٩ .

المساواة الذى رفعه الدعاة العباسيون ، ولكن النزعة الأخرى هى التى نريد أن نلفت اليها النظر وأن نضعها بين المحاولات الهدامة التى تصدى لها العصر العباسى الأول حفاظا على تراثه وثقافته . ولم يكن التصدي على المستوى الحكومى كما رأينا عند حديثنا عن الزندقة انما كان التصدى أمانة فى أعناق أعلام العرب ومفكريهم وكان سلاحهم ليس السيف انما القلم ومقارعة الحجة بالحجة والرأى بالرأى .

والنزعة الأخرى تميل الى الحط من شأن العرب وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم ، وقد أطلق على هؤلاء أيضا اسم « الشعوبية » فالجاحظ وابن عبد ربه يطلقان عليهم هذا الاسم عندما اشتد سلطانهم أيام الرشيد والمأمون . ورد فى اللسان « والشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم » وهؤلاء كانوا يرون أن العرب كافة لا ميزة لهم اذا قورنوا بالرومان أو الهنود أو الفرس وأنه ليس عندهم ما يفخرون به ، فأين ملكهم من ملك الفراعنة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة . والعرب فى زعمهم أضعف الأمم شأنا وأعقمهم يدا وأجدبهم عقلا ، واذا فخروا بالاسلام فليس الاسلام دين العرب وحدهم بل هو دين الناس كافة . ومن الغريب أن الذين حقروا العرب على هذا النحو كانوا ، اما ممن ظلوا على دينهم القديم أو أسلموا ولما يدخل الايمان فى قلوبهم أو غلبت عليهم النزعة الوطنية . وكان الشعوبيون أخلاطا مختلفة منهم فرس ونبط وقبط وأندلسيون . وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء بصبغة خاصة . وبعض هؤلاء الشعوبيين ألفوا فى مناقب العجم : فسعيد بن حميد البختكان ألف كتاب « انتصاف العجم من العرب (١) » وكتاب « فضل العجم على العرب وافتخارها » وبعضهم وضع الكتب فى مثالب العرب كالهيثم بن عدى الذى وضع

(١) الفهرست ، ص ١٢٣ .

عدة كتب فى المثالب منها كتاب « المثالب الصغير » وكتاب « المثالب الكبير » وكذلك سهل بن هارون صاحب « بيت الحكمة » وألف علان الشعوبى كتاب « الميدان فى المثالب » قال فيه ابن النديم « انه هتك فيه العرب فأظهر مثالبها (١) » كما ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتبا كثيرة تعرض فيها للعرب منها « كتاب لصوص العرب » وكتاب « أدعياء العرب » كما ألف كتاب « فضائل الفرس » .

كما عمد الشعوبيون الى أنهم وضعوا فى الأدب قصصا كثيرة تؤيد حججهم واختلقوها اختلاقا . هذا الى أنهم لونوا كل ما رووا من تاريخ الفرس لونا زاهيا جميلا ونسبوا الى ملوكهم الحكم الرائعة والسياسة الحكيمة ، ونكاد نلمس أثر الشعوبية حتى فى الفقه نفسه .

وقد انبرى العرب بأقلامهم لهؤلاء الشعوبيين يردون على ما يذيعونه من مثالب أو ما يشيعونه من أباطيل فى مساجلات طريفة حفظها أدب القرنين الثانى والثالث الهجرى .

وقد دفع هذا العلماء العرب الى النظر فى التراث الغابر محاولين بعثه واحياءه ليدحض نظريات الهدامين ، فانصرف الهمدانى الى احياء غابر اليمن وانصرف آخرون الى الأنساب أو الأصنام أو الأدب القديم حتى ردوا كيد الشعوبيين الى نحورهم ، وأسهموا الى جانب الخلفاء والمتكلمين بمقاومة هذا التيار الهدام .

ويرجع الى العصر العباسى الأول القضاء على هذه الحركات الهدامة ، فقد أسلموا الأجيال القادمة حركة اسلامية قوية مبرأة من الشوائب الى حد كبير .

* * *

---

(١) الفهرست ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

التيـــار الموافق :

أما التيار الآخر الموافق الذى أفاد منه العباسيون وأفاد هو منهم ونعنى به التيار الايرانى الصاعد المتقــدم فى الحـــاح طوال العصر العباسى الأول ، وقــد تجلى هــذا التيار الايرانى الدافق فى ميادين ثلاثة : الميــدان الفكرى والميــــدان الاقتصـــادى الاجتماعى ثـــم الســـياسى .

والتقــدم الفكرى حقيـــقة اعترف بهـا المؤرخ ابن خلدون فى مقــدمته (١) حين قال ان حمـــلة العـــلم فى الاســـــلام أكثرهم من العجم ، واذا درسنا كتب الطبقات (٢) دراسة دقيقة فاحصة لتبين لنا أثـــر هـــذا الدم الجـــديد الذى دخل الى ميـــدان الفكر فى العصر العباسى ، وأسهم فى البعث وكان من مقومات النهضة .

فقد ترك الفنانون الايرانيون أثرا واضحا فى الفن الاسلامى فى العصر العباسى الأول ، وأدى ذلك الى ظهور ما يسمى بالطراز العباسى فى العمارة ، هـــذا الطراز متأثر الى حد بعيد بالأساليب الساسانية .

وقـــد أذاعه العباسيون فى العالم الاسلامى كله فأثر فى العمارة فى مصر ، ثم انتقل الى تونس فى عصر الأغالبة ووصل الى القمـــة فى القرن الثالث الهجرى .

ويذكر الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « فنون الاسلام » (٣) أن التـــأثير الايرانى لم يكن قاصرا على الأساليب الفنية أو المعمارية انمـــا امتد الى الصناعات نفسها ، وبدأت الصناعات فى العصر العباسى تقلد النمـــاذج الفارسية فى الخزف .

---

(١) انظر : المقـــدمة ، ص ٢١٥ .

(٢) أرجو ان يدرس ما ورد فى كتاب ابن النديم : الفهرست بعناية ، انظر مثلا المقالة الثانية من أخبار النحويين واللغويين ، ص ٩٦ — ١١٥ .

(٣) فنـــون الاسلام ، ص ١٣ .

هـذا التـأثير الايرانى طبع الفن بطابع واضح ، فاذا قلنا ان القـرن الثالث الهجرى هو عصر النفوذ الايرانى فى الناحية السياسية فيمكننا أن نقول انه عصر الفنون الساسانية أيضا .

والتأثيرات الايرانية لم تكن قاصرة على الفـن بل تجاوزته الى ميدان الأدب العربى نفسه . وقـد درس الأستاذ أحمـد أمين (١) هـذه الظاهرة فى كتابه ضحى الاسلام ، وهو يرى أن الأدب الفارسى أثر فى الشعر العربى وأن شعر القـرن الثالث بصفة خاصة عربى فى شكله وربما فى لفظه ولكنـه فارسى التعبير .

وقـد أقبل الفـرس على الأدب العربى يتمكنون منه ، وبـرع كثيرون منهم فى قرض الشعر ، وثمـة أمر آخر يشير اليه الأسـتاذ أحمـد أمين وهو أثر الفرس فيما يسميه بالحكم الاسلامية أو عـلم الأخلاق عند المسلمين . وهو يرى أن علم الأخلاق قـد تأثر بالقـرآن والسنة ، وبالكتب المقدسة ولكن التأثير الفارسى كان فى غاية القـوة . ويرى أن ابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفـريد انهما كانا يصوغان حكما عربيـة اللفظ فارسية الموضوع .

وتجاوز أثر الايرانية هـذه الأبعاد وأثر فى الموسيقى والغناء ، وارتباط الشعر بالموسيقى شـديد ودراسة كتاب الأغانى لأبى الفرج تدل على تسرب الكثير من ضروب النغم الفارسى وأساليبه الى الموسيقى العربيـة .

ومن مظاهر التأثر نشأة مجالس الطرب والمنادمة التى شاعت على الخصوص فى العصر العباسى وأصبحت من الأساليب الشائعة فى بلاط الخلفـاء وفى البيوت الأرستقراطية العربيـة والفارسية ، وهـذا الأسلوب فى المنادمة انما هو أسلوب فارسى محض .

---

(١) ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٦٤ — ٢٢٩ .

ولا ننسى أن نشير الى الرسائل الديوانية وهى نحو جديد فى ميدان النثر والترسيل عند العرب ، وأسلوب هذه الرسائل وملتحويه من تقاليد ومبالغات وأساليب خاصة فى التعظيم والتفخيم انما هى أساليب فارسية النبع ، ظهرت للمرة الأولى على يد الكاتب المعروف عبد الحميد الكاتب ثم احتلت مكانها فى تاريخ النثر العربى .

على كل حال تزعمت العناصر الايرانية الحياة الفكرية بمظاهرها كلها ، وحتى العلوم العربية الخالصة التى كان يظن أنها وقف على العرب ظهر فيها الايرانيون ، واحتلوا مكان الصدارة فى النحو والفقه والتفسير وعلم التاريخ ، هذا بالاضافة الى العلوم الدخيلة الأخرى مثل الكيمياء والطب وغيرهما .

وفى ذلك يقول ابن خلدون « ان حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم من العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا فى القليل النادر وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته (١) » ، واذا كان قول ابن خلدون هذا فيه بعض المغالاة الا أن الفرس كانوا فعلا أقدر على التدوين والتأليف . فقد تعمقوا فى الحضارة وتدربوا منذ القدم على التأليف بلغتهم ، فلما اعتنقوا الاسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم سهلا ميسورا ، وكان الموالى فى العصر العباسى الأول فعلا من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة والبراعة فيها ، ومنهم أبو حنيفة النعمان الامام ، وحماد الراوية الذى روى أكثر الشعر الجاهلى وجميع المعلقات ، وكذلك سيبويه والكسائى أحد الأئمة الأعلام فى النحو واللغة والقراءات وأحد القراء السبعة ، والفراء عالم الكوفة الشهير فى النحو واللغة وفنون الأدب ، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى العارف باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامهم ، وأبو العتاهية الشاعر الزاهد ، وابن قتيبة صاحب المعارف وعيون

(١) المقدمة ، ص ٤٧٧ .

الأخبــار (١) .

وامتد المد الايرانى الى آفاق أخرى غير آفاق الفكر ، إمتـــد الى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية . فقد أفاد الايرانيون من المكاسب الأوليـــة التى حققتها الثورة العباسية من اعفـــاء من جزية أو تخفيف أعبـــاء خراج أو اباحة ملكية الأرض أو اطلاق الهجرة .

وقـــد أسهموا فى النهضة الزراعية وفى الانتاج الذى تضاعف فى العصر العباسى الأول ، والذى يعزى الى اطلاق القيـــود التى كانت تعوق نشاط الطبقات العاملة ، كما أفادوا ودعموا النهضـــة الصناعية وأفادوا أكثر من اتساع رقعة التجارة الدولية التى حملت التجـــارة الاسلامية الى أبعد ما يظن من الآفاق .

وقـــد أدى هـــذا الى تحو ل خطير فى حياة الايرانيين ، أدى الى التحول الرأسمالى ، فالبرجوازية القديمة تحولت الى طبقـــة جديدة رأسمالية كانت فى العصر الأموى عربية وأصبحت فى صـــــدر العصر العباسى ايرانيـــة ، اقتنى أفرادها الضياع الواسعة واشتغلوا بالتجارة وفتحوا المصارف ، واقتنو الملايين ، وعاشوا عيشة يصـــورها القصص العباسى فى ألف ليلة وليلة ، ويصـــورها الشـــعر العـــربى بمدائحه وأوصافه ، وتتحدث عنها المراجع التاريخية ، وكانت المدن الايرانيـــة فى الحقيقة يصـــدر عنها اشعاع جديد .

هـــذا التحول الرأسمالى ترك آثارا ربمـــا لا تظهر بوضوح الا فى العصر العباسى الثانى ، فستتحول الى مساوىء اقتصادية معينة تلهب الحركات الثورية ذات الطابع الاشتراكى مثـــل حـــركة الزنج أو حركة القرامطة ، كما يستفيد منها دعاة الاسماعيلية ليؤلبوا النـــاس على الحكم العباسى الجائر .

---

(١) احمـــد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

ولم يكن تقــدم العناصر الايرانيــة قاصرا على ميادين الفــن والاقتصاد والفكر فحسب ، فقد كان هــذا تقدما لا تحسب له السياسة العباسية أى حساب ، انمــا تقدمت هــذه العناصر فى ميدان السياسة والقيادة تقدما حثيثا ، فهى التى أيدت الدعوة فى مراحلها الأولى وهى التى كانت وقود الدولة وكانوا جنــدها المخلصين المعبرين عن ارادتها والمنفذين لسياستها . كان الخراسانيون فى جيل أبى مسلم هم الذين حملوا عبء الكفاح ، وكانوا جند الدولة المخلصين فى زحفهــا نحــو العــراق واطاحتها بالدولة الأموية ، وتثبيت دعائم الحكم العباسى . وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة الهــامة التى كتبها ابن المقفــع وســماها برسالة الصحابة ، والتى تعتبر من أهم الوثائق التى تكشف عن سياسة العباسيين وحقيقة أهدافهم ، فلهــذه الرسالة قيمة كبيرة فى نقــد نظم الحكم ورسم وجوه اصــلاحه ، فقــد رفعت الى أمير المؤمنين ويظن أنه أبو جعفر المنصور (١) لأنه يذكر دولة بنى العباس وقــد استقرت على قدميها ويذكر أبا العبــاس السفاح ويترحم عليه: وقــد أدرك ابن المقفع المكانة الهــامة التى احتلها جند خراسان فى السياسة العباسية ، ومدحهم بأنه لم يــر مثلهم فى الاسلام ، وأنهم يمتازون عن غيرهم من الجند بالطاعة والعفاف والكف عن الفســاد ، والتذلل للولاة والتفانى فى خدمة الخليفة ، حتى ان منهم من كان يقول « ان أمير المؤمنين او أمر أن تستدير القبلة بالصلاة لسمعنا وأطعنا » . وقال داود بن على : « يا أهــل الكوفة انا واللــه ما زلنــا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح اللــه لنا شيعتنا أهــل خراسان فأحيا بهم حقنــا ، وأفلج بهم حجتنا وأظهــر بهم دولتنــا (٢) » . وكان الخراسانيون عدة المنصور فى قضائه على أعدائه وقمــع الطــامعين فى ملكه ، واطفــاء الثورات التى اشتعلت فى الحجاز ، والتمكين لسلطانه

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) الطبرى ، ج ٩ ، ص ١٢٧ .

ومن ذلك قول أبى جعفر المنصــور « يا أهل خراسان انتم شــيعتنا وانصارنا وأهل دعوتنا » ، المسعودى : المروج ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

فى مصر والمغرب وعدته فى جهاده مع الروم . ولم تتخل الدولة العباسية عن عناصر الايرانيين على الاطلاق ، فقد عادوا الى الظهور فى الصراع بين الأمين والمأمون . وكانوا جند المأمون فى القضاء على الأمين والتمكين لنفسه من النفوذ والسلطان ، حتى استعان المعتصم بالترك الغربيين مما وراء النهر ، وكانوا أقرب الى العناصر الايرانية من الأتراك الشرقيين . وقد ترتب على هذا أن ضوعف عطاؤهم ونالوا من الرعاية حقهم وتولى القيادة فيهم رجال منهم وصلوا الى أعلى مراتب السلطة والقيادة . ونالوا من الحقوق بقدر ما كانوا يشتهون . ولو درس النظام الحربى فى العصر العباسى الأول دراسة مفصلة لوجدنا كيف كانت القيادة العسكرية فى جميع القطاعات فى أيدى هذه العناصر الجديدة الفتية الصاعدة الى النفوذ والسلطان ، ولم يصبح الايرانيون هؤلاء من أرباب السيوف فحسب ، بل سيطروا على الجهاز الادارى فى حاضرة الخلافة وفى الولايات الخاضعة لها ، وغلبوا على جميع دواوين الدولة وتولوا مناصب الولاة على البلدان ، ونالوا من الثقة الشىء الكثير . وزاولوا منصب الوزارة منذ فجر الدولة ، وكانت بأيديهم مقاليد السياسة العباسية . وكان الوزراء الظاهرون فى العصر العباسى الأول كله من العناصر الايرانية ، فأبوا سلمة الخلال أول وزير عباسى مولى فارسى ، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور فارسى من موريان قرية من قرى الأهواز ، ويعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك . وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد ، واستوزر المأمون بنى سهل ، وكانوا من أولاد ملوك الفرس من صنائع البرامكة ، وتولى الوزارة الفضل بن سهل والحسن بن سهل ، ومن بعدهم استوزر المأمون أحمد بن يوسف مولى بنى عجل ثم ثابت بن يحيى ابن يسار الرازى . ولو تصفحنا أسماء الوزراء الذين أشار اليهم الجهشيارى (١) لتبينا أن أكثر الوزراء فى العصر العباسى الأول كانوا

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٤

من الفـرس ، والأسـتاذ أحمـد أمين فى كتـابه : ضـحى الاسلام « يعزو هـذا النفـوذ الصاعد فى ميـدان الوزارة الى القـدرة على الكتابة التى كان يشترطها الخليفة فى الوزير ، وأن هـذه القـدرة الكتابية كانت عند الفـرس أبين منها عند العرب » • والحقيقة أن تولى الوزارة كان زحفا من هذه الزحوف التى قام بهـا الايرانيون أصحاب الثـورة وصناعها ، وكما تولوا وظائف الكتـابة فقد كان للوزراء أعوان من الكتاب يعينهم ، ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتابا ، فكان حمـاد عجرد كاتبا ليحيى بن محمد بن صول بالموصـل (١) • وكان ابن المقفع يكتب لداود بن عمـر بن هبيرة والى كرمان ، وكان عمرو بن مسعدة يكتب للمـأمون ، والحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة ، وكان يكتب ليحيى بن خالد البرمكى عبد اللـه بن سوار بن ميمون ، وكان أكثر هؤلاء الكتاب فرسا كالوزراء يحذون حذو أجدادهم من الفرس ، بل وصل الصعود فى مجال العمل السياسى بهـذه العناصر الى حـد احتكار نوع من السلطة السياسية يتوارثه الأبنـاء عن الآباء ، أعنى أنه تكونت لهم فى العصر العبـاسى الأول دويلات وظيفيـة أو أسرات بيروقراطيـة كالبرامكة مثلا وبنى سـهل •

ولكن الأمر الذى يستحق الالتفات هو موقف العباسيين من هذا الطوفان السياسى للعناصر الايرانية • أتم ذلك فى غفلة أو تجاهل أم كان العباسيون يرسـمون لأنفسهم سياسة عميقة بعيدة الغور ولم يتخلوا عن تطبيقها طوال العصر العباسى الأول ؟ ونستطيع أن نكشف عن هذه السياسة بوضوح ، فقد كانت قائمة على أن يشارك هؤلاء الايرانيون العباسيين نفـوذهم وسلطانهم وينالوا من السلطـة ما يطيب لهم ، لكن داخل اطـار محدود لو تجاوزوه لقـادهم هـذا التجـاوز الى مصارعهم ونهايتهم •• كانوا يسمحون لهم بذلك فى حـدود الطـاعة

---

(١) الجهشيارى : نفس المرجع والصفحة •

المطلقة للخلافة والاعتراف الذى لا شبهة فيه بسلطانهم وتنفيذ كلمتهم ، حتى اذا سولت لهم مطامعهم أن يخرجوا عن الطاعة أو يثوروا على السلطة أو يترددوا فى تنفيذ الكلمة كان الكبت والقمع والبتر الذى لا هوادة فيه على الاطلاق ! وكان لهم فى هذا القمع والكبت سياسة مرسومة وهى سياسة ضرب العناصر بعضها ببعض ، فقد ضربوا الخراسانية جيل أبى مسلم بالبرامكة الفرس ، وضربوا البرامكة الفرس ببقايا النفوذ العربى ، وضربوا بقايا النفوذ العربى بالخراسانية فى جيل بنى طاهر ، ثم ضربوا الخراسانية بالأتراك فى عصر المعتصم ، حتى اذا انتهى عهد الواثق وانقضى العصر العباسى الأول كانت العناصر التركية تلك هى التى ضربت الخلافة وسيطرت عليها •

اذن يمكننا أن نقول ان سياسة العباسيين حيال هذه العناصر الايرانية المتقدمة فى المجال العسكرى والسياسى تقوم على عنصرين : المشاركة والموازنة فى اطار الطاعة لبنى العباس ، ثم الكبت والقمع اذا كان ثمة خروج على أركان هذه الطاعة وحدود هذا الولاء • هذه السياسة يمكن أن تعطينا منطقا لأحداث كبيرة حفل بها العصر العباسى الأول ، وكانت هذه الأحداث تثقل على ضمير المؤرخ ، فهو اذا تناولها مجردة وبعيدة عن هذا الاطار الذى رسمناه بدت غدرا وخيانة وتنكرا لأبسط المبادىء • واذا روعيت السياسة التى ذكرت كانت كبتا من جانب الخلافة حفاظا على السيادة والسطوة واحتفاظا بالقدرة والفعالية • فى ضوء ما تقدم يمكن أن نعرض لمحاولات القمع هذه التى حفل بها تاريخ العصر العباسى الأول • ويمكننا أن نعددها على هذا النحو ثم نعرض لها بشىء من التفصيل يفسر السياسة التى أشرت اليها •

مصرع أبى مسلم ، والقضاء على أفراد الأسرة الطامعين فى السلطة ، ونكبة البرامكة ، والنزاع بين الأمين والمأمون ، ونكبة بنى سهل ، ومصرع الأفشين فى عهد المعتصم واتهامه بالزندقة •

وقصة الصراع بين أبى مسلم الخراسانى وأبى جعفر المنصور تستحق العرض والدراسة ، فهى صورة صادقة من القوة الخراسانية المعتدة بنصرها الصاعدة الى النفوذ والسلطان ، وبين الخليفة المنصور صاحب نظرية المركزية فى سلطان الخلافة وسطوتها • ولم يكن يرضيه أن تطغى الخراسانية على سلطان الدولة أو تخرج عليه ، وقد نقل الطبرى (١) تفاصيل كثيرة عن أحمد بن زهير وعلى بن محمد وسلمة بن محارب ومسلم بن المغيرة وسعيد بن أوس وأبى حفص الأزدى والنعمان بن السرى ومحمد بن ابراهيم ، وهذه التفاصيل فى حاجة الى دراسة وتحليل للتعرف على تفاصيل هذا الصراع الطويل الذى هو صورة من انطلاق الطاقة الايرانية وصورة من خوف الخلافة أن تكون الطاقة مدمرة لسلطانها ، وأنها حاولت أن تروضها وأن يسلس لها قيادها •

ومن روايات الطبرى هذه نتبين أن أبا مسلم الخراسانى كان يحس احساسا صادقا بأنه المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس وأنه لولاه لما قامت لهم دعوة ، وكان يحس أن الخراسانيين يلتفون حوله ويأتمرون بأمره ويرون فيه زعيما وبطلا قوميا • وقد وضح هذا الاتجاه من أبى مسلم حتى فى عهد الخليفة الأول أبى العباس السفاح • فقد ذكر الجهشيارى (٢) أن وطأة أبى مسلم ثقلت على أبى العباس وكثر خلافه اياه ورده لأمره • ولعل مما استاء له كثيرا السياسة التى درج عليها العباسيون آنذاك من نقل السلطة من القواد الى أفراد البيت العباسى • وربما كان أبو جعفر المنصور أكثر احساسا من أخيه أبى العباس بخطورة ذلك الزعيم الخراسانى القوى • وقد بدت منذئذ نذر ذلك الصراع بين القوتين • فقد روى الطبرى (٣) أن أبا مسلم أراد أن يحج الى بيت الله فولى الخليفة أبا جعفر امرة

(١) الطبرى ، ج ٩ ، ص ١٥٩ — ١٦٧ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٦٣ .
(٣) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٢٥ .

الحاج فغضب أبو مسلم وقال « أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا » . كما أشار الطبرى الى أن أبا مسلم كان يعمل على الحط من هيبة أبى جعفر ، وأنه كان ينفق الأموال الكثيرة فى الترفيه عن العرب واصلاح الطرق ، وأنه كان يتقدم عليه فى الطريق بعد أداء فريضة الحج . ويبدو أن أبا مسلم كان حريصا على أن يشعر أبا جعفر بقيمته وقيمة العصبية التى تسنده وتؤازره ، فيروى أنه تباطأ فى البيعة للمنصور بعد وفاة أبى العباس ، وأنه نعى أبا العباس وكتب الى أبى جعفر يعزيه فى وفاة أخيه دون أن يهنئه بالخلافة أو يبعث اليه بالبيعة أو يتريث فى طريقه حتى يلحق به الخليفة الجديد . كان صراع أبى جعفر وأبى مسلم يقوم على أسس محاولة ابعاد أبى مسلم عن منطقة نفوذه فى خراسان ، وأن يلقاه وحيدا مجردا من السلطان والنفوذ ، وأنه حريص على أن يحول بين أبى مسلم وبين الاعتصام بخراسان حتى لا يؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها ، فروى الطبرى (١) أنه ولاه مصر والشام فغضب أبو مسلم وقال « هو يولينى الشام ومصر وخراسان لى » . وأراد أن ينطلق فى طريقه الى خراسان ، غير أن المنصور أراد أن يستعين بسياسة اللين والمسالمة حتى يستدرجه الى ما بيته له . فكتب اليه يستدعيه وأرسل اليه من يخوفه من مغبة معصية الامام والخروج عليه فقد كتب اليه نائبه فى خراسان يقول : « انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالف امامك ولا ترجعن الا باذنه » ، فلم يجد أبو مسلم بدا من أن يستسلم حتى لا يظهر بمظهر الخارج على الخلافة المتمرد على سلطانها ، ثم مثل بين يدى الخليفة ودارت بين الرجلين محاورة فى غاية الطرافة كانت أقرب الى المحاكمة منها الى المحاورة ، وهى تكشف عن اعتداد أبى مسلم بنفسه وبالجهود التى أداها خدمة لبنى العباس ، وعن دهاء المنصور وخوفه من انطلاق الطاقة الخراسانية فى وجه الخلافة العباسية ، واليك هذه المحاورة الطريفة :

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ، ص ١٦٧ .

« أخبرنى عن نصلين أصبتهما فى متاع عبد الله بن على قال : هـذا أحدهما الذى على . قال أبو جعفر : أرنيه ، فانتضاه فناوله ، فهـزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه ، فقال : أخبرنى عن كتابك الى أبى العباس ، تنهاه عن الموات . أردت أن تعلمنا الدين قال : ظننت أخذه لا يحل فكتبته اليه فلما أتانى كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم . قال : أخبرنى عن تقدمك اياى فى الطريق . قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك التماس المرفق . قال : فقولك حين أتاك الخبر بموت أبى العباس لمن أشار عليك أن تنصرف الى : تقدم فنرى من رأينا ، ومضيت فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت الى . قال : منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس ، وقلت تقـدم الكوفة فليس عليه منى خلاف . قال : فجارية عبد اللـه بن على أردت أن تتخذها . قال : لا ، ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبـة ووكلت بها من يحفظها ، فقـال : فمراغمتك وخروجك الى خراسان . قال : خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقال : تاللـه ما رأيت كاليوم قط واللـه مازدتنى الا غضبا . ثم أقبل يعاتبه : ألست الكاتب الى تبـدأ بنفسك ، والكاتب الى تخطب أمينة بنت على وتزعم أنك ابن سليط بن عبد اللـه بن عباس ؟ ما دعاك الى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك فى شىء من هـذا الأمر . قال : أراد الخـلاف « وعصانى فقتلته ». ثم انتهى الحوار بمصرع أبى مسلم بالصـورة التى رواها الطبرى (١) .

وبعد ... أنعد هـذا غدرا من المنصور أم حفاظا على مركزية الخلافة وسطوتها والحرص على تقـدم العناصر الايرانية فى نطـاق الولاء للخلافة والطاعة لهـا ؟

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٦٧ .

البرامكة :

والبرامكة ينتسبون الى برمك الذى كان كاهن بيت النار فى مدينة بلخ ، وكان فارسيا عريق النسب فلم يكن يتاح لأحد أن يتولى هذه الأعمال الجليلة فى الحياة الدينية الا اذا كان منسبا . وقد أتاحت ظروف الدعوة العباسية وأحداث الثورة العباسية المتلاحقة لأحد أبناء هذا الكاهن أن يطفو على سطح الأحداث كما طفا غيره من بنى جنسه (١) .

ذلك أن خالد بن برمك بدأ حياته فى عسكر قحطبة بن شبيب الطائى الزاحف الى العراق ، وكان يتقلد الخراج والغنائم . وقد أظهر كفاية ومقدرة لفتت أنظار القائد العباسى فزاده تقديراً،ثم حضر فتح العراق وبيعة السفاح وولى ديوان الخراج والجند وتولى وزارة التنفيذ بعد مصرع أبى مسلمة الخلال،ثم أبقاه المنصور فى الوزارة فكان عونا له فى سياسته نحو المركزية فى جهوده فى الاصلاح الادارى وتثبيت دعائم الحكم العباسى والقضاء على الفتن والحركات الهدامة .

وقد ولى الرشيد يحيى وزارة التفويض وأطلق يده فى كل شىء وحقق نظرية المشاركة الكاملة،وتولى الفضل بن يحيى المشرق كله سنة ١٧٨ هـ (٢) وهو منصب لم يكن يتولاه الا الأمراء . واشترك فى حروب الديلم وأطلقت يده كتائب للخليفة قاعدته مرو،أما جعفر ابن يحيى فقد تولى البريد ودور الضرب والطراز ثم تولى على المغرب كله سنة ١٨٦ هـ (٣) .

وكان يحكم هذه البلاد من بغداد حتى وجه لقمع الفتن فى بلاد الشام .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٧٢ . الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ص ٤٨ ، جـ ٢ . الجهشيارى ، ص ٨٩ . مروج الذهب ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٢) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٦٢ — ٨٧ .

(٣) الفخرى : ص ١٧٩ — ١٨٠ .

وتتحدث المراجع عن النفوذ الذى وصل اليه البرامكة والثروات التى جمعوها والحياة التى عاشوها أقرب الى السلاطين منهم الى الوزراء، والى مدائح الشعراء لهم ووصف حياتهم ولهوهم .

ولم تكن دار البرامكة تقل بهاء عن دار الخلافة نفسها . لقد عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والاسراف وحب الظهور وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ولم يردوا قاصدا .

قيل ان جعفر بن يحيى البرمكي أنفق على بناء داره عشرين مليون درهم ، غير ما يحتاج اليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وما الى ذلك من أسباب البذخ ، وألوان الترف التى تثير عوامل الغيرة فى نفوس أعدائهم وحسادهم ..

ثم كان وقوع النكبة بالبرامكة ويصورها المؤرخون المعاصرون (١) على هذا النحو « فى آخر ليلة من المحرم سنة ١٨٧ هـ بعد أن عاد الرشيد من حجه ، ووصل الأنبار دخل الى فراشه مبكرا على غير عادته ، فلما انصرف جعفر من عنده أرسل وراءه مسرورا كبير خدمه وأمره بضرب عنقه (٢) وقبل أن تنقضى تلك الليلة أمر الرشيد بمن يقبض على يحيى البرمكى وابنيه وحبسهم وأمر بمصادرة أموال البرامكة وفرق الكتب على الولاة بالأقاليم بذلك وبالقبض على أنصارهم ومواليهم وحذر الناس من ايواء أحد منهم » .

واختلفت آراء المؤرخين فى استنباط هذه الأحداث ومعرفة الأسباب الحقيقية التى دفعت بالرشيد الى هذا المسلك ، وبعضهم يلوم الرشيد ويتهمه بالقسوة والعنف وأحيانا بالغدر، وبعضهم ينسب الأمر الى تدخل زوجته زبيدة والفضل بن الربيع والحزب العربي المتطلع الى استعادة النفوذ .

---

(١) انظر الطبرى : ج ١٠ ، ص ٧٩ .
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٨٤ .

والبعض الآخر يرى أن ميل البرامكة الى العلويين هـذا الذى عجل بوقوع الكارثة ، وبعضهم يأخذ بأسلوب القصاص وينسج الأخيلة حول العباسة أخت الرشيد وولعهـا بجعفر بن يحيى وما تلا ذلك من غضب الرشيد (١) .

والدكتور حسن ابراهيم له آراء فى تفسير أسباب هـذه النكبة ويلخص هذه الآراء على النحو الآتى :

« اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير فى السبب الذى دفع هارون الرشيد الى نكبة البرامكة ، مع أنه شب فى حجر يحيى بن خالد البرمكى حتى يدعوه يا أبت . فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين أخته العباسة ، وبعضهم يقول ان ذلك كان بسبب اطلاق جعفر البرمكى يحيى بن عبد الله العلوى بعد أن أمره الرشيد بحبسـه ، وبعضهم يقول ان استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس اليهم ، وأن ذلك أوغر صـدر الرشيد عليهم وحمله على الايقاع بهم (٢) .

أضف الى ذلك ما أظهـره البرامكة من الدالة على الرشـيد مما لا تحمله نفوس الملوك ، وسعاية أعداء البرامكة وبخاصة الفضل ابن الربيع بهم عند الرشيد .

كذلك روى الطبرى من الشواهد (٣) ما يدلنا على مبلغ حقـد الرشيد على البرامكة وعمله على الغض من شـأنهم ، حتى أنه أمر غلمـانه بالاعراض عنهم والاستهتار بهم اذا دخلوا قصره ، دخـل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد فقام الغلمان اليه ، فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى اذا دخل الدار . قال :

---

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم : جـ ٢ ، ص ١٤٧ .
(٣) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٨٠ .

فدخل فلم يقم اليه أحد ، فاربد لونه • وكان الغلمان والحجاب بعد اذا رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من المـاء أو غيره فلا يسقونه ، وبالحـرى ان سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بهـا مرارا » (١) •

أضف الى ذلك ما ذكره ابن عبد ربه فى محاورة الأصمعى للرشيد والفضل بن يحيى وغيرهم ، وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد دسـوا للمغنين شعرا يثير عامل المنافسة والحقد فى نفسه • وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على سماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم •

ويعـزو بعض المؤرخين نكبة هـذه الأسرة الى حوادث ليست فجائية كالتى تقدمت ، وانما هى أمور جاءت متتابعة : منها أن الرشيد كان يميل كثيرا الى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة ، فكانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك ، وكان الفضل يظن أن الذى حملها على ذلك انما هو جعفر البرمكى • فلما ماتت الخيزران ولى الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان فى يد جعفر •

وأعقب ذلك اطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى خرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، فبعث اليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل ، فما زال به حتى مال الى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد ، فكتب اليه الأمان بخطـه • وشهد عليه فيه القضـاة والفقهاء وكبار بنى هاشم ، ولـما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والاكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه اذ علم أنه يعمل لخلعه ، واستفتى الفقهـاء فى نقض الأمان الذى أعطاه يحيى ثم سلمه لجعفر بن يحيى البرمكى فأطلقه •

لذلك لا نعجب اذا ساءت العـلاقة بين البرامكة وبين الرشيد ،

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٨٠ .

وساعد على اشعال هـذه النيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره ، وكراهة زبيدة أم الأمين للبرامكة ، اذ كانت تظن أن الرشيد قـد عهد الى ابنه المـأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكى . أضف الى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسى كان يدعو الى نفسـه ، وأن البرامكة كانوا يساعدونه ، فغضب الرشيد عليهم وحبس عبد الملك معهم .

ويتبين من دراسة النصوص أن الرشيد كان يتصرف وفق خطة مرسومة مبيتة تظهر من مقتل جعفر ومصادرة الأموال والكتابة الى الأقاليم لضمان ألا يتحرك أنصارهم للعمل . ولا يمكن أن يكون ذلك مفاجأة على الاطلاق . والسبب الحقيقى هو شعور الخلافة باختلال التوازن فى قضية المشاركة . وقـد أدرك الرشيد اختلال التوازن من تصرفات يحيى وأولاده ، وهو نفس الحافز الذى دفع المنصور الى الاحاطة بأبى مسلم ، وهو الذى سيدفع المـأمون الى مصرع الفضـل ابن سهل والمعتصم الى قتل الأفشين ، كان هذا تصرف الخلافة للمحافظة على فعاليتها ولو على حساب أى ولاة أو أية مبادىء .

كان العنصر العربى هنا قـوة ترجيح اعتمدت عليهـا الخلافة فى أحـداث عملية التوازن ، وقـد شارك العرب فى الافادة من تغير الرشيد ، أفاد من ذلك الفضـل بن الربيع وزبيدة وأفلحا فى تنصيب الأمين وليا للعهـد ، ولا يبعد أن تكون مؤامرات القصر قـد أفادت من هـذه التطورات كما أفادت منها جميع العناصر المتطلعة الى مزيد من السلطة .

الصراع بين الأمين والمـأمون :

أورد الطبرى (١) ثروة طائلة من الأخبار وحشـدا من الروايات والوثائق والعهود والمواثيق عن هذا الصدام العام الذى شهده العصر

---

(١) انظر الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٤٢ — ١٦١ .

العباسى الأول ، وبالدراسة الفاحصة لهذه الثروة الطائلة من الأخبار نتبين أن ثمة عوامل كثيرة متشابكة صنعت هذه المأساة • منها ما نسب الى الرشيد من تقديمه الأمين فى ولاية العهد عن المـأمون واحساسه بالهوة التى تردى فيهـا دفعه الى الافراط فى أخـذ العهود والمواثيق حتى لكأنه كان يحس فى قرارة نفسه بأن الأخوين سيقتتلان بعـد وفاته • ثم نضال العنصر العربى الذى أحرز النصر فى مأساة البرامكة وسعيه الى مزيد من كسب ومزيد من تأكيد النفوذ والسلطان • وقـد لا يتحقق نفوذه وسلطانه الا فى ظل خليفة كالأمين أمة عربية خالصـة فألقى الحزب العربى بثقله كله خلف الأمين لأنه اعتقد أنهـا فرصته الوحيدة بل فرصته الأخيرة • ثم العنصر الخراسانى الذى لا يمكن أن يعود الى الظل حتى ولو صرع أبو مسلم بل لابد له أن يعود الى الظهـور من جـديد جارفا طاغيا لا يقف فى سبيله شىء • ولم يكن من المعقول أن يختفى فجأة • ولم يكن من المعقول أيضا أن يستطيع العنصر العربى الضعيف أن يملأ الفراغ الذى تركه اختفاء البرامكة فكان طاهر بن الحسين هو أبو مسلم الجديد ، وكان المـأمون هو الامام الذى التفت حوله الخراسانية الجديدة ، كما كان أبو العباس الشعار الذى سارت من خلفـه الخراسانية القديمـة • ولذلك نستطيع بكل طمأنينة أن نضع هـذه المـأساة فى نفس الاطار الذى وضعنا فيه البرامكة وأحداثهم ومأساتهم • وهو اطار الحكومة الحفيظة على تأكيد سلطانها والتى استعانت بالعرب لتقضى على البرامكة الفرس واذا بها تواجه تطلع العناصر الايرانية مرة أخرى الى مزيد من السلطان ، وتأكد انتصار المـأمون ، هو لقـاء على نفس المستوى بين هـذه العناصر الجديدة على نحو ما كان اللقاء بين المنصور وبين الرشيد وبين هـذه العناصر ، وكيف كان المـأمون أشد حرصا على السير فى نفس الخط الذى ر ـه الخلفاء لأنفسهم منذ قيام الدولة •

وجذور هـذا الصراع بين الأمين والمـأمون الذى استمر نحو خمس سنوات وخضب الأرض دما فى العراق وخراسان وانتهى بمصرع

خليفة ومصرع نفوذ الحزب العربى ، ترجع الى عهد الرشيد نفسه وتوليته ابنه الأمين العهد وتفضيله على ابنه الأكبر المأمون .

ولنبدأ بعرض الوقائع : ولى الرشيد ابنه الأمين العهد عام ١٧٥ هـ (١) وهو العام الذى جعله فيه والى المغرب لما بين ولاية المغرب وولاية العهد من صلة . ولم يكن الأمين يزيد يومئذ على عشر سنين (٢) . ثم ولى الرشيد ابنه المأمون العهد سنة ١٨٢ هـ (٣) وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ولابد أنه ولاه المشرق يومئذ . فلما كان حج سنة ١٨٦ كتب الخليفة على ولى عهده شرطين احتاط فيهما لأحدهما على الآخر وأشهد على تلك الكتب وعلقها بالكعبة (٤) .

ثم أضيف الى شرطى الكعبة عهد آخر كتب فى قرماسين سنة ١٨٦ (٥) ، ثم كتب الرشيد بولاية العهد للآفاق ١٨٦ (٦) وهو التاريخ الذى أصبحت ولاية العهد فيه رسمية فلدينا أربعة نصوص : شرطا الكعبة وشرط قرماسين والكتاب للآفاق وتتضمن شرطا على

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٣ . وضم اليه الشام والعراق .
(٢) وفى رواية أخرى خمس سنين : الطبرى ج ١٠ ص ٥٣ .
(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٦٩ — وولاه من همذان الى آخر المشرق .
(٤) انظر الطبرى : ج ١٠ ص ٥٣ . روى الطبرى أن الرشيد لما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين فى البيت الحرام وكانت نسخة الكتاب .
انظر الطبرى : ج ١٠ ص ٧٣ ، ٨٩ ونسخة الشروط الذى كتبه المأمون بخط يده ، ج ١٠ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ونسخة كتاب هارون الى العمال ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، وكلها وثائق هامة جدا تكشف الخلافة وسياستها واتجاهاتها .
(٥) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٩٦ .
« ان جميع ما له فى عسكره ذلك من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وما سوى ذلك لعبد الله المأمون وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير وجدد البيعة له على من كان معه ووجه هرثمة بن أعين صاحب حرسه الى بغداد فأعاد البيعة على محمد بن هارون وعلى من بحضرته لعبد الله والقاسم » .
(٦) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

عبد الله المـأمون كتبه المـأمون بصيغة المتكلم يتعهد عن نفسه قبل الخليفة وقبل الناس بما فيه ، وشرطا مكتوبا على محمد الأمين كتبه الأمين بصيغة المتكلم يتعهد عن نفسه قبل الخليفة وقبل الناس بما فيه .

وكانت التزامات محمـد كمـا يلى « ... أمير المؤمنين ولانى العهد .. وولى عبد الله .. بعدى .. وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وعشورها وجميع أعمالها فى حياته وبعد — وتعهد من الأمين على تسليم ذلك له وتسليم ما أقطعه أمير المؤمنين للمأمون من قطيعة أو جعل له من عقـدة أو صنيعة ، وتسليم ما ابتاع المـأمون لنفسه من الضياع والعقد أو ما أعطاه أبوه من مال أو حلى أو كسوة أو منزل أو دواب » .

أما شرط المـأمون فهو يذكر أن « أمير المؤمنين ولانى بعد أخى ، وولانى فى حياته (أى حياة الرشيد) ثغور خراسان ، وبعد مماته على أن لا يعرض لى الأمين فى شىء مما أقطعنى أمير المؤمنين وما أعطانى ، وعلى أن لا يعرض لأحد من عمالى بسبب محاسبة ، ولا يدخل على ولا عليهم مكروها فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير .

وعلى أنا أن أنفذ كتبه وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه من ناحيتى ، فان احتاج محمد منى الى جند فعلى أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر فى شىء كتب به » .

هـذه هى الشروط المكتوبة بين الأخوين . ولكن تنفيذها السليم لا يكون بطبيعة الحـال الا على أسـاس التفاهم وحسن الصلة بين الأخوين .

وقـد كان ما بينهما متباعدا فى حيـاة أبيهما فلما مات لم يرد أحدهما الآخر ، أما المـأمون فقصد ولايته ولم يبرحها ، أما الأمين فكان يخشى عاقبة هـذا الاعتكاف عنه .

وكان طبيعيا أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر . أما المأمون فيجب أن يسوء ظنه اذا نظر الى سوابق ولى العهد الثانى ، أما الأمين فلأن أخاه معتكف ولأنه قد يجعل من خراسان قاعدة هامة للخلع ، فهو يخافه (١) .

وكان طبيعيا أن تسوء الظنون لأن طبيعة الاستئثار بالملك تحفز الأمين على اليقظة لكل حركات أخيه وتأويلها . أما وقد قسم الأب البلاد قسمة فانه قد غرس غرسا كريها ، لأن ولاية الخليفة عامة .

وقد طلب الأمين من أخيه طلبات كلها من حقه فكان الرد الاعتذار دائما (٢) .

سحب الأمين الجيش الذى كان بطوس حيث مات الرشيد وكان الرشيد ينوى ضمه للمأمون ، وعهد بتنفيذ هذا السحب لبعض خواصه فى نفس اليوم الذى مات فيه أبوه . وليس ذلك مخالفا للشرط فقد شرط المأمون على نفسه فقال : فان احتاج محمد الى جند ... فعلى أن أنفذ أمره . وقد مر الحادث بسلام ، وكانت كتب المأمون للأمين فى هذا الظرف بالذات لطيفة .

ثم استقدم الأمين المأمون (٣) فاعتذر بضرورة البقاء ثم احتج فقال « وقد أمرنى الرشيد بلزوم الثغر » . كما طلب المأمون من الأمين حرمه وأهله ومائة ألف دينار أوصى له بها أبوه من بيت المال فرفض الأمين .

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٢٨ .
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٢٥ .
(٣) الم تكن محاولة استقدام الأمين اخاه من مرو شبيهة باستقدام ابى مسلم من قبل .

وهنـا طلب الأمين من المـأمون التنـازل عن قسـم مضموم لخراسان ضما مؤقتا وارجاعه الى ما كان عليه (١) وهـو طلب مخالف لظاهر الشرط • ولكنه طلب من حق الأمين صاحب السلطان • وقـد تلطف الأمين فى صيغة الطلب فطلب « الصفح » أو « التجافى » عن بعض الكور، وعلل ذلك فقـال « ان أمير المؤمنين وان كان أفـردك بالطرف وضم اليك من كور الجبل . فان ذلك لا يوجب لك فضلة من المـال •• وقـد كان هـذا الطرف كافيا لأمره ، وقـد ضم اليك الى الطرف كورا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك بهـا ، فالحق أن تكون مردودة فى أهلهـا » (٢) •

وكان الأمين جادا فى التهديد ، فمـا كاد يصله الرفض حتى أمر بالامساك عن الدعاء للمأمون على المنابر فى كل الآفاق (٣) •

وأمر الأمين بابطال عملة كان المـأمون ضربها فى خراسان سنة ١٩٤ هـ ولم يذكر عليهـا اسم الأمين ، وأمر الأمين باسقاط اسـم المـأمون من الطرز (٤) •

وبعث الأمين حاجبـا وسأله التلطف فى أخذ الكتابين المعلقين بالكعبة فسرقهما وجاء بهما فحرقهما •

كما أمر قائده على بن عيسى بالسير الى خراسان على أن يكون واليها من تحت يد موسى وركب الأمين مع قائده حين خروجه فجعل يوصيه ويقول : « أكرم من هناك من قواد خراسان ، وضع عن أهل خراسـان نصف الخراج (٥) ، ولا تبق على أحـد يشهر عليك سيفا أو يرمى عسكرك بسهم ، ولا تدع عبد الله يقيم الا ثلاثا من يوم أن تصل اليه حتى تشخصه الى ما قبلى » •

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٣٢ •
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٣٣ •
(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٣٦ •
(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٣٨ •
(٥) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٣٩ •

ومن هـذا البيان نتبين الخطـوات التى اتخـذها المـأمون ، أما الضرب الذى أهمل فيـه ذكر الأمين فمعروف التاريخ يرجع الى قبل بعث الجند بسنة ، أما قطع البريد واسقاط اسم الأمين من الضرب ودعاء المـأمون لنفسه فحادثة محـدودة التـاريخ والراجح أنهـا وقعت سنة ١٩٥ فقط • ولعل المـأمون لم يتسم بأمير المؤمنين الا بعد هزيمة جيش شيخ الدولة على بن عيسى بن ماهان •

أما تفاصيل الصراع فهى على النحو الآتى :

كان الأمين هو البادىء بالعدوان فقد سير قائده على بن عيسى الى خراسان لاغتصابها من المـأمون وجند فيه طاقته كلهـا وقوته كلهـا ، واشتركت فيها عناصر عربية قوية وهو أشبه بالجيش الذى جنده مروان بن محمد بقيادة ابن هبيرة لقتال جيش قحطبة بن شبيب الزاحف على العراق فى فجر الثورة ، ثم تصدى له الخراسانيون كما تصدوا بالأمس • وما أقرب الشبه بين أبى مسلم وطاهر بن الحسين • وكانت هزيمة هـذا الجيش قاصمة بالنسبة للحزب العربى وانتصرت الخراسانية مرة أخرى • فى شوال سنة ١٩٥ هـ (١) •

وتحول فيها المنتصر الى الهجوم والتقدم فى المنطقة التى أمامه وهى منطقة الجبل وحصونها همدان وحلوان وغيرها ، وتذكرنا بزحفة قحطبة بن شبيب بالأمس عام ١٣٢ هـ وهـو التحول الى الهجوم عبر منطقة الجبال ، وانهزمت الجيوش العراقية وتقـدم طاهر على أثر انتصاره نحو قرية من قرى حلوان تسمى شلالان وصار بازاء حلوان الباب الوحيد الباقى لحماية العراق •

ثم انتقلت الحرب من الهجوم على مداخل خراسان الى الدفاع عن مداخل العراق من ناحية الجبل ، وفى سبيل هـذا الدفاع بذلت الخلافة آخـر جهدها تقريبا فجندت ٢٠ ألفا من العرب ومثلهم من

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٤٣ •

الأبناء واتجهت (١) الى تجنيد عرب الشام أيضا . وكان ذلك اتجاها جديدا فقد كانت أكثرية الجيش قبل هـذه الجولة من الأبناء وكان ذلك خطة أفقدت الجيش انسجامه .

أما الأبناء فقد ولى أمرهم عبد الله بن حميد بن قحطبة وهـو من بيت له ماض حربى . وولى أمر العـرب أسد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، اختاره الفضل بن الربيع وقال له : انمـا نحن شعب من أصل ان قوى قوينا .. ان هـذا (يريد الأمين) قـد ألقى بيده القاء الأمة ... وأنت فارس العرب (٢) .

وحاول الأمين أن يبذل جهدا لصـد هـذا الجيش عن العراق فهزمت جيوشه الثلاثة ، وكانت الجولة الأخيرة حصار بغداد ثم مصرع الأمين فى ٣٥ المحرم سنة ١٩٨ .

كان الخراسانية جند الدولة الذين دخلوا العراق عام ١٣٢ هـ لانهـاء الحكم الأموى ، فاذا بهم اليوم جند المـأمون الذين دخلوا بغداد ليقتلوا خليفة وليضعوا حـداً للنفوذ العربى الذى برز فى سماء بغداد منذ عهد الرشيد حتى مصرع الأمين . فليس عجيبا أن تحقق الخراسانية أطماعها وأن تطلق يـد طاهر بن الحسين فى خراسان . طاهر بن الحسين (٣) الذى نسميه بحق أبا مسلم الجديد .

بنـو سهل :

وتكرار ظاهرة التحول البيروقراطى فى عهد المـأمون بعد نكبة البرامكة وتصفية مشكلة الأمين يدل على أنها لم تكن مجرد فقاعة من فقاعات السطح تظهر ثم تنفجر انما يدل على ظاهرة تنبع من داخل

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٦٠ .
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٥٧ — ١٥٨ ثم تولى بعـده أحمـد ابن مزيـد .
(٣) سـمـاه المـأمون ذا اليمين وصاحب حبل الدين : الطبرى ج ١٠ ، ص ١٥٠ .

المجتمع العباسى ومن واقع العناصر الايرانية الصاعدة نحو النفوذ ، فقد فعل بنو سهل فى عهد المـأمون ما فعله البرامكة فى عهد الرشيد .

ذلك أن الفضل بن سهل (١) تقرب من المـأمون بمثل ما تقرب به الرشيد من يحيى بن خالد ، فقد كان كاتب المـأمون ولى العهد وألصق الناس به ، بل كان يدبر ليضمن للمأمون حقه ويحميه ، فقد أشار عليه بالذهاب الى خراسان ليلتمس فيها الأنصار وليبعد عن سطوة الأمين وحـزبه .

ولمـا رأى الهوة تتسع بين الأمين والمـأمون أعده للمستقبل ومهد له الطـريق الى الخلافة ولعب دورا فى تكتيل الخراسانية خلف قضية المـأمون ، وبهـذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه وكانوا يقولون : ابن أختنا وابن عم رسول اللـه (٢) . وقد شجعه على الصمود فى وجه قوات على بن عيسى الزاحفـة الى خراسان ، ولعب دورا كبـيرا فى ترجيح كفته . وكان من الجهود التى بذلها حسن اختيار القواد وحسن اعداد الجيش بمـا يلزمه .

ولمـا آلت الخلافة الى المـأمون واستقر به الأمر فى بغـداد وفى للفضل كما وفى الرشيد ليحيى بن خالد فقد ولاه وزارة التفويض وأمر بأن يخطب له بعـده وولاه المشرق كما تولى الفضل بن يحيى من قبل ورتب له أجـرا قدره ثلاثة ملايين من الدراهم فى السنة (٣) .

ولقبه ذا الرياستين ، رياسة الحرب ورياسة التدبير ، ومنحه لقب الامارة فكان أول وزير يجمع اللقبين ، وكتب له توقيعا يـدل على مدى تعظيمه له واعترافه بفضله . أما الحسن أخوه فقد تولى كور الجبـال

---

(١) فى رجب سنة ١٩٦ عقد له المـأمون على المشرق من جبل همدان الى جبل سقينان والتبت طولا ومن بحـر فارس والهند الى بحـر الديلم وجرجان عرضا وجعل له عمـالة ثلاثة آلاف الف درهم وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين واعطاه علما وسماه ذا الرياستين . الطبرى ، ج ١٠ ، ص ١١٦ . الجهشيارى : ٢٧٨ — ٢٧٩ — ٢٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) الجهشيارى : ص ٢٧٩ .

(٣) الجهشيارى : ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

والعراق والحجاز واليمن (١) . وبلغ من تأثير بنى سهل على المأمون أن الفضل أغراه بتولية على بن عيسى الرضا العهد من بعده وأراد تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين .

ويبدو أن عقدة الظهور التى وجهت البرامكة كانت من وراء بنى سهل توجههم الى نفس المصير ، فقد أخذ الفضل يمكن لنفسه فى خراسان ليعيد دور أبى مسلم القديم ، بل حاول أن يبسط نفوذه على بغداد نفسها ويسعى للوقيعة بطاهر بن الحسين وهرثمة رجلى المأمون (٢) ، بل أراد أن يطيح بالخلافة العباسية نفسها ، وقد ذكر الجهشيارى على لسان نعيم بن خازم قوله للفضل « انك انما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا (٣) » .

وقد أحست الخلافة بالخطر وانقلاب التوازن وخافت ضياع هيبتها وفعاليتها ، كما تحركت من قبل فى عهد المنصور والرشيد . وقد سار المأمون من مرو ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ومعه كذلك بعض الجنود ، وظل الركب يسير حتى وصل سرخس فحط الركب رحاله وفيها دبر المأمون من فتك بالفضل بالحمام فى شعبان سنة ٢٠٢ هـ (٤) .

وهكذا كانت الخلافة فى العصر العباسى الأول تستفيد من العناصر الايرانية ، وتطلق لها من السلطان السياسى ما لايخل بمبدأ التوازن ، فاذا أحست بالاخلال بادرت الى الفتك والتنكيل ، وسيظل هذا دأبها حتى اذا كان العصر العباسى الثانى وفقدت الخلافة قدراتها وفعالياتها لم تستطع أن تقيم التوازن فاختل ، وكان اختلاله فى ثوب الحركات الاستقلالية التى ملأت سماء العصر العباسى الثانى .

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٦١ .
(٢) حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٦٣ .
(٣) الجهشيارى : ص ٣١٣ .
(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٥٠ .

الفصل الثانى

الخلافة ونظم الدولة

١ ـ الخلافة :

هذا الموضوع سنحكم فيه بنفس المقياس الذى سنحكمه فى دراسة موضوعات العصر العباسى كله ، وهو الثورة وفعالية شعاراتها ومدى تطبيق هذه الشعارات ، هل أدت ظروف الثورة العباسية والنجاح الذى ظفرت به الى تغيير فى نظام الخلافة كما عرفته الحياة الاسلامية منذ أبى بكر الصديق حتى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ؟ والاجابة عن هذا السؤال تقتضى أن نعقد مقارنة موضوعية بين روح هذا النظام فى السابق وفى العصر العباسى لنلتمس ظروف التغيير ومظاهره ، وقد يلزم أن نعرض للمصادر التى نستقى منها المادة التى تمكننا من الادلاء برأى فى الموضوع .

من هذه المصادر ما يعطينا الجانب النظرى للموضوع ، ومنها ما يعطينا الجانب العملى أو التطبيقى . الجانب النظرى من الموضوع تعرض له كتب الفقه فى الباب الذى تفرده لنظام الخلافة ، وتعرض فيه للأصول الدستورية والادارية والحربية والقضائية (١) .

أما الجانب التطبيقى فيظهر من دراسة سير الخلفاء العباسيين كما وردت فى كتب التاريخ ، أو القيام بدراسة فاحصة للرسائل العباسية وخصوصا رسائل الخميس أو رسائل التقريظ (٢) .

---

(١) انظر : الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب . قدامة : نبذ من كتاب الخراج . وصنعة الكتابة . الماوردى : الأحكام السلطانية . ابن قتيبة : الامامة والسياسة . Arnold; The Caliphate.

(٢) احمد زكى صفوت : رسائل العرب ، ج ٣ و ٤ .

فمـا الذى يمكن أن نتبينه من هـذه المصادر بنوعيها ، ما هى الاتجاهات الجديدة وما هو مدى التغير وفعاليته ؟

كانت الخـلافة المركزية هى الشـكل المثالى الذى آثره الفقهـاء وتمسكوا به فى كتب الفقه التى تتعرض لأصول الحكم ، فقد ظل الفقهاء برغم تطـور الأصول الدستورية يعتبرون الخلافة المركزية هى الشكل الشرعى الذى اكتسب صفته القانونية من الاجماع ، بمعنى أن فكرة الخلافة المركزية فكرة أنشأها اجماع الراشـدين فى جيل الصـحابة الأوائل ، واكتسبت لذلك صفة القاعدة الدستورية الثابتة (١) ، فالى أى حد حافظ العباسيون على هـذا الشكل المثالى للخلافة ؟

ولا نستطيع أن نتخذ عصر السـفاح قاعدة لأنه كان عصر تصفية وتثبيت لأهداف الثورة ، كما أنه لم ينفـرد بسلطـة ، انمـا أشرك بنى العباس كلهم باعتبار أن القضية هى قضية مصير بالنسبة لهم .

والمنصور هو الذى حاول بكل ما استطاع من قوة وجهد أن يحقق النمط التقليدى للخـلافة القـوية القـادرة المسيطرة . ولعـله من هـذه الوجهة يمكن أن يسمى بالمؤسس الحقيقى للدولة العباسـية . فقد تصدى لمشاكل كثيرة وقف فى وجهها دون خوف وتغلب عليهـا جميعا ، ووضع الأساس الحقيقى للنظام العباسى . كما أن خلفـاءه من بعـده ظلوا حريصين على هيبة الخـلافة التى حققها المنصور ، وأخص بالذكر المهـدى والهـادى وصدر عصر الرشيد .

وجهاد المنصور فى تحقيق الشكل التقليدى للخـلافة الاسلامية يستحق التنويه والتوضيح . وأول ما واجهه المنصور هو التصـدع

(١) المـاوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٨ — ١٢ — ٤ — ٦ — ١٣ — ٢٠ .
ابن حـزم : الفصـل ج ٤ ، ص ١٦٣ — ١٧١ . الشهرستانى : ج ١ ، ص ٢٠ — ٣١ .
مقـدمة ابن خلدون ، ص ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٤٦٥ . انظـر كتبـه متز وجولدتسيهر وارنولد وحسن ابراهيم .

فى البيت الخـلافى نفسه ، وطمع بعض الأعمـام وأبنـاء العمـومة فى الخلافة ،وخصوصا بعد أخذ البيعة للمنصور ، فقد خرج عبد اللـه ابن على فى مطلع عهد المنصور ، وقـد هزمه أبو مسلم الخراسانى بعد حرب ظلت خمسة شهور . وقـد هرب ولجأ الى البصرة حيث أخواه سليمان وعيسى . وكان المنصور فى هـذه المواجهة بعيد الغور شديد الدهاء ، فقد كتب أمانا لعبد اللـه بن على (١) واشـترط أن يسلمـه عهد الأمان بنفسـه ، وقـد جاءه سليمان وعيسى ومعهما عبد اللـه وظل فى محبسه حتى عام ١٤٧هـ ؛ ثم قتله ولم يغنـه عن مصيره ذلك حسبه أو نسبه أو قرابته ، أو جهوده فى تكوين الدولة ولا وقوفه فى وجـه مروان بن محمد (٢) ، وما زال بعيسى بن موسى حتى جمـله على أن يقـر بيعـة المهـدى بالخلافة بعد المنصور ، فقد ألزم عيسى أن يواجه النـاس فى المسجد الجامع ومعه الوزير ليعلن بنفسه على الناس « أنى قـد سلمت ولاية العهد للمهدى وقدمته على نفسى » . ولكن الوزير لم يكتف بذلك فقال « ليس هكذا أيهـا الأمير ، ولكن قل : لحقـه وصـدقه ، وأخبر بمـا رغبت فيه وأعطيت » فقال عيسى بعد هـذا : نعم قـد بعت نصيبى عن تقـدمى فى ولاية عمه عبد اللـه أمير المؤمنين لابنـه محمد المهدى أمير المؤمنين بعده بعشرة آلاف ألف درهم بطيب نفس منى ورغبتى فى تصييرها اليه ، لأنه أولى بالتقـدم فيها وأحق وأقوم بهـا وأقوى على القيام بها منى (٣) » .

وقضى المنصور على الحركات التى ظهرت بعد مصرع أبى مسلم وأقـر السلام فى فارس وخراسان ، كما واجه الثورات العلوية التى قامت فى عهده وخصوصا ثورة محمد النفس الزكية فى عام ١٤٠ (٤) ، وقـد أعد المنصور لمحاربته جيشا بقيادة عيسى بن موسى فقضى على

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .
(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٢٦٥ .
(٣) الجهشيارى : ص ١٢٧ .
(٤) الطبرى : ج ٩ ، ص ٨١ — ١٨٧ .

هـذه الثورة وأطفـأ نارها . وكان ابراهيم (١) أخو النفس الزكيـة قـد دعا لنفسه بالبصرة منتهزا فرصة اشتغال المنصور بجرب أخيه ، وقـد بعث اليه عيسى بن موسى فسار اليه وهزم جيشه وقتله قبـل نهـاية ذى القعدة من العـام الذى قتل فيه أخوه (٢) .

وكما حرصت الدولة على تأكيـد سلطان الخـلافة فى بغـداد والعراق ، فانها كانت حريصة أيضا على تحقيـق النمط المركزى فيما يتعلق بالولايات الخاضعة لسلطانها ، فكانت الدولة العباسية حريصة على مصر حـرص الأمويـين عليهـا . وكانت لا تزال تعتبر قاعـدة الاسكندرية من أهـم القـواعد لتثبيت سـيادتها فى البحر الأبيض المتوسط . ولم تهن أو تضعف فى المحافظة على نفوذها فى البـلاد . فقد بدأت الخلافة تواجه المتـاعب فى مصر فى ولاية موسى بن مصعب الخثعمى الذى ولى فى ذى الحجة سنة ١٦٧هـ ، وبدت نذر الثـورة بين أهـل الحوف ، وتحالفت القيسـية واليمانيـة واتفقوا مع أهـل الفسطاط ، وخرج موسى فى جند الفسطاط ونشبت الحرب مع القيسية واليمانيـة ، كما عقد لعبد الرحمن بن موسى فى خمسة آلاف من أهل الديوان وبعثه الى الصعيد لقتـال دحية بن مصعب ، ثم تولى الفضل ابن صالح بن على العباسى فى المحـرم سنة ١٦٨ وكان عليه أن يواجه الفتن التى اشتعلت فى كل مكان ، ودخـل مصر فى المحـرم سنة ١٦٩ ومعه عسكر عظيم جاء بهم من الشام من أهل قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين . فكانت الدولة العباسية فى الحقيقة تؤكد سلطتها المركزية وتظهر قدرتها على مواجهة الأحداث .

وبنفس الاصرار واجه العباسيون مشاكل المغرب العـربى ولم تدخر الدولة وسـعا فى تأكيـد سلطانها مهما تكلفت من تضحيات ، فاستخدمت الحملات البحرية وبعثت المثنى بن زياد الخثعمى فى شوال

---

(١) الطبرى : ج ٩ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .
(٢) اليعقوبى : ج ٢ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

سنة ١٣٦ الى الاسكندرية ليتوجه بالأسطول الى طرابلس ، وليقتحم به معركة تثبت السيادة فى تلك النواحى ، ثم ولى أبو عون عبد الملك ابن يزيد جيوش المغرب لأن العلاقة كانت قد فترت بين الخلافة وبين عبد الرحمن بن حبيب وذلك قبل سنة ١٣٥ ، وساءت العلاقات الى حد القطيعة بعد خلافة المنصور سنة ١٣٧ ، فقد اكتفى ابن حبيب باعلان الولاء الشكلى للخليفة العباسى وامتنع عن ارسال الأموال السنوية اليه . وكانت هنالك أسباب أخرى تبعث على شك العباسيين فى اخلاص عبد الرحمن منذ البداية ، وهى موقف السفاح من قبل من تسيير الجيوش من مصر الى المغرب ، فقد استقبل عبد الرحمن بن حبيب الأمراء الأمويين استقبالا طيبا وأنزلهم فى كنفه(١) ولكن المنصور لم يرض بذلك الخضوع الاسمى ، فما بالك وقد تجرأ عبد الرحمن بن حبيب وقطع الخطبة للمنصور ونزع شعار الدولة العباسية وأمر بتمزيقه واحراقه (٢) . هكذا واجهت الدولة العباسية المقدمات الأولى لفقد نفوذها فى المغرب بانقطاع المغرب الأقصى عن الخلافة بأثر ثورات الصفرية واستقلال عبدالرحمن بن حبيب بافريقية . وبانتزاع القيروان حقق صفرية نفراوة سنة ١٤٠ ما كان يهدف اليه اخوانهم صفرية طنجة والمغرب الأقصى سنة ١٢٢ .

كما أن هؤلاء الأخيرين أضافوا الى ذلك نجاحا آخر اذ ذاك فأنشأوا مدينة سجلماسة سنة ١٤١ هـ ، وبذلك انقطع المغرب الأقصى عن الخلافة تماما وخلص للخوارج ، ويبدو أن مشاكل المشرق من ثورة عبد الله بن على ، والتخلص من أبى مسلم استغرقت كل هم الخليفة المنصور فلم يرد بسرعة على عصيان عبد الرحمن بن حبيب ، أو يمد يد المعونة لأنصار العباسيين فى افريقية . ولم يستجب علماء القيروان (٣) .

(١) أخبار مجموعة ، ص ٥٠ .
(٢) ابن عذارى : ج ١ ، ص ٦٧ .
(٣) المالكى : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

وبدأت الدولة العباسية تواجه الموقف حين تولى مصر القائد المشهور محمد بن الأشعث ، اذ سير قواته الموجودة فى برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز ، وبعث بقائد آخر سنة ١٤٢ هـ لقتال أبى الخطاب عبد الأعلى بن الشيخ الاباضى ، ونشبت معركة حامية هزم العباسيون فيها (١) . فلم يجد المنصور بدا من أن يعهد الى ابن الأشعث بنفسه بولاية افريقية ، وأرسل اليه الجيوش وأمره بالمسير بسرعة ، وخرج ابن الأشعث فى أربعين ألف رجل منهم ثلاثون ألفا من جند خراسان وعشرة آلاف من جند الشام ، ومن قواده الأغلب بن سالم التميمى ، والتقى بالاباضية سنة ١٤٤ ، فهزموا وقتل أبو الخطاب ، وثارت زناتة فهزمها ابن الأشعث فى نفس السنة . ودخل القيروان فى جمادى الأولى سنة ١٤٤ هـ . وبذلك استعادت الخلافة بلاد افريقية.

ولكن هذا النفوذ لم يتجاوز حدود القيروان اذ ظل مذهب الخوارج متغلغلا بين قبائل البربر من طرابلس الى تامسنا فى المغرب الأقصى . وأصبحت القيروان محاطة بالعداوات السياسية والمذهبية ، وحصنت أسوار المدينة ونجح ابن الأشعث فى تأكيد سلطان الخلافة ، وأخضع كل خصومه من البربر ، ولكنه انهار فجأة سنة ١٤٨ هـ بسبب ثورات جند الخلافة . فولى المنصور الأغلب بن سالم التميمى والى الزاب فى نفس السنة ، ونجح الأغلب فى السيطرة على الجند . ولكن ثار الخوارج مرة أخرى بعد مقتله سنة ١٥٠ هـ .

ووضح اصرار المنصور على تأكيد سلطان الخلافة فى اختياره أبا جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة من أسرة المهلب الذى دخل القيروان سنة ١٥١ ؛ واستقامت له الأمور أكثر من ثلاث سنوات ، ثم بعثت الخلافة يزيدا بن حاتم المهلبى الى القيروان ، ولم تكن شدة الثورات التى وقعت فى افريقية فى ذلك الوقت لتجعل الخليفة المنصور يتخلى عن مشروعاته ، بل كانت مدعاة لأن يتشبث بها .

---

(١) الكندى : الولاة ؛ ص ١٠٩ .

وعرف كيف يواجه الثورات بالحديد والنار . وذلك باختياره يزيدا ابن حاتم ، الذى تولى مصر أولا ثم سيره المنصور الى المغرب فى جيش كثيف سنة ١٥٥ هـ .

وقد انتصر يزيد على قوات أبى حاتم الاباضى . ثم بدأ يعمل على تهدئة الأمور واستمر فى القضاء على البقايا الباقية من الثورات دون لين أو هوادة ، وترتب على استتباب الأمن والسلام فى البلاد أن تهيأت الظروف ليزيد بن حاتم للقيام بالأعمال الانشائية فى البلاد ونشر العمران فيها، واستمرت ولايته خمسة عشر عاما منذ ولاه المنصور ، واستمر يحكم افريقية طوال عهدى المهدى والهادى الى أن توفى عام ١٧٠ هـ .

واذا كانت الخلافة العباسية فى نضالها من أجل المركزية لم تستطع أن تجاوز بنفوذها افريقية صوب الغرب ، فانها لم تستسلم للتطورات التى أظلت بلاد الأندلس منذ عام ١٣٨هـ . وكانت الخلافة شديدة الحرص على أن تؤكد سلطانها على الأندلس ، فلم ينظر العباسيون الى جهود عبد الرحمن الداخل فى تثبيت سلطانه نظرة الرضا والارتياح . وكان عليهم أن يعملوا على تحقيق مشروعاتهم قبل أن يفرغ الداخل من تأكيد سلطانه والقضاء على الفتن والثورات الداخلية ، لذلك حالفوا اليمانية فى الأندلس . ذلك أن اليمانية ظنوا أن تأييدهم للأمير الداخل قد يبعث لهم مجدهم القديم وامتيازاتهم القديمة ، فلما خاب ظنهم وقفوا فى وجهه وثاروا . فلما بعث المنصور العلاء بن مغيث الحضرمى وولاه أمر الأندلس سنة ١٤٦ ، وعبر البحر من المغرب الى الأندلس انضم اليه أعداء عبد الرحمن جميعهم ، وكان اليمانيون أشد الناس تأييدا له . ويبدو أن الثورة اليمنية العباسية أحرزت نجاحا أول الأمر ، فقد استطاع العلاء بن مغيث أن يحاصر عبد الرحمن شهورا فى منطقة باجة فى غرب الأندلس ، غير أن عبد الرحمن حطم حلقات الحصار وهزم أنصار العباسيين هزيمة كبرى . كما قضى على من انضم اليهم من

أهـل اليمن • وأشـعل اليمانيـون نار الثـورة مرة أخرى مستترين خلف محاولة عباسية تزعمها أحد أعمام السفاح فلم يظفروا بطـائل وظل عبد الرحمن يتعقب اليمانية بالحرب حتى قضى على ثورتهم تماما •

والخلافة اذا كانت حريصة على تأكيد سلطانها فى الحـاضرة والقضاء على الثوار والمطالبين بالحكم • الا أن محاولاتها فى المغـرب الأوسط والأقصى باءت جميعها بالفشل الذريع •

والسبب فى هـذا أن الاصطدام كان بقوة لم يكن يحسب لهـا حساب من قبل ، انما يجب أن يحسب لها حساب من بعد، وهى الاقليمية الجديدة النامية فى الأمصار ، التى باتت تهـدد بانقسامات خطيرة ، وتبين أن الخلافة العباسية اذا جمدت أمام الشـكل القديم ضعفت وتلاشت وانتهت ، اذ كان لابد أن تعترف بالاقليمية النامية وأن تقيم نوعا من التعاون بين القوتين •

وقـد حاولت الخلافة العباسية أن تعدل النمط القديم بارادتها • ومن قبيل هذه المحاولات ما كان من ايجاد منصب نائب الخليفة وقسمة العـالم الاسلامى الى مشرق ومغرب • كان القسم الشرقى عاصمته مرو فى خواسان ، وكان القسـم الغربى عاصـمته دمشق أحيـانا أو العسكر فى مصر أحيانا أخرى ، وابتـدأ العرف يجرى بعد ذلك بجواز قيام سلطان آخر أو أكثر من سلطان الى جانب الخلافة على أساس أن يعتبر مستمدا سلطانه من الخلافة •

وظلت الصـفة الفيدرالية تزداد وتنمو فى العصر العباسى الأول وفى العصـور العباسية التاليـة كذلك • وقـد رأينا كيف أن بلاد الأندلس قـد انفصلت منذ أن دخلها عبد الرحمن الداخل ، واستبد الأمويون هناك بتدبير أمور بلادهم بأنفسهم دون أن يكون للخليفـة العباسى البغدادى أى سلطان على بلاد الأندلس ، ومع ذلك لم تتخذ الأسرة الأموية بالأندلس لقب الخلافة ، بل تسمى أمراؤها باسم أبناء

الخلائف ، وتحرجوا من أن يحملوا لقب الخلافة ايمـانا منهم بفكرة الخلافة الموحدة القائمة على التصديق العام بحسب التقاليد الاسلامية الأولى ، فلما تغيرت الظروف فى القرن الرابع الهجرى حملوا هـذا اللقب .

وحالة أخرى تدل على قيام الروح الاقليمية تحت ستار المذهب وهى حـالة الدولة الادريسية التى قامت عـام ١٧٠ هـ ، وهى دولة شيعية زيدية أسست مدينـة فاس ، وجعلت منها مركزا قويا يعادل القيروان فى نشر الثقافة العربية وأصول حضارتها ، وتعاونت هـذه الدولة الادريسية مع جماعات المعتزلة الواصلية التى أنشأتها الدعوة الواصلية ، فاجتمع بالمغرب الأقصى نسب الأدارسة وعلم الواصلية ، وأدى ذلك الى نشاط سريع فى الاتجاه الحضارى العربى .

ثم أقرت الخلافة العباسية فى نهاية المطاف تلك النزعة الاقليمية ، وأدركت فوائدها، فأقامت بنفسـها فى اقليم القيروان دولة الأغالبـة لكى تحمل عنها هذه الدولة أعباء المغرب .

وقد سرت نفس الروح أيضا فى المشرق الاسلامى كله بعد نجاح الثورة الخراسانية ، وشعر الخلفاء بذاتية خراسان فقد جعل الخليفة المنصور ابنه المهدى قائدا للجند الخراسانى وبنى له الرصافة (بغداد الشرقية على دجلة) .

ثم تبلور هـذا الاتجاه عندما جعل الرشيد المشرق الخراسانى كله لابنه المـأمون والمغرب الشامى المصرى لابنه الأمين ، فكان هذا نوعا من التقسيم يراد به ارضاء الروح الاقليمية مع ربطهـا بالمركز عن طريق ولاة العهود .

ثم وصلت الروح الاقليمية الى أقصى مداها (المعروف فى العصر العباسى الأول) بقيام الدولة الطاهرية ، وهى دولة أقامها المـأمون

بنفسه وجعل رياستها لقائد من كبار قواده هو طاهر بن الحسين ، وهو فارسى مستعرب مشهور بالبلاغة (١) .

ثم أصبحت هذه الدول الاقليمية فى المشرق والمغرب الاسلاميين نماذج لدول اقليمية كثيرة ظهرت فى العصور التالية ، وأصبح النظام الاقليمى هو القاعدة .

اذن اتجه العباسيون بعد تجارب مريرة الى النظـام الاتحادى أو الفدرالى فى الحكم ، ورضوا بمجرد الإشراف والتوجيه ، وكان هذا منهم مسايرة للظروف لتعيش الدولة العباسية ويستمر لها السلطان . وكانت نزعة توفيقية تدل على الحنكة والبراعة .

واستمرت هذه السياسة متماسكة فى عهد فعالية الخلافة وقوتها طوال العصر العباسى الأول ، ولكنه فى عهد ضعف الخلافة ووهنهـا ستتحول الى حركة استقلالية كبرى منتشرة فى العالم الاسلامى كله فى العصر العباسى الثانى ، وتتحول الخلافة الى مجرد ظل ، وقـد عاشت ظلا حتى زالت سنة ٦٥٦ هـ .

وقـد استجابت الخلافة للظروف الجديدة فى ناحية أخرى وهى جمعها بين الخلافة والامامة ، فقـد تحول الامام الداعية الى خليفة يحكم ، ولم يكن طبيعيا أن يقطع الخلفـاء الأوائل صلاتهم بتنظيمات الدعوة وجماهيرها (٢) وفعلا ظل الحكم فى العصر العباسى الأول يعتمد على التنظيمات الأولى . التى نجحت خلال الدعوة السابقة وأثمرت ، ويـدل على هـذا رسـائل الخميس (٣) التى اسـتمرت حتى عصر

(١) أنظر عن طاهر بن الحسين وابنـه عبد الله . جمهـرة رسائل العرب ، ج ٣ صفحة ٤٨٥ — ٤٩٧ .

(٢) للدراسة التفصيلية لهـذا الموضوع الهام تدرس جمهرة رسائل العرب .الأستاذ أحمـد زكى صفوت ، ج ٣ ، ص ١ — ٥٦٠ .

(٣) أنظـر مثلا : رسالة الخميس لأحمـد بن يوسف — جمـهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

المتوكل ، وكانت التعليمات ترسل الى المريدين من مختلف الأقطار للاحتفاظ بتشكيل الدعاة والنقباء والعمال •

كانت العلاقة كأقوى ما تكون بين الخلافة وبين جماهير الدعوة، ولعل هذا هو الذى أكسب النظام السياسى الصلابة والقوة ، ولعل هذا يفسر ما قام به أنصار الخلافة من تبرير لأعمالهم فى رسائل التقريظ التى تدور حول نظرية عصمة الأئمة التى تبلورت فى العصر الفاطمى •

يتجلى هذا على الخصوص فى الرسائل التى تسمى رسائل التقريظ،ولدينا رسالة منها وجهها يحيى بن زياد الحارثى الى الرشيد (١) وهو يعتبر أن مناصرة الرشيد والوفاء له ضد أعدائه « فريضة أوجبها الله على العباد » أو أمر من أولى الأمر وأحسنها مغبة فى الدنيا والدين « أو أن الوفى هو الناجى » الذى استنقذه الله بموالاة أمير المؤمنين • ونلمس فى هذا اتجاها الى الاحتفاظ بالمبادىء الشيعية عند الامامية والاسماعيلية ، تلك المبادىء التى تعتبر معرفة الامام فرضا من الفروض وتقول « ان من مات دون أن يعرف امامه مات ميتة جاهلية » •

ولعل هذا كله يفسر جنوح الخلفاء الى الاستبداد بالسلطة والانفراد بها (٢) والخروج عن روح المشيخة العربية التى عرفت فى العصر الأموى ، والتى كانت تعتمد على مشاورة الخليفة للأرستقراطية العربية ، بل بوحى من هذا بدأ الخلفاء العباسيون يتدخلون فى القضاء ويوجهون الفقهاء ويخضعون أحكامهم لسلطانهم(٣) •

---

(١) جمهرة رسائل العرب : ج ٣ ، ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ •

(٢) يرجع هذا الاتجاه خطأ الى ما يسمى بنظرية الحق الملكى المقدس ، ويرجعون بها الى التاثر بالفرس غير انها ترجع الى ان الخليفة كان اماما . حسن ابراهيم ، النظم الاسلامية ، ص٤٩ •

(٣) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٢٨٠ •

وثمة ناحية أخرى من نواحى نظام الخلافة نريد أن نبين كيف مسها التغيير فى العصر العباسى الأول،ونعنى موضوع الخلافة والشورى ونظرية الوراثة وولاية العهد .

لا نستطيع أن نقول ان الخلافة فى العصر العباسى الأول كانت وراثية فى الأعقاب ، بل الأدق هو أن الخلافة كانت مقصورة على البيت العباسى دون غيره ، يتولاها منهم أفضلهم بعهد ممن يسبقه بشرط أن تتم له البيعة بين الناس .

والواقع أن الخلافة كانت للأقدر منهم لا وراثة مستقرة فى الأبناء ، الا اذا ثبتت قدرتهم ، وتلاحظ ذلك عندما تتبين أن الخلافة تداولها أخوان (أبو العباس والمنصور) ثم ابن (هو المهدى) ثم أخوان (هما الهادى والرشيد) ثم ابن (هو الأمين) ثم أخوان هما المأمون والمعتصم ، ثم ابن (هو الواثق) ونخرج من هذا بأن ثلاثة أبناء فقط ورثوا الامامة عن آبائهم وأن الامامة فيما عدا ذلك كانت للاخوة .

. ومبدأ الأقدر على حمل تبعات الخلافة ناشىء من ثقل التبعات والمشاكل ، بحيث لا يصلح لها الابن مهما يكن حاله ، ومبدأ الأقدر ناشىء من جهة أخرى ، من عادة الخلفاء أن يشركوا معهم اخوتهم أو أولادهم فى الحكم بحيث يصبح الولد أو الأخ بحكم خبرته التى يكتسبها أقدر من غيره على حمل التبعات ، وأجدر بأن يجمع حوله الآراء . فقد شارك المنصور فى الأمور العامة أيام أبى العباس ، وشارك المهدى أيام المنصور ، وشارك الأمين والمأمون أيام الرشيد ، وشارك المعتصم أيام المأمون،وهذه السوابق هى التى تؤكد مبدأ تولية الأقدر الأرشد .

أما أصحاب الحق فى اختيار الخليفة من بين أفراد البيت العباسى فهم الخاصة ، وهم الذين يعتبرون أهل الحل والعقد أو أهل الشورى ،

أما أصحاب الحق فى البيعة فهم الشعب كله فى مشارق الأرض ومغاربها بصرف النظر عن كيفية ممارسة الخاصة لحقهم وممارسة العامة لحقهم.

أما أهل الحل والعقد أو أهل الشورى كما يقول الماوردى فهم اصطلاحا الهيئة التى تختص باختيار الخليفة . وهى هيئة يتحدد أعضاؤها بحسب الأحوال والظروف ، وهى هيئة مفروض وجودها فى كل جماعة وفى كل عصر ، وقد كان أهل الحل والعقد مثلا حين طعن عمر عبارة عن ستة أفراد ، ثم الباقون من الصحابة المبشرين بالجنة .

أما فى العصر العباسى فان أهل الحل والعقد هم أفراد البيت العباسى ومن فى مثل مركزهم من كبار القواد ، ثم يلى هؤلاء الوزراء وقد كان أبرز أهل الحل والعقد هم أفراد البيت العباسى ، ثم انعكس الوضع فى آخر الأمر فصار أبرز أهل الحل والعقد هم الوزراء والقواد ثم يليهم أفراد البيت العباسى . وتحديد أشخاص أهل الحل والعقد أمر متروك للظروف والعرف والواقع العملى .

وفى ضوء ما تقدم نقول أنه كان يشترط أن يكون الخليفة من البيت العباسى ، وأن يكون قادرا على حمل أعباء الحكم راشدا عاقلا عالما سليم الحواس الى آخر شروط القدرة المعروفة فى كتاب « الأحكام السلطانية » ويجب أن يختاره أهل الحل والعقد وأن يعطوه بيعتهم ، فاذا تمت هذه البيعة وهى البيعة الخاصة بايع الناس الخليفة فى المسجد ، وأرسلت الرسل الى الولاة فى كافة الأرجاء ليأخذوا البيعة على القواد والأعيان والعامة فى نواحيهم .

والخلافة ، باعتبارها مالكة للسيادة ، منصب لا يقبل التجزئة فلا يصح أن يوجد خليفتان فى وقت واحد . والسيادة واحدة لأن الدولة وحدة متكاملة .

والخليفة عام الولاية عام الاختصاص ، فحكمه يسرى على كل -

أنحـــاء الدولة وهو يمارس حكمـــه فى كل مجـــال . فى الأمور الدينية والسياسية والمدنية والحربية دون أن يشاركه أحـــد .

وللخليفة الحق فى تفويض من يشاء بما يشاء من الاختصاصات ، فيكون هو الأصل وصاحب التفويض الوكيل . وقـــد جرى العرف على أن يتخـــذ الخليفـــة وزيرا للتنفيذ فقط يتلقى الأوامر من الخليفـــة وينفذها (١) ، وله أن يتخذ وزيرا تفويضيا يفوض له البت فى الأمور باسم الخليفة (٢) ، وللخليفة كذلك أن يفوض اقليم المشرق الى أحـــد الأمراء أو ان لم يجد الى أحد كبار القواد ، وله نفس الحق فى التفويض بالنسبة لاقليم المغرب .

هـــذا ولم تجدد الدولة العباسية شيئا فى مسألة ولاية العهد ، بل استمر الأمر فى ولاية العهـــد على نفس السنة التى كانت معروفة فى أيام بنى أمية ، فقد جرى بنو أمية على أن يعين الخليفة ولى عهـــد أو اثنين من أهل بيته ولاة لعهده (مثل عبد الملك بن مروان عندما عهد للوليد ثم سليمان) . وقـــد جرى العرف فى الدولة العباسية على أن يتولى العهد اثنان من البيت العباسى فيما عـــدا الحالتين الأخيرتين : حالة المعتصم ثم حالة الواثق . وقاعدة الثنائية اذن هى الأصـــل ، ثم كان العدول عنها آخر الأمر لظروف خاصة (٣) .

والقاعدة فى اختيار ولاة العهـــد هى قاعدة القـــدرة لا قاعدة الأرشد ، فاذا اختير ولى العهد صغيرا جعل له الخليفة من يقوم معه

(١،٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ١٢١ .

(٣) عهد السفاح بالخلافة الى اخيه المنصور ثم الى ابن اخيه عيسى ابن موسى ، والمنصور خلع عيسى وبايع للمهدى وجعل عيسى من بعـــده . ولمـــا ولى المهـــدى الخـــلافة خلع عيسى بن موسى وولى ولديه الهـــادى ثم هارون . وقـــد حاول الهـــادى خلع هارون لولا أن حالت وفاته دون ذلك .

أما الرشيد فقد ولى عهده أولاده الثلاثة . على ان الواثق خرج على النظـــام فلم يعهد لابنـــه محمد . وقـــد سئل وهو فى مرضـــه الأخير ان يوصى لولده فقال كلمته المـــأثورة « لا يرانى الله اتقلدها حيا وميتا » .

باسمه الى أن يكبر ، على أمل أن يعيش الأب حتى يبلغ ولى العهد الرشد ، فاذا حدث عكس ذلك بطلت ولاية العهد . ولم يكن من قبيل المصادفة أن ولاة العهد كلهم كانوا راشدين مجربين ، بل كان ذلك مرسوما بيد الخلفاء . وهذا العرف المبنى على الرشد والتجربة هو السبب الذى جعل الخلافة العباسية تنتقل فى أغلب الأحيان الى الاخوة دون الأبناء .

ويشترط فى ولى العهد من الشروط ما يشترط فى الخليفة ما عدا شرط السن ، لأن ولاية ولى العهد لا تبدأ الا عندما يتوفى الأب . وكذلك الحال بالنسبة للقدرة بعد التيقن من أن ولى العهد الصغير ممن يتوسم فيهم العقل والقدرة .

والجديد الذى لا مثيل له فى العصر الأموى هو اشراك ولاة العهد فى الحكم فى أيام الأب .

وقد جرى العرف أن يختص أحد ولاة العهد بالمشرق كله وأن يختص الآخر بالمغرب (النصف الغربى من الدولة) فيكون ولى العهد بحكم العهد وبحكم ما يتولاه من الأعمال شخصية كبرى من شخصيات الدولة .

أما الأصل الذى يتفرع عليه أمر ولاية العهد فهو فى حالة العباسيين حق هذا البيت الذى فضله الله فى تولى أمر المسلمين . أما الأصل الذى صار سابقة فى عهد الراشدين فهو عهد أبى بكر فى أثناء خلافته الى عمر ، وهذه هى السابقة الأولى فى العهد ، لكنها سابقة غير مقيدة ببيت معلوم ، كما هو الحال فى أمر العباسيين .

والشورى من حيث المبدأ قائمة فى اختيار ولاة العهد واختيار الخلفاء ، غير أنها شورى محدودة ببيت معين ، يتولاها أهل الحل والعقد . فان هذه الهيئة هى والخليفة هى التى تقرر وتختار الأصلح للأمة .

والشورى مبـدأ أصيل لا يمكن التخلى عنه : والجاحظ (١) وهو من أولياء الدولة وأنصـارها يسب بنى أميـة لأنهم أماتوا الشورى وأحيوا الاستبداد . ولم يكن الجاحظ ليسب بنى أميـة لاستبدادهم على أهل الشـورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصـار والمهاجرين الا وهو يعلن أن سنة الشورى قائمة لأهل الحل والعقـد فى العصر العبـاسى (٢) .

ومبدأ الشورى هو الذى صرف التشريع الاسلامى عن التفكير فى تحديد الوريث الذى تئول اليه الخلافة تحديدا دقيقـا ، ولم يكن مثل هـذا التحديد عسيرا على الفقه الاسلامى ، بل كان مثل هـذا التحديد مضادا للاتجاه الفكرى القائم على الشورى .

ومع ذلك فان الأئمـة العباسيين الأول كانوا يعتبرون من أهل العلم وكان اختيارهم لولى العهد يكسبه صفة شرعية .

وتبعا لكل ما تقدم لم ينظم التشريع الاسلامى مجالس وصاية ولم يبح التشريع أن يكون الخليفة قاصرا (٣) ، ولا محل اذن لتعيين ولى العهد حسب قرابته وتشكيل مجلس يقوم مقامه ، فان هذا وضع غريب على المفاهيم السياسية الاسلامية .

والحجج المبينة لذلك كثيرة ، ويكفى مثلا أن نتأمل الوراثة كما عرفت لدى الاسماعيلية ولدى الامامية .

وقرار تعيين ولى العهـد من القرارات التى لا تتغير بسهولة ، فانه قرار ملزم ينشىء لصاحبه حقا فى عنق جميع من بايعوه .

(١) انظر رسالة الجاحظ فى بنى امية ومنها قوله « وارجو ان يكون الله قـد اغاث المحقين ورحمهم وقوى ضعفهم وكثر قلتهم حتى صاروا ولاة أمرنا فى هـذا الدهر الصعب والزمن الفاسد ... واعلم بمـا يلزم فيـه منـا » .

جمهرة رسائل العرب ج ٢ ص ٦٠ — ٧٥ .

(٢) انظر الرسالة السابقـة .

(٣) المـاوردى : ص ٤ . ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٥٢ .

ولهـذا أدت الرغبة فى تغيير ولاة العهد بعد تعيينهم الى أزمات كثـيرة .

أراد المنصـور أن يجعل الخلافة لابنه بدل عمـه (١) ، وأراد الهادى أن يجعلها لابنه بدل أخيه ، وأراد الأمين أن يجعلها لابنه بدل أخيه أو أراد أن يخضع أخاه وولى عهـده لأمره ، وأراد المـأمون أن يجعل ولاية العهد لعلوى ترضية للعلويين ، وكذلك طمع فى الخلافـة عبد الله بن على وطمع فيها ابن المـأمون ، وفى كل مرة ظهرت فيهـا مثل هـذه الارادة أو هـذا الطمع قامت أزمة كبيرة واقترنت الأزمة أحيانا بحروب كما حـدث فى حالة عبد الله بن على وفى حالة الأمين والمـأمون وفى حالة ولى العهد العلوى « على الرضا » .

وترجع الاضطرابات والحروب الداخلية التى قامت بسبب ولاية العهد الى الخلافات الأسرية والى اصطدام العصبية الفارسية بالعصبية العربية ، كما يمكن أن تدخل فيها المعارضة العلوية .

والحق أن خلفاء العصر العباسى الأول كانوا سلسلة من القدرات والكفايات اضطلعوا بالمسئوليات كاملة وجابهوا المشاكل وأبرزوا قوة الخلافة الجديدة وفعاليتها ، وقام كل منهم بدوره خير قيام ، بل لعب كل منهم دورا خاصا فى أحداث العصر العباسى الأول .

وأول هؤلاء الخلفاء هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس (١٣٢ — ١٣٦ هـ)(٢) وقـد جرى عرف المؤرخين منـذ القرن الرابع على تلقيبه بالسفاح . أما قبل هـذا العهد فان المؤرخين لم يجعلوا له لقبا ولا قرنوا اسـمه بالسفاح . بل ذكرت

---

(١) انظر جمهـرة رسائل العرب : ج ٣ ، ص ١٥٩ . كتاب عيسى ابن موسى ؛ بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهـادى .

(٢) انظر : الطبرى : ج ٩ ، ص ١٥٤ . المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ؛ ص ٢١٥ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٧١ .

المصادر المعتمدة على الاسناد أنه تلقب بلقب المهدى ، وقد أكدت الكشوف الأثرية قول المسعودى ، فقد وجد الأثريون بمسجد صنعاء نقشا ورد فيه اسم أبى العباس مقترنا بلقب المهدى (١) . أما لقب السفاح فقد أطلق فى الأصل على عبد الله بن على عم الخليفة .

والراجح أن فكرة التلقيب ولدت فى عهده دون أن يشيع تغليب اللقب واكتفى الناس بالكنية .

وكان أبو العباس شابا أقرب الى التقشف فى حياته وفى زيه مع عبادة تقربه بالنساك ، الى خلق رضى ولين جانب ووفاء وعفاف وحلم (٢) ، وكل هذه الصفات جعلته يتسع صدره لهم جميعا ، وان كان أخوه المنصور أسن منه ، وهو لذلك أى شىء الا أن يكون سفاحا ، ولهذا شرح المؤرخون العبارة الواردة فى خطبته على أن السفاح فى الأصل قدح من القداح التى كان يضرب بها وهو قدح ذو حظ عظيم (٣) ، وقد روى أنه شخصيا كان يكره سفك الدم . ولم يصح أنه أمر بالقتل بنفسه الا فى حالات معدودة وأكثر ذلك منسوب الى آل بيته ، وهم ممن لا يقدر أبو العباس على ردهم أو عقابهم . وروى كذلك أنه أمر بالكف عن سفك الدماء الا بمشورته .

أما عن مدى ممارسته لحقوق الخلافة : فانه مارس سلطاته عن طريق أهل بيته ، وفوض الولايات الكبرى لاخوته وأعمامه (٤) واذن

---

(١) لم ترد فى الكندى رغم انه من اوثق الرواة اية اشارة الى لقب السفاح . الكندى ، ص ٩٧ .

(٢) الفخرى : ص ١٣٤ .

(٣) جاء فى القاموس : سفح الدم اراقه والسفاح العطاء ، والفسيح ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . وقد جاء فى خطبة ابى العباس « وقد زدتكم فى اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير » . فكأن كلمة السفاح جاءت تأكيدا لزيادة العطاء . الطبرى : ج ٩ ، ص ١٢٩ .

(٤) ولى مصر مثلا صالح بن على بن عبد الله العباسى . الكندى : ص ٩٧ . وولى ابا جعفر الجزيرة واذربيجان وارمينية كما اعتمد على عبدالله ابن على وداود بن على .

فقد تحكم فى ممارسته للسلطات أمران : الأول هو حاجته الى نقل السلطات من يد قواد الثورة الى أيدى أكثرهم قربا اليه ، والى أيد أجدر بأن ترفع اسم البيت العباسى • واذن فقد كانت السلطة الفعلية فى يد القواد ثم انتقلت اليه والى اخوته •

والأمر الثانى هو أن أهل بيته الذين انتقل اليهم الأمر بعد القواد كانوا جميعا متضامنين فى الجهاد حتى نجحت الثورة وتولى الخلافة واحد منهم ، فكان من الطبيعى ألا يتغير الوضع الا بمقدار محدود •

وعهد أبى العباس على أى حال هو العهد الذى شهد انقلابا كبيرا فى الأوضاع ، فقد ارتفع فيه شأن المشرق الاسلامى الأسيوى ، وقد وقع فيه القصاص من أهل الشام ومصر باعتبارهم أنصار بنى أمية وصارت منزلة هذه الأقلية أقل من منزلة المشرق الأسيوى •

ثم آلت الخلافة الى المنصور (١) (١٣٦ — ١٥٨ هـ) وهو شخصية حازمة فكان بحزمه سيد أهل بيته (٢) كما كان صاحب الأمر فى خراسان بعد أن تخلص من أبى مسلم • فهو الذى وطد أمور الدولة لمن بعده ، وهو الذى افتتح سياسة القسوة مع العلويين وأذاقهم من سطوته مثلما ذاقوا فى أيام بنى أمية وأكثر •

والمنصور ، فوق ذلك هو الذى أتم الدور التأسيسى من حياة الدولة ، وصان حدودها وأمسك بزمام قيادتها • أما فى الحدود فان دراسة الحدود الشامية الحزرية عند جبال طوروس تظهر الجهد العظيم الذى بذله المنصور بما بنى من حصون (٣) •

أما بالنسبة لزمام القيادة فانه كان يطمع فى استعادة الأندلس

---

(١) ورد ضمن القابه فى نص تشييد قرب اذربيجان •
Van Berchem Corpus, Egypte. Vol 1. 95.
(٢) انظر الفخرى : ص ١٣٥ — ١٣٦ •
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٩٣ •

الى الخلافة كمـــا كانت فى عهد بنى أمية ، كما كان يطمع فى استعادة المغرب للخلافة أيضا .

وقــد فشل فى هذين المجالين ، ويكفيه مع ذلك أنه حاول توحيد الخلافة كما كانت فى عهد بنى أمية . وتتبلور هــذه الفكرة فى بناء المنصور لبغداد حتى أنها سميت بمدينة المنصور ، وهى المدينة التى جمعت أنصار الدولة ودواوينها ، وهى المدينة التى بلغت من العظمة والازدهار ما لم تبلغه أية مدينة أخرى فى العالم الاسلامى ما عـــدا القـــاهرة .

ثم يأتى بعــد المنصور سبعة من خلفــاء العصر العباسى الأول هم المهدى وابناه (الهادى والرشيد) ثم أبناء الرشيد الثلاثة (الأمين والمــأمون والمعتصم ثم الواثق) .

ويختلف هؤلاء السبعة عن الخليفتين الأولين فى أنهم ورثوا دولة قــد استقرت على نمط معلوم ، وأصبحت حياتها السياسية ميسرة ، وفى أنهم أحاطوا أنفسهم ببلاط عظيم وقصور فخمة وترف لا حد له حتى صار ترفهم أسطورة ترويها الأجيال ، واختارت الأساطير شخصية منهم هى واسطة عقدهم ، وهى شخصية الرشيد .

أما المهدى (١) فكان فوق لين أبى العباس وتحت حزم المنصور ، وقد جاء بعد أن وطد له أبوه الأمور ، فظهرت خاصة ميوله الشخصية ، وأولهــا حبه للصيد وخروجه اليه مع خاصته من رجــال البلاط (٢)

---

(١) ورد هــذا اللقب فى سكة بتاريخ ١٤٦ هـ من الرى وفى اخرى من الباب وفى ثالثــة ضربت بتاريخ ١٥٢ بأران وذلك اثنـــاء ولاية المهــدى للعهــد .

Inrontairo des Mounaies. P. 7.

ورد النعت أيضا اثنــاء خلافته فى نص تشييد بتاريخ المحرم ١٥٥ هـ على قطعة من الرخام فى عسقلان وفى طراز قطعة نسيج بتاريخ ١٥٩ بمصر .
Rapsreairs Vol. I. pp. 24—44.

حسن الباشا : الألقــاب الاسلامية ، ص ٥١٤ — ٥١٥ .

(٢) الفخــرى : ص ١٦٣ .

واهتمامه بالبلاط فقــد اتخذت حاشية الخليفة لأول مرة شكل بلاط نشأ على يد المهدى فى القسم الشرقى من بغداد ٠ ثم بداية اهتمامه بالعقائد (١) فان المهدى هو الذى تتبع الزنادقة على نحو ما ذكرنا ٠

ولم يحكم الهادى غير سنة واحدة ثم تولى هارون الرشيد (٢) (١٧٠ — ١٩٣ هـ) وقــد طالت خلافته على نحو ما طالت خلافة جده المنصور وخلافة ابنه المــأمون ، وقــد شغل هؤلاء الثلاثة (المنصور والرشيد والمــأمون) نحو خمســة وستين سنة من العصر العباسى الأول فهم لذلك عنوان عليه ، والرشيد فى وسطهم كواسطة العقد ٠

وللرشيد شخصيته الأسطورية ، فهو يمثل شخصية ملك سعيد ، والبرامكة يمثلون شخصية وزير نافــذ الكلمــة ، وأبو نواس يمثل شخصية ماجن خليع فيلسوف حكيم ٠

وبينما كانت هذه الأساطير تتبلور فى الأخيلة الشعبية كان الرشيد فى الحقيقة يقــوم بدور درع الدولة متنقلا بين أرجــاء دولته غازيا وحاجا ، وهو أول خليفة قاد الغزو بنفسه ، وسار الى الثائرين على رأس جيشه ، فقــد خرج بنفســه لقتال رافع بن الليث الذى خرج بخراسان ، واســم الرشيد بعد ذلك كله مقترن باسم ايرين ونقفور وشرلمــان ، وهو من غير شك أعظم هؤلاء الملوك جميعــا ، بل أعظم ملك فى عصره على الاطلاق ٠

وولده الأول الأمين الخليفــة المظلوم الذى ضــاعت شخصيته الحقيقية لمــا لحقه من هزيمة ، وهو على أى حال بطل عصبية الأبناء ،

---

(١) حسن ابراهيم : ج ٧ ، ص ٣٧ ٠

(٢) ورد على بعض نقــود الرشيد كما ظهر على طــراز قطعة من النسيج ، بتاريخ ١٩٠ هـ .Repertoire Vol 1. p,. 78 للتوسع فى دراســة شخصية الرشيد . انظر الطبرى : ج ٩ ، ص ١٠٠ وما بعدها . والفخرى : ص ١٧١ — ١٧٢ . المسعودى : مروج الذهب . والجهشيارى : الوزراء والكتاب . السيوطى : تاريخ الخلفــاء . محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ٠

وهى العصبية الفارسية من أبنــاء الجيش الخراساني الذى استقر بالعراق ، كما أنه بطل التوفيق بين عصبية الأبناء هــذه وبين العصبية العربية • وقــد حارب جيوش أخيه المــأمون من الخراسانية بجيوش بعضها من الأبنــاء وبعضها الآخر من العرب ، والروايات التاريخية تصوره رجلا مترفا غير حازم يحالفه سوء الطالع فى كل ما يحاوله(١) •

والمأمون شخصية عجيبة ، جامعة للمواقف المتناقضة التى يصعب التوفيق بينها ، فهو يميل حينا الى الخراسانية ويعتمد عليهم ، ثم يميل الى العلويين (٢) ، ميــلا متطــرفا حتى ليبذلون له ثقتهم وينســون خصوماتهم ، ثم يميل الى السنة ، ثم انه استطاع أن يتقــرب الى المغرب وأن يكسب ثقته بعــد أن كان يقصر مودته على الخراسانيــة فى المشرق •

فهو شخصية قادرة على التوفيق بين المواقف المتناقضــة وعلى ارضاء كل المعسكرات • وبهذه الملكة ، ملكة التوفيق ، انتهى المــأمون بأن تغلب على كل ما صادفه من صعاب (٣) والأمر الذى لم يتحول عنه هو وفاؤه وحبه لأخيه المعتصم وتفضيله له على ابنه العباس •

أما من الناحية العقلية فهو فيلسوف الخلفاء (٤) ، ومؤسس بيت الحكمة ، وصاحب حركة الترجمة لنقــل الرياضيات والفلســفة عن اليونان ، وهو الذى احتضن طائفة المعتزلة بحمايته فى النصف الثانى من خلافته بوجه خاص ، وقال بمقالتهم وهى أن القــرآن مخلوق ،

---

(١) انظر الروايات الطريفــة التى وردت فى الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢١٥ — ٢٢٦ وفيها قصص كثيرة عن جده ولهوه ومجونه ومابساة عصره •

(٢) توليته عليا الرضا عهده : حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٦٢ •

(٣) تغلب على الثورات الآتيــة : ثورة أبى السرايا — ثورة نصر ابن شبث — ثورة بغــداد ، ثورة الزط — ثورة العرب بمصر •

(٤) يقــول فيه صاحب الفهرست ، ص ١٦٨ •

« اعلم الخلفاء بالفقه والكلام •• ونحن نســتغنى بشهرة اخباره عن استقصاء ذكــره » •

واضطهد خصومهم ، وشايع الزيدية كذلك على أساس صلة الزيدية بالمعتزلة (١) .

وهو فوق ذلك كله مهتم بحماية حدوده ، ناجح فى هذه الناحية نجاحا تاما فى جبهة الترك فى أواسط آسيا وفى جبهة الروم عند طوروس (٢) .

أما المعتصم (٣) ، فهو ثالث أولاد الرشيد الذين تعاقبوا أخا بعد أخ على كرسى الخلافة . وهو فى شخصيته فارس يحب أهل الفروسية ، ولهذا مال الى الترك وأحب فروسيتهم وخصهم بتقديره، وبنى لهم عاصمة جديدة مفسحا لهم أكبر مجال انفسح لهم منذ اتصالهم بالدولة الى وقته .

والسمة الأخرى الواضحة فى شخصية المعتصم هى وفاؤه لشخص أخيه بالذات فى حياة أخيه وبعد مماته ، ولهذا يعتبر حكمه استمرارا لحكم أخيه المأمون ، بحيث لو عاش المأمون لما اختلفت سياسته عن سياسة أخيه ، برغم الاختلاف الملحوظ بين العصرين . مثال ذلك أن المأمون هو الذى افتتح سياسة استخدام الأتراك وأن أخاه المعتصم هو الذى وصل بهذه السياسة الى أقصى مدى ممكن .

أما آخر خلفاء العصر فهو الخليفة الواثق ، وهو أقل خلفاء العصر من حيث وضوح الشخصية ، وقد استطاع أن يحتفظ بمقام الخلافة الى جانب الأتراك وأن يظل سيدهم الحاكم ، الا أن مكانة

---

(١) انظر رسائل المأمون الى اسحق بن ابراهيم نائبه ببغداد : احمد زكى صفوت : رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ — ٥٥٤ . وجمعت كلها من الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٩ .

(٢) انظر المكاتبات بين المأمون ونيوفيل ورد المأمون عليه طبرى ج ١٠ ، ص ٢٨٣ . جمهرة رسائل العرب ، د ٣ ، ٥٣٣ .

(٣) الفخرى ، ص ٢٠٩ — ٢٢٠ .

الأتراك كانت قد استقرت بحيث تحكموا بعد، فى تولية المتوكل وفى سياسته ، فلما خرج عن طاعتهم قتلوه .

* * *

٢ — نظم الدولة :

واذا كنا قد اهتممنا بنظام الخلافة وعرفنا ما أصابه من تغير فمن واجبنا أن نعرض لوسائل الخلافة فى الحكم ، أعنى لنظم الدولة من نفس وجهة النظر التى نحن بصدد توضيحها وهى الثورة وفعاليتها وأثرها فى نظم الدولة فى العصر العباسى الأول .

ولاعطاء فكرة صحيحة عن نظم الدولة فى العصر العباسى ينبغى أن نذكر أنها فى هذا العرض ستعتمد على نصين أحدهما كتاب قديم ألفه الماوردى فى الأحكام السلطانية . وأعطى صورة فى غاية الوضوح عن نظام الدولة فى العصر العباسى كله . ثم بين أيدينا كتاب حديث ألفه الدكتور حسن ابراهيم حسن وموضوعه «النظم الاسلامية» فيه أيضا استعراض لهذا الموضوع على أسس علمية حديثة .

بالاعتماد على هذين المصدرين نظهر الوجه النظرى للنظم ، وبالاعتماد على ما تناثر فى تاريخ الطبرى من أخبار الدولة فى عهد خلفاء العصر العباسى الأول من السفاح حتى الواثق نتبين أن ثمة عوامل هامة وجذرية أحدثت التغيير المنشود وتركت أثرها فى جهاز الحكم .

هذه العوامل هى : ظروف الخلافة نفسها وما داخلها من تطور وكيف ترك صداه فى نظام الدولة . وقيام الدولة وما صحبه من احياء التقاليد الفارسية . وتقدم العناصر الايرانية وما صحب ذلك من طغيان على جهاز الحكم . والمكاسب العسكرية لعناصر الموالى وما صحبها من أثر فى النظام الحربى على وجه الخصوص .

أما عن ظروف الخلافة العباسية فانه كان من الطبيعى أن تترك أثرا واضحا فى أجهزة الدولة ، فالخلافة مثلا فى صراعها بين المركزية

والاقليمية وفى حفاظها على التوازن الذى لا يفقدها فعاليتها ، كانت تترك أثرا فى الولاة على البلدان وفى اختصاصاتهم وفى السلطات المخولة لهم ، فقد كان الولاة مثلا فى عهد أنصار الفكرة المركزية مثل المنصور أقل نفوذا وأضيق سلطانا من الولاة فى عصر الرشيد وبعد الرشيد ، فقد بدأ الولاة يكتسبون سعة فى النفوذ وانطلاقا فى اليد(١) ، وتطورت هذه السلطات الى استغلال وتكوين امارات كما فعل الأغالبة فى تونس أو الطاهريون فى خراسان .

هذا التطور بين المركزية والاقليمية يصوره الماوردى (٢) فى الأحكام السلطانية بتقسيمه نظام الامارة على البلدان الى طائفتين : امارة الاستكفاء التى تصور جهود الخلافة نحو المركزية وتظهر منها الاختصاصات التى كانت للخلفاء وتغلغل الخلافة فى جميع الأمور .

أما الطائفة الأخرى فهى امارة الاستيلاء التى تدل على الاقليمية وعلى ازدياد سطوتها ، فيقدم أحد الأمراء قسرا على الاحتفاظ بولاية من الولايات ويضطر الخليفة الى اقراره عليها ويفوض اليه تدبير سياستها .

وثمة ناحية أخرى وهى تنظيمات الدعوة التى ظلت مؤثرة طافية على السطح طوال العصر العباسى الأول ، فقد كانت تلزم الولاة العباسيين بالمشاركة فى هذا النشاط والقيام الى جانب القيادة العسكرية والقيادة الاسلامية العامة برئاسة الدعوة فى الاقليم .

لذلك أعتقد أن ولاة العصر العباسى الأول كانوا دعاة يمسكون خيوط الدعوة ويتصلون بالنقباء والعمال ويعملون على تفسير رسائل الخميس وتعقب المحاولات الأموية والعلوية للقضاء عليها .

---

(١) لنضرب مثلا بمصر . الولاة : من السفاح الى الرشيد .
الكندى : الولاة ، ص ٩٧ — ١٣٢ . والولاة : من الرشيد حتى الواثق ص ١٣٣ — ١٩٦ .

Von Rremer p, 228.

(٢) الماوردى ، صفحات من ٢٨ — ٢٩ .

انظر قضية هروب عبد الرحمن بن معاوية مثلا وكيف كانت تلاحقه أجهـــزة الدعوة فى كل مكان • وأعتقد أن هـــذا الاختصاص العقيدى كان واضحا فى ولاة القسم الشرقى من الامبراطورية • وقـــد حـــرص العباسيون على ايجاد أوثق الصـــلات بين عهـــد الحـــركة العباســـية وبين العاصـــمة (١) •

ومن ناحية أخرى أدى حرص الخـــلافة على الروح الفيدرالية ، ومحاولة السيطرة على التيـــارات الاقليمية وكبح جماحها وتحقيـــق التعاون المنشود بينها وبين السلطة فى دار الخلافة ، الى ابتداع سياسة ادارية معينة تحقق لهم ذلك الهدف ، فقد قسموا العالم الاسلامى الى مشرق ومغرب وأنشأوا منصب نائب الخليفـــة ، وكان ولاة العهـــد أو الأمراء المقـــربون يقلدون هـــذا المنصب الرفيع • وأعتقد أن نائب الخليفة فى الغرب كان مقـــره اما فى دمشق أو العسكر فى مصر ، وكان نفوذه يمتد الى المحيط الأطلسى ويقـــوم بسك العملة وتولية العمـــال الأصاغر وقيـــادة الجند •

ويدل البروتوكول الذى يرجع الى عصر المعتصـــم على أن نائب الخليفة كان اسمه يسك على العملة والطراز ويدعى له بعد الخليفة على المنـــابر ، وله ديوان انشاء وكتـــاب وله حق التصرف الكامل باســـم الخـــلافة •

وأعتقد أن القسم الشرقى كان دائما مقـــره مرو عاصمة خراسان مركز الانطلاق العباسى ، وكان المـــأمون باعتباره نائب الخليفـــة فى المشرق يتولى منطقة مرو •

وكان الخلفاء العباسيون قـد أحيوا سنة الراشدين وذلك بكثرة عزل الولاة ، ليضمنوا ألا يستبد هؤلاء الولاة بالسلطان مستفيدين من

(١) انظر مثـــلا : الرسائل رقـــم ٦١ ، ٨٠ ، ٢٤٢ ، ١٧٠ ، ٢٠٧ ، جمهـــرة رسائل العرب ، ج ٣ .

الاقليمية الجديدة (١) ، اطلاق فى السلطات مع قصر مدة التولية (٢) ولكن هؤلاء خصوصا فى عصر المعتصم كانت تطول مدة اقامتهم وتطلق ايديهم فى البلاد ، انظر أشناس التركى والمناصب التى تولاها والسلطات التى أعطيت له ، وكان طبيعيا أن يتحول هؤلاء الى أمراء مستقلين فى العصر العباسى الثانى .

* * *

أما العامل الثانى الذى ترك أثرا واضحا فى نظم الدولة فى العصر العباسى الأول فهو موضوع احياء التقاليد الايرانية الذى يشكل موضوعا هاما ، أولى ان يتعرض له المؤرخون بالعناية والدرس ليروا كيف كانت البداية فى مستهل العصر العباسى ، وكيف كانت النهاية فى هذه القوة الايرانية التى طفت على سطح الحياة الاسلامية منذ القرن الثالث فصاعدا .

---

(١) كان المنصور ينقل عماله من بلد لآخر بعد فترة وجيزة ، فقد نقل حميد ابن قحطبة من مصر الى خراسان سنة ١٥١ هـ ، زامباور : ج ١ ، ص ٣٩ ، ١٧ كذلك اجرى المهدى تعديلات واسعة بين حكام الأقاليم فعزل منهم كثيرين وولى بدلهم (ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٧١) وكان الرشيد يولى اعماله اذربيجان كل سنتين او ثلاثة واليا جديدا (ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٦٦) .

(٢) كانت الشروط التى يجب ان تتوافر فى الولاة فى العصر العباسى الأول اعتمادا على الماوردى : الأحكام السلطانية وابى شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم على هذا النحو :

(أ) ان يكون عليما بالسياسة وشئون الادارة .

(ب) ان يكون قادرا على قيادة الجند : ومعنى هذا ان الوالى كان يجمع بين القيادة السياسية والعسكرية .

(ج) ان يكون خبيرا بجمع المال رقيبا على عمال الخراج وجباة الأموال .

(د) العدل بين الرعية وحسن التصرف فى الأمور ومشاورة اهل الراى .

(هـ) ان يكون منصوبا فى تنظيمات الحزب العباسى شارك بنصيبه فى الدعوة فى فترة التحضير للثورة او فى الأحداث التى تلتها .

وقــد كان هــذا الاحياء عسكريا وثقافيا واجتماعيا ، ولا يهمنا منه هنا الا ما يخص موضوع نظام الحكم فقط • وكان من أثره افادة العباسيين على نطاق واسع من التقاليد الادارية الفارسية القديمة ، يقــول برنارد لويس : « وكانت الادارة عند العباسيين تطورا للادارة عند الأمويين المتأخرين واعترف المنصور بدينه الكبير للخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فى تنظيم الدولة » (١) •

الا أن تأثير النظام الفارسى المعمول به أيام الساسانيين أخــذ يزداد قــوة • وكثير من شــعائر العباســيين تقليد متعمد للعــادات الفارسية التى أصبحت معروفة فى هــذا الزمن عن طريق الموظفــين الفرس (٢) • وقــد كان المنصور فى الحقيقة هو المشرع الادارى للعصر العباسى ، وكان يســير على خط هشــام بن عبد الملك فى الافادة من التجارب الفارسية القديمــة •

وقــد اتخذ هــذا الاحيــاء صورا متعددة فقد كان استحداثا لأنظمــة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كما أدى الى تطوير أنظمــة قائمــة ، يصحبه تسرب الموالى الى الجهاز الادارى كله •

فمن قبيل استحداث أنظمــة لم تكن موجودة من قبل ما كان من نشأة نظام الوزارة وتطورها فى العصر العباسى الأول ، فقد استحدث منصب الوزارة تأثرا بتقاليد الفرس ، ولم تتضــح صورتها فى عهــد أبى سلمة الخــلال أول وزراء العباسيين ، ولكنها وصلت الى قمــة التطــور فى أواخر العصر العباسى الأول •

وكانت سلطات الوزير ضخمة (٣) ، فقد كان يقضى باسم الخليفة

---

(١) العــرب فى التاريخ ، ص ١١٩ •
(٢) أحمــد أمين : ضحى الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٦٤ •
(٣) قول ابن خلدون فى سلطان الوزراء فى العصر العباسى الأول : « فلمــا جاءت دولة بنى العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبــه وارتفعت ، عظم شأن الوزير وصارت اليه النيــابة فى انفــاذ الحــل =

فى جميـــع شئون الدولة . فكان له الحق فى تنصيب العمال والاشراف على الضرائب . وكان كذلك ينوب عن الخليفة فى حكم البـــلاد ويجمع فى شخصه بين السلطتين المدنيــة والحربيــة (١) .

والمـاوردى (٢) يقسّـم الوزارة الى وزارة تفـــويض ووزارة تنفيـــذ .

وزارة التنفيـــذ :

وهى التى تكون فيها مهمة الوزير تنفيــذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقـاء نفســه ، بل كان يعــرض أمور الدولة على الخليفة ويتلقى أوامره فيها ، فلم يكن ســوى واســطة بين الخليفــة ورعيته .

وزارة التفويض :

وهى أن يعهد الخليفة بالوزارة الى رجل يفوض اليــه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع اليــه فلا يبقى للخليفة الا ولاية العهد وعزل من يوليهم من الوزراء .

= والعقد ، وتعينت مرتبته فى الدولة وعنت لها الوجوه ، وخضعت لهـا الرقاب وجعل له النظر فى ديوان الحسبان لمـا تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات فى الجند ، فاحتـاج الى النظر فى جمعــه وتفريقه واضيف اليه النظر فيــه ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصــون اسرار السلطان ولحفظ البضاعة لمـا كان اللسان قــد فســد عند الجمهــور ، وجعــل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ، ودفع اليــه فصار اسم الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم وسائر معانى الوزارة والمعـاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان ايام الرشــيد اشارة الى عمــوم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التى هى القيـام على الباب فلم تسكن له لاستنكافه عن ذلك : المقــدمة ص ٢٠٧ .

انظــر ايضا الفخــرى ، ص ١٣٦ — ١٣٩ .

(١) احمــد امين : ضــحى الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

ابن خلدون : المقــدمة ، ص ٢٠٧ .

(٢) الأحكام السلطانية ، ص ٢٦ وما بعدها .

وفى استطاعتنا أن نجد صورا ممتعة عن وزراء العصر العباسى الأول فيما كتبه هلال الصابى أو الجهشيارى عن حياتهم وأساليبهم فى العمل ووسائلهم وعلاقاتهم بالخلفاء ، وأثرهم فى سياسة الدولة ، وحياتهم الخاصة يتبين منها احياء السنن الفارسية القديمة . لقد كانوا فرسا فى ثياب عربية ، الأصل فارسى وأسلوب العمل فارسى صميم .

هؤلاء الوزراء كان لهم أعوان من أرباب الأقلام يسمون بالكتاب، وكان لكل وزير كاتب أو كتاب يعينونه ، ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب ، وكانت طائفة الكتاب تؤلف وحدة يرأسها الوزير ، وتتدرج فى الترقى حتى تصل الى منصب الوزارة معتمدة على الكفاية والبلاغة ، وكان أكثر هؤلاء الكتاب فرسا كالوزراء يحتذون حذو أجدادهم من الفرس حتى فى مظهرهم ، بل ان صيرورة الكتاب طبقة ليس الا تقليدا للنظام الفارسى ، وقد ترك هؤلاء الكتاب أثرا كبيرا فى نشر الثقافة وذيوعها ، فثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت مناصبهم تحتم عليهم أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يلموا بعلوم اللغة والأدب وعلوم الدين وعلم الكلام والجغرافيا والتاريخ ، فقد كانوا يتعرضون لمواقف تضطرهم الى الالمام بكل هذه المعارف العامة ، والأستاذ أحمد أمين (١) يقارن بين معارف الكتاب الشاملة ومعارف المحدثين والفقهاء المحدودة وأن هؤلاء دائرتهم حول فنهم .

ومما يدل على هذا الشمول فى المعرفة المطلوب توافرها فى الكتاب ما ألف لهم من كتب (٢) . فابن قتيبة يؤلف أدب الكاتب لأنه رأى أن طائفة الكتاب شغفت بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة ، وعرفت الكون والفساد وسمع الكيان والكنية والجوهر والعرض ، ورأس الخط

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٧٠ .
(٢) ابن النديم : الفهرس ، ص ١٦٨ — ١٧٠ .

النقطة ، والنقطة لا تنقسم . وألف بعده أبو بكر الصولى كتاب أدب الكاتب وتوسع فى أمور لم يرض لهـا ابن قتيبة فعرض لحسن الخط والدواة والقلم وترتيب الكتاب وطيـه والدعاء فى المكاتبات . وألف ابن درستويه « كتاب الكتاب » .

وقد أسهم هؤلاء الوزراء وكتابهم فى نشر الثقافة العامة وجمعوا بين الآداب العربية والفارسية . وكانوا صورة صادقة للاحياء الفارسى الذى أشرنا اليه .

كما أن اتساع سلطات الخلافة وتنوعها وكثرة مشاكلها الداخلية والخارجية تطلب التوسع فى الدواوين بصورة لم تكن مألوفة من قبل . ويشير المـاوردى الى أن الدواوين بلغت أكثر من اثنى عشر ديوانا : منهـا : ديوان الخـراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالى ، وديوان البريد وديوان النفقـات ، وديوان الرسائل (أو ديوان الانشـاء) وديوان النظر فى المظـالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، كما كانت هناك ادارة خاصـة للمحافظة على مصالح غير المسلمين ويدعى رئيسها كاتب الجهاز .

وهناك دواوين أخرى فرعية تتصل بالادارة والسياسة والقضاء ، هـذا عـدا ديوان المنح أو المقاصـاة وديوان الأكرية للاشراف على القنوات والترع والجسـور وشؤون الرد وقـد أنشأ المهدى ديوانا لمكافحة الزندقة (١) .

على كل حال هـذه الدواوين كلها كانت تنقسم الى مجموعتين رئيسيتين : الأولى للتوجيـه الادارى والمكاتبات الرسمية مثل البريد والمراسلات والتوقيع والخاتم ، والثانيـة مختصـة باستتباب الأمن فى الدولة وتوفير الحماية لها مثل الشرطة والحسبة والجند .

---

(١) انظر حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ١٧٦ — ١٧٨ ؛ وكذلك الفصـل الممتـع الذى كتبـه آدم متز عن الادارة ، ج ١ ، ص ١٢٩ — ١٤٩ وكذلك الوزارة والوزراء ، ص ١٥٠ — ١٨٨ .

كانت دواوين المجموعة الأولى تعمل وفق نظام رتيب . فالمكاتبات ترد الى ديوان الرسائل ليقوم بفضها فاذا رؤى عرضها على الخليفة أو الوزير تولى ذلك الأمر ديوان التوقيع ، واذا كانت فى حاجة الى دراسة أتم وأشمل عهد بذلك الى ديوان التوقيع ، فاذا انتهى من الدراسة سلمها الى ديوان الرسائل لتؤخذ منها صور يحتفظ بها فى خزانة الدولة على أن يسلم الأصل الى ديوان الخاتم للختم بخاتم الخليفة ثم يعود الى ديوان البريد لارساله الى جهة الاختصاص .

على كل حال كان من بين هذه الدواوين ديوانان تطورا تطورا للنهوض الى مستوى السياسة العباسية ، ومواجهة احتياجات الدولة المنوعة ومشاكلها من المركزية الى الاقليمية ، والموقف الدولى ، وهما ديوان الرسائل وديوان البريد .

بدأت عناية العباسيين بهذا الديوان منذ بداية حركتهم فى خراسان ، فقد أنشأ أبو مسلم ديوانا للرسائل عهد به الى أسلم ابن صبيح (١) . لكن قواعد تنظيم هذا الديوان استقرت فى عهد المنصور عهد التنظيم الشامل والتطور الحقيقى لنظام الخلافة العباسية ، ففى بغداد أفرد مكانا خاصا لهذا الديوان بل جعله قريبا من قصره (٢) ، وعهد به الى أبان بن صدقة ، ولم يتوقف تطور هذا الديوان فى عهد المهدى وأصبح باستطاعة من يتولاه أن يستخلف عليه من يريد ، كما فصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة (٣) لأن ديوان رسائل الدولة بدأ يخضع لاشراف الوزراء المباشر وخاصة وزراء التفويض ، ثم مضى التطور قدما فى عهد الرشيد اذ أدخل تعديلا على المكاتبات الرسمية فأصبحت تصدر بالثناء على الله عز وجل والصلاة على الرسول . ولم تفتر العناية بهذا الديوان الهام حتى

---

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ٨٥ .
(٢) اليعقوبى : البلدان ، ص ٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

آخر عهد الواثق بل نعتقد أن الديوان تألق كأقوى ما يكون فى عهد الرشيد والمأمون خاصة • وكان ديوان الرسائل بالذات لا يتولاه الا خيرة الكتاب الذين أشرنا اليهم (١) •

وفى كل من صبح الأعشى للقلقشندى (الجزء الأول خاصة) وقانون ديوان الرسائل للصيرفى ، وهلال الصابى « رسوم دار الخلافة » (٢) تفاصيل كثيرة عن وظيفة هذا الديوان ونظام العمل به ، ومنها نتبين أن الديوان يتلقى الرسائل من ديوان البريد • وكان الخليفة يستشير صاحب ديوان الرسائل ، لذلك كان ألصق الموظفين به وأدناهم منه فكان من أبرز موظفى الدولة •

وكان لصاحب ديوان الرسائل كاتب يرتب الكتب التى ينظرها مجلس المظالم ويلخصها ، فاذا روجعت عرضت على الخليفة • وهناك كتاب آخرون مختصون بمكاتبات موظفى الدولة وعمالها ، وبعضهم يختص بمكاتبات كبار رجال الدولة ، وفريق آخر كان يعكف على كتابة المناشير وكتب التقليد والولاية ، ومراجعون يقرأون ويتصفحون كل ما يكتب فى الديوان • أما الخطاطون فمهمتهم نسخ الكتب بعد صياغتها ومراجعتها ، ولهذا الديوان أرشيف يتولاه الخازن وهو يحفظ أصول المكاتبات التى ترد الى الديوان ومعها نبذ مختصرة عما تم بشأنها وما صدر عن الديوان عنها ، كما ينظم الموضوعات التى ترد للديوان ، ويحتفظ بسجلات للتقاليد والمناشير وألقاب الولاة وكبار رجال الدولة وطريقة مخاطبتهم ، كما يحتفظ بسجلات للحوادث الكبرى فى البلاد وكذلك المكاتبات التى ترد الى الديوان بلغة غير عربية •

ويلخص القلقشندى الأعمال المنوطة بصاحب هذا الديوان الخطير ، فيشير الى فض المراسلات الواردة وترتيبها ، ثم كتابة الردود

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٦٦ •

(٢) انظر خاصة : الفصل الخاص برسوم المكاتبات عن الخلفاء فى حدودها وعنواناتها والأدعية فيها ورسوم الكتب عن الخلفاء ، ص ١٠٤ — ١٠٩ •

والتوقيعات التى يستقر عليها الرأى ومراعاة الألقاب والمراتب فى المكاتبات الخاصة ومراجعة كل ما يصدر عن هذا الديوان الهام (١) .

مما تقدم يتبين كيف كان ديوان الانشاء بالنسبة للخلفاء العباسيين هو وزارة الخارجية فى النظم الحديثة ، وقد اتسع نطاقه فى العصر العباسى لمواجهة حاجات الدولة من الرسائل والمكاتبات والتطور بالسياسة الخارجية التى اتسع أفقها بعد نمو العلاقات مع دول العالم المعروفة آنذاك ، وكذلك كثرة المكاتبات فى الداخل مثل عقود التولية والخلع والأوامر والبروتوكول (المراسيم) والرسائل أو بمعنى آخر كان ديوان الرسائل هو أرشيف الدولة الاسلامية .

أما ديوان البريد فان العباسيين تناولوا تقاليد الأمويين وتوسعوا فيها الى أبعد الحدود حتى بلغ حد الكمال فى عهدهم ، والذى أوصل ديوان البريد الى تلك المكانة وأعطاه تلك الأهمية هو الخليفة المنصور ؛ لأن هذا الديوان أعانه على كشف حركات التمرد والثورة ووأدها فى المهد . وكان عمال البريد يبلغون السلطة المركزية بما يجرى فى الأقاليم فيقومون بالمواجهة الحازمة السريعة . وكان البريد فى الحقيقة عدة المنصور وخلفائه فى تحقيق التوازن والمركزية التى أشرنا اليها من قبل . لذلك كان صاحب البريد من أهم الموظفين عند المنصور (٢) . فلم يكن يولى عليه الا المقربين من مواليه أو ممن يثق بهم ثقة لا حد لها . ولا صحة لما يذكر من أن المنصور هو الذى جعل صاحب البريد فى الولاية تعلو مكانته على مكانة الوالى نفسه ، والحقيقة أن ذلك من ميزات العصر الأموى . ويبدو أن مهمة رجال البريد

---

(١) يجب أن يدرس ديوان الرسائل دراسة فاحصة عميقة لاظهار الجوانب الدبلوماسية والبلاغية المرتبطة به أشد الارتباط ويكفى أن تراجع ما جمعه أحمد زكى صفوت فى كتابه « جمهرة رسائل العرب » الجزء الثالث ، فقد جمع نحوا من ٣٤٧ رسالة .

(٢) طبرى : ج ٩ ، ص ٢٩٧ .

لم تكن مجرد التجسس وابلاغ الأخبار انما كانوا يراقبون السلع ويوافون الخليفة بأسعارها .

ومضى ديوان البريد قدما فى طريق التطور كلما احتاجت الخلافة خصوصا فى عهد تحقيق الصفة الفدرالية الى مزيد من الرقابة على الولاة الذين أعطتهم سلطات واسعة . وقد أمر المهدى سنة ١٦٦ هـ باقامة محطات بريد بين مكة والمدينة واليمن خصوصا بعد ثورة العلويين فى الحجاز . وتطور الرشيد بهذا الديوان وعهد به الى جعفر البرمكى (١) وتمكن بفضله من السيطرة على شئون الدولة ، كما ظهرت أهمية هذا الديوان فى النزاع بين الأمين والمأمون ، فلما وضحت للمأمون نوايا الأمين العدائية بادر سنة ١٩٤ هـ الى قطع البريد عنه ، فقطع البريد عن محمد وأسقط اسمه من الطراز (٢) . وفى عهد المعتصم لعب ديوان البريد دورا هاما فى محاولات عجيف بن عنبسة القضاء على حركة الزط الذين عاثوا فى طريق البصرة وقطعوا الطرق ، اذ رتب الخيل فى كل سكة من سكك البريد تركض بالأخبار ، فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل الى المعتصم فى يومه (٣) وقد دخل بهم بغداد منتصرا فى ذى الحجة سنة ٢١٩ هـ . وقام البريد بنفس هذا الدور الهام فى فتنة بابك الخرمى (٤) .

اذن كان ديوان البريد من أهم أسلحة العباسيين فى تحقيق الأهداف السياسية التى نصبوا أنفسهم لتحقيقها ، عن طريقه عرفوا أسرار الخارجين على سلطانهم ونافحوا الثورات وقضوا على كثير من الحركات واحتفظوا بسلطانهم ونفوذهم ، وكانت المكاتبات الرسمية على نحو ما ذكرنا يحملها بريد الأقاليم الى ديوان البريد الرئيسى فى بغداد حيث تسلم الى الدواوين المختصة . وكان الديوان يستخدم

---

(١) الجهشيارى : ص ٢٠٤ .
(٢) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ١٣٠ .
(٣) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٣٠٦ .
(٤) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٣٣١ .

البغال والخيول والجمال والحمام الزاجل (١) وكان بدواوين البريد سواء فى الحاضرة أو الأقاليم عدد كبير من الموظفين يعاونون صاحب البريد . وكان عمال البريد فى الولايات يخضعون لصاحب البريد فى بغداد .

ويبدو أن أصحاب البريد هؤلاء كانوا يضطلعون بمهام جسيمة فكانوا يعينون الموظفين ويدفعون رواتب العمال ويطمئنون على وصول البريد وسفره فى المواعيد المقررة ، وكانوا يكتبون تقارير وافية للخلفاء عما يجرى فى البلاد ، وكان عليهم أن يحفظوا الطرق من عبث اللصوص .

وهناك طبقة أدنى من رجال البريد كانوا يحملون الرسائل فى حقائب خاصة على ظهور الخيل من مكان لآخر ويسمون « المرتبون » أمّا الموقعون فيشرفون على محطات البريد . ويحددون موعد وصول المكاتبات ويسجلونها فى دفاتر خاصة . ويضطلع فريق آخر من الموظفين بالتفتيش على محطات البريد وكتابة تقارير عنها .

ويبدو أن تأثير الثورة العباسية كان طاغيا بحيث أنه مس من نظام القضاء، فالخليفة الامام أعطى نفسه الحق فى أن يقضى على استقلال القضاة الذى كان طابع العصر الأموى ، وقد كان هؤلاء الخلفاء يتدخلون فى الأحكام ويوقفون بعضها اذا صدر على غير هواهم لأنهم كانوا يخشون أن تتعارض أحكام القضاء مع مبادئهم، يتبين هذا من سير القضاة فى بغداد أو فى الأقاليم (٢) .

والكندى فى كتابه الولاة والقضاة يعطينا صورا عن القضاء فى مصر فى العصر العباسى الأول ، نجملها فيما يلى :

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٤٩ .
(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٢٨١ .

أنه فى مستهل العصر العباسى جرى الحال على ما كان عليه فى العصر الأموى من ترك ولاة مصر يختارون من يتولى القضاء فى البلاد ، وكان الخليفة يصدق على هذا الاختيار ، وقد ظل الولاة العباسيون يمارسون هذا الحق الى أن تدخل الخلفاء فى اختيار قضاة مصر ، فقد ولى أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ (١) عبد الله بن لهيعة الحضرمى . ويتحدث الكندى عن هذه المناسبة بقوله : « ان وفد مصر كانوا بالعراق فدخلوا على أبى جعفر المنصور يوما فقال لهم « أعظم الله أجركم فى قاضيكم أبى خزيمة ، ثم التفت الى ربيع فقال : انتخبنا لأهل مصر قاضيا ، قال عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج : ماذا أردت بنا يا أمير المؤمنين ؟ أردت تشهرنا فى الأمصار بأن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضائنا حتى تولى علينا من غيرنا » (٢) .

ويبدو أن العباسيين فى عهد المهدى بدأوا يختارون للقضاء رجالا من أهل الكوفة المتمرسين بفقه أبى حنيفة ، فقد اختار اسماعيل ابن اليسع الكندى « وهو أول من ولى مصر بقول أبى حنيفة ولم يكن أهل مصر يعرفونه » .

غير أن الولاة العباسيين عادوا الى ممارسة حقهم فى اختيار القضاة ، فالمطلب بن عبد الله والى مصر سنة ١٩٨ هـ ولى القضاء الفضل بن غانم الخزاعى ، ثم عاد الخلفاء الى تولية القضاة بأنفسهم مرة أخرى ، فقد ولى هارون بن عبد الله القضاء من قبل المأمون وقدم مصر يوم الأحد لأربع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ٢١٧ هـ وظل الأمر على هذا النحو حتى سنة ٢٤٦ هـ .

وكان القضاة الذين يختارهم الخلفاء يكتسبون الاستقلال فى الرأى ولا يستطيع الولاة أن يتدخلوا فى شأنهم ، فقد رفض القاضى

---

(١) الكندى : الولاة والقضاء ، ص ٣٦٨ .

(٢) الكندى : الولاه والقضاه ، ص ٣٧١ .

محمـد بن مسروق الذى ولى من قبل هارون سنة ١٧٧ هـ حضـور مجلس الوالى .

ويبدو أن رواتب القضاة فى العصر العباسى قـد تضاعفت بعض الشىء ، فقد كان رزق القاضى عبد الله بن لهيعة الذى ولى القضـاء سنة ١٥٥ هـ فى عهد المنصور ثلاثين دينارا فى الشهر ، وبلغ مجموع رواتبه فى السنة ٣٦٠ دينارا (١) . ويبدو أن هـذا تقليد استمر بعد المنصـور . فهـا هو الخليفة يجرى على القاضى المفضل ابن فضالة القتبانى نفس هـذه الرواتب ، الى أن كانت ولاية عبد الله بن طاهر فزادت رواتب القضاة زيادة كبيرة حقا (٢) فقد أجرى على القـاضى عيسى بن المنكدر سنة ٢١٢ هـ سبعة دنانير كل يوم . ويبدو أن هـذا التقليد استمر من بعـده ، فالكندى يقول « فجرت فى القضاء الى اليـوم » .

ويبدو أن القضاة ابتداء من العصر العباسى بدأوا يعنون باتخاذ زى خاص بهم ، يرتدونه فى مجالسهم العامة أو عند ذهابهم للقـاء أمير أو خليفة ، فكان المفضل ابن فضالة القتبانى يتخذ عمامة سوداء على قلنسية طويلة ، أو يلبسون كساء أسود من صوف .

وبنمو سلطان القضـاة فى العصر العباسى وتنوع اختصاصاتهم وتعدد قضاياهم نما أعوان القاضى عددا ووضحوا تخصصا ، فقـد بدأ القضـاة يختارون كتـابا يعاونونهم فى انجاز أعمالهم ، فينظمون جلسـات القضـاء ويدونون الأحكام ويكتبونها ، وقـد ينوبون عن القضاة اذا مرضوا . ثم وضع للقضاة اختصاص غريب لم يكن لهم من قبل ، ففى سـنة ١٩٥ هـ أصبح من واجب القـاضى التحقق من الأنساب واثباتها ، فقد كان بعض العرب يتحرشون بأهل الحـرس من المسلمين الجـدد ويؤذونهم ويطعنون فى أنسـابهم ، فأرادوا أن

---

(١) الكندى الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٤٣٥ .

يسجل لهم سجل باثبات أنسابهم • وقـد رفض القاضى العمرى أن يفعل ذلك أول الأمر ، الى أن ورد اليه كتاب الأمين بتسجيل أنسابه هؤلاء الناس • وقـد شـاعت فى ذلك الوقت ظاهرة تزييف سجلات الأنساب والتزوير فيها (١) •

وثمة عامل ثالث كان له أثره البالغ فى الجهاز الادارى فى العصر العباسى الأول ، وهـو موضـوع شعار المساواة الذى رفعه الدعاة العباسيون ابان الثورة ، ثم تحول الى زحف وظهور للعناصر الايرانية فى سماء العصر العباسى الأول •

وكان زحف هـذه العناصر ملحا متدافعا بدأ بأبى مسلم وانتهى بظهـور الأمراء المستقلين الذين أصبح بيدهم توجيـه أمور الدولة ، كان الزحف أكثر من المتوقع ، كان الزحف كبيرا ، ولا يعنينا من هـذا الا ما يمس نظم الدولة •

تسربت العناصر الايرانيـة الى جميع الوظائف الصـغرى فى العاصمة والأقاليم ، ولم يقتنعوا بهذا بل بدأوا يتولون بعض المناصب الخطيرة ذات الأثر فى توجيه الدولة مثل منصب الكاتب أو الوزير ، بل احتكروا هـذا المنصب زمنا طويلا واشتهرت منهم طائفـة أمثال الفضل بن سهل وأحمد بن يوسف والحسن بن وهب وغيرهم •

وتطرقت هـذه العناصر الى أرفع المناصب فى الدولة مثل منصب الولاية وقيادة الجيش ، بل ظهرت أسر بيروقراطية توارثت المناصب الرفيعـة وأطلقت أيديها فى أمور الدولة ، مثل البرامكة الذين تولوا السلطة منذ أيام السفاح حتى نكبهم الرشيد ، أو مثل بنى سهل الذين أسلمهم المـأمون قياده حتى نكب الفضل بن سهل ، أو مثل الطاهريين فى خراسان ، بل دخلت هذه البروقراطية الجديدة فى طائفة أهل الحل والعقد ، وحلت محل الارستقراطية العربية زمن الأمويين •

---

(١) الكندى : القضـاة ، ص ٣٩٨ •

ولم تكن هـذه هى الأبعاد الوحيدة لهذا التسرب الايرانى ، فقد تسربت الى النظـام الحربى للدولة العباسية وأصبحت بمضى الوقت اليد الضاربة للخلفاء العباسيين ، فلقد كانت الثورة العباسية فى مرو مجرد بداية فقط لم يكن من المعقول أن تقف عند حدود .

وقـد دخلت طبقات العمال والفلاحين ميدان الجندية على قـدم المساواة وفرض العطاء لهم ، وأصبحوا عمود القوة الضاربة العباسية ، ولم تكن تستطيع أن تأتى أمرا الا بهم . فقـد كان الخراسانية أهم العناصر المقـاتلة فى الجيش العباسى ، كانوا هم فى الحقيقـة حرس الخليفة وقوته الضاربة وبيدهم وحدهم زمام الجيش . وقـد فقدت العناصر الخراسانية بعض أهميتها فى آخر عصر الرشيد ، وفى عهـد الأمين الذى استعان بفرق الأبناء ، ولكنهم استردوا نفس المكانة اثـر انتصار المـأمون ، ولم يستبعد العـرب من الجيش أول الأمر انمـا كانت لهم المكانة التالية ، فقد كانت بالجيش العباسى فرقتان : الفرقة المصرية والفرقة اليمانية ، ثم تضاءل شأن هـذه الفرق بالتدريج حتى كان عهد المعتصم وابعادهم من الجيش نهائيا واسقاطهم من العطاء . ووجد أن خراسان لم تعد المنبع الوحيد الذى يمكن أن يمـد الدولة بحاجتها المستمرة الى الدم المحارب الجديد ، فأكثر من الترك الذين استخدموا على نطاق ضيق زمن المـأمون ولكنه جعل الحـرس من الأتراك وجاء بالمقاتلة من فرغانة وما وراء النهر (١) وأنشأ لهم العاصمة الجديدة سامرا ، ونقل اليها دواوين الحكومة واشتد ساعدهم فى عهد الواثق حتى سيطروا على الخلافة فيما بعد .

وسرعان ما تسربت هـذه العناصر الجديدة الى مناصب القيادة العسكرية فى جيش الدولة ودخل هؤلاء القواد من أهل الحل والعقد ، وسرعان ما تحكموا فى اختيار الخلفاء بعد المعتصم ، لم تكتف هـذه القوة الحربيـة النامية بمجرد المشاركة فى النفوذ والسلطان كما شاء

---

(١) المسعودى : ج ٧ ، ص ١١٨ .

خلفاء العصر العباسي الأول ، انما انقلبت الى الاستبداد والسيطرة ، سيطرة أتراك المعتصم ثم مجيء البويهيين والسلاجقة ، بل تولت هذه العناصر مناصب القيادة البحرية فى الأساطيل العباسية فى المحيط الهندى وجنوب شرق آسيا .

وما دامت هذه العناصر قد أصبحت قوة الخلافة الضاربة وسلاحها فى تحقيق السيادة وتأكيدها ، فقد فرضت لهم العطاء بأكثر ممن سواهم وجهزوا بأفضل سلاح وأكمل لباس ، وكان عطاء الجندى من المشاة زمن أبى العباس السفاح نحو تسعمائة وستين درهما فى السنة فضلا عن الطعام والمخصصات . وكان الفارس يتناول ضعف ذلك ، ثم تضاعف مقدار العطاء حتى بلغ أقصاه زمن المأمون . ونظمت فرق الجيش تنظيما على أسس جديدة ، فكان الجند النظاميون يتألفون من المشاة وسلاحهم الرمح والسيف والترس ، ومن الفرسان الذين كانوا يلبسون الخوذ والدروع ويحملون الحراب وفؤوس القتال ، وكان المشاة أو الفرسان يتألفون من وحدات صغرى على كل عشرة عريف وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد (١) . وكان الفيلق يضم عشرة آلاف جندى ، ويتألف من عشر كتائب كل كتيبة جنودها ألف وكانت الجماعة مائة رجل . واذا اجتمعت بضع جماعات معا سميت كردوسا ، وكانت كل فصيلة من الرماة تضم جماعة من النفاطين يرتدون ثيابا لا تخترقها النار ، يهاجمون العدو ويقذفون بالمواد الملتهبة (٢) . وكان الجيش يرافقه المهندسون الموكلون بآلات الحصار كالعرادات والدبابات والأكباش . وكانت المستشفيات المتنقلة ومحامل الجرحى النقالة على ظهور الجمال تصحب الجيش الى الميدان . وينسب ذلك التجديد الى الخليفة هارون الذى استخدم العلم الجديد والتكنولوجيا الجديدة فى تسليح الجيش . ويبدو أن ظروف العصر العباسى الأول

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٦ ، ص ٤٥٢ .
(٢) الأغانى : ج ١٧ ، ص ٤٥ .

والأخطار الشديدة التى جابهها والتحديات القوية التى صمد لهـا ع
قـد ألجأتهم الى انشاء أكبر قوة ضاربة فى العالم فى العصور الوسطى،
فقد ازدادت أعداد الجند زيادة فـذة حتى بلغ الجيش مئات الألوف
وكان فى العراق وحـده أكثر من ١٢٥ ألفا من الجنود (١) . وكانت
مناطق النفوذ البيزنطى يرابط فيها أكثر من مائة ألف جندى ، ويرى
أومان (Oman) (٢) أن العرب بثوا الرعب فى قلوب أعدائهم بكثرة
أعدادهم وسرعة حركتهم ، ونقـل فليب حتى(٣) فى كتـابه (تاريخ
العرب) أن رسالة فى الأساليب الحربية منسوبة الى الامبراطور ليـو
السادس (٨٨٦ — ٩١٢ م) أن العـرب أمهر الشعوب وأبرعهـا فى
العمليـات الحربيـة (٤) وتحـدث الامبراطور قسطنطين برفرغنتس
«Prophyrogenitus» عن قـوة هـذا الجيش العربى فذكر أنه اذا
احتل منهم ألف فقط موقعا لمـا استطاعت قوة أن تنتزعه منهم .

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ١٨١ .
(٢) Art of War 2 ed. Vol. 1. p,. 209.
(٣) جـ ٢ ، ص ٤٠٦ .
(٤) Tactica Consititutio XV. 111. 123.

الفصل الثالث

العباسيون والعلاقات الدولية

يجب أن تحتل السياسة الخارجية للعصر العباسى الأول مكانهـا من الدراسات الجـادة ، وأن تظفر بتقييم جديد يكشف عن حقيقـة الموقف الدولى وجهود الخلفاء فيه ، فقـد بذل هؤلاء الخلفاء جهودا تظفر بالتقدير والاعجاب ، وتضعهم فى صف واحد مع أوفر المجاهدين المسلمين عملا وأكثرهم اخلاصا ، وأن تنفض عنهم أباطيل الدعايات العلوية ومفترياتها •

فقد تحقق لهم السلم الاسلامى **Pox Islamicus** وكانت نتائجه الثقافية أبقى أثرا من السياسة ، فلميكن الأمر مجرد كسب دبلوماسى ، فقد ساعد ذلك على التسرب الثقافى للحضارة العربية التى بدأت فى ذلك الوقت تفتح آفاقا جديدة فى تركستان وما وراء النهر والهند والشرق الأقصى وصقلية وجنوب ايطاليـا ، كمـا ساعد ذلك على أن يقتبس العرب من الثقافات الاغريقية والهندية والصينية ما طاب لهم •

وفى ظل هـذا السلم كان الانتشار التجارى العظيم الذى جعل موانى البصرة والأبلة وسيراف فى مقـدمة الموانى العالمية ، ودفـع بالمتاجر العربية الى أسوار الصين والى البحار الدفيئة والى حوض الفولجـا والرون وشـمال غرب أوروبا ، وسـاعد ذلك على تكدس الثروات واحداث التحول الرأسمالى الذى أشرت اليه من قبل •

وقـد ورث العباسيون تركة مثقلة بالمشـاكل ، ورثوا مشـاكل الخراسانيين وعقدهم ، ومشاكل الأمويين ومعضلاتهم مع البيزنطيين ، فى حوض البحر الأبيض المتوسط •

ونعتبر عهد المعتصم فيصلا فى تاريخ هذه العلاقات الخارجية ، فالخلفاء قبله كانوا يجتهدون ويجاهدون على النسق القديم ، وسنراهم فى آسيا الصغرى يعاملون البيزنطيين نفس المعاملة القديمة ، وفى تركستان يحاربون الصين ويوقعون بالأتراك الشرقيين ، وفى الهند يصارعون امارة قنوج ويستولون على ساحل الهند الغربى ، أعنى أن الفتوح لم تتجمد فى عهدهم انما تابعوها بنفس عنفوان عمر وعبد الملك الأمر الذى يدفع الى تقديرهم كل التقدير .

أما فى عصر المعتصم والواثق فقد عملت الدولة على تثبيت المكاسب والاستعانة فى تجميد الموقف باتمام اقامة الثغور والتحصينات ، لتتفيأ الدولة الاسلامية ظل الدعة والسلام . ويدخل العالم فى ظل سلام مبسوط الرواق ، فتكاملت حلقات الثغور على أطراف آسيا الصغرى وعلى أطراف كشمير وعلى أطراف ما وراء النهر ، وشحنت هذه الثغور بالمرابطين المقاتلة وأدت دورها كاملا فى تحصين الحدود والدفاع عن الدولة ودفع جميع الأخطار .

ولكى نستعرض هذه الجهود الدولية استعراضا ناجحا ينبغى أن نقسم خريطة العالم الاسلامى فى العصر العباسى الأول الى ثلاثة قطاعات ، كان للعباسيين فيها جولات . قطاع الشام وآسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط كله ، ثم قطاع تركستان والصين وأواسط آسيا ، وأخيرا قطاع الهند وجنوب شرق آسيا .

قطاع الشام وآسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط :

فى هذا القطاع ورث العباسيون المشكلة المستعصية ، مشكلة النفوذ البيزنطى ، فقد استأصل العرب الساسانية ، ولكن البيزنطيين تحصنوا فى مواقع حصينة فى جبال طوروس وآسيا الصغرى وبحر مرمرة ، يطلون منها فى ساعات الضعف أو الانشغال ، ويتقهقرون اليها فى ساعة القوة والوحدة . كانوا من وراء الحركة الصليبية وظلوا يؤدون دورهم هذا حتى قضى العثمانيون عليهم .

وقــد ذاق العباسيون الأول مرارة هــــذه المشكلة ، ذلك أن الامبراطور قسطنطين الخامس انتهز فرصة انشغال العباسيين بالثورة وأحداثهـا والتمكن لأنفسهم ، ومواجهة مشاكل المركزية والاقليمية ، وأغار فى سنة واحــدة على منطقة الحدود وأتى على جهود المسلمين فى التحصين ودمر خط حصون الفرات (١) ثم الخط الممتد من الفرات الى البحر ، وهــدد النظام الثغرى كله تهديدا خطيرا (٢) . فحاصر ملطية واستسلم أهلها له . وعندما تولى المنصور الخلافة اهتم بتحصين الحدود اذ أمر صالح بن على باعادة بناء ملطية وتحصينها . ويبــدو أنه أول من جعل لمنطقــة الجزيرة كيانا اداريا مستقلا ، فقــد ولى عبد الوهاب بن ابراهيم الامام على الجزيرة والثغور وسخر فى ذلك العمل الجليل جنود الدولة الجدد ، فقــد خرج الحسن بن قحطبــة فى سبعين ألفا وجمع العمــال من كافــة البلاد ، ويذكر البلاذرى أن الحسن كان يحمل الأحجار بنفسه احتسابا . وقــد استطاع الجنــد الخراسانية أن يعيدوا بناء ملطية فى نحو ستة أشهر . ويبدو من رواية البلاذرى أن المنصور هو الذى وضــع أساس النظام الثغرى الذى وصــل الى حــد الكمال زمن المعتصــم ، فكان يقسم المرابطين الى جمــاعات تتألف من عشرة من المقاتلين أو خمســة عشر ، ويبنى لهم البيوت والاصطبلات ، ويبنى لهم حصنا على بعــد ثلاثين ميــلا من دار اقامتهم . وحشد فى ملطية عشرة آلاف مقاتل وزاد عطاء المقاتل عشرة دنانير وخصص له معونة قدرها مائة دينار ودبر السلاح وأقطع الجند المزارع ، فوضع حــدا لمطامع قسطنطين (٣) .

ويبدو أن جهود المنصــور فى التنظيم والترتيب امتدت الى كل ناحية ، ففضلا عن تحصينه مناطق الثغور على النحو الذى رأيناه ، فانه

---

(١) اليعقوبى : جـ ٣ ، ص ٩٩ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٩٠ .
(٣) البلاذرى ص ١٩١ — ١٩٢ .
Finlay : Hist : of the Byzantine Enpile p. 128.

يتبين من نصوص البلاذرى (١) أنه حدد أسلوب القتال وتقاليده . هذا الأسلوب وهذه التقاليد التى حافظ عليها الخلفاء الذين تعاقبوا بعده ، ففى عهده نظمت الصوائف والشواتى ، فقد كانت هناك أوقات معينة يغير فيها المرابطون فى الثغور تحدث فى فصل الربيع والصيف وتسمى بالصوائف . ويبدو أن ممن اشتهر بالبطولة فى ميدان الصوائف فى عهد المنصور رجل يدعى مالك بن عبد الله الخثعمى (٢) الذى بلغ من شدة بلائه فى الحرب وظفره فيها وغنائمه الكثيرة منها أن سمى مالك الصوائف . وقد استولى فى احدى الغزوات على غنائم طائلة أقام يوزعها بموضع يدعى الرهوة فسميت رهوة مالك . يشير قدامة ابن جعفر (٣) الى أن غزو الربيع كان يبدأ فى منتصف مايو بعد أن تكون الخيل قد سمنت وقويت من رعيها ، ويستمر الغزو ثلاثين يوما أعنى حتى منتصف شهر يونيو ، وتجد الخيول أثناء هذه الغارات الغذاء الوفير والمرعى الخصيب فى أرض البيزنطيين التى تعيث فيها ، ثم يركن المسلمون الى الراحة حتى منتصف يوليو ، فتبدأ غارات الصيف وتستغرق قرابة الشهرين ، أما الشواتى فكانت فى الفترة بين مستهل فبراير والنصف الأول من مارس . كما يكشف عن الجهود التى بذلها المنصور فى تحصين منطقة الثغور ، فيذكر أن منطقة الثغور اذ ذاك كانت اما ثغورا جزرية خصصت للدفاع عن شمال العراق وأهم حصونها ملطية وزبطرة ومرعش ، والحدث والمصيصة (٤) . أو الثغور الشامية وتقع فى جنوب غرب الثغور الجزرية . وقد خصصت للدفاع عن بلاد الشام . ومن أشهر حصونها طرسوس وأذنة وعين زربة والهارونية . وكانت الثغور الشامية تتولى الغزو فى البر والبحر على حد سواء ، فيقوم أمير البحر بجمع أساطيل الشام ومصر لتشترك فى غزو مشترك .

---

(١) البلاذرى : ص ١٩٥ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) الخراج : ص ٢٥٩ .
(٤) قدامة : ص ٢٥٣ .

وتابع المهدى نفس الاتجاهات التى وضحت فى عهد المنصور من بنـاء الحصون وحشد الجنـد • بل كان احساسه بالمشكلة البيزنطية لم يقـل عن احسـاس معـاوية أو عبد الملك بن مروان ، فتصـدى للامبراطور البيزنطى ليو الرابع والحملات التى قام بها على منطقـة الثغور • فقـد وجه الحسن بن قحطبة وساح فى بلاد الروم وثقلت وطأته على أهلها حتى صوروه فى كنائسهم (١) « ولم يكتف بما أحرزه الحسن بن قحطبة من نصر بل قرر آن يقود المعركة بنفسه وأن يصطحب معه ابنه هارون • وبعد أن أدرك أرض البستان قـرر الرجوع تاركا أمر القيادة الى هارون ألذى مضى مخترقا آسيا الصغرى على نحـو ما كان الأمويون يفعلون • وقد خرج هارون يوم السبت لاحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ١٦٥ هـ وخرج فى ركابه ذلك الجيش الجديد الذى كان المنصور والمهدى قـد فرغا من اعداده وتدريبه • ويذكر الطبرى أن الجيش الذى قاده هارون بلغ خمسة وتسعين ألفـا وسبعمائة وثلاثة وتسعين ، وحمل له من العين مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين دينارا ، ومن الورق واحدا وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم (٢) • الأمر الذى يدل على أن الدولة العباسية كانت تلقى بثقلهـا كله فى هـذه الحرب الضروس • وتوغل هارون فى آسيا الصغرى ودمر حصن ماجدة . وواصل سيره حتى أشرف على خليج البحر الذى على القسطنطينية » • وكانت حملة هارون خاتمة الحملات العربية على البسفور • شهد عهد معاوية ثلاث حملات وشهد عهد سليمان الحملة الرابعة • وقـد أظهر هارون فى هـذه الغزوة من البسالة ما أهله لحمل لقب الرشيد • وكان من أثر ذلك النصر أن الامبراطورة ايرين اضطرت الى طلب الصلح ، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، وتعهدت الامبراطورة بموجبها أن تدفع جزية سنوية قدرها تسعون قطعة « أو سبعون ألفـا

---

(١) البـلاذرى : ص ١٩٤ .

(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

تؤديها فى نيسان الأول من كل سنه وفى حزيران » وأن تمــد الجيش العباسى بالأدلاء وتيسر لهم المؤن فى الطريق • ويعدد الطبرى غنائم هارون من الأسرى على هــذا النحو « أذعنت الروم بالجزيه خمســة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأسا ، وقتل من الروم فى الوقائع اربعة وخمسون الفا ، وقتل من الأسارى صبرا ألفان وتسعون اسيرا ، ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بادواتهــا عشرون الف دابة ، وذبح من البقر والغنم مائه ألف رأس » (١) •

اذن فى الوقت الذى كانت فيه الخلافه العباسيه تكبت الثورات وتقضى على الخارجين على سلطانها وتحقق النمط المركزى من الخلافة ، كانت تواجه المشكلة البيزنطيه بنفس النظرة والاحساس • ولعل هذا النصر هو الذى مكن المهدى من أن يفرض الطاعة فى آسيا الوسطى • فيشير اليعقوبى (٢) الى أن ملوك كابل وطبرستان والصغد وطخارستان دانوا له بالطاعة والولاء •

ثم حدثت تطورات جــديدة فى المشكلة البيزنطية بل فى علاقات الخلافة بالبحر الأبيض المتوسط عامة فى عهد الخليفة هارون الرشيد • ومعالم هــذه التطورات الجديدة فى حاجة الى مزيد من التوضيح • منها شخصية الخليفة نفسه ، فلم يكن بالخليفة العــابث اللاهى كما يصوره القصص انما كان من الخلفاء الذين أوتوا سعة الأفق وحسن القيادة بل الحمــاس والحمية • يتبين هــذا من مراسلاته مع نقفور امبراطور الدولة البيزنطيه ، ومن قيادته للجنود بنفسه فى حملة هرقلة المشهورة ، كما عاد يقود الجيوش مرة أخرى بعــد قضائه على ثورة رافع بن الليث • كان هارون فعلا من الشخصيات اللامعــة بين جيل خلفاء العصر العباسى الأول •

وثمــة تطور آخر وهــو سيره فى نفس الطريق الذى سار فيه

---

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٣٤٧ •
(٢) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ١٣١ •

المنصور والمهدى من قبل وهو استكمال تحصينات منطقة الثغــور ، فقد أقام منطقة جديدة أطلق عليها اسم منطقة العواصم (١) • وكان هــذا الاقليم فى الحقيقة جزءا من أرض قنسرين والجزيرة ، ففصله وجعل عاصمته منبج ورتب لها جيشا دائما يرابط على طول الحدود • كذلك عمر مدينـــة طرسوس وامر ببناء مدينـــة عين زربة (٢) ووضع فيها الجند الخراسانية وأقطعهم الأرض ، كما بنى مدينـــة الهارونية يرابط فيها الجند بالسلاح ، يضاف الى هــذا كله أن الجيش العباسى فى عهـــد هارون تكامل قدرة ونظاما وتدريبا وكفاية ، بدليل القوات الهائلة التى جندها فى منطقة العواصم والفرق التى سخرها فى حملاته المتكررة والتى تدل على حسن التسليح وكفــاية التدريب • ويروى الطبرى (٣) أن الجنود الذين اشتركوا فى حملة هرقلة بلغوا ١٣٠ ألفا من المرتزقة سوى الأتباع والمطوعة ومن لا عطــاء له • وقاد داود ابن عيسى فى بعض الحمــلات سبعين ألفا ، وقاد شراحيل بن معن ابن زائدة مثل هــذا العدد • وكذلك فعل يزيد بن مخلد • كان الجيش العباسى فى عهد هارون أكفأ الجيوش التى عرفها العالم اذ ذاك •

وهناك أمر آخر ربما اشتد وضوحه فى عهد الرشيد بالذات وهو وضـــوح الجانب البحـــرى فى ذلك الصراع الدموى الذى نشب بين البيزنطيين والعرب ، والذى يدل على أن سقوط الدولة الأموية لم يقلل من شأن النشاط البحـــرى كما كان يظن ، فقد أشار الطبرى فى حوادث سنة ١٩٠ هـ (٤) الى أن الخليفة ولى حميد بن معيوف سواحل بحـــر الشام وأنه غزا رودس وقبرس ، وأسر فى احـــدى هـــذه الغزوات ستة عشر ألفا من الأسرى • وتتابع النشاط البحرى حتى بعد الرشيد ، ليستطيع العـــرب أن يقضوا على النفوذ البيزنطى فى البحر الأبيض

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٠ — البلاذرى ص ١٩٤ • Lestrange p. 129.
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٨
(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٩ •
(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٩ •

المتوسط شرقه وغربه ، فقد احتل الأندلسيون الذين طردهم عبد الله ابن طاهر من الاسكندرية جزيرة كريت (١) وحملهم زعيمهم أبو حفص فى أربعين سفينة فنزلوا الجزيرة وتمكنوا من السيطرة عليها . ولم تجد حملات ميخائيل الثانى فى طردهم منها ، بل أخذ عرب كريت يرسلون الحملات لنهب الجزر المجاورة والاغارة على بلاد اليونان(٢) . وتطلع الأغالبة الى صقلية ، وان كان هذا التطلع أقدم من الأغالبة أنفسهم . فقد استولى المسلمون على جزيرة بانتاليريا سنة ٧٠٠م ، وقام ولاة افريقية بغارات خاطفة على الجزيرة بين سنتى ٧٥٢ ، ٧٥٣ م وظل الأمر على ذلك حتى عام ٨٢٧ م حينما ثار القائد البيزنطى يوفيميوس (٣) الذى خشى غضب الامبراطور البيزنطى فلجأ بسفنه الى تونس ، وطلب المساعدة من الأمير زيادة الله الأغلبى الذى أنفذ أسطولا يتألف من نحو مائة سفينة . وفى سنة ٨٣١ م احتل المسلمون بالرمو التى أصبحت قاعدة الحكم الأغلبى . وظلت الحروب متصلة مع البيزنطيين حتى عام ٨٥٩م ، وفى هذه الأثناء كان المسلمون قد احتلوا مسينة سنة ٨٤٣ م ، وقصريانه وسرقوسة وهدد المسلمون نابولى وروما . وأجبروا أحد البابوات على أن يدفع لهم الجزية بين سنتى ٨٨٢ ، ٩١٥ ونشرت المستعمرات الحربية التى أنشأها المسلمون فى جنوب ايطاليا الرعب والفزع فى كامبانيا ولاتوم (٤) .

ومن المظاهر الأخرى التى جعلت لعصر هارون وسياسته الخارجية طابعا خاصا جنوحه الى تحقيق النمط الفدرالى فى الحكم باعطائه الولاة مزيدا من السلطة مع مزيد من الرقابة ، وأدى هذا الى

---

(١) ارشيبلد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض ، ص ٢١١ .

(٢) Finlay. : Hist. of the Byzantiné Eitpirex. p. 128.

(٣) ارشيبلد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ٩٧٠ .

(٤) مازيابيف : العرب والروم ، ص ١٨٤ .

أن أعطى عامل الثغور سلطات أكبر وقدرة على العمل والحركة مكنته من مواجهة هــذه المواقف المتغيرة • وبلغ من اهتمام الرشيد أن ولى ابنه المعتصم على هــذه المنطقة الحربية الهــامة • والأمر الذى مكن الرشيد من أن يواجه المشكلة البيزنطية بتركيز أشد وأقوى موقفــه من التطورات التى حــدثت ببلاد الأندلس والمغرب عقب قيام الدولة العباسية ، والتى استنفدت جهود المنصور والمهدى من قبل • فقــد اعترف بالأمر الواقع فى الأندلس وفى المغرب الأقصى على حد سواء ، واعترف بالأغالبة أمراء مستقلين فى نطاق التبعية للخلافة العباسية ، فتحولت افريقية الى ثغــر عباسى يمكن لهم من النفــوذ فى افريقية ويحمى مصر من أى عدوان خارجى • وظــل الأغالبة رسل العباسيين الأوفياء فى الشطر الغربى من البحر الأبيض المتوسط • ومعنى ذلك أن أثقالا كبارا قــد أزيحت عن كاهل العباسيين وأعطتهم قدرة أكبر على الحركة مكنتهم من التفرغ للمشكلة البيزنطية من ناحية ومن توطيد سلطانهم بالمشرق من ناحية أخرى •

على أن الأمر الجــدير بالتنويه فى موقف هارون الرشــيد أنه استخدم الدبلوماسية ســلاحا يخوض به تلك المعركة التى اشتعلت فى البر والبحر على حــد سواء ، بتقربه من شرلمــان ومملكة الفرنجة ، فقد أخذت العلاقات تزداد سوءاً بين الفرنجة والامبراطورية البيزنطية وكانت البابوية من ناحيتها أحرص ما تكون على أن تحول بين الفرنجة وبين البيزنطية وعلى الرغم من أن السفارات تبودلت بين قسطنطين الخــامس وبين القيصر عام ٧٥٧ ، ٧٦٥ م فان البابا حــرض ملك الفرنجة على احتجاز السفراء البيزنطيين الذين وفدوا اليه •

وكان العمل الدبلوماسى الذى تحقق فى عهد هارون هو التقارب بينه وبين الامبراطور شرلمــان • والغريب أن ظروف كل من العاهلين وأهدافهما كانت تملى هــذا التقارب وتحتمه •

وشرلمـــان كان قد وثق علاقته بالبابوية وتوج امبراطورا فى عام ۸۰۰ ميلادية (۱) ، وكان يشـــعر بأن الامبراطوريه البيزنطيه لن تنظر الى ذلك الاتجاه نظرة الرضا والارتياح بل نظرة العداء الشديد (۲) • وكان شرلمـــان من ناحيـــه أخـــرى على معرفة بالعداء التقليدى بين العباسيين فى الشرق وبين الأمويين فى الأندلس ، وكان يتمنى أن تطول حالة الفوضى التى ألمت ببلاد الأندلس آخر عصر الولاة • وساءه أن تقوم امارة قوية فى البلاد تحقق الوحـــدة الوطنية وتنشىء الجيش القوى ، وتقهر الفتنة الداخلية وتخلص البلاد من متاعبها • وتحول دون اتصال الكنيسة الكاثوليكية فى روما بجماهير الكاثوليك فى البلاد ، وتمنع التقـــارب بين الامارات القوطية والبابوية الناهضة ، وخصوصا بعـــد أن أخفقت حملته على سرقسطة وتأكد أن الأندلس فى عهـــد الأمويين لا يمكن أن تؤتى بسهولة • نضيف الى هـــذا أن أطمـــاع شرلمـــان لم تكن تعرف حدا ، فقد أراد أن يبسط رواقه على المسيحيين فى الشرق ، ولا بأس من أن ينتقض من نفوذ البيزنطيين وأن يصبح حامى حمى الديار المقدســـة ، وكذلك كانت له أطماعه الاقتصادية • فقـــد أنشأ أسطولا فى البحر الأبيض المتوسط ومـــد نفوذه فى جزر البليـــار وسردينية وجنوب ايطاليـــا وحاول السيطرة على البندقيـــة وايستريا ودلمـــاشيا ، فكان تقاربه من العباسيين يحمـــل فى طيـــاته مشروعات اقتصادية (۳) • وهارون هو الآخر كان يريد بهذا اللقـــاء أن يحقق أهدافا : كان يريد أن يقض مضاجع الأمويين فى الأندلس بعد أن أخفقت جهود المنصور فى القضاء عليهم ، وكان يعتقد أن شرلمـــان العاهل الأوروبى القوى قـــد يشغلهم بتهديده المستمر عن التطلع الى مزيد من النفـــوذ فى افريقية أو الشرق • وكان فى ذلك الوقت يضيق

---

(۱) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ۱ ، ص ۱۹۸ •

(۲) رفض نقفور الاعتراف بلقب شرلمـــان الامبراطور وبدات الحرب السافرة بين الامبراطوريتين :•

انظر ارشيبلد لويس : القـــوى البحرية والتجارية ، ص ۱۷۳ •

(۳) ارشيبلد لويس : ص ۱۸۲ •

الخناق على البيزنطيين فى البر والبحر على النحو الذى أشرنا اليه .
وكان يريد أن يمنع التحالف بين البيزنطيين والفرنجة بأية وسيله .

وتبودلت السفارات بين الرشيد وشرلمان (١) ففى عام ١٨٠ هـ بعث شرلمان وفدا مؤلفا من ثلاثة رجال اثنان من الافرنج وشخص ثالث يهودى يدعى اسحق (٢) . وفى سنه ٨٠٦ م وفدت سفاره الرشيد على شرلمان ومعها وفد يمثل الأغالبه فى تونس . وفى عام ١٨٦ هـ بعث شرلمان سفارة اخرى الى بلاط الرشيد .

وكان شرلمان يعمل جاهدا فى ظل هذا التقارب على توثيق صلاته ببطريق القدس . ففى سنة ٧٩٩ م وصل رسول بطريق القدس الى بلاط شرلمان ، كما أوفد الامبراطور رسولا الى بيت المقدس(٣). ويبدو مما ذكره كل من رنسيمان وبكلر أن بطريق القدس كان حلقة الاتصال فى تحقيق هذا التقارب التاريخى .

بهذه الأسلحة جميعها واجه الرشيد المشكلة البيزنطية أعظم مواجهة عرفها تاريخ النضال بين البيزنطيين والعرب . ويشير الطبرى (٤) الى غضبة الرشيد من نقض نقفور شروط الهدنة السابقة وهجومه على هرقلة (٥) وهزمت قوات البيزنطيين ، ثم عاود الرشيد الهجوم بعد قضائه على ثورة رافع بن الليث فاتخذ بيانا مركزا لعملياته الحربية وبنى فيها منزلا ، ووجه داود بن عيسى متوغلا فى آسيا الصغرى على رأس سبعين ألفا من المقاتلة ، كما بعث حملة أخرى يقودها شراحيل بن معن بن زائدة ، وحملة ثالثة قادها يزيد بن مخلد ،

---

(١) اولى السفارات بين العباسيين والفرنجة اوفدها بيبن الى بغداد سنة ٧٦٥م وتعددت هذه السفارات بشكل ملحوظ اواخر ايام شرلمان. ارشيبلد لويس : ص ١٧٨ .

(٢) Buckler; Harunul — Rashid. p. 21.

(٣) Sunciman; Charlemagne and Palestine p. 609.

(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٦٩ .

(٥) ارشيبلد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٧٢ .

واستمرت هــذه الحملات متلاحقة نحوا من ثلاثين يوما وأخفقت جهود نقفور فى وقف هــذا التيار الجارف ، فلم يجــد مناصا من التسليم « وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهــده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منهــا عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق دينارين (١) كمــا تعهــد بألا يعيد ترميم الحصون التى دمرها الرشيد عام ١٩٣ هـ (٨٠٨ م) .

ولكن يبــدو أن جهود الرشيد كانت قــد تركت جرحا عميقا فى جسم الدولة البيزنطية لم تستطع أن تفيق منه فى سهولة ويسر . يدل على هــذا أنها لم تحاول أن تستغل التصدع فى داخل الدولة العباسية ابان الفتنة بين الأمين والمــأمون . وكانت الفتنة فرصــة مواتية لأى هجوم مضاد يستعيد ما فقد فى عهد الرشيد .

كما أن التفاهم الذى توطد بين العباسيين والفرنجــة لم يختف بوفاة هارون انما ظلت أواصره معقودة حتى أوائل عصر المــأمون . ويذكر Buckler (٢) أن آخــر السفارات التى وصلت الى البلاط العباسى كانت سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) (٣) الأمر الذى يــدل على أن التفاهم استمر بعد الرشيد مــدة طويلة ، ولعله كان من بين الأسباب التى حالت بين البيزنطيين وبين مواصلة العدوان .

ثم استطاع المــأمون أن يعيد للدولة وحدتهــا . وبالخراسانية الجــديدة هزم جيوش الأمين وآلت اليه مقاليد الأمور . واستمرت مكاسب عصر الرشيد وفعــالية الدولة فى مواجهــة الخطــر لم تفتر أو تتغير . ويبــدو أن كلا الطــرفين كان يريد أن يستفيد من الفتن الداخلية التى تقع داخل المعسكر الآخر . فقــد حاول المــأمون مثلا

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٩ .
(٢) ص ٣٧ .
(٣) ارشيبلد لويس : ص ١٩٨ .

أن يفيد من الفتنة التى تزعمها توماس الصقلى (١) بين سنتى ٨٢١ ، ٨٢٣ م الذى دعا الى خلع الامبراطور • ووقف المأمون الى جانب هذا الثائر وحالفه على أن يمده بقوات تعينه على فتح القسطنطينية (٢) ، كما أوعز المأمون الى بطريق القسطنطينية أن يتوج هذا الثائر ليضفى على حركته طابعا شرعيا • لكن توماس هزم وقتل على أبواب القسطنطينية • وأراد ميخائيل الثانى أن يرد هذا الكيد فانتهز فرصة ثورة بابك الخرمى فأعانه على المأمون (٣) •

وكان المأمون فى بعض الأحيان يقود الصوائف متوغلا فى أرض العدو ، فقد خرج سنة ٢١٥ هـ سالكا طريق الموصل ومنبج ودابق وأنطاكية والمصيصة وطرسوس (٤) فى الوقت الذى تقدم فيه العباس ابن المأمون من ملطية واستولت القوات العباسية على حصن قرة وماجدة وسندس وسنان • وقد عاود المأمون الغزو مرة أخرى سنة ٢١٦ هـ (٥) • ثم استؤنف القتال مرة أخرى عام ٢١٧ هـ وأرسل تيوفيل يطلب الصلح ولكن يبدو أن المأمون كان يريد أن يمضى فى القتال الى غايته وأن ينطلق الى عمورية (٦) لكنه توفى قرب طرسوس عام ٢١٧ هـ (٧) •

على أن القوة الضاربة للدولة العباسية وصلت الى أقصى شدتها فى عهد فارس بنى العباس المعتصم بن الرشيد الذى أراد أن يحقق ما حققه السلاجقة فيما بعد ، وأن يخترق الهضبة اختراقا بطوليا ، وأن يوقع بالدولة البيزنطية ويضربها ضربة قاصمة • قال المعتصم

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٦٨ • الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٢٣٠
(٢) الباز العرينى : ص ٢٣١ •
(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٠٧ — ٣٠٩ •
(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٨٠ •
(٥) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٨١ •
(٦) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ١٩٦ •
(٧) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ •

« أى بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام ، وهى عين النصرانية وبنكها وهى أشرف عندهم من القسطنطينية »(١)• اذ يروى المؤرخون أنه تجهز بما لم يتجهز به خليفة من قبل من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ، وجعل على مقدمته أشناس ويتلوه محمد بن ابراهيم وعلى ميمنته ايتاخ وعلى ميسرته جعفر ابن دينار وعلى القلب عجيف بن عنبسة » (٢) • وبهذا الجيش الكثيف دخل عمورية ، وبذلك استشعرت الدولة البيزنطية الخطر الفادح الذى يهددها ، فاستنجد تيوفيل بصاحب البندقية ودولة الفرنجة وبالأمويين فى الأندلس ، ولم تستطع الحملة أن تحقق الغرض الذى خرجت لتحقيقه بسبب بعض الاضطرابات الداخلية فى الجيش • وكانت هذه الغزاة خاتمة الجهود البطولية التى وضحت فى عهد الرشيد ولم تكن جهود المأمون والمعتصم الا نتيجة للجهود الكبيرة التى بذلت فى عهد الرشيد •

ويستفاد مما رواه الطبرى أن سنة ٢٣١ هـ (٣) شهدت تحولا خطيراً فى المشكلة البيزنطية اذ شهدت توقف ذلك الصراع الدموى الذى استمر أكثر من تسعين سنة ، وتحقق السلام على الحدود الفاصلة بين الدولتين ، وأنه فى تلك السنة اتفق الطرفان على تبادل الأسرى على ضفاف نهر اللامس قرب طرسوس ، وحضر الفداء خاقان الخادم وجعفر بن أحمد الحذاء وأحمد بن سعيد بن سلام بن قتيبة الباهلى أمير الثغور ، وحضرت مفاوضات الفداء فرقة عباسية تتألف من نحو سبعين ألفا من حملة الرماح (٤) • ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر والبيزنطيون على الجانب الآخر • وتم الاتفاق على فداء كل

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٣٥ •
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٣٥ — ٣٤٣ ، تفاصيل غزاة المعتصم فى غاية الطرافة والأهمية •
(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٩ — ٢١ •
(٤) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢١٧ •

نفس بنفس دون تفرقة بين كبير أو صغير فتى أو شيخ (١) وأقام البيزنطيون جسرا على النهر وكذلك فعل المسلمون (٢) وأمر الواثق خاقان الخادم أن يمتحن الأسرى من المسلمين فمن قال ان القرآن مخلوق وبأن الله لا يرى فى الآخرة فودى به وأعطى ديناران وثوبان (٣) ومن رفض ترك للروم (٤) .

ثم بدأ اطلاق الأسرى فكان المسلمون اذا أطلقوا أسيرا أطلق الروم أسيرا مثله فيلتقيان وسط الجسر ، فاذا وصل الأسير المسلم الى عشيرته كبروا واذا وصل الأسير الرومى الى أصحابه صاحوا صيحة الفرح ، وكان عدد من افتدى من المسلمين ٤٤٦٠ نفسا ، النساء وأزواجهن وأولادهن ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة . وكانت الدولة تعطى الطليق فرسا وألف درهم (٥) ومن المشاهير الذين تم اطلاق سراحهم مسلم بن أبى مسلم الجرمى ، فقد كان من مشاهير أهل الثغور ، وعلى معرفة بأهل الروم وأرضهم . وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب فيهم (٦) .

ولعل هذا التطور يدعونا الى أن نسأل لماذا تحقق هذا السلم ولماذا فترت هذه الحرب . ألمظاهر ضعف فى جسم الدولة البيزنطية ومظاهر قوة من جانب الدولة العباسية ؟ . وهل هذا العداء يستحق هذه الضحايا وهذه النفقات التى بذلت ؟ . وأعتقد أن العباسيين كانوا راغبين فى السلام بعد أن قل اهتمامهم بالبحر الأبيض المتوسط وبلاد الشام ، وبدأوا يوجهون مزيدا من الانصراف الى أواسط آسيا . هذا وقد تكاملت الحصون بناء وشحنت عتادا ورجالا مرابطين ،

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٩ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٧ .
(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٠٩ .
(٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ١٦٢ .
(٦) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٢٠ .

واكتسبت منطقة الثغور استقلالا فى الادارة وقــدرة على الحركة ، وفى مكنتها أن تقوم بمهمة الدفاع عن الحــدود بعد أن فترت الرغبة فى الهجوم . يضاف الى هــذا أن ثمة أمورا داخلية بدأت تميز عصر الواثق وتستحق مزيدا من الاهتمام ، فقــد ثار القيسية بدمشق (١) وانتشرت ثورات العرب بعد اسقاطهم من العطاء ، وبدأ الأتراك تزداد متاعبهم ومشاكلهم . وكانت الدولة البيزنطية من ناحيتها أشــد رغبة فى التفاهم بعد صــدمة عمورية وفقدانهــا أغلب قواعدها فى البحر الأبيض المتوسط وخاصة كريت وصقلية . ومن حسن الحظ أن هــذا السلام أعطى مزيدا من فرص التبادل الفكرى والثقافى وأنه حــدث فى وقت آذنت فيه أوضــاع الخلافة بالاختلال وانتهت فترة العصر العباسى الأول ولاحت نذر العصر العباسى الثانى .

* * *

قطاع التركستان ووسط آسيا :

وللعباسيين دورهم المرسوم فى تاريخ العلاقات العربية التركية وفى انتشار الاسلام بين أوطان الترك ، ودورهم هــذا لا يقل أثرا عن الدور الذى اضطلع به الأمويون .

فقد كان واضحا أن خطر الأتراك الشرقيين المتدافع نحو حدود اقليم ما وراء النهر يدفعه خطر أقوى ، هو الخطر الصينى ، فقد كانت الأطماع الصينية لا تقف عند حــد ، بسط الصينيون نفوذهم السياسى على الأتراك الغربيين أيضا وان كنا نعتقد أن المطامع الصينية ليست لمجرد فرض السيطرة السياسية ، انما القصد منها الاستيلاء على طرق القوافل التى تعبرها متاجر الشرق الأقصى الى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوربا .

وكان لابد لكى تقهر مقاومة الأتراك الشرقيين أن تعزل الصين عن المعركة وأن يقضى على أطماعها قضاء تاما وهــذا هو ما استطاعه العباسيون فعلا .

---

(١) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠ .

فقيام الدولة العباسية صحبه ظهور الأطماع الصينية سافرة (١) ، فقد ألبوا الأتراك الشرقيين وبدأوا يغيرون على أطراف اقليم ما وراء النهر ، فقد استولوا على سوباب وخربوها ، ثم هاجموا اقليم الشاش وقتلوا عامله ، وبدأ النفوذ الصينى يزحف نحو الغرب زحفا مطردا ، على أن العباسيين نهضوا بالأمانة كاملة واستطاع عاملهم زياد بن صالح الخزاعى أن يهزم جيش الصين الذى كان يقوده (كاو — هين — شيه) فى يوليو عام ٧٥١ م (٢) .

وكان هـذا النصر من أعظم الانتصارات العربية فى تاريخ آسيا الوسطى من حيث الهزائم التى لحقت بجيش الصين ، ومن حيث النتائج العامة التى ترتبت عليه فى تاريخ آسيا الوسطى ، وتذكر الروايات العربية أنه قد سقط فى المعركة نحو من خمسين ألف قتيل من جيش الصين ، ووقع أكثر من عشرين ألفا فى الأسر ، ويعلق بارتولد على هـذا النصر وعلى أهميته القصوى فيذكر أن تركستان فى ذلك الوقت كان عليها أن تقرر الى أى المدينتين تنحاز ، الى المدينة الصينية أو الاسلامية (٣) .

ويبدو أن هـذا النصر الحاسم لم يضع حـدا لأطماع أهـل الصين فقـد عاودوا الظهـور وقاموا بمحاولة أخرى لتأليب الحكام الوطنيين على العرب ، وان كانوا لم يجرءوا على الاشتباك المسلح ، ومراجع الصين تشير الى نصر أحرزه أهل الصين على العرب فى أقصى الجنوب الشرقى عند حـدود الهند ، ولكن هـذه الأخبار لا تؤيدها المصادر العربيـة .

---

(١) ابن الاثير : جـ ٥ ، ص ٢١٤ .

(٢) المقـدسى : احسن التقاسيم ، ص ٧٤ — ٧٥ ، الطبرى : جـ ٩ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) Barthold; Hist. of Central Asia p. 11—12.

كان من أثر ذلك أن أبعدت الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين ، وبات على هؤلاء أن يلقوا العرب اعتمادا على جهودهم وحدها ومواردهم وحدها ، وقد وضحت بعد هذا النصر تطورات هامة حقا . فقد ضعف عدوان الأتراك الشرقيين ولم يعد العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل .

فقد تفرقت وحدة الأتراك الشرقيين وقامت لهم امارات صغرى متناثرة حول حدود اقليم ما وراء النهر ، فظهرت امارة القرلوق سنة ٧٦٦ م شرقى نهر سيحون . كما ظهرت امارة الأغوز فى هذه المنطقة أيضا ، ولم تعد جموع الأتراك الشرقيين تشكل خطرا فادحا على اقليم ما وراء النهر . بل أصبح لا هم لهم الا الغارات الخاطفة أو مد يد المعونة لولاة الأتراك الثائرين من ناحية أخرى .

وقد عمد العباسيون الى بناء الأسوار عند رشت وقرب بخارى وفى بلاد الشاش لاعطاء الاقليم الحماية والطمأنينة التى لابد منها لتستمر المشروعات الاسلامية فى طريقها الى النجاح (١) .

هكذا استطاع العباسيون أن يحلوا هذه المشكلة المستعصية فى تاريخ العلاقات العربية التركية بوقفهم عدوان الأتراك الشرقيين وقضائهم على الخطر الصينى (٢) .

وقد كان العباسيون يتابعون حمل هذا العبء الكبير وهو مهاجمة الأتراك الشرقيين كلما لاح لهم عدوان ، والقضاء على فتن الأمراء المحليين اذا حدثتهم أنفسهم بالثورة ، ففى عهد المنصور حارب العرب أمير فرغانة واضطروه الى طلب الصلح ودفع الجزية (٣) وتابع المهدى سياسة المنصور بارساله حملة أحمد بن أسد أخضعت أخشيد

---

(١) طبرى : ج ٩ ، ص ١٥٠ .
(٢) Jean. — paul — Boux L,lslamen Asia p. 35.
(٣) البلاذرى : ص ١٩٢ .

الصغد وصــاحب أسروشنه وملك فرغانة وحــكام القرلوق وخاقان الأوغوز . وتمضى المصادر العربية فى وصف هــذا التغلغل العباسى فتشير الى خضوع ملك التبت وامبراطور الصين .

والأمر الجديد هنا أن العباسيين بدأوا يبسطون نفوذهم خارج حــدود اقليم ما وراء النهر ويخضعون الامارات الشرقية المجاورة ، بل أوغل نفوذهم صوب الشرق بصورة لم تشهدها المنطقة من قبل ، كما وضح أن الأتراك الشرقيين قــد تفرقت كلمتهم وفقدوا عنفوانهم القديم وبدأوا يستسلمون للحكم العربى أو يذعنون له بالطاعة (١) .

انظر الى حملات هارون الرشيد بقيادة واليه الغطريف بن عطاء والى توغلها فى مناطق لم يكن العرب يجرأون على اقتحامها من قبل ، فقد بسط نفوذ العباسيين على امارة القرلوق مرة أخرى وطرد ملكها ، كما استطاع الفضل بن يحيى البرمكى أن يخضع ملك أسروشنة الذى لم يخضع لنفوذ من قبل .

وقد وضحت ثمار هــذا النصر العباسى فى عهد الخليفة المــأمون رأوغل النفوذ العباسى فى قلب آسيا الوسطى (٢) .

وقــد أرسلت الجيوش الى بلاد الصغد وأسروشنة وفرغانة ، وتوافد سفراء الامارات الشرقية الى بلاط المــأمون لتقــديم فروض الطاعة ، وعلت كلمة العــرب فى هــذه المنطقة وأصبح ملوك القرلوق والتبت خاضعين للنفــوذ العباسى يظهرون الطاعة ويبعثون بالهــدايا وتفرض عليهم الجزية ، ولم يعد نفوذ العرب قاصرا على اقليم ما وراء النهر فحسب، بل امتد الى أسوار الصين .

---

(١) البلاذرى : ص ٣٩٣ ، ٤١٨ .

(٢) البــلاذرى : فتــوح البلدان ، ص ٣٢٩ .

العباسيون وانتشار الاسلام فى وطن الأتراك :

وكما حددنا للعباسيين دورهم الواضح فى المجال السياسى والعسكرى ، يمكننا أن نحدد الدور الذى قاموا به فى انتشار الاسلام والثقافة العربية فى وطن الأتراك •

ويمكننا أن نقول ان العباسيين وجدوا حركة اسلامية ضخمة انتشرت فى خراسان وفى اقليم ما وراء النهر ، وكانت بلاد ما وراء النهر طوال العصر الأموى تابعة اداريا لولاة خراسان ، واستطاع العباسيون أن يستغلوا هذه الحركة لصالحهم ، وأن يكسبوا رضاها توطئة للقضاء على الحكم الأموى ونقل النفوذ اليهم ، اذ لا يمكن أن يعتمد العباسيون على حركة سطحيه ضحلة لا تمكنهم من النجاح المنشود ، ولم يكن اختيارهم لمنطقة خراسان وما وراء النهر لنشر دعوتهم عبثا •

وقد اتجهت الدعوة الهاشمية الى اقليم خراسان وما وراء النهر فى أواخر العصر الأموى ، واضطلع بها قبل أبى مسلم يحيى بن زيد العلوى ، وابراهيم بن محمد العباسى (١) •

وكان منطق الدعاة العباسيين فى ذلك الوقت يجذب اليه هؤلاء المسلمين الجدد ، فقد كانوا يدعون لاحياء سنة رسول الله التى زعموا أن الأمويين قد نقضوها ، ثم الدعوة الى أن ينال المسلمون حقوقهم السياسية والدينية بصرف النظر عن لونهم أو جنسيتهم • ولا يمكن أن يغفل هؤلاء المسلمون دعوة هذه أهدافها ومراميها •

كان الدعاة العباسيون فى السنوات القلائل السابقة على انتصارهم يسعون الى كسب ود طبقات معينة من الناس ، الى كسب ود اليمانية دون المضرية ، ثم الى كسب ود أهل الريف وطبقة الدهاقين ، بمعنى أن حركتهم قد اتخذت طابعا شعبيا صرفا •

---

(١) الطبرى : تاريخ بخارى ، ص ٧٨ .

وكانت هـذه الدعوة تلقى الاستجابة الشاملة إذ يذكر أن ست قرى دخل أهلوها فى دعوة أبى مسلم فى يوم واحد . ونجاح الثورة العباسية فى خراسان وفى اقليم ما وراء النهر يـدل على عمق هـذه الحركة الاسلامية التى استغلوها لصالحهم .

وقـد أكدت الأحداث التالية لنجاح انقلابهم هـذه الحقيقـة الكبرى ، ذلك أن الانشـقاق العلوى لقى قبولا واستجابة شـاملة فى منطقة بخارى ، حيث انبعثت ثورة شريك بن صالح تنادى بأحقية العلويين ، وقـد تجمع حوله نحو من ثلاثين ألفا من بخارى وحدها ، بل امتدت هـذه الحركة حتى وصلت الى منطقة خوارزم الى أن تمكن العباسيون من القضاء على هـذه الثورة واستعادة نفوذهم .

واذا كان العباسيون قـد وجدوا هـذه الحركة الاسلامية بهذا العمق واستغلوها لصالحهم ، فانه يرجع اليهم الفضل فى أنهم مكنوا لها من أن تحرز نجاحا أكبر مما أحرزته ، ليكتسب اقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث الهجرى طابعا اسلاميا واضحا . ونحن نريد أن نعرض لهـذه الجهود التى بذلها العباسيون فى الوصول بالحركة الاسلامية الى هـذا القدر من النجاح .

ونعتقـد أن أهم هـذه الجهود ما بذله العباسيون فى الميـدان السياسى والعسكرى من حماية اقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية والخارجية التى هـددته ، وحماية الاقليم من خطر الصين والأتراك الشرقيين ، ثم القضـاء على ثورات الأمراء المحليين ، وليس من شك فى أن هـذا الأمن وهـذه الطمأنينة التى انتشرت فى البلاد فى ظـل بنى العباس قـد أعلت من شـأن الحـكم العربى فى نظر الناس ، وساعدت عن طريق غير مباشر على التمكين للحركة الاسلامية من أن تمضى فى طريقهـا ، ونجاح الادارة العربية فى حـل المشكلات التى

استعصى حلها يعلى من شأن الحضارة الاسلامية فى نظر الناس (١) .

ومن قبيل جهود العباسيين فى الاستقرار النظم الادارية الناجحة التى طبقت فى خراسان وما وراء النهر ، عن طريق الاقتباس من النظم الناجحة التى كانت شعار الساسانيين والتى رأى العباسيون فيها عنوانا للحكمة واتخذوها نموذجا ، وكان وزراؤهم من الفرس يعتبرون أنفسهم خلفاء برزجمهر وغيره من وزراء آل ساسان ، والتنظيم الادارى الناجح يزيد فى هيبة الحكم العربى ويكسب البلاد الاستقرار .

وقد مضى العباسيون فى سبيل دعم هذا الاستقرار خطوات أبعد ، فقد رأوا فى تغير الولاة المستمر الذى سار عليه الأمويون أمرا أطمع الأعداء وأشاع القلق فى البلاد وشجع العناصر المتمردة على الثورة والخروج ، لذلك نراهم يختصون اقليم خراسان وما وراء النهر بنظام يرى المؤرخون له شبيها فى العصر الساسانى وهو تولية أبناء الخلفاء حكم الأقاليم الهامة من الدولة .

وقد بدىء فى تطبيق هذا النظام فى عهد هارون الرشيد حينما ولى المأمون على القسم الشرقى من الدولة ، وكان لهذا كله أهمية قصوى فى خراسان التى كان الصراع الداخلى والخارجى فيها على أشده .

وقد عمدت الدولة العباسية الى جعل منصب الولاة وراثيا فى الأرستقراطية من أهل البلاد ، وهم أكثر معرفة بالتقاليد المحلية وأكثر حرصا على كسب ثقة الناس .

وقد أضاف العباسيون الى سياستهم هذه أمرا آخر كان بالغ الأثر فى التقريب بين الأتراك والعرب ودفع من بقى منهم على دينه

---

(١) loux L'Islmen Asia p. 37—38.

الى اعتناق الاسلام ، ونقصد استخدام الأتراك فى القوات المسلحة وفى الوظائف الادارية الصغيرة والكبيرة .

وقد وجد العباسيون تقاليد عربية قديمة مطبقة منذ أيام الأمويين وهى استخدام غير المسلمين فى الجيش ، فزاد العباسيون من من هذا الاستخدام ، وقد أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى فرقة كبيرة فى خراسان ، يذكر الطبرى أن عدد جنودها بلغوا نحوا من ٥٠ ألفا أرسل منهم الى بغداد ٢٠ ألفا ، وأطلق عليها اسم الفرقة العباسية ، واشترك فى قوات على بن عيسى رجال من الصغد والخوارزمية .

والجديد فى هذا الأمر هو استخدام هؤلاء الجنود ليس فى خراسان وما وراء النهر فقط بل فى بغداد نفسها ، وقد استن المأمون سنة جديدة حينما دعا كثيرين من زعماء الأتراك الى الدخول فى خدمته ودعا زعما هم لبغداد ومنحهم الصلات واشترك فرسان الترك فى الحرس الخليفى (١) ، واستمر هذا التقليد فى عهد المعتصم حين ظهر الحرس التركى ، وفيه من الصغد وفرغانة وأسروشنة والشاش ؛ وكانوا دعائم الخلافة . وقد قرب هذا بين الأتراك الغربيين وبين الاسلام فساعد على انتشاره من ناحية كما ساعد على تثبيت السيادة الاسلامية فى البلاد .

وفى عهد المعتصم كان الاسلام قد رسخت قدمه فى بلاد ما وراء النهر وبدأ الأتراك أنفسهم يتبنون حركة الجهاد بين جيرانهم الأتراك الشرقيين . يقول البلاذرى : « المعتصم بالله جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على ما هنالك

(١) البلاذرى : ص ٤٢٠ .

وصار أهل تلك البلاد يغزون ما وراءهم من الترك .. ففتح مواضع لم يصل اليها احد قبله (١) .

قطـاع الهنـــد :

واذا كان الأمويون كسبوا معركة السند فى عهد الوليد ابن عبد الملك فانهم ما ابثوا أن خاضوا معركة تأمين هذه المكاسب وتثبيتها منذ عهد سليمان بن عبد الملك حتى آخر العهد بهم .

واضطروا الى القضاء على ثورات الأمراء الهنود بعد عزل محمد ابن القاسم ومصرعه ، فقد استطاع ابن ملك السند أن يدخل العاصمة وأن يستردها واضطر الأمويون الى معاودة القتال فى عهد ولاة السند أمثال يزيد بن أبى كبشة ، وسليمان بن عبد الملك بن حبيب ، وحبيب ابن المهلب (٢) .

وظلت هذه الفتن متلاحقة متصلة والأمويون لا يكفون عن القضاء عليها حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٣) ، وأدرك الأمويون أن كسب معركة التثبيت لن يكون الا بانشاء القواعد العربية التى تمتد فى البلاد لتكون مراكز لتجميع العنصر العربى وقلاعا حصينة تحمى المكاسب التى أحرزوها ، ومن أجل هذا أنشئت مدينتا المحفوظة والمنصورة (٤) .

ويبدو ان هذه السياسة أثمرت آخر العصر الأموى فقد استقرت الأحوال وقضى على الفتن والثورات ، وركن أهل السند والملتان الى الطاعة .

---

(١) البلاذرى : ص ٤٢٠ .
(٢) البلاذرى : ص ٤٢٨ .
(٣) البلاذرى : ص ٤٢٩ .
(٤) البلاذرى : ص ٤٣١ .

ولم يكن العصر العباسى ، عصر تجميد الفتوح على نحو ما يذهب بعض الدارسين ، فقد اندفع العباسيون فى تيار الفتح بنفس قوة الأمويين ، ويكفى أن نشير الى ما أحرزوا من نصر فى بلاد ماوراء النهر، وفى هزيمتهم للصين وقضائهم على تدخلهم فى أحوال الأتراك •

ولم يقف العباسيون جامدين فى اقليم امارة قنوج فقد احتكوا بها ويظهر أنهم أحرزوا بعض النصر فى هذا الميدان ، فالبلاذرى يشير الى القائد العباسى هشام بن عمرو التغلبى وفتح قشمير (١) ، واستمرت معركة المسلمين مع قنوج حتى أيام الخليفة المأمون ، فقد أشار البلاذرى الى جهود موسى بن يحيى بن خالد البرمكى •

ولم يكف العباسيون عن متابعة الزحف صوب الشرق حتى أيام المعتصم العباسى الذى تابع سياسة انشاء المدن وبناء القواعد الحصينة ، فبنى قاعدة البيضاء وأسكنها الجند •

* * *

العباسيون وجنوب شرق آسيا :

ليس من شك فى أن العصر الأموى فتح للحضارة العربية آفاقا جديدة مطلة على آسيا الوسطى بعد فتوح ما وراء النهر ، كما فتح آفاقا أخرى مطلة على المحيط الهندى بعد فتح السند واستيلاء العرب على الميناءين الهامين على ساحل الهند الغربى : ميناء الديبل والمنصورة• وبدأت البحرية العربية للمرة الأولى تبسط نفوذها وتؤكد سلطانها فى هذه المناطق الهامة • لكن الحقيقة المؤكدة أن العصر الأموى لم يستطع أن يستغل هذه الآفاق الجديدة التى أطلت منها الحضارة العربيه ووقفت جهودهم عند الآفاق التى انتهوا اليها ، لأن التركيز كله وثقل الدولة كلها كان فى بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس والبحر الأبيض المتوسط بصفة عامة ، الذى شهد أهم المعارك

---

(١) البلاذرى : ص ٤٣١ . الطبرى : ج٠٩ ، ص ٢٧٩—٢٨٠٠

البحرية ، وأهم التوسعات البرية ، فكانت الدولة الأموية فى الحقيقة دولة ألقت بثقلها كله فى ميدان البحر الأبيض المتوسط •

ولكن قيام الدولة العباسية كان نذيرا بتحول جديد ومزيد من الاهتمام والتطلع الى الآفاق التى جمد الأمويون عندها • ولا ننكر أن الدولة العباسية ظلت منذ قيامها معنية بالمشكلة البيزنطية والدفاع عن حدود الشام والاحتفاظ بنفوذها فى المغرب ومناوشة الأمويين الذين كانوا قد استقلوا بالأندلس•لكن الحقيقة أنهم كانوا يدافعون عن مكاسب آلت اليهم من العصر الأموى ، ولم يكن من المعقول أن يتركوها نهبا لأطماع البيزنطيين ، أو أطماع الثوار الخوارج ، أو مشروعات الأمويين التوسعية •

كل ذلك لم يصرف نظر الدولة العباسية عن موضوع آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا ، وبدأت الدولة تتخفف من أثقالها فى الغرب الاسلامى بالتدريج لتعطى مزيدا من الاهتمام ومزيدا من التركيز نحو الشرق • وقد حافظت الدولة العباسية على ميراث الاسلام فى تركستان ، وصمدت لأطماع الصين ونقضت تحالفها مع الأتراك الشرقيين ، كما أعطت قوة جديدة للنفوذ الاسلامى فى السند ، وبدأ المد الاسلامى يتحرك صوب الشرق نحو قشمير وامارة قنوج ، لكن هذا التركيز وهذا الاهتمام اشتد أثره واشتد وضوحه منذ أواخر عصر الرشيد حين تحقق النمط الفيدرالى فى الحكم وأقيمت دولة الأغالبة فى افريقية ، وتم التفاهم مع الفرنجة وضربت الدولة البيزنطية ضربات قاصمة • ولعل من أدلة هذا الاهتمام قسمة العالم الاسلامى الى مشرق عاصمته مرو فى خراسان وتولية المأمون ولى العهد ، ونائب الخليفة على هذه البلاد يقيم فيها ويهتم بأمورها ، ثم تأكد هذا الاهتمام فى عصر الخليفة المأمون الذى وضحت فى عهده الصبغة الأسيوية الصرفة للخلافة العباسية • وكان المأمون عاهل آسيا العظيم تأتيه الوفود من كافة آفاق آسيا

تلتمس التأييد أو تشترى السلام ، حتى بلغ هـــذا الاهتمام بآسيا ونشاطها وتياراتها القمــة فى عصر الخليفة المعتصــم ، الذى وجد فى الأتراك الغربيين القــوة الجديدة التى تســاند الخــلافة وتحميها . وقــد أدى هــذا كلــه الى مزيد من الاهتمام بجنوب شرق آســيا وبالشرق الأقصى . وأصبح هذا الاهتمام ركنا هاما من أركان السياسة الدولية لخلفــاء العصر العبــاسى الأول . وأعتقد أن ذلك مرده الى عوامل متعــددة منهــا أن الدول العباســية لم تهمــل أبدا اقليم خراسان ، حيث انطلقت الصيحات الأولى للدعوة العباســية ، وكانت خراسان عامل جذب كبير فى تاريخ العصر العباسى الأول . هــذا الى التحالف الذى نشــأ بين العباسيين وبين الجمــوع الايرانيــة المتطلعة الى مزيد من السلطــان ، هــذه العنــاصر التى كانت قــد أسلمت واستعربت واتخذت اللغــة العربية لغــة لحياتها الثقافية ، وورثت الدولة الكثير من التراث الساسانى القــديم (١) . ومن بين ما ورثتــه الاهتمام بالملاحة فى الخليج الفــارسى وبحار الهند وجنــوب شرق آســيا . وثمــة عامل آخر يعــزى الى تأسيس مدينــة بغـــداد التى أصبحت مركز الثقــل فى الحياة الاسلامية فى العصر العبــاسى الأول ، وكانت ذات موقع متوسط يربطهــا بواسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمــان واليمامة والبحــرين ، وكذلك ما يأتى من الموصـــــل وديار ربيعــة وآذربيجان وأرمينيــة (٢) . وكانت تربط الفرات بدجلة عدة قنوات صالحة للملاحة ، وكانت العاصمة الجــديدة فى وسط السهول الخصبة التى كانت تزدان بهــا أرض الجــزيرة . وكانت أوفر حظا بميــاه الرى وأكثر ازدهارا بالسكان . هـــذا الى ما استطاعت الدولة العباسية أن تحققه من مظاهر الاستقرار بقضائها على العناصر المنــاوئة لهــا فى ايران واخماد الثورات والفتن واصلاح

---

(١) حورانى : العــرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ١٩٧ .

(٢) المقــدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٢٤ .

Heyd, Ilisl, du Commerce Vol. I. p. 27.

الحكومة ، وانشاء الجيش القــوى والتمكين للنظام العباسى من القوه والسلطان •

وهناك تطورات أخــرى حدثت فى جنــوب شرق آسيا ساعدت العباسيين الأول على أن ينطلقوا فى هــذا الاتجاه بكل ما يستطيعونه من قــوة • فقد ظهــرت جاليات اسلامية فى بلاد الصين يعــــزوها المؤرخون الى الشــيعة الذين فروا فى أواخــــر العصر الأموى من الاضطهاد فى خراسان وأقاموا بجزيرة فى أحد الأنهــار الكبــيرة فى الصين ، واشتغلوا بالوساطة التجارية بين المشرق والمغرب • وتتحدث الكتابات الاباضية عن رحلة تاجر اباضى الى الصين حول منتصف القرن الثامن من أهل عمان كان اســمه أبا عبيدة • وشهدت بلاد الصــين فى ذلك الوقت استقراراً شبيها بالاستقرار الذى تحقق للعباســيين فى عصرهم الأول ، فقد حكمت أسرة تانج (٦١٨ـ٩٠٧ م) امبراطورية ظلت متحدة حتى آخر العهد بهــا ، ونعم جنوب الصين قرنين ونصف قرن بســلام لم يكن يعكر صفوه شىء ، وكان من الطبيعى بعد أن استقامت أحوال الصين على هــذا النحو أن تفتح كانتون للتجــــار من كل صوب •

تلك هى العــوامل الجاذبة التى شــدت انتباه العباســيين الى الشرق الأقصى فما هو نطاق هــذا الاهتمام ؟ كانت الخطوة الأولى فى هــذا الصدد أن تحافظ الدولة العباسية على سيادتها على بحار الهند ، وتشدد من قبضتها على الموانى الغربية الهــــامة ، وأن تقضى على القرصان الذين انتهزوا فرصة العصر الأموى الأخير وعاثوا فساداً فى تلك البقــاع • ويروى البلاذرى (١) أن الخليفة المنصور وجه عمــرو ابن جميــل فى بوارج الى تارند وأتى القندهار فى السفن ففتحها ، وفى عهد المــأمون بعث محمد بن الفضل بن ماهان فسار فى ...

---

(١) فتــوح البلدان : صفحة ٤٣١ .

بارجة (١) الى ميد الهند فقتل منهم خلقا كثــيرا • ثم تزايد الاهتمام العباسى بالشرق الأقصى وانتظمت الملاحة المباشرة مع الصين فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى • يدل على ذلك هــذا الأدب الجغرافى الكبير الذى ظهر فى هذه الفترة يتحدث عن هــذه العــلاقات ويصف المسالك ويتحدث عن السفن والتجارات • هــذا الأدب الجغـــرافى المتمثل فى الرواد الأوائل من الرحالة المسلمين الذين ظهروا فى هـــذه الفترة أمثال سلام الترجمان الذى قام برحلة الى سور الصين الشمالى، وابن وهب القرشى الذى ركب البحر الى الصين ، وانتهى به المطاف الى مدينـــة كنتون بالصين • وقــد أكرمه امبراطور الصين وناقشه فى الدين والسياسة ثم عرض عليه صور بعض الأنبياء ، وأمر له بالهدايا النفيسة • وقد أفاد من تجربة ابن وهب مؤلف اســمه أبو زيد حسن، كما أشار المسعودى الى هــذه الرحلة فى كتابه مروج الذهب فى الفصل الذى كتبه عن ملوك الصين ، وكذلك رحلة سليمان السيرافى • ولا نكاد نعرف شيئا عن حياته ، وكل ما وصل الينا هو وصف رحلته الى الهند والصين • ولهــذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى مؤلف سيرافى اسمه أبو زيد حسن واعتمد فيــه على ما ســمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين • وتمتاز رحلة سليمان والذيل الذى وضعه أبو زيد حسن بمــا فيها من وصف صادق للطــرق التجــارية ولبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ولأهم الحاصــلات فى الهند وسرنديب وجاوة والصين • هــذا التراث الجغرافى العظيم هو الذى بقى فيما كتبــه المسعودى والاصطخرى وابن خرداذبة •

وأصبحت البصرة والأبلة وســيراف منتهى المطــاف للســفن القادمة من الصــين ، بل أصبحت ســيراف منافسا للبصرة فى الغنى والثروة •

---

(١) فتــوح البــلدان : ص ٤٣٣ •

من هـــذا الأدب الجغرافى سالف الذكر يمكن تصور الطريق الذى سلكه القاصـــدون الى الصين فى النصف الأول من القـــرن التاســـع الميـــلادى • كانت السفن فى طريقها الى الهند تقف فى صحار ومسقط للتزود بالميـــاه ثم تعبر المحيط الهندى مباشرة الى جنوب ملبـــار • وهـــذا الطريق بطبيعة الحال كانت تسلكه السفن التى تقطـــع الرحلة الطويلة الى الصين •• وكانت السفن تستطيع كذلك الابحار على طول الساحل مارة بجزيرة قيس وهرمز القديمـــــة ، وتيزمكران والديبـــل والمنصورة • وكانت السفن فى هذا الطريق تتعرض لغارات القرصان ، فكانت تحمـــل على ظهـــرها جنـــودا مدربين على الرمى بالنفط (١) • وساحل ملبار هـــذا كانت له أهميـــة اقتصادية قصوى عند المسلمين ، فقد كان مصدر خشب الساج الذى كانت بيوت سيراف تبنى به والذى كان يستخدم فى صناعة السفن ، ومن ساحل ملبـــار تسير السفن الى جزيرة سرنديب (سيلان) وبعد أن تؤدى السفن القاصدة الى الصين رسوما تبلغ ألف درهم كانت تسير حول الجـــزء الجنوبى من سيلان ، وبعد أن تعبر مضيق ملكا تقصد مباشرة الى الهند الصينية ، وتســـير السفن على طول ساحل خليج كنج الى هانوى ، ثم تتجه آخر الأمر الى كانتـــون التى كانت تسمى أحيانا خانفـــو • وكان الملاحون العرب على معرفة بالساحل الممتد شمال كنتون • فان خرداذبة يشير الى ميناء خانجـــو ، ويبـــدو أنهم ـــ وأعنى المـــلاحين العرب ـــ قـــد أوغلوا شمالا حتى كوريا (٢) ويسميها ابن خرداذبة بلاد السيك (٣) •

ولكن كانتون كانت بحق أعظم المراكز التجارية ، وقد نزلت بهـــا جاليـــة كبيرة العدد من المسلمين • ويتحدث سليمان السيرافى عن هذه المدينـــة الكبيرة • ويذكر أنها كانت أكبر أسواق الصين آنذاك « وكان فيها رجل مسلم يوليـــه صاحب الصـــــين الحكم بين المسلمين الذين

(١) ابن خرباذبة : ص ٦٠ .
(٢) Heyd: Hist. du Commerce Vol 1. pp. 30—32.
(٣) ابن خرداذبة : ص ٧ .

يقصدون تلك الناحية . واذا كان العيـد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين » ، والمصادر الصينية تشهد بوجود هـذا النـوع من الامتيازات ، وأنه امتد الى الجاليات الاسلامية الأخرى فى سائر مدن الصين فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها ، وان كانت الحكومة الصينية قد احتفظت لنفسها بحق النظر فى الجرائم التى قـد يترتب عليها النفى من البلاد أو الاعدام .

وكانت الرحلة من مسقط حتى كانتـون تستغرق ١٢٠ يوما عدا فترات التوقف فى الموانى .

هـذه العلاقات الهامة التى نمت فى ظل الحـكم العباسى انتهت نهـاية عنيفة سنة ٨٧٨م عندما حاصر الثائر هوانج بشاو مدينـة كانتون وأعمل فيها السلب والنهب وقتـل عددا كبيرا من التجـار الأجانب . وكانت الامبراطورية الصـينية فى حال من الضعف بسبب هـذه الثورة وامتدت الاضطرابات السياسية حتى بداية أسرة هونج عام ٩٦٠م ، وكانت الدولة العباسـية بدورها قـد دهمهـا التفكك والانحـلال .

وبعد .. فهذه هى الآفاق العظيمة التىفتحها خلفاء العصر العباسى الأول ، وهـذا هو الدور العظيم الذى لعبوه فى السياسة العالميـة ، وتلك هى الجهود التى بذلوها فى تحقيق السلم الاسلامى .

الفصل الرابع

الحيـاة الاقتصـادية والاجتماعية

١ ـ الحيـاة الاقتصادية :

لا نريد بالطبع دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية دراسة موسعة تتناول أدق التفاصيل وتلم بالكثير من التفريعات الصغرى ، وانما نريد أن نعرض لهذا الموضـوع من نفس الزوايا والأبعاد التى نظرنا بهـا الى الموضوعات السابقة التى درسناها فى اطار العصر العباسى الأول . والمراد أن نجيب عن التسـاؤلات الآتية : كيف انفعلت الأوضاع الاقتصـادية والاجتمـاعية وتأثرت بأحـداث العصر العبـاسى الأول ؟ . ما الآثار الاقتصـادية التى تركتها الثورة التى لم تكن مجرد تحطيم لأغلال العصر الأموى ، انما كانت رسما لنهج فى الاسـلام . هل تأثرت هذه الحياة بجيل الخلفاء القادمين المصلحين الذين تصدوا للمواقف العسيرة فى الداخل والخارج ووصلوا الى حل موفق لها ؟ . هـل كانت للثورات العظيمة التى جمعها خلفاء العصر العباسى الأول آثار معينة فى الرخاء الاقتصادى للناس وفى قيمهم ومستوياتهم الاجتماعية ؟ هل الانطلاق الدولى العظيم الذى وصل الى القمة فى عهد الرشيد وما تحقق من سلام آخر العهد به فتح مغاليق الأسـواق العالمية ، وساعد على تدفق الثروات الهائلة الى طبقة التجار ومن أحاط بهم ؟ . هل تجمعت لدينا صورة معينة التحول الاقتصـادى فى آخر العصر العباسى الأول ؟ وهـل أثر ذلك فى حياة المسلمين بعد عهد الواثق ؟ أعنى العصر العباسى الثانى .

كانت الثورة العباسية دعوة الى الاصلاح ، وقد رأينا كيف أنها رفعت شعارات المساواة والاصلاح والقضـاء على مظالم العصر الأموى الأخير ، وتحقيق آمال الجمـاهير التى تاقت الى التغيير ، وتطلعت الى

الدعاة العباسيين والتفت حولهم رغبة فى التحرر والخلاص ، وانه لما يشرف جيل الخلفاء فى العصر العباسى الأول أنهم لم يتنكبوا طريق الدعوة فى فترة التحضير للثورة ، وبعد نجاح الثورة وقيام الدولة العباسية لم يضعوا وراء ظهورهم الآمال العريضة التى لوحوا بها للجماهير ، انما كانوا أشد حرصا على تحقيق شعارات الدعوة قولا وعملا ، ولعل هذه الحقيقة قد وضحت فى الدراسات التى مرت بنا ، وسنزداد اقتناعا بها اذا درسنا أثر ذلك فى الوضع الاقتصادى .

ان الخلفاء العباسيين الأول نصبوا أنفسهم فى قوة ووضوح واخلاص للقضاء على المظالم الاقتصادية التى تجمعت فى العصر الأموى الأخير ، فما هى طبيعة هذه الاصلاحات ؟ وكيف مست قاع المجتمع وأدت الى تحرر العمال والفلاحين وخففت عنهم الكثير من الأثقال الاقتصادية الباهظة التى تحملوها ؟

وضح هذا الاهتمام مبكرا عندما اندلعت الثورة فى خراسان واستطاعت الثورة السيطرة على هذا الاقليم الغنى واقصاء النفوذ الأموى منه ، فقد كان خالد بن برمك فى جيش قحطبة بن شبيب يتقلد خراج الناس احساسا منه بالمظالم الفادحة التى تعوضوا لها والأعباء الجسام التى تحملوها . ولكن الثوار اندفعوا فى القتال الدموى الذى انتهى بدخولهم العراق، ثم خوضهم معركة الزاب، والقضاء على النظام الأموى، ولم يستطع السفاح لفداحة المشاكل التى واجهها أن يتفرغ للتوسع فى الاصلاحات التى بدأها خالد بن برمك فى خراسان ، فقد كانت الدولة مشغولة بالقضاء على أعدائها والاحتفاظ برمقها .

ثم آلت الخلافة الى أبى جعفر المنصور وتصدى للثورة والفتن التى نشبت فى خراسان فقضى عليها ، وتصدى لثورات العلويين فى الحجاز فأخمدها ، وجابه المشكلة البيزنطية فى حزم وشجاعة ، وعمل جاهدا

على تحقيق النمط المركزى للخلافة وتثبيت دعائم الحكم العباسى فى مصر والمغرب . كما عنى باصلاح أداة الحكم وانشاء الجيش القوى القادر على تثبيت أركان النظام العباسى وحمايته . وكانت المشكلة الاقتصادية ، وعلى الأخص مشكلة الخراج والأرض وارضاء الملايين من الفلاحين فى ايران والعراق ومصر وغيرها من البلاد ، لاتزال تنتظر المنصور ليتصدى لها بالحل كما تصدى لحل المشكلات السابقة . تتبين الرغبة الملحة فى اصلاح الوضع الاقتصادى فى رسالة ابن المقفع الى المنصور وهى رسالة تعتبر وثيقة تاريخية هامة ، فهى شهادة من معاصر عاصر المشاكل وعرفها وأشار الى مساوىء الخراج وضرورة اصلاحه ومواجهة غلاء الأسعار ، الذى نجم عن اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية منذ أواخر الدولة الأموية (١) ، وفى الطبرى (٢) فى أحداث عام ١٤١ هـ أشارات واضحة الى الغلاء الشديد وارتفاع الأسعار فى خراسان والعراق . وكانت المشكلة الاقتصادية هى المشكلة الكبرى التى واجهت المنصور . وكان تصديه لها بروح الثورة ومنطق الدعاة فى غاية الأهمية ، لأن معناه اقناع جمهور الأنصار فى كافة البلاد أن الحكومة لم تنعزل عن مبادىء الثورة انما تتمسك بالحزب وتنظيماته وجعلت هذه التنظيمات أساسا للاصلاح الادارى والنظر فى النفقات ، والخراج ومصلحة معاش الرعية لطرح عمالتهم والتلطف لسكونهم وهدأتهم (٣) .

والاصلاحات الاقتصادية التى قام بها المنصور فى غاية الوضوح ، وقامت على أسس معينة منها الشدة والحزم فى مراقبة عمال الخراج والسيطرة عليهم وعزلهم اذا كان هناك آية شبهة فى انحراف . روى الطبرى أنه أنكر على عبد الوهاب بن ابراهيم الامام والى فلسطين عسفه

---

(١) احمد زكى صفوت : جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٧٦ .

(٣) الطبرى : ج ٩ ، ص ٨١٦ .

فى جباية الخراج فعزله من الولاية (١) • وتكلم رجل من أهل خراسان الى المنصور فوقع على مظلمته بقوله « ان كنت صادقا فجىء به ملببا فقد أذنا لك فى ذلك » (٢) كما عنى التى جانب ذلك بتنظيم ديوان الخراج حتى أصبح من أهم دواوين الدولة وأكبرها أثرا • وكان رئيسه يؤخذ رأيه فى كافة الأمور المتعلقــة بالخراج قبل أن يتخذ الخليفة أو الوزير فيهــا قرارا • وكان يحتفظ فى ديوان الخراج بسجلات يرجع اليها فى تقدير قيمة الخراج • وبلغ من اهتمام المنصور بهذا الديوان الهام أن خصص له مكانا فى بغــداد ليكون على مقربة منه خاضعا لاشرافه المباشر • وكان أشــد حرصا على ألا يتولى وظائفه الا من عرف بالكفاية ونزاهة اليد • واشــترط فى هؤلاء الموظفين الحرية والأمانة والتفقــه فى أمور الدين والالمــام بقواعد الخراج ، ولم تفتر عنــاية خلفــائه بهذا الديوان على الاطلاق ، انما زادوه سلطانا وتنظيما وتطورا كثيرا فى عهد المهدى وفى عهد الرشيد ، وأمر عمال الخراج ألا يقبلوا من الناس الا الجيد المضبوط من العيار (٣) واستحدث كيلا جديدا لجباية الخــراج عرف بالقفــير الهاشمى (٤) • ولا شك أن ذلك كان خطوة حاسمة فى سبيل الاصلاح المنشود ، لأنه لا يمكن لمبادىء مهما سـمت أن يضمن تطبيقها الا على أيدى عمال مخلصين شرفاء • واقترنت هذه الاصلاحات بمحاولات جادة لزيادة دخل الدولة لمواجهة النفقات المتزايدة والمطالب الملحة • وكان حريصا على أن يملك احتياطيا من الخراج ببيت المــال لمواجهة نفقــات الجند ونفقات الدولة •

ولكن ما زالت أمام الدولة خطوات أبعد لتحقيق الاصلاح المنشود وتحرير الفلاح من أوزار المــاضى على المظالم التى صورها ابن المقفع فى رســالته الشــهيرة ، ويبدو أن المنصور كان يفكر فى اصــلاح جذرى

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٧٣ •
(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٣١٠ •
(٣) البــلاذرى : ص ٤٦٩ •
(٤) المريسى : الخراج ، ص ١٤٢ — ١٤٣ •

لموضوع الخراج يريح الناس ويحدد دخلا ثابتا للحكومة لولا أن عاجلته المنية • والدليل على هذا هو ما يشير اليه الماوردى[١] من أن المنصور هو الذى فكر فى نظام المقاسمة ، على حين يؤكد البلاذرى [٢] أن هذا الاصلاح تم فى عهد المهدى ، وليس بدعا أن يفكر المنصور وأن ينفذ المهدى •

على كل حال فان الثورة الكبرى فى نظم الخراج لم تتحقق فى عهد المنصور انما تحققت فى عهد المهدى ، اذ قرر العدول عن نظام المساحة الذى اعتمد عليه منذ الفتح ، والذى بمقتضاه كانت الدولة تقدر خراجا معينا على مساحة تجبيه كل عام دون نظر الى المحصول أو أسلوب الزراعة ، فغير المهدى ذلك كله بادخال نظام المقاسمة فى كثير من البلاد الاسلامية ، وأصبحت الدولة تقاسم المزارعين وفق نسبة معينة دون نظر لمساحة الأرض ، ذلك أن أسعار الحاصلات قبل تطبيق نظام المقاسمة كانت منخفضة ولم يكن هناك تقدير صحيح لمساحة الكور • ويؤخذ مما رواه أبو يوسف [٣] أن نسبة المقاسمة فى عهد المهدى بلغت نصف المحصول على الأرض التى تسقى سيحا ، وثلث المحصول على الأراضى التى تسقى بالدوالى لشدة ارتفاعها ، وربع المحصول على الأرض التى تسقى بالآلات كالسواقى • وفى بعض المناطق كانت الدولة تحصل على خمس المحصول تقديرا لظروف خاصة • وطبق نظام المقاسمة فى عهد المهدى على الغلات الزراعية فقط ، أما ثمار النخيل والكروم والشجر فبقيت على نظام المساحة وعدل خراجها حسب قربها من الأسواق أو بعدها ، وقد تحققت فوائد كثيرة من هذا الاصلاح فقد توحد النظام فى جميع البلاد وضمنت الدولة دخلا ثابتا ، واستفاد الزراع وتجنبوا الأزمات التى تنجم عن الانخفاض المفاجىء فى أسعار الغلة • ولا ريب أن ذلك كله أدى الى اطمئنان الناس وزيادة الانتاج وارتفاع مستوى الدخل

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٦٨ •
(٢) فتوح البلدان : ص ٢٨٢ •
(٣) الخراج : ص ٤٣ •

وحال بين الفلاحين وبين عبث العمال وتشددهم . وقد روى الجهشيارى(١) أن المهدى أمر العمال بالكف عن الحاق الأذى بالناس أثناء الجباية كما تنهى عن تحصيل المتأخرات واستجابة لهذا الاتجاه قام خالد بن يحيى البرمكى حين ولى أمور فارس فى عهد المهدى بتقسيط الخراج وأعفاهم من خراج الشجر (٢) .

ومضت هذه الثورة الاصلاحية التى حققت أمل الجماهير وتمشت مع الشعارات التى رفعها الدعاة فى عهد الرشيد الذى عمل بعد توليه الخلافة على تخفيف عبء الجباية أكثر مما خففه المهدى ، فأمر بالغاء ضريبة العشر التى كانت تجبى من أهل العراق بالاضافة الى نسبة النصف المقررة بحكم نظام المقاسمه . وبلغ من اهتمامه بأمر هذا الاصلاح أنه كلف القاضى أبا يوسف بحل مشكلات الخراج . ومن أجل ذلك ألف كتاب الخراج . وقد نصح فيه الرشيد بمزيد من الرأفة مع الفلاحين فعدلت نسبة المقاسمة التى وضعت فى عهد المهدى فأصبحت ٢/٥ على الأرض التى تروى سيحا و ٣/١٠ على الأرض التى تروى بالدوالى ، وجعل على النخل والكروم الثلث وعدل عن تقدير خراجها طبقا للمساحة ، أما غلة الصيف فقد أبقى عليها الربع لأنها كانت تسقى بالدواليب . وقال أبو يوسف « وانما أراد الرشيد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم (٣) » بل اصبح بيت المال يتكفل بنفقات الأنهار التى تروى أرض الفلاحين الذين يدفعون الخراج فى أنحاء الدولة ، على أن يشارك مزارعو السواد فى بعض هذه النفقات نظرا لخصوبة المنطقة وثرائها ، وبالغ البرامكة فى تحقيق رغبات الرشيد ، فى الاصلاح والتزيد من رعاية مصالح الزراع فألغوا المبالغ المتأخرة على المزارعين التى عرفت بالبقايا ورفع ما يلحق بالفلاحين من غبن فى الجباية . فقد خفض خراج ثغر

(١) الوزراء : ص ١٤ .
(٢) الوزراء : ص ١٥١ .
(٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ٣ .

قزوين ليتمكن أهله من مواجهة نفقات الدفاع والغزو (١) .

وقد ارتبكت هذه السياسة الاصلاحية بعض الشيء خلال الفتنة بين الأمين والمأمون ، الأمر الذى أدى الى نقص دخل الدولة بنحو مائة مليون درهم بسبب آثار الحرب بين الأخوين ، وما كاد الأمر يستقيم للمأمون حتى سار فى نفس النهج الذى استنه الرشيد . ومضى قدما فى تطبيق آراء القاضى أبى يوسف فتوسع فى تطبيق النسب التى وضعت فى عهد الرشيد ، وجعل مقاسمة أهل السواد بالخمسين بدلا من النصف(٢) وولى على جباية خراج السواد القاسم بن ابراهيم أخى أبى يوسف القاضى ، فباشر عمله بعدل وأمانة ، وأمر المأمون بتخفيض ربع خراج خراسان(٣) كما خفض خراج الرى . وكان يحاسب عمال الخراج محاسبة دقيقة . وظلت هذه المبادىء مطبقة فى عهد المعتصم رغم زيادة نفقاته بسبب اغداقه الأموال على جنوده من الترك وتأسيسه سامرا ومحاربته البيزنطيين . ولم يرو أن الواثق خرج عن هذه المبادىء السمحة التى وضعت فى عهد الرشيد .

ألم يكن ذلك كله استهداء بتعاليم الثورة ؟ ألم يكن خفض الخراج تحريرا لجمهرة الفلاحين من الموالى الذين صنعوا الثورة وأقاموا الدولة . وكما تقدموا سياسيا باشتراكهم فى القوات المسلحة وتوليهم وظائف الدولة انتعشوا اقتصاديا نتيجة هذه السياسة ، وأصبحت الحياة الزراعية تقوم على أكتاف الفلاح الحر واسقاط القيود الاقتصادية التى وضعها الأمويون ، واباحة الهجرة لمن شاء واباحة ملكية الأرض للموالى ، وبدأت الطبقات التى تحررت تستغل خبراتها فى النشاط الزراعى الى أبعد الحدود . وفى الأماكن التى كانت تفتقر الى الأيدى العاملة كسهول البصرة وجنوب العراق جلب العباسيون الزنج كما جلب الحجاج الزط وتحولت هذه المنطقة من جديد الى الخصوبة .

---

(١) ابو يوسف : الخراج ، ص ٣ .
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٥ .
(٣) الجهشيارى : الوزراء ، ص ٢٧٨ .

وفى مقابل الضرائب التى دفعها الفلاحون حرص العباسيون على انعاش الزراعة بانفاق شطر كبير من مال الدولة فى الخدمات الزراعية . ولما كان لا يجوز أن يشترى الماء أو يباع ، لم يكن هنالك مناص من أن تتولى الدولة أمور الرئ منعا للتكسب أو الاتجار . فكان من واجبات الدولة أن تسهر على صيانة السدود وسد البثوق(١) وقد خصصت لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون بالمهندسين . ونشط خلفاء العصر العباسى الأول فى حفر الترع والمصارف واقامة الجسور والقناطر ، وكانت الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية . وكانت الحكومة تشرف على ادارتها اشرافا مباشرا ، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وامتدت فى هذه الأرض شبكة من الترع والمصارف حتى أصبحت قوية الخصب تكثر بها المزارع والبساتين . واذا كان ماء الفرات لا يكفى لرى أرض السواد ، فقد عمل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الرى بشق كثير من الجداول والترع ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لرى الأراضى الواقعة على شاطئه الغربى وساحل الخليج الفارسى ، وبذلك أمكن رى جميع الأراضى الممتدة من صحراء العرب حتى جبال كردستان ، كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذى يأخذ ماءه من دجلة ، وقناة أخرى من كرخايا الذى يأخذ ماءه من الفرات ووصلهما بمدينة بغداد فى عقود محكمة من حجر الكلس والآجر ، فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ فى الشوارع والدروب والأرباض ولا ينقطع صيفا ولا شتاء . ولما تولى المهدى أنفق أموالا كثيرة فى انشاء الطرق بين بلاد العرب والعراق ، وحفر نهر الصلة قرب البصرة ، وحفر الرشيد عددا من الأنهار بالعراق ، فقد حفر نهر القاطول ونهر أبى الجبل فى العراق وأنفق فى ذلك عشرين مليونا من الدراهم (٢) ، كما عاون المعتصم أهل الشاش فى اعادة حفر أحد الأنهار الهامة .

---

(١) ابو يوسف : الخراج ، ص ٦٣ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٧٧ .

كان من الطبيعي أن تنطلق في العصر العباسي الأول نهضة زراعية بلغت الذروة في عهد الرشيد تقوم على أساس فلاح غير مستعبد توفر له الدولة الحياة الكريمة ولا تثقل كاهله بالضرائب ، بل تمده بحاجته من الماء ؛ وقد أدى ذلك الى التوسع في زراعة جميع المحاصيل دون استثناء بالصورة التي تحدث عنها آدم متز (١) وبالصورة التي عرض لها الرحالة والجغرافيون أمثال المقدسي (٢) والاصطخري(٣) وابن حوقل(٤).

وتكدس الانتاج الزراعي في أسواق العراق وايران ورخصت الأسعار بصورة أقرب الى الخيال . روى أن الرجل من عامة الناس في عصر الرشيد كان يكفيه هو وعائلته ثلاثمائة درهم في السنة . ويقول الخطيب البغدادي (٥) « سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخاري يقول : رأيت في زمن أبي جعفر كبشا بدرهم وحملا بأربعة دوانق والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم .. وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم » (٦) .

مما تقدم يتبين كيف كان اصلاح الخراج تحقيقا لشعارات الدعوة وارضاء لجماهير الناس التي أيدت الثورة وعملت على نجاحها وكيف كانت النهضة متأثرة الى أبعد الحدود بظروف الثورة العباسية وبأحداث العصر العباسي الأول ..

بل امتدت هذه التأثيرات الى ميادين الانتاج الاقتصادي كلها . امتدت الى ميدان الصناعة ، فقد أسقطت الثورة كل القيود التي وضعها

---

(١) الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٩٨ — ٣٤٤ .
(٢) صفحات ١٨٠ ، ٢٠٤ ، ٢٣٠ ، ٤٠٨ ، ، ٤٦٩ ، ٤٨٢ .
(٣) صفحات ٢٥ ، ١٨٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ ، ٢٧٤ .
(٤) صفحات ٤٧ ، ١٢٤ ، ٢٢٨ ، ٣٤٨ ، ٣٣٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
(٥) ج ١ ، ص ٧٠ .
(٦) ج ١ ، ص ٤٣ .

الأمويون الأواخر ، وأباحت الدولة العباسية الهجرة من الريف الى المدينة ، فهاجر كثيرون من الحرفيين والصناع ومعهم أساليبهم وأدواتهم ليفيدوا من الحياة الجديدة التى لاحت فى ظل الخلافة العباسية ، ووجدوا جو الحياة العمالية فى المدن الكبرى قد تغير تماما ، فقد أسقطت الحواجز بين العرب والموالى وتحرر الصناع والحرفيون ونعموا بحريتهم كاملة وارتفع مستواهم المادى والاجتماعى . يضاف الى هذا أن العصر العباسى الأول أسقط الحواجز الطبقية التى كانت تفصل بين العرب والموالى ، وأصبح المسلمون جميعهم على قدم المساواة . وكانت الحركة الاسلامية قد قطعت شوطا بعيدا فى سبيل التطور . وكما امتزجت الثقافات ودخل الدم الجديد الى ميدان الحياة الفكرية ، كذلك كان شأن الصناعة فقد نشأت من امتزاج العرب بأهل البلاد التى أخضعوها لسلطانهم ومن تتلمذ الصناع العرب على أرباب الصناعات الفنية فى تلك البلاد مسلمين وغير مسلمين ، ومن الاختلاط بين أهل تلك البلاد المختلفة ، ومن تنقل الفنانين والصناع فى ديار الاسلام ، نشأ من هذا كله فنون يمكن تمييزها عن غيرها من الفنون ولكنها متباينة فى جزئياتها تبعا للاقليم الاسلامى الذى تنسب اليه ، وتلك هى الطرز أو الأنماط أو المدارس الفنية الى قامت فى العالم الاسلامى وقتذاك ، والتى كانت تتطور بتطور العصور وتتأثر بالأحداث السياسية والاجتماعية (١) فتأثرت الحركة الفنية والصناعية بتغلب العناصر الايرانية وما صحب هذا التغلب من احياء الكثير من التقاليد الايرانية الحكومية والثقافية والاجتماعية ، وما نجم عن ذلك من ظهور أسلوب جديد سمى بالطراز العباسى ، ونشأ هذا الطراز متأثرا بأساليب الفنون التى سادت فى ايران والعراق فى العصر الساسانى ، والتى تمتد جذورها الى أصول موروثة عن الفنون الأشورية والأخيمينية والفارسية مع تأثير محدود النطاق بالعناصر الهلنستية التى انتشرت فى الشرق الأدنى . وقد بلغ الطراز العباسى أوج عظمته فى مدينة سامرا التى أسسها المعتصم .

(١) زكى محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية : مقدمة ، ص ١ .

وقلده الناس فى سائر أرجاء الدولة الاسلامية ، وانتشر هذا الأسلوب تحت الراية العباسية وامتد أثره الى بلاد الشام ومصر ، بل دخل المغرب فى ظل الأغالبة ويتضمن هذا الطراز أساليب من العمارة والنقش والزخرف والفنون الفرعية والتقاليد الصناعية (١) .

وثمة ظاهرة أخرى شهدها العصر العباسى الأول سنشرحها بالتفصيل فيما بعد . وكانت ذات عمق امتد الى جميع مظاهر الحياة فى ذلك الوقت وأعنى بها ظاهرة ارتفاع مستوى الدخل ، دخل الفلاحين والعمال ، وتوطد نفوذ البرجوازية فى الميدان الحكومى والاقتصادى والاجتماعى ونشأة طبقة رأسمالية جديدة أفادت من التحول الاقتصادى الذى شهده العصر العباسى الأول ، اقتنت الضياع الواسعة فى المجال الزراعى والثروات الضخمة فى المجال المالى والتجارة الواسعة وابتنت الدور والقصور وعاشت حياة مترفة ناعمة يصورها ادب ذلك العصر سواء أكان أدبا رسميا أو أدبا شعبيا مثال ذلك الثروات الطائلة التى حازها البرامكة وبنو سهل وبنو طاهر ، والحياة المترفة التى عاشوها ، ثم الثروات الأسطورية التى امتلكها الخلفاء والعطايا والمنح التى فاقت حد الوصف ، واستقطاب قصر الخلافة لكل أدب رفيع وذوق جميل وأسلوب اجتماعى لطيف . وتركز هذه الثروات الطائلة فى بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية . والمستوى الاقتصادى الرفيع يدفع الى الاقبال على صناعات المترفين من النسيج الرفيع والخزف الجميل والأثاث والرياش الفاخر ، وسيدات الطبقة العليا واقتنائهن أجمل المجوهرات وأدق المصنوعات ، والفن والشعر فى ذلك الوقت صناعة يلهبها الترف ويؤلقها التشجيع والاغداق والانفاق . فكانت سوق الصناعة فى بغداد فيها من الفن ما هو طريف وجديد سواء أصنع فى المدينة نفسها أو حمل اليها من مراكز

---

(١) أنظر المصدر السابق : خزف من الطراز العباسى ، شكل ١ — ٣٨ .
خشب من الطراز العباسى : ٢١٥ — ٣٢٠ .
تحف معدنية : ٤٤٢ — ٤٤٦ .

الصناعة بالأمصار • يقول الدكتور زكى محمد حسن (١) : وقد حدث في كثير من الأحيان أن كان الفن فى ديار الاسلام يتأنق ويبدع فى اختيار أشكال الآنية والتحف التى تستخدم فى الحاجيات اليومية ، فيتخذ المبخرة أو الابريق الخزفى أو غطاء الاناء على هيئــة حيوان أو طائر • ونجح مهرة الفنانين فى تخفيف الشذوذ والتنافر فى الألوان بتصــغير المساحات الملونة وتكرارها فتجاوزت الألوان المتباعدة فى هدوء وبهاء بعد أن خفف من حدتها وضعها فى أشكال هندسية صغيرة أو وحدات موزعة فى مساحات كبيرة ذات ألوان أخرى » •

وقد أسدت الدولة العباسية الى التطور الصناعى يدا طولى كانت الى جانب ما تقدم ذكره من أهم العــوامل التى ســاعدت على تطورها وازدهارها • وأية صناعة لا تقوم على مادة خام رخيصة فى متناول الصناع لا يمكن أن تقف على قدميها أو تصمد للمنافسة القوية فى الأســواق العالمية الأخرى • وقد عملت الدولة العباسية على التوسع فى استخراج الثروة المعدنية التى حفل بها العالم الاســلامى وعملت على نقلهــا الى مراكز الصناعة فى سهولة ويسر • وكان ذلك من أهم أسباب الانطلاق الصناعى الكبير الذى تحقق فى العصر العباسى الأول • وقد أشار الرحالة والجغرافيون (٢) • الى النشاط الجم الذى بذله العباسيون فى استخراج المعــادن من مواردها الأصلية •

فكان الذهب يستخرج من القسم الغربى من العالم الاسلامى من صحراء مصر الشرقية وعلى وجه التحديد فى منطقة تمتد بين أســـوان وعيذاب • وكانت مدينة العلاقى أكبر مدينة تقع بها مناجـم الذهب • وكانت تقع على مســيرة خمس عشرة مرحلة من أســوان • وقد اهتمت الدولة العباسية بهذه المنطقة اهتماما بلغ أقصاه فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، اذ أرسلت حملة لتأديب البجة الذين كانوا دائبى التهديد لهذه

---

(١) اطلس الفنـــون الزخرفية : ص٥٠ •

(٢) انظر : المقــدسى ــ ابن حوقل ــ ابن خرداذبة •

المناطق الغنية بالذهب. وقد خضع البجة للسلطة العباسية واستقام أمرهم وانتقلت قوافل التبر اما شمالا عن طريق النيل واما من عيذاب الى بلاد العرب عبر البحر الأحمر . أما مورد الذهب الآخر فكان فى غرب أفريقية عند الطرف الجنوبى للصحراء الكبرى ، وكان التبر أكبر غلات القبائل الزنجية الضاربة على أطراف الصحراء . وكانت قوافل التبر تعبر الصحراء الكبرى متجهة الى تونس والقيروان حيث ينقل الذهب الى الى مواطن التصنيع .

وكانت الفضة تستخرج بكميات وفيرة من الشرق الاسلامى ، وكانت أكبر مناجم الفضة تقع فى مدينة بنجهير بجبال هندكوش فى الوقت الذى استنفدت فيهمناجم الفضة بأصبهان ، وباداغيس ببلادفرغانة .وكان هذا المعدن النفيس يعبر الامبراطورية متجها صوب الغرب اما الى بغداد أو غيرها من مواطن التصنيع . وكان النحاس الأصفر يستخرج من أصفهان وأحيانا يجلب من بخارى ، وكانت الدولة تجبى من مناجم النحاس خراجا بلغ عشرة آلاف درهم (١) ، أما الحديد فكانت فارس أعظم الأقاليم استخراجا له وصناعة (٢) ، وكان يستخرج أيضا من كرمان وكابل وفرغانة كما كان يستخرج من قرب بيروت ، وكان خام الحديد فى بعض الأحيان يحمل من مناجم المغرب وصقلية ويجلب الى الهند فتصنع منه أغلى آلات الحديد . وكان اللؤلؤ يستخرج من الخليج الفارسى وكان يعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين . وكان التجار العرب يشترون العاج من بلاد الزنج ويصدرونه الى عمان والهند والصين (٣) . أما خشب بناء السفن فكان يجلب من مدينة البندقية ومن صعيد مصر (٤) . وكان خشب الساج الهندى يعتبر أحسن ما يستخدم فى بناء المساكن فى بغداد والشرق كله . وكانت تصنع منه الأدوات

(١) ابن رسته : ص ٥٦ .
(٢) ابن حوقل : ص ٢١٤ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨ .
(٤) المقدسى : ص ٢٨٣ .

لبيوت السادة الكبراء . وكان خشب الصنوبر يقوم مقام خشب الساج في بلاد البحر الأبيض . هذا كله الى جانب الخزف والمومر الذى كان يجلب من تبريز ، والملح والكبريت من شـمال فارس والقار والنفط من بلاد الكرج . وكان الشب يستخرج من منطقة بحيرة شاد ومنها يحمل الى مصر والمغرب (١) . وكان الملح الذى يستخرج من مناجم الصحراء تحمله آلاف الأبل . وكان ملح النوشادر يستخرج من صقلية ومن بلاد ما وراء النهـر (٢) .

اذن وضعت هذه المصادر الغزيرة بالمـادة الخام في متناول الصناعة العباسية . وثمة عوامل أخرى يمكن أن تفسر لنا الانطلاق الصناعى الذى أشرت اليه وأعنى موضوع التسويق . وكانت الصناعات العربية تنقل في سهولة ويسر من شرق الامبراطورية الى غربها ، بسبب السبل الآمنة والأمن المستتب ، وحرص الخلفاء العباسيين على القضاء على الثورات وتأكيد هيبة الخلافة وسطوتها ، فكانت الصناعات من الأندلس والمغرب ومصر والشام تحمل الى أسواق الشرق ،وكانت مصنوعات الشرق تسوق داخليا فى أسواق الشام ومصر والمغرب والأندلس. هذا وقد أدت الاتصالات الدولية التى بلغت الذروة فى عصر الرشيد الى فتح الأسواق العالية . أما الصناعات العربية فحملت الى الصـين وبلاد البلغار وشرق أوروبا وبلاد الفرنجة وايطاليـا وكانت نموذجا لدولة موفورة الرخاء موفورة الثروات حاشـدة بالكفايات والخبرات ، ويمكننا أن نعطى صورة لأهم الصناعات التى ذاع صيتها فى العصر العباسى والمراكز التى نمت وتطورت فيها . كانت صناعة النسيج من أهم الصناعات التى راجت سوقها فى العصر العباسى الأول ، وكانت مصر أعظم مراكز لصناعة النسـيج فى العـالم الاسلامى كله . وكان الكتان هو القماش الذى اختصت به مصر وكان

---

(١) الادريسى : ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) المقـدسى : ص ٢٨٣ .

يزرع بكثرة باقليم الفيوم ومنها يحمل الى مراكز الصناعة ، بل تفوقت مصر فى صناعة الأقمشة الصوفية أيضا (١) ، اذ كانت تصنع بمدينة طحا بالصعيد حيث تصنع الثياب الصوفية الرفيعة . واشتهرت بنسيج الكتان أيضا بحيرة تنيس بنواحيها وهى : مدينة تنيس ودمياط وشطا وديبق . وكانت هذه المدينة الأخيرة أكبر مدن النسيج لأنه ينسب اليها أجود أنواع الأقمشة الديبقية . وكانت مصر تصنع قماش الكتان الناصع البياض ، حتى لقد قيل ان الأقمشة المصرية كانت أدق من غشاء البيضة ، وكانت الاسكندرية تصنع من الكتان ما قوم الدرهم منه بدرهم فضة (٢) وقد نبغ أهل تنيس فى صناعة ثوب يسمى بالبدنة وكان للخليفة خاصة اذ يصنع من أوقيتين من الغزل فقط ثم ينسج باقيه بالذهب ، ويبلغ ثمنه ألف دينار (٣) .

وكانت صناعة النسيج فى الدلتا صناعة منزلية ، فكان النساء ، يغزلن الكتان والرجال ينسجونه . وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم وكان لابد أن يبيعوا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة . وكان النساج يتقاضى أجرا قدره نصف درهم كل يوم . وكان ثمن النسيج يرتفع ارتفاعا باهظا بسبب المكوس والضرائب المتنوعة (٤) .

وكانت بالشرق (٥) مراكز لصناعة الكتان خاصة بفارس ، وكانت مدينة كازرون تختص بصناعة الكتان ، فأطلق عليها المقدسى اسم دمياط الأعاجم (٦) . وكانت تصنع بفارس أنواع الأقمشة المصرية من الديبقى

---

(١) المقدسى : ص ٢٠٤ .
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٣ .
(٣) ابن دقماق : ج ٢ ، ص ٧٩ .
(٤) انظر زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية . اشكال ٥٥٧ — ٥٦٧ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، صفحات ١٨٤ ، ١٨٧ و ١٩٣ .
(٥) انظر زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ، اشكال ٥٧٠ ، ٥٧٣ ص ١٨٩ .
(٦) نفسه : ص ٤٣٣ — ٤٣٤ .

والشرب والقصب مقلدة بذلك الأسلوب المصرى . ويذكر المقـدسى ، أنه بمدينة سينير كانت تصنع ثياب تحاكى ثياب القصب وأنه ربما حمل اليها الكتان من مصر . وهذا دليل على آن صناعة الكتان كانت تنتقل من مصر الى فارس . والعباسيون بدورهم آنشأوا دورا للطراز فى أهم مدن فارس . وتفوق الايرانيون فى صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة ، وكانت المنسوجات الحريرية المشجرة تصنع فى تستر والسجاجيد فى ورقب وامتازت دمشـق بصـناعة الأقمشة الحريرية . واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور ، أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع فى شرق فارس خصوصا مرو ونيسابور وبم (شرق كرمان) ، وقد اشتهرت المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخـرة . وكانت تصنع بها الطيالسة وثمن الواحد منها ثلاثون دينارا وكانت تباع بخراسـان والعراق ومصر . أما صـناعة الابريسم فكانت متركزة على طريق الصين القديم وكانت أيضا توجد بمرو وبطبرستان .

وقد ازدهرت باقليم نيسابور صـناعة الروائح العطرية ، وكانت الروائح العطرية تتخذ من البنفسج والنيلوفر والنرجس والسـوسن والزنبق (١) ، واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج . وقد أنشأ المعتصم مصانع جديدة فى بغداد وسـامرا .

وبغداد كان بها عدد كبير من دور الصناعة وقد قيل انه كان بهـا أربعمائة رحى مائية ، وأربعة آلاف معمل لصـناعة الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصناعة الخزف (٢) . واشتهرت بغداد بالصياغة ونبغ فيهـا الفرس وبلغت صناعتهم شأوا بعيدا فى الدقة والجمال ، حتى انهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون

---

(١) المقـدسى : ص ٤٤٣ .
(٢) انظر زكى محمـد حسن : أطلس الفنـون اشـكال ١ : ٣١ ، صفحات ١ — ٦ .

للملوك أقداحا تبهر الأبصار ، وكانوا يتخذون على الجامات صورا على هيئة طيور تطير ومن فوقها العقبان تنقض •

واشتهرت مصر أيضا بصناعة المعادن لا سيما صياغة الذهب والفضة ، وضرب المصريون بسهم وافر فى صناعة الأدوية والعقاقير وكذلك صناعة المراكب النيلية والسفن المقاتلة وصناعة الزجاج (١) •

وشهد العصر العباسى أيضا انقلابا عظيما فى صناعة الورق وكان الناس يعتمدون على البردى المجلوب من مصر ، ولكن كواغد سمرقند طغت على قراطيس مصر ، واضمحلت صناعة القراطيس المصرية فى أواخر القرن الثالث الهجرى • ولم يشر اليعقوبى الا الى مدينتين فقط فى مصر السفلى ، وفعلا نجد أن الورق البردى المؤرخ ينتهى عام ٣٢٣ انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها بعام ٣٠٠ هـ • وكان أجود الورق فى ذلك العصر هو الكاغد الذى نقلت صناعته من الصين • وقد استطاع المسلمون أن ينقوه مما كان يستعمل فى صناعته من ورق التوت والغاب الهندى ، وبدأت صناعته أولا فى بلاد ما وراء النهر (٢) ، كما أنشأ المعتصم مصانع الورق فى عدة مدن وجلب لها الأساتذة والصناع من مصر •

وقد تركت ظروف العصر العباسى الأول ، ونجاح خلفائه فى توطيد النظام الداخلى ، وحرص هؤلاء الخلفاء على كبح الثورات واستتباب الأمن والتصدى للمشكلات الدولية ، أثرا عميقا فى ناحية من أهم نواحى الحياة الاقتصادية وأقصد بها التجارة الداخلية والخارجية • وقد أشرنا الى وقوف العباسيين فى وجه التقدم الصينى المتحالف مع الأتراك الشرقيين فى آسيا الوسطى ، وشددوا فى قبضتهم على الطريق الدولى للتجارة المارة ببحر قزوين وشرق أوروبا أو المتجه الى خراسان والعراق

(١) انظر : زكى محمد حسن : أطلس الفنون : ٧٣ — ٧٣٧ ، صفحات ٢٤٩ — ٢٥٠ •

(٢) الاصطخرى : ص ٢٩٩ •

والبحر الأبيض المتوسط ، ورأينا كيف تركت الصين سياسة العدوان ولجأت الى التعاون والتفاهم ، واستؤنفت العلاقات التجارية عن طريق البر والبحر على أساس سيادة العباسيين التى تأكدت فى أرضهم وداخل حدودهم ، ورأينا كيف تصدى العباسيون للمشكلة البيزنطية وكيف توطدت أواصر الود والتفاهم بين العباسيين والفرنجة فى عصر شرلمان • لذلك أعتقد أن التجارة الدولية نشطت كأقوى ما تكون فى عهد الرشيد، وتألقت فى عصر المعتصم والواثق • وتطلع العباسيون الى البحر الأحمر وشرق افريقية وأخضعوا البجة لسلطانهم وبدأ التجار المسلمون يستقر بعضهم على ساحل شرق افريقية أو يتجرون فى العاج والعبيد • اذن أسفرت السياسة العباسية سواء فى الصعيد الداخلى أو الدولى عن تطور هام فى التجارة الداخلية والدولية • فيما يتعلق بالتجارة الداخلية يكفى ما قامت به الدولة العباسية من تأكيد سلطانها ونفوذها فى كل مكان ، وارتبطت الولايات الاسلامية بالحاضرة بغداد بأوثق الروابط وأقواها ، ورابط الجند العباسيون فى الأمصار يحافظون على النفوذ والسلطان ، وانتشرت القواعد البحرية فى البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، ورابط الجند العباسيون فى الثغور ونشطت التجارة الداخلية نشاطا عظيما ، يشهد بذلك الرخاء الذى غلب على حياة المسلمين• وقد أشرنا الى تبادل الحاصلات والخامات والمنتجات .• واعتمدت هذه التجارة على دولة مرهوبة الجانب عظيمة الجاه تملك الثروات الطائله والقوات القادرة ، يضاف الى هذا ما قامت به الدولة من توحيد النظم المالية واصدار العملة الموثوق بعيارها والتى نالت التقدير فى جميع الأسواق الداخلية والخارجية • ويكفى أن نقرأ ما أشار اليه الرحالة والجغرافيون من العلاقات التجارية الوطيدة بين مشرق العالم الاسلامى ومغربه ، وكيف كانت بغداد سوق الامبراطورية الكبير تلتقى فيه جميع التجارات والمنتجات ، ويمسك بزمام المال والاقتصاد ، ويتحكم صيارفة الحاضرة فى ملايين الدنانير والدراهم • لكن الموضوع الذى

يستحق الدراسة هو نمو التجارة الدولية فى ظل السلم الذى فرضه العباسيون على القوى المعاصرة ، السلم الذى لاينبع من ضعف انما ينبع من قوة وتفوق وقدرة .

وقد نشطت الطرق التجارية نشاطا عظيما وارتادها التجار المسلمون فسلكوا طرقا برية واضحة المعالم . منها الطريق الى الشرق من بغداد الى همدان والرى ونيسابور وطوس وهراة والذى ينتهى الى بخارى وسمرقند وبلاد الصين (١) . ثم الطريق الشمالى من بغداد الى الموصل وسنجاو ونصيبين والرقة وطبرية والرملة ثم القاهرة والاسكندرية (٢) . وكذلك الطريق البرى من غرب أوروبا الى الأندلس ثم عبر المضيق الى طنجة مخترقا المغرب ومنتهيا الى مصر فبلاد الشام والعراق (٣) . وهناك طريق برى آخر لعب دورا هاما فى التجارة الدولية وأقصد الطريق الممتد من بلاد الروس الى شمال بحر قزوين الى جرجان وبخارى وسمرقند ثم منحدرا الى بغداد (٤) .

ثم سلكت هذه التجارة الدولية الواسعة النطاق الطرق البحرية أيضا وخصوصا الطريق البحرى من غرب أوروبا الى المشرق مارا بمصر .وكان يستغله التجار اليهود (٥) . ويتحدث ابن خردازبة أحد جغرافيى القرن التاسع الميلادى عن هذا الطريق البحرى الهام ، فيذكر أن هؤلاء التجار اليهود غالبيتهم من جنوب فرنسا ، وأنهم كانوا يتقنون اللغة العربية ويقومون بدور الوسطاء لنقل التجارة الى اسوان أو أوروبا ، وأنهم كانوا يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا، يجلبون من الغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج والجلود

(١) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ : ١٧٨. قدامة بن جعفر ، ص ١٩٧ .
(٢) متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .
(٣) ابن خرداذبة : ص ١٥٤ — ١٥٥ .
(٤) ابن خرداذبة : ص ١٥٤ .
(٥) ابن خرداذبة : ص ١٥٤ .

والخزف والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون الى الفرما يحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى جدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى ، حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا الى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك .

ويبدو أن هذه المغامرات التجارية لم تقف عند حد فقد عثر فى اسكندناوة وفى السويد خاصة على الكثير من النقود الاسلامية تحمل نقوشا يرجع تاريخها الى الفترة بين أواخر القرن السابع وأول الحادى عشر . وهذا يدل على أن ميدان المعاملات التجارية وصل الى هذه الآفاق البعيدة ، كما وجدت نقوش مشابهة على طول مجرى نهر الفولجا . وهذا يؤيد ما تشير اليه المصادر الأدبية من امتداد نشاط المسلمين التجارى الى بلاد البلقان عبر بحر الخزر والبحر الأسود . وقد سبق أن أشرنا الى الاهتمام العباسى بالطريق البحرى المار ببلاد الهند المنتهى الى الصين والى ازدياد أهميته فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى .

وفى العصر العباسى الأول نشطت العلاقات بين العالم الاسلامى وشرق أفريقيا وزاد اهتمام الدولة بالبحر الأحمر وموانيه . وكانت السفن تسير بحذاء الساحل الأفريقى الى بر الزنج طلبا للذهب والرقيق والعاج والعنبر ووصلت هذه الرحلات الى سفاله (١) . وقد احتكر العمانيون التجارة مع بلاد الزنج وشرق أفريقيا . ذكر المسعودى أن القوم الذين يركبون بحر الزنج هم عرب من الأزد من أهل عمان (٢) . وكان الرحالة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب : ج ١ ، ص ٦٥ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

المسعودى نفســه يركب البحر الى شرق أفريقيا من عمان وقد وصف الرحالة وأشار الى الأهوال التى صادفها والمشاق التى تعرض لها أذ قال « ... وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال طول السمكة نحــو من أربعمائة ذراع بالذراع العمرية وهى ذراع ذلك البحر والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع . وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالمـاء فيذهب المـاء فى الجو أكثر من ممر السهم . والمراكب تفزع منه بالليل والنهار وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك »

وقد أدت هذه التجارة الدولية العظيمة الى نشأة موانى اسلامية ذاع صيتها واكتسبت شهرة عالمية وازدحمت بالسفن الغـادية والرائحة وتكدست فيها السلع . وأقام بها الغرباء ونشأت بها المنظمات المصرفية والجمركية . وكانت الاسكندرية أهم موانى البحر الأبيض المتوسط ، تنقل اليهـا التجارة الآتية من أوربا الى البحر الأحمـر وكذلك التجارة الآتية من الشرق الى أوربا . أما فى البحر الأحمر فقد ازدادت أهميـة القلزم التى تنتهى اليها تجارة الشرق الأقصى التى تريد عبور برزخ السويس الى البحر الأبيض المتوسط (١) .

ثم عيذاب على الساحل الغربى لهذا البحر ، وأصـبحت من أهم المراكز التجارية فى ذلك الوقت ، فكانت ترد اليها السـفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن . وكانت البضائع تنقل من عيذاب على الابل الى أسوان ، ومنها تنقل الى القاهرة بالنيل (٢) وكانت مقصد الحجاج المصريين الذين يعبرون البحر الى جـدة .

وفى أقصى الجنوب عند مدخل البحر الأحمر وضحت أهمية عدن

(١) ابن خرداذبة المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

كنقطة ارتكاز بين الهند والصين ومصر . وكانت ترد اليها السفن المحملة بالسلع الأسيوية والأوربية مما أدى الى انتعاش التجارة وتدفق الأموال عليها . يذكر المقدسى (١) « أن من النـاس من دخلها بألف درهم فرجع بألف دينار ومنهم من دخلهـا بمائة فرجع بخمسمائة » . وفى الخليج الفارسى ظهـرت أهمية سيراف التى أصبحت أعظم الثغـور المتـاجرة مع الشرق الأقصى (٢) وارتفع مستوى الدخل فيها بسبب تدفق الأموال . يذكر الاصطخرى أن أهل سيراف كانوا يبنون بيوتهم من طبقات عديدة ويستغلون فى ذلك خشب الساج الغالى الثمن الذى كانوا يجلبونه من ساحل مالابار وبلاد الزنج وبالغوا فى الانفاق على دورهم حتى أن أحدهم بنى بيتـا كلفه ثلاثين ألف دينار ، وكان التجار يفضلونها على البصرة (٣) . ثم ميناء البصرة . وان كانت السفن لاتستطيع بلوغها فترسو فى الأبلة .

وكان من آثار هذه التجارة العالمية أن نشـأ أسـلوب جديد فى المعاملات المـالية ليواجه هـذه الحركة الكبيرة والأموال المتدفقـة بين الشرق والغرب . ويجد وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن اللصوص (٤) فنشأ النظام المصرفى ولجـأ كثير من النـاس لأصحاب المصـارف لحفظ أموالهم وتيسـير معاملاتهم التجارية بسبب ذلك النشـاط التجارى العظيم الذى أسـفر عن ظهور طبقة من التجار الأثرياء الذين امتد نشاطهم الى جميع الأمصار الاسلامية ، بل وصل الى بعض الدول المعـاصرة . كما لجأت طائفة من كبار الموظفين من الوزراء والكتاب الى التماس مكان أمين يحفظون فيه ودائعهم . هذه المصارف كان يديرها رجال ذوو خبرة ودراية يسمون الجهابذة وكانوا اما من كبار التجار أو من الصيارفة (٥) . ويبدو أن نظام الصيرفة هذا قد ظهر

---

(١) احسن التقاسيم : ص ٤٢٦ .
(٢) متز : ج ٢ ، ص ٤٣٢ .
(٣) المقـدسى : ص ٤٢٦ .
(٤) متز : ج ٢ ، ص ٣٧٣ .
(٥) ذكر ناصر خسرو : انه كان بسوق الصرافين بمدينـة اصـفهان مائتا صراف وكانوا جميعا يجلسون فى سوق يسمى سوق الصرافين . انظر : متز : ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

فى عهد المنصور فقد أودع أبو الحسن على محمد بن الفرات بمصرف هارون بن عمر ١٦٠ ألف دينار . وكانت الكوفة من أعظم المدن شهرة بالصيرفة وأمورها . وفى بداية العصر العباسى كان معظم الصيارفة من أهل الذمة . وقد اتخذوا مكانا خاصا بالكرخ وسامرا وكان يطلق على هذا المكان سوق الجوهريين والصيارفة .

ولعبت السفاتج والصكوك دورا كبيرا فى المعـاملات المـالية (١) والسفتجة خطاب تذكر فيه قيمة معينة من المـال قابل لأن يصرف فى أى مكان من عملاء وجهابذة الشخص الذى حرر السفتجة . وكانت النقود المذكورة فى السفتجة تدفع فى أى بلد وكان من السهل أن يحملها التاجر عبر الطرق الطـويلة وهـو آمن مطمئن ، بل كانت أموال الجباية من الولايات ترسـل الى العراق بهذه الوسـيلة . ومما يدل على توطـد العلاقات التجارية بين العالم الاسـلامى وبين أوروبا أن سـفاتج التجار المسلمين كانت تصرف فى البلاد غير الاسـلامية ، الأمر الذى يدل على النظام المـالى المستتب والثقـة الموفورة بالاقتصاد الاسلامى ، ولهـذا صارت للسفاتج قيمة المـال واستخدمها الأفراد فى مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصـة .

أما الصك فهو عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى له أجل معين (٢) . وقد استخدم فى المعاملات المـالية بين الأفراد فى كافة أنحاء العالم الاسلامى (٣) . وكان الجهابذة يصرفون قيمة هذه الصكوك لأصحاب الأموال التى أودعوها عندهم لقاء رسـم معلوم ، أشار ابن الأثير فى حوادث سنة ١٧٠ هـ أن الهادى أمر لندمائه

---

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٣) يذكر ابن حـوقل انه راى بأودغشت صكا باثنين واربعين الف دينـار بدين على محمد بن ابى سعدون من اهل سجلماسة لرجل من اهلها وقـد شـهد عليه العدول . ابن حوقل ، ص ٤٢ و ٧٠ .

بثلاثين ألف درهم وكتب صكا ليصرف من بيت المـــال (١) . هذا وكانت التجارة تجـرى وفق تنظيمـات مالية معينة . ومن أهم الأنظمـة التى استخدمت فى ذلك الوقت نظام السمسرة أو الدلالة وكانوا يحصـلون من عملهم هذا على أجور محترمة . وكانت عقود الشراء تتضمن شروطا معينة كتحديد السعر وتحديد موعد الدفع اذا كان البيع نقدا أو موعد الأقساط اذا كان الدفع مؤجلا . كذلك تحـديد نوع البضاعة وصفتها وتحديد الكمية المتعاقد عليها . واذا تمت شروط الصـفقة كان لا يجوز أن تلغى ، اللهم الا اذا تبين المشترى وجود عطب فى السلعة أو أنها غير مطابقة للمواصفات التى تضمنها العقد . واستخدمت العقود والسفاتج والصكوك فى شراء السلع ، وكان من الجائز أن ينيب كل من البـائع والمشـترى عنه وكيلا عنـد كتابة العقد اذا تعذر على أطراف التعـاقد الحضور . وقد أدى ذلك كله الى نشاط ملحوظ بين الجهابذة وأصحاب المصـارف .

هذه التجارة الغنية كان من الطبيعى أن تزيد من دخل الدولة نتيجة للمكوس التى تفرض على السلع المتبادلة بين الأسـواق العالمية . فكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون العشر (٢) . وكانت التعريفة الجمركية تختلف من بلد الى آخر ، ففى جدة مثلا كان يؤخذ عن كل حمل من الحنطة نصف دينار ، وعلى سفط الثياب ثلاثين دينارا ، وعلى سفط الديبقى ديناران ، وعلى حمل الصوف ديناران . وفى القلزم كان يؤخذ عن كل حمل درهم . وفى الاسكندرية كانت تفرض المكوس على السفن القادمة من المغرب . ومن الفرما تحصل المكوس من السفن القادمة من الشـــام (٣) .

وكانت الرسوم الجمركية فى عدن ربما أكثر ارتفاعا اذ كانت الدولة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج٦ ، ص ٣٥ .
(٢) اليعقوبى : ج ٢ ، ص ٣٠٨ .
(٣) المقـدسى : ص ٢٦٣ .

تجبى ثلث أموال التجار بسبب الأرباح الطائلة التى كانوا يحصلون عليها. وفى العـراق أقيمت المراصد فى البر والبحر والنهر . وفى البصرة كان يجرى تفتيش دقيق حتى لقد كان يؤخـذ على السلعة البسيطة أربعـة دراهم (١) ، وفى حى اليهودية وهو القسم التجارى من اصـفهان كان يؤخذ على كل حمل يدخلها ثلاثون درهما . وفى ما وراء النهر كان يفرض على الحمل سـتة دراهم اذا دخل أو خرج ، وعلى الرقيق اثنا عشر . وكانت الدولة تفرض رسـوما على الصادرات . فقد اقترح أبو يوسف على الرشيد أن يرفع الظلم عن المـارين بالمصالح ، وأن يحول دون جور العمال فى تحصيل ما لا يجوز تحصيله . ولعل ملاحظات أبى يوسف كانت نتيجة للتوسع العظيم فى التجارة الدوليه ، وهو توسع لم يقابل على ما يبدو باصلاح دقيق للجهاز الجمركى، لهذا اقترح على الرشـيد أن يولى المكوس قوما من أهل الصلاح والدين ، وأن يأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى فلا يأخذون من الناس أكثر مما ينبغى ، كما أشـار على الرشيد أن يتفقد أعمالهم وأن يعزل الفاسد منهم (٢) .

كان من أثر تلك النهضة الاقتصادية الشاملة أن نمت موارد الخلافة وزاد ايراد بيت المـال . وقد أورد الجهشيارى فى كتابه تاريخ الوزراء وثائق تاريخية عظيمة الأهمية. تشير الى جانب من جوانب موارد الدولة وأعنى به الخراج . وهـذا طبعا بصرف النظر عن المـوارد الأخرى . واذا أضفنا الى هذه القوائم المنقولة عن ديوان الخراج ما ورد فى الطبرى من اشارات الى أموال الخلفاء وثرواتهم لتبينا كيف كانت الدولة عنـد قيامها فقيرة فى مواردها ، فقـد روى الطبرى (٣) . أن أبا العبـاس السفاح خلف تركة لا تعدو أن تكون تسع جباب وأربعة أقمصة وخمسة سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز . على أن الفضل فى تنمية موارد الخلافة يرجع الى أبى جعفر المنصـور ، فقد ترك ثروة قومهـا

(١) المقـدسى : ص ١٣٣ — ١٣٤ .
(٢) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٣٢ .
(٣) ج ٩ ، ص ١٥٤ .

المسعودى (١) بنحو ٦٠٠ مليون درهم و ١٤ مليون دينار . ويبدو أن الثروة الخلافية وصلت الى أقصى ما أمكن أن تصل اليه فى عهد الرشيد، فقد ذكر بعض المؤرخين أن الجباية بلغت على عهد الرشيد فى كل سنة نحوا من ٥٠٠ مليون درهم من الفضة وعشرة ملايين دينار من الذهب ، وأسرف بعض المؤرخين فى المبالغة تصويرا منه لهذه الثروة الطائلة التى تجمعت للدولة فى عهد الرشيد ، فذكر أنه لكثرة الجباية كان الخراج يقدر بالوزن لا بالعد وأن وزنه بلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب . والحقيقة تتبينها من الاحصاءات التى استقاها الجهشيارى وهى احصاءات لا شك أنها معاصرة وقيمة ومفيدة ، وخصوصا القائمة التى وجدها فى كتاب وضعه أبوالفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب فى أخبار خلفاء بنى العباس ، وهى بخط أبى الفضل نفسه وهى تشير الى مقدار الجباية زمن الرشيد وهى على هذا النحو . من العين ٥٠ مليون دينار قيمة الدينار ٢٢ درهما فكأن الجملة بلغت على حد تقدير المؤلف ١٢٥٫٥٣٢٫٠٠٠ درهما ، أما الورق فقد بلغ ٤٠٤٫٨٠٧٫٠٠٠ فتكون جملة العين والورق ٥٣٠٫٣٢٠٫٠٠٠ درهما وهى جملة موارد الرشيد من الخراج . فقد ناقش الدكتور الريس (٢) هذه القائمة وصور بعض ما ورد فيها من أخطاء فقد رأى أن حاصل ضرب ٥٠ مليون دينار فى ٢٢ درهما يساوى ١١٠٠ مليون . كما أن مجموع العين والورق يخالف المجموع الذى انتهى اليه الجهشيارى ، فاذا جمع مقدار العين وهو ١٢٥٫٥٣٢٫٠٠٠ الى الورق وهو ٤٠٤٫٧٠٨٫٠٠٠ لكان الحاصل ٥٣٠٫٢٤٠٫٠٠٠ والحقيقة التى نستخلصها من وثائق الجهشيارى بصرف النظر عن بعض الأخطاء فى تفاصيلها أن ثروة الخلافة بلغت الذروة فى عهد الرشيد ، العهد الذى حلت فيه المشاكل وخفت صوت الثورات ، ومنح الولاة سلطات واسعة . وكبح جماح الخطر البيزنطى، وتم التفاهم مع الفرنجة وتجمعت كل مقومات الاستقرار . وبرغم الفتنة بين الأمين

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .

(٢) الخراج : ص ٥١٠ — ٥٢٠ .

والمأمون وما تحملته الخزانة من خسائر جسيمة ، ورغم محاولات المأمون التخفف من الأعباء التى فرضها نظام المقاسمة الذى وضعه المهدى والتكاليف الكبيرة التى تحملتها الدولة فى عهده ، وما أشار اليه الطبرى (١) من شكوى المأمون من قلة المال ، الا أن قوائم الخراج من عهد المأمون تشير الى أن الصورة التى رأيناها فى عصر الرشيد لم تتغير كثيرا . وقد نقل الدكتور حسن ابراهيم (٢) قائمة للجباية من عهد المأمون نقلا عن ابن خلدون ، يتبين منها أن دخل الدولة من الخراج بلغ ٣٩٠٫٨٥٥٫٠٠٠ درهم . ويبدو أن النفقات تزايدت قليلا فى عهد المعتصم فبلغت حصيلة الخراج ٣٨٨٫٢٩١٫٣٥٠ (٣) واستمر هذا التناقص حتى بلغ الخراج فى عهد الواثق ٢٩٩٫٢٦٥٫٣٤٠ درهما . ولم يكن هذا الدخل بالقليل على أيه حال ، وظلت الدولة غنية بمواردها محتفظة الى حد كبير بثروتها .

وكانت الخلافة فوق هذا كله تملك موارد أخرى هامة ، ملكت مساحات من الأرض الزراعية سميت الضياع السلطانية ، وهى الضياع التى غنمها العباسيون بعد أن تم لهم القضاء على الدولة الأموية وهى المعروفة بضياع آل مروان . وقد أشار البلاذرى الى أنه عند وفاة مسلمة بن عبد الملك آلت بالس وضواحيها لورثته وظلت ملكا لهم حتى قيام الدولة العباسية ، واستولى عبد الله بن على على أموال الأمويين كلها ومنها هذه الضياع . وقد أعطاها السفاح اقطاعا لسليمان بن على ثم آلت الى ابنه محمد(٤) . أما رصافة هشام فقد آلت الى أم جعفر زبيدة فبنت بها القطيعة المنسوبة اليها ، كما تم الاستيلاء على بحيرة الطريح ، وكانت ملكا لمروان بن محمد . هذا بالاضافة الى ما كان من ضياع مسلمة ابن عبد الملك التى استولى عليها العباسيون ، واستولت الدولة كذلك

(١) ج ١٠ ، ص ٢٩٦ .
(٢) النظم الاسلامية ، ص ٢٩ .
(٣) الدكتور حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٢٩٣
(٤) البلاذرى : فتوح ١٥٧ — ١٥٨ .

على اقطاعات كانت ملكا لأبناء هشـــام بن عبد الملك . وهكذا استولى الخلفاء العباسيون على أرض واسعة فى العراق وبلاد الفرس . وقـد عهد أبو العباس السفاح بعد توليه الخلافة الى عمار بن حمزة بن ميمون بالاشراف على هذه الضـياع وحصرها (١) وازدادت أراضى الخلافة عن طريق الشراء أو المصادرة أو الغنائم ، كما استولت على أرض واسعة من طريق نظام الالجاء ، فقد كان بعض ملاك الأرض يسلمون أراضيهم الى الخلفاء لحمايتهم من عسـف العمال . وأنشئت عدة دواوين لادارة هذه الضياع . وكانت كل ضيعة أو مجموعة من الضياع يعهد بها الى عمال يديرونها ، وكانت فى بعض الأحيان يتقبلها شخص معين نظير مقدار من المـال يدفع لبيت المـال سنويا (٢) .

وقـد بدأت الخلافة منذ عهد المنصور تصادر أموال كبار رجال الدولة كنوع من العقوبة ، وكانت مصادرة أموال البرامكة من أشـهر المصادرات فى عهد الرشيد ، وقد بلغت قيمتها ٣٠،٦٧٦،٠٠٠ درهم ، كما صادر الرشيد أموال على بن عيسى بن ماهان بعد عزله عن خراسان وحصل من ذلك على ٨٠ مليونا من الدراهم (٣).

ولمـا قامت الحرب بين الأمين والمـأمون صادر الأمين ممتلكات أخيه واتبع المـأمون سياسة المصادرة بعد أن ولى الخلافة . كما صادر المعتصم أملاك وزيره أبى العباس الفضـل بن مروان وحصل على مبلغ كبير من المـال ، وتوسع الواثق فى سياسة المصادرة فصادر سنة ٢٢٩هـ أموال عدد كبير من كتابه وعماله .

هكذا أصبح خلفاء العصر العباسى الأول أغنى الملوك الذين عرفهم عالم العصور الوسطى .

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ٨٩ — ٩٠ .
(٢) كان الوزير يتولى الاشراف على جميع هـذه الضياع نظير ١٧٠ الف دينـار . أنظر الجهشيارى ، ص ٢٨٢ و ٣٥١ .
(٣) طبرى : ج ١٠ ، ص ١٠٠ .

هذه الموارد العظيمة وهذه الثروة الخيالية كانت من أمضى أسلحة الخلفاء فى تحقيق مشروعاتهم فى السياسة الداخلية والخارجية ، وانجاز مشروعاتهم المدنية كتأسيس بغداد وسامرا ، ومشروعاتهم العسكرية ، وكانت هذه الثروة فى الحقيقة كثيرة ، للقدرات العقلية التى رأيناها متمثلة فى المنصور وخلفائه . وقد استغلت هذه الأموال أيضا فى كسب الأنصار وتأليف القلوب وتجنيد الجند ، لم يبخلوا بأية نفقة مهما عظمت فى سبيل اعداد الجيش وتدريبه ليكون سندهم فى قمع الثورات فى الداخل ومجابهة الأخطار فى الخارج . ونلمح فى أخبار العصر العباسى الأول ما يؤيد هذا القول ، فقد أنفق المنصور فى اعادة بناء حصن ملطية سنة ١٣٩ هـ مبالغ طائلة ، كما أن مشروعاته فى تأكيد السلطان المركزى للخلافة فى بلاد المغرب كلفته نحوا من ٦٣ مليون درهم . واستمر الخلفاء يوالون الحصون والثغور بالتعمير ، فأعاد المهدى بناء قلعة الحدث بالجزيرة ، كما أنفق الرشيد الكثير فى بناء وترميم حصن زبطرة وفى اعداد الحملات التى سيرها لقتال البيزنطيين . وقد زادت نفقات الحرب فى عهد المعتصم زيادة كبيرة حتى قيل ان نفقات محاربته بابك الخرمى بلغت مليون دينار فضلا عن النفقات الطائلة التى أنفقها فى محاربة البيزنطيين .

وقد سبق أن أشرنا الى انفاق الأموال الكثيرة فى حفر الأنهار وانجاز مشروعات كبرى للرى أسهمت فى زيادة الانتاج الزراعى .

وأعطيات الخلفاء ومنحهم تستحق من الدارس لنفقات الدولة مزيدا من التأمل ، فقد بلغت من الكثرة حدا يعطى من يحكم بظواهر الأمور الحق فى أن يرمى هؤلاء الخلفاء بالاسراف الذى قد بلغ حد الهوس . ولكن الحقيقة أن ذلك كله لم يكن هوسا أو تبذيرا ، انما كان انفاق مال لتحقيق أهداف وسياسة ، يؤيد هذا القول وجهة نظر المهدى فى انفاق الأموال الطائلة التى جمعها أبوه حتى فرغت بيوت المال ، ... أبو حارثة الهندى خازن بيت المال فرمى المفاتيح بين يديه وقال :

ما معنى مفاتيح نبيوت فرغ ما بها(١) . وروى الجهشيارى(٢) أن المهدى أراد أمرا فقال له يعقوب بن داود : هذا يا أمير المؤمنين السرف ، فقال المهدى : « ويلك .. وهل يحسن السرف الا بأهل الشرف.ويلك يايعقوب لولا الاسراف لم يعرف القل من الكثر » كان لابد من أن يتألف الناس. وقد وضحت هذه السياسة منذ قيام الدولة ، فقد منح الخليفة أبو العباس أحد كبار العلويين ويدعى عبد الله بن الحسن مليونا من الدراهم ، وبلغت عطايا سليمان بن على خمسة ملايين درهم ، كذلك منح المنصور معن بن زائدة الشيبانى عشرة آلاف درهم لجهوده فى قمع الراوندية . وكان المنصور كثيرا ما يمنح القواد الذين يحضرون مجلسه. ويقال انه أطلق لهم فى يوم واحد مليون درهم . وأنفق المهدى الكثير ، فحين حج سنة ١٦٠ هـ أنفق على أهل مكة ثلاثين مليون درهم . وقد جلس المهدى للعطاء مرة فى خاصة أهل بيته وقواده وكان حين تقرأ عليه الأسماء يأمر بالزيادة العشرة آلاف والعشرين ألف (٣) . أما الهادى فقد أمر لعيسى بن سميرة بثلاثين ألف دينار (٤) . وكذلك توسع الرشيد فى اغداق العطايا والمنح ، وكان اذا عفا عن شخص أطلق له الأموال ، فلما أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوى منحه مائة ألف دينار وزاد صلات الشعراء فبلغ ما حصل عليه أحدهم أربعين ألف دينار . وكان الرشيد فى الحقيقة كثير الانفاق حتى لقد قيل عنه أنه كان يقتفى أثر المنصور ويطلب العمل بآثاره الا فى بذل الأموال (٥) . ولما توطدت سلطة المأمون كثرت أعطياته لرجاله ، ففى سنة ٢١٣ هـ ولى أخاه المعتصم الشام وابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم ، وأطلق لهما ولعبد الله بن طاهر مليونا ونصف مليون من الدنانير ، كما توسع فى اعفاء ندمائه . ففى سنة ٢١٨ هـ منح محمد بن عباد بن المهلب ثلاثة ملايين من

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٢) الوزراء والكتاب ، ص ١٥٩ .
(٣) الطبرى : ج ٩ ، ص ٣٣٧ .
(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٤٢ — ٤٣ .
(٥) العقد الفريد : ج ٣ ، ص ٢٦١ .

الدراهم ، كما أعطى جنده وحاشيته فى دمشق عشرين مليون درهم ، وأعطى الحسن بن سهل عشرة ملايين من الدراهم . وحينما هزم الأفشين بابك الخرمى منحه المعتصم عشرين مليونا من الدراهم ، كما أعطى الواثق سنة ٢٣١ هـ وصيفا الخادم ٧٥ ألف درهم بعد أن قضى على ثورة الأكراد بالجزيرة .

ولا يمكن أن يختم القول فى الحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول دون الاشارة الى حقيقة هامة ، وهى أن الثورة العباسية التى فتحت الطريق أمام جماهير الموالى الذين أيدوا الثورة وعملوا على نجاحها فى العمل السياسى ، فوصلوا الى أرفع المناصب وتولوا القيادات السياسية والعسكرية ، فتحت أمامهم نفس السبيل فى المجال الاقتصادى ، وقد رأيناها تسقط القيود التى وضعها الأمويون الأواخر ، وتخفف عن الفلاح عبء الخراج وترفع من مستواه وتعطى العمال فى المدن الكبرى حرياتهم المدنية وتزيح من سبيلهم كل العقبات ، ولكن طبقات أخرى غير طبقات العمال والفلاحين استغلت هذا الميدان المفتوح دون قيد ، فانطلقت فيه الى الغاية ، وأفادت من النهضة الاقتصادية العظيمة وظهرت اقطاعية عظيمة بعيدة السلطان تملك المساحات الواسعة من الأرض فى العراق أو الأمصار وتستغل هذه الأرض لصالحها وتستدر منها أعظم الثروات . وكذلك نشأت طبقة رأسمالية أخرى فى الناحية المالية استغلت رؤوس أموال كبيرة اما فى المشاريع الصناعية أو التجارية .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ليعمروها ويسكنوها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة ، وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها . والبرامكة فى عصر الرشيد احتازوا الأموال دونه واستولوا على القرى ،

والضياع من النواحى والأمصار فى سائر الممالك • ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل كان للنساء والمحظيات اقطاعات يهبها لهم الخلفاء . واقتصر المقطعون على تدبير أملاكهم عن طريق غلمانهم ووكلائهم•وكان من أبرز عيوب هذا النظام أن المقطع يعمل على الاثراء ويجمع الأموال الكثيرة ، وليس أدل على ذلك مما وصل اليه البرامكة فقد عمروا مرافق الدولة وخططها بالرؤساء من أولادهم وصنائعهم وتسربت الى خزائنهم أموال الجباية • وتحدث الماوردى (١) عن هذه الاقطاعات وقسمها الى: اقطاع التمليك ويعنى أن صاحب الأرض يملكها مقابل دفع العشر من انتاجها سنويا • وكان الخلفاء العباسيون يقطعون أنصارهم أحيانا من الأرض العامرة • ثم اقطاع الاستغلال ومعناه أن الأرض يمنحها الخليفة لمدة معينة دون أن يملكها صاحبها أو يورثها وينتهى حق الاستغلال بموته• وكانت معظم الاقطاعات فى العصر العباسى الأول تعطى لأصحابها وفق نظام الاستغلال هذا •

واختلفت الاقطاعات حسب الأفراد الذين منحت لهم • فقد منحوا الاقطاعات للرجال المقربين اليهم مكافأة على أعمال قاموا بها أو رغبة فى تكريمهم ، فأعطيت الشعراء والأمراء وعلية القوم كاقطاع تمليك ، وقد أقطع المنصور ابنه صالحا اقطاعا من هذا النوع قرب الأهواز كما أقطع المهدى أفراد حرسه الخاص اقطاعات زيادة على رواتبهم مكافأة لهم • كذلك أقطع الرشيد عبد الله بن المهدى بعض الأراضى بمنطقة الأهواز •

وكان صاحب الاقطاع يعين الفلاحين العاملين فى زراعة أرضه ويمدهم بالبذور وينفق على حفر القنوات وصيانة الأرض •

وقد منح الخلفاء العباسيون بعض الاقطاعات الخاصة بمقتضى نظام الايغار فأقطعوا بعض المقربين اقطاعات واسعة مقابل مبلغ من المال

---

(١) الأحكام السلطانية : ص ١٦٨ — ١٦٩ •

لا يرتبط بنسبة العشر أوالخراج المقرر على الأرض وسميت هذه الأرض أرض الايغارات ، ومنحت الأشخاص من ذوى النفوذ فى الجهات التى يسودها الاضطراب أو تقل عوائدها (١) ، كما منح الخلفاء العباسيون اقطاعات من أرض الصوافى التى كان يملكها أكاسرة الفرس وأمراؤهم ثم هجرها أصحابها أو قتلوا . وثمة نوع آخر من الاقطاعات يسمى بالاقطاعات المدنية وهى أرض يقطعها الخلفاء الوزراء والكتاب والموظفين مقابل الرواتب أو كبديل للنفقات التى يستحقونها بحكم عملهم فى خدمة الدولة . وهناك الاقطاعات العسكرية التى تقطع للقواد منذ عهد المنصور فقد عرض وزيره أبو أيوب المورياني على أحد القواد سنة ١٣٧ هـ مدينة كسكر ، كما أقطع المهدى اقطاعات لحرسه الخاص ، وأقطع الهادى والرشيد جند الثغور قطائع فى أرضها وكذلك فعل المأمون والمعتصم .

ثم طبقة التجار المياسير الذين أفادوا من التقدم التجارى الذى أشرنا اليه وركبوا البحار وجابوا الأسواق وسيروا السفن لحسابهم ، وكان لهم الوكلاء والمخازن فى كل مكان ، والذين كان فى مقدورهم أن يحولوا ملايين الدراهم ويوقعوا من العقود ما يقوم بالملايين ، وعاشوا اما فى الحاضرة بغداد أو فى حواضر الأقاليم أو فى الموانى الكبرى عيشة الترف والنعيم ، وأصبح التاجر الغنى هو ممثل الحضارة الاسلامية التى صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب . ويبدو أن بريق التجارة والمشتغلين بها كان شديدا بسبب الأرباح الطائلة التى عادت عليهم ، ذلك أن بدر بن حسنويه كان يلى منصبا من أرفع المناصب فى الدولة ولكنه لم يترفع عن أن يشترى خانا بمدينة همدان ويقيده باسمه ويقيم فيه ويبيع ما يشتريه من الأمتعة . وقد ربح من وراء ذلك ١٫٢٠٠٫٠٠٠ درهم .

لكن الأمر الذى لا يغتفر بحيال الخلفاء فى العصر العباسى الأول هو أنهم لم يطبقوا المبادىء التى طبقوها فى الحياة السياسية على النواحى

(١) الريس : الخراج ، ص ٤٨٧ .

المـالية والاقتصادية ، ففي الوقت الذى كبتوا فيه عناصر الموالى الصاعدة وألزموها حدود الطاعة للخلافة وحافظوا على قدرتهم وفعاليتهم ، أطلقوا لعناصر الموالى العنان فى المجال الاقتصادى فبرعوا فيه وسيطروا عليـه وتملكوا ثروات البلاد سواء فى الحاضرة أو الريف . وتألفت منهم طبقة ممتازة هابها الخلفاء ورجال الدولة(١) وشهد العصر العباسى الأخير تحولا رأسـماليا خطير الشـأن وانقلبت برجوازية الأمس الى رأسمالية طاغية متحكمة شديدة السطوة أدت الى اختلال التوازن الاقتصادى ، وأوجدت بونا شاسعا بين طبقات المجتمع الأمر الذى أدى الى مزيد من الثورات ذات الهدف الاقتصادى . ولو طبق العباسيون نفس المبادىء التى طبقوها فى مجال السياسة وفرضوا القيود والضوابط على هذا التحول الرأسمالى واتخذوا سلطات الدولة وسيلة لزيادة مستمرة فى ارتفاع مستوى الطبقات الفقيرة لكان للتاريخ العباسى شأن آخر .

٢ ــ الحيـاة الاجتماعية :

ان دراسـتنا للحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الأول ان تكون بالدراسة الشافية اذا قصرناها على بغداد وحدها وما شـهدته من حياة اجتماعية متطورة ، أو على الخلفاء ورجال الدولة وحياتهم الخاصة ولهوهم وشرابهم وطعامهم ولباسهم ومجالس أنسهم . كما لا يمكن فى مثل هذا الحيز الضيق الذى نتناول فيه الحياة الاجتماعية كصورة من الصور العديدة التى شهدها العصر العباسى الأول أن نعرض لأدق التفاصـيل الاجتماعية فى مجتمع عظيم مترامى الأطراف كالمجتمع الاسلامى فى العصر العباسى الأول .

لذلك أفضل أن ننظر الى موضوع الحياة الاجتماعية من نفس الزوايا التى نظرنا منها الى أحداث العصر العباسى الأول كلهـا ، وأن نركز على التطورات الهامة التى أحدثتها الثورة وخلفتها ظروف العصر . وخاصـة

(١) آدم متز : ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

التطورات الاقتصادية وصدى هذه التطورات فى المعالم الاجتماعية للعصر العباسى الأول كله .

أهم معالم التطـور الاجتماعى ما جاء نتيجه حتمية لمـا سـبق أن عرضنا له فى دراسة الحياة الاقتصادية ، وما لاحظناه من انطلاق اقتصادى عظيم وما أدى اليه هذا الانطلاق من مظاهر التحول الرأسمالى وارتفاع مستوى الدخل ، وما نتج عن ذلك كله من امتلاك الخلفاء لثروات خيالية . وغنى الدولة بصورة فريدة ، وما جمعته البيروقراطية الحاكمة من وزراء وكتاب وقادة وولاة من دخول عظم قدرها أودعوها المصـارف ووظفوها فى المشـاريع التجارية ، وما كان من نشأة طبقة وسطى جديدة قوامها العمال الذين أحرزوا الثراء وصغار الملاك الذين اتسعت دائرة أعمالهم ، ثم ما أشرنا اليه من تحول الطبقة البرجوازية القديمة الى اقطاعية عظيمة السلطة فى الريف ورأسمالية عظيمة الأموال فى المدن والحواضر . ولم تكن تلك ظواهر قاصرة على بغـداد والعراق وحـدهما انما امتد أثرها الى الأمصار الاسلامية . وكان الأفراد العاديون يستطيعون أن يحيوا حياة كريمة . وقد أشار آدم متز[1] الى أن الأسرة العادية فى عهد الرشيد كان فى مكنتها أن تعيش من دخل لا يتجاوز ثلاثمائة درهم فى السنة ، وأن الأسرة التى كان دخلها نحوا من سبعمائة دينار فى السنة كانت تعتبر أسرة ثرية أقرب الى الطبقة الممتازة منها الى الوسطى . وكان أثرياء الناس وأبناؤهم سواء فى الحضر أو الريف ينفقون عن سعة فى بنـاء الدور أو اقتناء الجوارى أو المشاركة فى المشروعات التجارية .

ولنبدأ بأثر هـذا التحول الاقتصادى فى حياة الطبقة الممتازة من الخلفاء والوزراء ومن أحاط بهم ، والولاة فى أقاليمهم ، وأثرياء الناس من الزراع أو التجار .

ويبدو أن الخلافة العباسية قد تحولت الى حياة الترف والنعيم التى

---

(١) الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

يصورها أدب ذلك العصر سواء أكان أدبا رسميا أم شعبيا ، دفعة واحدة رغم امتلاكها الأموال الوفيرة زمن المنصور ، وفى حياة هذا الخليفة نفسه مصداق لهذا القول . فقد روى الجاحظ (١) أن المنصور كان لا يظهر لنديم قط ولا يثيب أحدا من ندمائه وغيرهم درهما ، فيكون له رسم فى ديوان ، ولم يقطع أحدا ممن كان ينتسب الى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض . وكان يتذكر أعطياته مدة لا تقل عن عشر سنوات ، وكان يستطيع أن يذكر بها من نالها وكان يقول « من صنع مثل ما صنع اليه فقد كافأ ، ومن أضعف كان مشكورا ومن علم أن ما صنع فالى نفسه صنع لم يستبطىء الناس فى شكرهم ولم يستزدهم فى مودتهم، ولا تلتمس من غيرك شكر ما وقيت به عرضك ، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فأكرم وجهك عن رده » .

ثم بدأ الانطلاق الاجتماعى قليلا فى عهد المهدى ، يؤيد ذلك قول المسعودى « كان المهدى محببا الى الخاص والعام لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم والكف عن القتل ، وتأمين الخائف وانصاف المظلوم ، وبسط يده فى العطاء » ومعنى هذا بداية استقرار الدولة وحل مشاكلها واستقرار أمورها ، ثم وصل هذا الانطلاق الى القمة فى عهد الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق . **كان عصر هؤلاء هو عصر الانطلاق الاجتماعى العظيم لهذه الطبقة الممتازة** : طبقة الخلفاء وأعوانهم وطبقة الرأسماليين ملاك الاقطاعات أو التجار ملوك المال .

ظهر هذا الانطلاق فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والأرستوقراطية الحاكمة بنفوذها أو المتحكمة بمالها . وأشار الخطيب البغدادى الى وصف قصور خلفاء العصر العباسى الأول فذكر أنها كانت تشتمل على دور واسعة وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار، وكانت الأروقة تسمى بالأربعين أو الستين على قدر الغلمان . وقد بنى المنصور قصر الذهب وسط بغداد وقصر الخلد على شاطىء دجلة الغربى تجاه باب خراسان ، وكانت بهذا القصر قباب بديعة الشكل وبأبوابه

مساجير من الذهب والفضة ، كما تخللته العمــد الكثيرة الفخمة وفرش بالرخام المجزع تتوسطه قضبان من الذهب وفرش بالديباج والبسط وفيه الكراسى المرصعة باللؤلؤ . كما بنى الرشــيد على دجلة قصرا تأنق فى تجميله ربما أفخم مما زين به المنصور قصره السابق ، كما بنى الواثق فى سامرا عدة قصور منها قصر الهارونى (١) .

وكانت قصور الأمراء تقترب من هذا المستوى ومن أحسنها تعبيرا قصر عيسى بن على بن عبد الله عند مصب نهر الرفيل المتفرع من دجله ، وقد ذكر أن أباجعفر المنصور زار عمه عيسى ومعه أربعة آلاف رجل فاتسع لهم هذا القصر الكبير .

وكانت قصور البرامكة صورة لترف البيروقراطية الجديدة المتشبهة بالأمراء والخلفاء . وقد روى الجهشــيارى أن يحيى بن خالد البرمكى قال لولديه الفضل وجعفر « لاشىء أبقى من البناء فاتخذوا منه يبقى لكم ذكرا » وقيل ان جعفر البرمكى أنفق على بناء قصر له عشرين مليون درهم .

وكانت قصور الطبقة الاجتماعية الممتازة تصور ما حازوه من ثروة وجاه . كانت دورهم ثلاثة أقســام هى : مقاصــير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة ، وتحيط بها حدائق تزرع فيها الفاكهة والرياحين ، وحليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، وأما دورهم فقد زينت بالقباب المرفوعة على عمــد دقيقة ، ويحيط بكل دار سور واحد .

ولم تكن قصور ولاة الأمصار بأقل من هذه بهجة ورواء بل كانت تقليدا لمــا شاع فى الحاضرة من أساليب فنية ، أشار الكندى الى قصور الولاة العباسيين فى مصر . ولم تكن قصور الأغالبة فى تونس أو الطاهريين فى خراسان ، أو ولاة الدولة فى السند أو الحجاز أو الشــام بأقل من

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٠ .

هذا المستوى ، وكذلك كان شأن كبار رجال الدولة وأثرياء التجار وكبار المقطعين وملاك الأرض .

وكان الطعام والشراب صورة من هذا المستوى الاجتماعى الرفيع . حفلت مائدة الرشيد بألوان الطعام حتى قيل ان الطهاة كانو يطهون له ثلاثين لونا فى اليوم ، وكان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم فى اليوم. ولما زف الى زبيدة بنت جعفر أقيمت فى قصره وليمة تكلفت خمسة وخمسين ألف درهم ، وبلغت نفقة المأمون فى اليوم ستة آلاف دينار كان ينفق منها قدرا كبيرا على مطابخه (١) .

وكان الأمراء يعبون من هذا السرف : قيل ان عيسى بن على استضاف الخليفة فقدم له ولأتباعه من ألوان الطعام «الخبز ولحم الجدى والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى » وقد بلغ من نفقتهم فى الطهى واسرافهم فى الانفاق عليه «أن بعضهم كان يشترى مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة (٢) » ، كما روى المسعودى قصصا متشابهة عن اسراف ابراهيم بن المهدى فى تقديم الطعام عندما زاره الرشيد بالرقة ، قال المسعودى ان ابراهيم بن المهدى قال : استزرت الرشيد بالرقة وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب اليه منها جام قريض سمك فاستصغر القطع وقال : لم صغر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : هذه ألسنة السمك ، قال ، فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم (٣) » .

وقد قلد الوزراء الخلفاء والأمراء وساروا سيرتهم ونهجوا نهجهم وسرت هذه العادة بين علية القوم جميعهم سواء فى الحاضرة أو الأمصار،

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٠٧ .
(٣،٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

روى الطبرى (١) أن عامة أهل بغداد كانوا يتفننون فى الطعام ويسرفون فى اجتلاب الوانه فى غير مواعيدها من صيد وفواكه وخضروات ، حتى كانوا يزنون هذه الأطعمة أحيانا بما يعادلها فى الوزن من الفضة . وكانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والجبن من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند .

وكما قاد الترف الخلفاء الى الاسراف فى الطعام قادهم الى التأنق فى الملبس فى حياتهم الخاصة والعامة . كان الخليفة فى المواكب يرتدى قباء أسود أو بلون البنفسج يصل الى الركبة وهو مفتوح عند الرقبة ليظهر القفطان زاهيا من تحته ، وله منطقة مرصعة بالجواهر وعليه عباءة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة زينت بالجواهر الغالية .

أما الطبقة الراقية فكان لها أيضا زيها الفاخر الذى يتمشى مع ثرائها ومكانتها . كان لباسها العادى يتألف من سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة ، وكانوا أحيانا يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها « مزاج » .

وكان لكل طائفة زيها الذى يميزها ، فالكتاب لبسوا الدراعات وهى ثياب مشقوقة من الصدر ، وكان رداء القواد الأقبية الفارسية القصيرة . أما عامة الناس فكان رداء الواحد منهم ازارا وقميصا ودراعة وسترة طويلة وحزاما يسمى (قمربند) وكانوا يلبسون الأحذية والنعال.

وسايرت ملابس النساء نفس هذا التطور بل لعلها كانت أكثر مبالغة فى الفخامة والتأنق ، فسيدات الطبقة الممتازة اتخذن غطاء الرأس مرصعا بالجواهر ومحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويقال ان هذا الزى ابتكرته علية بنت المهدى . وكان للسيدة زبيدة فضل كبير فى تطور الزى اذ يعزى اليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر . وكانت

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٢ .

تسرف فى شراء ملابسها وتزيينها حتى انها اتخذت ثوبا من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار • وقلدتها نساء الطبقة الممتازة جميعهن • أما نساء الطبقة الوسطى فكن يتخذن فى رؤوسهن حلية مسطحة من الذهب ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن •

وثمة ظاهرة أخرى كان لها أثرها الكبير فى تحديد معالم التطور الاجتماعى فى العصر العباسى الأول • وهى ظاهرة الانتشار المطرد للاسلام ونجاح الدعوة الى الاسلام التى بدأت فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام • وقدر للعهد العباسى أن تتركز فيه كل جهود الخلفاء والولاة والعلماء والدعاة منذ أيام النبى حتى آخر القرن الثالث الهجرى • ونجاح الثورة العباسية فى خراسان وانتشارها فى ايران بسرعة انما كان نتيجة لدخول أغلب الايرانيين فى الاسلام ، وقد أيدوا الثورة وساروا فى ركابها تطلعا الى اسقاط القيود التى وضعها الأمويون فى طريق فوزهم بحق المواطنة الاسلامية (١) • وكان امتداد الدعوة العباسية الى ما وراء النهر يدل أيضا على الخطوات البعيدة التى قطعها الاسلام فى طريق الانتشار فى وطن الأتراك ، ثم كانت الحكومة العباسية وما قامت به من جهود فى تدعيم سلطانها والقضاء على الحركات الهدامة عاملا فى دفع الحركة الاسلامية الى الأمام وتشجيع التيار الاسلامى القوى المتدافع ، ويمكننا أن نقول فى غير تردد أنه ما كاد العصر العباسى الأول ينقضى حتى كان المشرق الاسلامى قد اكتسب صبغة اسلامية واضحة واتخذ طابعا عربيا واضحا فى لغته وثقافته •

وقد شهد الغرب الاسلامى تطورا مشابها • والذى يدرس ما ورد فى ابن عبد الحكم (٢) والكندى (٣) من روايات ويطلع على قوائم جباية

(١) ارنول : الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٣٧ — ٢٤٠ •
(٢) فتوح مصر •
(٣) الولاة والقضاة •

الجزية التى حفظتها أوراق البردى العربية من القرن الثانى والثالث الهجريين يشهد تطورا خطيرا فى تاريخ الدعوة الى الاسلام • وكان الاسلام والتعريب يسيران جنبا لجنب . ويساق دليلا على ذلك ما كان من تناقص حصيلة الجزية المفروضة على أهل الذمة تناقصا مطردا . دعا الى عدم اعتبارها فى آخر القرن الثالث الهجرى بابا هاما من أبواب الايرادات • وقد اشتدت ثورات المصريين من المسلمين سواء فى الدلتا أو الصعيد ، وتفسر هذه الثورات على أنها حركات أقليه أحست بنفوذها يتداعى وكيانها يضعف ، فناضلت نضالها الأخير قبل أن تفقد سلطانها ويقل نفوذها • وساعد على انتشار الاسلام أيضا شيوع الثقافة العربية بعد أن كانت ممركزة فى الفسطاط وامتدادها جنوبا حتى أسوان وشمالا حتى الاسكندرية ، وتوطن القبائل العربية فى الريف ومصاهرتها المصريين • فلما جاء أحمد بن طولون الى مصر عام ٢٥٤ [1] وجد البلد قد غلب عليه الاسلام وتشرب الثقافة العربية •

وكذلك كان حال المغرب فقد أدت سياسة المشاركة بين العرب والبربر فى الحكم والنفوذ والفتح وملكية الأرض الى دخول أغلب القبائل فى الاسلام • وكانت مدرسة القيروان تلقن هذه الجموع الثقافة العربية وتحمى ظهر الدعاة وتساند جهودهم • ومن الأمور المقررة فى تاريخ المغرب أن الخط الفاصل بين المغرب القديم والمغرب الاسلامى كان ممثلا فى ثورات الخوارج التى شغلت الحكومات العربية حتى قيام الأغالبة • فقد كانت هذه الثورات تمثل تطلعات ملايين المسلمين من المغاربة الى اسقاط ما قام فى وجوههم من عقبات آخر العصر الأموى . والى حقهم الطبيعى فى المساواة • وشهد العصر الأموى الأخير دعوتين استغلتا أخطاء الأمويين الأواخر من ناحية وتطلعات جماهير المسلمين من ناحية أخرى لاقامة حكومة تتبنى مبادىء الدعوة : كانت دعوة المشرق تسعى الى اقامة

---

(١) حسن أحمد محمود : حضارة مصر فى العصر الاسلامى ، ص ٥٥ — ٥٧ .

خلافة هاشمية للرضا من آل محمد ، ثم تحولت الى خلافة العباسيين . وقامت دعوة فى المغرب تدعو الى اسقاط امامة قريش وتولية الخلافة أفضل المسلمين ، ولذا بايع الثوار الخوارج سقاء يدعى ميسرة المظفرى خليفة وناضلوا تحت علمه تحقيقا لمبادئهم . غير أن دعوة الخوارج أسفرت عن وجهها فى وقت مبكر عام ١٢٢ – ١٢٣ تقريبا واستطاعت الخلافة الأموية أن تضربها بشدة ضربة قاصمة ، على حين ظهرت الحركة الأخرى فى خراسان عام ١٢٩ هـ والدولة الأموية فى الرمق الأخير ، فتمكنت من النجاح وحرصت على تأكيد سلطانها فى مصر والمغرب على أنقاض الخوارج ، وظلت تناضل حتى أقر الرشيد قيام الأغالبة فى تونس . والمتتبع لتاريخ مدرسة القيروان فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ومدرسة فاس وما صدر عن المدرستين من كتب طبقات وتراجم يقتنع بحق كيف تأصل الاسلام فى تلك البلاد ، وكذلك تراجم مدرسة الفسطاط التى تضمنها كتاب ابن الحكم ومؤلفات المؤرخ الكندى .

واذا كان هذا التطور قد وضح فى آخر العصر العباسى الأول فان للعباسيين فضلا كبيرا فى الأخذ بساعد هذه الحركة الاسلامية النامية حتى وصلت الى هذا القدر الكبير من النجاح . وبذل العباسيون فى هذا المضمار جهدا أكبر مما بذله خلفاء بنى أمية . فطبيعة الخلافة العباسية الدينية جعلتهم يشرفون على الدين من نواح مختلفة ويتدخلون فى المسائل الدينية تدخلا أكبر ، وكان من أثر ذلك نشاط الخلفاء فى نشر الدعوة الى الاسلام . والمتكلمون قاموا بجهد مشكور فى هذا السبيل وعلى رأسهم المعتزلة ، فهم الذين كانوا يبحثون فى الاسلام عن طريق العقل واستعانوا بالمنطق اليونانى وعزفوا أدب الجدل والمناظرة ، ونازلوا أهل الديانات الأخرى من مجوس ويهود ونصارى ودعوهم الى الاسلام ، كما بذلوا الجهود فى الدعوة الدينية(١) والرد على المخالفين فأسلم على يدهم الكثيرون ، فقد أسلم على يد أبى الهذيل العلاف أكثر من ثلاثة

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

آلاف رجل . وبجانب هؤلاء العقليين الذين دعوا الى الاسلام عن طريق العقل كان هناك من يدعو الى الاسلام عن طريق الأسوة والسيرة الطاهرة كالعلماء والفقهاء . قال ابن خلكان(١) « قيل أنه أسلم يوم مات أحمد ابن حنبل عشرون ألفا من النصارى واليهود والمجوس » أو عن طريق الوعظ والتصوف كما فعل أبو القاسم الجنيد . وكان الخلفاء العباسيون من أنشط الخلفاء للدعوة الى الاسلام ، وخصوصا المأمون الذى بذل جهودا كبيرة فى دعوة أهل الصغد وأشروسنه وما وراء النهر ، فكاتبهم بالدعوة الى الاسلام والطاعة والترغيب فيه ووجه رسله ليفرضوا لمن رغب فى الديوان ، وأسفرت هذه الحركة فى عهد المعتصم عن تغلب الاسلام على بلاد ما وراء النهر .

ولا نريد أن نتناول انتشار الاسلام من وجهة النظر العقيدية أو الثقافية انما من وجهة النظر الاجتماعية ، اذ مما لا شك فيه أن اعتناق الاسلام كان من أهم عوامل التغير الاجتماعى ، فقد كان معناه تقبل التشريع الاسلامى فى تنظيم الأسرة والأخلاقيات وأدب السلوك والعلاقات الاجتماعية . وكان معناه الاحتفال بالأعياد الاسلامية والميل الأكبر لتقاليد العرب والتشبه بحياتهم الاجتماعية والميل الأكبر للاختلاط بالجماعات الاسلامية الأخرى . وكان يتلو اعتناق الاسلام فى أغلب الأحيان تغير اقتصادى مثل اسقاط الجزية وتملك الأرض ونيل العطاء ، وانتهاز الفرص الاقتصادية المتاحة والاندماج فى زمرة المحاربين ، والتطلع الى مزيد من الحقوق السياسية والانضواء فى المجتمع الاسلامى العظيم الذى امتدت دياره من حدود الصين حتى المحيط الأطلسى .

ويمكننا أن نضيف الى ما تقدم من ظواهر ، ظاهرة أخرى هامة من الأولى أن تدرس فى شىء من العمق والاهتمام لأنها من أهم الظواهر فى تاريخ الحياة الاسلامية ، ونعنى بها ظاهرة التوليد أو المولدين ، أى

---

(١) الوفيات : ج ١ ص ٢٣ .

الامتزاج بين العناصر العربيــة المهاجرة وأهل البــلاد التى هاجروا اليها واستقروا بين ظهرانيها ، وهى ظاهرة متشــعبة النواحى منهــا الجانب البشرى البحت ومنها الجانب الثقافى ومنها الجانب الاجتماعى ، وهى تميز حركة الهجرة العربية على غيرها من الهجرات التى عرفها التاريخ القــديم فالنفوذ الاغريقى صحبته هجرة عريضــة انتشرت فى رقعة فســيحة من العالم ، وفى ظل النفوذ الرومانى أقامت جاليات رومانية كثيرة ، اما فى حــوض البحر الأبيض المتوســط واما فى مصر وبلاد الشــام . ولكن الهجرات السابقة تعالت وانعزلت وعاشت حياة مقفلة ولم تحاول أن تمتزج أو تختلط بأهل البلاد الأصليين . وما من بلد عربى فى أعقــاب الفتح الا وقد شهد هذه الظاهرة الهامة وهى ظاهرة اختلاط العرب بالناس عن طريق التزاوج والاختــلاط . ففى مصر اختلط العرب وأصــهروا الى المصريين ونشأ جيل من المولدين ، وفى المغرب أصهرت القبائل العربيــة المهاجرة الى البربر ولمــا دخلوا الأندلس فعلوا نفس الشىء ، وأصبحت جماعات المولدين فى العصر الأموى جماعات كبيرة العدد تتزايد أعدادها باستمرار ، ويبدو أنه حتى آخر العصر الأموى كانت ظاهرة التوليد من جانب العرب وحدهم ، أعنى كان الرجال العــرب يتزوجون النســاء الأعجميات ، على حين كان العرب يرفضون أن يزوجوا بناتهم الى الأعاجم ولو كانوا قد أســلموا وحسن اســلامهم ، بل لم يعط الأمويون هؤلاء المولدين رغم عروبة نســبهم مكانا لائقا فى المجتمع بل احتقــروا طائفة المولدين وسموا ابن العربى من الأمة الهجين . قال ابن عبد ربه « كانت بنو أمية لا تســتخلف بنى الاماء ، واذا اختــاروا واليا راعوا عروبته واذا اختاروا قاضيا أو اماما يصلى بالناس راعوا ذلك » حتى كانت الثورة العباسية واعتمادها على جماعات المسلمين من الخراسانية والفرس وأسقطوا الحواجز الطبقيــة القديســة ، وبدأت الطبقــة القديمة تفقد الكثير من امتيازاتها السياسية والاقتصادية ، كما بدأت تفتح أمام جماعات الموالى ميدان العمل الســياسى وميدان العمل الاقتصــادى ، وتفشــت ظاهرة التوليد ، وأصبح البيت الاســلامى وخصوصا بيوت الأمراء والخلفــاء

والأغنياء مزيجا من الأجناس ، فأبوجعفر المنصور كان فى بيته أروى بنت منصور الحميرى وأمة كردية وأمة رومية ، وكان للرشيد زهاء ألفى جارية من المغنيات • ومن هذا الاختلاط نشأ جيل جديد يحمل ميزات خاصة وكسبوا من أمهاتهم وآبائهم صفات خاصة • وكان المولدون فى العصر العباسى من أظهر العناصر ولهم ميزات خاصة فى صفاتهم وعقولهم وصناعاتهم (١) قال أحد القواد « ما فى الدنيا أحد أشجع من أجناد خراسان المولدين ولا أفتك منهم • ولم يكن التوليد فى هذا العصر من جانب العرب وحدهم ، بل أقبل الموالى المسلمون الذين تغيرت أوضاعهم السياسية والاقتصادية على الزواج من عربيات خالصات أو مولدات ، وبدأت جماعات المولدين تلعب دورا بارزا فى الأمصار سواء فى الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية ، وغلبت ظاهرة المولدين على حياة الأندلس ووضحت أكثر من وضوحها فى الأمصار الأخرى • وعرب الجيل الرابع لا يمكن أن يكونوا عربا خلصا على الاطلاق باستثناء عرب البادية فى العراق والشام والحجاز ونجد ، ولعل ذلك مما ساعد على خفوت صوت النزعة العربية فى القرن الثالث الهجرى • هذه النزعة التى كانت من أقوى ما تكون وأوضح ما تكون فى ما وراء النهر الى جبال البرانس فى شمال أسبانيا ، ولعل ذلك ساعد على ايجاد مفهوم جديد للعروبة لا يقوم على أساس الجنس فحسب انما يقوم على أساس الدين والثقافة • يقول برنارد لويس (٢) « لم يعد العرب طبقة وراثية مقفلة بل أصبحوا شعبا مستعدا لقبول أى مسلم يتكلم العربية ، وأصبح تحرير الموالى الاجتماعى يتم بطريق قبول العرب التام لهم كعرب •• وكان يساعد على حركة الاستعراب فى الولايات الواقعة غربى فارس انتشار العرب المسرحين من الخدمة فى الجيش وسيادة اللغة العربية فى المدن وانتقالها الى الريف » •

ولعل هذه الظاهرة كانت مصحوبة بظاهرة أخرى ربما مكملة لها

(١) أحمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٢ .
(٢) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ١٣١ .

أو نتيجة من نتائجها ، وهى ظاهرة تضاؤل نفوذ العرب فى العصر العباسى الأول ، ثم اختفائهم من العمل السياسى والحربى بالتدريج • ولعل السبب فى ذلك أنهم فقدوا امتياز السلطة السياسية بسبب قيام الدولة العباسية ، ثم امتياز العنصر النقى والعصبية المتماسكة باطراد التوليد والتهجين حتى فقد عرب الجيل الرابع صفات آبائهم عرب الجيل الأول ، وخفت صوت العصبية التى تغلب صوتها على الأحداث آخر العصر الأموى •

والعرب لم تتطور أحوالهم على هذا النحو دفعة واحدة • فقد كان الخلفاء العباسيون عربا هاشميين وقد فخروا بذلك وعدوه من أكبر مناقبهم ، والايرانيون فى العصر العباسى الأول كان لهم نفوذ كبير ولم يكن يعنى ذلك انعدام نفوذ العرب • كانت أعظم المناصب كالوزارة فى يد الفرس ولكن كان للخليفة قواد عرب وولاة من العرب وجند المنصور كانوا أربعة أقسام (١) • يمنية ومضرية وربيعية وخراسانية • واشتهر فى صدر الدولة أمراء وقواد من العرب أمثال سعيد بن سلم الباهلى ومعن بن زائدة الشيبانى وأبودلف العجلى • فى أول العهد بالعباسيين كانت كفة العناصر الايرانية راجحة جدا ولكن العرب كانوا لا يزالون على شىء من القوة •

ولما آلت الخلافة الى الرشيد زاد نفوذ الايرانيين بفضل البرامكة ثم تأكد انتصارهم فى عصر المأمون وكان العجم يركبون ومعهم القسى والنشاب بين يديه • انظر الى نظر المأمون الى العرب من هذا القول الذى رواه (٢) الطبرى من أن رجلا تعرض للمأمون بالشام مرارا فقال له: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لأهل خراسان • فقال المأمون : أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٢٨٢ •
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٩٦ •

فو الله ما أحببتها ولا أحبتنى قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله نبيه من مضر . ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهم شاريا ، اعزب فعل اللهبك» .فلما تولى المعتصم استخدم الأتراك وأسقط العرب من الديوان . اذن بدأ العنصر العربى يحتضر نفوذا وسلطانا منذ بداية عصر الرشيد ثم فقد النفوذ والسلطان فى عهد المعتصم . ولم تتقبل العناصر العربية هذا التطور انما ناضلت لتعيش لكنها ناضلت نضال الضعيف المتهاوى . وقد ثار العرب بمصر ثورات متصلة فى عهد الرشيد والمأمون والمعتصم كما ثار عرب الشام ، ولكن الثورة لم تعد عجلة التطور الى الوراء ، وبدأ الأمويون فى الأندلس يعتمدون على الصقالبة ، واعتمد الأدارسة على البربر ، ثم اعتمد الأغالبة بعد أن عانوا من العرب على العبيد السودان فى الوقت الذى اعتمد العباسيون فيه على الأتراك .

وكان من أثر ذلك أن خفت صوت العرب فى جميع الأمصار على حد سواء وذلك بسبب هجراتهم من المدن الى الريف واشتغالهم بالزراعة ثم اندماجهم وفنائهم فى الشعوب التى عاشوا بينها ، فى مصر مثلا بدأ العرب آخر القرن الثالث يهاجرون الى الريف ويعملون بالزراعة وبدأوا ينتسبون الى اقليم مصر التى استقروا بها ، وشواهد القبور من القرن الثالث تدل على هذا ، ولابد أن ما حدث بمصر حدث فى جميع البلاد على حد سواء . وبعض القبائل هجرت الأمصار والحواضر وعاد بعضهم الى الحياة البدوية .

وأعتقد أن انتشار الاسلام من ناحية وظاهرة التوليد من ناحية ثانية ثم فقدان العرب لسلطانهم السياسى ونزوحهم الى الريف من ناحية ثالثة كانت له نتائجه الاجتماعية العامة ، وهى خلق أنماط اجتماعية محلية متأثرة الى حد بعيد بالتقاليد التى كانت سائدة قبل الفتوح وخروج العرب مهاجرين ، وتمثلت هذه الأوضاع الاجتماعية فى كثير من المظاهر . فى الطعام وفى العادات والتقاليد . فالعرب الذين أقاموا فى خراسان

أو فى ما وراء النهر كانوا فى العصر العباسى قد تأقلموا بالبيئة التى عاشوا بها وألفوا الأجواء القارسة البرد ولبسوا السراويل الطويلة وقلنسوات الفراء التماسا للدفء . والعرب الذين استقروا فى جنوب ايران أو فى منطقة بحر قزوين ، لم تكن فى العصر العباسى تستطيع أن تميزهم فى حياتهم الاجتماعية عن غيرهم من المسلمين . وتكررت هذه الظاهرة فى كل عصر اسلامى تقريبا ، فالمسلمون من المصريين والعرب المستقرون خضعوا لمؤثرات اجتماعية واحدة وألفوا نفس الطعام وعاشوا نفس الحياة المصرية التى ألفها المصريون منذ القدم ، ومثل ذلك حدث فى بلاد الشام أو المغرب أو الأندلس . كانت الروح الاقليمية بارزة جدا فى ميدان الحياة الاجتماعية وهى نتيجة ما أشرنا اليه من عوامل .

ولكن رغم هذا حدث فى ميدان التقاليد الاجتماعية ماحدث فى جميع مظاهر الحياة فى العصر العباسى الأول من تقدم العناصر الايرانية سياسيا وتقدمها علميا وفنيا ، فقد تقدمت اجتماعيا وغلبت التقاليد الفارسية على حياة الناس فى العراق بل انتشرت فى العالم الاسلامى كله كما انتشر الطراز العباسى الذى أشرنا اليه .

غلبت التقاليد الاجتماعية الفارسية فى كل ناحية تقريبا ، غلبت فى الأزياء فانتشرت القلنسوة الطويلة وضروب الأزياء الفارسية ، واتخذ القضاة القلانس العظام ، واتخذ الخلفاء العمائم على القلانس . وتفننوا فى العمامة ونوعوها تبعا للطبقات كما كان يفعل الفرس ، فللخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللأعراب عمة ، ولكل مرتبة زى فمنهم من يلبس المبطنة ومنهم من يلبس الدراعة ومنهم من يلبس « البازيكند » وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات والأردية السود . وتمثلت فى الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام . كان الخلفاء يحتفلون بالنوروز فى أول العام وفى آخره بالمهرجان ، كما تأثروا فى منازلهم بالأساليب الفارسية ، واقتدوا بالفرس فى مظاهر البلاط والحفلات والأعياد والمواسم .

وبنوا الدور على الطراز الفارسى الذى شاع فى بغداد وفى سامرا ،

في عمارتها وفي زخرفتها وفي قبابها وعمدها ورياشها وحدائقها • واستخدم العباسيون المطبخ الفارسي على نطاق واسع • وكانت موائدهم تحفل بمثل ما كانت تحفل به موائد الفرس •

ثم انتقلت هذه التقاليد الى البلاد الاسلامية الأخرى ، نقلها الولاة المبعوثون من بغداد ونقلها القضاة ورجال الدولة • وكان يقلدهم الكبراء والوجهاء ، يتحدث الكندى عن ولاة بنى العباس فى مصر وعن حياتهم الخاصة على النسق الذى شاع فى بغداد ومن اجبارهم الناس على لبس القلانس والتشبه بتقاليد الفرس • وكان بلاط الأغالبة فى تونس تقليدا للبلاط العباسى فما بالك ببلاط الطاهريين فى خراسان ؟

هذه اذن أهم معالم التطور الاجتماعى التى وضحت فى العصر العباسى الأول فلنعمد الى دراسة قطاعين اجتماعيين فى ضوء هذه الملامح العامة : الأول قطاع المدينة والثانى قطاع الريف •

فالى أى حد تأثرت الحياة المدنية بالمقومات الاجتماعية التى أشرنا اليها ؟ وبكل ما أسلفنا القول فيه من ظروف العصر العباسى الأول • وسنعنى بقدر الامكان بالمدن القديمة كالبصرة والكوفة والفسطاط ودمشق والحيرة والأنبار ومرو ونيسابور وغيرها من حواضر الأمصار ، ونبين ماذا أصابها من التطور الاجتماعى الجديد كما نعنى أيضا بالمدن الجديدة التى أنشأها العباسيون وخصوصا بغداد وسامرا • وسنتخذ من بغداد نموذجا للحياة المدنية الجديدة التى انطلقت انطلاقة كبيرة فى العصر العباسى الأول • وأول ما يلاحظ ذلك التوسع العمرانى الكبير الذى طرأ على هذه المدن فى العصر العباسى وما تضمنه ذلك من كثرة المساجد والحمامات والحوانيت • أشار الخطيب البغدادى الى التوسع الذى طرأ على بغداد فذكر أنها اشتملت على ستين ألف حمام ، وكان بازاء كل حمام خمسة مساجد فتكون مساجد بغداد كلها ثلاثمائة ألف مسجد • ومما كتبه جغرافيو القرن الثالث نتبين أنه ما من مدينة من مدن العالم الاسلامى فى ذلك الوقت الا وشهدت هذا التوسع العمرانى العظيم فشهدت قرطبة

والقيروان وبالرمو نفس هذه الظاهرة . وقد امتد هذا التوسع الى مساكن الناس فقد شهدت بعض المدن توسعا رأسيا فى البيوت لمواجهة حركة ازدياد السكان ، فمدينة الفسطاط مثلا كانت بها بيوت من طبقات كبيرة تبلغ الثمان حتى بدت كأنها المنائر وربما سكن الدار الواحدة مائتان من الناس (١) . كما أنشئت أحياء خاصة الى جوار الحواضر القديمة لمواجهة هذا التوسع العمرانى العظيم ، فقد أنشأ الاغالبة مدينة رقادة ، وأنشأ العباسيون العسكر فى مصر ، وبنيت سامرا فى عهد المعتصم والجعفرية على نهر دجلة قرب بغداد . وكانت هذه الأحياء الجديدة تجنبا للأخطاء التى ارتكبت فى عمارة المدن القديمة فامتازت بالاتساع .

ومن الظواهر الاجتماعية التى طرأت على الحياة فى المدن فى العصر العباسى الأول ظاهرة التضخم السكانى العظيم ، فقد ألغى العباسيون قيود الهجرة التى وضعت فى العصر الأموى الأخير ، وفتحت الأبواب على مصاريعها للمهاجرين الباحثين عن أسباب الرزق ، وجذبتهم أضواء المدينة وحياتها الصاخبة المترفة . وكان التوسع الصناعى والتجارى يجذب العناصر المتدفقة باستمرار التماسا للكسب (٢) . ولعل مما ساعد على هذا النمو السكانى الكبير أيضا ما عمد اليه العباسيون من اسقاط القيود التى فرضها الأمويون على الوافدين الى المدينة من الاقامة فى أرباض المدن وظواهرها بعيدا عن الطبقة العربية الأرستقراطية المتعالية . وكان هذا التضخم السكانى ظاهرة شهدتها المدن الاسلامية كلها ، فابن عدارى (٣) . يذكر أن عدد البيوت فى قرطبة بلغ نحوا من مائة ألف بيت ، ويشير مؤرخو المغرب الى ازدحام القيروان وفاس بالسكان . وشهدت الفسطاط هذا الاحتشاد السكانى الكبير كما أشار الخطيب البغدادى الى أن سكان بغداد بلغوا

---

(١) الاصطخرى : ص ٤٩ — ابن حوقل : ص ٩ — المقدسى : ١٩٨ ١٩٨ .

(٢) Levy, the sociat stvuclute of Islam p. 69--65.

(٣) البيان المغرب : ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

نحوا من مليون ونصف مليون نســمة فكانت أعظم الحواضر احتشــادا بالسكان . واذا اتخذنا بغداد نموذجا لهذا الازدياد المطرد فى السكان فسنجد أن ذلك يعزى الى تدفق الرقيق وأهل الذمه والعمال . فقد وسع العباسيون فى جلب الرقيــق واستخدامهم فى قصــور الخلفاء والأمراء والوزراء واكتظت هذه القصور بالآلاف من الجوارى من كل جنس . وكانت بغداد نفسها من أعظم أسواق الرقيق . وكان بها شــارع يسمى شارع « دار الرقيق » . وقد اشتهر من الرقيق الخدم وكان أكثرهم من غير المســلمين الذين يؤسرون فى الحروب أو يشترون من الأســواق . وكان منهم الزنجى والتركى واليونانى والصقلبى . وتعاظم عدد أهل الذمه فى المدن الكبرى وخاصة فى بغداد ، فقد تضاعفت أعداد النصــارى واليهود واستخدمهم الخلفاء فى الدواوين ، وبلغ من تزايد أعداد الجالية المسيحية أن كان لهم رئيســان يعين كل منهما بعهــد خاص من الخليفة أحدهما يطلق عليه اسم «الجاثليق النسطورى» والثانى «بطريق اليعاقبه» وقد سمح للجاثليق بالاقامة فى بغداد ، وكان له حق ارسال المبشرين الى النواحى المختلفة (١) . أما اليهود فكان لهم رئيس خاص يدفعون له الضرائب . واشتغل أهل الذمة فى بغداد بالأعمال التى درت عليهم الأرباح الوفيرة وكانوا أهل معرفة بالحساب والكتابة والخراج ، وكان كثيرون من الكتاب من النصارى ، أما الجهابذة فقد كانوا من اليهود (٢) . ووفــد الى بغداد كثيرون من المجوس الذين اشــتغلوا بنقش الزجاج وتلوينه وصنع الســلاح . وزاد عــدد العمال فى بغداد زيادة كبيرة وكان منهم الحرفيون الذين يحترفون الصناعات اليــدوية كالحدادين والخياطين والنجارين والخبازين والباعة .

وتأثرت المدن الاسلامية فى العصر العباسى الأول أيضا بالتطورات الاقتصادية التى عرضنا لها بالتفصيل ، فقد أصبحت من أعظم مراكــز الصناعة ومن أكبر أسواق التجارة الداخلية والعالمية ، وتدفقت اليهــا

---

(١) عبد الجبار الجومرد : هارون الرشيد : ج ١ ، ص ١٠ .
(٢) جورجى زيدان : التمــدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

الأموال واشتد انفاق الطبقة الموسرة الغنية ، وتأثرت البرجوازية القديمة التي ظهرت آخر العصر الأموي وشاركت في صنع احداث الثورات، وخاصة في المشرق الاسلامي بالنهضة الاقتصادية ، وتحولت الى طبقة رأسمالية ذات نفوذ وسطان تقلد الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة في بذخهم وكثرة انفاقهم . وكانت الطبقية في المدن الكبرى عامة وفي بغداد خاصة في غاية الوضوح ، وظهرت في ملابس الناس وأزيائهم . فكان للعمال زيهم وكان الكتاب يلبسون الدراريع (١) . وهي ثياب مشقوقة من الصدر وكان العلماء يرتدون الطيلسان ، والقواد الأردية الفارسية القصيرة . وكان أثرياء الناس يلبسون قميصين ورداء فوق السراويلات ؛ وانتشر في بغداد عامة نوع من الذوق الاجتماعي الرفيع بين الخاصة والعامة على حد سواء وأشار آدم متز (٢) الى أمثلة منه فذكر أن المدعوين الى الطعام كانوا يغسلون أيديهم معاقبل الطعام ويكون غسل الأيدي من وعاء واحد . وانتشرت هذه العادة حتى بين العامة فكانوا يقومون من مجالسهم ليغسلوا أيديهم ، وأشار الجاحظ الى ما يمكن أن نسميه أدب المائدة ، فهو يستحسن « من النديم ألا يمشمش الطعام ولا يبادر الى البيض الموضوع على البقل ولا يأخذ لنفسه أكباد الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون » وتوسع صاحب كتاب الموشى في آداب المائدة حتى تناول أدق التفاصيل . وبلغ الترف بسكان هذه المدن حدا بعيدا ، فكان الناس يشربون الماء المثلج في الصيف ، وكان الكبراء يحملون الثلج في حراقاتهم وكان هذا الثلج يحمل أحيانا من بلاد الشام . وقد أدى تزايد أعداد السكان من ناحية وكثرة الانفاق من ناحية أخرى الى ارتفاع الأسعار خاصة في بغداد ، وهذا الغلاء وان احتمله الأغنياء وأوساط الناس فانه ثقل على الفقراء ، وقد شكا أبو العتاهية ذلك وصوره تصويرا دقيقا (٣) . بقوله :

---

(١) مسكويه : ج ٦ ، ص ٣٠٨ .
(٢) الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٣١ .
(٣) ديوان أبي العتاهية ، ص ٣٠٤ .

من مبلغ عنى الامام نصائحا متوالية

أنى أرى الأسعار أسعار الرعية غالية

وكان المال فى مثل هذه البيئات يأتى سريعا ويذهب سريعا .

وكان من أثر هذه المستويات الاقتصادية المتقاربة وهذه الحياة المترفة لقطاع كبير من الناس أن شهدت المدن الكبرى عامة وبغداد خاصة انحرافات اجتماعية معينة نتيجة لهذا التفاوت الطبقى العنيف ، وهذه الضدية الاجتماعية البينة فامتلأت بغداد بالحانات ومن أشهرها حانة طيزنا باذ وحانة قطربل وحانة الشط(١) . وكان للجوارى بيوت معدة لسماع الغناء . وشاعت ألوان أخرى لا تشيع الا فى المدن الكبرى عادة كلعب القمار بفصى النرد (٢) . وكان بالفسطاط شيوخ يسمون المطمعين لهم جراية من دور القمار ليجلبوا الناس اليها ويطمعوهم فى اللعب ، وكان النرد يلعب ابتغاء الكسب صراحة . ويحكى أن رجلا لاعب آخر فغلبه فأخذ منه عشرين دينارا . ولما تولى أمر مصر يزيد بن عبد الله التركى منع الرهان وأمر ببيع الخيل ، لأن سباق الخيل شاع بالفسطاط وبلغ من شغف الناس به وتقليدهم له أن السابق كان يأخذ حصان المسبوق . وانتشرت البطالة فى بعض المدن بين صفوف العامة وخاصة بغداد . وكان بعض أفراد من العامة يتجولون فى الأسواق بحثا عن الرزق عن طريق النهب والسلب ، وخصوصا جماعات العيارين الدين فشوا فى بغداد فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وكانوا يسيرون عراة الأجسام الا ما يستر عوراتهم ويشدون على أوساطهم المقاليع القديمة ويحملون الحقائب المليئة بالحصى والحجارة ولعبوا دورا كبيرا فى الفتنة بين الأمين والمأمون . قال الخطيب البغدادى « أما الفقراء وذوو الحاجة فقد ضاقت عليهم بغداد بما رحبت ولم يستطيعوا العيش فيها » . وكان من أثر هذه الحياة من رفاهية قوم وبؤس آخرين أن ظهرت حركتان : ظهرت حركة من

---

(١) العمرى : مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ٣٩٣ — ٣٩٥ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ٤٠٤ .

المتطوعة للنكير على الفساق ببغداد (١) • وكان لهذه الحركة زعيمان لكل زعيم برنامج فى الاصلاح ، أما أحدهما فهو خالد الدريوش وبرنامجه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يثور على السلطان ، فهو يطلب الاصلاح فى حدود الطاعة للحكومة • والزعيم الآخر سهل بن سلامة الأنصارى يرى مقاتلة من خالفه ، كما شاعت حركة الزهد لمعارضة الداعين الى اللهو كبشار وأبى نواس •

ويمكننا أن نعطى صورة للخدمات العامة التى كانت تقوم بها الدولة رعاية لهؤلاء السكان الذين تجمعوا فى المدن على هذه الصورة ، فقد عنى الخلفاء العباسيون عناية عظيمة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقاتها وكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة(٢) • وكان يقف فى زاوية كل شارع حارس مسئول عن حفظ النظام ، وكان الميدان الذى يطل عليه القصر يضاء ليلا وجميع الطرقات كانت تضاء ليلا ، كما أكثر القائمون على أمور بغداد من المتنزهات الشعبية عند تقاطع الشوارع وحول الأحواض المائية واشتهرت منها بركة زلزل (٣) • وحمل الماء الى بغداد عن طريق قناتين يجرى فيهما الماء الى المدينة ، وكلتاهما مغطاة ومحكمة العقد ، وكانت احداهما تأخذ من نهر كرخايا الذى يتفرع من الفرات • وأمرت السيدة زبيدة ببناء قناة معقودة تمد أهل مكة بالماء وانتشرت مجارى الماء المبنية تحت الأرض • فى مدن ايران الشمالية مثل قم ونيسابور • وكانت نيسابور من أكبر مدن الشرق فى ذلك العصر (٤) • وكان بها الكثير من مجارى الماء المغطاة ، بعضها يظهر فى خارج المدينة ويروى البساتين وبعضها الآخر يمد البيوت بالماء (٥) • وفى بغداد خاصة أقيمت عدة جسور عند باب الشعير وقد

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٤١ — ٢٨٤ •
(٢) حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ٣٥٧ •
(٣) عبد الجبار الجومرد : هارون ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، ١٨٦ •
(٤) اليعقوبى : ص ٢٧٤ — ٢٧٥ •
(٥) ابن حوقل : ص ٣١٢ •

بنى عام ١٥٧ هـ عندما بنى المنصور قصره المعروف بقصر الخلد كما بنى ثلاثة جسور أخرى ، وبنى الرشيد جسرين عند باب الشماسية (١) . كما بنيت الحمامات ، وكان في الجانب الشرقي من بغداد خمسة آلاف حمام وكانت هذه الحمامات من اهم المؤسسات المدنية ، وقد ذكر المقريزي أنه كان بالفسطاط وحدها ألف ومائة وسبعون حماما . وفي داخل هذه المدن الكبيرة كان لابد أن تدبر وسائل الانتقال . وكانت الوسيلة التي تستخدمها الطبقة الوسطى هي كراء الحمير . وكان الحمارون يقفون بحميرهم في بغداد عند باب الكرخ (٢) . ويبدو أن هذه الظاهرة شاعت في المدن الكبرى كلها ، فقد كان بالفسطاط موقف لاكتراء الحمير بالقرب من دار الحرم .

وقد وضحت الشخصية الادارية للمدن فمدن خراسان مثلا كان يتولى أمورها القاضي وصاحب البريد وصاحب المعونة (٣) . وكان القسم الشرقي من بغداد يدبره الخليفة مباشرة ، أما القسم الغربي فقد ضم الى أعمال بادورايا . وكان ثمة تنظيم شعبي الى جانب هذا التنظيم الرسمي وضح على الخصوص في بغداد ويبدو أنه عمم في كثير من البلاد ذلك أن بغداد قسمت الى أرباض وقسمت الأرباض الى أرباع وقلد كل ربع لرجل من الحاشية يتولى أمره . وكان لكل ربض رئيس وقائد (٤) .

ويمكننا أن نعطي في ايجاز صورة لما كان يجري في الريف من تطورات اجتماعية ، فقد تحرر الفلاح المسلم وارتفع مستواه الاقتصادي والاجتماعي ، كما انتشرت الاقطاعات الكبيرة التي يديرها العمال والوكلاء

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١١٥ — ١١٦ .
(٢) الجاحظ . البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣١ .
(٣) ابن حوقل : ص ٣٠٩ .
(٤) اليعقوبي : ص ٢٤٠ .

على أساس نظام المقاسمة • ولكن المشكلة الاجتماعية التى كانت ماثلة فى الريف فى العصر العباسى الأول هى مشكلة الهجرة المطردة الى المدن الكبرى • وقد أدى هذا الى نقص فى الأيدى العاملة وارتفاع فى مستوى الأجور ، ولعل ذلك هو الذى حدا بالعباسيين وأصحاب الاقطاعات الكبيرة فى جنوب العراق الى استخدام الرقيق فى الأعمال الزراعية ، ومن ثم نشأت مشكلة الزنج المشهورة • هذا الى ما كان من استقرار العرب واصهارهم الى أهل البلاد واقامتهم فى الريف واشتغالهم بالزراعة •

الفصل الخامس

اهم الاتجاهات الثقافية والفكرية
فى العصر العباسى الاول

ان تأثير الثورة العباسية وأحداث العصر العباسى الأول لم يقتصر على المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية فحسب ، انما تعداها الى الناحية الثقافية والفكرية • وأعتقد أن هذه الناحية فقط هى التى تحتاج الى التوضيح دون أن نخوض فى تفاصيل كثيرة عن الحياة الثقافية فى العصر العباسى الأول •

وأعتقد أن ثمة عوامل مهمة وضحت بعد نجاح الثورة العباسية واستمرت طوال العصر العباسى الأول ، وأن هذه العوامل ساعدت على أن تهيىء الظروف لانطلاقة ثقافيه وفكرية ستبلغ الذروة فى القرنين الرابع والخامس الهجرى •

من أهم هذه العوامل ما سبق أن وضحناه من أن الثورة العباسية واكبت حركة اسلامية ضخمة بين جماهير الموالى من الايرانيين ، وأنها حررت جماهير المسلمين منهم وأسقطت الحواجز والقيود التى كانت تقف فى طريق مشاركتهم فى الحياة السياسية • وقد رأينا كيف انطلقت طاقة الموالى مؤثرة فى المجال السياسى حتى سيطرت على أجهزة الحكم كلها فى العصر العباسى الأول ، وهذه الطاقة المتدفقة لم تقتصر على الناحية السياسية انما اندفعت الى المجال الاقتصادى وتعدته الى المجال الثقافى ، وأعطى الموالى الايرانيون الثقافة العربية عقولهم وتجاربهم ، وبرزوا فى مجال الفكر كما برزوا فى مجال السياسة والاقتصاد ، وعمت مآثرهم الفكرية العالم الاسلامى كله بنفس الوسيلة التى انتشر بها الطراز العباسى فى الفن أو الأسلوب الفارسى فى الحياة الاجتماعيه •

كان الايرانيون هؤلاء طليعة حركة الترجمة من الفارسية الى العربية وقد أشار صاحب الفهرست الى أسماء النقله من الفارسية الى العربية(١) وذكر منهم : عبد الله بن المقفع . وآل نوبخت ، وموسى ويوسف ابني خاله ، وأبا الحسن على بن زياد التميمى ، والحسن بن سهل ، والبلاذرى ، وجبلة بن سالم ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم البرمكى : وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى الكردى ، وزادويه بن هاشويه الأصفهانى ، ومحمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى ، وبهرام بن مردان شاه ، وعمر بن الفرخان . فأثروا التجربة العربية وغذوها بفكرهم القديم .

وكان هؤلاء الايرانيون الصاعدون الى النفوذ والسلطان المنطلقون في غير ما قيد قد أتقنوا اللغة العربية الى جانب اتقانهم لغتهم الفارسية فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية وتثقفوا منها ، وأخرجوا باللغة العربية أدبا وشعرا وعلما ، وأنتجوا فى العربية انتاجا جديدا ، كالفضل بن سهل وسهل بن هارون وابن المقفع . وكان موسى بن سيار الأسوارى أنموذجا طيبا لهذا الجيل الجديد من المثقفين الذين ملكوا عنان العربية والفارسية. قال الجاحظ أنه كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية وللفرس بالفارسية (٢) . بل كان للفارسية من الجذب الثقافى ما حبب فيها بعض العرب الخلص ، فقد أقبل قوم منهم عليها ووجدوا فيها من الغذاء الفكرى ما لم يجدوه فى العربية ، فقرأوا ما كتب بها وتدارسوه وأخرجوا أدبا عربيا جمع بين بلاغة العرب ومعانى الفرس . من أمثلة هؤلاء كلثوم بن عمرو بن أيوب الشاعر المعروف بالعتابى الذى تثقف بالثقافة الفارسية وأعجب بها ، وله حكم تقرب من حكم ابن

(١) ابن النديم : ص ٢٤٤ وما بعدها .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٣٩ .

المقفع . وقد أنتج الفرس الذين استعربوا والعرب الذين تعشقوا الفارسية ثروة عظيمة كانت من أهم ما تميز به العصر العباسى الأول . كان من الطبيعى أن يبرز الأثر الفارسى فى الأدب العربى بروزا واضحا . وكانت كتب الفرس التى ترجمت الى العربية ككليلة ودمنة وهزار أفسانة أساسا للقصص العربى الذى بنته الأجيال المتعاقبة . وابن النديم يضرب مثلا للقصص العربى وكيف استقى من منبع فارسى واضح ، بما فعله محمد ابن عبدوس الجهشيارى عندما شرع فى وضع كتاب تخير له ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، وجلس الى المسامرين يأخذ عنهم أحسن ما يقصون ، واختار الكثير من الكتب المصنفه فى الأسمار والخرافات . « واجتمع له من ذلك أربعمائه ليلة وثمانون ليلة . كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفسه من تتمة ألف سمر (١) » .

والحقيقة أنه لا يكفى أن نحصى التأثيرات العظيمة التى تركها الأدب الفارسى ، ويكفى أن نشير الى ما اشتهر به الفرس القدماء من أدب التوقيعات حينما كان الملوك يوقعون على شكاوى الناس بعبارة بليغة أو حكمة مفيدة يتخيرون لها اللفظ الحسن والمعنى الجيد . وقد أفاد العرب الشيء الكثير من توقيعات ملوك الفرس . وكثرت التوقيعات فى العصر العباسى ، وكان أكثر الكتاب فرسا فساروا على سنن آبائهم ، حتى لقد نشأ فيما بعد ديوان اسمه « ديوان التوقيع » . وما أكثر المعانى الفارسية التى نقلت ونظمت أو قلدت . وكانت هذه العناصر الايرانية التى أقبلت على ميادين المعرفة فى العصر العباسى الأول أقبالا منقطع النظير ، أقدر على التدوين والتأليف بسبب ميراثهم الحضارى القديم ، فلما تعلموا العربية كان تأليفهم بها سهلا ميسورا ، وأصبح كثيرون منهم من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة ، منهم أبو حنيفة النعمان

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٠٤ . احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

الفقيه ، وحماد الراوية • وبشار بن برد وسيبويه ، والكسائى ، وأبو عبيدة ، وأبو العتاهية ، وابن قتيبة • وكلهم كانوا فرسا أسهموا بالنصيب الأوفر فى تقديم الفكر العربى •

« اذ كانت الثقافة الفارسية عنصرا قوى الأثر فى ذلك العصر ، فى الشعر • فى الأدب • فى الحكم • فى القصص • فى الخرافات والأوهام • فى العادات والتقاليد • فى نظم الحكم • فى دعاة الاصلاح • فى رجال اللهو والغناء ، فى الديانات ومذاهب المتكلمين ، فى رجال العلم والتدوين (١) » أليس العصر العباسى الأول هو عصر تقدم العناصر الايرانية حتى فى مجال الثقافة والفكر •

ولا يمكن أن نغفل عاملا هاما كان له أثره الكبير فى التقدم الفكرى والثقافى الذى شهده العصر العباسى الأول • وأقصد به ما سبق أن أشرنا اليه من النجاح العظيم الذى أحرزته الدعوة الى الاسلام فى القرن الثالث الهجرى ، وكيف أن ذلك كان مصحوبا باسقاط العرب من الديوان وفقدانهم امتيازاتهم السياسية والعسكرية • واستقرارهم فى الريف واشتغال أغلبهم بالزراعة واختلاطهم بأهل البلاد • واذا كنا قد درسنا النتائج الاجتماعية لهذه الظواهر فى الفصل السابق فان الذى يعنينا هنا أن نعرض للنتائج الثقافية ، وأهم هذه النتائج امتزاج التقاليد الثقافية الموروثة للشعوب الاسلامية بالتقاليد الثقافية العربية • ومعنى هذا أن الحياة الفكرية قد شهدت عملية توليد وامتزاج أشبه بما أشرنا اليه فى الحياة الاجتماعية ، وتدفقت دماء جديدة الى تجربة العرب الثقافية لتكسبها القوة والحياة ، وما صحب ذلك من شيوع الثقافة العربية بين جماهير المسلمين • فلم تعد ثقافة الأرستقراطية العربية المنطوية على نفسها فى المدن والحواضر أو المرابطة فى الثغور ، وقطعت اللغة العربية أشواطا

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ١ ص ٢٢٨

بعيدة فى مجال التغلب اللغوى وأصبحت لغة الحديث والتخاطب لملايين المسلمين ، بل وجدت صفوة مثقفة من المسلمين من غير العرب أتقنت اللغة العربية حديثا وتأليفا ونظمت الشعر الجديد وكتبت الرسائل البليغة وشاركت فى حركة الترجمة وألفت فى الفقه وعلوم اللغه .

ومن الغريب أن تقع هذه التطورات الهامة فى وقت جنحت فيه الخلافة العباسية فى آخر عصر الرشيد الى النهج الفدرالى فى الحكم ، وحصلت الحكومات المحلية فى الأمصار على مزيد من السلطة ومزيد من الاستقلال ، وحصل الولاة على حريات فى العمل أكبر مما كان لهم من قبل ، وظهر رأى عام من المسلمين أهل البلاد فوى مؤثر يتضاعف قوة وتأثيرا باطراد الداخلين فى الاسلام ؛ بل أقام العباسيون الامارات المستقلة برضاهم فظهر الأغالبة فى تونس والطاهريون فى خراسان ، ونشأ بلاط اقليمى متشبها ببلاط الخلافة تشتد جاذبيته للعناصر المثقفه بالتدريج .

ومعنى هذا كله أن المدارس الاقليمية — مدارس الأمصار — بدأ قدمها يرسخ انتاجا وتفوقا ونجمها يعلو ، وظهرت مراكز للعلم والثقافة الى جانب الحاضرة ، ولا أقول انها كانت من نفس المستوى انما كانت جذورها تتمكن بالتدريج واشعاعها الفكرى تتسع دائرته حتى يأتى يوم تضعف فيه الخلافة وتضطرب أمور الحاضرة ، وتميل كفة الأمصار وتزهو باماراتها المستقلة ومدارسها المتفوقة .

اذن شهد العصر العباسى الأول رسوخ قدم الثقافة العربية فى الأمصار بسبب انتشار الاسلام واستقرار العرب ونمو السلطان السياسى للامصار ، وهذه بحق ظاهرة مهمة تستلفت النظر وتستحق الدراسة فقد كانت ارهاصا للانطلاقة الكبرى للأمصار فى القرنين الرابع والخامس . ويكفى أن نضرب مثلا بمدرستين عظيمتين ظهر أثرهما فى آخر العصر العباسى الأول وهما مدرسة القيروان ومدرسة الفسطاط .

فالأغالبة يرجع اليهم الفضل فى نمــو مدرسة القيروان وازدهارها والمؤرخون يذكرون كيف أنشــأوا بمساجد القيروان حلقات للتــدريس كما أنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم «دور الحكمة» وجلبوا لها الأساتذة من الشرق • فكانت هذه المدارس وما اقترن به انشــاؤها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملا هاما فى رفع شأن لغة العرب وثقافاتهم • والتطور الهام الذى شهدته أفريقيه فى عهد الأغالبة هو انتشار مذهب مالك من مدرسة القيروان وغلبته على القسم الغربى من العالم الاسلامى • ومذهب مالك فى الحقيقة انتشر فى أفريقية قبل الأغالبة • غير أن عصرهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره • وقد وفد المذهب قادما من مصر كما وفدت المذاهب الاسلامية الأخرى، ورحل كثيرون من فقهاء المغرب الى مصر والحجاز طلبا للمزيد من فقه عالم دار الهجرة (١) ثم عادوا الى بلادهم متأثرين بما سمعوا ، ثم جاء أسد بن الفرات فقيــه القيروان (٢) ورحل الى مصر وسمع من على بن القاســم امام المــالكية فى مصر فتأثر به ودون خلاصة مشاهداته فى كتاب مشهور فى تاريخ الفقه فى المغرب اسمه « الأســدية » ، ويبدو أن ما ســمعه الأفريقيون من علمائهم الراحلين الى مصر أو ما سمعوه من دروس أســد ابن الفرات حببهم فى هذا المذهب فاشتد اقبالهم عليه • وهذه الرغبة فى الاستزادة من علم مالك دفعت سحنون بن ســعيد الى الرحلة الى مصر أيضا ليسمع من على بن القاسم . وأقام بالفسطاط زمنا ثم عاد لبلده ، وجمع خلاصة دراساته وقراءاته المــالكية فى أول كتاب ظهر فى فقه مالك غير الموطأ وأســماه « المدونة » ويرجع الى تحمس سحنون الغريب الى مذهب مالك الفضل فى دخول النــاس فيه جماعات ، وطار صــيته الى الأندلس ، فجاءه علماء قرطبة يسمعون منه ، وبدأ مذهب مالك منذ ذلك الوقت يدخل بلاد الأندلس وينتشر فيها •

---

(١) الدباغ : معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ٥٢ •
(٢) المــالكى : رياض النفوس ص ١٨٤ •

وكان مذهب أبى حنيفة قد وفد الى أفريقية بقيام الدولة العباسية فلم يلق اقبالا اقبالا اعتماده على الحديث وميله للرأى والاجتهاد (١) ، ولكن مذهب مالك فى عهد سحنون بدأ يتغلب على مذهب أبى حنيفة وبدأ المالكية يغلبون على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها .

وتمكنت تقاليد المالكية من نفوس المغاربة بفضل مدرسة القيروان وقد وقفوا للمذاهب الأخرى بالمرصاد ، فلما انتشرت بافريقية محنة خلق القرآن وآراء المعتزلة وقف المالكية متمسكين بالكتاب والسنة ، حتى هزموا المعتزلة فلم يبق لهم رأى ولا أتباع ، ولم يجد الأمراء مفرا من النزول على رأى المالكية (٢) .

انتصر المالكية انتصارا عظيما فى عهد الأغالبة وكانت مقاطعتهم للأمراء ، وعدم السير فى ركابهم وأخذهم بالبأس والشدة أمرا محببا الى المغاربة الذين عرفوا بالنزعة الاستقلالية ، وأصبح فقهاء المالكية فى نظرهم الزعماء المعارضين للحكام والمدافعين عن الضعفاء .

ولم تقفر مدارس أفريقية من ألوان الثقافة العربية الأخرى ، فكانت جميع العلوم الاسلامية تلقى فى مدارس القيروان ، لكن المغاربة غلبت عليهم النزعة المالكية فجعلتهم لا يعرفون من الدراسات الاسلامية غير ما يتصل بها .

واستطاعت مدرسة القيروان أن تبسط نفوذها على المغرب كله ، بل امتد هذا النفوذ الى صقلية والأندلس . والذى يطلع على طبقات فقهاء القيروان وطبقات فقهاء الأندلس وصقلية يدرك هذه الأعماق البعيدة التى انتهت اليها هذه المدرسة الاقليمية التى برزت فى الغرب الاسلامى فى العصر العباسى الأول .

---

(١) المالكى : رياض النفوس ، ص ١٦٠ .
(٢) الدباغ : معالم الايمان ، ج ١ ، ص ٢٢ .

ولم تكن مدرسة الفسطاط بأقل أهمية أو أضأل أثرا من مدرسة القيروان ، فقد كانت فى آخر العصر العباسى الأول تزداد رسوخا وتقدما ربما لا يلحظه من يعيش فى بغداد حيث المستوى الثقافى الرفيع • وسيأتى وقت تقف فيه من مدارس العراق على قدم المساواة ، ثم يكتب لهـا التفوق فى عصر ضعف الخلافة العباسية فى بغداد وفى ظل الامارات المستقلة التى ظهرت فى مصر • وبدأت مدرسة الفسطاط تتخذ طابعا دينيا واضحا وظهرت بها علوم القراءات ، وقد بدأت هـذه العلوم بدروس ألقاها أبوأمية المعافرى الصحابى ثم توطن هذا العلم بالفسطاط وبرع فيه ورش (١) ونافع • وقد رسخت قدم الفسطاط فى علوم الفقه والحديث وذاعت شهرتها وارتحل اليها الناس طلبا للحديث • ويكفى أن نذكر أن البخارى نقل فى تفسيره وتاريخه كثيرا عن الصحيفة المصرية فى التفسير، وأن الطبرى نقل الشطر الأكبر منها فى تفسيره • والصحيفة المصرية أشاد بها عدد من العلماء ، فقال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده « بمصر صحيفة فى التفسير ولو رحل رجل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا » وقد وفد النسائى مؤلف أحد الصحاح الستة فى الحديث على مصر ليرد مورد الفسطاط ويقرأ صحيفتها ويلتقى بمحدثيها (٢) • وقد نقل الوافدون الى مصر روايات المصريين أمثال خالد بن حميد الاسكندرانى (١٦٩ هـ) وخلاد بن سليمان الحضرى (المتوفى سنة ١٧٨ هـ) وعبد الله بن وهيب صاحب كتاب الجامع فى الحديث والذى يقال أنه روى عن أربعمائة من الشيوخ وأنه أكثر من رواية الحديث ، وروى الموطأ • وشاعت فى الفسطاط كتابة الأحاديث وقراءتها وتدوينها ، ومن العلماء الذين كان لهم شأن بمصر الليث بن سعد الذى ولد فى قرية قلقشندة من قرى مصر سنة ٩٤ هـ وتلقى تعليمه على شيوخ مصر وأشهرهم يزيد بن حبيب ،

(١) هو عثمان بن سعيد المعروف بورش من أصل قبطى وهو مولى آل الزبير بن العوام اشتهر باحدى القراءات المنسوبة اليه .. وانتهت اليه رياسة الاقراء بالديار المصرية فى زمانه وكان ماهرا فى العربية ومات بمصر سنة ١٩٧ هـ . السيوطى حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

(٢) حسن احمد محمود : الكندى المورخ ، ص ٣٤ .

ثم رحل الى الحجاز وسمع من شيوخها أمثال عطاء بن أبى رباح ونافع مولى ابن عمر وهشام بن عروة ثم رحل الى العراق وسمع من علمائه : وكان علما فى علوم القرآن والنحو والحديث والشعر وقد وثق المحدثون بحديثه كل الثقة ، وروت عنه كل كتب السنة الصحيحة ، فقال فيه أحمد بن حنبل « ما فى هؤلاء المصريين أثبت من الليث ـ ما أصح حديثه » . وبلغ من رسوخ قدمه فى الفقه أن قرن بمالك ، قال الشافعى « الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » وفى رواية « ضيعه قومه » وفى أخرى « ضيعه أصحابه » ويبدو أن السبب فى ذلك أنه لم يدون مذهبه فى كتب ولم يكن له مثل ما كان لأبى حنيفة والشافعى من أصحاب وتلاميذ . ووفد الامام الشافعى على مصر وأقام بها واجتمع به المصريون . وكان للخلاف فى الرأى والمناظرات الشهيرة التى قامت بين المالكية والشافعية أثر ملحوظ فى نهضة العلوم الدينية فى البلاد ، اذ أخذ كل فريق يؤيد وجهة نظره بالآيات والأحاديث ويناضل عن رأيه ويعتز به . وتفوقت الدراسات اللغوية فى القرن الثانى وبرز عدد كبير من علماء مصر . وقد أذاع النحوى الشهير « ولاد » شهرة هذه الدراسات فرحل اليه كثيرون من علماء العراق . وكما عرفت مدرسة الفسطاط الدراسات الفقهية واللغوية شهدت نمو علم التاريخ ، يدل على ذلك رواية الكندى فى كتابه الولاة والقضاة ، ثم ابن عبد الحكم القرشى صاحب كتاب فتوح مصر . وأشار الكندى (١) الى جذور المدرسة المصرية فى الشعر فيعطينا أمثلة لشعر قاله قوم لم يفرغوا للشعر ، وان كانوا قد أظهروا بعض المهارة فيه كالولاة والقضاة ، كما ينخير أبياتا قالها شعراء لم يكن لهم اتصال وثيق بمصر ، كما يستشهد بأبيات من نحو خمسين قصيدة ، ويشير الى شعراء مثل سعيد بن عفير والمعلى الطائى وأبو تمام والحسين بن عبد السلام وغيرهم (٢) .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، صفحات ١٨ — ٢٥ — ٢٦ — ٤٢ — ٤٣ — ، ١٦٠ — ١٧٠ .

(٢) حسن احمد محمود : الكندى المؤرخ ، ص ٤٠ ، ٤١ .

وقد تكونت فى بلاد الشام مدرسة لا تقل عمقا أو انتاجا عن مدرسة القيروان أو مصر . وضعت جذورها منذ هجرة الصحابة اليها واقامتهم بها . واتخذوا مسجد دمشق مقرا لنشاطهم العلمى . ومن هؤلاء معاذ بن جبل وأبو الدرداء الأنصارى ، ثم رحل التابعون الى بلاد الشام وقطعت مدرسة الشام شوطا كبيرا فى طريق النمو فى العصر الأموى ، وتألقت كثيرا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فلما قامت الدولة العباسية كانت هذه المدرسة راسخة الجذور . ويكفى أن من أعلامها فى ذلك الوقت عبد الرحمن بن عمر الأوزاعى الذى ولد ببعلبك سنة ٨٨ هـ ورحل الى اليمامة وسمع من شيوخها ورحل الى مكة والبصرة ثم نزل دمشق وبيروت ومات بها سنة ١٥٧هـ ، وقد تلقى المنصور ببلاد الشام ووعظه (١) ، وكان له فى الفقه مذهب كمذهب مالك وأبى حنيفة ، وكان أكثر ميلا الى مدرسة الحديث منه الى مدرسة الرأى ، فقد أثرت عنه أقوال فى ذم أهل العراق ورأيهم . وكان أشد الناس كرها للكلام فى القدر وصفات الله ، ويعد ذلك من البدع . وقد انتشر مذهبه فى بلاد الشام حينا وحمله مهاجرة العرب الى الأندلس الى أن غلب على هذه البلاد مذهب مالك .

وعلى الرغم من تحول زعامة الشعر من الشام الى العراق بعد سقوط الدولة الأموية الا أن الشعر فى بلاد الشام بقى راسخ القدم . والثعالبى فى اليتيمة يشير الى العتابى ومنصور النمرى والأشجع السلمى ومحمد بن زرعة الدمشقى وربيعة الرقى ثم الى الطائيين أبى تمام والبحترى .

كما ظهرت بواكير مدرسة حلب والموصل التى انطلقت فى عهد سيف الدولة الحمدانى . ولا شك أن ظهور ابن نباتة ومعلمه ابن خالويه والصنوبرى والمتنبى والسلامى والوأواء الدمشقى والببغاء ، والنامى

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

وابن نباته السعدى ممن تألقوا فى بلاط سيف الدولة كانوا انطلاقة لجذور قديمة أينعت فى حلب والموصل فى آخر العصر العباسى الأول(١).

ولم تفتر النهضة الفكرية التى انبعثت فى الحجاز فى العصر الأموى، انما ظلت الحركة العلمية فى مكة والمدينة فى العصر العباسى لم تفقد علو كعبها فى الحديث والفقه المعتمد على الكتاب والسنة . ومن أشهر العلماء الحجازيين فى العصر العباسى الأول عبد الملك بن أبى جريج ، وكان علما من أعلام مدرسة مكة ، وقد تلقى عنه الأوزاعى وسفيان الثورى ابن عيينة وكثيرون ومات سنة ١٥٠هـ ، ثم سفيان بن عيينة وكان من أشهر المحدثين انتقل الى مكة ومات بها سنة ١٩٨ هـ وقد أخذ عنه الشافعى وأحمد بن حنبل ومحمد بن اسحق ويحيى بن أكثم . ثم الفضل ابن عياض من مشاهير الزهاد رحل الى الكوفة ثم الى مكة وكان يلقب بشيخ الحرم ومات سنة ١٨٧ هـ .

وكان بالمدينة محمد بن عمر الواقدى شيخ المؤرخين « العالم بالمغازى والسيرة والفتوح واختلاف الناس فى الحديث والأحكام » وقد اتصل به الرشيد عندما حج الى مكة ليتعرف على المشاهد الاسلامية ثم اتصل بالبرامكة ورحل الى العراق . على كل حال لم تفقد مدرسة الحجاز فى العصر العباسى الأول مكانتها المتفوقة فى الفقه والحديث وما يتصل بهما من أخبار وسير .

وكان ظهور المدارس الاقليمية على النحو الذى ذكرت ظاهرة غلبت على الحياة الاسلامية كلها فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، ففى ظل الطاهريين أينعت الحركة الثقافية فى مرو ونيسابور وأصبحت المدينة الأخيرة من أهم المراكز الثقافية فى المشرق الاسلامى كله .

واذا أردنا أن نضيف الى ما تقدم من عوامل مؤثرة فى النهضة

---

(١) مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص ١١١.

الفكرية فى العصر العباسى الأول ، فاننا نضيف ما حققه ذلك العصر من مظاهر الاستقرار الاجتماعى بقضائه على الفتن والثورات وتمكينه للبرجوازية التى صنعت الثورة ، ومن فتحه الأفاق أمام الطبقة العاملة لمزيد من التحرر ، وما صحب انطلاقة العصر الخلاق وقصور الوزراء والأمراء والقادة وكثرة المهاجرين الى المدن وما شهدته من ألوان اجتماعية جديدة . وليس أشد تأثيرا فى الانتاج الأدبى من الاستقرار الاجتماعى ، فانه يتيح للضمائر الأدبية أن تنضج فى أناة وأن تتفتح أزهارها فى جو مشمس حافل بالوان الاستقرار ، وشعر العصر العباسى الأول مرآة صادقة لحياة اجتماعية مستقرة مترفة الى أبعد الحدود .

ويمكن أن نضيف الى ذلك ما كان من تطورات اقتصادية سبق أن أشرنا اليها من قبل من تحرر العمال والفلاحين ودخولهم معركة الانتاج ، وما كان من اصلاح الأرض وزيادة الدخل ، وتطور التجارة الدولية وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة ، والثروات الطائلة التى امتلكها الخلفاء ومن أحاط بهم من وزراء وأمراء وقواد وذوى نفوذ ووجاهة ، وكان الخلفاء ينفقون فى سخاء وبذخ ويصلون الشعراء بصلات عظيمة(١) ويشجعون أهل الفكر والثقافة ، والثقافة العربية ترتبط الى حد كبير بتشجيع أمير أو خليفة أو وزير ينفق بسخاء على المجودين من الشعراء وكأن هذه القصور قد تحولت الى أسواق للشعر الجيد .

وقد ترك ما ظهر فى المدن الكبرى عامة وفى بغداد خاصة من ثروات طائلة ، وبون شاسع بين الغنى المفرط للطبقة الممتازة وبين الحياة القاسية الشاقة للطبقة العاملة الكادحة ، أثره فى أدب ذلك العصر ، فقد ظهر تياران متناقضان كل التناقض ، تيار يمثل الاغراق فى الترف الى أبعد

---

(١) كان الرشيد واسع العطاء كثير السخاء يهتف به الشاعر فيستجيب ويفيض جوده حتى يصل به الى حد السرف . وقف رجل من أمية فى طريق الرشيد ومعه كتاب وفيه قصيدة من اربعة ابيات فأمر له عن كل بيت الف دينار وقال : لو زدتنا لزدناك . الجهشيارى ، ص ١٧ .

الحـدود وفى المجو ، الى أبعد الحـدود ، والدعوة الى حياة مبتذلة متهتكة تزعمه بشار بن برد الذى كان امام المجان الذى فتح لهم باب التهتك على مصراعيه ، وانتشر شعره فى العراق كله فلا غزل الا ويروى شعره ويأتيه النساء فى بيته فيأخذ ن عنه شعره ، وكان واصل بن عطـاء يقول عنه « ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد (١) » . وكان بشـار نفسـه يقول « عسر النسـاء الى مياسرة ، فيشجع الفتيان على الامعان فى المغازلة والالحاح فى الطلب » . فلما فتح هذا الباب ولج فيه من أتى على أثره سواء فى ذلك العربى والعجمى، كمطيع بن اياس وأبى نواس ، واشتهر أبو نواس بمنادمته الأمين ، ويمتاز بخمرياته وغزله ومجونه ، فهو بحق شاعر الخمـر والتهتك والعبث ، وكان غزله وكانت خمرياته مرآة صادقة تعكس الحياة الاجتماعية المترفة التى شاعت فى بغداد اذ ذاك . وظهر تيار آخر لايريد أن يستسلم لهذا اللهو الجارف انما يقاومه ما وسعته الحيلة ، فظهرت الدعوة الى مزيد من الزهد ومزيد من التقشـف. وقد تزعم هـذا التيار المتزهد المتقشـف أبو العتاهية الذى كان شعره تعبيرا عن آلام الطبقات الكادحة يسـيغه جمهور الناس ويمجه أثرياؤهم ومترفوهم . قال المبرد « كان يخـرج القول منه كمخرج النفس قوة وسـهولة واقتدارا » وكان شعره يمتاز بصبغة علمية دينية فلسفية ، وشايعه فى ذلك ابن عبد القدوس .

ومن الظواهر البارزة حقا فى تاريخ الحيـاة العقلية فى العصر العباسى تطور الحركة التعليمية وشمولها واتسـاع نطاقها بكثرة الاقبال عليها ، ولعل مما ساعد على ذلك أمور معينة نجملها فيما يلى :

ان المساجد فى الحواضر الكبرى عامة وفى بغداد خاصة تطورت وظيفتها التعليمية فى العصر العباسى الأول . حكى ياقوت عن الأخفش قوله « وردت بغـداد فرأيت مسجد الكسائى فصـليت خلفه الغداة

---

(١) الأغانى : ج ٧ ، ص ٤١ .

لما انفتل من صلاته ، وقعد بين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان ، سلمت وسألته عن مائة مسألة فأجاب بجوابات خطأته في جميعها » . وكان المعتزلة يعلمون الكلام فى مسجد المنصور ببغداد . بل عقدت بالمساجد حلقات للشعر والأدب فقد رحل الطبرى الى مصر وأملى فى مسجد عمرو شعر الطرماح عند بيت المال فى المسجد الجامع (١). وكان الكميت بن زيد وحماد الراوية يجتمعان فى مسجد الكوفة ويتذاكران أشعار العرب وأيامهم . وكان مسلم بن الوليد يملى شعره فى المسجد الجامع ، كما كان الناس يتناظرون فى الشعر فى المساجد (٢) . وروى أن أبا العتاهية كان يجلس فى المسجد وحوله الناس ، كما روى أبو محمد اليزدى أن أبا عبيدة كان يجلس فى مساجد البصرة الى سارية « وكنت أنا وخلف الأحمر نجلس جميعا الى أخرى »(٣) . فكأن المساجد لم تعد أماكن لتدريس الفقه والحديث فحسب بل دخلتها علوم المعتزلة وعلوم الآداب واللغة . وكان العلماء المنصرفون الى التدريس بهذه المساجد ينالون من عناية الخلفاء والأمراء والأثرياء الشيء الكثير . وكانوا يتخذونهم لأولادهم معلمين ومؤدبين . فالمنصور اختار شرقى ابن القضامى معلما للمهدى ، والمفضل الضبى كان يؤدب المهدى ، والكسائى اختير لتعليم الأمين ، وأبو محمد يحيى بن المغيرة اليزيدى كان يعلم المأمون . والفراء كان يؤدب أبناء المأمون ، وكان ابن السكيت يعلم أبناء طاهر . يضاف الى هذا كله انتشار مجالس المناظرة فى الدور والقصور والمساجد بين العلماء وفى حضرة الخلفاء ، فى الفقه والنحو والصرف واللغة والمسائل الدينية . وكان يشد من أزر هذه المناظرات الشغف بالعلم وعطايا الخلفاء والأمراء ويشتركون فى الرأى يؤيدون البعض ويفندون البعض . وكان العلماء يستعدون للمناظرة ويتسلحون لها رغبة فى الشهرة وذيوع الصيت . وكانت تذكيها المنافسة الحادة بين الآراء والمدارس . وقد شهدت

---

(١) ياقوت : معجم الادباء ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .

(٢) الاغانى : ج ١٥ ، ص ١١٣ .

(٣) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

بغداد على نحو خاص مناظرات فى النحو والصرف واللغة . مثل ما كان يجرى ما بين سيبويه والكسائى فى مجلس يحيى البرمكى . وما كان بين الكسائى واليزيدى فى حضرة المهدى ، ثم الكسائى والأصمعى أمام الرشيد ، وما روى من محاورة أبى العباس أحمد بن يحيى مع ابن الأعرابى فى مجلس الأمير ابن سعيد ، كما تناظر أبو العباس ثعلب مع المبرد فى حضرة محمد بن عبد الله بن طاهر . ومن أشهرها جميعا مناظرات المأمون الذى كان يرى أن تثار بين يديه المسائل الدينية المختلفة ، فيسمع من كل رأيه وحجته ، ثم يفصل فى أوجه الخلاف على ضوء هذه الحجج . وقد صحب هذا كله ، امعانا فى شد أزر الحركة التعليمية ، انشاء المكتبات واقتناء الكتب ووضعها فى متناول كل طالب للاستزادة من العلم . وكانت أكبر مكتبات بغداد خزانة الحكمة ، وكانت فى عهد المأمون تتألف من خزانتين خزانة الرشيد وخزانة المأمون (١) . وكانت هذه المكتبة تتولى نسخ الكتب ثم ترجمتها الى العربية ، وكان بها رئيس للمترجمين ومساعدون ومدير وأعوان وكان فيها مجلدون أيضا(٢) . وقلد الخلفاء والأمراء أثرياء العلماء والأدباء فكانت لهم مكتبات خاصة عظيمة ، روى ثعلب أنه رأى لاسحاق الموصلى ألف جزء من لغات العرب ، وكذلك كان للكندى الفيلسوف مكتبته الخاصة العظيمة التى سميت بالمكتبة الكندية (٣) .

وكان التعليم حرا لا تنفق عليه الدولة من مالها ، وليس فى ميزانيتها باب خاص بالتعليم ، اللهم الا ما يمنحه الخلفاء والأمراء والأثرياء لمن اتصل بهم من العلماء ، ولم تكن الدولة تتدخل فى وضع منهاج معين أو مراقبة معلم الا من انحراف نحو الزندقة (٤) . ومما ساعد على شيوع الثقافة وذيوعها وتوغل الحركة التعليمية الى أدنى طبقات المجتمع أن باب العلم

(١) الفهرست ص ١٩٠ .
(٢) نفس المصدر ص ١٠ .
(٣) ابن ابى اصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٧ ، ص ١٢٠ .
(٤) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧ .

كان مفتوحا للراغب فيه دون أى قيد أو شرط ، حتى لمن استطاع أهله أن يدبروا النفقات الضئيلة أو استطاع الطالب أن يدبر ما يقتات منه • ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من الطبقات الفقيرة كأبى العتاهية الذى كان خزافا وأبى تمام الذى كان يسقى بالجرة ، وأبى يوسف القاضى الذى كان يعمل قصارا •

ومما ساعد على نمو الحركة التعليمية وذيوعها أيضا وامتدادها الى أبعد الحواضر ماكان من رحلة العلماء بين مشرق العالم الاسلامى ومغربه• ولا شك أن الأمن الموفور والمستوى المعاشى المرتفع والتشجيع الكبير الذى يظفر به الرحالون من الولاة وسراة الناس كان له أثره العظيم فى اشتداد الرحلة الى الأمصار ، وقد رحل علماء اللغة الى البادية يقيدون اللغة والأدب ، ورحل علماء الحديث ، بل امتدت الرحلات الى بلاد الروم فأرسل المأمون بعثة الى القسطنطينية لاحضار الكتب ، ورحل حنين ابن اسحق الى بلاد الروم ليتمكن من اللغة اليونانية •

ومن الظواهر التى تستحق التسجيل أن العصر العباسى الأول ونهاية القرن الثالث الهجرى شهد تدوين التراث العربى كله شعره ونثره • فكان هذا العمل الجليل من أهم المنجزات الثقافية فى تاريخ الفكر العربى ،وفى الحق لا نريد أن نمر بهذه الظاهرة مرورا عابرا انما ينبغى أن نقف عندها ونسأل عن الدوافع التى أدت الى مثل هذا الحدث الفكرى ثم نتحدث عن تفاصيله مشيرين الى نتائجه •

فالطاقات الجديدة التى دخلت فى الاسلام واستعربت ، والملايين المتعطشة الى المعرفة لم يكن من المعقول أن تقنع بالتراث الذى يحتكر روايته شفاها جماعة من الحفاظ انما كانوا فى حاجة الى أن يجدوا بين أيديهم التراث كله مجموعا ليكون غذاء لروحهم ووقودا لنهضتهم • كما أن النظرة العلمية الجادة التى جاءت نتيجة للاحتكاك بالفكر القديم

والهللينى بوجه خاص وتتيجة لاسلام الموالى واستعرابهم لم يكن من المعقول أن تنظر نظرة الاعتبار الى التراث المروى مشافهة ، انما كانت فى حاجة الى متون بين أيديها تقتلها درسا وبحثا • وثمة اعتبار آخر نبع من المفكرين العرب أنفسهم الغيورين على تراثهم الفكرى ، وهو خوفهم من أن تمتد الى هـذا التراث غير المكتوب يد الوضع والانتحال والتزييف بسبب الاعتبارات التى استجدت على الحياة العربية فى القرن الثـانى الهجرى ، كالشعوبيين الذين كانوا ينالون من الثقافة العربية ويزرون بكل ما هو عربى • وكان العرب فى حاجة الى مواجهة هذه الحركة ببعث أمجاد العرب القديمة والتاريخ المـاضى العربى ، كما أن الفرق الدينية والتيارات السياسية المتضـاربة كانت تمتد الى التراث العربى لتلتمس منه ما يؤيد وجهة نظرها ويكسب نشـاطها طابعا مشروعا • ومن غريب الاتفاق أن تواكب هذه الحركة التدوينية الكبرى نشاط صناعة الورق وكثرتها فى العصر العباسى • وقد نشطت صنعة الوراقة وهى صناعة كان يقوم أصحابها بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها ، وانتشرت دكاكين الوراقين وكانت مصدرا من مصادر انتشار الثقافة فى الأمصار • وكان المتعلمون يذهبون الى دكاكين الوراقين يطالعون فيها الكتب ، وكان الجاحظ يؤجر دكاكين الوراقين ويبيت فيها للمطالعة (١) •

امتدت حركة التدوين الى ميدان اللغة والأدب فاتجه الدارسون الى اللغة يجمعون الكلمات التى نطق بها العرب • وكان علماء اللغة من بصريين وكوفيين يتسـابقون فى الرحلة الى البادية والأخذ عن العرب • وقد اشتهر بالرحلة أبو زيد الأنصارى وأبو عمرو بن العلاء والأصـمعى والكسـائى • وأبوزيد يقول فى مقدمة كتابه النوادر « ما كان فيه من شعر القصيدة فهو سماعى من المفضـل بن محمد الضبى ، وما كان من اللغـات وأبواب الرجز فذلك سماعى من العرب » وسأل الكسـائى الخليل بن أحمد : من أين علمك هذا ؟ قال من بوادى الحجاز ونجد وتهامة

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٥٦ .

وخرج الكسائى فى طلب اللغة حتى قيل انه استنفد خمس عشرة قنينة حبر سوى ما حفظه . وبعضهم كانوا يخرجون الى البادية ويمضون الأعوام فيها يخالطون الأعراب ويسجلون عنهم . قال أبو عمرو بن العلاء ان كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف(١) . وكان كثيرون من الاعراب يفدون على مدن العراق ليأخذ العلماء عنهم اللغة . وقد أشار ابن النديم الى طائفة منهم أبو زياد الكلابى وأبو سوار الغنوى وثور بن يزيد وأبو خيرة العدوى وأبو مهدية وأبو ضمضم الكلابى (٢) . وقد اتصل بهم العلماء يأخذون عنهم . وبعض هؤلاء الأعراب كان يكتب ، فيؤلف كتبا كأبى زياد الكلابى الذى ألف كتاب النوادر وكتاب الفرق وكتاب الابل وكتاب خلق الانسان ومنهم من كان يعلم اللغة والنحو .

كما جمع الباحثون فى ألفاظ القرآن الكريم ومفرداته وكانت ألفاظه مادة كبيرة من مواد اللغة . وقد اجتهد العلماء فى تحديد معانيها وكانت حافزا على الرحلة لمعرفة مدلولها ، وجمعوا حول كل لفظة ما يتصل بها ، كما بحثوا عن الشعر الذى يستشهد به سواء كان جاهليا أم اسلاميا .

ولما تم لهم جمع ما أرادوا من ثروة لغوية عظيمة نهجوا نهج المحدثين ورتبوا درجات الأخذ ، فقالوا : أملى علينا ، أرفع منزلة من سمعت ، وسمعت أرفع درجة من حدثنى ، وحدثنى خير من أخبرنى وكانوا يذكرون السند ورتبوا ما ورد فى اللغة ترتيب أهل الحديث ، فمنها ما هو فصيح وأفصح وجيد وأجود . وكذلك تجريح الرجال وتعديلهم . وقد مر جمع اللغة بمراحل ثلاث : جمع الكلمات حيثما اتفق ثم جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد ، ثم وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص (٣) .

---

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .
(٢) الفهرست ، ص ٤٣ .
(٣) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

والعلماء الذين رحلوا الى البادية أو رحل الأعراب اليهم كانوا يزورون ديار القبائل ويأخذون عنهم شعر الشعراء . روى أن الشافعى كان يحفظ عشرة آلاف بيت من هذيل باعرابها وغريبها ومعانيها كما كان يحفظ شعر الشنفرى ويرويه ، ولم يكتفوا بذلك بل نقلوا القصص والخرافات والأيام (١) . وفى تدوينهم الأدب اتجهوا وجهة اخرى غير وجهة اللغة ففى اللغة مضوا فى الجمع والاستقصاء حتى استطاعوا عمل معجم شامل، أما فى الأدب فقد عمدوا الى الاختيار ولم يضعوا كتبا شاملة لكل ما روى من أدب القبائل بل عمدوا الى جمع المختارات . ومن أقدم ما وصل الينا فى ذلك العصر المفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب . ومن أقدم ما وصل الينا من الكتب التى جمعت بين مختار الشعر والنثر البيان والتبيين للجاحظ ، ثم الكامل للمبرد (٢) .

وتطرق التدوين الى ميدان الحديث ، وقد بدأت الخطوات الأولى لتدوين الحديث فى عهد عمر بن عبد العزيز . فقد روى أنه كتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو « أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الانصارية والقاسم ابن محمد بن أبى بكر .

وفى منتصف القرن الثانى الهجرى بدأ فعلا التأليف فى الحديث وانتشرت هذه النزعة فى الأمصار كلها . ففى مكة جمع الحديث ابن جريج (١٥٠ هـ) وفى المدينة محمد بن اسحق (١٥١ هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ) وبالبصرة الربيع بن صبيح (١٦٠) وبالكوفة ظهر سفيان الثورى (١٦١ هـ) وبالشام ظهر الأوزاعى (١٥٦ هـ) وباليمن معمر (١٥٣ هـ) وبخراسان ابن المبارك (١٨١ هـ) . وبمصر الليث بن سعد (١٧٥) (٣) .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٢ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٧ .
(٣) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولم تصلنا من هذه المجموعات المبكرة الا موطأ مالك ووصف لبعض المجموعات الأخرى ، وأكثر هؤلاء الجامعين انما فعلوا ذلك ردا على حركة فقهاء العراق القياسيين ، وأن أمثال مالك والأوزاعى وسفيان الثورى والليث بن سعد كانوا فقهاء من مدرسة الحديث يؤثرون الحديث ولو كان ضعيفا •

وفى مستهل القرن الثالث مضى تدوين الحديث خطوة أخرى وهى التخلص من طبيعة المرحلة السابقة ، وهى مراعاة الأبواب ومزج حديث الرسول بأقوال الصحابة والتابعين والانفراد بالحديث فقط ، فصنفه عبد الله بن موسى العبسى الكوفى مسندا ، ووضع مسدد بن مسرهد البصرى مسندا ووضع أسد بن موسى الأموى مسندا ، ونعيم بن حماد الخزاعى نزيل مصر مسندا ، واقتفى الأئمة أثرهم ، فما من امام من الحفاظ الا وصنف حديثه مسانيد ، وطريقها أن ترتب الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة • وأساس التقسيم هنا وحدة الصحابى الراوى • ومعنى هذا أن الحديث استقل عن الفقه ، وروى الحديث مجردا من أى اعتبار وجمعت الأحاديث كلها صحيحها وسقيمها •

ثم بدأت المرحلة الأخيرة آخر القرن الثالث ونشطت حركة الجمع والنقد ، وتميز الصحيح من الضعيف وظهر تشريح الرجال والحكم عليهم وألفت أهم كتب الحديث •

فقد ألف البخارى الجامع الصحيح ، وألف مسلم صحيحه ، وألفت سنن ابن ماجه ، وسنن أبى داود ، وجامع الترمذى ، وسنن النسائى وهى الكتب الستة الصحاح •

والحق أن ثقات المحدثين بذلوا جهودا كبيرة فى التمحيص ، واجتهدوا فى وضع رواة الحديث من التابعين ومن بعدهم فى موازين دقيقة ، وشرحوا كل راو وعرفوا تاريخه وسيرته ، ووضعوا قواعد الجرح والتعديل • واشتهر فى هذا الفن يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى

ثم يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ومحمد بن سعيد . وألف البخارى فى هذا الباب ثلاثة كتب سمى كل منها صحيح البخارى . ومن المؤلفين من أفردوا للثقات كتبا خاصة وللضعفاء كتبا والمدلسين كتبا ، كما وضعت قواعد نقد الحديث .

وامتد التدوين الى الفقه ونمت حركة تدوينه واتسعت فى العصر العباسى ، وكان لكل مدرسة اتجاهها ، فقهاء المدينة جمعوا فتاوى عبدالله ابن عمر وعائشة وابن عباس وكبار التابعين بالمدينة . أما العراقيون فقد جمعوا فتاوى عبد الله بن مسعود ، وقضايا على وفتاويه ، وقضايا شريح ، ثم بدأوا يبوبون الحديث أبوابا حسب الفقه ، ثم جمعوا الأحاديث المستقلة بموضوع واحد فى باب واحد . أما أهل العراق فكانوا أميل الى الرأى . ومن أظهر علمائهم ابراهيم النخعى وحماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة ، ومن أقدم ما وصل الينا فى الفقه العراقى كتاب الخراج لأبى يوسف ثم كتب محمد بن الحسن (١) .

على كل حال .. فى هذا العصر دونت كتب الفقه واصطبغت بصيغة قانونية بعد أن كانت صبغتها من قبل صيغة حديث ، وظهر فيها أثر الخلاف فى المذاهب وأثر الجدال ، واصطبغت كتب العراق بالمنطق .

وتجاوز التدوين الميادين التى ذكرت وامتد الى الأخبار والأيام والتاريخ . وكانت الدراسات التاريخية منذ النصف الأول من القرن الأول الهجرى قد وضحت فيها اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الأول مضى نحو كتابة مغازى النبى وسيرته وقد وضح هذا الاتجاه فى مدرسة المدينة المنورة (٢) . وأدت كتب مغازى الرسول الى كتابة مغازى الراشدين ونشأت كتب فتوح الأمصار ، كما أن الكتابة فى السيرة أدت الى الكتابة فى سير الصحابة والتابعين الأمر الذى سجلته كتب الطبقات ابتداء من

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .
(٢) عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب ، ص ٦١ : ١٠٧ .

ابن سعد حتى البخارى . وكان أغلب المشتغلين بهذا الاتجاه قوم مدنيون كلهم رواة حديث لا ينسب اليهم الكذب أو الوضع ، لأنهم كانوا يتحرون الدقة فيما ينقلون . ويلاحظ فى كتابة المغازى فى هذا الوقت المبكر العناية بالاسناد والعناية بالحقيقة . ثم كان الاتجاه الثانى هو أسلوب القصص التاريخى الذى بدأه عبيد بن شرية واكتمل هذا القصص القديم على يد وهب بن منبه . وقد أثار ذلك كله اهتمام العرب بالتاريخ القديم وبسير البشرية كلها . أما الاتجاه الثالث فقد نشأ فى البصرة والكوفة وهو يعنى بأخبار القبائل العربية عامة وقبائل العراق خاصة أو العناية بالأنساب عامة وأنساب البصريين والكوفة خاصة . واشتغل بهذا الاتجاه النسابون الذين تخصصوا فى تاريخ القبائل العربية وأنسابها . ولم يهمل النسابون المنهج التاريخى الذى تبنته مدرسة المدينة ونعنى به الاسناد وسلسلة الرواة والحرص على اثباتها (١) .

ثم اكتملت المدرسة التاريخية فى أواخر القرن الثالث ، ونمت الأجيال العربية المتعاقبة تتبادل التجارب والخبرات . وكان جيل القرن الثالث قد أفاد من تجارب مدرسة المدينة والبصرة والكوفة والفسطاط ، والتقت الاتجاهات كلها وأصبح الكتاب لا يهملون تقاليد المدينة ولا تقاليد العراق ، وأصبحت لهذه المدرسة الجديدة سمات واضحة نجملها فيما يلى :

استخدموا أسلوب المحدثين فى النقد والرواية والعناية بالاسناد أكثر من العناية بالخبر ، وأصبح رائدهم أن تطرح الاقليمية العنيفة وأنه لا بد من الرحلة فى طلب العلم من الأمصار الأخرى ، كما نلمح فى هذا العصر الاستفادة من الميراث السابق الى أبعد الحدود . والاستفادة من مواد كتب السيرة والاخباريين وكتب الأنساب والمصادر الأخرى ، وكان عملهم فى هذه الفترة أن تعد المادة التى جمعها السلف مع استبعاد الخبيث وابقاء الطيب .

---

(١) حسن أحمد محمود : الكندى المؤرخ ، ص ٥٣ .

وقد شهدت المدرسة التاريخية فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى نشأة مؤرخى الأمصار المعنيين بتراثها وسرد أخبارها المتحدثين عن قبائلها وأنساب أهلها والترجمة لمحدثيها وعلمائها . من هذه التواريخ المحلية قسم غير دينى تأثر المسلمون فى كتابته بنماذج قديمة نشأت فى سوريا فى العهد البيزنطى (١) كما وجد مثل هذا النوع فى الأدب السريانى القديم ، كما تأثر المسلمون أيضا بالأدب الفارسى الذى عرف هذا النوع من التواريخ المحلية . وقد كتب فى تاريخ العراق منذ القرن الثالث الهجرى كتابان : تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور ، وتاريخ الموصل لابن زكريا الأزدى . وقد ازدهر هذا النوع من التاريخ على الخصوص فى ايران حيث وصلت النعرة القومية الى الذروة ، وأخذ الكتاب الفرس يتغنون بفضائل بلخ وخراسان ، فكتب حمزة الأصفهانى تاريخ أصفهان وألف حسن بن محمد القمى تاريخ قم . أما القسم الدينى من التواريخ المحلية فانه تضمن التأريخ للحرمين مكة والمدينة . أو التاريخ لبعض المدن مع العناية بصفة خاصة بالمحدثين والفقهاء والعلماء أو الحكماء والشعراء وذوى النباهة . وأقدم ما ألف فى هذا الباب تاريخ واسط ، ومؤلفه يعرض لتاريخ واسط القديم ثم يتحدث عن مدارسها وعلمائها ويرتبهم طبقات قربا أو بعدا من الرسول . وهذا النوع من التأليف اتسع نطاقه بعض الشىء فيما بعد وعدل عن ترتيب العلماء طبقات وبدأوا يرتبونهم أبجديا أحيانا أو طبقات أحيانا أخرى .

ولا يمكن أن يختم القول فى دراسة الاتجاهات الثقافية الكبرى التى ظهرت فى ميدان الفكر الاسلامى فى العصر العباسى الأول دون الاشارة الى ظاهرة الاحتكاك الفكرى بين الثقافة العربية التقليدية وبين الثقافات الأجنبية . أعنى دراسة حركة الترجمة من المعارف القديمة الى اللغة العربية . هذه الحركة التى ازدهرت ووصلت الى ذروة الازدهار آخر القرن الثالث الهجرى .

---

(١) رزونتال : علم التاريخ عند المسلمين ، صفحات ٩٠ ، ١٢٩ .

والمنهج الذى يفرض نفسه على دراسة هذه الناحية الهامة فى تاريخ الفكر الاسلامى ليس مجرد احصاء أسماء من قاموا بالترجمة أو أسماء الكتب التى ترجمت أو المعارف التى أفاد العرب منها أكثر من غيرها . انما المهم أن نبرز ناحيتين هامتين . الحوافز التى شددت من أزر حركة الترجمة حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، ثم الآثار التى تركتها العلوم المترجمة فى الفكر العربى . ومن أهم الدوافع التى ساعدت على ازدهار حركة الترجمة نمو العلاقات الدولية فى العصر العباسى الأول والجهود التى بذلها العباسيون فى فرض السلام ، والمبادلات التجارية التى وصلت الى الذروة فى عهدهم ، والتى حملت التجار الى كل سوق ودفعت السفن العربية فى كل بحر . وقد كانت الدولة العباسية تعقد الصفقات لشراء الكتب وتدفع فى سبيلها أغلى الأثمان . وقد بدأت هذه الصفقات الثقافية فى عهد المنصور ، فروى أنه بعث الى ملك الروم فى طلب كتب العلم فكان من جملة ما حمل اليه كتاب أقليدس (١) . ثم تتابعت جهود الخلفاء فى طريق هذا التبادل الثقافى ، ويشير أبو الفرج الأصفهانى الى قدوم رسل امبراطور الدولة البيزنطية الى بلاط الرشيد فسألوا عن الشاعر أبى العتاهية وأنشدوا شيئا من شعره ، وكان الرسول يحسن العربية فلما نقل الرسول الى الامبراطور خبر ما رأى وما سمع كتب الى الرشيد يسأله أن يوفد اليه أبا العتاهية وأن يأخذ فيه من الرهائن من يريد ، واعتذر أبو العتاهية (٢) . لكن تنظيم هذه الصفقات الثقافية تم على أكمل وجه فى عهد المأمون حكيم بنى العباس الذى سخر كل الامكانيات وطرق كل السبل ، ليعثر على الكنوز الفكرية الحبيسة فى مكتبات القسطنطينية أو قبرص . وروى ابن النديم أن المأمون كان على اتصال بالامبراطور البيزنطى ليو الأرمنى وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠١ .
(٢) الأغانى : ج ٣ ، ص ١٧٩ .

المدخرة ببلد الروم فأجاب الى ذلك ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوا اليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلد الروم . قال محمد بن اسحق : ممن عنى باخراج الكتب من بلد الروم محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم . وبذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن اسحق وغيره الى بلد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى .. والطب . وكان قسطا بن لوقا البعلبكى قد حمل معه شيئا فنقله (١) . ويبدو أن نشاط الكشف عن كنوز الكتب لم تترك مكانا أينعت فيه الثقافة الهللينية الا وذهبت اليه ، ذكر أن المأمون لما هادن صاحب جزيرة قبرس أرسل اليه يطلب خزائن الكتب اليونانية الموجودة في الجزيرة . وكانت هذه الصفقات يذكيها شغف المأمون الغريب بالفكر الاغريقى هذا الشغف الذى كان يشغله حتى في نومه ، قال ابن النديم « ان المأمون رأى في منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا بحمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره . قال المأمون : وكأنى بين يديه ملئت له هيبة فقلت من أنت ؟ قال : أنا أرسطاليس (٢) » ولم تفتر هذه الحركة انما بقيت على أشدها زمن المعتصم والواثق . وأغلب الظن أن صفقات مماثلة عقدت مع الهنود أو الزرادشت أو أباطرة الصين .

وثمة عامل آخر كان من أهم حوافز حركة الترجمة ، وهو أنه مع مطلع العصر العباسى لم تعد الترجمة حركة فردية انما أصبحت حركة تظفر بعناية الدول وتشجيعها ، تساعدها وتنفق عليها الأموال الطائلة . والمنصور في بغداد جمع حوله صفوة العلماء من مختلف النواحى وشجع على ترجمة كتب العلوم ، واستجاب كثيرون ودفعهم التشجيع الأدبى

(١) الفهرست ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(٢) الفهرست ، ص ٣٣٩ .

والمبادى للاجادة . ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع . ولم يكن الرشيد أقل من المنصور انفاقا على الترجمة والمترجمين . فقد ذكر ابن ابي أصيبعة (١) أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم . وامتدت الترجمة الى الكتب الفارسية أيضا فقد اهتم يحيى بن خالد البرمكى بالترجمة من الفارسية الى العربية فجلب مجموعة من الكتب الفارسية ووكل ترجمتها الى من يجيدون اللسانين العربى والفارسى ، أمثال أبى سهل الفضل بن نوبخت وعلان الشعوبى ، كما أرسل فى طلب بعض العلماء الهنود وعهد اليهم بالترجمة الى العربية . وتسخير الدولة امكانياتها كلها فى تشجيع حركة الترجمة وصل الى الذروة فى عهد المأمون ، فقد أنشأ بيت الحكمة فى بغداد ، وكان يضم خزانة كتب ودارا للعلم ودارا للترجمة. وكان هذا المعهد من وجوه كثيرة أعظم المعاهد الثقافية التى أنشئت بعد متحف الاسكندرية الذى أسس فى القرن الثالث قبل الميلاد . وجمعت له آمهات الكتب باللغات المختلفة وعين يحيى بن ماسويه لرئاسته . وقد اشتهر من رجال بيت الحكمة علمان : حنين بن اسحق وأصله من العباد من نساطرة العرب ، وأحب العلم فى صباه فدخل بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه ودخل فى خدمة جبريل بن بختيشوع . وما زال قدمه يرسخ فى العلم حتى قلده المأمون رياسة بيت الحكمة . وكان حنين كثيرا ما يترجم الكتب اليونانية الى السريانية ثم يتولى مساعدوه نقلها من السريانية الى العربيه ، وقد توفى حنين سنة ٢٦٠ هـ (٢) ، قال عنه ابن النديم . « كان فاضلا فى صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية ، دار البلاد فى جمع الكتب القديمة ودخل بلاد الروم .» وكذلك ثابت بن قرة ولد سنة ٢٢١ هـ وتوفى سنة ٢٨٨ هـ ، وكان من صابئة حران صحبه محمد بن موسى الى بغداد وعلمه فبرع فى الترجمة ، بل يرجع اليه

(١) طبقات الأطباء ، ج ١ ، ص ١٧٥ .
(٢) الفهرست ، ص ٤٠٩ — ٤٦٠ .

الفضل في ترجمة القسم الأكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك(١) وظل بيت الحكمة يواصل رسالته في الترجمة حتى بعد انتهاء العصر العباسي الأول . وكأن الثروة العظيمة التي تجمعت لخلفاء العصر العباسي الأول قد أنفق الكثير منها في هذا الزاد العلمي العظيم .

وثمة أمور أخرى كان لها أثرها في الاقبال على المعرفة القديمة وورد مواردها . ومنها ما أشرنا اليه في الحركة التعليمية وشيوعها وتقبل ملايين المسلمين من غير العرب للثقافة العربية ، فنشأت العقليات التي لا تقنع بالثقافة التقليدية الموروثة انما ترنو الى المزيد ارواء لتعطشها الى المعرفة ، فكان المورد الاغريقي الذي عبوا منه عبا .

كما أن الفرق الاسلامية وهي تتصارع من أجل البقاء لم يكن يكفيها أن تتكلم بالقرآن والسنة . والمتكلمون التواقون الى الجدل والمناظرة والمفكرون العرب الذين تصدوا للشعوبيين والطاعنين في الاسلام ، كل هؤلاء كانوا في حاجة الى قوالب علمية منطقية تصب فيها أفكارهم فتزداد أسلحتهم مضاء ويزداد تفكيرهم انطلاقا ، فكان الاقبال على تراث المناطقة والمفكرين الاغريق . كما أن ما شهده العصر العباسي من تطور تكنولوجي وحاجته الى مزيد من المعرفة بالطب والرياضة والفلك ، كان يدفع الخلفاء ورجال الدولة الى الكشف عن الخبرات القديمة للاغريق والهنود والفرس وتطويرها لتوافق روح العصر .

ويمكننا أن نضيف الى ذلك كله حقيقة أخرى هامة ، وهي أن أهل الذمة هم الذين تزعموا حركة الترجمة وبرعوا فيها وأخلصوا لها كل الاخلاص ، ولم يكن من المعقول ان يأتي ذلك عفوا . انما أتى بعد أن ألف أهل الذمة الحياة العربية وشاركوا في الحياة السياسية . ولم يفقدوا حرياتهم الدينية ونعموا بحسن المعاملة وطيب المعاشرة ووجدوا أن الدين

---

(١) الفهرست ، ص ٤٠٩ .

(٢) [illegible] ، ص ٣٨٠ .

لم يحل بينهم وبين تطلعاتهم المتنوعة ، كما أنه لابد أن يمضى وقت طويل ليستعرب أهل الذمة ويتقنوا اللغة العربية الى جانب لغاتهم الأصلية ، ولم يتم استعراب أهل الذمة على نطاق واسع الا فى العصر العباسى ، ويتحدث ابن النديم (١) عن أهل الذمة الذين أسهموا فى حركة الترجمة ويذكر منهم بعض الأسماء التى رأينا أن نوردها هنا :

يوحنا بن ماسويه الذى أرسل لجلب الكتب من بلاد الروم ، وحنين ابن اسحق ، وقسطا بن لوقا البعلبكى البطريق فى أيام المنصور وابنه أبو زكرياء يحيى بن البطريق ، والحجاج بن مطر الذى نقل المجسطى واقليدس . وابن ناعمة واسمه عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى ، حبيب بن بهريز مطران الموصل ، زوربا بن ماجوه الناعمى الحمصى . هلال بن أبى هلال الحمصى . بسيل المطران . أبو نوح بن الصلت . اسطاث حيرون . اصطفن بن باسيل . ابن رابطة . تيوفل . شملى . عيسى ابن نوح . تدرس السنقل . داريع الراهب . هبابنيون . صليبا . أيوب الرهاوى . ثابت بن قمع . أيوب وسمعان اللذان فسرا زيج بطليموس لمحمد بن خالد البرمكى . باسيل وكان يخدم ذا اليمينين . ابن شهدى الكرخى . أبو عمرو يوحنا بن يوسف الكاتب . أيوب بن القاسم الرقى . دار يشوع وكان يفسر لاسحق بن سليمان ابن على الهاشمى من السريانية للعربية . حنين ابن اسحق . ثابت . حبيش . عيسى بن يحيى . ابراهيم بن الصلت . بل أشار ابن النديم الى نقلة الهند والنبط (٢) ومنهم منكة الهندى وكان عند اسحق بن سليمان ابن على الهاشمى ينقل من الهندية الى العربية . وابن دهن الندى وكان يشرف على بيمارستان البرامكة وابن وحشية الذى نقل من النبطية الى العربية .

تلك أهم الدوافع التى شدت من أزر حركة الترجمة وأتاحت للعرب

---

(١) الفهرست ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ .
(٢) الفهرست ، ص ٣٤٩ .

هذه المناهل الغزيرة من العلم والمعرفة • بقى أن نتحدث قليـــلا عن أهم هذه المناهل (١) •• ماذا أخذ العرب منها وبأى أفكار تأثروا ، وأى آثار باقية تركتها هذه الثقافات فى ملامح الفكر وقسماته •

من هذه الثقافات الثقافة الهلنية من منابعها التى اشتهرت فى الشرق اذ ذاك ، مثل جنديســابور وحران والاسكندرية • وقد تركت هــذه الثقافة أثرا فى الفكر العربى شكلا وموضوعا • فالمنطق اليونانى أعطى الفكر العربى صيغا صبت فيها قوالبه ، وتأثرت بمناهجه فأصبح المنطق كما يقول ابن سينا « خادم العلوم » وقد ترك المنطق الاغريقى أثرا كبيرا فى الحياة العقلية فى العصر العباسى الأول • فقد أثر فى طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل • وكانت أساليب المتكلمين متأثرة الى حد بعيد بمنطق أرسطو ، بل تطرق التأثير الى ميدان الفقه ذاته • قارن مثلا بين أسلوب الفقهاء فى عصر الراشدين وبنى أمية وبين أســلوبهم فى العصر العباسى • فموطأ مالك مثلا يذكر الحكم ثم يســوق الدليل من حديث أو أثر • وكتاب الهداية فيه التدليل الفقهى وخاصة فى مســائل الخلاف بين أبى حنيفة والشافعى • وترى فيه قواعد الجدل والبرهان المتأثرة بمنطق أرسطو • وامتد أثر المنطق الى النحو ، فنجد فى كتاب سيبويه الترتيب والتبويب ، يقسم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ثم يعرف بكل قسم ويأتى بالأمثلة ويذكر الأحكام • واســتخدم القياس فى الفقه وأصــوله وفى الفلسفة • وكان أثره عظيما فى تفريع المسائل وتنويعها وحشد المتشابهات تحت قاعدة واحدة ، واسقاط ما لم يرد فيه حكم مأثور ، وبمعنى آخر ترك الفكر الاغريقى طابعه الخالد فى ترتيب العلوم وتبويبها عند العرب •

ولم يكن تأثير الفكر الاغريقى فى الشكل فحســب بل كان تأثيره موضــوعيا ، فقد أثرت الفلســفة الاغريقية فى تعاليم المتكلمين وأثرت الأفلاطونية الحديثة فى التصــوف ، وأثرت البــلاغة اليونانية فى علوم

(١) توسع الأستاذ احمــد امين فى هــذا الموضوع فى افاضة ممتعة : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٦٢ : ٣٧٣ .

البلاغة عند العرب (١) .

لكن الأمر الذى يحمد للمفكرين العرب أنهم لم يكونوا سلبيين فيما وردوا من موارد ، انما استخدموا ما أخذوه استخداما صالحا ، ثم بنوا على ما أخذوه . وزادوا فيه وابتكروا وصبغوه بصبغتهم الخالدة . وقاموا بأعظم محاولة توفيقية فى تاريخ الفكر العالمى بمواءمتهم بين الفكر الاغريقى وطابعه المادى وبين الاسلام وروحه وفكره . ولم تعدم اللغة العربية من أن تتأثر بهذا الفيض من التراث الاغريقى الذى تدفق فى العصر العباسى ، فقد عربت ألفاظ يونانية كثيرة ، وترجمت قصص يونانية الى العربية ، أشار ابن النديم الى مترجمات اغريقية فى الأسمار والتاريخ ، كما ترجمت حكم فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وملأت كتب الأدب مثل البيان والتبيين وعيون الأخبار .

أما الثقافة الهندية فقد تأثر العرب بها عن طريق اتصال المسلمين بالهنود عن طريق الفتح والتجارة ، كما أصبحت السند مصرا اسلاميا ، وانتقل الهنود رحالين الى أرجاء العالم الاسلامى وحملوا معهم أفكارهم وثقافتهم . وبعض الأفكار الهندية تسربت الى العرب عن طريق الفرس ، فقد اتصل الفرس بالهنود اتصالا وثيقا قبل الفتح الاسلامى وأخذوا الكثير من الثقافة الهندية وترجموها الى لغتهم . وقد امتد التأثير الهندى الى الالهيات والمقالات الأدبية والرياضيات والأدب . وفى باب الالهيات تركت نظرية الهنود فى الأرواح وتناسخها وأن الأرواح لا تموت ولا تفنى وانما هى أبدية الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ولا ماء يغصها ولا ريح تيبسها ولكنها تنتقل من بدن الى بدن . وقد تركت نظرية التناسخ هذه أثرا فى بعض الفرق الدينية وفى بعض قصص ألف ليلة ، وعرف علماء المسلمين مذهب السمنية (٢) وناقشوهم كثيرا فى كتب التوحيد .

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٢) ذكر البيرونى انها فرقة شديدة البغض للبراهمة وقد كانت فى خراسان وفارس والعراق والموصل الى حدود الشام فى القدم الى ان ظهر زرادشت فى ايران ودعا ببلخ الى المجوسية وراجت دعوته فانجلت السمنية عنها الى مشارق بلخ . البيرونى ، ما للهند من مقولة ص ١٠ .

وعلم الكلام وخصوصا ما عرفوا به من نظرية المعرفة واعتقادهم أن العلم والمعرفة لا تحصل الا من باب الحواس . وكل علم ليس أساسه الحس لا يكون علما صحيحا . ولكن الالهيات الهندية لم تترك الا تلك الآثار السطحية ولم تنفذ الى أعماق الفكر العربى .

ولكن الأثر العميق الذى تركته ثقافة الهند كان فى الرياضيات والفلك . ويبدو أن بعض الرياضيين الهنود وفدوا الى بغداد فى عهد المنصور وأنه كلف أحدهم باختصار كتاب الفلكى الهندى (برهمكبت) واستخرج منه كتابا أصبح أساس علم الفلك عند العرب (١) . وأخذ المسلمون عن الهند كتاب السند هند (٢) وترجموا كتابا آخر اسمه الأركند وثالثا اسمه «الأرجهر» . وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من الهنود كلفظ (الجيب) فى حساب المثلثات ، واقتبسوا الكثير من نظريات الهند فى الحساب والهندسة . وكان الطب الهندى من المنابع التى وردها الطب العربى الى جانب المنبع اليونانى . فكان فى بغداد أطباء هنود اشتهر عنهم فى عهد الرشيد صالح بن بهلة الهندى ، وجلب يحيى بن خالد أطباء من الهند مثل منكة وبازيكر وفليرقل وسندباد (٣) . وتركت الثقافة الهندية طابعها فى ميدان الأدب فعربت الفاظ هندية كثيرة واقتبست بعض الآراء فى الأدب والبلاغة(٤) . كما أولع العرب بالقصص الهندى . ويكفى أن يقال أن أصل كليلة ودمنة هندى نقل الى الفارسية ثم نقل من الفارسية الى العربية ، وقصة السندباد هندية الأصل ترجمت الى العربية . وعدد ابن النديم كتبا كثيرة للهند فى الخرافات والأسمار والأحاديث ترجمت الى العربية . وفى باب الحكم أخذوا عن الهند الشىء الكثير فكانت حكمة الهند أقرب الى روح العرب وأحب الى أذواقهم فهى أشبه بالأمثال العربية بجملها القصيرة ومعانيها العميقة وامتلأت كتب

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٤٢ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٨ .
(٤) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

العصر بالكثير من حكم الهنـــد، يقول ابن قتيبة « قرأت فى كتاب من كتب الهند : شر المــال مالا ينفق منه : وشر الاخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ما ليس فيها خصب ولا أمن .» (١) وعقد صاحب كتاب سراج الملوك فصلا فى حكم شاناق الهندى يتضمن نصحا للملوك بالعدل فى الرعية مع ضرب الأمثال (٢) .

وفى حديثنا عن المنابع التى نهل منها الفكر العربى يجب ألا نغفــل المنبع الفــارسى الذى اشتد وضوحه بعد دخول ملايين الايرانيين فى الاسلام ومشاركتهم فى الحياة العامة فى الدولة العباسية . وقام الأفراد المثقفون بعملية الترجمة بعد أن حسن اسلامهم وازدادوا عمقا فى الثقافة العربية وملكوا عنان اللغــة . ولم تكن الدوله فى حاجة الى أن تبعث البعوث لتحصل على تراث فارس فقد كان هذا التراث ماثلا فى كل مدينة فى ما وراء النهر وايران والعراق .

على كل حال تركت الثقافة الفارسية أثرا فى اللغة العربية ، فقــد تسربت ألفاظ فارسية كثيرة الى اللغة العربية ، كما ترجمت كتب فارسية فى التنجيم والهندسة والجغرافية . ولمــا اتسعت الحركة العلمية فى العصر العباسى قام كثيرون ممن أجادوا اللســانين بالترجمة من الفارســيه الى العربية (٣) . فعبد الله بن المقفع ترجم كتاب (خداينامة) وســماه تاريخ ملوك الفرس وترجم كتاب « آيين نامة » وهو وصــف لنظم الفــرس وتقاليدهم وعرفهم . كما ترجم كليلة ودمنه وكتاب مزدك وكتاب التاج فى سـيره أنوشروان وكتــاب الأدب الكبــير والأدب الصــغير وكتــاب اليتيمة (٤) . كما نقــل المترجمون كتبا كثيرة فى تاريخ الفــرس فترجم محمد بن الجهم البرمكى كتاب سير ملوك الفرس . وترجم زادويه كتاب

---

(١) عيــون الأخبــار : ج ١ ، ص ٣ .
(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ، ص ٣٣١ .
(٤) الفهرست ، ٣٤١ — ٣٤٢ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ص ١٠٩ .

سير ملوك الفرس وكتاب تاريخ ملوك الفرس . وترجم جبلة بن سالم « كتاب رستم واسفنديار » وكتاب بهرام شوش . ومن الكتب الدينية ترجم كتاب زرادشت « آفستا » وفي الأدب كتاب هزار أفسانه وغيره من القصص وعهد أردشير وكتاب موبذ موبذان وكتاب أردشير في التدبير وتوقيعات كسرى وكتاب أدب الحرب .

وقد تركت الثقافة الفارسية أثرها الباقي في الأدب العربي شعره ونثره وفي القصص العربي وفي التوقيعات .

تلك أهم مقومات النهضة التي واكبت العصر العباسي الأول ويمكننا في ايجاز أن نحدد ملامح الفكر العربي الذي هو وليد هذه المقومات آخر القرن الثالث الهجري .

كان من أثر التلاحم الفكري الذي أشرنا اليه أن وضح تقسيم العلوم عند العرب(١) ووضح طابع الفكر العربي العلمي الذي تميزت به مدارس القرن الثالث الهجري . كما وحدت الحركة التعليمية ذات الطابع العلمي الجديد التراث العربي كله . وقد دونت أصغر دقائقه فظهرت مدارس النقد والاختيار والدراسات المبنية على المنطق والقياس والمقارنة، وأصبح التأليف في هذا التراث الموروث يسير وفق قواعد علمية سليمة ، كما أدت صنعة الوراقة الى شيوع الفكر الجديد ؛ فلم يعد ممركزا في بغداد . انما انتشر شرقا حتى نيسابور وغربا حتى قرطبة ، الأمر الذي أعطى الثقافة العربية غذاء موحدا . وطبعها بطابع واحد مع اختلاف بيئي كبير . وكان من أثر الطوفان الفكري الذي صادفه العرب أن اشتدت المعارك بين القديم الموروث وبين الجديد الناشىء كما يحدث عند التلاحم الفكري عادة ، وامتدت هذه المعارك الى كل ناحية ، ففي الشعر ظهر من يعيبون على الجاهليين والمخضرمين طريقتهم في نظم القصيد ، ويدعون الى التحرر من قوالب العصر الجاهلي الجامدة لتنشأ قوالب وقيثارات

(١) انظر ابواب الفهرست لابن النديم .

بجديدة تلائم الحياة الجديدة ، وظهر هذا الصراع في ميدان علم الكلام والمذاهب ، وانبرى المعتزلة المسلحون بالمنطق والفكر الإغريقي الى منازلة الفرق الأخرى التى كانت لا تزال تعتمد على القديم في فكرها وأسانيدها. ومن حسن الحظ أن اللغة العربية أظهرت قابلية للتشرب عظيمة وشفت عن طواعية غريبة المثال فاستوعبت ما استجد من ألفاظ تتيجه الترجمة . واشـتقت كلمات جديدة . وظهر أسـلوب جديد فى التعبير يختلف عن الأساليب التى شاعت فى صدر الاسلام ، ظهرت « الكلاسيكية الجديدة » التى تحسن التعبير عن التيارات الجديدة فى شعر رصين كما ظهر أدب الرسائل متأثرا بتقاليد الفرس ، وظهرت الأساليب العلميـة الدقيقة فى الطب والفلسـفة والرياضة والفلك ، كما ظهر الكتاب الموسوعيون الذين يحولون هذا الزاد الثقافى الى كتب معاجم وطبقات .

القسم الثانى

العصر العباسى الثانى

نظرة عامة على العالم الإسلامي

في العصر العباسي الثاني

تطالعنا دراسة العصر العباسي الثاني بصورة قد تختلف في كثير من تفاصيلها عن الصورة التي رأيناها في العصر العباسي الأول .

فقد امتاز العصر العباسي الأول بقوة الخلافة ، وتمركز السلطة في يد الخلفاء العظام الذين حفل بهم هـذا العصر ، وكانوا جميعا ذوي شخصيات قوية ، كما كانوا ساسة مهرة ، وقد استطاعوا أن يحافظوا على اتصالهم الوثيق بجماهير الناس الذين وقفوا مع الدعوة العباسية في فترة التحضير للثورة ، وأيدوا الخلافة العباسية ، وقد حرص هؤلاء الخلفاء على توثيق أواصر الصلات بينهم وبين الملايين من مؤيديهم . كما أظهروا كفاءة تامة في كبح جماح العناصر المتطلعة الى القوة والنفوذ من الموالي ، واستطاعوا أن يقيموا نوعا من التوازن بين الأحزاب المختلفة التي ظهرت بقيام الدولة . وتبعا لذلك احتفظت الدولة في ذلك العصر الأول بوحدتها تحت الحكومة المركزية في بغداد باستثناء الأندلس وجزء من الشمال الأفريقي .

لكن هذه الظاهرة العامة في العصر الأول ما لبثت أن تغيرت في العصر العباسي الثاني ، لتبـدو مكانها ظاهرة أخرى تخالفها . وأول ما يطالعنا في هـذه الظاهرة الجديدة ، هو انتقال الدولة الاسـلامية من المركزية الى اللامركزية في نظام الحكم . وقيام دول وامارات مستقلة استقلالا كاملا . أو استقلالا جزئيا مع الاعتراف بسـلطان الخلافة . ثم ظهور شعوب جديدة طارئة على العالم الإسـلامي الأول ووصولها الى مركز الدولة ، وتسلطها على الحكم ، ثم وقوع الخلفاء أنفسهم تحت نفوذها . الأمر الذي أضعف من شخصيات الخلفاء ، وأذهب عنهم نظرة الاحترام

والتقديس التى كان يتمتع بها خلفاء العصر العباسى الأول • ونحاول أن نلقى نظرة عامة على العالم الاسلامى فى هذا العصر الثانى من خلال هاتين الظاهرتين اللتين تميز بهما هذا العصر •

العالم الاسلامى بين المركزية واللامركزية :

لم تستمر الوحدة التي تميز بها العصر الأول طويلا ، وذلك لأن قيام الدولة العباسية كان يحمل فى ثناياه بذور الانفصال ، فالدولة منذ قامت كانت تهدف الى المساواة بين القوميات الاسلامية المختلفة • وقد قويت هذه الروح القومية بعد ذلك ، وأقامت أسرا ودويلات اقليمية استقلت عن الدولة استقلالا جزئيا ، وان كانت قد حافظت على ولائها واعترافها بالسيادة الروحية للخليفة العباسى • ومن هذه الدول : الدولة الأغلبية التى أقامها ابراهيم بن الأغلب فى أفريقية ، والدولة الطاهرية التى أقامها طاهر بن الحسين فى خراسان • ومن قبل ذلك كانت أجزاء من العالم الاسلامى قد انفصلت انفصالا تاما عن الخلافة العباسية ونعنى بذلك الأندلس التى استقل بها عبد الرحمن الداخل الأموى بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، ودولة الأدارسة بالمغرب التى أسسها ادريس العلوى الفار من وجه الخلافة العباسية ، واذا كانت الدولتان الأوليان قد نشأتا تحت ظل الخلافة وبأمرها ، فان الأخريين قد نشأتا برغم الدولة وخروجهما على سلطانها •

وحين بدأت الدولة فى العصر الأول تحس خطر هذه الحركة الانفصالية ، لجأت فى علاجها الى ابتداع سياسة تركيزية مضادة ، فقسمت الدولة الى قسمين •

القسم الأول هو المغرب ، ويشمل الشام ومصر والشمال الأفريقى ، وقد تضاف اليه الجزيرة ، أو الشام ومصر وبعض الشمال الأفريقى على حسب الظروف •

والقسم الثانى هو المشرق ، ويشمل الأقاليم الواقعة شرقى العراق•

وكانت العادة أن يعهد الخليفة بولاية العهد من بعده الى اثنين على أحدهما الخلافة بعد الآخر . وكانت ادارة المغرب توكل الى ولى العهد الأول ، وادارة المشرق الى ولى العهد الثانى .

ونلاحظ من هذا أن الدولة كانت تتنازعها ظاهرتان متعارضتان ظاهرة تميل الى الانفصال الاقليمى ، وظاهرة تسعى الى تركيز السلطة والابقاء على الوحدة . وسينتهى الأمر فى العصور التالية الى تغليب النزعة الانفصالية ، مع الاعتراف بالولاء والسيادة الروحية للخليفة ، فبرغم انفصال الأطراف فى العصور التالية ، نلاحظ أن الوحدة الظاهرية الاسمية ظلت قائمة ، لهذا لم تكن ولاية وال فى هذه الأقاليم المنفصلة تصبح شرعية الا اذا أقرها الخليفة العباسى .

وللحديث عن الحركة اللامركزية يجب أن نعود الى الوراء ، الى المبادىء التى نادت بها الثورة العباسية ، فهى فى الحقيقة تمثل نقطة الارتكاز لكل التطورات التى حدثت فى العالم الاسلامى فى أيام الدولة العباسية . والمبدأ الذى يهمنا هنا من بين المبادىء التى نادت بها الثورة هو مبدأ التسوية .

فقد نادت الثورة العباسية بمبدأ التسوية بين الشعوب جريا على حكم الاسلام . وهو المبدأ الذى أوقف فى عهد الراشدين لضرورات اقتضت ذلك . وكانت الثورة تنادى برفع هذا الايقاف ، واجراء حكم الاسلام على الشعوب المغلوبة ما دام الدين الجديد قد غلب على الدين القديم فيها . فالشعوب المغلوبة التى دخلت فى الاسلام كانت تطالب بأن تتبع معها قواعد الاسلام ، وكان لها الحق فى أن تطالب بهذا باعتبارها شعوبا مسلمة ، وعلى أساس أن الاسلام يفرض المساواة بين المسلمين جميعا . والمطالبة بهذا المبدأ مطالبة دينية بطبيعتها ، الا أننا اذا حللنا دوافع القومية ، وجدنا مطلبهم هذا فى ناحية من نواحيه ذا صفة سياسية . ولذلك نستطيع أن نقول أن مطلب هذه الشعوب دينى

سياسي ، وان الطابع الديني كان في الحقيقة ستارا اختفت وراءه نزعات قومية لأمم كانت لها شخصيتها القومية القديمة ، وكان متوقعا ألا تنمحى هذه الشخصيه القوية في بسهولة . وهذه الظاهرة — ظاهره الأغراض السياسية التي تتستر وراء القضايا الدينية — ظاهرة معروفة في التاريخ الوسيط .

فلما انتصرت الثورة العباسية ، ولما كان الفضل في انتصارها لا يرجع الى العرب من اهل الأمصار . وانما يرجع الى متطوعين من الفرس الخراسانيين ، كان طبيعيا أن يحتل المنتصرون مكانا ممتازا لم يكونوا يحتلونه من قبل (١) . وكان طبيعيا أيضا أن يتشبثوا بمكانتهم الجديدة ، لكي لاينتصب منهم غيرهم حقوقهم ان عادوا الى بلادهم وتركوا الأمور على ما كانت عليه من قبل ؛ وهذا شأن كل ثورة لا تستطيع أن تترك الأمور لحكام العهود الماضية ، فان مثل هذا ان حدث ولو الى حد ما يؤدى في النهاية الى تفويت كثير من الأهداف التي دعت اليها الثورة . فكان من نتيجة الثورة العباسية اذن انتصار مبدأ التسوية بين الشعوب ، ثم وثوب الخراسانيين الى مكان الصدارة . ووجودهم في هذا المكان كان بذاته دليلا ماديا على أن الثورة قد حققت مبدأ المساواة، بل جعلت للخراسانيين الصدارة بما جاهدوا في سبيل المبادىء الدينية القويمة وبتنفيذهم حكم الآية الكريمة : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» . ونحب هنا أن نستطرد بعض الشيء لنذكر نص الصحيفة التي كتبها النبى بعد هجرته الى المدينة والتي حددت شكل الجماعة الاسلامية . وأول بنودها « ان المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . أمة واحده من دون الناس » (٢) وهذا النص هو الذي

---

(١) المسعودى : مروج الذهب : ج ٣ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، ابن الأثير : الكامل ج ٤ ، ص ٣٢٦ ، الجاحظ : البيان والتبين ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٢) ابن هشام : ج ٢ ، ص ١٩٩ . وانظر كذلك عن تكوين الدولة الاسلامية . احمد ابراهيم الشريف . مكة والمدينة ، ص ٣٨٠ — ٣٩٩ .

حذف الفوارق القبلية ، وجعل كل انسان - بصرف النظر عن قبيلته الأولى أو شعبه الأول ، داخلا فى الأمة على قدم المساواه مع غيره . وقد طبق النبى صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ منذ البدايه . ثم حدث بعد ذلك ضرورات هى التى جعلت الراشدين يحيدون عن هذا المبدأ .وكان انتصار شعب من الشعوب المغلوبة واحتلاله مركز الصدارة بنـاء على المبادىء الاسلامية ، وعلى هدى التكوين الأول للجماعة الاسلامية عملا مشروعا . فكان انتصار الخراسانيين لذلك مثلا يمكن أن يحتذيه غيرهم . فكان من السهل على الأفارقة أو على المصريين أو على أهل الأندلس أن يطـالبوا بهذه التسوية وأن ينالوها ، او ينالوا قدرا كبيرا منها . ولذلك يجوز لنا أن نسمى العصر العباسى الأول بعصر الشعوبيات ، إذا استعرنا اصطلاحا أدبيا مستعملا للدلالة على فرع من فروع الأدب العربى ظهر فى هـذا العصر ، هو الأدب الشعوبى . ويتكون من مفاخرات بين الشعوب المختلفة، فهذا أديب يتعصب للعرب ، وذلك آخر يتعصب عليهم ويمجد الفرس . ولم تكن المفاخرات الا صـدى للأحداث السياسية والثورة العباسية . وما حدث بين العرب والفرس حدث مثله أيضا بين العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى المغلوبة : فقد امتدت حركة الشعوبية أيضا الى المغرب والى الأندلس .

ثم أدى انتصار مبدأ التسوية فى مرحلة أخرى . الى أن تطـالب الشعوب الحديثة فى الاسلام — وهى غير الشعوب التى خضعت للاسلام فى الفتوح الأولى — بنفس حقوق العرب أو حقوق الخراسانيين . بمجرد دخولهم فى الاسـلام . ومن هـذه الشعوب التى جعلت لنفسـها حق المساواة بالشعوب الاسلامية القديمة « بنو بويه » و « السلاجقة » .

والواقع أن السياسة العامة فى العصر العباسى الأول هى التى شجعت تلك الشعوب البربرية على الدخول فى الاسلام . ومهدت السبيل لهـا بما اتخذت من سياسات قبل ظهور هذين الشعبين : فالخليفة المـأمون مثلا كان يرغب الترك فى الاسـلام ، لا تحقيقا لهدف دينى فى المقـام

الأول ، وانما لحاجته الى جند أقوياء . فكان يرسل مع الدعاة فارضا يسجل أسماء الأجناد فى الديوان ويفرض لهم العطاء ، ويرغبهم فى القدوم الى دار الخلافة ، حتى اذا ما قدموا أكرمهم الخليفة وأجازهم (١) . وبهذه الطريقة استطاع المأمون أن يجند عددا من الترك . ثم توسع المعتصم فى هذه السياسة حتى صار معظم جيشه من الترك . وحتى اضطر أن يبنى لهم مدينة خاصة هى مدينة سامرا . فالخلفاء أنفسهم هم الذين مهدوا السبيل لتطبيق هذا المبدأ على هذه الشعوب البربرية الحديثة ، دون أن يجدوا من الحرج ما وجده بنو أمية ، بل كان تجنيد الترك فى نظرهم أمرا عاديا .

وعلى أساس هذا المبدأ فان كل الشعوب التى يمكن أن تدخل الاسلام تستطيع ، بصرف النظر عن حداثة اسلامها وقدمه ، أن تحتل مكانا مساويا لغيرها ، بل تستطيع أن تحتل مكانا ممتازا ، ولا يشترط فى ذلك الا شرطان . الأول : هو الاسلام ، والثانى : هو توفر الصفة الحربية فى هذا الشعب الجديد .

فمبدأ التسوية خول للشعوب الغريبة عن الشعب العربى ، والغريبة عن الشعوب المغلوبة فى أيام الفتوح الأولى ، أن تدخل فى عداد الدولة الاسلامية على أساس المساواة ، ما دامت تدخل فى الاسلام ، وما دامت تتوفر لها الصفات الحربية ، بحيث تستطيع أن تخدم الدولة الاسلامية من هذه الناحية ، اما فى أطراف الدولة الاسلامية ، واما فى داخلها وفى مركزها . فاذا لم تتوفر فى الشعب الجديد الصفات الحربية ، كان الأمر أن يبقى هذا الشعب فى حماية المسلمين ، وأن يظل عبئا عليهم الى أن يوجد شعب حربى آخر يشترك فى الدفاع عن الدولة وعن هذا الشعب الأعزل . وهذا مجرد فرض عنّ لنا ، لأن كل الشعوب التى كانت تتاخم الدولة الاسلامية كانت شعوبا بدائية مطبوعة على الحرب .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٣٧ .

وكان للدولة أن تستخدم قوة هذه الشعوب ، فتكون للدولة اليد العليا اذا كانت هذه الشعوب غير منظمة . فاذا كانت هذه الشعوب منظمة ، استقلت بتدبير نفسها تحت ظل الاسلام دون أن يكون للدولة المركزية شأن كبير في توجيهها .

ولنحاول الرجوع الى أصول هذا الموضوع ، فنتساءل : هل كانت المساواة مجرد نتيجة للثورة العباسية ولتطبيق مبادئها ، أم كان تطورا أكبر لم يكن للثورة فيه يد الا أنها عجلت بمراحل تطوره ؟

الواقع أن سياسة الدولة الاسلامية كانت تسير نحو المساواة شيئا فشيئا منذ عهد بنى أمية ، وأنها أعطت لبعض الشعوب المغلوبة الموجودة في أطراف الدولة ووراء حدودها المعروفة في أيام الراشدين ، حقوقا لم ينل مثلها المغلوبون في الفتوح الأولى كالفرس وأهل الشام وأهل مصر ، فقد جرت سياسة الدولة منذ الفتوح الثانية ، في عهد بنى أمية ، على أن تشرك أهل البلاد المفتوحة في الدفاع عن حدود الدولة ، بل ومد هذا الحدود الى ما وراءها ، فاذا تتبعنا ما وقع في اقليم ما وراء النهر وجدنا ترك ما وراء النهر يشتركون في الدفاع عن بلادهم ، وفي غزو من دونهم من الترك الكفار مع المسلمين ومع جيش قتيبة بن مسلم الباهلى نفسه ، وهو الذى فتح هذه البلاد (١) .

فسياسة اشراك المغلوبين ، سياسة اتبعت منذ فتح هذه البلاد ، وكانت هذه البلاد حديثة عهد بالاسلام لم تعرفه الا على يد قتيبة ، وان عرفه بعضهم قبل ذلك بقليل . وكان ذلك ميزة لم يتمتع بمثلها الفرس ، وهم القريبون من حدود الترك ، وهم من نعرف قوة وحضارة . فكانت هذه المفارقة بين شعبين متجاورين نوعا من التناقض ما كان له أن يستمر . فالشعب الفارسى المجيد محروم من الجندية ، والشعب التركى البربرى

---

(١) الطبرى : ج ٦ ، ص ٤٧٥ . الدينورى : الأخبار الطوال ، ص ٣٢٨ . ابن الأثير : ج ٤ ، ص ١٢٧ .

يشارك المسلمين شرف الجندية وشرف الغزو ، على حين كان على الفارسي اذا أراد أن يشارك فى الجندية أن يكون تبعا لغيره من العرب . ولعل السبب فى اعطاء الترك هذه الميزة هى أنه كان من غير الممكن حرمانهم من امتشاق الحسام ، فهم شعب بدائى محارب بطبعه ، وكان من الخير أن توجه هذه السيوف نحو العدو ، لأنها لابد أن تضطرب ، بدلا من أن تتجه نحو الثورة والعصيان ومقاومة العرب الفاتحين . فكان اعطاء هذه الميزة سياسة موضوعة رسمها العرب ، وقد راعوا فيها حالة هذا الشعب .

ولم تكن سياسة العرب فى بلاد ما وراء النهر وحدها وانما كانت سياستهم فى جهات أخرى . فى أرمينيا ، وقبرص ، والشمال الأفريقى . فان أهل أرمينيا شاركوا العرب منذ فتح بلادهم فى كل ما تستلزم الحدود من دفاع وفى غزو من وراءهم [1] ، وأهل قبرص كانوا يعاونون المسلمين بأن يدلوهم على عورات الروم [2] ، والبربر من أهل أفريقية قد انطلقوا مع العرب لفتح الأندلس .

وكان العرب يتساهلون مع هؤلاء المسلمين الجدد الحربيين تساهلا قد يتناقض مع مبادىء الدين . من ذلك مثلا أن ترك ما وراء النهر اشترطوا على قواد المسلمين وعلى ولاة خراسان فى أيام الخليفة هشام ابن عبد الملك ألا يعاقب المرتد منهم ، وقد احتج الفقهاء حين قبل هشام هذه الشروط . وانما راعى هشام حين قبل ذلك أن الارتداد يكون بين الترك حين يحدث خلاف بينهم وبين المسلمين ، فيقوم الترك بثورة ويخلعون طاعة المسلمين ، وفى نفس الوقت يرتدون عن الاسلام ، فكانت ردتهم تابعة لعلاقاتهم السياسية بالعرب ، ولم تكن شركا أصيلا [3] .

---

(١) البلاذرى : ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ .
(٢) نفس المصدر : ص ١٦٠ ، ١٦٤ .
(٣) الطبرى : ج ٧ ، ص ١٩١ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

ونستطيع أن نقول — على أساس ما قدمنا — ان العرب فى العصر الأموى أعطوا بعض الشعوب المغلوبة نفس الحقوق التى كانت للعرب ، فلما جاءت الثورة العباسية عممت هذه القاعدة . فأصبحت تطبق على كل الشعوب دون استثناء .

ونعود الى نفس المسألة من ناحية أخرى . وهى ناحية الدور الذى أدته هذه الشعوب المغلوبة فى القيام بأمر الدولة الاسلامية . وأول دور قامت به أمة مغلوبة هى أمة الفرس ؛ فهم الذين احتضنوا فكرة الدعوة لآل البيت . وهم الذين نصروا الثورة العباسية ، وحققوا مبدأ المساواة بين الغالبين والمغلوبين .

ثم ننتقل الى دور الترك ؛ وكان دورهم فى أول الأمر المشاركة فى الدفاع عن الثغور الشرقية ؛ ثم صار الخلفاء يستخدمونهم فى مهمات حربية فى ايران ، ثم زاد الالتجاء الى الترك شيئا فشيئا حتى استخدموا فى جيش الحضرة (جيش الخليفة فى بغداد) فى عهد المأمون ، ثم صاروا قوام الجيش فى عهد المعتصم بعده ،وأصبحوا هم الذين يغزون فى ثغور الروم ، وهى الثغور الواقعة فى أطراف آسيا الصغرى عند جبال طوروس . ونستطيع أن نتصور الدور الذى قام به هذا الشعب التركى ، اذا قدرنا التطور الذى وقع منذ فتح بلاد الترك على يد قتيبة فى أواخر القرن الهجرى الأول الى أن وجدناهم يغزون ثغور الروم فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث (١) .

وعلى هذا نستطيع أن نقول ان المبادىء السياسية الاسلامية كانت تبيح لكل شعب دخل الاسلام أن يكون كأهله . وأن يتولى الصدارة ما دام أهلا لهذه الصدارة . ويمكننا أن نقدر ما كانت عليه هذه السياسة من مرونة . ومن فائدة هذه المرونة أنها أوجدت سيوفا فى كل عصر تدافع عن الاسلام وأوجدت قوة تستطيع أن تسير دفة أمور

(١) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٥٤ ، وما بعدها الى آخر عصر المعتصم .

الدولة الاســلامية . وفى عصر المساواة كان حلا للشعوب الاســلامية المختلفة أن تعتز بقوميتها ، ولهذا كان من نتيجة الثورة العباسية ، ازدياد الشعور القومى لدى الشعوب المغلوبة ، وكان من الضرورى أن ينتهى هذا الاحساس بالمساواة ، وهذاالاحساس المتزايد بالقومية ، الى استقلال الشعوب من الناحية المعنوية أولا . وكان مظهر هذا الاحساس المعنوى ظهور ما عرف فى الأدب العربى باسم الأدب الشعوبى ، وهو فى ذاته تعبير عن اعتداد الشــعوب بشخصياتها . وكان موضوع هذا الأدب المفاخرة بين العرب والعجم ،وذكر فضائل الأمم بعضها على بعض ، ولهذا لا نكاد نقرأ كتابا من الكتب القديمة الا وجدنا فيه ذكرا لفضائل البلاد والأمصار والشــعوب . ثم أخذت الشعوب تستقل استقلالا فعليا ، وقام نوع من اللامركزية ، وكان من نتيجة هذا أن شهد العصر العباسى الثانى الامارات الاسلامية تظهر فى الشرق والغرب مؤكدة سلطانها . والخلفاء لا يجدون مفرا من الاعتراف بالأمر الواقع .

الا أن حركة الشعوبية لم تنته بانفصــال أجزاء العالم الاســلامى بعضها عن بعض ، فان الشعوب الاسلامية برغم حرصها على استقلالها ، ظلت تحتفظ بالروابط فيما بينها . وكانت الخــلافة هى المثــل الدائم لتلك الروابط .

والخلافة بطبيعتها واحده غيرقابلة للتعدد عند أهل المذهب الواحد ، واذا تعددت فانما يكون ذلك بتعدد المذاهب . فمن الجائز مثلا أن تقوم خلافة فاطمية فى مصر — لأن الفواطم لا يعترفون بالخلافة العباسية — وأن تكون الخلافة العباسية قائمة فى بغداد .

والخلافة أيضا كانت نظاما أساسيا من أصــول النظم عند بعض الفرق الاسلامية . فوجودها عندهم ركن من أركان الدين ، فهى واجبة الوجود وهى فى نظرهم عنوان الوحــدة وركن العزة . واهل الســنة وان لم يذهبــوا فى الخلافة مذهب الشــيعة ، الا أنهم كانوا يعتبرونها

الخلافة أساسا لشرعية السلطان . والشعوب التى حرصت على استقلالها لم تسع قط ، بل لم تفكر فى الانفصـال عن الخلافة . والخلافة بدورها قد سارت على مبدأ مرن سـليم هو مبدأ التوفيق بين النزعات القومية والمطالبة الشعبية ، وبين مبدأ الوحدة . وفى هذا مزايا كثيرة :

فيه الحرص على التوفيق بين نزعات الأمم ، وفيه حرص على اعطاء كل شـعب حقه المشروع فى أن ينمى شخصيته كيف يشـاء ، وفى أن يستكمل كيانه كما يريد ، فى ظل الخلافة الاسلامية الموحدة .

وفى ظل هـذه السياسة أتيح لكل شعب من الشعوب الاسـلامية أن يشـارك فى بناء الدولة بقدر كفاءته، ولذلك تعددت مراكز القـوة فى العالم الاسلامى ، وازداد هذا العالم بذلك قوة ، وامتدت أطرافه الى نواح بعيدة لم يكن الراشدون ولا الأمويون يتصورون أن يصل نفوذ العالم الاسـلامى اليها . ففى العصر العباسى نمت القوميات ، وأحست بحريتها وبقدرتها على تكييف حياتها كيف شاءت ، وتبعا لظروفها الخاصة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، وأتيح لها بذلك أن تسـهم بقـدر أكبر فى خدمة العالم الاسـلامى ومد نفوذه السياسى والحضارى على السـواء .

وقد اختلف مصير كل دولة من هذه الدول بحسب وضعها الجغرافى وبحسب وظيفتها من العالم الاسـلامى . ونلاحظ أن كل دولة من دول هذا العالم الاسلامى كانت تقوم بوظيفة معينة ، وكانت بقيـامها بهـذه الوظيفة تؤدى نصيبها فى المشاركة فى الحياة الاسلامية ، وتؤدى نصيبها فى خدمة صالح العالم الكبير الذى تنتمى اليه ، فنحن فى هـذا العصر العباسى الثانى أمام قوميات قد نالت حريتها ، ونحن أمام قوميات تساعد وتتعاون وتحرص كل الحرص على ألا تنفصل عن هذا العالم ، فكانت فكرة الخلافة فكرة متأصلة فى النفوس باعتبارها رمزا للرباط بين أجزاء العالم الاسلامى ، وكانت كل أمة تحس بفضـيلة الاجتماع مع شعوب

أخرى تحت حضارة واحدة ، كانت تعتبر فى ذلك الوقت بمثابة الحضارة الأوروبية فى عصرنا الحالى .

واذا ألقينا نظرة على العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، وجدنا كل جزء من أجزائه قد تأثر بنوع خاص من المؤثرات تحكمت فى تطوره التاريخى وفى مصيره .

فللمشرق تطوره الخاص من الناحية التاريخية ، ويتحكم فى هذا التطور عاملان : أولهما عامل القومية ، وثانيهما عامل الغارات البربرية الأعجمية .

فلقد نقلت الثورة العباسية السلطان من يد العرب الى يد الشعوب المغلوبة المتحضرة ، وبذلك تركت للقوميات حريتها فى ظل الخلافة . وبفضل هذا العامل القومى نشأت فى المشرق دول أولها الدولة الطاهرية نسبة الى طاهر بن الحسين ، ثم الدولة الصفارية المنسوبة الى يعقوب ابن الليث الصفار ،ثم ملك المشرق بعد ذلك الدولة السامانية نسبة الى الأسرة السامانية التى كان موطنها مدينة بلخ .

ثم تأثر المشرق بعد ذلك بغارات شعوب جديدة طارئة على العالم الاسلامى ، ولم تكن تلك الشعوب داخلة ضمن الشعوب المتحضرة فى العالم القديم ولا فى العالم الوسيط الأول ، فهى شعوب أعجمية وان اصطبغت بالصبغة الاسلامية . وهى شعوب تقابل الشعوب البربرية التى أغارت على أوروبا فى العصور الوسطى .. وقد تأثر المشرق بانتقالات هذه الشعوب ، وهجرتها الى داخل العالم الاسلامى ، فحكمه فى أول الأمر الديلم ، وهم وان كانوا فرسا من حيث الجنس واللغة ، الا أنهم كانوا يعيشون عيشة بربرية قبلية فى منطقة متطرفة فى شمال شرقى ايران جنوبى بحر قزوين . الا أن سيادة الديلم لم تمتد الى المشرق كله ، بل امتدت الى بعضه وتركت للسامانيين البعض الآخر ، ثم طرأ بعد الديلم والسامانيين شعب بربرى جديد من تلك الأمواج التركية المهاجرة من

أعماق آسيا نحو الغرب ، ونشير هنا الى السلاجقة . فلما انتهى العصر السلجوقى جاءت غارة بربرية جديدة أشد ايغالا فى الصفة البربرية ، وأبعد من الاستعداد لقبول الحضارة الاسلامية ، ونشير هنا الى غارات المغـــول .

وهكذا نرى التطور التاريخى للمشرق وقد تأثر بعامل القومية ، ثم بعامل الغارات البربرية الأعجمية . وانتهى الأمر فيه بانتقال الســلطان انتقالا يكاد يكون نهائيا من يد الشعب الايرانى المتحضر القديم الى يد الشعب المغولى الطارىء على الحضارة .

أما المغرب فقد كان مصيره مختلفا عن مصير المشرق ، فهو بعد أن آتت الثورة العباسية ثمارها ، قد خضع لتأثير العوامل القومية ، ثم خضع بعد ذلك لتأثير الدعاية المذهبية ، ثم عاد لظروف خاصة بعد سقوط بغداد ملجأ للخلافة ومصـــدرا للقوة أمام الغارات الأعجمية البربرية ، الى أن ضاع هذا المغرب كما ضاع المشرق ، واستولى عليه شعب أعجمى لم يكن شارك قط فى الحضارة القديمة وهو الشعب العثمانى . فنحن نرى أن المغرب انتهى بأن خضع الى نفس المصير وخضع للبرابرة ، ولكن بعد نحو ثلاثة قرون من سقوط بغداد ، حين فتح هذا المغرب فى أيام الســلطان سليم الأول العثمانى . فكأن المغرب استطاع أن يحمل لواء الاســلام القديم الى أن اغتصب منه الترك العثمانيون هذا السلطان . فنقلوا مركز العالم الاسلامى الى موطنهم الجديد ، وأصبحت الخلافة لا تعتمد على العرب ، و لاعلى الشعوب المتحضرة القديمة ، وانما أصبحت تعتمد على شعوب أعجمية طارئة . حديثة عهد بالحضارة وحديثة عهد بالاسلام .

فالمغرب خضع أولا لعامل القومية ، فظهرت فيه الدولتان الطولونية ثم الأخشيدية ، ثم تأثر بالعامل المذهبى فخضع للفاطميين نحو قرنين ، ثم جاءت الحروب الصليبية فظهرت قوة المغـــرب أمامها فى شـــخص الأيوبيين ، ولم يكد الأيوبيون ينهضون بعبء الحروب الصليبية ، ودفع

خطرها المهدد لأول مرة تهديدا خطيرا لكيان العالم الاسلامى ، حتى ظهر خطر جديد آت من المشرق هو الخطر المغــولى ، وعنــدئذ قام المماليك وكانوا أقوى من الأيوبيين ، لأنهم استطاعوا أن يقفوا أمام الموجــات المغولية واستطاعوا فى نفس الوقت أن يطردوا الغارات الصليبية ، وأن يحموا جبهتهم البحرية من كل هجوم أوروبى جديد . وفى نفس الوقت كان العثمانيون يشغلون أوروبا عن التدخل فى الشرق الأوسط ، وكانوا يتوغلون فى أوروبا الى أن استطاعوا أن ينقلوا مركز العمليات الحربية الى الشمال ، والى أن ينقلوا الخلافة الى الشمال أيضا .

نلاحظ من كل ذلك أن مصير المشرق مختلف تمام الاختلاف عن مصير المغرب . ونلاحظ كذلك أن الثورة العباســية قد نقلت مصــير الاسلام من يد العرب الى الشعوب القديمة المتحضرة ، ثم انتقل الأمر بعد ذلك من يد الشعوب المتحضرة القديمة الى يد الشعوب الجــديدة ، الطارئة . وهذا الانتقال من يد الشعوب المتحضرة الى الشعوب الأعجمية الجديدة هو الذى يحدد بالضبط نهــاية العالم الاسلامى القديم ، وبدء العالم الاسلامى الجــديد .

ولنا أن نتساءل بعد هذا ، هل كان العالم الاســلامى الجديد تحت قيادة هذه الشعوب الطــارئة الحديثة أقدر منه تحت قيادة الشعوب المتحضرة التى ورثت الدولة الاسلامية عن العرب ؟

نستطيع أن نقول أن هــذا التحول منع العالم الاســلامى من أن يشارك فى الحضارة مشاركة ناجحة ، والمسئول عن مصير العالم الاسلامى هذا هى هذه الشعوب الجديدة الطارئة .

وهناك مناطق من العالم الاسلامى يجب أن نشير اليها وهى مناطق الثغور . والذى يحملنا على أن نجعل الثغور قسما واحدا ، أننا وجدنا فى الثغور ظاهرة مطردة ، وهى أن هذه الثغور تتقوى بقدر حاجة العالم الاسلامى للدفاع ، وأن الدول التى تظهر فيها تتأثر عادة بقوة و[illegible]

هو الخطر الأجنبى ، وهو أيضا حيوية العالم الاسلامى التى تدفع هـذه الثغور دائما الى الأمام . فكل البلاد الواقعة فى أطراف العالم الاسلامى بلاد لها وظائف خاصة ، وهذه الوظائف تؤثر فى كيان الثغر ، فالوظيفة الثغرية هى التى تنشىء فى الثغر دولا ، والحيوية هى التى تدفع الثغر وما فيه من دول الى الأمام . هذه هى الظاهرة المطـردة الملاحظة فى الثغـور .

ونستطيع أن نتتبع الثغور المهمة ثغرا ثغرا . فنجد أن الدفاع فى ثغر الروم ، عند الحدود المشتركة بين العالمين الاسلامى والبيزنطى ، أو هى بالضبط عند جبال طوروس ، يقـع على عاتق الخلافة أولا ، فلمـا انتصرت المبادىء العباسية ، تشـاركت القوميات المختلفة فى حمل عبء الدفاع . فحمله الطولونيون والخلفـاء فى وقت واحد ، فلما ظهر أن التعاون بين طرفين غير فعال ، نبعت من الوظيفة الثغرية دولة ثغرية هى الدولة الحمدانية ، وحملت هذه الدولة عبء الدفاع ، ما استطاعت ، عن الثغر ، ثم غلبت لأنها عاصرت أقوى أسرة من الأسر التى حكمت بيزنطة وهى الأسرة المقـدونية . وفى هـذا الوقت بالذات طرأت من المشرق شعوب جديدة غزية ، ووصل الغز السلاجقة الى ثغر الروم ، وأنشأوا هناك دولة ثغرية جديدة فى آسيا الصغرى هى المعروفة بسلاجقة الروم. ثم أسلم السـلاجقة اللواء من بعدهم الى العثمانيين الذين حملوه فترة طـويلة .

وثغر آخر هو الثغر التركى المسمى ثغر ما وراء النهر ، وكانت مهمة الجهـاد فيه على عاتق الخلافة ، الى أن تولت الدولة الطاهرية أمر المشرق كله بما فيه الثغر . فلما ضعفت الدولة الطاهرية ، قامت فى الثغر وعلى أساس الضرورة الثغرية أسرة هى الأسرة السامانية . واسـتطاع السامانيون أن يمدوا سلطانهم الى وسط آسيا . أما امتداد سـلطانهم الى الداخل فكان ذا صفة أخرى ، فهم حين حكموا بعض خراسان الواقعة غربى نهر جيحون، انما كانوا فى الحقيقـة يملأون فراغا حـدث على أثر

ضعف الطاهريين ، ولم يكن الطمع هو الدافع لهم على امتلاك هذا القسم . وكانت قوتهم كلها مركزة فى التركستان فى شرق نهر جيحون ، وفى أواسط آسيا ، واستطاع السامانيون أن ينشروا الحضارة الاسلامية فى تلك البلاد الوثنية . فدخل على أيديهم فى الاسلام عدد كبير وقامت فى أيامهم بما وراء النهر مراكز ثقافية هامة كانت عاملا قويا فى صبغ الترك بالصبغة الاسلامية . ومن فضل السامانيين انهم استطاعوا أن يجعلوا من التركستان بيئة مؤثرة فى الترك . فخفف ذلك من خطرهم على العالم الاسلامى، اذ كان الذين يهاجرون من الترك ويقتحمون الحدود الاسلامية ينصبغون فى هذه البلاد بالصبغة الاسلامية ويدخلون فى الاسلام فيكون خطرهم أقل .

ثم تولى مهمة الدفاع بعد السامانيين قوم من الترك آخذوا الاسلام عن السامانيين ، ثم نظموا أنفسهم وقاموا بمهمة الدفاع الثغرى ، هى الدولة التى تعرف بالدولة الخوارزمية ، وقد ظلت قائمة بأمر الثغر الى أن ظهر المغول واجتاحوها فى طريقهم ، وكان هجوم المغول سريعا بحيث لم تتمكن بيئة ما وراء النهر من صقلهم بالصبغة الاسلامية أو من ادخالهم فى الاسلام .

ثم ثغر السند . وكانت مهمة الدفاع فيه واقعة على الخلافة فى أول الأمر ، حتى ظهرت الدولة الصفارية . فتولت هذه المهمة . ثم لم تعمر تلك الدولة . فمدت الدولة السامانية سلطانها على هذا الثغر الأيمن البعيد ، وقامت بالمهمة الثغرية فيه بعض الوقت ، الى أن قامت فى هذا الثغر دولة مشهورة فى التاريخ الاسلامى هى الدولة الغزنوية المنسوبة الى عاصمتها غزنة جنوب غربى كابل الحالية فاقتطعت هذه الدولة لنفسها بيئة جغرافية فى الهند فكانت واضعة لحجر الأساس تقريبا للعالم الاسلامى الهندى، ثم نهضت بعد الدولة الغزنوية بالمهمة الثغرية دولة أخرى هى الدولة الغورية . وظل الغوريون فى هذا الثغر الهندى الى أن أزالتهم الدولة الخوارزمية، ثم جاء المغول فاجتاحوا المشرق كله ، ثم اهتموا بعد

أن أسلموا بهذا الثغر ، فكونوا فيه دولة عظيمة هي أساس دولة باكستان الحـالية .

وكل هذا الذى عرضنا له فى الثغور كان نتيجة للوظيفة الثغرية ، ونتيجة لحيوية العالم الاسلامى .

والعراق أيضا ننظر اليه نظرة خاصة ، فقد ارتبط مصيره بالخلافة مباشرة فهو الجزء الذى بقيت عليه سيطرة الخلفاء ، وظلت الخلافة تحكمه حكما مباشرا ، أو يحكم باسـمها حين امتد تغلغل الأعجمية الى مركز العالم الاسلامى . وتاريخ العراق فى العصر العباسى الثانى هو الذى يمثل تاريخ الخلفاء العباسيين تمثيلا صحيحا ؛ ولا يمثل فى الحقيقة تاريخ العالم الاسلامى كله . ونحن حين ننظر الى تاريخ الخلفاء من بنى العباس فى العصر الثانى ، لا يصح أن نربط به تاريخ العالم الاسلامى كله . فقد ضعفت سلطة الخلفاء السياسية على العالم الاسلامى ، ولم يبق من سلطان الخليفة الا مظهر منصبه الجليل فحسب . ولم يعد فى يده غير العراق ، وحتى العراق نفسه قد اقتطعت أجزاء كبيرة منه وخضعت لحكم المتغلبين من حـكام الأقاليم . فلم يصـبح فى يد الخليفـة فى وقت من الأوقات الا بغـداد وأعمالها (١) . ثم وقع الخلفاء أنفسهم فى قبضـة القواد من الأتراك وزال سلطان الحكم الفعلى من أيديهم بانتقاله الى يـد أمير الأمراء فى بغداد حتى عصر السلاجقة .

مركز الخـلافة :

والواقع أن الخلافة العباسية لم تعد قادرة على أن توازن فى حكمة ودقة بين القوة المركزية فى بغـداد ، وبين القـوى اللامركزية النـامية المتطورة فى أقاليم الدولة العباسية ، نتيجة انتشار الاسلام ومطالبـة المسلمين الجدد بنصيب أوفر من الحقوق . وكان من نتيجة هذا أن شهد

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ٥ ، ص ٥٥٣ — ٥٥٤ . ابن الأثـير (طبعـة أوربا) ، جـ ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٢ . تاريخ ابو الفدا تحت سـنة ٣٢٤ هـ .

العصر العباسى الثانى الامارات الاسـلامية المستقلة تظهر فى الشرق والغرب ، والخلفـاء لا يجدون مفرا من الاعتراف بالأمر الواقع سـواء رضـوا أم كرهوا .

ولم تعد الخلافة أيضا قادرة على أن تكبت عناصر الموالى المتطلعة الى القوة والنفوذ كما فعلت فى العصر العباسى الأول ، حيث كبتت قوة الخراسـانيين بقتل زعيمهم أبى مسـلم ، وكبتت جماح الفرس بنكبة البرامكة ، ثم استعانت بالترك على الخراسانيين فى عصر المعتصم ، فقد تهاوت أسس القوة التى وضحت فى العصر العباسى الأول ، وفقـدت الخلافة الضعيفة نفوذها فى بغداد نفسها ، بسـيطرة الجند الترك ، ثم البويهيين والسـلاجقة ، كما فقدت نفوذها فى الأقاليم ، لتصبح مجرد رمز تجتمع الدولة حوله .

كما أن التحول الرأسمالى الذى أحدثه العصر العباسى الأول ، قد أدى الى أن تزداد الهوة اتساعا بين فئة الاحتكاريين من كبار الملاك وكبار التجار ورجال الصناعة ، وبين الطبقات الكادحة التى نالت لونا من التحرر فى العصر العباسى الأول ، ولكنها لم تظفر بما كانت تسعى اليه من الرخاء الاقتصادى وانخفاض الأسعار وارتفاع الدخل ، وحيل بينها وبين الحياة الهينة الكريمة . ولم تتدخل الدولة ، وكان من واجبها أن تتدخل لكى لا يختل التوازن وتقع المأساة ، وكان فى مكنتها أن تستخدم بيت المـال فى حماية حق الجماهير ، لكن بيت المـال فى ذاته قد ضعف لقلة الموارد التى تصل اليه ، لذلك انتشرت الثورات ذات الطابع الاشتراكى كثورة الزنج والقرامطة(١) . كما نشطت الدعوة الاسماعيلية ، مستغلة الأوضاع الاقتصـادية السيئة ، فى جذب الجماهير نحو دعوتهـا تمهيـدا لظهور الفاطميـين .

---

(١) نسبة الى حمـدان قرمط احـد دعاة الاسماعيلية ، ورأس الطريقـة القرمطية .

وقد ربط كثير من المؤرخين بين حالة الخلافة العباسية فى العراق ، وبين الحالة فى العالم الاسلامى ، واعتبروا ضعف الخلافة ضعفا للعالم الاسلامى كله . لكن هؤلاء المؤرخين لم يفطنوا الى أهمية مبدأ التسوية وما أحدثه من تطور ، ونظروا الى استقلال الشعوب فى هذا العصر على أنه نوع من الانفصال ، وعلى أنه كان بذرة ضعف الخلافة . فقالوا : ان نمو القوميات أضعف الخلافة وأضعف العالم الاسلامى . فهم يربطون بين الخلافة فى بغداد وبين العالم الاسلامى ربطا لم يكن له ما يبرره ، ويتصورون حسب نظرتهم — أن الخلافة ضعفت لأن بلاد الأندلس انفصلت عنها منذ أن قام بأمر الأندلس عبد الرحمن الداخل الأموى . وقالوا ان الخلافة ازدادت ضعفا حين قامت بأفريقية دولة الأدارســة بمراكش الحالية ، والدولة الرستمية فى الجزائر الحالية ، ودولة بنى الأغلب فى تونس الحالية ، ثم حين قامت بأمر هذه الأقاليم الثلاثة الدولة الشيعية الفاطمية ، ثم حين توسعت هذه الدولة تملكت الى أفريقية مصر والشام . ثم أن هؤلاء المؤرخين يعــدون من مظــاهر الضــعف قيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك بمصر والشــام ، وكذلك قيام الدول المستقلة فى المشرق الاسلامى ، ويشبه المسعودى فى عــام ٣٣٢ ، فعل أصحاب الأطراف ، وتغلب كل واحد منهم على الصقع الذى هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الاسكندر (١) فكأن هؤلاء المؤرخين حين يبينون الأجزاء التى آلت اليهــا الدولة انما يصــفون حســابها . مع أن هؤلاء المؤرخين ينسون أن قيام هذه الدول كان نتيجة لظهــور مبادىء جديدة عادلة هى حق التسوية وحق الشعوب .

على أن فكرة الدولة برغم هــذا الانقسام لم تفقد ما كان لهــا من القــوة والسلطان ، فكان أصحاب الأطراف أو حكام الدول المستقلة يعترفون بالسيادة العليا للدولة ، ويقدمون للخليفة الدعاء فى المساجد ، ويشترون منه ألقابهم ، ويرسلون اليه الهدايا كل عام ، فلم يكن واحد

(١) التنبيه والاشراف : ص ٤٠٠ .

منهم يعتبر ولايته شرعية الا اذا اعترف به الخليفة وأرسل له التقليد.(١) ، وحتى بنو أمية فى الأندلس لم يروا لهم الحق فى اتخاذ لقب الخليفة لأنفسهم أو التسمى باسم « أمير المؤمنين » بل كانوا يسمون أنفسهم « بنو الخلائف » .

وظل لقب الخلافة وقفا على بنى العباس فى بغداد حتى جاء الفاطميون ، فكانوا أول من خرج على هذه القاعدة . ذلك لأنهم لم يكونوا يعترفون بحق العباسيين فى الخلافة . وكانوا يرونها حقا لهم باعتبارهم خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم . فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان ٢٩١ هـ — ٩٠٩ م (٢) . ثم أسرعت بعد ذلك قيمة اللقب الى الهبوط ، حتى نجد حاكم سجلماسة (جنوبى جبال أطلس) يسمى نفسه بأمير المؤمنين فى سنة ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م (٣) . ولما علم عبد الرحمن الثالث بالأندلس أن العلويين بأفريقية لقبوا بأمير المؤمنين ، اتخذ لنفسه أيضا لقب الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣١٦ — ٩٢٩ م (٤) .

ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام أو تعدد أمراء المؤمنين أن يؤدى الى ضيق فى معنى الاسلام . أو معنى الوطن الاسلامى . بل كانت كل هذه الأقاليم فى الحقيقة تؤلف مملكة واحدة سميت مملكة الاسلام وهو اصطلاح تتخذه لتقابل به مملكة الكفر — وكانت تقوم فيها جميعا وحدة اسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة (٥) . ويعتبر المقدسى أن مملكة الاسلام تمتد من « كاشغر » فى أقصى المشرق الى « السوس » الأقصى فى المغرب (٦) .

---

(١) مسكويه : ٦ : ٣٢٣ .
(٢) ميتز : جـ ١ ، ص ٣ .
(٣) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (طبع الجزائر ١٧٥٧) ، ص ١٥١ .
(٤) ابن الاثير : جـ ٧ ، ص ١٩٢ . المقرى : نفح الطيب : جـ ١ ، ص ١٦٢ — ٢١٣ .
(٥) متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٢ — ٤ .
(٦) احسن التقاسيم (طبعة لندن) ص ٦٤ .

وكان المسلم يستطيع آن يرتحل فى داخل حدود هـذه المملكة فى ظل دينه وتحت رايته . وفيها يجد الناس يعبدون كما يعبد ، ويصلون كما يصلى ، كذلك يجد شريعة واحدة وعرفا واحدا وعادات واحدة . وكان يقوم فى هـذه المملكة قانون عملى معترف به من الجميع يضمن للمسلم كل حقوق المواطن ، بحيث يكون آمنا على حريته الشخصية أن يمسها أحد ، وبحيث تكفل له كل الرعاية القانونية (١) .

ونستطيع أن نرد على هؤلاء المؤرخين كذلك بأن العالم الاسلامى فى عهد العباسيين كان أقوى بكثير مما كان عليه فى أيام بنى أمية ، وكان ذا حيوية وحضارة أثرت أكبر الأثر فى الشعوب المجاورة للعباسيين . فقد حملت هذه الدول سواء فى المشرق أو فى المغرب مسئولية الدفاع عن العالم الاسلامى كل فى ناحيتها ، ورفعت عن كاهل الخلافة عبء متطلبات هذا الدفاع ماديا وعسكريا . ثم انها مدت نفوذ العالم الاسلامى الى أطراف جديدة ربما لم تكن الخلافة المركزية قادرة عليها ، كما أنها تصدت لهجمات كبيرة على العالم الاسلامى ، وصمدت لها فى قوة ودمرتها ، وبذلك جعلت قلب العالم الاسلامى يعيش فى أمن .

ونستطيع أن نتصور الأعباء الجسيمة التى كان على الخلافة وعلى مركز العالم الاسلامى أن تتحملها . ولو أن الخلافة ظلت تحت هذا العالم المترامى الأطراف الممتد من أواسط آسيا الى حدود فرنسا وشاطىء المحيط الأطلسى والممتد كما يقول المسعودى : ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، أى حوالى عشرة آلاف ومائة ميل (٢) . وانها تقطع فى نحو عشرة أشهر كما يقول المقدسى (٣) وأن تتصدى للدفاع عن أجزائه البعيدة فى المغرب حين نهضت الدول الفرنجية وأخذت طريقها نحو النمو والقوة ،

(١) متز : جـ ١ ، ص ٤ .
(٢) مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص ٢٧ — ٣٨ .
(٣) احسن التقاسيم (طبعة ليدن ١٨٧٧) ، ص ٦٤ .

وحين بدأ العالم المسيحى الغربى يقوم بحركة الاسترداد العنيفة ، وفى الشرق حيث كانت الشعوب المتبربرة تهدد حدود العالم ، ثم أخذت تهاجر وتغير على عالم الحضارة .

ثم نستطيع أن نتصور أعباء حكم هذه الأقاليم نفسها على مركز العالم الاسلامى . لو أن الخلافة فى بغداد ظلت مهيمنة على الحكم هيمنة مركزية ، وما كان يتطلبه ذلك من نفقات هائلة ، ومن يقظة مستمرة واستعداد عسكرى دائم لمقاومه كل حركة انفصالية أو استقلالية تظهر فى هذه الأقاليم ، ثم ما يستتبع ذلك من تحطيم لموارد هذه الأقاليم نفسها ومن تعطيل لنموها الذاتى .

وهؤلاء المؤرخون حين اعتبروا نمو القوميات ضعفا انما تأثروا بالأفكار السائدة فى عصرهم . ولم يلتزموا الحيدة الضرورية لكتابة التاريخ ، بل تأثروا بما كانوا يعتنقون من مثل سياسية ، وكانوا كلهم يرجون أن تعود الخلافة واحدة جامعة للعالم الاسلامى على نحو ما كانت أيام الراشدين وبنى أمية . وهذه المثل شغلت أخيلتهم وسيطرت على تصورهم للتاريخ فكانوا حين يذكرون ضعف الخلافة واستفادة القوميات من هذا الضعف ، انما يدعون الى ما يتصورونه طريق الاصلاح . وكانت كذلك تنقصهم النظرة الشاملة للعالم الاسلامى ، ولذلك نجدهم يقعون فى التناقض حين يذكرون مثلا فضل السامانيين أو الغزنويين فى حماية الثغور الشرقية ، وحين يمتدحون الحمدانيين بتصديهم للهجمات البيزنطية، والمماليك فى قهرهم للصليبيين ، وصدهم المغول . وحين يتحدثون عن مراكز الثقافة فى بخارى وسمرقند والقاهرة والقيروان وقرطبة . تلك المراكز التى ازدهرت ونافست بغداد ، بل تفوقت عليها فى بعض الأحيان.

هذه حال المؤرخين الذين نعتبرهم مصادر فى كتابة التاريخ الاسلامى . أما المؤرخون المحدثون ، فقد تأثروا بما كتب الأقدمون من ناحية ، كما تأثروا من ناحية أخرى بالأحوال القائمة اليوم فى العالم

الاسلامى والعربى فى وصفهم للماضى ، فهم قد تصوروا ماضى بلادهم كحاضرهم ، كل جزء من بلاد العرب أو بلاد الاسلام قائم بذاته ، منفصل أو يكاد ينفصل عن غيره . مع أن هذه الأجزاء لم تكن تخرج عن ان تكون جزءا تظله الجماعة الاسلامية مع غيره وان تركت له حريته القومية .

والنتيجة التى نريد أن نصل اليها من وراء هذه النظرة العامة ، هى أن العالم الاسـلامى فى هذا العصر العباسى كان لامركزية ، وكان مؤلفا من مجموعة أمم اسـلامية ، لكل أمة ذاتيتها الخاصـة ، وكانت الخلافة تجمع هذه الأمم وتمثل الرباط بينها فى السياسة العامة وفى الدين وفى الحضارة والاقتصاد .

وبعد هذا الاجمال الذى نقصد به الى التعريف نتناول الموضوع بالتفصيل .

الباب الأول

ظهور الأتراك فى الدولة الإسلامية

الفصل الأول

حالة الخلافة العباسية فى بغداد
فى العصر العباسى الثانى

من أهم ما تميز به ذلك العصر ، وكان له أثره الواضح فى تاريخ العالم الاسلامى منذ القرن الثالث الهجرى ، ما تناقله المؤرخون المعاصرون ومن تبعهم أو نقل عنهم ، من عدوان على أشخاص الخلفاء ، بالسجن أو القتل أو التعذيب أو العزل : أو على سلطانهم بالتضييق أو السلب ، فكان الخليفة لا يأمن على نفسه أو سلطانه فحسب ، بل ان منصب الخلافة فقد ما كان له فى نفوس المعاصرين من الهيبة والقداسة ، الأمر الذى يشكل صورة قاتمة محزنة من أخبار الخلفاء فى ذلك العصر .

والكتاب المعاصرون أو المحدثون ردوا هذه النوازل التى حلت بالخلافة ، الى ضعف الخلفاء حينا ، أو انصرافهم الى اللهو أحيانا ، بل نراهم يرتبون على هذا الضعف ما ظهر فى أفق العالم الاسلامى من حركات استقلالية . ولكنا اذا أردنا أن نعرف حقيقة الحال ، وجب أن نجاوز ظاهر هذه الصورة الى بواطن الأمور ، وعندنا أن هذه التطورات لم تكن بسبب ضعف خليفة أو لهو آخر .

ونحن لا ننكر أنه ظهر بعض الخلفاء الضعاف الذين استسلموا للأقدار وبعض الخلفاء الذين انصرفوا الى اللهو والملذات . ولكن الأمر لم يخل من خلفاء آخرين كانوا على جانب كبير من قوة الارادة وصفاء الشخصية وأنهم حاولوا جاهدين أن يغالبوا التيار فغلبهم ، والحقيقة أن الأمر لم يكن ضعف أشخاص الخلفاء بقدر ما كان ضعف النظام الخلافى نفسه .

كانت الخلافة العباسية تستمد قوتها من مصادر متعددة من دعوة

عباسية منظمة ، ومن صلات قوية بين رؤساء التنظيم العقيدى فى بغداد وبين شبكات الدعاة وجماهير الأنصار فى الأقاليم ، ومن بيت من بيوت قريش يتوارث أفراده هذا المنصب السامى ، ويتحدون جميعا للابقاء على هذا الميراث فيهم ، ثم عصبية قوية متماسكة تؤمن بان بقاءها فى بقاء الخلافة قوية ، ولقد ارتبطت مصلحتها بهده الخلافة بصلات متينة .

وما دامت هذه من مصادر القوة فى النظام الخلافى ، فان افتقاد هذه المصادر أو ضعفها يؤدى الى ضعف الخلافة أو قد يؤدى الى تهاويها .

والدارس لتاريخ الخلافة فى العصر العباسى الثانى ، يرى فى وضوح أن صلات الخلفاء بشبكات الدعاة فى كافة أرجاء العالم الاسلامى لم تضعف فحسب ، بل انها تهاوت تماما بعد الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ . ٨٤٧ — ٨٦١ م) ، فلم نسمع عن ذلك النوع من الرسائل الذى رأيناه فى العصر العباسى الأول ، مؤكدا ذلك الاتصال الذى كان عصب القوة بالنسبة للعباسيين ، ومعنى ذلك أن الخليفة فقد بفقده كرأس لذلك التنظيم الذى سيطر على الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ، وأدى هذا بالتالى الى أنه فقد القداسة والهيبة فى نفوس الناس ، وتعرض الخلفاء بسبب ذلك لصور كثيرة من الامتهان ، كما سنوضح فيما بعد .

وكذلك ضعفت الروابط بين الخليفة وملايين الناس الذين أيدوا الحزب العباسى وانخرطوا فى سلكه ، وأغلب الظن أن الخلايا المندسه فى البلاد اما تحللت . واما انصرفت الى تأييد الدعاة الشيعة الذين ملأوا الفراغ فى التنظيم العقيدى منذ العصر العباسى الثانى ، فلم نسمع أن هذه الجماهير كانت تولى الخلافة العباسية ، التى أصبحت تقع تحت الاضطهاد ، نفس التأييد الصبق الذى كانت توليه للمنصور أو الرشيد .

ولا ندرى ماذا كان نصيب الدعاة على وجه التحقيق ، وأغلب الظن

أنه قد تضاءل سلطانهم ونفوذهم . ولم يعد حكام الولايات رؤساء للتنظيمات المحلية كما كان عليه الحال فى العصر العباسى الأول : فقد وهت صلتهم بالخلفاء ؛ وانصرف الكثيرون منهم الى تنمية مصالحهم الذاتية ، والاكثار من المال والجند . توطئة للمساهمة فى الحركة الاستقلالية التى غلبت على الحياة الاسلامية اذ ذاك . وهذا الموضوع فى الحقيقة محتاج الى دراسة متخصصة مستقصاة ، لمعرفة كل جوانبه ، وهو أمر لا يتسع له مجال هذا الكتاب . وان كنا نرجح أن أغلب التنظيمات العقيدية بجماهيرها ودعاتها ، قد هالها ضعف الخلافة ونهاويها، فانصرفت الى تأييد الدعاة الفاطميين الذين انطلقوا من مدينة سلمية بالمغرب الى العالم الاسلامى كله — وكان لهم تنظيم منسق بالغ غاية العمق (١) يمهدون الطريق لقيام الخلافة الفاطمية (٢) ، وذلك بسبب الانقسام الذى وضح فى صفوف البيت العباسى .

وقد لاحت نذر هذا الانقسام منذ بداية الدولة العباسية ، منذ عهد السفاح أول الخلفاء ، ثم اشتدت فى عهد المأمون ومن تبعه . فالسفاح يولى أخاه المنصور العهد ، ويعرض عن عميه عبد الله وسليمان ابنى على . ولم يرض عبد الله بن على عن هذا . اذ كان يرى أنه واخوته قد أسهموا فى قيام الدولة وقاموا بالدور الأكبر ، فهو الذى قاد جيوشها حين التحمت التحاما مباشرا بجيوش الأمويين . وأحرز لها النصر الحاسم فى موقعة الزاب ، ثم تولى مطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميه حتى ألجأه الى مصر ، وأرسل اليه صالح بن على فقضى عليه فى بوصير بمصر ، ثم هم الذين وطدوا الأمر للدولة فى معقل الأمويين فى الشام ومصر . لذلك ثار عبد الله بن على حين تولى المنصور الخلافة بعد أخيه السفاح : اذ كان عبد الله يرى أنه أحق بالخلافة ، وادعى أن السفاح كان

---

(١) انظر : ظهر الاسلام ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ — ١٣١ .

(٢) جمال سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٨٣ — ٨٤ .
حسن ابراهيم وطه شرفه : عبد الله المهدى ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

قد عهد اليه بولاية العهد من قبل (١) . وكأن العباسيين أرادوا أن يمضوا بهذا الانقسام قدما ، فدرجوا على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد . فالسفاح يولى المنصور ثم عيسى بن موسى (٢) والمنصور يولى ولده المهدى ثم عيسى بن موسى (٣) . والمهدى يختار الهادى ثم هارون الرشيد (٤) . وهارون يولى الأمين والمأمون . وقد وضح الانقسام فى موقف الهادى من هارون ، وفى موقف الأمين من المأمون . وقد أحس المأمون بما يتهدد البيت العباسى من خطر ، فعهد بالخلافة الى عباسى واحد هو المعتصم . ثم عاد الانقسام الى الظهور بصوره أشد قوة فى هذا العصر الذى ندرسه فيما حدث منذ عهد المتوكل . وقد كان مركز الخليفة فى العصر الأول من القوة بحيث كان قادرا على القضاء على كل انقسام . اذ كانت العصبية الفارسية التى تسند الخلافه متماسكة تؤمن بتقديس شخصية الخليفة ، أما فى العصر الثانى فان الخلافه كانت تعتمد على العنصر التركى وهو عنصر يتأثر بطبيعته البدوية ويجرى وراء مصالحه الخاصة ، ولا يرى للخليفة من الحرمة ما يراه له العنصر الفارسى المتحضر ، والذى أثر فيه ميل الخلافة الى العنصر التركى فاتجه الى تحقيق ميوله القومية غير معتمد على قوة الخلافة .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه البيت العباسى يفقد هذه الوحدة كان يفقد عنصرا آخر من عناصر القوة . فلقد كانت العصبية العربية تضعف وتتداعى ضعفا طبيعيا تلقائيا ، بسبب تفرق العرب فى الأمصار ، واختلاط دمائهم بدماء الشعوب التى خضعت لنفوذهم ، ولاشتعال العصبية القبلية بينهم فى كل مكان . وكان العباسيون أنفسهم قد عملوا على اهمال هذه العصبية العربية ، واضعاف ما بقى فيها من رمق . وقد وضحت المباعدة بين العباسيين وبين العنصر العربى منذ البداية الأولى :

(١) الطبرى ، ج ٩ ، ص ١٥٦ .
(٢) نفسه ، ج ٩ ، ص ١٥٦ ، ٢٦٦ .
(٣) نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٦٩ .
(٤) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٢ .

فهذا محمد بن على يرسل كتابا الى دعاته الذين وجههم الى المشرق لنشر الدعوة ، يحضهم فيه على ألا يعتمـدوا على الجماعات العربيـة ، وأن يستمدوا قوتهم من مصادر أخرى • بل بلغ من موقفهم المعادى للعرب أن نصحوا أبا مسلم الخراسانى بالتخلص ممن تحوم حوله شبهة مقاومة للدعوة • بل قيل ان ابراهيم الامام كتب الى أبى مسـلم يأمره بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان (١) • فقد خاف العباسـيون ألا يقبل عليهم العرب كما أقبلوا على بنى أمية من قبل، واذن فقد أودى العباسيون بذلك العنصر العربى ، الذى كان من الممكن أن يقف وراء الخلافة العباسية ، وأن يسندها ويحميها فى أوقات الأزمات كما حمى الخلافة الأموية من قبل • وحين احتاجت الخلافة العباسية الى حماية هذ العنصر العربى كان الوقت قد فات : فلقد حاول العرب حماية الخلافة فى عهد المتقى ولكن لم يعد لهم من القوة ما يستطيعون به النهوض بهذا العبء (٢) •

ويظهر أن الخلافة العباسية بعد فقدها تأييد العرب ، قد تخبطت فى سياستها وتذبذبت ، فلم تعد تثق بأية قوة من القوى الموالية لها ، حتى قوة الموالى التى كان لها الفضل الأول فى قيام الدولة ، فقد خشـيت أن تستبد بالأمر، فعملت على تشتيت وحدتها • فقد اعتمدت على الخراسانيين فى انجاح الدعوة واقامة الدولة ، ثم ضربتهم بأن قتلت زعيمهم أبا مسلم الخراسـانى ، ثم اسـتعانت بالفرس ولكنها ما لبثت أن ضربت الزعامة الفارسية حين نكبت البرامكة ثم بنى سهل • فكأن الخلافة فقدت ثقـة العرب ، ثم ثقة الخراسانيين ثم ثقة الفرس بعامة •

---

(١) الطبرى : جـ ٧ ، ص ٤٢٢ •
(٢) الصولى : الراضى والمتقى • ص ٢٢٦ — ٢٤٧ •
Muir the Caliphaie 373.

ودفع خوف العباسيين على الخلافة وتوجسهم الشر دائما ، الى التماس عصبية جديدة ، قدر لها أن تلتهم ما بقى للخلافة من نفوذ ، فقد ضيعت الخلافة العرب والفرس لتستعين بالترك ، فاستبد الترك بالخلفاء واغتالوا سلطانهم . ثم استعانت بالديلم للتخلص من الترك ، فكان حالها مع الديلم كحالها مع الترك . وحين لجأت الى الترك السلاجقة بعد الديلم لم تصل الى شيء . فقد استمرت فى ضعفها ، وخضعت لتسلط كل هذه العصبيات الواحدة بعد الأخرى .

الفصل الثانى

ظهور العنصر التركى فى العالم الاسلامى

فى العصر العباسى الثانى ظهر فى العالم الاسلامى عنصر جديد كبير بجانب العنصرين العظيمين ــ العرب والفرس ــ وهو عنصر الأتراك ، وكان له أثر كبير فى الحياة السياسية والاجتماعية فى الأمة الاسلامية .

وقد عرف العرب الأتراك بعد فتح بلاد ما وراء النهر على يد قتيبة ابن مسلم الباهلى فى العصر الأموى ، وعرفوا فيهم عنصرا محاربا من الطراز الأول . وقد نال الأتراك فى بلادهم حقوقا فى العصر الأموى لم تنل مثلها الشعوب التى خضعت للعرب فى الفتوح الأولى على عهد الراشدين . فقد أشركهم العرب فى الجندية ، وأشركوهم فى غزو ما وراءهم من بلاد الترك الكفار ، كما أبقوا على ملوكهم وعلى نظامهم فى الحكم . وكل ما فى الأمر أنهم يحالفون الدولة الاسلامية ، ويخضعون لولاتها الذين تكون لهم السلطة العليا ، والذين تؤيدهم حاميات عربية قوية فى المراكز الاستراتيجية .

غير أن هؤلاء الأتراك تسللوا الى الحياة الاسلامية . وأخذوا يظهرون على مسرح الأحداث فى بغداد ظهورا واضحا منذ عهد الخليفة المأمون . فقد رأى هذا الخليفة العرب يقفون خلف الأمين . كما لم يكن له أن يطمئن الى الفرس ، فقد رأى طموحهم الى السلطة بما رأى من نفوذ بنى سهل ، وبما علم من طموح أبى مسلم ومن نفوذ البرامكة من قبل . لذلك أحب أن يوجد نوعا من التوازن بين العنصرين الكبيرين ــ الفرس والعرب ــ فبدأ يستخدم المحاربين الأتراك ، وانه كان على نطاق ضيق ، وأخذ يلحق فتيانهم الذين يرسلهم ولاة الأقاليم الشرقية للدولة بفرق الجيش .

وتلقف خلفاء المأمون هذه العصبية الجديدة النامية ، أرادوا أن يستغلوا مواهبها الحربية للحفاظ على دولتهم والابقاء على خلافتهم ، فكان أن أقبل المعتصم على استخدام الأتراك فى الجيش على نطاق واسع . فقد استقدم سنة ٢٢٠ هـ قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التى نسميها « تركستان » وما وراء النهر « اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب وأمعن فى شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية عشر ألفا » (١) . بل ان عددهم زاد كثيرا على مدى أيام المعتصم حتى بلغ سبعين ألفا(٢) ، وكانوا يتكلمون التركية ، فأخذوا يتعلمون العربية . وقد حرص المعتصم على أن تبقى دماؤهم متميزة ليحفظ لهم مميزاتهم الجنسية ، فجلب لهم نساء من جنسهم زوجهن بهم ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهن (٣) . ومن هنا بدأت تتكون شيئا فشيئا عصبية جديدة فى العالم الاسلامى الى جانب العصبيتين الكبيرتين وهما العصبية العربية والعصبية الفارسية . وكان المعتصم بعمله هذا هو موجد هذه العصبية الجديدة .

والذى حدا بالمعتصم الى الاتجاه نحو الأتراك أمور أهمها :

أن جيش الدولة الى عهد المعتصم كان يتكون من عنصرين رئيسيين، هما العنصر الفارسى الخراسانى ، والعنصر العربى . وكان الخراسانيون عماد الدولة نحو قرن ، منذ انشاء الدولة الى أيام المعتصم . كما كانوا حرس الخلفاء . وكان الى جانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب من مضر وربيعة واليمن ، لكن هؤلاء كانوا أقل حظوة وأصغر عددا . فقد ضعف شأن العرب منذ قيام الدولة العباسية ، اذ أنها اعتمدت منذ بدء الأمر على الخراسانيين ، وكان العرب يقاتلون فى صفوف

---

(١) مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٥٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ . ابن كثير ، ج ١٠ ، ص ٢٩٧ .

(٢) جمال سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٢٣ .

(٣) ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٥ .

الأمويين . ثم لمـا انتصرت الثورة العباسية أخذ شأن العرب يضعف ، وثقة الخلفاء بهم تقل على مر الأيام .

ثم ان ثقة المعتصـم بالفرس بدأت تضعف ، اذ رأى أن كثيرا من الجند لمـا مات المـأمون كان هواهم مع ابنه العباس ، تعصبا لأبنـاء المـأمون الذى كانت أمه فارسية . فقد شـغبوا على المعتصم . وطلبوا العباس ونادوه بالخلافة ، وكادت تقع فتنة لولا أن تداركها المعتصم بأن استدعى العباس الى حضرته ، فبايع عمه وخرج الى الجند يزجرهم ويقول لهم « ما هـذا الحب البارد ! ! . قد بايعت عمى . وسـلمت الخلافة اليه » (١) . وقد كان لهذه الحادثة أثر كبير على المعتصم دعاه الى التفكير العميق حتى لا تتكرر مثل هذه الحوادث . وانتهى به التفكير الى أن يستعين بقوم غير العرب والفرس ، فهداه تفكيره الى الترك كما أن هذه الحادثة جعلت المعتصم والعباس لا يصفو أحدهما للآخر : فقد ظهر من قول العباس حين زجر الجنـد على حبهم البارد له . أنه لم يزجرهم على دعوته للخلافة ، وانما يزجرهم على شغب ليس له فاعليه.وظل الجو بين الرجلين جو حذر وتربص ، حتى انكشفت النيات فى أثناء غزوة عمورية، حيث دبرت مؤامرة لقتل المعتصـم اشترك فيها العباس ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقبض المعتصم على العباس وسجنه ومنع عنه المـاء حتى مات، كما سجن أبناء المـأمون كلهم حتى ماتوا فى السجن ، وقتل كل من شارك فى المؤامرة (٢) .

وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك ، وهو أن أمه كانت تركية من الصغد ، وقد شابه المعتصم أخواله فى كثير من طباعه النفسـيه وصفاته الجسدية ، من القوة والشجاعة . ومتانة الجسم والاعتداد بقوة الجسد(٣) فدعته العصبية التركية والتشابه الخلقى والنفسى أن يفكر فى اسـتدعاء الأتراك ففعل .

---

(١) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٣٠٤ ، ابن الأثير : جـ ٦ ، ص ١٦١ .
(٢) الطبرى : جـ ١٠ ، ص ٣٤٣ — ٢٤٨ .
(٣) تاريخ الخلفاء : ص ١٣٣ . ابن كثير : جـ ١٠ ، ص ٢٩٦ .
ابن الأثير : جـ ٦ ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

استكثر المعتصم من الأتراك حتى امتلأت بهم بغداد ، وقد جاءوا ومعهم صفاتهم الأصيلة فيهم . فقد كانوا فى بلادهم يحيون حياة البداوة والخشونة ، وهذه البداوة تكسبهم قوة فى البدن ، ومرانا على الفروسية والقتال ، كما تكسبهم خشونة فى الطبع . وقد تجلى هذا فى معاملتهم للناس ، حتى آذوا أهل بغداد وضايقوهم ، فقد كانوا يجرون خيولهم فى أسواق بغداد وسككها فى تهور ونزق فينالون الصبيان والضعفاء بالأذى . فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبى أو ضرير . ثم بلغ ضيق أهل بغداد بهم أن شكوا الى المعتصم وتهددوه بالدعاء عليه فى صلاتهم حتى تحرج (١) ، ولم ير بدا من اخراج الترك عن بغداد ، فارتاد مكانا وبنى لهم مدينة خاصة هى مدينة سامرا ، وجعل خططها قسمة بين طوائفهم ، وقطع القطائع لرؤسائهم (٢) وانتقل اليها هو مع جنده . وبذلك انتقلت دار الخلافة من بغداد الى هذه المدينة الجديدة ، التى ما لبثت أن عظمت عمارتها وكثر عمرانها . وانتقل اليها طوائف من الصناع والتجار وجلبوا الى أسواقها ألوان الأمتعة وكل ما يحتاج اليه الناس . وكان لهذا أثر كبير على بغداد من الناحية الاقتصادية والعمرانية على السواء . ولذلك اشتد كره أهل بغداد للأتراك ورأوا فى مجيئهم شؤما عليهم سواء فى حلهم أو فى ترحالهم . فأخذوا يسبونهم ويهجون المعتصم ، وأخذ المحدثون منهم يضعون الأحاديث فى ذم الترك تعبيرا عن شعورهم وشعور الناس(٣) .

مكن المعتصم للأتراك فى الأرض ، وقربهم اليه وخصهم بالنفوذ ، فقلدهم قيادة الجيش . وجعل لهم مركزا فى مجال السياسة . وحرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش ، ثم أسقط أسماءهم من الدواوين وقطع أعطياتهم ، وكذلك آثر الترك على الفرس فى كل شىء . ويبدو هذا

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان (مادة تركستان) ، ج ٥ ، ص ٢٣ (طبعة بيروت) .

واضحا من ترتيب الجيش فى غزوة عمورية ، فقد كانت القيادة العليا لمعظم فرق الجيش فى يد الأتراك وعلى رأسهم أشناس (١) .

وقد أخذ نفوذ الأتراك يزداد شيئا فشيئا ، بما كان يرد على عاصمة الخلافة من بلادهم ، وبما تزاوجوا وتناسلوا ، وبما آبدوا من بسالة فى الحروب ، وبتأييد الخلفاء لهم ، فقد جرى الواثق بن المعتصم على سياسة أبيه فى الاستكثار من الترك ورفع مكانتهم . ويقول السيوطى « ان الواثق استخلف سنة ٢٢٨ هـ على السلطنة أشناس التركى ، وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهرا . وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطانا (٢) » وبذلك تقلد الأتراك مناصب هامة فى الدولة اضطر الى ابتداعها حتى يستميلوا اليهم قلوب هؤلاء الأتراك . ومنذ ذلك العهد أخذ التاريخ الأسلامى يصطبغ بالصبغة التركية ، وبعد آن كانت الأحداث تتصل فى العصر الأموى بأعلام العرب من أمثال الحجاج بن يوسف ، وزياد ابن أبيه ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، وفى العصر العباسى الأول بأعلام الفرس من آمثال آبى مسلم الخراسانى ، والبرامكة وبنى سهل وعبد الله بن طاهر ، ظهر التاريخ مرتبطة أحداثه بأشناس ، وايتاخ وبغا الكبير ، وبغا الصغير ، وابن طولون ، والاخشيد وغيرهم من الأتراك ، اذ صاروا هم القابضون على زمام الدولة والمتصرفون فى شئونها .

ومن ذلك التاريخ دخل نزاع العصبية عنصر جديد قونى ، فبعد أن كان النزاع بين العرب والفرس ، أصبح بين العرب والفرس والترك . وكان لكل جنس من هذه الأجناس طابعه الخاص الذى يحكم تصرفاته والذى ينعكس بالتالى على البلاد التى يحكمها .

فطابع العرب ميل الى البداوة والحكم القبلى ، واعتزاز بدمهم

(١) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٧٦ — ١٨٠ .
(٢) الخلفاء : ص ٣٥ .

ولحتقار لغير جنسهم ، وزهو بسيفهم ولسانهم ، ومع انطباعهم بالقلق والاضطراب وسرعة الثورة على الرؤساء الضعفاء ، الا أنهم أسرع ما يكونون قبولا للتأقلم والتحضر ، فاذا تحضروا انغمسوا فى النعيم ، ومالوا الى خصب العيش وتأنقوا فى المأكل والمشرب والملبس • وهم فى أول أمرهم شجعان صرحاء بسطاء ، فاذا انغمسوا فى النعيم وقعوا فى سيئات الحضارة ففقدوا صراحتهم وبساطتهم • ومع ذلك فان الاسلام قد طبعهم بطابعه ونظمه وتربوا على شرائعه ، أو كان لهم الساسة الذين تربوا على هذا وربوهم عليه ، فاستطاعوا أن يبنوا الدول ويقيموا الملك على طاعة أولى الأمر منهم •

وكان طابع الفرس حب الفخفخة والظهور ،وقد ورثوا مدنية قديمة مملوءة بالتقاليد والأوضاع ، فطبعوا عليها بمحاسنها ومساوئها ، فلهم قدرة على تنظيم الحكم ومعرفة واسعة بما يزيد الثروة ويضعفها ، ولهم عقول مثقفة تتذوق الأدب وتهتز له ، وتميل الى العلم وتشجعه بالمعنى الواسع ، الذى يشمل الفلسفة بفروعها ، ولما كانت المذاهب الدينية قد كثرت عندهم ، فقد نقلوا ذلك الى الاسلام فكثرت مذاهبهم فيه • وقد أورثهم ضغط الدولة الأموية عليهم ميلا كامنا الى الانتقام من العرب، والأخذ بثأرهم منهم ولكن فى هوادة ولين • وعلمهم التشيع التقية ، فمكروا وعملوا فى الخفاء ، وأسسوا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحيانا ، وبالدعوة المقنعة بالعلم أحيانًا أخرى ، وهم مع ذلك قد تربوا على تقديس ملوكهم والاعتراف بالحق الالهى لهم •

أما الترك فكان طابعهم حب الجندية والفروسية ، والاستكثار من جنسهم لتقوية حكمهم ، ثم كثرة الخلاف فيما بينهم ، وتعصب كل فريق لقائد منهم كالبدو فى تعصبهم للقبائل ، الا أن الأعراب كانوا يتعصبون للقبائل ، تعصبا للدم ، أما الترك فتعصبهم للقواد تعصبا للمنفعة وتحقيقا للمصالح المادية • وقد كان حبهم للمال عظيما يأخذونه من الرعية فى غير حكمة وأناة ونظر بعيد ، فبدل أن يعنوا بموارد الثروة

ينمونها من اصلاح أراض وتنظيم تجارة واستغلال ومنابع الثروة ، يجيلون أبصارهم فى النـاس يتعرفون أصـحاب الثروة ، فينتهزون الفرصـة لمصادرتهم أو التنكيل بهم ، ثم ينفقون ما تصـل اليه أيديهم فى الترف والنعيم ، فاذا فرغت أيديهـم منه ثاروا على من لديه المـال ، ولذلك فتـاريخهم فى العراق سلسلة من مطالبـات الخليفـة بالمـال . وهم يخضـعون للقوة ، فلما كان الخلفـاء أقوياء كبحوا جماحهم ، ولكن لمـا ضعفت الخلافة تسلطوا على الخلفاء وأرهقوهم بطلب المال واعتدوا على أشخاصهم ، فليس للخليفة عندهم حرمة كما كان الحال عند العرب أو الفرس . ولذلك كان تاريخ الخلفـاء فى عهدهم سلسلة من العزل والسجن. كذلك فعلوا بكل من له مال من الوزراء والكبراء والتجار[1]

وبين هذه العصبيات الثلاث تقسمت المملكة الاسلامية ، ولأجلها وقعت الحروب وثارت الفتن ، فلقد كان لاصطناع المعتصم للأتراك آثار سياسية بعيـدة المدى ، فقد ثار العنصر العربى ودبر المؤامرات ، وكان أبرزها مؤامرة عجيف بن عنبسة والعباس بن المـأمون ، فان العباس بعد أن تخلى عن الخلافة بادىء الأمر ، خضع لتحريض القـائد العربى عجيف الذى ساءه شـدة انحراف المعتصم الى الأتراك وتخطيه العرب ، فدبر مؤامرة لقتل المعتصم واسـتيلاء العباس على الحكم فى أثناء غزوة عمورية .

لكن المؤامرة فشـلت وقتل مدبروها ، فاضعف هذا الحادث من نفوس العرب . كما أن المعتصم كتب لواليه على مصر يأمره باسقاط من فى ديوان الجيش من العرب وقطع أعطياتهم ، فلما فعل الوالى ثار العرب من لخم وجذام بقيادة يحيى بن الوزير الجروى ، الذى رأى أنه لايوجد سبب يدعو الى الثورة أفضل من هذا السبب « لأنه منعنا حقنا وفيأنا » ولكنه هزم وتفرق عنه أصحابه وأسر ، فانقرضت دولة العرب من مصر ، وصار جندها الموالى من عهد المعتصـم ، الى أن ولى أحمد بن طولون

(١) انظر : ظهر الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٦١ — ٦٣ .

التركى ، فاستكثر من العبيد ، وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف غلام تركى ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر مرتزق (١) .

وفى أيام الواثق ثار العرب فى الجزيرة العربية ، فنكل بهم قواد الأتراك وكان على رأس الجيش بغا الكبير الذى أذل أسرى العرب وجلدهم بالسياط ، وعاد ومعه الأسرى من بنى سليم وبنى مرة وبنى النمر فى الأغلال . وكذلك ثارت القيسية بدمشق وقاتلوا جيوش الخلافة ولكنهم هزموا (٢) .

وكل هذا أثر فى نفوس العرب ، وحملهم على الانصراف عن تأييد العباسيين . ولم يكن للعرب من القوة ما يستطيعون بهم استعادة سلطانهم ، فقد سادتهم روح التفرق ، ولم يستطيعوا آن يوحدوا صفوفهم للدفاع عن القضية التى يدافعون عنها . ولم يكن هذا فى مصلحة الخلافة العباسية نفسها ، اذ أنه حين استبد الأتراك بالخلفاء ، لم تجد الخلافة سندا قويا من هذا العنصر العربى الذى كانت بذاتها تنتمى اليه ، والذى كان من الممكن أن يقف وراءها يشد أزرها .

وكما كان علو شأن الترك على حساب العنصر العربى ، كذلك كان على حساب العنصر الفارسى . فلقد كان الفرس فى العصر العباسى الأول هم عماد الدولة وبيدهم تصريف أمورها ، ولقد كانت الخلافة تعتمد عليهم فى أهم الأمور ، وكانوا هم من جانبهم يحتفظون للخليفة بمظهر الأبهة والجلال ، ثم ينشرون نفوذهم تحت ظل الخلافة وسلطانها ، فاذا أحس منهم الخلفاء اسرافا فى الطموح أوقعوا بهم ، ولكنهم سرعان ما كانوا يستردون نفوذهم ، فلما جاء الأتراك أقصوهم عن منزلتهم هذه وغلبوا على الخليفة دونهم فحنق الفرس ولعبت بهم العصبية الفارسية ،

أنفسهم بالمال والرجال بعيدا عن المركز ، ويرمون الى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها — وخصوصا بلادهم الفارسية — والاستقلال بها عن خلفاء بغداد ، فاذا سنحت لهم فرصة بعد فليستولوا على العراق وليتسلطوا على الخليفة نفسه ويقضوا على سلطة الأتراك .

ولقد اشتدت العصبية بين الفرس والترك ، كل يريد الغلبة لنفسه، ويريد القضاء على صاحبه . وكانت بغداد نفسها فى كثير من الأوقات مسرحا للقتال بين الديالمة الفرس وبين الأتراك . وقد نجح الفرس الى حد كبير فى اقتطاع أجزاء من الدولة والاستيلاء عليها ، وتأسيس دول لهم بها مستقلة عن الخلافة من الناحية الداخلية ، وان كانت تخضع للخلافة من الناحية الاسمية ، وقد وصلوا الى العراق نفسه آخر الأمر على يد بنى بويه ، وأخضعوا الخليفة لأمرهم ، وأزالوا ولاية الترك عليه ، وأقاموا سلطانهم فكان شأن الخليفة معهم شأنه مع الترك قبلهم ، اذ كانت هيبة الخلافة قد زالت من النفوس قبل مجيئهم ، ولكنهم مع ذلك كانوا أخف على الخلفاء من الترك فلم يشهد عصرهم مقاتل الخلفاء كما كان فى عهد تسلط الأتراك .

الفصل الثالث

عصر نفـــوذ الأتراك فى العـــراق

انتقلت عاصمة الخلافة من بغداد الى سامرا بعد أن بناها المعتصم وأقطع القطائع فيها لجنده الأتراك ، وظلت سامرا عاصمة الدولة ما يقرب من خمسين سنة ، تحولت فى خلالها الى مدينة عظيمة عامرة بالقصـــور والحدائق ، وأصبحت مقرا للعصـــبية التركية الجـــديدة ، ومنذ ذلك الوقت أخذت تبرز فى حياة الدولة العباسية شخصيات تركيـــة كان لها أثر كبير فى الحياة العامة ، واستطاعت السيطرة على مقاليد الأمور فى عهد المعتصم وما تلاه من الخلفاء ، ومن أبرز هذه الشخصيات فى عهد المعتصم ايتاخ وأشناس ووصيف وسيما الدمشقى ، وكان هؤلاء غلمانا من الترك كانوا مماليك لبعض الأشخاص ، فاشتراهم المعتصم وقربهم اليه ورفع من أقدارهم حتى حجبـــه جمـــاعة منهم وصـــيف وســـيما الدمشقى (١) ، وعلى رأس هؤلاء الأتراك المقربين جميعا حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين ، وهذا اللقب كان يلقب به ملـــوك أشروســـنة ــ وهى كورة من بلاد ما وراء النهر عاصمتها مدينة بنجكت ــ وكان والد حيدر ملك هذه الكورة . وقد رحل حيدر الى بغداد على أثر خلاف وقع بينه وبين أبيه فى عهد المـــأمون ، وسهل على الخليفة غزو أشروسنة ، فوجه المـــأمون اليها جيشا فتحها ، ثم ملكه المـــأمون بعد أبيه (٢) . وقـــد قرب المعتصم الأفشين وجعله من كبار قواده .

وقد خدم الأتراك الدولة فى عهد المعتصم وابنه الواثق ، وكانوا سندها فى حروبها وفى القضاء على الثورات التى نشبت فى أجزائها ، فهم كانوا عماد الجيش فى غزوة عمورية ، واليهم يرجع الفضل فى الانتصار

---

(١) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

(٢) البـــلاذرى : ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

الذى حققه المعتصم على الروم فى هذه الغزوة . كما استطاع الأفشين القضاء على ثورة بابك الخرمى الذى استفحل أمره ، وعجزت جيوش الخلافة عن قهره فى أيام المأمون ، وأصبح يشكل تهديدا خطيرا للخلافة العباسية . فحاربه الأفشين سنتين حتى استطاع آخر الأمر أن يقهره وأن يحمله أسيرا الى سامرا . وقد رفع هذا الحادث من مقام الأفشين عند المعتصم الذى خلع عليه ورفع منزلته ، ويقول المسعودى « وتوج المعتصم الأفشين بتاج من الذهب المرصع بالجواهر ، واكاليل ليس فيه من الجواهر الا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب . ولبس وشاحين .» (١) وقد كان الأفشين أحد قواد الفرق الثلاث فى جيش المعتصم فى غزوة عمورية ، وزاد اعتماد المعتصم عليه بعد مؤامرة عجيف والعباس . كما أخمد الأتراك ثورات العرب فى الجزيرة العربية . وبهذه الأعمال كلها قوى نفوذهم وزاد سلطانهم ، فأحاطوا بالخليفة وكان منهم بطانته وحرسه وحجابه .

بدأ يتكون للأتراك طموح خاص ، وبدأ بعضهم يتجه لتكوين دولة خاصة يحكمها ، سواء تحت ظل الخلافة أو منفصلا عنها ، كما طمح ببعضهم الى الاستئثار الكامل بشئون الحكم فى عاصمة الدولة . وأظهر مثل لذلك ما فعله الأفشين فانه أخذ يرسل الهدايا وما يتجمع لديه من الأموال الى أشروسنة ، كما بدأ يتصل بأصحاب الطموح الذين يريدون الخروج على الدولة ، ويرتب الأمر معهم ، فقد اتصل بالمازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان وحرضه على الخروج ، وقد أقر المازيار حين هزم وقبض عليه بهذا على الأفشين « بأنه بعثه الى الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس .» (٢) وقد حوكم الأفشين وأدين ، فحبسه المعتصم حتى مات فى السجن ثم صلب جسده (٣) .

---

(١) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٥٩ (طبعة ١٩٤٨) .
(٢) نفس المصدر : ج ٣ ، ص ٦١ .
(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٦٣ — ٣٦٧ .

ولقد أحس المعتصم بخطورة مطامع الأتراك ، وبدأ يدرك أن التوازن بين سلطة الخلافة وهذا العنصر الجديد بدأ يختل مما ينذر بخطر ضياع هيبة الخلافة وفعاليتها ، ولهذا وجه الى الأتراك ضربة شبيهة بالضربة التى وجهها أبو جعفر المنصور للخراسانيين بقتل أبى مسلم ، فبطش المعتصم بالأفشين ليكون عبرة لغيره ، وليوقف تيار هذا الطموح .

وقد أثر حادث خيانة الأفشين فى نفس المعتصم تأثيرا كبيرا ، ويظهر لنا من هذه الحادثة التى رواها الطبرى بين المعتصم وأبى الحسين اسحاق ابن ابراهيم والى بغداد منذ عهد المأمون ، مدى برم المعتصم بالأتراك وندمه على منحهم سلطات واسعة فى دولته ، ومقارنة خدمة الفرس للخلفاء من قبله وخدمة الترك له ، ومدحه الأولى وذمه الثانية « قال المعتصم : نظرت الى أخى المأمون ، وقد اصطنع أربعة انجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ! . قال اسحاق : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت . وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم ير مثله . وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطان منك أبدا . وأخوك محمد بن ابراهيم ، وأين مثل محمد ؟ . وأما أنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت ما صار أمره ، وأشناس ففشل أى فشل . وايتاخ . فلا شىء . ووصيف . فلا مغنى فيه ... قال اسحاق : يا أمير المؤمنين . نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعا . واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لا أصول لها ! . قال : يا اسحاق . لمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب » (١) .

لكن المعتصم برغم ذلك لم يتخل عن سياسته فى الاعتماد على الأتراك ، ويبدو أنه لم يكن فى استطاعته غير ذلك ، فقد أصبح الأتراك قوة كبيرة ليس من السهل التخلص منها ، ولم يكن من الممكن الاعتماد على العرب والفرس بعد أن فسد الأمر بينهم وبين الخلافة ، بهذه

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٨ .

الثورات التى قام بها العرب وقاومتها الدولة بعنف وقسوة . وبعد أن أسقط المعتصم العرب من ديوان الجيش . وبعد ثورة بابك الخرمى التى كانت ثورة فارسية بكل امكانياتها . وبعد اقصاء هاتين العصبيتين والاعتماد على العصبية التركية التى تركزت فى العاصمة الجديدة وأحاطت بالخليفة ونالت أكبر المناصب فى الدولة .

وتعتبر خلافة الواثق بن المعتصم (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) فترة انتقال بين عهدين : الأول منهما هو عهد تمكن الأتراك مع بقاء هيبة الخليفة . والثانى ويبتدىء بالخليفة المتوكل ، وهو عهد تمكن الأتراك مع زوال هيبة الخليفة وانحدار مكانته .

ويمتاز عهد الواثق بأن المماليك الأتراك الذين اصطنعهم المعتصم تمكنوا من توطيد نفوذهم وتثبيت أقدامهم ، ونال رؤساؤهم منزلة عظيمة ونفوذا كبيرا ، وبلغ من نفوذهم أن الواثق استخلف أشناس على السلطنة ، فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطانا (١) وأسند اليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر . كما عهد الى ايتاخ بولاية خراسان والسند وكور دجلة (٢) ، وظل هذا القائد يتقدم فى منزلته حتى اذا كان عهد المتوكل كان قد بلغ ذروة منزلته ، فكان اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبربر ، والحجابة ودار الخلافة (٣) وبذلك ازداد النفوذ التركى داخل العراق وخارجه .

وقد عمل هؤلاء القواد الأتراك على تمكين سلطانهم على الخليفة نفسه اعتقادا منهم أنه مصدر السلطان ، فأحاطوا به ، ولم يرغب واحد منهم فى مفارقة سامرا حتى يضمن لنفسه الاحتفاظ بنفوذهم فيها ، وليظل قريبا من الأحداث يراقبها ، ويشارك فى المنافسات السياسية للوصول الى أقرب منزلة من الخليفة ، أو ليحقق لنفسه مآرب شخصية ، ولذلك

---

(١) الخلفاء : ص ١٣٥ .
(٢) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٣٣ .

لم يذهب واحد منهم فى ولايته ، بل كانوا ينيبون عنهم عمالا من قبلهم ، فأناب أشناس عنه فى أعمال غرب الدولة محمد بن ابراهيم بن الأغلب ، وأناب ايتاخ عنه فى ولاية خراسان عنبسة بن اسحاق الضبى(١) . فاستنوا بذلك سنة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وكان هذا وبالا على الخلافة ، فان كثيرا من هؤلاء الوكلاء طمعوا فى ولاياتهم واستقلوا بها ، منتهزين ضعف السلطة المركزية،وعدم معرفة الخليفة بمجريات الأمور فى الولايات: فالخليفة مطمئن الى من ولاه من الأتراك ، وهذا الوالى لم يبرح العراق ، بل هو يحرص على البقاء ليحتفظ بنفوذه لدى الخليفة ، ويعيش عاملا لنفسه سادرا فى حياة اللهو والمجون ، لا يعلم شيئا عما يجرى فى ولايته، فكان طبيعيا أن يستقل الوكلاء بالولايات فيما بعد (٢) .

وكان لازدياد نفوذ الأتراك وبقائهم فى سامرا على هذه الصورة أثره المباشر على منصب الخلافة نفسه ، فقد أصبحوا يتدخلون فى اختيار الخلفاء وتوليتهم ، فأخذوا بذلك صفة أهل الحل والعقد ، بل صاروا فعلا هم أصحاب الحل والعقد .

وكان الخليفة الواثق هو آخر الخلفاء الذى جرت توليته على السنة التى كانت متبعة من قبل . ثم مات الواثق ولم يعين وليا للعهد من بعده . وهنا برزت القوة التركية الجديدة بنفوذها ، وكانت قد وصلت الى حد كبير فى التقدم ، ولكن تقدمها لم يكن فى نطاق الخلافة والطاعة لها كما كان الحال فى تقدم العناصر الايرانية ، وانما كان على حساب هيبتها ، ووقع الصراع بين قوتين رئيسيتين : قوة القديم برجاله ممثلين فى كبار رجال الدولة من أبناء البيت العباسى ، والوزير وكبير القضاة ، وهم أصحاب الحل والعقد فى بيعة الخليفة على ما كان متبعا فى العصر العباسى الأول ، وبين قوة الأتراك الفتية التى تعمل على تثبيت سلطانها . وكانت القوة الأولى راغبة فى مبايعة محمد بن الواثق ، وكانت القوة الثانية

(١) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٥ .
(٢) محمد توفيق خفاجى : ص ٢٥ .

ترشح جعفر بن المعتصم . وقد كان الموقف فى صالح الأتراك اذ أن محمد بن الواثق كان صبيا لا يستطيع الاضطلاع بمهام الخلافة ، لذلك عارض قواد الأتراك ترشيحه بشدة ، وتولى لواء المعارضة وصيف التركى وأبدى وجهة نظر مقبولة وهى أن محمدا لا يصلح للخلافة لصغر سنه(١)، وحين قبل هذا الرأى أعلن الأتراك ترشيحهم لجعفر وسارعوا ببيعته « فكان أول من بايعه سيما التركى المعروف بالدمشقى ، ووصيف التركى. وبذلك أسند اليه منصب الخلافة ، وأمر باعطاء الجند لثمانية أشهر »(٢). ولقب بالمتوكل . وكان لنجاح الأتراك فى تولية هذا الخليفة أثر كبير فى تولية من جاءوا بعده من الخلفاء ، وأصبح سابقة جرت عليها الأمور من بعد ، اذ أصبح قواد الأتراك هم أهل الحل والعقد ، أو هم أهم أهل الحل والعقد ، لاتتم الخلافة لأحد الا بموافقتهم ورضاهم. وبذلك أحكم الأتراك قبضتهم على شئون الخلافة ، وأصبحت الأمور تصرف بارادتهم .

وكان لنفوذ قواد الأتراك على هذه الصورة أيضا أثر كبير على منصب الوزارة ، اذ ضعفت الى جانبهم شخصيات الوزراء ، فكثر عزل الوزراء ومصادرتهم وحبسهم ، واستتبع ذلك انحطاط شخصيات الوزراء أنفسهم اذ لجأ كثيرون الى الرشوة وبذل المال للوصول الى منصب الوزارة ، وبذلك تقلد الوزارة شخصيات كان همها الوصول الى المنصب ، ثم جمع المال لتعويض ما أنفقوا ، وبذلك ضاعت هيبة الوزير وتناقصت قيمته شيئا فشيئا حتى لم يصبح آخر الأمر الا مجرد كاتب للخليفة ، وأصبحت حقيقة السلطان فى يد القواد .

لم يخضع الخلفاء للنفوذ التركى فى سهولة ويسر ، بل صارعوه مصارعة شديدة ، لكن لم يكن لديهم من القوة ما يستطيعون به صد هذه القوة التركية النامية ، فقد كانت سامرا عاصمة الخلافة قاعدة

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٦ .
(٢) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٨ . ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١٢ .

للنفوذ التركى . ولم يستطع الخلفاء التغلب على الأتراك الا بعد أن عادوا الى بغداد ، فاستعانوا بالعناصر الأخرى الموجودة فيها ، والا بعد أن ظهر فى الأفق قوة جديدة أخرى هى قوة الديلم التى بدأت تصل الى العراق، وتشارك فى الأحداث . وما زالت تنمو حتى استطاعت آخر الأمر أن تقهر النفوذ التركى وتحتل مكانه .

وخلفاء هذا العصر الذى نسميه « عصر نفوذ الأتراك » هم : المتوكل (٢٣٢—٢٤٧ هـ) والمنتصر (٢٤٧—٢٤٨ هـ) والمستعين (٢٤٨—٢٥٢هـ) والمعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) والمهتــدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) والمعتمــد (٢٥٦—٢٧٩هـ) والمعتضد (٢٧٩—٢٨٩هـ) والمكتفى (٢٨٩—٢٩٥هـ) والمقتــدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) والقــاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) والراضى (٣٢٢—٣٢٩ هـ) والمتقى (٣٢٩—٣٣٣ هـ) والمستكفى (٣٣٣—٣٣٤هـ) .

وعهد الخلفاء الخمســة الأوائل منهم كان عهد التفوق التركىّ على الخلفاء . وكان عهد الثلاثة الذين جاءوا بعدهم عهدا انتعشت فيه الخلافة واستطاعت أن تسترد نفوذها . ثم عادت الى الانتكاس مرة أخرى فى عهد المقتدر والقاهر اللذين كثرت فى عهدهما الفتن والدسائس ، وتناقصت موارد الدولة المــالية ، حتى عجزت الخلافة عن تسيير دفة الأمور ، حتى اذا جاء عهد الراضى ظهر منصــب أمير الأمراء ، الذى انتقلت اليه كل سلطات الخليفة وكل اختصاصات الوزير ، ولم يبق للخليفة من منصب الخلافة الا الاسم ، وقنع بأن يخطب له على المنابر وتضرب السكة باسمه ، ولم تستطع الخلافة استرداد سلطانها بعد ذلك ، فقد انتهى عصر الأتراك حين حل محلهم الديلم فورثوا سلطة أمير الأمراء فى عهد بنى بويه ، ثم تلاهم السلاجقة فحكموا باسم الخلافة .

عهــد تفــوق الأتراك :

تولى المتوكل الخلافة بقوة النفوذ التركى ، وقد كان يبغض الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ويحقد عليه ، لأنه كان أهانه فى عهــد أخيه

الواثق ثم زاد حقده عليه لأن الوزير كان من الحزب الراغب فى تولية محمد بن الواثق ، وبذلك عهد المتوكل الى ايتاخ التركى باعتقاله فاستدرجه هذا وحبسه وصادر أمواله . ثم عذبه وقتله (١) . وقوى مركز ايتاخ عند الخليفة ، فعهد اليه بكثير من المناصب . فاليه الجيش والمغاربة والأتراك والأموال والبريد والحجابة ودار الخلافة (٢) .

الا أن المتوكل ما لبث أن أدرك حقيقة الأتراك ، ولمس منهم الاستبداد بشئون الخلافة ، وأحس منهم قلة الاحترام لشخصه ، فلقد خرج مرة متنزها الى ناحية القاطول ، وشرب وعربد على ايتاخ ، فهم ايتاخ بقتله ، فلما أصبح أخبر المتوكل بذلك ، فاعتذر الى ايتاخ ، وقال له :

« أنت أبى وربيتنى » (٣) ولقد أثر هذا الحادث فى نفس المتوكل وأحس منه بالمهانة ، لذلك دبر مكيدة أبعد بها ايتاخ عن سامرا ، ثم أسند الحجابة بعده الى وصيف ، ثم استدرج ايتاخ وحبسه وقتله (٤) . ثم أتبع المتوكل بطشته بايتاخ بتقرير ولاية العهد من بعده ، ولعله قصد أن يبعد الأتراك عن التدخل فى اختيار الخلفاء ، فعقد البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد ، وهم محمد ولقبه المنتصر بالله ، وأبو عبد الله محمد ولقبه المعتز بالله ، وابراهيم ولقبه المؤيد بالله ، وعقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل . وقسم ادارة الدولة بينهم متبعا فى ذلك التقسيم الذى جرت عليه الخلافة العباسية منذ عهد المهدى . وكانت العادة أن يعهد بالمغرب لولى العهد الأول ، وأن يعهد بالمشرق لولى العهد الثانى . فأعاد المتوكل تقاليد الخلافة القديمة . فأما المنتصر فولاه المغرب كله ، وأما المعتز فولاه المشرق كله ، وأما المؤيد فأقطعه جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين .

(١) ابن الأثير : ج ٧ ... ١٣ ، ١٤ .

(٢) ... ابن الأثير : ج ٧ ...

(٣) ...

(٤) ...

ثم أضاف للمعتز فى سـنة ٢٤٠ هـ خزن الأموال فى جميع الآفاق ودور الضرب وأمر أن يضرب اسـمه على الدراهم (١) وبذلك حرم المتـوكل الأتراك مما كان فى أيديهم من الولايات والمناصـب الكبيرة • ولذلك اشتد حقدهم عليه ، فأشاعوا الاضطراب ، وأصبحوا مصدر قلق ، فهم فوق كرههم للعرب والفرس ، ليسوا على وفاق فيما بينهم ، وكل فريق منهم يتعصب لقـائد من قوادهم ، وأصبحت لذلك مؤامراتهم ودسـائسهم لا تنقطع ، وأصبح همهم جمع المـال بكل سبيل •

أحس المتوكل بالضيق من هذا الجو الخانق الذى يثيره الأتراك ، وأحس ببغضهم له وتربصهم به ، فكان عليه أن يفكر فى وسيلة يتخلص بها منهم ويعيد أمور الدولة سيرتها الأولى • ولمـا كان وجوده فى سامرا يجعله فى قبضتهم ، فقد فكر فى نقل العاصمة من العراق الى دمشـق لعله يجد فى الشام من العنصر العربى ما يقف به فى وجه هـذا العنصر التركى • لكن العلاقات بين العباسيين وبين أهل الشام لم تكن طيبة منذ قيام الدولة العباسية ، وزادها سوءا ما حدث فى أيام المعتصـم حين ثار المبرقع اليمانى ، وثار أهل دمشق ، فعصفت بهم الدولة • فلم يسـتطع المتوكل لذلك تحقيق غايتـه بين أظهرهم ، بل شـغب عليه جند الشـام « فاجتمعوا يطلبون الأعطية ، ثم خرجـوا الى تجريد السـلاح والرمى بالنشاب » (٢) واضطر الى العودة الى سامرا بعد أن قضى بالشـام نحو ثلاثة أشهر •

وقد بلغ العداء بين المتوكل والأتراك حدا لابد معه من أن يتخلص أحدهما من الآخر • فأما المتوكل فقـد عزم على أن يتخلص نهـائيا من الأتراك ، ولكن ابنـه المنتصر كان يشايعهم ، وقد كان ينقم على أبيـه قسـوته على العلويين ، وذمه لعلى بن أبى طالب ، وهدمه قبر الحسـين وتنكيله بالشيعة ، وكان المنتصر يعطف على الشـيعة ويرى فى العلويين

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٧ ، ١٨ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١١٥ .

قرابة يجب ألا تنتهك حرمتها ، وبسبب هذا التعارض فى الرأى والميول فسد الجو بين الولد وأبيه ، فعزم المتوكل على اجراء تغيير فى ولاية العهد بتقديم المعتز على المنتصر فى ولاية العهد . لكل ذلك انضم المنتصر الى الأتراك وشايعهم على أبيه ، فقر رأى المتوكل على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم(١) . وعزم الحزب الآخر على الفتك بالمتوكل والتخلص منه .

كان ذلك مفترق طرق فى حياة الخلافة العباسية . فان نجح المتوكل زالت دولة الأتراك ، وعادت غلبة الفرس ، واستأنفت الخلافة سيرتها الأولى ، وان نجحوا هم تدعم سلطان الأتراك وضاعت هيبة الخلافة . وشاء القدر أن ينجح الأتراك ، فقد سبقوا المتوكل بتدبيرهم ، فباغته جماعة منهم على رأسهم بغا الصغير وباغر حارس الخليفة وهو الذى تولى قتله ، ثم قتلوا وزيره الفتح بن خاقان . ثم أقبلوا الى ابنه المنتصر وبايعوه بالخلافة ، وأخذوا له البيعة من وجوه الدولة ومن بقية القواد ، كما أحضروا أخويه المعتز والمؤيد فأجبروهما على مبايعته ، واستعملوا العنف مع الغاضبين من الناس (٢) .

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فلم يقتل خليفة منهم من قبل الا الأمين الذى قتل بعد هزيمته فى الحرب . ولم يكن قتل الخليفة اعتداء على المتوكل وحده ، بل كان قتلا لسلطان كل خليفة بعده ، ولم يكن قتلا بيد باغر التركى وحده وانما كان بيد الأتراك . وكان فى قتله تثبيت لسلطان الأتراك ونفوذهم ، وانذار للبيت العباسى كله أنه من أراد أن يلى الخلافة فليذعن اذعانا تاما لرغبة الأتراك أو فليوطن نفسه على القتل .

وهكذا كان مصرع المتوكل مصرعا لسلطان الخلافة ومجدا للأتراك

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٦٣ .
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٣١ — ٣٦ .

فلم يعد للخليفة معهم شيء الا مظهر اسمي اقتصر على السكة والخطبة « وصار يضرب ذلك مثلا لمن له ظاهر الأمر ، وليس له من باطنه شيء ، فيقال : « قنع فلان من الأمر بالسكة والخطبة ، يعني قنع بالاسم دون الحقيقة » (١) .

وتألم الناصر لما وصلت اليه الخلافة ، وعبر الشعراء عن هذا الألم ، فبكوا المتوكل ، وبكوا معه مكانة الخلافة وحرمتها ، وتحسروا على عهد الفرس الذين كانوا يحتفظون للخليفة بأبهته وعظمته ، ويعملون ما عملوا في ظل خدمته ، وكان الناس يرون في الخلافة مجد الأمة وعز الاسلام (٢) .

كان طبيعيا أن يكون المنتصر خاضعا لنفوذ الأتراك ، ألم ير كيف قتلوا أباه ، واستخلف هو تحت ظلال سيوفهم ، فأنى له القوة التي يقف بها في وجوههم ، وبخاصة بعد أن أسلم لهم يده وقبل منهم ما فعلوه بأبيه ؟ !

بلغ سلطان الأتراك ذروته فلم يكن أحد يستطيع الاجتراء على معارضتهم ، وكانوا هم يحرصون على تثبيت سلطانهم على الخلافة ، فيقصون عنها من يرون فيه احتمال معارضتهم . وقد خشوا من المعتز والمؤيد ابني المتوكل لو ولي أحدهما الخلافة بعد المنتصر . لذلك أمروا المنتصر أن يخلعهما من ولاية العهد ، حتى يحولوا بينهما وبين الوصول الى منصب الخلافة ، وحتى يتركوا لأنفسهم الحرية في اختيار من يرون مصلحتهم في استخلافه ، ولم يملك المنتصر أن يعترض ، فأذعن للأمر وهو كاره وخلع أخويه ، ولكي يظهر سخطه ويعتذر عن عمله دعا أخويه والأتراك وقوف . وقال : أترياني خلعتكما طمعا في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له ؟ . والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ، واذا لم يكن

(١) الفخري : ص ٣٨ . ظهر الاسلام : ج ١ ، ص ١١ .
(٢) انظر ظهر الاسلام : ج ١ ، ص ١٢ — ١٩ .

فى ذلك طمع ، فوالله لأن يليها بنو أبى أحب الى من أن يليها بنو عمى . ولكن هؤلاء ــ وأومأ الى سائر الموالى (يريد الأتراك) ممن هو قائم عنده وقاعد ــ ألحوا على فى خلعكما فخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما » (١) .

وهكذا أدرك المنتصر أنه لم يعد له من الأمر شيء ، وانه حين مالأ الأتراك على أبيه انما مالأهم على قتل سلطان الخلافة نفسها . فاشتد كرهه للأتراك ، وعزم على التخلص من زعمائهم ، وكان كثيرا ما يبدى تبرمه بهم وبغضه لهم ، وعزمه على قتلهم حتى كان يسميهم « قتلة الخلفاء » ويسبهم فى مجالسه ، ويقول لجلسائه « قتلنى الله ان لم أقتلهم » ولكن هذا الجهر بالعداء لهم نبههم اليه فتخلصوا منه ، يقول المسعودى ان الطيفورى الطبيب سمه فى مشرط حجمه به ، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك فأخرج وصيفا فى جمع كثير الى غزاة الصائفة بطرسوس . ونظر يوما الى بغا الصغير ــ وقد أقبل فى القصر وحوله جماعة من الأتراك ــ فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلنى الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله . فلما نظر الأتراك الى ما يفعل بهم ، وما قد عزم عليه ، وجدوا منه فرصة(٢) » !

فلما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر تعاهد الأتراك على توحيد كلمتهم ، فاستحلفوا القواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بما يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش ــ وجميعهم أتراك ــ وكأنهم بذلك قد جعلوا من أنفسهم أهل الحل والعقد فى اختيار الخليفة . ولم يرض هؤلاء أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلا يغتالهم ، وأجمعوا على اختيار أحمد بن محمد المعتصم ولقبوه المستعين ، وأخذوا له البيعة من سائر الناس . وأحاطوا بالخليفة الذى وكل نفسه وأمر

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٣٨ ، ٣٩ . الطبرى : ج ١١ ، ص ٧٦ .
(٢) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ١٣٤ .

دولته اليهم ، فقد استكتب أحمد بن الخصيب وعقد لأتامش على مصر والمغرب واتخـذه وزيرا ، كما جعل شاهك الخادم على داره وكراعه وحرمه وحراسه وخاص أموره ، وقدمه وأتامش على سائر الناس (١) . وهكذا جعل الأتراك من أنفسهم وحدهم أهل الحل والعقد ، واستولوا على أكبر المناصب ، فصارت الدولة بكليتها فى أيديهم .

ولم ترض الأطراف الأخرى فى سامرا بهذا العمل ، فنشبت الثورة ونادى فريق من الناس باسم المعتز (٢) ، وتكاثر العامة والأتراك ، وظلت الحرب سجالا فى الشوارع واستباح كل من الفريقين دم الآخر ، لكن الأمر انتهى بتغلب الأتراك .

وكذلك هاج الناس فى بغداد لمـا رأوا من استبداد الأتراك . وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه دون الرجوع منهم الى ديانة ، ولا نظر الى مصالح المسلمين « فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير » (٣) ولكن الأتراك هزموهم بعـد معركة كبيرة سقط فيها كثير من القتلى من الجانبين .

وهكذا بدأ عهد المستعين بالاضطراب والتطاحن على السلطة . لكن الأتراك لم تدم وحدتهم ، فانهم بعد أن انتصروا انشقوا على أنفسهم ، وبدأ يتكون من بينهم أحزاب متناحرة على الاستئثار بالنفوذ .

وقد وجد الخليفة فرصـته فى الخلافات التى نشـأت بين الأتراك للتخلص من زعمائهم شيئا فشيئا . وبدأ فنفى أحمد بن الخصـيب الى أقريطش واستصفى أمواله . ثم قتل أتامش حين تآمر عليه وصيف وبغا وأغريا به الموالى لاستئثاره بالأموال دونهم (٤) . ثم ما لبث الخلاف

---

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٤١ .
(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٨٢ .
(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٨٥ .
(٤) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٤٢ .

أن استشرى بين باغر وبين وصيف وبغا . فقد أراد باغر أن يستولى على السلطة وجمع حوله الأنصار . فاتفق الآخران على التخلص منه . وأحس هو بتآمرهما مع الخليفة عليه فعمل بدوره على التخلص منهما ومن المستعين . واستغل الخليفة هذا الخلاف فاتفق مع بغا ووصيف . وانتهى الأمر باستدراج باغر وقتله (١) وثار لباغر أصحابه وهاجموا مقر الخليفة ونشب القتال .

وأدرك الخليفه أنه طالما بقى فى سامرا فلن يستطيع حسم الموقف لصالح الخلافة . فهرب الى بغداد حتى يستعين بمن فيها من العرب والفرس .

على أن لجوء الخليفة لحماية أهل بغداد جعل الأمر مثارا للاحتكاك العنصرى بين الأتراك من جهة وبين العرب والفرس من جهه أخرى . فقد كان انتقال الخليفة من سامرا الى بغداد بمثابة فرصة جديدة استغلها الفرس والعرب لكى يثبتوا جدارتهم مرة أخرى فى تولى أمور الدولة . وكان فى الوقت نفسه فرصة لأهل بغداد أن تعود مدينتهم دارا للخلافة فيعود اليها مجدها وانتعاشها القديم .

وأدرك الأتراك فى سامرا أن وجود الخليفة فى هذه المدينة ضرورى لكى يكسبهم الهيبة ، ويجعل سلطتهم أكثر شرعية وثباتا . لذلك حاولوا ترضى الخليفة ، فأرسلوا اليه وفدهم يعتذرون ويسألونه الصفح . وبعد مناقشة كانت أقرب الى العتاب والتوبيخ من جانب الخليفة : والى الاعتذار والتضرع من جانب الأتراك . رفض الخليفة أن يعود معهم الى سامرا (٢) .

والراجح أن رفض الخليفة كان بتحريض من وصيف وبغا ، اللذين أدركا أن الحزب المعادى لهما فى سامرا على قدر كبير من القوة . ورأيا

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٧ .
(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٩٧ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٨ .
ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٢١ .

أن فى عودة الخليفة هزيمة لهما قد تؤدى الى تجريدهما من مناصبهما وربما تؤدى الى قتلهما .

فلما لم يذعن الخليفة المستعين الى رجاء الأتراك . جاهروا بعدائه وأعلنوا خلعه وبايعوا للمعتز بسامرا وتكتل حوله أغلب الأتراك . بينما ظل أهل بغداد على ولائهم للمستعين وبيعتهم له ومعهم ابن طاهر الفارسى الأصيل وقليل من الأتراك . ووقعت الحرب بين الطرفين . وحاول كل منهما حصر الآخر وقطع الموارد عنه . فأما الخليفة فقد كتب الى الأقاليم يستنجد بها ويقطع الميرة عن سامرا . وأما الأتراك فقد عملوا على حصر بغداد ومنعوا عبور الناس اليها . وتحمل الناس ضغطا شديدا وكانت سنة قاسية عذبوا فيها وتعرضوا لكثير من السلب والنهب وكوارث القتال (١) .

وقد قاتل أهل بغداد قتالا شديدا ، لكن الأتراك نجحوا فى حصر بغداد ، ولم يكن العنصر العربى من القوة بحيث يستطيع الصمود طويلا ، فضلا عن أن الطرف الآخر استطاع أن يغرى بغا ووصيفا بالتخلى عن المستعين بأن وعدهما بأن يسترد هذان مراكزهما (٢) ، وبذلك استرد الحزب التركى وحدته ، وأصبح بذلك مركز المستعين ضعيفا . ورأى ابن طاهر اتفاق الأتراك وضعف حزب المستعين فتخلى عن مناصرته بل رأى أنه لكى يأمن على نفسه لابد له أن يعمل على أن يتنازل المستعين عن الخلافة (٣) .

وتحت هذه الظروف خلع المستعين نفسه وبويع للمعتز بالخلافة . وخرج المستعين الى منفاه بالبصرة ، ولكن الأتراك خشوا من بقائه حيا فأرسلوا اليه جيشا قتله ، وترك جثته فى العراء حتى دفنه العامة (٤) ، فكانت هذه خطوة أخرى فى سبيل سيادة الأتراك .

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٨ — ٥٨ .
(٢) نفس المصدر : ص ٥٦ .
(٣) Mutr, the Caliphat p. 58.
(٤) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٦٤ .

لكننا مع انتصار الأتراك نلمس ظاهرة سيكون لها أثرها عما قريب وهى أن المغاربة — وهم من عرب الحوف بمصر دخلوا الجيش فى عهد المعتصم — اشتركوا مع الأتراك فى قتال قوات المستعين ببغداد ، ومن ثم نشـــهد بروز قوة أخرى من الممكن أن يكون لها دور الى جانب قوة الأتراك . كما نشهد ظاهرة أخرى وهى أن القيادة العامة لقوات المعتز التى قاتلت المستعين أسندت الى رجل من البيت العباسى وهو أبو أحمد بن المتوكل وهو الموفق ، وهو الذى باشر القتال والمفاوضة حتى تم الأمر للمعتز (١). وبتولية الموفق قيادة الأتراك ، انتقل الأمر من يد قواد الأتراك الى يد رجل من البيت العباسى ، وسيكون لهذا أثره فيما بعد ، فان هذا الرجل هو الذى أمسك بزمام الأمر والنهى فى أيام المعتمد واستطاع بقـــوة شخصيته وخبرته أن يكبح غير قليل من جماح الأتراك .

ولم تكن ظروف الخلافة فى عهد المعتز خيرا مما سبقها ، فان الخلافة عادت الى سامرا ووقعت تحت النفوذ التركى الذى حاول المستعين أن يبتعد عنه ، وزاد استبداد الأتراك ، وكثرت اضطراباتهم ومطالباتهـــم بالمـــال . ولمـــا كانت الأموال فى نقص مستمر لكثرة الاضطرابات وتأخر أموال الولايات ، بحيث لم تعد تفى بحاجة الجند الأتراك ومطالبهم التى لا تنتهى فقد ازدادت اضطراباتهم ، وأخذوا يبحثون عن فرصة توصلهم للمال ، وكانوا دائما يجدون مثل هذه الفرصة حين يزيلون خليفة ويأتون بآخر ، فيعطيهم الخليفـــة الجديد رزق عدة أشـــهر فوق ما ينتهبونه من أموال حين يعزلون الخليفة أو يقتلونه . ووقع اختيارهم على المؤيد ، فلما علم المعتز بما يعتزمه الأتراك قبض على أخيه المؤيد وأجبره على خلع نفســـه من ولاية العهد ، ثم انتهى أمره الى القتل ، وكذلك قبض على أبى أحمد الموفق وحبسه ثم نفاه الى البصرة ، ثم الى الحجاز (٢) .

ثم اتجه الخليفة الى التخلص من زعماء الأتراك منتهزا فرصـــــة

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٩ — ٥٨ .
(٢) المسعودى : ج ٤ ، ص ١٧٦ ؛ ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٠ .

الخلافات بينهم ، وكانت أحزابهم لا تكف عن الخلافات ، واذا كانت تأتى فترات يتوحدون فيها أمام محاولات الخلفاء للقضاء عليهم ، فان زعماءهم لا يلبثون أن يعودوا لمطامعهم وخلافاتهم ، للاستئثار بالسلطة والحصول على الأموال وجمع الأنصار حولهم . وكان أول ما اتجه اليه الخليفة هو القضاء على بغا ووصيف باعتبارهما المسئولين عن الحرب الأهلية التى وقعت بينه وبين المستعين ، وكان لها أسوأ الأثر وبخاصة فى الأحوال الاقتصادية ، وما يتعلق بمعايش الناس ، فقد ارتبكت الأحوال، وتعرض الناس للسلب والنهب ، وقلت المحاصيل بانصراف الناس عن الأعمال ، وأحرقت كثير من دكاكين التجار ومتاجرهم ، وتحمل أهل بغداد النصيب الأكبر من هذه الخسائر ، فقد طال حصار بغداد ومنعت الموارد عنها ، ووقع معظم القتال فيها وفيما حولها . وكذلك لم تنج أقاليم العراق من هذه الأضرار ، فقد أصاب الأنبار وغيرها ما أصاب بغداد (١).

لذلك كتب المعتز الى محمد بن عبد الله بن طاهر الوالى على بغداد أن يسقط اسم وصيف وبغا من الدواوين ! وأخذ فى التدبير لقتلهما مرتقبا الفرصة المناسبة . وقد واتته الفرصة حين ثار الجند مطالبين بأرزاقهم لأربعة أشهر. فأرسل لتهدئتهم بغا ووصيف ، ولما أغلظ وصيف فى الرد على الجند وثبوا عليه فقتلوه . وبذلك تخلص المعتز من أحد الرجلين . وليتخلص من الآخر عمد الى مضاعفة بايكباك أحد زعماء الأتراك الذى كان ينافس بغا ويعتبره خصما له (٢) . وحاول بغا فى سبيل كسر الحزب المعادى له أن يعيد مأساة المستعين بتحريض الخليفة على الخروج الى بغداد ولكن خطته فشلت وانتهى الأمر بقتله (٣) .

كانت هذه الحوادث المتتالية قد زادت من نفوذ الأتراك . فكثر عسفهم بالناس وتعديهم عليهم . الأمر الذى أثار عليهم بقية الطوائف

---

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٥٣ .
(٢) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٢٥ .
(٣) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٦٥ .

الاخرى، وكانت قوة المغاربة قد أخذت فى الظهور منذ الحرب بين المستعين والمعتز وأصبح يحسب لها حساب ، فتطلع رجالها الى أن يكون لهم دور الى جانب الأتراك • وتزعمهم رجلان هما محمد بن راشد ونصر بن سعيد وهاجموا الأتراك وأبعدوهم عن القصر وقالوا لهم « كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر » وأعانت العامة وبعض فرق الجيش المغاربة على الأتراك فى الأعمال (١) • وبدا فى الأفق احتمال قيام نوع من التوازن بين القوى يكبح جماح هؤلاء الأتراك الذين تحولوا الى عصابة تثير الفوضى وتقلق الأمن •

لكن الأتراك ما لبثوا أن توحدوا تحت زعامة بايكباك • وقتلوا زعيمى المغاربة واستعادوا نفوذهم وارتكبوا سلسلة من أعمال الفوضى والارهاب • فقتلوا الوزير أحمد بن اسرائيل واعتقلوا الكتاب وصادروا أموال الناس (٢) ، وما لبثوا أن أرغموا المعتز على خلع نفسه ، ثم جاءوا بمحمد بن الواثق وكان ببغداد ، فأسندوا اليه الخلافة ولقب بالمهتدى ، وأسلموا المعتز الى من يعذبه حتى مات (٣) •

وكان المهتدى رجل ورع وتقوى ، وكان شديد الرغبة فى الاصلاح ، فقد رأى الفساد يعم الدولة ، لافتقارها الى الأمن فى الداخل ، وبقيام التطاحن بين الطوائف ، واهمال العمال والرؤساء ، والتهالك على الملذات وارتكاب المنكر والموبقات • كما رأى تفكك البيت الخلافى نفسه ، وانصراف الخلفاء الى اللهو وبعدهم عن الرعية ، الأمر الذى أدى الى عدم ادراكهم لمشاكل الناس مما قلل من قيمة الخلفاء وقدرتهم على تصريف الأمور فى نظر الناس ، وجعل من الأتراك حلقة الاتصال بين الخليفة ورعيته •

فرأى أن يبدأ الاصلاح من البيت الخلافى نفسه ، فتجرد من مظاهر

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٥٠ •
(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ •
(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٨ — ٧٠ •

الأبهة وزخرف الحياة ، مقتديا في ذلك بالخليفة الورع عمر بن عبد العزيز. ثم نهى عن المنكر وحرم الشراب ، ونهى عن القيان ، وأظهر العدل ، وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤمهم . ثم دقق الاشراف على الدواوين ، حتى لقد ضرب جماعة من الرؤساء أهملوا في أعمالهم (١) ، وأخذ ينظر في المظالم بنفسه ويرد الكتب الى النواحي يأمر فيما يتظلم به اليه ، حتى ثقلت وطأته على العامة والخاصة (٢) .

كانت سياسة المهتدى قمينة أن تؤتى ثمارها ، لولا أن الأحوال العامة من حوله كانت فوق طاقته ، ففي مستهل خلافته ثار العامة في بغداد وأبوا أن يبايعوا له ، واضطر الى بذل المال لاخماد ثورتهم ، ثم ثار الجند فيها أيضا لأن والي بغداد استولى لنفسه على رواتبهم . وأذكى العلويون نار الثورة في كثير من البلاد الاسلامية ، وبدأت ثورة الزنج التي هددت الدولة العباسية زهاء أربعة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وثار الخوارج في الموصل ، كما خرج على الخلافة أحمد بن عيسى ابن الشيخ — وكان أبوه واليا على فلسطين والأردن — في الشام وتغلب على دمشق ، وامتنع عن حمل المال الى دار الخلافة ، وطمع في الاستيلاء على سائر بلاد الشام وعلى مصر (٣) . ثم كان المهتدى محوطا بطعمة من الأتراك لم تترك له سبيلا الى الاصلاح .

كانت علة الخلافة الحقيقية في ذلك الوقت كامنة في الأتراك ، وكان نجاح الخلافة في التخلص من نفوذهم هو سبيل الاصلاح الحقيقي ، لكي تستعيد الخلافة فعاليتها وقدرتها على تصريف الأمور في حرية . لذلك رأى المهتدى لكي يكسر من شوكتهم أن يضرب رءوسهم بعضهم ببعض ، وأن يثير عليهم جندهم ليبعد عنهم القوة التي يستخدمونها لأغراضهم ، فلقد أسرف قواد الأتراك في حبهم لجمع المال وشجعهم

(١) القرمانى : الأول وآثار الدول : ص ١٦٣ .
(٢) عن المهتدى : انظر المسعودى ، ج ٤ ، ص ١٨٣ — ١٩٤ .
(٣) انظر : ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٧١ — ٧٦ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ١٠ .

فى الحصول عليه والاستئثار به دون رجالهم . حتى حقد عليهم جنودهم وثاروا بهم ، ورفعوا شكاياتهم للخليفة مقدمين له بذلك الفرصة التى ينتظرها ليتخلص من نفوذ هؤلاء القواد .

لم تكن ثورة الجند فى هذه المرة من تلك الثورات التى كان يعدها القواد لارهاق الخلفاء وللحصول على الأموال ، وانما كانت ثورة على ما وصلت اليه الأوضاع العامة من السوء . والواقع أن الجند كانوا قد برموا بقوادهم وخلافاتهم وتنازعهم على السلطة ، وأحيانا بأنهم انما يستخدمون أداة لكى يحصل القواد على المال ، فاذا ما وصلوا اليه اختزنوه لأنفسهم واستأثروا به دونهم ووكلوهم الى الخلافة يأخذون من خزائنها رزقهم لعدة أشهر ، فأرزاق الجند على الخلافة ولكن خدماتهم لصالح القواد . لذلك طالب الجند بأن يستعيد الخليفة نفوذه على كافة شئون الدولة ، وأن تكون امارة الجيش لأحد اخوته ، وأن تبطل الاقطاعات وتحسن أحوالهم . وتعهدوا لتنفيذ هذه المطالب أن يقوموا بحماية الخليفة وبقتل كل من يريده بسوء(١) . وكانت هذه المطالب كافية لكسر شوكة زعماء الأتراك .

لكن المهتدى لم يستغل هذه الفرصة فيسارع الى ضرب رؤوس الأتراك ، وانما رأى أن يضرب بعضهم ببعض . وبذلك أتاح لهم فرصة ليجمعوا شملهم ويسكتوا الجند عنهم . وحين بطش ببايكباك وقتله ، كان الأتراك قد جمعوا جموعهم بقيادة موسى بن بغا ، واشتبكوا مع الخليفة الذى قاد بنفسه المعركة ومن حوله المغاربة والفراغنة وبعض جند الأتراك ، وبعد قتال شديد تخاذل عنه الأتراك الى أصحابهم ، وهزم رجاله فاضطر الى الاستسلام ، وأرادوه على أن يخلع نفسه فلما رفض قتلوه وبايعوا لأبى العباس أحمد بن المتوكل ولقب بالمعتمد على الله(٢) .

---

(١) انظر الطبرى : ج ١١ ، ص ١٩٤ — ١٩٩ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٧٩ — ٨١ .

(٢) انظر الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٠٣ — ٢١٠ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٨١ — ٨٢ . اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٢٨ .

لم يذهب جهاد المهتدى عبثا ، فلقد استطاع أن يكشف قواد الأتراك أمام جنودهم ، كما استطاع أن يثير الطوائف الأخرى ضدهم ، حتى لقد طالبوا بأن تعود أزمة الأمور الى يد الخلافة ، وأن توكل القيادة فى الجيش الى رجل من البيت العباسى ، ثم انه لأول مرة منذ عهد الخليفة الواثق يقف خليفة هذا الموقف القوى الصريح أمام هذه العصبية التركية الطاغية ، فلم يكن كسابقيه من الخلفاء يلقى بيده ويكتفى بتدبير المؤامرات للتخلص من زعماء الأتراك ، وانما هو يناصبهم الحرب، ويقف أمامهم فى شجاعة لم يألفوها ممن سبقه . روى الطبرى أن المهتدى لما بلغه تآمر الأتراك لخلعه « خرج من مجلسه متقلدا سيفا ، وقد لبس ثيابا نظافا وتطيب ، ثم أمر بادخالهم اليه ، فأبوا ذلك مليا ، ثم دخلوا عليه . فقال لهم ، انه بلغنى ما أنتم عليه من أمرى ، ولست كمن تقدمنى مثل أحمد بن محمد (المستعين) ولا مثل ابن قبيحة (المعتز). والله ما خرجت اليكم الا وأنا متحنط ، وقد أوصيت الى أخى بولدى ، وهذا سيفى، والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدى ، والله لئن سقطت منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم . أما دين ! أما حياء ! أما رعية ! كى يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله .... سوأة لكم » (١) . حقا لقد استطاع الأتراك القضاء على المهتدى ، ومع ذلك فقد كان لحركته أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، ولم يكن الأمر يتطلب بعد ذلك الا الوقوع على الرجل القوى الحازم الذى يستطيع أن يمسك بيده أزمة الأمور ، والا الخروج من دائرة النفوذ التركى بالخروج من سامرا التى كانت حصن الأتراك .

وقد وجد هذا الرجل الحازم الذى يقبض على أزمة الأمور فى شخص أبى أحمد الموفق الذى كانت له تجربة القيادة فى أيام المعتز — كما رأينا من قبل — فلما تولى أخوه المعتمد بعد المهتدى ، تولى هو حقيقة السلطان ، فترك للخليفة الخطبة والسكة والتسمى بامرة المؤمنين ،

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٩٤ .

وأمســـك هو بزمام الأمر والنهى وقود العســاكر ومحاربة الأعــداء ، ومرابطة الثغــور ، وترتيب الوزراء والأمراء (١) وكان فى أيامه بطلا ، فوجد الأتراك تحت قيادته من يحكمهم ويوجههم لخدمة الدولة .

وكذلك انتقلت دار الخلافة من سامرا حصن الأتراك الى بغــداد وفيها عناصر كثيرة تريد أن تحمى الخلافة من شرورهم ، ولذلك رأينــا سلسلة من الخلفاء يقبضون على كثير من الســلطان ، ويموتون حتف أنوفهم . وبذلك عادت الخلافة الى الانتعاش مرة أخرى الى مدى أربعين ســنة حكم فيها ثلاثة من الخلفــاء ، اســتطالت مدة حكم أولهم الى ثلاث وعشرين سنة ، وحكم الثانى عشر سنوات ، وحكم الثالث ســت سنوات ، وماتوا جميعا موتا طبيعيا ، وعاشوا فى دست الخلافة آمنين من عدوان الأتراك عليهم ، بل ان الأتراك فى أيامهم عادوا خداما للدولة كما كان شأنهم فى عهد المعتصم والواثق .

* * *

انتعــاش الخــلافة :

يبدأ هذا العهد بخلافة المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) ولكن المعتمد لم يكن هو صاحب الفاعلية فى هذا الانتعاش الذى ظهر فى الخلافة العباسية ، فقد كانت السلطة الحقيقة فى يد أخيه أبى أحمد طلحة الموفق ، فهو رجل الدولة الحازم الذى جمع الأمور كلها فى يده ، بل ان المعتمد أصبح كالمحجور عليه ، تدار الأمور باسمه ، ويستخدم منصبه للتــأثير الروحى اذا لزم الأمر ، فيظهر الخليفة بشخصه فى بعض المواقف ليعطى ظهوره أثرا روحيا الى جانب الأثر المــادى القوى الذى يعطيه غيره ، كما حدث فى القتال الذى وقع بين الخلافة وبين يعقوب بن الليث الصفار ، الذى زحف بجيوشه الى العراق ، فكان ظهور الخليفة فى طليعة الجيش العباسى لمجرد التــأثير على جنود الصــفار بأنهم يقاتلون الخليفة صاحب

---

(١) الفخــرى : ص ٢٢٦ .

السلطان الشرعي ، الأمر الذى يجعل من الصفار خارجا على الخلافة فى نظر رجاله ، وقد أحدث هذا أثره ، فقد تخاذل كثير من جنود الصفار عنه . لكن القيادة الحقيقية والعمل القوى كان لأبى أحمد الموفق (١) . والحقيقة أن المعتمد لم يكن فى مستوى الأحداث التى تعرضت لها الخلافة ، فقد كان همه منصرفا الى اللهو والانغماس فى الملذات (٢) ، كما حاول فى بعض الأحيان أن يعرقل أعمال أخيه الموفق لاعادة هيبة الخلافة وتقوية قبضتها على ولاياتها ، وذلك حين خضع لاغراء أحمد بن طولون والى مصر بالخروج الى مصر بحجة أن الموفق قد حجر عليه وسلبه سلطانه (٣) . فالفضل اذن للموفق فى القوة التى عادت الى بيت الخلافة فى هذا الوقت .

كانت الخلافة العباسية تهددها أخطار جسيمة فى ذلك الوقت . وكانت أهم هذه الأخطار ثورة الزنج ، وتأسيس طائفة الاسماعيلية التى تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق . ولكن ثورة الزنج كانت أقرب الأخطار الى الخلافة العباسية .

والزنج من العناصر السوداء التى كثرت فى العراق فى ذلك الوقت، وكانوا يجلبون فى الأكثر من سواحل افريقيا الشرقية ، يستخدمهم الناس فى أعمال الخدمة ، وقد اعتمد عليهم ملاك الأراضى وأصحاب الاقطاعات فى الزراعة وفى اصلاح الأراضى التى تحتاج الى اصلاح ، وكانوا يقومون بعمل شاق ولكنهم لا يجدون رعاية أو شفقة من سادتهم. وقد كثر عددهم الى حد كبير ، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التى قاموا بها ، وهددوا بها الدولة العباسية ودوخوها أكثر من أربعة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) .

وكان مسرح هذه الثورة المنطقة الممتدة بين البصرة وواسط ، وكانت

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٠٣ .
(٢) الخلفاء : ص ٢٤٢ .
(٣) الكندى : ص ٢٢٥ .

حرب بين الأجناس ، بين البيض والسـود ، فقد ثار الزنوج الذين كانوا يعملون فى اصلاح الأراضى السبخة حول البصرة ، وانضم اليهم جماعات من العبيد هربوا من القرى والمدن المجاورة ، وانضموا الى هذه الحركة تخلصا من حالتهم السيئة .

وقد دعا الى هذه الثورة رجل مغامر رأى اختلال أحوال الخلافة العباسية ، فأراد أن يحقق لنفسه شيئا فى هذا الجو المضطرب ، مستغلا ظهور الحركات المذهبية التى ظهرت فى بعض أجزاء العالم الاسـلامى ، والتى أخـذت تمتد حتى وصلت مركز الخلافة فى العـراق ومستغلا الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى أخذت تسوء بسبب تسلط الأتراك على الخـلافة ، وانصرافهم الى جمع المـال والحصول على الاقطاعات الكبيرة ، مع عدم التفاتهم لتنمية الثروة العامة للدولة باصلاح المرافق وتحسين وسائل الانتاج ، بل لجأوا الى المصادرات والتضمينات مما أدى الى العسف بالناس وتدهور الأحوال الاقتصادية ، وانعكس عملهم هـذا على كل صـاحب قدرة على احراز المـال بكل سبيل ، وبهـذا اختلت الأحوال العامة وأحدث هذا أثره على الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وبخاصة فى العراق الذى كان يقع مباشرة تحت نفوذ هؤلاء الأتراك . فكان الجو مهيأ لكل مغامر يستطيع استغلال هذه الأحوال .

ادعى هذا المغامر الجرىء أنه ينتسب الى على بن أبى طالب ، فزعم أنه على بن محمـد بن أحمد بن عيسى بن زين العـابدين بن على بن الحسـين بن على بن أبى طالب ، وأكثر المؤرخين يرون أنه من قبيـلة عبد القيس العربية (١) ويقول الدكتور حسن ابراهيم انه فارسى من أهل الطالقان (٢) . وبدأ حركته متنقلا بين البحرين والبصرة وبغـداد ، وبين أهل البادية يدعو لنفسه ويدلس على الناس باصطناع الكرامات ، لكنه لم يستطع أن يحقق لنفسه شـيئا ، اذ طارده عمال الدولة وانكشف

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٨٤ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٧٢ .
(٢) تاريخ الاسـلام : ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

أمره ، فتفرق عنه الناس وكرهته العرب وتجنبت صحبته ، فلما تفرقت عنه العرب ونبت به البادية لجأ الى منطقة البصرة وأخذ يدرس أحوال العمال الذين يعملون فى أراضيها • وبين هؤلاء العمال وجد فرصته ، فقد كان ملاك الأراضى فى هذه المنطقة يملكون كثيرا من العبيد يستخدمونهم فى اصلاح الأراضى السبخة ، وهو عمل شاق يقومون به ولا يجدون عليه مكافأة الا القوت الضئيل من الدقيق والتمر والسويق يجلبه سادتهم اليهم ، مما جعلهم ازاء هذه الحالة السيئة على أتم استعداد لمتابعة من يخلصهم من هذه الحالة التى يعيشون فيها ، فاستطاع هذا المغامر — الذى لقب بصاحب الزنج — أن يؤلب هؤلاء العمال ، وأتاهم من الناحية الفعالة فى النفوس وهى الناحية الدينية ، فادعى أنه رسول العناية الالهية لانقاذهم مما يعانونه من البؤس ، كما ادعى العلم بالغيب • وانتحل النبوة » (١) •

التف حول هذا الرجل خلق كثير من هؤلاء التعساء • كما انضم اليه كثير من المغامرين ، فدعاهم الى الخروج على السادة الظالمين « ومناهم ووعدهم أن يقودهم ويرئسهم ويملكهم الأموال ، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئا من الاحسان الا أتى اليهم » •

والحقيقة أن الرجل ، وفى لتابعيه بما وعد ، ولذلك التفوا حوله وناصروه ، وقاتلوا فى سبيله قتالا شديدا ، وصمدوا لجيوش الخلافة العباسية وألحقوا بها كثيرا من الهزائم • ولقد كانت حركته الأولى ضد الملاك من أصحاب الأراضى • فقد كان كل من يقع فى يده من هؤلاء السادة مالكى العبيد يسلمه لعبيده ويأمرهم بضربه • ثم اعلنها ثورة ضد الرق ، فدعا الى تحرير العبيد متخذا من تأويل الآية الكريمة « ان الله

---

(١) عن سيرة هذا الرجل . انظر : الطبرى : ج ١١ ، ص١٧٤ وما بعدها . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٧٢ وما بعدها . وكذلك حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢٠٩ وما بعدها . الدورى . ص ٦٧ — ٧٧ .

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا ..... » مبدأ ينادى به ففسر الآية بأن المؤمنين وقد اشتروا أنفسهم ، لم يعودوا عرضة للرق والعبودية (١) .

استهوت هذه الدعوة العبيد فى كل منطقة العراق الجنوبية ، فكانوا يتركون سادتهم ويسرعون اليه تخلصا من الرق ، وبذلك كثر أتباعه وعظم شأنه وقويت شوكته . ولكن الرجل تناقض مع مبدئه هذا تناقضا عجيبا ، الأمر الذى يجعلنا نحكم على حركته بأنها مغامرة انتهازية ولا نسلكها فى عداد الحركات الاصلاحية ، فانه وقد دعا الى تحرير العبيد كان يستعبد أسراه من البيض بل خير البيض ، يقول المسعودى « وقد بلغ من أمر عسكره أنه ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس ، من ولد هاشم وقريش ، ومن سائر العرب وأبناء الناس ، تباع الجارية منهن بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها . هذه فلانة ابنة فلان الفلانى . لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف . ولقد استغاثت الى على بن محمد (صاحب الزنج) امرأة من وُلد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه . فقال : « مولاك وأولى بك من غيره » (٢) . ويبدو أن هذه المناقضة كانت لكى يرضى أصحابه ، اذ بها ينتقمون لأنفسهم ممن كانوا بالأمس سادتهم ، فلم يعترضوا على هذا العمل الذى يتعارض مع مبدأ الحرية الذى يدعو اليه .

والواقع أن صاحب الزنج لم يكن صاحب مبدأ . وانما كان صاحب طموح يستخدم له من الشعارات ما يساعد على تحقيقه . ويعمل فى سبيل ذلك من الأعمال ما يحقق غرضه حتى ولو أوقعه ذلك فى التناقض أو ألصق به صفة الخسة والنذالة فقد كان يفاخر بأنه ينتسب الى على

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢١٠ . Muir. P. 545:

(٢) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

وفاطمة ، ومع ذلك فنساء من العلويات يستعبدن وتنتهك أعراضهن بعينه وتحت أمره . ثم هو حين يخطب أصحابه يترحم على أبى بكر وعمر ، ويسب عثمان وعليا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة كما كان يرى رأى الخوارج الأزارقة (١) ويعلل نلدكه هذه الدعوة الغريبة ، فيقول « لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه . أن تظاهر بالدعوة الى مذهب الخوارج الذى يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة، وان كان قد افتخر بأنه من نسل على وفاطمة لما ينطوى عليه المذهب الشيعى من التوريث الذى لا يلائم عقول مواطنيه . ومن ثم يتضح لماذا رفض قرمط المؤسس الحقيقى لمذهب القرامطة . وهو المذهب الشيعى المتطرف الذى قدر له أن يملأ العالم الاسلامى قاطبة خوفا وهلعا . أن يرتبط بزعيم العبيد على الرغم مما قد يفيده من اشتراكه معه فى حركته، متأثرا بعوامل مذهبية » .

بهذه المتناقضات كشف صاحب الزنج عن ميوله الحقيقية . حتى ان أعداءه لقبوه بالمدعى ، كما سموه بالخبيث (٢) . ومع تناقضات صاحب الزنج فان العبيد الذين كانوا يضيقون بحالهم ويرغبون فى التحرر التفوا حوله التفافا شديدا . ولما كان عدد الزنوج كبيرا وفيهم شجاعة نادرة ومران على القتال ، فانه تكون له منهم جيش كبير استخدمه لتحقيق أطماعه ، واتخذ لنفسه قاعدة ، فبنى له مدينة سماها « المختارة » وأحسن تحصينها ، ثم أخذ يتوسع فيهاجم المناطق المجاورة له .

انتشرت جيوش صاحب الزنج فى العراق وخوزستان والبحرين ، فتملكوا « الأبلة » و « عبادان » والأهواز ، ثم البصرة ، وواسط ، والنعمانة ، ورامهرز . وقد استخدموا العنف مع خصومهم ، فكانوا يقتلون كل من وقع فى أيديهم سواء من المقاتلة أو من غيرهم ، ولم ينج

---

(١) نفسه : ج ٤ ، ص ١٩٤ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢١١ .
(٢) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢١٠ .
(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ . ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٨٧ ، ٨٨ وغيرها .

من فظائعهم حتى النساء والأطفال ، وحتى من استأمنهم غدروا به وقتلوه. وقد كان إستيلاؤهم على البصرة مثلا لمـا ارتكبوه من الفظائع ، فقـد ذبحوا كل من وصلوا اليه من أهلها ، وخربوا مسجدها العظيم ، وأشعلوا النار فى المدينة حتى لقد قتلوا من أهلها ثلاثمائة ألف (١) .

وقد تكلم الناس فى قدر ما قتل (على يد الزنج) فى هذه السنين من النـاس ، فمكثر ومقـل ، فأما المكثر فانه يقول : أفنى من النـاس ما لا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ، ولا يعلم ذلك الا عالم الغيب.. والمقل يقول : أفنى من النـاس خمسـمائة ألف . وكلا الفريقين يقول ذلك ظنا وحدسا ، اذ كان شيئا لا يدرك ولا يضبط » (٢) .

أشاعت جيوش الزنج الرعب فى قلوب الناس ، وتقدموا فى العراق حتى أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة . وأرسلت الخلافة بعض قوادها الأتراك لقتال الزنج فى عهد المهتدى ، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات أمامهم . ولمـا ولى المعتمد سير كثيرا من مشهورى قواده الأتراك من أمثال موسى بن بغا ، ولكنهم لم يغنوا شـيئا ، بل ظل خطر الزنج يتزايد وانتصاراتهم على جيوش الخلافة تتوالى .

كما كثر ظهور المتغلبين فى الولايات الشرقية . وكان موسى بن بغا — وهو أظهر زعماء الأتراك فى ذلك الوقت — قد ضـمت اليه فارس والأهواز والبصرة واليمامة مع ما كان اليـه من عمـل المشرق ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام هذه الموجة من حركات التغلب التى شملت أرجاء الدولة العباسـية ، وطبعت الحياة السياسية فى هذه الأقاليم بطابعها ، فان بلاد الدولة العباسية فيما وراء العراق قد صارت مسرحا للمنازعات والحرب بين هؤلاء المتغلبين ، وأصبحت الخلافة فى مركز العاجز الذى يرقب الأحداث ، ولم يصبح فى مكنتها الا أن تقر المتغلب على ما ملكت

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٨٦ — ٨٨.
(٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

يداه من البلاد . ويقول الطبرى « فلما رأى موسى بن بغا شــدة الأمر وكثرة المتغلبين على نواحى المشرق ، وأنه لا قوام له بهم ، سأل أن يعفى من أعمال المشرق ، فأعفى منها ، وضــم ذلك الى أبى احمــد ، ووليه أبو أحمد بن المتوكل ، فانصرف موسى بن بغا من واسط الى باب السلطان مع عماله عن المشرق » (١) .

أظهرت انتصارات الزنج ، وكثرة المتغلبين على نواحى المشرق عجز القواد الأتراك ، وبذلك انكسرت شــوكتهم ، وأتيح للخلافة أن تأخــذ زمام الأمر بيدها . وفعلا استدعى المعتمد أخاه أبا أحمد الموفق من منفاه بالحجاز ، وجعل اليه أمر المشرق كله كما جعله ولى العهد الثانى بعــد ابنه جعفر ، الذى جعله ولى العهد الأول وعقد له على المغرب كله وضم اليه موسى بن بغا .

بدأت الخلافة تســترد نشاطها وفعاليتها ، وأخذت تعمل على تقوية نفوذها على ولايتها ، فقد قبض الموفق على ناصــية الأمور فى الدولة ، وبدأ يعمل لتــأكيد ســلطان الخلافة على أقاليمها فى المشرق والمغرب . فأما فى المشرق فقــد نهض لقتال يعقوب بن الليث الصــفار الذى تغلب على معظم المشرق ، وأجبر الخلافة على أن ترســل اليه التقليد بولاية خراسان وجرجان والرى وفارس كما توليه شرطة بغداد ، ولكنه طمع أن يســير الى دار الخــلافة فيكون له على الخليفة من النفوذ ما كان للأتراك ، وخرجت جيوش الخلافة بقيادة الموفق ، وخرج الخليفة بنفسه معها ليكون لوجوده أثره الروحى على جنود الصفار ، اذ أنهم حين يرون الخليفة مع جيوش الموفق يرون أن صاحبهم خارج على السلطة الشرعية ، على أمير المؤمنين ، وفعلا حدث هذا الأثر وبخاصة أن جنود الصــفار لم يكونوا من المرتزقة وانما كانوا من الرجال المتطوعين الذين رأوا خروج المتغلبين على الخلافة فقاموا ليدفعوا عنها وليردوا اليها سلطانها ، وكان يعقوب بنفسه أحد هؤلاء المتطوعين فى أول أمره ، وكان يشيع فى جنده

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٥ .

هذه الدعوى ، فكان وجود الخليفة في الجيش الذي يحارب الصفار أمر ينقض دعوى الصفار . ولذلك فانه حين احتدم القتال تخلى كثير من جند الصفار عنه وانضموا لجيش الخليفة . وبعد معركة كبيرة انهزم الصفار (١) وبذلك أكدت الخلافة سلطانها على المشرق وان لم تحكمه حكما مباشرا .

وأما في المغرب . فان مصر والثغور الشامية كانت في يد أحمد بن طولون منذ سنة ٢٥٤ هـ ، وكان شبه مستقل بشئونها عن الخلافة . ولما كانت موارد المشرق قد نفدت أو كادت لما حل ببلاد المشرق من البلاء على أثر الحروب المتصلة التي شنها صاحب الزنج ، والتي كانت دائمة بين أصحاب المطامع من المتغلبين . فقد أرسل الموفق الى أحمد بن طولون يأمره بأن يمده بالمال الذي يساعده على قتال الزنج . ومع أن أحمد ابن طولون أرسل الى الموفق مليونا ومائتي ألف دينار ، الا أن الموفق أحس بأن ابن طولون يتصرف تصرف المستقل الذي يعين متبرعا ولا يطيع أمرا ، فرأى أن يلزمه طاعة الخلافة ، فعزله عن ولاية الثغور الشامية . ثم أمر بصرفه عن ولاية مصر . ولكن ابن طولون كان من القوة بحيث لم يكن في الامكان القضاء عليه . ولقد استطاع أن يتغلب على جيوش الخلافة وردها عن الشام . بل انه كاد للموفق بأن أغرى الخليفة بالخروج الى مصر بحجة أن الموفق قد حجر عليه وسلبه سلطانه (٢) . ومع ذلك فان الموفق نجح في احباط مشروعات ابن طولون مع الخليفة . ثم استطاع أن يرغم الطولونيين بعد وفاة أحمد بن طولون على الاقرار بسلطان الخلافة ، وتضمن كتاب الصلح بين خمارويه بن أحمد بن طولون وبين الخلافة أن يتولى خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة (٣) .

---

(١) الطبري : ج ١١ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .
(٢) الكندي : ص ٢٢٥ .
(٣) الكندي : ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

بعد هذه الأعمال التى قام بها الموفق لتأكيد سلطان الخلافة على ولاياتها ، تفرغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه ، وقد زاوج الموفق فى قتال صاحب الزنج بين أسلوبى الحرب والسياسة ، وأتى الأمور من مآتيها ، فقد خرج من بغداد الى واسط فى صفر سنة ٣٦٧ هـ والتحم بقوات صاحب الزنج وأوقع بها الهزائم المتتالية حتى أجلاهم عن الأهواز، وحاصر مدينتهم المختارة وبنى بازائها مدينة سماها « الموفقية » نسبة اليه (١) ثم بذل الأمان لكل من يأتيه من رجال صاحب الزنج ، فتخلى كثير من الناس عن صاحب الزنج وانضموا للموفق ، فأمنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم ، ومازال الموفق وابنه العباس يشددان الحصار على مدينة الزنج حتى سقطت فى أيديهم ، وعاد الناس الى قراهم بعد أن تخلصوا من الأسر والرق ، وقتل الخبيث بعد ثلاث سنوات من القتال الشديد فى صفر سنة ٣٧٠ هـ ، بعد أن أقلق الدولة العباسية وكلفها كثيرا من الجهد والمال ، وبعد أن ظل أتباعه يعيثون فى الأرض فسادا أكثر من أربعة عشر عاما .

كان الموفق ذا شخصية قوية وقد اكتملت له التجربة فى القيادة منذ عهد المعتز ، فلما أصبحت الأمور فى يده فى عهد المعتمد صارت له الكلمة العليا بين الأتراك قوادا وجنودا بعد أن أنهكهم التفكك وقلت بأيديهم الأموال ، وبعد أن ظهر عجز قوادهم واضحا ولزمهم الفشل فى التصدى للمتغلبين فى المشرق ولقتال صاحب الزنج فى العراق ، وقد استطاع الموفق بضربه للصفاريين وبحده من غلواء الطولونيين ، وبسيطرته الناجحة على الأتراك ، أن يعيد للخلافة العباسية هيبتها ، وأن يخفف من عواقب الحركات الاستقلالية المتعددة شرقا وغربا ، وخروجها على الخلافة أو استقلالها عنها .

وقد جنى المعتضد (٢٧٩—٢٨٩ هـ) ثمار جهاد أبيه الموفق ، والذى شارك بنفسه فيه الى جانب أبيه ، فقد شارك أباه فى حروبه وفى أعماله

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٧٩ .

الادارية وأفاده ذلك خبرة مكنته من أن يستمر فى رفع شأن الخلافة واقرار هيبتها . كما مكنته من الأخذ على يد الأتراك « وكان مهيبا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفا منه » (١) .

مات الموفق فى عام ٢٧٨ هـ بعد الأعمال الجليلة التى قام بها ، فبايع الخليفة المعتمد لابنه العباس بولاية العهد الثانية مكان أبيه ، وتحولت اليه سلطات أبيه ، فسار على النهج الذى سار عليه أبوه ، ولما كان الخليفة قد وصل الى حد كبير من ضعف الشأن فى حياة الموفق الذى لم يبق له من الخلافة الا اسمها ، فقد ضعف أمره وأمر ابنه المفوض الذى كان ولى العهد الأول ، والذى لم يبرز فى مجال هذا الصراع الذى احتدم بين الخلافة وبين خصومها طوال الثلاث والعشرين سنة التى مرت على خلافة المعتمد ، لذلك اضطر الخليفة أمام قوة أبى العباس الذى لقب بالمعتضد الى خلع ابنه عن ولاية العهد وبايع لأبى العباس المعتضد ، ثم ما لبث أن مات فجأة بعد شهور .

ولما بويع المتعضد بالخلافة عام ٢٧٩ هـ سار على نهج أبيه الموفق فى الحزم والعزم ، كما سلك مسلكه فى حسن السياسة والعدل ، كان حازما مع قواده شديد الوطأة عليهم ، اذا غضب على قائد أمر بالقائه فى حفرة وردم عليه (١) حتى هابوه هيبة عظيمة ، وسكنت فتنة الأتراك فلم يجرؤ واحد منهم على اسخاط الخليفة أو احداث شغب . وأما عزمه فانه كان سريع النهضة للخارجين على سلطان الخلافة ، يخرج بنفسه للحرب ليستعيد السيطرة على الخارجين وليشعرهم بقوة الخلافة(٢). وفى أيامه ظهر القرامطة فى الكوفة على يد حمدان قرمط وفى البحرين على يد أبى سعيد الجنابى ، كما ظهر ابن حوشب فى بلاد اليمن حيث نشر الدعوة للمهدى الفاطمى ، وأبو عبد الله الشيعى يدعو للفواطم فى المغرب .

---

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١٨٣ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٢٣٣ .
(٣) نفسه ص ٢٤٤ ، ٢٤٩ .

ولكنه مع ظهور كل هؤلاء المتغلبين من الصفاريين أو السامانيين ، استطاع أن يقر هيبة الخلافة ، وأن يسكن الفتن فى أيامه ، وكانت الخلافة فى عهده أعظم هيبة وأكثر انتعاشا منها فى عهد المعتمد ، وذلك لأن المعتضد استفاد من جهود أبيه ، وواصلها هو فى خلافته ، فبقيت للخلافة فى عهده السيطرة القوية الناجحة . والى شدة المعتضد التى اشتهر بها كان عادلا ، رفع الظلم عن رعيته وأسقط المكوس ، وأبطل ديوان المواريث وأمر بأن يورث ذوو الأرحام (١) فأحبه الناس ، كما كان مقتصدا فى المال لا ينفقه الا فيما يلزم وما يعود على الدولة بالخير . وحين مات كان فى بيت ماله من الذهب تسعة آلاف ألف دينار ومن الورق أربعون ألف ألف درهم (٢) .

خلف المكتفى أباه المعتضد (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) وقد سار على نهج أبيه ولكن الفتن التى كانت قد بدأت فى عهد أسلافه استفحل أمرها فى عهده ، ومن اسماعيلية ، وقرامطة ، وفاطمية ، وقد بذل المكتفى جهده لقمع هذه الفتن فنكل بالقرامطة الذين ظهروا بالشام وعاثوا فيه فسادا (٣) ، ثم أقر سلطان الخلافة على الشام كله ، وأزال دولة بنى طولون عن مصر وأعادها ولاية تخضع مباشرة للخلافة (٤) وكانت أحوال الخلافة قمينة أن تسير كما كانت فى عهد المعتضد لو أن العمر استطال بالمكتفى ، ولكنه مات ولما يمض على خلافته أكثر من ست سنوات ، وبموته عادت الخلافة الى ضعفها ، وعاد الأتراك الى قوتهم . فلقد أخضع الموفق وابنه المعتضد الأتراك وكبحا جماحهم ، وجعلا منهم خداما للدولة كما كان شأنهم فى عهد المعتصم والواثق . والحقيقة أن اصلاح أمور الدولة مع وجود هذا العنصر التركى لم يكن يحتاج الا الى الحزم المقرون بسعة الأفق ، وقد كان أكثر الخلفاء ممن سبقوا الموفق اما مندفعين متهورين

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٧٢ .
(٢) المسعودى : ج ٤ ، ص ٢٣٢ .
(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٨٧ — ١٨٩ .
(٤) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

كالمهدى أو ضعافا متخاذلين كالمستعين (١) . كما كان البيت العباسى مفككا يعمل أمراؤه للوصول الى السلطة فمكنوا الأتراك من بعضهم وأعانوهم بطريق مباشر أو غير مباشر على التسلط على الخلفاء ، ولم يتح للخلافة رجل حازم من رجال البيت العباسى طوال الفترة التى سبقت خلافة المعتمد ، فلما وجد هذا الرجل فى شخص الموفق عاد الأتراك الى خدمة الدولة والى طاعة الخلفاء ، ولكن موت المكتفى كان ضربة للخلافة ، كما كان فرصة لعودة تغلب الأتراك .

* * *

أحس الأتراك والوزراء الطامعون فى الاستئثار بالسلطة أن الأمر لا يستقيم لهم مع خلفاء أقوياء من أمثال المعتضد والمكتفى ، فعملوا على اختيار الخلفاء من الأمراء الضعاف من البيت العباسى ، ليعود الى أيديهم السلطان وتتم لهم الرياسة . ولذلك طال اجتماعهم وتفكيرهم بعد موت المكتفى ، وكان من أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز ، وهو كفء عالم أديب قادر ، فانصرفوا عنه الى المقتدر ، وهو طفل عاجز لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، فولوه الخلافة ولقبوه « المقتدر » . حكى مسكويه أن وزير المكتفى العباس بن الحسن استشار ابن الفرات فيمن يلى الخلافة ، فقال له : « اتق الله ولا تنصب فى هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وفرس هذا ، ومن لقى الناس ولقوه ، وعرف الأمور ، وتحنك وحسب حساب نعم الناس (يشير بهذا الى ابن المعتز) . قال الوزير : فبمن تشير ؟ . قال ابن الفرات : بجعفر ابن المعتضد (هو المقتدر) . فقال الوزير : جعفر صبى ! قال ابن الفرات: الا أنه ابن المعتضد . ولم تجىء برجل يأمر وينهى ، ويعرف مالنا . وبمن يباشر التدبير بنفسه ، ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا تسلم هذا الأمر الى من يدعك تدبره أنت ؟ » (٢) .

---

(١) محمد خفاجى : ص ٤٤ .

(٢) ظهر الاسلام : ج ١ ، ص ٢٧ . انظر : ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٣ ، ٤ .

وهكذا عمل الأتراك والوزراء على اعطاء الخلافة لمن لا يستحقها حتى يكون لهم الأمر وله مجرد اللقب ، كما رسموا سياستهم بعد ذلك على افساد تربية الأمراء العباسيين الذين يعدونهم لتولى منصب الخلافة ، حتى ينشأ الواحد منهم جاهلا غرا ، فينصرف الى لهوه ولذته ، ويترك لهم زمام الأمور والتصرف فى شئون الدولة . يحكى الصولى فى كتاب الأوراق فى أخبار الراضى والمتقى . أنه لما عهد اليه بتربيـة الراضى وأخيه هارون كان يحبب اليهما العلم ، ويشترى لهما كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار فقيل له على لسان أهل القصر « ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهما قد رأينا كل ما نحب فيه ، وليس بعالم . فأعمل على ذلك » . فأتى الصولى الحاجب فأخبره بذلك ، فبكى ، وقال « كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم » .

انقسم الناس الى فريقين ، فريق يؤيد تولية الطفل جعفر بن المعتضد وفريق يؤيد تولية ابن المعتز ، وكان على رأس الفريق الأول الوزير ومؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن وغيرهما من الأتراك ، وكان من رأس الفريق الآخر العباس بن الحسن ومحمد بن الحسن ومحمد بن داود بن الجراح وأبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضى ، ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى وبعض الأتراك (٢) لكن الغلبة والقوة كانتا فى جانب الذين مع المقتدر فتم له الأمر . وقتل ابن المعتز(٣) ونلاحظ هنا أن العناصر الأخرى غير التركية هى التى كانت تناصر ابن المعتز ، كما نلاحظ ظهور أمراء بنى حمدان وتدخلهم فى شئون الخلافة ، وقد ظهر بنو حمدان فى عهـد المعتضد ثائرين على الدولة ، ثم عفا عنهم المعتضـد وولاهم امارة الموصل، ولقد أرادت الخلافة بهذا أن تعيد العنصر العربى الى الظهور مرة أخرى ولكن كان الأوان قد فات ، ويبـدو هـذا من تصرف أمراء بنى حمدان ، فانهم كانوا يحاولون التدخل لمسـاندة الخلافة ، ولكنهم

(١) الصولى : ص ٢٦ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٥ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٦ .

حين يدركون عجزهم أمام العناصر التركية المتغلبة يعودون الى ولاياتهم ليتفرغوا لما أصبحوا بصدده من الوظيفة الثغرية التى أصبحت تقوم بها الدولة الحمدانيــة فى مواجهــة الروم ، واحســاسا منهم أن بقاءهم واكتسابهم عطف العالم الاسلامى انما هو احسانهم القيام بهذه المهمــة الثغرية لا فى التورط فى مشاكل الخلافة التى يحسون بعجزهم عن حلها .

وكان المقتدر طفلا لما يجاوز الثالثة عشرة من عمره ، لا يعرف من أمور الدنيا شــيئا ، ولا يمكن أن ينتظر منه القدرة على ادارة شــئون الخلافة ومواجهة المشكلات العويصــة التى تحيط بها ، ومع ذلك لقبــه رجاله بالمقتــدر ! ! ولمـا شب عكف على لذاته ، وتوفر على المغنــين والنساء ، وترك أمور الدولة لغيره ،وعلى رأسهم مؤنس التركى ،وبلغ من بله الخليفة وسوء حاله أن تدخل النساء فى أمور الدولة ، وشاركن مع الأتراك فى ادارة دفة الأمور ، ولقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه التى ازداد نفوذها ، وبلغ من تسلطها أن عينت قهرمانتها صاحبة للمظالم (١) ، وبلغ من نفوذها أنها كانت اذا غضبت هى أو قهرمانتها على أحد الوزراء كان مصيره العزل ، حتى انحطت مرتبة الوزارة وكثر العزل والتوليــة للوزراء أمام تقلب عواطف النســاء ، وطمع قواد الأتراك الذين كانوا يرون فى عزل وزير وتوليــة آخــر فرصــة لمصــادرة الأموال . حتى لقد وزر للمقتدر فى مدة خلافته اثنا عشر وزيرا فيهم من وزر له المرتين والثلاث .

وفى أيامه انتشرت الفتن فى الداخل والخارج . فقد خرج عليــه مؤنس الخادم ســنة ٣١٧ هـ وثار عليــه رجال الجيش ، لمـا رأوا من اسراف الحاشــية والخدم ، وضــياع الأموال وافساد الحكم بســبب تدخلهم فى أمور الدولة ، فخلعوه وبايعوا لأخيه محمــد بن المعتضــد ولقبوه بالقاهر بالله (٢) . لكن فرصة خلع الخليفة وبيعة أخيه لم تحتق

---

(١) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٨ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٦٨ .

للأتراك ما كانوا يريدون من أموال ، فعادوا مرة أخرى يخلعون القاهر ويعيدون المقتدر الذى باع ما فى خزائنه من الأمتعة والجواهر ليرضى طمع هـؤلاء الذين لم يكن همهم الا المـال (١) • لكن لم يمض طويل وقت حتى وقعت الوحشة بين الخليفـة ومؤنس الخادم مرة أخرى ، وانتهى الأمر بقتله قتلة مهينة (٢) •

وقد وصف موير (٣) حالة الدولة العباسـية فى عهد المقتدر فقال « ان عهد الخليفة التعس قد هوى بالدولة الى الحضيض ، فقد ضاعت ممتلكاتها فى الخارج : فضاعت أفريقية ، وأوشكت مصر أن تضـيع ، واستقل أمراء بنى حمدان بالموصل ، واستطاع البيزنطيون أن يشـنوا غاراتهم المتصلة على الحدود التى ضعف الدفاع عنها ومع ذلك بقى شىء من الاعتراف بسلطان الخلافة فى البلاد الشرقية ، حتى بين أولئك الأمراء الذين نادوا أخيرا باستقلال ولاياتهم ، أما فى الأراضى القريبة من حاضرة الخلافة فقد أخمدت ثورات القرامطة المخيفين الى حين • وفى بغـداد نفسـها صار الخليفة المقتـدر ، الذى كان آلة فى أيدى رجال البلاط المفسدين ذوى الأطماع الدنيئة ، تحت رحمة حراسه من الأجانب الذين أصبحوا يأتمرون الى حد كبير بأوامر القواد من الأتراك وغيرهم ، الذين لا يمتون الى العباسيين بصلة والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين الى حين » •

« واذا علمنا أن هذا الخليفة التعس قد غلب على أمره وخلع مرتين وذبح فى النهاية عنـدما حاول مقاومة أحد قواده المخلصين لعرشـه • فلا نعجب اذا تلاشت تلك الهيبة التى عمل أسلافه القريبون على استعادتها • وغدا العرش مرة ثانية هدفا للازدراء فى الداخل ، وفرصة سانحة تحمل على اغراء المغيرين على الدولة من الخارج • أضف الى ذلك أن الشـعب

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٧٠ •
(٢) نفس المصـدر : ص ٨٢ •
(٣) The Caliphate - p.p. 567—568.

قد فسدت أخلاقه ، ولم تعد بغداد بعد ذلك المكان الذى يضم رجالا أقوياء يدافعون عن بلادهم ، بل يحكمون أنفسهم اذا دعت الحال الى ذلك ، وانما أصبحوا الآن أحزابا وشيعا متطاحنة تستطيع أن تخضب الطرق بالدماء » .

وهكذا بعد حكم فاسد دام نحو خمس وعشرين سنة قتل المقتدر ، وبويع لأخيه القاهر مرة أخرى . ولم تكن خلافة القاهر القصيرة (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) خيرا من خلافة المقتدر ، فقد استمر شغب الجند ، وفكر مؤنس الخادم فى الخروج عليه بالاتفاق مع الوزير ابن مقلة الذى كان همه كهم الأتراك فى الحصول على المال ، ولكن القاهر كان طاغية جسورا سفاكا للدماء ، استطاع أن يفتك بخصومه (١) ، ولعل الأحداث التى مرت بالقاهر من قبل جعلته شديد القسوة على خصومه ، يرى فى قواد الأتراك أعداء للدولة ، وكان يحمل دائما حربة لا تفارقه يباشر بها قتال من يريد قتله ، وزاد فى ألقابه عبارة « المنتقم من أعداء الله ونقش ذلك على السكة (٢) » ومع قوة القاهر وقسوته فان القواد قبضوا عليه وخلعوه وسملوا عينيه ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء ، وبايعوا بعده للخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) .

وفى عهد الراضى حدث تطور جديد فى شئون الحكم : فى مركز الخلافة ، وفى وضع الوزارة وفى وضع الأتراك أنفسهم ، وانتهى هذا التطور بقدوم عنصر جديد آخر استولى على مقاليد الأمور وسيطر على الخلفاء فلم يكن لهم الى جانبه شىء من السلطان ، ولم نشهد معه ذلك الصراع الذى رأيناه بين الخلافة وبين الأتراك . وهذا التطور هو ظهور منصب أمير الأمراء الذى انتقلت الى يده مسئولية كل سلطات الخليفة ، وأصبح منصب الخلافة مجرد رمز تدار الأمور باسمه من غير الرجوع

---

(١) الخلفاء : ص ٢٥٧

(٢) الخلفاء : ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

اليه فى شىء . وقبل أن نتحدث عن هذا المنصب الجديد نرى أنه من الضرورى أن نعرض لمركز الوزارة فى هذه الفترة التى عرضنا لها من قبل ، كما يجب أن نخلص الى ما وصل اليه شأن الأتراك بعد هذا الصراع الذى شهدناه بينهم وبين الخلفاء .

أما عن مركز الوزارة ، فان الأتراك لم يقنعوا بسيطرتهم على الخلفاء هذه السيطرة المتجبرة التى تصرفوا بها فى منصب الخلافة ولاية وعزلا وسجنا وسملا ، وانما ارادوا أن يمدوا سلطانهم الى المناصب الادارية والمالية بصفة خاصة . وفى مقدمة هذه المناصب منصب الوزارة الذى أصبح فى هذا العهد محنة لمن يتولاه ، بسبب ما ينتظره من عزل وسجن ومصادرة . واذا كان الخلفاء قد تعرضوا لما تعرضوا له فمن باب أولى تعرض الوزراء لمثل هذه المحنة فى هذا العهد الذى كثرت فيه المحن ، وأصابت بنارها كل الناس وبخاصة من كان منهم صاحب مال أو كان مسئولا عن مال .

لقد تقهقر منصب الوزير فى هذه الفترة كثيرا عما كان له من قبل من اختصاص ، ومن وضع الى جانب الخلافة ، وتركز عمل الوزير فى هذا العصر فى الاشراف على الأموال ومحاولة الحصول عليها بكل الوسائل لسد حاجة الأتراك وكبار قوادهم ، ولما كانت الظروف العامة فى العراق مضطربة لما كان يحدث من فتن داخلية ، ولظهور الثورات التى أشرنا اليها من أمثال ثورة الزنج وظهور القرامطة والاسماعيلية ، ولظهور المتغلبين وأصحاب الأطراف فى ولايات الدولة ، فان الوزير وقد كان مسئولا عن توفير المال ، كان يجد صعوبة كبيرة فى تأدية مهمته وسد حاجات هؤلاء الأتراك التى لا تنتهى الى المال ، ولذلك أصبح الوزراء عرضة للتنكيل والمصادرة ، وكذلك مصادرة أموال كل من يحيط بهم من كتابهم وأقربائهم (١) .

---

(١) انظر الفخرى : ص ٢٢٣ — ٢٤٢ . ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥١ .

لقد حاول الأتراك أن يشغلوا بأنفسهم منصب الوزارة حتى يكون الأمر كله بأيديهم ، ولكن هذه التجربة قد فشلت بسبب ما كان بين [illegible] اد الأتراك من حسد وغيرة وتنازع على السلطة ، وبسبب ما اتص [illegible] ا به من جشع فى جمع المال لأنفسهم • فقلد تولى القائد اتامش التر [illegible] ى الوزارة فى عهد المستعين ، ولكنه أتهم باستغلال أموال الدولة لنفسه خاصة الأمر الذى أدى الى تآمر بعض قواد الأتراك عليه وقتله ومصادرة أمواله (١) •

وبعد هذه التجربة قرر الأتراك أن يعرضوا عن تولى الوزارة بأنفسهم ورأوا أن من مصلحتهم تجنب متاعبها ، مع الاشراف عليها عن طريق اشرافهم على قصر الخلافة وعلى شئون الدولة كلها • وبذلك أصبح تعيين الوزراء وترشيحهم يتم عن طريقهم ، ويخضع لشهواتهم ، وبذلك كثر عزل الوزراء وتوليتهم حتى ان عهد المعتز وقد استمر نحو ثلاث سنوات شهد أربعة تغييرات فى الوزاره ، كما شهد عهد المقتدر اثنى عشر وزيرا ولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة ، وبسبب هذه السيطرة المتجبرة على الوزارة تجد هذا المنصب قد تدهورت مكانته وانحطت منزلته ، وغدا الوزير غير قادر على البقاء فيه فترة تكفى للشروع فى أى اصلاح يعود على الدولة بشىء من الفائدة ، وكان أى وزير يحاول أن يضبط الأموال وينظم الاشراف عليها ويحد من جشع الأتراك يتعرض للتهديد والعزل (٢) وما زال منصب الوزير يتدهور حتى اذا كان آخر هذا العهد ، وفى خلافة الراضى على وجه التحديد ، فقد الوزراء كل ما كان لهم من نفوذ ، واقتصر عملهم على الحضور الى القصر فى زيهم الرسمى ليشاركوا فى الاحتفالات والمواكب ، وصار الأمر كله بيد الأتراك ، وزاد مركز الوزير ضعفا فى عهد امرة الأمراء حتى لم يعد سوى كاتب للخليفة الذى فقد بدوره كل سلطان •

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٢ •

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٢ • الدكتور محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة ، ص ٨٤ — ٨٧ •

أما الأتراك أنفسهم فقد وصلوا الى حد كبير من التفكك وتفرق الكلمة ، والسر فى ذلك أنه لم يكن يربطهم بعضهم ببعض أى رباط سوى رباط العنصرية ، وهذا الرباط نفسه اذا كان يجمعهم كعنصر ، فانه يفرقهم كجماعات مغامرة أصحاب طموح ، واذا كانت القبائل العربية يربطها رباط العصبية الدموية ، واذا كان الفرس يربطهم رباط القومية ، فان الأتراك لم يكن لهم من هذا أو ذاك شيء ، فهم ليسوا الا فئات متباينة لكل منها زعماؤها ورؤساؤها المباشرون ، وهم لا ينضمون حول هؤلاء الرؤساء بدافع من لحمة القرابة أو دافع من القومية ، وانما بدافع المصلحة المادية ، فهم ينتقلون وراء مصالحهم المادية من زعيم الى زعيم ، ويتبعون من يحقق لهم أكبر قدر من الفائدة . ولذلك كان التنافس دائما بين قوادهم على مراكز الصدارة ، حتى يستطيعوا أن يحققوا لأتباعهم ما يحفظ عليهم ولاءهم لهم ، وحين كان الجند يحسون من قادتهم عجزهم عن تحقيق مطالبهم أو يرون استئثارهم بالأموال كانوا يثورون عليهم كما حدث فى خلافة المهتدى(١) . ولذلك كانت أمور الأتراك — على الرغم من أنهم كانوا هم العنصر الغالب على الخلافة — كثيرة القلق بعد أن دب الحسد والتنازع بين رؤسائهم ، وبعد أن قام الجند بثورات متعددة ضد هؤلاء الرؤساء ، ومن مظاهر هذا القلق أن كثيرا منهم تقلد امارات مختلفة بعيدة عن مقر الخلافة نسبيا كالشام ومصر وجنوبى العراق ، فلم يكونوا يذهبون اليها وانما كانوا يولون عليها من قبلهم نوابا ويبقون هم فى بغداد وسامرا ليراقبوا الأحداث وليحتفظوا بالنفوذ والسلطان فى مقر الخلافة ، أو على الأقل ليعملوا على تحسين أوضاعهم .

ثم حدث تطور جديد هو أن عناصر أخرى قد بدأت تظهر بجوار الأتراك فى مركز الخلافة ، وقد رأينا المغاربة كيف نازعوا الأتراك فى عهد المعتز (٢) ، كذلك بدأ العنصر الديلمى يظهر على مسرح الأحداث فى

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٧٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦١ .

نهاية العصر التركى ، وسنشهد أثر وجوده حين الكلام على منصب امرة الأمراء ، وكذلك ظهر فى المجال العنصر العربى تحت زعامة بنى حمدان. وبمرور الزمن أحس الأتراك بقرب زوال دولتهم ، فانحسر كثير منهم عن مقر الحكومة المركزية الى ولاياتهم التى تقلدوها مكتفين بها ، وعملوا على الاستقرار بها بعد أن فسدت أحوال الخلافة وأصبح المقام فى ظلها غرما عليهم وهلاكا لهم (١) .

وأحست الخلافة بضعف الوزراء ، وبعجز الأتراك . ورأت ضياع أملاك الدولة وفراغ خزائنها ، فبدأت تتطلع الى حكام الامارات القريبة من العراق تستعين بهم على انقاذ الموقف الذى بلغ غايته فى التدهور ، فأرسل الخليفة الراضى الى محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وعينه فى منصب جديد هو منصب أمير الأمراء ، وفوض اليه شئونه وأطلق يده فى سلطات الدولة جميعا . وبذلك ابتدأ عصر جديد نفرد له الفصل التالى .

(١) محمد حلمى : ص ٩٥ .

الفصل الرابع

عصر امرة الأمراء

(٣٢٤ — ٣٣٤هـ / ٩٣٩ — ٩٤٨م)

منصب امير الأمراء :

ابتدأ ظهور منصب امرة الأمراء رسميا فى عهد الخليفة الراضى عام ٣٢٤ هـ ، واسند فى هذا الوقت الى محمد بن رائق (١) . والمنصب عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة فى هذا الوقت الى قائد تتوفر فيه صفات الرياسة العسكرية ،ويجمع الى جانب صفته العسكرية الاختصاصات المدنية . ومن هذا القبيل ما يقال عن بعض الوزراء : انهم أصحاب سيف وقلم ، اذ جمعوا بين الاختصاصات الحربية والمدنية ، فيرمز بالسيف للاختصاص الحربى ، وبالقلم للاختصاص المدنى . وهذه التسمية الأخيرة تعددت مرات لعدد من الوزراء قبل هذا الوقت (٣٢٤ هـ) لكن ذلك لم يكن نظاما مقررا ، بل كان استثناء عارضا يلجأ اليه الخلفاء مؤقتا ثم يعودون الى النظام الطبيعى ، وهو نظام الفصل بين السلطتين المدنية والحربية ، فان مبدأ الفصل بين السلطات ليس من المبادىء التى وصل اليها الفقهاء فى العصر الحديث ، بل هو مبدأ مطبق الى حد ما فى العصور القديمة بحسب البيئات ، فقد عرف الفصل فى النظم اليونانية ، وكان معروفا لدى الرومان . وعرف أيضا عند العرب وظل مدة مطبقا فى النظم الاسلامية : فكانت الوزارة وهى سلطة مدنية من أكبر المناصب فى الدولة ، وكانت تأتى مباشرة بعد الخليفة (٢) . ولكن يحدث أحيانا أن يظهر قائد من القواد ، وأن يؤتى من الظفر مايجعل له هيبة ومكانة وتدخلا فى الأمور السياسية بحيث يطغى نفوذه على نفوذ الوزراء أو لا يقل عنهم .

---

(١) الصولى : ص ٨٥ . الفخرى (طبعة وزارة المعارف) ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) الأحكام السلطانية (طبعة الحلبى ١٩٦٠) : ص ٢٢ — ٢٩ .

وكان أمير الأمراء يتولى : امرة الجيش ثم المناصب المالية ، فهو يلى الخراج والمعادن فى جميع البلاد ، ثم الدواوين ، فهو ينظر فى جميع الأمور ، وهو الذى يختار لها الرجال الذين يقومون بها . والأموال تحمل الى خزائن أمير الأمراء ، فينصرف فيها كما يريد . ويطلق للخليفة ما يريد فبطلت بيوت الأموال القديمة ، وصارت تابعة لأمير الأمراء المسئول وحده عن الناحية المالية كلها : نفقات الخليفة وأرزاق الجند ونفقات الدولة . واذا تحولت تبعية الدواوين وبيوت المال على هذا النحو الى شخص بعينه : بطلت الدواوين وأبطلت الوزارة وأبطل كل شىء (١) . ثم كان لأمير الأمراء حق ثالث اضافى ، هو أن يخطب له على المنابر الى جانب الخليفة ، وكان اسمه أيضا ينقش على السكة ، كما كان يتمتع بكثير من مظاهر الحفاوة (٢) . هذه هى اختصاصات منصب أمير الأمراء فما سبب تطور النظام وظهور امرة الأمراء على انقاض الوزارة ؟

اسباب ظهور امرة الامراء :

ظهرت امرة الأمراء على انقاض الوزارة ، فأصبح نظاما مقررا ، وكان ذلك تطورا خطيرا فى النظم الاسلامية ، فما هى أسبابه المباشرة ؟

كانت العادة أن يتولى الخليفة بنفسه حقيقة السلطان ، ويعاونه جماعة من الناس لهم صفة العمال فقط لا يزيدون على ذلك شيئا ثم يتخذ الخليفة كتابا ، ثم يسمى هؤلاء الكتاب وزراء . ولكون الوزراء عادة مجرد منفذين لأوامر الخليفة كانوا يسمون وزراء تنفيذ ، ثم تعظم سلطات الوزراء شيئا فشيئا حتى يصبحوا متصرفين فى حقيقة السلطان الذى كان بيد الخلفاء وعندئذ يعتبرون مفوضين من قبل الخلفاء ، وتسمى وزارتهم عند الفقهاء وزارة التفويض (٣) . ثم تغلب

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٣ ، ص ٤٠١ .
(٢) تجارب الأمم : ج ١ ، ص ٣٥١ .
(٣) انظر عن الوزارة : الأحكام السلطانية ، ص ٢٢ — ٢٩ .

النظم العسكرية النظم المدنية وتصبح شخصية القائد أكبر شخصية فى الدولة ، فتطغى على نفوذ الوزير وتلقى شيئا من الظلال عليها ، وتتجمع السلطة الحقيقية فى يد أمراء الأمراء العسكريين ، وقد دعت الظروف فى الدولة العباسية الى هذا التطور . وأهم هذه الظروف :

١ ـ الظروف الاقتصادية : فان كثرة الثورات بالعراق جعلت العراق نفســه عاجزا عن القيام بموارد الدولة ، فمنــذ منتصف القرن الثالث الهجرى (حوالى سنة ٢٥٠ هـ) والثــورات تتوالى بعضها اثر بعض فى اقليم العراق بالذات ، منها الثورة العلوية ، ثم ثورة الــزنج وهى من الثورات التى أرادت أن تصبغ نفسها بصبغة علوية ، ثم لم يكد الخلفاء يفرغون من حرب الزنج التى استمرت نحو خمسة عشر عاما ، حتى وقعوا فى خطر أكبر وهو خطر القرامطة ، وهى من الحركات التى جرت على الدولة مشاكل مالية كبيرة الى جانب المشاكل الحربية والعقيدية وغيرها وكان هذا الخطر القرمطى خطرا مستمرا . ثم ان أطراف الدولة كانت قد استقلت وقامت فيها دول ثغرية اتجهت بجهودها الى النشاط الثغرى ولم تتبع الخلافة الا من الناحية الروحية ، أو اتجه بعضها الى الاستقلال التام عن الخلافة . وكثر المتغلبون فى داخلية الدولة واستبدوا بالأطراف التى تغلبوا عليها ، فخوزستان والأهواز فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرتان فى يد على بن الياس ، والرى واصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ووشمكير أخو مرداويج بن زياد ينازعه فى هذه الأعمال ، ومصر والشام فى يد بن طغج الاخشيد ، والمغــرب وأفريقية فى يد العبيديين ، وبلاد ماوراء النهر فى يد بنى ســــامان ، وطبرستان فى يد الديلم . وحتى العراق نفسه خرجت منه أطراف كثيرة من يد الدولة ، فالبصرة طرف من هذه الأطراف ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهــر القرمطى (١) . لذلك أصبح ايراد الرقعة الباقية من العراق ضعيفا جدا ،

(١) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ . ابن الاثــــير : ج ٨ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

وكان لابد من التحايل للحصول على الأموال بكل طريقة ، لكي تظل الخلافة حافظة لبعض كبريائها ، ولكي تستطيع أيضا أن تواجه الثورات الكثيرة التي تقوم في العراق ، ولذلك كانت السلطة الحربية أهم ما يمكن للخلافة أن تعتمد عليه . ولذلك أنشيء منصب امرة الأمراء أيام الخليفة الراضي . ونقتبس من كلام الراضي نفسه ما يصور الحال ، قال الراضي « كانت بغداد دار المملكة حين كان في بيت المال عشرة آلاف ألف دينار في أيام المعتضد وضعف لها في أيام المكتفي ، فأما ولا مال بها فهي كسائر البلدان »(١) . وهذا القول يعبر عن مقدار الأزمة المالية التي وقعت فيها الخلافة أيام الخليفة الراضي (٣٢٢ هـ — ٣٢٩ هـ) .

٢ — الظروف العسكرية : والسبب الآخر في ظهور امرة الأمراء سبب عسكري ، وذلك أن الجند من الترك وغيرهم من الشعوب التي دخلت في العسكرية كالديلم وغيرهم ، كانوا يستجيبون لقوادهم وعصبياتهم ، وينقادون لمصالحهم الخاصة أكثر مما يستجيبون أو ينقادون للصالح العام أو للخلافة ، وآفتهم المال ، فهم يخدمون حيث يوجد المال . ولذلك استتبع العجز المالي ضعف في قوة الجيش الذي يمكن أن تتصرف فيه الخلافة ، وحتى بفرض وجود المال فان قيادة الجند محتاجة الى شيء من اللباقة والكياسة لمداراة عصبيتهم وتحزباتهم . وكانت سيطرة القواد عليهم تأتيهم من ناحية خدمة مصالحهم المادية ، فهم يخدمون من يدفع لهم أكثر ، وكذلك في قدرته على مداراتهم لتسلس له قيادتهم . وبذلك عظم نفوذ القواد حتى سيطروا على شئون الدولة وعلى مقدرات الخلافة ، وخير ما يصور حالة هؤلاء الجند ووقوع الخلافة في قبضتهم ، وفي تصوير عبثهم ، وشهوتهم للمال قول الخليفة الراضي نفسه : « كأني بالناس يقولون : أرضي هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي حتى يتحكم في المال ، وينفرد بالتدبير . ولا يدرون أن هذا الأمر قد أفسد من قبلي ، وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي ، فسلمت

---

(١) الصولي : ص ١٤٥ .

الى قوم يتسحبون على ويجلسون فى اليوم مرات ، ويقصدوننى ليلا ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ، وأن يكون له بيت مال خاص ، ويتعـدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، بل على أصحابى ، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفـذ . وأكثر ما فيـه أن يسألنى كلب من كلابهم فلا أملك رده ، وان رددته غضبوا وتجمعـوا وتكلموا » (١) . وهكذا أدت الأزمة الاقتصادية التى حلت بالخـلافة ، وكذلك تحكم العنصر التركى وسوء تصرف زعمائه الى أن تلجأ الخلافة الى هذا الحل الذى وصلت اليه وهو انشاء منصب أمير الأمراء .

* * *

نظـرة على الحالة فى العـراق
فى ظل منصب امرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ)

اذا نظرنا الى العراق فى أول هذه الفترة وجدنا شخصيات سياسية مختلفة ، أولها : الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩هـ) وهو من الخلفاء الناضجين فى تفكيرهم على حسب وصف الصولى المؤرخ صاحب كتاب « الراضى والمتقى » (٢) ، الا أنه عاجز لأسباب كثيرة أهمها الأسـباب الاقتصادية . وبجانب الخليفة الراضى كان وزير مشهور هو « ابن مقلة » وقد كان من الخطاطين ومن الكتاب المعروفين بجمال الأسلوب ، الا أنه كان وزيرا لخليفة ضعيف ؛ فلم يملك الا ايقاع الشخصيات السياسية فى مكائد لكى يتصرف فيهـم ، فليست له من الشـخصية ولا من القـوة ما يستطيع به أن يفرض كلمته أو أن يوجه جهـود رجال الدولة نحـو الصـالح العام .

وثانيها : شخصية أمير الأمراء ، وكان فى ذلك الوقت «ابن رائق» هو الذى كان يلى هذا المنصب ، وهو منصب أعلى من الوزارة يجمـع صاحبه فى يده السلطتين الحـربية والمدنية ، والوزير الى جانبه ليس

---

(١) الصـولى : ص ٤١ .
(٢) الصـولى : ص ١٩ .

الا كاتبا أو وزيرا خاصا بالخليفة ، لأن أمير الأمراء مفوض تفويضا عاما من الخليفة بتدبير الأمور المدنية وبقيادة الجيش . وابن رائق قائد من القواد لكنه لا يستطيع أن يترك العاصمة وأن يقود الجيوش بنفســه ، فهو يعتمد على بعض قواده الذين يتوسم فيهم الاخلاص ، وكان اعتماده على « بجكم التركى » .

وثالث الشخصيات من شخصيات المجال العراقى فى هــذا العــام (٣٣٦ هـ) هو « البريدى » وهو رجل طموح يصل فى سلك الادارة من الوظائف الديوانية الصغيرة الى الوظائف العالية . ويجب أن نشير هنــا الى أنه لم يكن يوجد فاصل بين الوظائف المدنية والوظائف الحربية ، فكثير من الوزراء قاد الجيش بنفسه مع أنه لم يكن من رجال الحرب .

ونستطيع أن نعد هؤلاء جميعا ثلاثة معســكرات : ــ معســكر الخليفة من ناحية ، ومعسكر أمير الأمراء من ناحية أخرى ، هــذا يملك حقيقة السلطان ، وذلك يملك اسم السلطان . أما المعسكر الثالث وهو فريق البريدى فانه يعمل لحســابه الخاص ويطمع فى يوم من الأيام أن يبلغ امرة الأمراء . وطبيعة هذه الشخصيات كلها واحدة ، وهى طبيعــة العصر كله ، لا نستثنى منها الا « الراضى » فهو بحكم مكانته الدينية ، وبحكم ما هو واقع تحته من ظلم ، رجل ينشــد الحقيقة ويعلنها لولا أنه عاجز،أما من عداه فهم بطبيعتهم أثرون كل يعمل لحسابه الخاص دون أن يرعى حرمة لولاء أوصداقة ، ودون أن ينظر فى ذلك الى المصالح العامة ، فالمصلحة الشخصية هى أساس كل تصرف يقوم به فرد من هؤلاء على مسرح السياسة ، وهم جميعا شاكون يستخون بعضهم بعضا ، ويتجسس بعضهم على بعض ويسمع بعضهم عن بعض كل شائعة وكل خبر ، فالجو محروم من كل ثقة ، ثم انهم جميعا حين يجد الجد انما يعتمــدون على الجيوش وعلى القواد الذين يقودونها . لكن الواقع أن كل قائد من قواد الجيوش كان يعمل لحسابه الخاص ، ويوجه جنده لمصلحته الخاصــة ، وهى الوصول الى أعلى مركز فى الدولة . ولهذا كان الجند أنفســهم

لا يتبينون أين تكون المصلحة العامة ، فكان هؤلاء الجند على مثال سادتهم يبحثون عن المصالح الخاصة أيضا ، ولهذا كانوا يتجولون من تبعية قائد الى تبعية آخر بحسب مصالحهم الشخصية ، فهم يتبعون القائد الذى يستطيع أن يدفع لهم أكثر عطاء ممكن أو يتيح لهم أكبر فرصة للمغنم • فالجيش من قادته الى جنده الصغار كل يتصيد فى ذلك الوقت مصالحه الشخصية •

ثم ان كل واحد من هؤلاء الأفراد حريص اما على البقاء فى بغداد حيث مركز الدولة ، واما على أن يكون متصلا ببغداد اتصالا وثيقا ، متفاهما مع بعض رجال امرة الأمراء أو بعض القادة ، أو مع الخليفة أو أحد المتصلين به ، وهداياهم تصل باستمرار الى بغداد ان كانوا بعيدين عنها : لكى يديموا بتلك الهدايا الصداقات التى يعتمدون عليها فى اذاعة الأخبار أو فى معرفتها أو فى الوقوف على نوايا كل فرد (١) ، ولا يختلف واحد منها عن الآخر ، الا أن البريدى كان أشد هذه الشخصيات مكرا وأكثرهم بقاء على مسرح السياسة ، فهو مشترك فى كل شىء ، لا يحدث حدث الا كانت له فيه يد ، ولذلك يحسن أن نفهم الأحداث على أساس تصرف البريدى نفسه •

كان أبو عبد الله البريدى كاتبا لياقوت والى الأهواز من قبل الخلافة (٢) ، وفى سنة ٣٢٦ هـ وصل البويهيون فى هجرتهم نحو الجنوب من اقليم طبرستان الى هذه الولاية ، واستطاعوا انتزاعها من واليها ياقوت ، وذلك لأن البريدى خان سيده ولم يتعاون معه (٣) • وقد كان البريدى فى الواقع يعمل على التخلص من ياقوت والوثوب على ولايته ، فكان ذلك فى صالح بنى بويه • لكنهم بعد أن انتصروا على ياقوت تركوا الأهواز وعادوا الى شيراز التى اتخذوها عاصمة لهم ، وبذلك ساء

---

(١) الصولى : ص ٢٧ •
(٢) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٣٩٦ • ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٠٦ •
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٠٩ — ١١١ •

مركز البريدى الذى أصبح خائنا للخلافة ولأمير الأمراء ابن رائق . فقر لاجئا الى بنى بويه بعد أن عادت جيوش الخلافة الى الأهواز (١) . وحيل اتصل ببنى بويه اغراهم بأن يمدوه ببعض الجند لاعادته الى الأهـواز ، والأهواز اقليم هام جدا بالنسبة للعراق وبالنسبة لاقليم فارس . فهى دهليز العراق كما هى دهليز فارس . والذى يملك الأهواز ويســتكمل قوته يستطيع أن يسـد كل طريق على القوات المقيمـة باقليم فارس ، فوجود سلطة قوية بالأهواز كان معناه سـد الطريق على بنى بويه . ومعنى ذلك إبعادهم عن العراق الذى كان متجه أنظارهم ،لذلك فانهم حين أمدوا البريدى بالجنـد كانوا يخفون نواياهم الحقيقية ، وكانوا يطمعون فى الاستيلاء على الأهواز استيلاء تاما ولكن بنى بويه لم يكونوا يثقون فى البريدى ، ولذلك استرهنوه اثنين من أبنائه حتى يطمئنـوا اليه (٢) . ثم سـار جيش مشترك من البويهيين وممن مع البريدى من الترك ــ ونلاحظ هنا أن البريدى وهو رجل مدنى استطاع أن يجمـع حوله قوة من الجند الأتراك ــ ذلك لأن الأتراك قد تحولوا الى جـند مرتزقة يبيعون سيوفهم لمن يدفع لهم المال ــ واستطاع هذا الجيش المشترك أن يستولى على الأهواز ، الا أن الطرفين لم يستطيعا الاتفاق طويلا ، اذ ان البريدى كان يتوهم أن بنى بويه انما يساعدونه ثم يرجعون مكلفين بأن يخطب فى البلاد باسمهم . وأن يكتفوا بالتبعية الاسمية . لكن بنى بويه كانوا ينوون الاستيلاء الفعلى على الأهواز . هذا الى أن جند بنى بويه كانوا من الديلم وكان جند البريدى من الترك والشعبان متباغضان . فثارت العصبية بينهما ووقع الاحتكاك . واستطاع أحمد بن بويه قائد جيش الديلم طرد البريدى من الأهواز (٣) . ولما كان البريدى قد فقد السـلطان فى العراق ، فانه تراجع الى البصرة واسـتولى عليهـا دون

---

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٤ .

(٣) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٢١٩ .

« ناومة (١) ، وذلك لأنها كانت فى الحقيقة بعيدة عن أن تكون موضوعا لطمع أحد من الشخصيات الموجودة فى العراق .

كان ابن رائق لا يثق بقائده بجكم لأنه سمع أن ابن مقلة يحاول أن يستميل بجكم ، فهو يخاف أن يتم الدس عليه بين ابن مقلة وبجكم ، ولهذا لم يتحرك ابن رائق اطلاقا لمنع البريدى من احتلال البصرة فاحتلها وهو آمن .

وقد كان ابن رائق أمير الأمراء أقوى الشخصيات فى ذلك الوقت ، فابن مقلة لم يكن الا وزيرا ضعيفا تابعا للخليفة . وبجكم ما هو الا قائد لابن رائق وصنيعة من صنائعه ، والبريدى ما هو الا رجل طريد استطاع أن يستولى على جزء صغير وهو البصرة . الا أن الأمور أخذت تتطور على أساس مكيدة قام بها ابن مقلة ، فأوقع الأطراف بعضهم فى بعض . واستطاع البريدى أن يبقى قائما على قدميه وأن يكون سيد الموقف ، وأن يسير نحو بغداد ليكون أمير الأمراء .

كان البريدى فى أزمة فقد توالت عليه الهزائم ، فهو حين آوى الى البصرة كان منهزما أمام أحمد بن بويه ، خائفا من ابن رائق وقائده بجكم ، يتوقع أن ينتهزا فرصة انهزامه للقضاء عليه ، وهو من قبل هذا كان قد انهزم أمام بجكم وابن رائق فأعانه بنو بويه حتى استولى على الأهواز ، ثم طرد منها فانحاز الى البصرة . تلك هزائم متتالية على البريدى ، ولكنه ظل ثابتا وظل جنده حوله لم يتركوه لأنه كان قادراً على أن يبقى الأمل فى نفوسهم ، ثم ان الظروف بعد ذلك خدمته وجعلته يطمع فى أن يكون ذا شأن فى العراق وأن يصل الى امرة الأمراء .

وكانت خطة ابن مقلة أن يتفق مع بجكم ضد ابن رائق ، فاستطاع بواسطة الكيد والدس والاختلاق أن يفرق بين بجكم ومولاه ابن رائق

---

(١) الصولى : ٨٩ . ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٠ .

وبالرغم من أن ابن رائق اكتشف مؤامرة ابن مقلة وعاقبه عقابا صارما بأن قطع يديه (١) ، الا أن اكتشاف المؤامرة لم يمنع من أن تتم وتتحقق غاياتها ، لأن النفوس تغيرت من مجرد وجود جو المؤامرة ، ففقد ابن رائق وبجكم كل واحد منهما ثقته فى الآخر . فوجد اذن انقسام طارىء فى جبهة أمير الأمراء ، وهى الجبهة التى كان يتخوف منها البريدى . فلما انشقت جبهة أمير الأمراء على نفسها ، آخذ الطرفان المنشقان يسعيان كل بطريقته لاكتساب صداقة البريدى ، فبدأ أمير الأمراء بالاتفاق مع البريدى لكى يحصل منه على بعض المال . فرحب البريدى بهذا الاتفاق واعتبره فرصة يطمئن فيها على مكانته بالبصرة (٢). أما بجكم فقد وجد نفسه بين هاتين القوتين : البريدى فى البصرة وأمير الأمراء فى العراق ، فحين خاف وضاعت المودة بينه وبين مولاه ، كان عليه أن يدافع عن نفسه بسرعة والا ضاع جملة واحدة ، وكان عليه أن يثبت لأتباعه أنه قادر قوى لا ينحط عن منزلته الكبيرة ، ولذلك كان عليه أن يحارب مولاه ويسرع الى الحلول محله والا فقد كل شىء ، ولكنه فى نفس الوقت كان مضطرا أن يتخلص من البريدى فما كان منه الا أن يتظاهر بالهجوم على البريدى ، فعبأ جيشه وسار نحو البصرة . فلما تمكن الخوف من قلب البريدى عرض عليه بجكم الصلح والاتفاق ، فتصالحا ضد ابن رائق . فكأن البريدى قد غير حلفه فى سنة واحدة(٣).

بجكم امير الامراء :

رجع بجكم الى بغداد بعد أن أمن ظهره ، فأخرج ابن رائق وتولى امرة الأمراء (٤) وجعل البريدى وزيرا . ولم ينتقل البريدى الى بغداد لتولى الوزارة بنفسه ، وانما عين نائبا عنه فى ذلك المنصب (٥)

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١١ . الصولى : ص ٥ .
(٢) الصولى : ص ١٠٥ . ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ .
(٣) ابن خلدون : نفس الصفحة .
(٤) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ . الصولى : ص ١٠٦ .
(٥) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٧ . ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٥ .

ثم تصاهر هذان الرئيســان فى السنة التالية ، وأصبحا بهذه المصاهرة متضامنين فى كل شىء (١) • واستقر وضع امرة الأمراء باشتراك هذين الرجلين فى المسئولية واتفاقهما معا • وظل هذا الجو الخالى من التقلبات مستمرا من عام ٣٢٦ الى ٣٢٩ هـ • ودبت الحياة فى الآمال من جــديد بعد أن تمتع الناس بهذا الاستقرار • وابتدأ الرؤساء يفكرون فيما وراء العراق فاتفق بجكم والبريدى على أن يستعيدوا الى ملكية الخلافة أقاليم الجبال الشمالية •

وضع الطرفان الخطة معا ، واتفقا على أن يخرج بجكم من بغــداد الى مدينــة خانقين الى حلوان الى نواحى الجبــل • وأن يكون دور البريدى هو أن يقف عنــد الطريق بين الأهواز والعراق ليحول بين بنى بويه والطمع فى العراق ، وكان مفتاح الطريق بين الأهواز والعراق هــو مدينة « واسط » التى أنشأها الحجاج بن يوسف بين الكوفة والبصرة لتكون مكانا وسطا بينهما • وبدأ الطرفان فى تنفيذ الخطة فعلا ، فخرج البريدى الى واسط ، وخرج بجكم بجيش قوى حتى بلغ حلوان (٢) •

وعندئذ حدثت ظاهرة غريبة هى أنه بمجرد ابتعاد بجكم عن العراق عاد اليه جو الريبة القديم ، فشك فى صهره البريدى ، وخاف أن ينتهز فرصة غيابه فيتصيد لنفسه بعض المناصب والمصالح ، لذلك ترك تنفيــذ الخطة المتفق عليها ، وعاد مسرعا من حلوان نحو واســط ليقضى على البريدى • والواقع أن بجكم له بعض العذر ، فقــد كان جميع القواد فى ذلك الحين لا يحبــون الخروج من العراق • فانسحب البريدى من واسط نحو البصرة ــ الى قاعدته الأولى ــ الى الموقف الذى كان فيــه عام ٣٢٦ هـ ، وتبعه بجكم بجنوده وهو مطمئن الى النصر ، فكان فى أثناء سيره اذا وقف الجيش فى ناحية خرج الى الصيد ، فقتل فى مرة من

---

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١١٧ . ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٨ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٢٧ .

خرجاته هذه للصيد (١) • وقبل مقتل بجكم بقليل كان قد مات الخليفة الراضى فى بغداد وولى بعده المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) •

ونرى بعـد ذلك موقف البريدى الذى تحرج كل الحرج ، عاد فتحسن الى درجة أن الناس ظنوا أن امرة الأمراء ليس لها فى هذا الظرف الا البريدى • وطمع البريدى فعلا فى هذا المنصب وجاءه الجند من كل ناحية ، وبخاصة الجند الذين كانوا تحت قيادة بجكم ، فان نصـفهم انضم اليه بالبصرة والنصف الآخر خرج الى ناحية بغداد وواصل سيره شمالا حتى انضم الى الحمدانيين بالموصل (٢) •

وتوزيع الجيش نفسه على هذا النحو لم يكن شيئا اتفاقيا ، بل كان لأن الجند كانوا يشتغلون بالسياسة ويعرفون كيف تتجه ، فالذين انضموا الى البريدى كانوا يرون أنه رجـل السـاعة ، والذين انضـموا الى الحمدانيين كانوا يرون أنهم رجال السـاعة • ولم يخب ظن الطرفين فقد آل الأمر للبريدى أولا ثم لبنى حمدان •

البريدى فى بغـداد :

لمـا تجمعت تلك الجيوش للبريدى زحف بها نحو بغداد ودخلهـا دون عناء ولم يلق مقاومة (٣) • الا أن الخليفة المتقى لم يكن يحب هذا الرجل بل كان يحتقره ، ولهذا لم يأذن له بالمثول بين يديه ، ولم يخرج له التقليد بامرة الأمراء ، واكتفى بأن جعله وزيرا • لكن الوزير اذا جمع الى منصبه المدنى قيادة الجيش كان فى حكم أمير الأمراء تماما •

وهكذا وصـل البريدى الى امرة الأمراء الفعلية وان لم يتـقلده الخليفة هذا المنصب تقليدا رسميا • الا أن فريقا من الجند الديالمة ثاروا ضده فى بغداد • وكان الديالمة يومئذ قد دخلوا فى خدمة جيش الحضرة

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٢٧ — ١٣١ •
(٢) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣١ •
(٣) نفس المصدر والصفحة •

حش الخلافة المركزية) وأمام هذه الثورة تراجع البريدى الى البصرة بعد عده اشــهر • ولم يكن الخليفة المتقى مخطئا حين رفض الترحيب بالبريدى ، فان وجود مثل هــذا الرجل فى ذلك المنصب ليس حــلا للأزمة ، فان البريدى لم يكن شخصية سليمة ولا محبوبة ، وهو فى البصرة واقع بين خطرين : خطر بنى بويه المستقرين فى فارس والأهواز من ناحية ، وخطر القرامطة المستقرين فى البحرين من ناحيــة أخرى ، وهــو مســالم لهذين العــدوين يترضــاهما بالمــال : فهــو رجــل عاجز لا تظهر قدرته الا فى الجهة الضعيفة وهى جهة بغــداد ، فمثــله لم يكن يصــلح لامرة الأمراء فى نظر المتقى • الا أن البريدى حين عاد الى البصرة كان يتطلع الى الرجوع الى بغداد وتولى امرة الأمراء ، وفعلا عاد البريدى الى بغــداد مرات ، فما السبب فى عدم بقائه مدة طويلة فى بغداد ؟

وأول الأسباب أن الخليفة المتقى كان معتقدا أن مثل البريدى لايمكن أن يكون المنقذ للدولة مما هى فيه •

والسبب الثانى هو أنه كان يومئذ فى بغــداد فى جيش الحضرة كثير من الديلم الذين هاجروا ، ودخلوا فى عداد الجيش وأعطيت لهم سجلات بدخولهم فى الخــدمة ، وأصبحوا عساكر نظاميين ، وكانــوا حزبا كبيرا يقارب الحزب التركى بل ويزيد عليه فى بعض الأحيان ، وهذا الحزب الديلمى هوالذى وقف معارضا للبريدى حتى اضطره الى الخروج من بغداد (١) •

وســبب ثالث لخروج البريدى ، وهــو أنه مع اشتهاره بالكرم لم يسلك سبيلا مستقيما ، بل أخذ يضــع العراقيل فى وجه الخليفــة للوصول الى مصالح شخصية ، فان البريدى حين لم يخرج له الخليفــة التقليد بمنصب امرة الأمراء أراد أن يحرج الخليفــة ، فطالبه بالأموال

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ •

للجند • ولم يكن من واجب الوزير أن يوفر المـال للجند وانما ذلك من واجب أمير الأمراء الذى يجمـع بين الاختصاصات الحربيـة وبين اختصاصات الوزير • فالعودة الى النظام المدنى ولو لسبب عارض كانت تلزم الخليفـة بالتزامات لا تقع عليه فى نظـام امرة الامراء أو النظـام العسكرى • وفهم الخليفـة المتقى الهدف الذى يرمى اليه البريدى من هذه المطالبة ، فأخرج له ما طلب من المـال ، فصار الجند بعد ذلك لا يطالبون الخليفة بل يطالبون البريدى بأن يوزع عليهم ما أخذ من أموال ، وهنا نلمح كياسة الخليفة المتقى • فصار البريدى فريسـة لنفس المكايد التى كان يدبرها للخليفـة • كان البريدى يريد أن يتحكم فى الخليفة فتحكم فيه الخليفة والجند ، فلما رأى الأمور مضطربة فى بغـداد تركها وعاد الى البصرة (١) •

ابن رائق امير الامراء مرة اخـرى :

كان الزعيم الذى ترأس الجنـد أمام البريدى هـو « كورتكين الديلمى » ، الا أن تحكم الديلم فى الموقف على هذا النحو أحدث رد فعل ، فنهضت العصبية التركية تبحث لنفسـها عن رئيس قوى يستطيع أن يتحكم فى الموقف ، فاسـتدعى ابن رائق للمرة الثانية ، وهو زعيم للحزب التركى ، وقد كان حين غلبه بجكم خرج الى الشام وولى فيهـا ولايات وكانت له حروب مع الاخشيدى أول الأمر (٢) • فقدم ابن رائق الى بغداد وتولى امرة الأمراء بسـهولة للمرة الثانية • وفى هذه المرة سلك مع البريدى نفس الخطة التى سلكها بجكم من قبل • فقد صـ نحـو البصرة ، ثم عرض الصـلح على البريدى الذى رحب بالصـلح وأسندت اليه الوزارة هذه المرة أيضا (٣) ، فصار مشاركا فى السلطان مع ابن رائق • وتكرار المسألة على هـذا النحو يدل على أن صاحب البصرة قاسم مشترك فى كل سلطان يوجد بالعراق • وكان طبيعيا أن

---

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ •
(٢) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٢٨ • ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٨ •
(٣) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣٤ •

يوجد رد فعل أيضا من ناحية سياسة ابن رائق ، فانه تتبع الديلم ونكل بهم يريد بذلك اضعاف هذا الحزب الذى يريد أن يتحكم فى القيادة العليا (١) .

ظل الأمر على هذا مدة الى أن اختلف البريدى وابن رائق ، فان هذا عزل البريدى عن الوزارة ، فجيش البريدى جيوشه وخرج الى بغداد ، فاضطر ابن رائق والخليفة الى الهروب أمامه الى الموصل والتجأ الى بنى حمدان ، واستولى البريدى على امرة الأمراء ودخل بغداد للمرة الثانية (٢) .

امرة الأمراء فى يد بنى حمدان :

كان بنو حمدان يلون الجزيرة ويقومون بالغزو ضد الروم ، وكان يهمهم بطبيعة الحال أن تنتظم أمور العراق ، ليكون العراق القوى سندا وراء ظهرهم يعتمدون عليه ، واضطراب الأحوال فيه يعود عليهم بالضرر ، ولذلك كانوا يهتمون بأمور العراق اهتماما كبيرا ، وان كانوا فى حقيقة الأمر يؤثرون وظيفتهم الثغرية لما تضفى عليهم من هيبة واحترام فى أعين الناس ، ولأنها تحيطهم بعطف جميع المسلمين . فتدخل بنو حمدان فى الأمر ، وكانت طريقتهم فى التدخل اصلاحية وقوية ، فأرادوا أن يطهروا الجو أولا بأن تخلصوا من ابن رائق بقتله ، ثم عادوا بالخليفة نحو بغداد فخرج منها البريدى بكل بساطة (٣) . وأسند الخليفة امرة الأمراء الى الحسن بن عبد الله الحمدانى ولقبه ناصر الدولة كما خلع على أخيه أبى الحسن ولقبه سيف الدولة (٤) . وقد بدأ ناصر الدولة عهده باصلاح الأحوال الاقتصادية ، فبدأ باصلاح السكة وحال دون العيارين والصيارفة بعيار لها ، وهدد الصيارف بانزال العقاب بهم

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٢) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤١٢ . الصولى : ص ٢٠١ .
(٣) ابن خلدون : ج ٣ ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(٤) الصولى : ص ٢٢٨ .

اذا لم يقلعوا عن الربا (١) ، ثم وضع نظاما جديدا للصرف ، بحيث فرض على الخليفة أن يكتفى بقـدر قليل من المـال ، كما فرض على النـاس التقشف (٢) . ثم سار الحمدانيون بجيوشهم نحو البصرة للقضـاء على البريدى الذى ظن أن نهايته قد صارت محتومة فالتقوا به قرب واسـط وكانت بينهما وقعة غير حاسمة (٣) .

لكن فى أثناء وجود الحمدانيين وسـط المعسـكر حدثت فتنة بين الجند فقد قام « توزون الديلمى » وتزعم حركة شغب حتى ضجر سيف الدولة من قلة الضبط الذى اتصف به هذا الجند ، فقرر بنو حمـدان العودة الى الجزيرة ليتفرغوا لواجبهم الثغرى ، وآلت امرة الأمراء الى توزون (٤) .

توزون امير الأمراء :

فلاحظ هنا أن قوة الديلم صـارت هى القوة المتحكمـة فى مركز الخلافة وتضـاءل شأن الحزب التركى تضـاؤلا كثيرا ، فلم يستطع أن يستعيد مركزه مرة أخرى ، لأن امرة الأمراء استمرت فى يد الديلم حتى تسلمها بنو بويه وهم من الديلم أيضا ، ولا نكاد نسمع عن تسلط الترك فى العراق مرة أخرى حتى يأتى عهد السـلاجقة وهم من الترك ، ولكن ليسوا من الطوائف التركية التى شهدناها منذ عهد المعتصم .

وتوزون أهم الأمراء الذين تولوا الأمر قبل العصر البويهى ، فقد استطاع أن يغتصب المنصب من متنافسين قويين هما الحمدانيون والبريديون وبهذا أثبت أنه أقوى من ابن رائق كما أثبت أنه أقوى من بجكم ، وهو

(١) الصولى : ص ٢٢٩ ، ٢٣١ .
(٢) الصولى : ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٦ .
(٤) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

الذى صد الحمدانيين فانسحبوا ، وهو الذى وقف أمام البريدى ، ولهذا لا نكون مبالغين اذا قلنا انه كان من أكبر شخصيات الدولة فى هذا الوقت ، وقد أحس هو نفسه بعظم السلطان الذى اجتمع فى يده ، فلم يراع للخليفة المتقى حرمته حتى ضاق الخليفة فخرج من بغداد لاجئا الى الحمدانيين ، لكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يعيدوا سلوكهم كماحدث فى المرة الأولى (١) ، وفى نفس الوقت كان توزون يتحايل على الخليفة بالوعود ، حتى عاد الخليفة الى بغداد مرة أخرى اذ كان يخشى أن يعين توزون خليفة غيره .

وحين عاد الخليفة قدم له توزون كل فروض الطاعة ظاهريا ، ولكنه أوعز الى بعض أصحابه فقبضوا على الخليفة وأجبروه على خلع نفسه ثم سملوا عينيه (٢) ، وبهذا وقع الخلفاء تحت يد الديلم كما كانوا من قبل فى يد الترك ، وان كانوا لم يتعرضوا للقتل الا أنهم تعرضوا للاهانة والتعذيب وفقد الهيبة .

وكما عزل توزون الخليفة استطاع أن يختار خليفة غيره يكون طوع يديه ، ذلك هو المستكفى . ومن هذا نرى مقدار ما وصل اليه توزون من قوة ، ومقدار ما وصلت اليه الخلافة من ضعف . ثم توفى توزون فخلعه ابن شيرزاد ، وفى عهد هذا قدم البويهيون الى العراق فحلوا محل أمراء الأمراء ، وبدخولهم بدأ العصر البويهى الذى استمر من ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ . وفيه خضعت الخلافة خضوعا تاما للبويهيين ، وفى عهدهم لم نشهد ذلك الصراع الذى كان قائما بين الخلفاء وبين المتغلبين على شئون الخلافة ، فقد فقدت الخلافة فعاليتها طوال العصر البويهى ،

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٤٢ ، ١٤٤ . ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ . الصولى : ص ١٨٠ — ١٨٣ .

ثم طوال العصر السلجوقى من بعد ، وحين ضعف السـلاجقة وبدأت الخلافة تسترد قوتها كان الوقت قد فات ، وكان العالم الاسلامى يواجه فى شرقه وغربه خطرا شديدا لم تكن للخـلافة قدرة على المشاركة فى دفعه ، ونعنى بهذين الخطرين الخطر المغولى فى المشرق والخطر الصليبى فى المغرب ، واستطاع المغـول أن يكتسحوا العالم الاسلامى الشرقى وأن يصلوا الى العراق ويسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ .

الباب الثاني

الحركات الاستقلالية فى العالم الإسلامى

أول ما ننبه اليه حين ندرس هـذا العصر أن الظروف قد تغيرت ، وأصبحنا فى عالم جديد يختلف تمام الاختلاف عن العصر العربى الأول ، ويخالف على الأخص فكرة مثالية كانت ماثلة فى أذهان المؤرخين القدماء ، ولا تزال الى حد كبير ماثلة فى أذهان بعض المعاصرين اليوم ، وهى أن الخلافة وحدة لا يجب أن تتجزأ ، وأن قوة العالم الاسلامى تقاس بضعف الخلافة وقوتها • ولكن هذا المقياس غير صحيح لأنه مقياس مبنى على فكرة مثالية هى فكرة احياء التقاليد الأولى الأموية ، وفكرة جمع العالم الاسـلامى على اختلاف أقطاره فى يد واحـدة هى يد الخلافة ، مع أن المقياس التاريخى يجب أن يبنى على الوقائع المـادية • فان الخلافة قد تجزأت فعلا ، وأصبح كل اقليم مستقلا استقلالا ذاتيا عن الخلافة ان كان اقليما سـنيا • أو مسـتقلا كل الاستقلال عنها ان كان يدين بمذهب غير سنى ، كدول الخوارج ودول الشيعة التى كانت لا تعترف بسلطان الخلافة العباسية •

وفكرة الجماعة كانت فكرة لها أهميتها الكبيرة فى العصر الاسلامى الأول ، ولها تأثيرها فى اذهان المسلمين فى ذلك الوقت ، فهى التى أوحت للحسن بن على أن يتنازل عن الخـلافة لمعاوية • وفكرة الجماعة التى حققها عبد الملك بن مروان هى التى جعلته أفضل من عبد الله بن الزبير منافسه فى الخلافة ، مع أن عبد الله بن الزبير كان أحب للمسلمين من عبد الملك •

ثم ضعفت هذه الفكرة فى أواخر العصر الأموى ، فلما جاء العصر العباسى لم نجد لهذه الفكرة أثرا • فهذا العصر العباسى كله لم يتأثر بفكرة الجماعة كما تأثر بها عصر الراشدين والأمويين • وحلت محـل فكـرة الجماعة الأساسية فكرة أخرى هى فكرة الصوالح الاقليمية أو الصوالح الشعوبية ، بمعنى أن كل اقليم أو كل جنس كان ينزع بطبعه الى الاستقلال بأموره عن الخلافة والى اختيـار حكومة قوية تنهض فيـه وتدافع عن مصالحه باسم الخلافة البعيدة • فالعصر العباسى كله يختلف اختلافا

جوهريا عن العصرين السابقين عليه ، ومصدر هذا الاختلاف هو اتصال المبادىء التى نادت بها الثورة العباسية ونعنى من بينها هنا مبدأ المساواة ومبدأ الاصلاح .

ففكرة الجماعة قد ذهبت وحل محلها فكرة جديدة هى فكرة حقوق الشعوب ، أو ما سماه القدماء بالشعوبية ، وما نسمية الآن بالقوميات . ففى هذا العصر ظهرت قوميات فى العالم الاسلامى ، فكان كل شعب من الشعوب المنضوية تحت لواء الحكومة الاسلامية يتلمس شخصيته القومية ، ويحاول أن ينميها ،وأن يرتفع الى مستوى الاستقلال، بحيث ان الزمن لم يمتد الا يسيرا حتى أصبحت كل قومية تحكم نفسها بنفسها رضيت الخلافة أم كرهت .

ولم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية ، لأن المعارضة الشيعية والمعارضة الخوارجية كانت تشجع هذه النزعات ، وكانت الخلافة اذا قاومت لا تجنى من وراء المقاومة الا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق الاكراة لا عن طريق التقليد.

ان الأمصار الاسلامية التى رأيناها فى عصر الراشدين والأمويين تخضع للسلطة المركزية فى المدينة أو فى دمشق ، وتستلهمها التوجيه ، وتوفد اليها الحاضرة ولاة أو عمالا تطول اقامتهم أو تقصر ، ينفذون مايرسم الخلفاء من سياسات أو مايصدرون من أوامر . هذه الأمصار شهدت خروجا على هذه المركزية وشهدت عمالا لا تطول اقامتهم أو تقصر ، وانما يورثون ويظفرون باستقلال محلى للبلاد التى يحكمون فيها .

وقد وضحت جذور هذا التطور منذ فجر الدولة العباسية وفى عنفوان قوتها فقد استقل عبد الرحمن بن معاوية (الملقب بالداخل) بالأندلس ، وقام عبد الرحمن بن حبيب عامل أفريقية بثورة على الأمويين

واعترف به العباسيون أميرا مستقلا (١) . وشـهد المغرب قيام الدولة الرستمية فى تاهرت والأدارسة بالمغرب الأقصى ، والأغالبة بتونس ، والطاهريين فى ايران . لكن هذه الظاهرة وضحت واتسع انتشارها فى القرن الثالث ، فظهر الصفاريون بسجستان ، والسامانيون فى بلاد ما وراء النهر ، والغزنويون فى بلاد الهند ، والطولونيون والاخشيديون فى مصر والشــــام .

هذه التطورات لم تكن مجرد ظهور مغامرين يستقلون بهذا البلد أو ذلك ، انما كانت أعمق من ذلك بكثير . كانت تطورا بعيد المدى فى التاريخ الاسلامى وفى الحضارة ، وهى بقدر مالها من هذه الأهميـة تحتاج الى استكناه حقائقها فى دراسـة متخصصة نأمل أن توجه اليها جهـود الدراسـين .

يرى بعض الدارسين فى ذلك انحلالا وتفككا للدولة الاسلامية ، وبداية الكارثة التى أودت بوحدة المسـلمين ، ويردون ذلك الى عاملين هما : ضعف السلطة المركزية ، ثم نمو سلطات الولاة على حساب الخلافة. والحقيقة أن هذه التطورات لم تكن تفككا وانحلالا للدولة الاسلامية ، فقد دان هؤلاء الأمراء فى الاقاليم بالطاعة للخـلافة واعترفوا بنفوذها الروحى : يدعون للخليفة على المنابر ، ويكتبون اسـمه على السكة ، ويشاركون فى الجهاد . وكانت الخلافة تتدخل فى بعض الأحيان تدخلا مثمرا ، فترد المنحرفين من أمراء الأقاليم حين يجاوزون حدود الخدمة العامة ، أو حين يشـتد بهم الطموح للسيطرة والدخول فى منافسـات تضر بالاقاليم الاسلامية ، أو حين يعجزون عن أداء وظائفهم فى الدفاع عن أقاليمهم أو تنمية مصالحها . فقد قضت على الدولة الطولونية فى

(١) كان عبد الرحمن بن حبيب اميرا شبه مستقل منذ سنة ١٢٧ هـ ، وقـد اعترفت به الخلافة العباسية واقرته أميرا مستقلا بولايته ، ثم خلع طاعة المنصور واعلن استقلاله حتى خرج عليه اخوه وقتله .
انظر : المغرب الكبير : ص ٣٢٣ — ٣٣٣ .

مصر والشام حين ضعف حكامها ودخلوا فى منافسات داخلية ضارة ، وكذلك ضربت الصفاريين حين اتجهت جهودهم الى تغلب داخلى فى جسم الدولة ، كما ساندت السامانيين للحلول محل الدولة الطاهرية التى فقدت فاعليتها ، وشجعت الغزنويين حين نهضوا بأمر الثغر الهندى ولقبت محمودا الغزنوى « يمين الدولة » اذ كان يرعى الذراع الأيمن من جسم الدولة الاسلامية فى المشرق ، كما ظاهرت الاخشيديين فى محاولتهم الدفاع عن حدود مصر الغربية لرد هجمات الفاطميين ، وحتى فى أثناء ضعف الخلافة لم يكن المجال فى مركز الخلافة خاليا من القوة ، فالخلافة فى أثناء ضعفها انما تنازلت عن حقيقة السلطان لسلطة الوزير أو سلطة أمير الأمراء فلم يكن المجال خاليا من سلطة قوية قادرة على ضبط الأمور وتسيير الحوادث .

لقد كان العالم الاسلامى تجمعه وحدة الخضوع الاسمى لخليفة المسلمين ، ووحدة الولاء العميق للاسلام ، والرغبة الأكيدة فى الجهاد لنصرة هذا الدين ، والوقوف فى وجه الأخطار التى تتهدد العالم الاسلامى .

ومن الاسراف أن نرد نمو هذه الظاهرة الى ضعف الخلافة ، فقد أينا هذه المحاولات الاستقلالية تتضح فى فجر الدولة العباسية ، فقد ستقل عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس أول العهد بقيام الدولة العباسية . وظهرت بعض هذه الدول فى عصر المأمون . بل هذه الخلافة فى بعض الأحيان تشد أزر هذه الحركات الاستقلالية وتدفعها دفعا ، رغبة منها فى حماية بعض مناطق الأطراف أو عجزا عن حكم هذه الأطراف حكما مباشرا ، وليس أدل على ذلك من قيام دولة الأغالبة فى تونس بتشجيع من الخلافة العباسية .

كانت هذه الحركات فى الحقيقة تعبيرا عن أمرين : عن القومية ، وعن الاقليمية . ذلك أن الاسلام حينما انتشر ذلك الانتشار الهائل

فوق هذه الرقعة الفسيحة من الأرض قهر قوميات لها عراقتها فى التاريخ والحضارة ، قهر الفرس والمصريين والبربر والقوط . هذه القوميات بعد أن أسلم أصحابها واستكانوا زمنا للحكم الخلافى المركزى ، لم يكن من المعقول أن يطول خضوعهم ، بل المعقول أن تجد هده القوميات لها منافسها فى هذه الحركات الاستقلالية التى حفل بها تاريخ الاسلام فى هذه الفترة .

ولعل أبلغ ما يعبر عن هذه القوميات الساعية الى التحرر والمساواة ظهور الشعوبية فى ايران . فالموالى من الفرس كانوا من وراء النجاح الذى حققه العباسيون ، فظفروا بمساواتهم بالعرب ، بل أغراهم ضعف العصبية العربية وتفرقها فى الأمصار ، وتخلى العباسيين عنها وتنكيلهم بها ومحاربتهم لها ، الى محاولة الفوز بكل النفوذ والسلطان ، بل طما بهم طمعهم الى محاولة النيل من كل ما هو عربى ، وبلغت حركتهم هذه أوجها فى القرن الثالث الهجرى ، فأصبحت هجوما سافرا يريد أن يشوه كل ما ينسب للعرب من تراث ، فأكثروا من التأليف فى مناقب العجم ووضعوا الكتب فى مثالب العرب ، ودسوا على الأدب والتاريخ نصوصا اختلقت للحط من شأن العرب .

هذه الحركات ليست مجرد شعور بالحقد والكراهية للعرب ، بقدر ما هى تعبير عن القومية الفارسية ، وهذا التعبير لم يتخذ هذا المجرى الثقافى الأدبى وحسب ، ولكنه التمس له طريقا سياسيا فى صورة الدويلات الفارسية التى ظفرت باستقلالها فى ايران .

وكانت محاولات الأندلسيين والمغاربة والبربر والمصريين فى الاستقلال تعبيرا عن قومياتهم التى لبست لبوسا اسلاميا ، والتمست لنفسها تعبيرا اسلاميا ، فهى تريد أن تستقل ، وهى تعترف بالخليفة رأسا للدولة الاسلامية ورمزا للوحدة الاسلامية . فهذه الحركات الاستقلالية اذن تعبير واضح عن هذه الشعوبية أو هذه القوميات التى دانت للاسلام ، ودخلت فى طاعته .

وهى ليست تعبيرا عن القومية فحسب ، بل هى صورة للصراع المتلازم دائما بين الاقليمية والمركزية فى كل دولة امتدت أطرافها فى العالم وحكمت أقاليم متباينة . فالدولة الاسلامية دخلت فى طاعتها أقاليم جغرافية متباينة جنسا ولغة وطبيعة ، وهى وان كانت قد دانت للسلطة المركزية قرنا أو قرنين ، فانها سرعان ما فرضت نفسها على التاريخ والحوادث ، مختفية وراء هذه الحركات الاستقلالية ، وملتمسة ضعف الخلافة أو انشغالها . وكيف يمكن توحيد عالم بأسره ، ممتد من الصين الى المحيط الأطلسى فى سلطة متمركزة في بغداد ؟ !

وثمة حقيقة أخرى وهى أن هذه التطورات كانت انتصارا حقيقيا للدعوة الاسلامية ولروح الاسلام . فالاسلام كما نعلم لم يفرض امتيازا للعرب على حساب غيرهم من سائر المسلمين . فاذا كانت هذه القوميات قد تحررت وبرزت فذلك من نعمة الاسلام .

واذا كان كتاب التاريخ الاسلامى قد نظروا الى هذه التطورات نظرة التشاؤم ، ورأوها نذيرا بسقوط الخلافة الاسلامية وتفرق شمل العالم الاسلامى ، ومقدمة للحوادث المفجعة التى أصابت العالم الاسلامى على يد المغول والصليبيين ، وعقدوا المراثى للخلافة كنظام فريد انشأه العرب ورعاة الاسلام ، فان مؤرخى الحضارة يرون أنها طليعة التنافس بين البيئات الاسلامية فى الانتاج الثقافى ، ذلك التنافس الذى هيأ لعصر النهضة الاسلامية الشاملة .

واذا كانت هذه الحركات الاستقلالية نتيجة لنمو الشعور القومى ، واستجابة للظروف الجغرافية ، فانها كانت فى نفس الوقت استجابة لمصالح العالم الاسلامى الكبير الذى تنتمى اليه . وكانت كل دولة من هذه الدول التى استقلت — الى جانب تحقيقها للدافع القومى وللمصلحة الاقليمية — تقوم بمهمة كبيرة لصالح العالم الاسلامى ، وكانت قيمة كل من هذه الدول وأهميتها تتحدد بمقدار خدمتها التى تؤديها ، فطالما

نهضت بالعبء الذى يلقى على عاتقها فى خدمة العالم الاسلامى والدفاع عنه ومد نفـوذه • بقيت قائمة ونالت احترام المسـلمين وعطفهـم • أما اذا عجزت أو انزلقت فى صراعات داخلية ، فانها كانت تفقد أهميتها ، ثم لا تلبث أن تسقط ليحل محلها من هو أقدر منها • ولذلك فان أهم الدول المستقلة هى الدول التى قامت فى مناطق الثغور الاسلامية سواء فى المشرق أو فى المغرب • أما الدول التى قامت فى وسـط المنطقـة الاسلامية وحاولت أن تقتطع لنفسها ملكا ، ولم تشارك فى نشاط العالم الاسـلامى الخارجى ، ولم تتفاعل مع أحداثه العامة ، فانها كانت دولا قليـلة الأهمية ، كما لم يسـتمر بقاؤها طويلا ، مهما كانت القوة التى تعتمد عليها •

وتتبع بعض مظاهر الحركات الاستقلالية فى جميع الأوطان الاسلامية لنتبين هل كانت هذه الحركات تعبيرا صحيحا عن القومية فى الاقليم الذى قامت فيه ، وهل كانت ضرورة من ضرورات المصلحة العامة لخدمة العالم الاسلامى ، وهل أدت هذه الخدمة وما مدى نجاحها فيها •

ونستعرض هـذه الحركات مبتدئين بالقسـم الغربى من العـالم الاسلامى ، ثم بقسمه الشرقى • ونحن فى استعراضنا لهذه الحركات الاستقلالية انما نسير مع التتابع الزمنى لظهور هذه الحركات ، وهى من حيث تتابعها الزمنى قد بدأت فى المغرب قبل أن تبدأ فى المشرق ، وليس ذلك لأن ظهور الروح القومية قد بدأت فى المغرب قبل المشرق ، وانما لأن عاملا آخر أظهرها فى المغرب ذلك هو عامل المعارضة التى قامت فى وجه الدولة العباسية منذ قيامها •

الفصل الأول

الحركات الاستقلالية فى المغـــرب الاسلامى

كان المغرب الاسلامى مركز القوة للدولة الأموية منذ قيامها ، وظل يمثل القوة التى تستند اليها طوال مدة حكمها ، بينما كان المشرق مركز المعارضة التى قامت فى وجه الحكم الأموى منذ بدأ الصراع بين الخليفة على بن أبى طالب الذى اتخذ الكوفة عاصمة له ، وبين معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، وظل العراق ومن ورائه المشرق كله بيئة غير طيعة فى يد بنى أمية طوال مدة خـــلافتهم ، بينما احتفـــظ المغـــرب بولائه للدولة الأموية برغم نزوع الشمال الأفريقى الى الاستقلال وبرغم انتشار الخوارج فيه ، فلم تتجه اليه المعارضة الشيعية طوال العصر الأموى .

فلما نجحت الثورة العباسية بقوة المشرق ، تقهقرت المعارضة الموالية لبنى أمية وللنفوذ العربى الى المغرب وكذلك انقلب الوضع وصار المغرب هو البيئة المعارضة ، وأصبح بيئة غير طيعة فى يد الخلافة العباسية ، ومن ثم انفتح أمام المعارضة الشيعية العلوية التى وجدت فيه ملجأ بعيدا عن القوة العباسية . وفى بيئته التى اتسمت بالمعارضة استطاع العلويون أن يقيموا لهم دولا تناوىء الخلافة العباسية معتمدة على القوميات التى بدأت تظهر فى المغرب ، ولم يمض أكثر من قرن ونصف حتى قامت دولة شيعية علوية فى أفريقية قدر لهـــا أن تنتزع المغرب كله من يد الخلافة العباسية ، ونعنى بها الدولة الفاطمية .

وكذلك فرت الفـــلول الأموية التى نجت من التنكيل العباسى الى المغرب البعيد (١) . والذى كان فى الحقيقة طرفا بعيدا جدا عن مركز الدولة العباسية التى اتخذت العراق مقرا لهـــا ، ولجأت الى اقليم كان

---

(١) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ١٧٠ .

لبنى أمية فيه موال استطاعوا أن يحموا الأمير الأموى الذى لجأ اليهم ، وأن يعينوه على الوصول الى الحكم منتهزين الخلافات الداخليـة بين الأطراف المتنازعة فى الاندلس ، والرغبة التى بدت ظاهرة فى هذا الاقليم للنزوع الى الحكم الذاتى (١) ، وحتى فى العهد الأموى لبعده عن مركز العالم الاسلامى ولمواجهته لثغر بدأت تبرز خطورته فى ذلك الوقت . ولذلك كانت الأندلس أول اقليم انفصل عن حكم الدولة العباسية ، وكان انفصاله عنها انفصالا تاما ، لأن الأمير الذى قام بهذا الانفصـال كان يعارض الحكم العباسى ولايعترف به ، شأنه فى ذلك شأن المعارضـة العلوية التى لجأت الى المغرب بعد ذلك بقليل .

لذلك نبدأ فى استعراضنا للحركات الاستقلالية فى المغرب بالطرف البعيد وهو الأندلس ، ثم نسير متتبعين الأقاليم من المغرب الى الشرق .

الأندلس

أهم ما يلاحظ أن بلاد الأندلس فتحت فى عصر متـأخر ، فقد تم فتحها فى عصر الولبد بن عبد الملك سنة ٩٥ هـ (٢). ورغم حداثة عهدها بالفتح فانها بدأت تعبر عن شخصيتها الاسلامية تعبيرا مبكرا جدا ، ذلك أن الحركة الاسـتقلالية ، فيها ترجع الى سـنة ١٣٨ هـ (٣) ، وهـذه الظاهرة جديرة بالالتفات اذ أنه فى نحو أربعين سنة ، قطعت الحركة الاسلامية فى بلاد الأندلس شوطا كبيرا جدا وبدت فى ظهورها ونموها أقوى من الحركات الأخرى . والسـبب الذى أدى الى نجاح الحركة الاسلامية يرجع الى ناحيتين :

١ ــ ان الحكم السـابق على حكم العرب ، وهو حكم القوط ،

---

(١) دوزى : تاريخ مسلمى اسـبانيا ، ج ١ ، ص ١٨٢ ـــ ٢٢٠ . اخبـار مجموعة ، ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) الطبرى : ج ٦ ، ص ٤٦٨ ـــ ٤٩٤ (طبع دار المعارف) .

(٣) ابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٤٠ ـــ ٢٧٧ . اخبـار مجموعة ، ص ٧٠ وما بعـدها .

كان حكما أجنبيا مفروضا له مظهره العسكرى ومظهره الدينى ، وكانت له مساوئه التى كان أبرزها عظم نفوذ الكنيسة وتسلط رجال الدين ، واستحواذ الكنيسة على قدر كبير جدا من الأراضى الزراعية واعفائها من دفع الضرائب . وكذلك انقسام المجتمع الى طبقات متمايزة تستمتع فيها الطبقة العليا من النبلاء ورجال الدين بكل المميزات السياسية والاقتصادية، بينما ترزح الطبقات الأخرى التى تكون الغالبية العظمى من الشعب ، من التجار والزراع وصغار الملاك ، ثم رقيق الأرض الذين يعرفون بالأقنان « Serfs » أو عبيد الأرض تحت عبء الضرائب الفادحة ، والعمل المرهق لاشباع نهمة الحاكمين ، مضافا الى ذلك طبقة العبيد من أسرى الحروب التى كانت تئن تحت وطأة العبودية ، وكان حرمان هذه الطبقات العاملة فى المجتمع من الحقوق العامة واثقالها بالأعباء الجسيمة ، يبعدها عن أن يكون لديها أية اعتبارات وطنية أو أية روح قومية ، الأمر الذى يجعل مثل هذا النظام الفاسد عرضة للانهيار عند أول صدمة (١) ، ويسرع بهذه الطبقات المغبونة الى أى نظام يرد اليها اعتبارها أو يخفف عنها ، وقد وجدت فى الاسلام هذا النظام الذى يرفع عنها هذا الظلم الذى تعيش فيه .

٢ — والسبب الأهم من هذا هو أن عنصر الهجرة كان له دور كبير جدا فى نشر الاسلام فى الأندلس ، فقد تم فتح الأندلس على يد العرب والبربر من أهل افريقية ، واستتبع الفتح هجرات مغربية وهجرات عربية ، فلقد كان قرب الأندلس من بلاد المغرب ، سببا فى هجرات جماعات كبيرة من أهل الشمال الأفريقى ، كما أن الظروف التى تلت الفتح استتبعت توالى الجيوش العربية على الأندلس ، وكانت هذه الجيوش تقيم فى الأندلس وتتبعها قبائل عربية للاقامة بصفة نهائية . ولا تكاد توجد مدينة أندلسية أو ولاية أندلسية الا وفيها مهاجرون من هؤلاء وهؤلاء ، وقد اختلطوا بالسكان وتزوجوا منهم . ولم يلبث

(١) عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، ص ٤٣ — ٤٦ .

أن نشأ جيل جديد كبير من المولدين ، كما كان هـذا الاختلاط سـببا فى نمو الحركة الاسـلامية نموا مبكرا ، بالاضافة الى التغييرات التى أحدثها الفتح العربى فى التنظيم الاجتماعى فى الأندلس ، فقد زالت طبقة النبلاء وضعف نفوذ الكنيسة وتهاوى سـلطاتها ، مما ادى الى دخول كثيرين من أفراد الطبقات التى كانت مهضومة واستردت حقوقها بالفتـح فى الاسلام وكذلك العبيد الذين وجدوا فى اعتناق الاسلام فرصة للتحرر ونيل الحقوق (١) .

وبعد أن اكتسبت بلاد الأندلس هذه الصفة الاسلامية ، بدأت تعبر عن نفسها تعبيرا اسـتقلاليا ، اذ بعد اسـتقرار الفتح أخذت الأندلس تكون شخصيتها شيئا فشيئا ، وتأخذ استقلالها الادارى ، بحيث نجد فى آخر العهد الأموى أهلها يولون الوالى وعلى الخليفة أن يوافق على ذلك . ثم تم لها الاستقلال فى أول عهد الدولة العباسـية بقيام الامارة الأندلسية فى البلاد .

فقد استطاع أمير أموى فار من وجه العباسيين هو عبـد الرحمن ابن معاوية أن يصل الى الأندلس وأن يؤسس امارة مستقلة . وقد لقيت هذه الامارة تأييدا من السكان الراغبين فى الاسـتقلال ، الأمر الذى مكنها من الصمود فى وجه محاولة الدولة العباسـية للقضـاء عليها ، وضمن لها البقاء . وقد ظلت بلاد الأندلس مسـتقلة تحت حكم الأمراء من بنى أمية حتى سنة ٣١٦ هـ .

وفى هذه السـنة قام الأمير عبد الرحمن الثـالث الأموى الملقب « بالناصر » باعلان الخلافة الأموية فى الأندلس بعد أخذ رأى العلمـاء ورجال الدولة . وكان ظهور الخلافة الأموية معناه أن التطور الاستقلالى بلغ أقصى ما يمكن أن يصـل اليه . وظلت هـذه الخلافة الأموية حتى سـقطت حوالى نهـاية الربع الأول من القرن الخامس الهجرى . وكان

(١) المجمل فى تاريخ الأندلس : صفحة ٦١ — ٦٥ .

سقوطها مقدمة لظهور المغاربة فى تاريخ الاسلام فى هذا الجزء الغربى من الوطن الاسلامى •

ذلك أن سقوط الخلافة الأموية فى سنة ٤٢٢ هـ أدى الى انفراط عقد الوحدة الأندلسية ، واستقلال كل أمير بمقاطعته واعلان نفسه ملكا عليها ، وقد بلغت الأسر الحاكمة فى الأقاليم نحو عشرين أسرة مستقلة فى عشرين مدينة أو مقاطعة ، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف • وقد أدت هذه الفرقة الى ضعف الأندلس ، وعجزها عن الصمود امام الممالك المسيحية التى أخذت تتوحد فى شمال أسبانيا ، وتزحف الى الجنوب مستولية على البلاد شيئا فشيئا ، الأمر الذى حدا بالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية الى الاستعانة بالمرابطين الذين ظهر أمرهم فى شمال أفريقية • فاقتحموا المجال الأندلسى وقهروا المسيحيين فى موقعة الزلافة سنة ٤٧٩هـ ١٠٨٦ م ، ثم قضوا على ملوك الطوائف ووحدوا الأندلس ، لكنهم ما لبثوا أن خرجوا عن البلاد ، التى عادت الى حالتها أيام ملوك الطوائف من التشتت والضعف ، الأمر الذى جعل الموحدين فى المغرب وهم الذين ورثوا ملك المرابطين ، يوجهون اليها جيوشهم فيهزمون الأسبان هزيمة كبيرة فى موقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٥ م • لكنهم ما لبثوا أن هزموا فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م أمام الأسبان الذين دعوا لحروب صليبية تجمع لها المتطوعون من فرنسا وألمانيا وانجلترا وايطاليا • واضطروا آخر الأمر الى الخروج عن الأندلس التى تقلص ملكها حتى انحصر فى مقاطعة غرناطة • وقد استمرت تصارع ببسالة الزحف الصليبى من ٦٣٠هـ الى ٨٩٧هـ حيث سقطت ، وبسقوطها زال العرب والاسلام من أسبانيا (١) •

لقد أدت الدولة الأموية فى الأندلس دورا واضحا فى الناحيتين السياسية والحضارية • وأهم دور قام به الأمويون فى الناحية السياسية هو أنهم ظهروا فى وقت هام ، وهو ظهور الامارات المسيحية فى شمال

---

(١) المجمل فى تاريخ الأندلس : صفحة ١٧٠ — ١٩٦ .

الأندلس وسعيها لاسترداد الأرض التى فتحها العرب ، وكذلك ظهور الامبراطورية الغربية التىأنشأها شرلمان ، وقيامتحالفبينالامبراطورية الشرلمـانية وبين الامارات المسيحية فى الأندلس . هذا التحالف الذى كان له هدف صليبى هو طرد المسلمين منالأندلس واسترداد البلاد التى فتحوها . وكان ظهور الدولة الأموية تأجيلا لهذا الهدف الصليبى حتى سنة ٨٩٧ هـ وهى السنة التى سقطت فيها غرناطة .

كما كان للأمويين فى أسبانيا دورهم فى التاريخ الثقافى ، فظهرت الثقافة الاسلامية فى مدن الأندلس مثل قرطبـة وطليطلة واشبيليـة وغرناطة ، وبلغت أوجا كبـيرا من التقدم ، كما ظهر الفن الاسلامى الأندلسى فى عصر الامارة واستمر على طول التاريخ الأندلسى يزهو متخذا أيضا مثل هـذا الطابع المستقل .

وبذلك أسهمت الأندلس المستقلة فى خدمة العالم الاسلامى الكبير فى ناحيتيها ، سواء من الناحية السياسية أو الحضارية ، وعلى الرغم من قيامها فى طرف بعيد وعلى الرغم من استقلالها التـام وعدم اعترافها بالخلافة العباسية ، فانها ظلت جزءا منالوطنالاسلامى ، وظلت مفتوحة أمام التيارات الحضارية التى كانت تتدفق زاخرة فى حركة أخذ وعطاء بين كل أجزاء الوطن الاسلامى .

ثم ان استقلال هذه المنطقة من غير شك أدى الى انتعاش كبير فيها من الناحية الاقتصـادية والعمـرانية ، كما أدى الى اسـتقرار أحوالها الداخلية الى حد كبير جدا .

بلاد المغرب الأفريقى

بدأت شخصية المغرب الأفريقى فى الظهور منذ أواخر العصر الأموى ولكن ظهورها اتخذ شكلا واضحا فى بداية العصر العباسى ، وقد أعان على ظهور شخصية المغرب تقهقر المعارضة اليه واتخاذه مركزا لنشاطها

وكان للمعارضة أطراف ثلاثة : المعارضة الأموية ، وقد رأينا كيف فرت الى الطرف البعيد من المغرب الاسلامى ، واستقرت فى الاندلس وأسست لها فيه دولة مستقلة على يد عبد الرحمن الداخل . والمعارضة الخوارجية ، والمعارضة الشيعية ، وقد توزعتا بين المشرق والمغرب ، ولكن مجالها فى المغرب كان أقوى منه فى المشرق .

ونلاحظ أن المعارضة الخوارجية كانت تلجأ دائما الى المناطق التى تتفق روح أهلها مع مبادىء الديمقراطية ، فنراها فى المشرق فى العصر العباسى تنتشر فى مناطق القبائل العربية حيث الروح القبلية النزاعة الى الحرية والى المبادىء الديمقراطية ، فتظهر فى الجزيرة العربية : فى شمالها وبخاصة فى منطقة الموصل (١) ، وفى الجنوب فى اليمن وعمان(٢)، كما تظهر فى المغرب الأفريقى حيث القبائل البربرية التى تسودها هذه الروح القبلية . واذا كان انتشار المبادىء الشيعية فى المشرق يعبر عن الميول الفارسية ، فان انتشار مبادىء الخوارج فى المغرب كان تعبيرا عن الميول المغربية التى ألفت الحرية كالقبائل العربية .

وسكان أفريقية من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسى وهم من أطلق عليهم اسم «البربر» جنس خشن غضوب ، محارب ، شديد الغيرة على حريته ، يشبه العرب الى حد كبير ، وصفهم القائد العربى موسى بن نصير فقال « البربر أشبه العجم بالعرب ، لقاء ونجدة وصبرا وفروسية(٣) » ، وهم مثل معظم القبائل العربية فى معيشتها فى الجزيرة، بدو رحل يعيشون فى أرض محدودة ، ويشنون الحروب على نهج طريقة القبائل العربية ، وهم كالعرب قوم ألفوا الاستقلال منذ القدم، لأن الاحتلال الرومانى لبلاد الشمال الأفريقى ظل مقصورا على الساحل . ثم هم كانوا فى حياتهم السياسية والاجتماعية يتبعون نفس النظام الذى

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦١ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ١٢٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ : ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٧٠ .
(٢) نفس المصدر : ص ٢١١ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

كانت تمارسه القبائل العربية وأعنى به الديمقراطية فرؤساؤهم من أنفسهم على أساس المناقب الشريفة (١) : ومن ثم وجد العرب فيهم عند فتح شمال أفريقيا ندا شديد الشكيمة ، ولم يستطيعوا التغلب عليهم الا بعد أن أشعروهم بتقديرهم لهم واحترامهم لكبريائهم ولم يعاملوهم كمغلوبين بل كاخوة على قدم المساواة . والويل لمن كانت تحدثه نفسه من ولاة الدولة بمس كبريائهم ، فقد هيأ الغرور ليزيد بن أبى مسلم عامل أفريقية فى عهد يزيد بن عبدالملك أن يعاملهم معاملة العبيد فوثبوا عليه فقتلوه (٢).

ولقد اتسمت سياسة الدولة الأموية بالتعصب للعرب على غيرهم من الشعوب ، كما اتسمت سياستهم الاقتصادية بالشدة ضد الشعوب المغلوبة ، هذه السياسة التى رسمها الحجاج بن يوسف الثقفى وأنفذها عمال الدولة فى كل الأقاليم . وهى ابقاء الجزية على من أسلم من الموالى ، وذلك لأن امتداد الحركة الاسلامية كان قد اشتد ، وأخذت أعداد كبيرة من أهل البلاد المفتوحة تدخل فى الاسلام ، فقلت موارد بيت المال بسبب نقص الجزية ، ولما كانت فى حاجة شديدة الى المال لتواجه المشاكل الداخلية والخارجية التى كانت تواجهها ، فقد حرصت على ابقاء هذه الموارد ، كما اشتطت فى جمع الخراج وزادت من مقدار الجزية ، الأمر الذى أغضب أهل البلاد المفتوحة وآثارهم ضد الدولة .

وقد وقع هذا الجور على البربر فى شمال أفريقية ، حيث عاملهم عبيدالله ابن الحبحاب عامل هشام بن عبدالملك معاملة قاسية « أراد أن يخمس مسلمى البربر وزعم أنهم فىء للمسلمين ، وذلك شىء لم يرتكبه أحد قبله (٣) » واستولى على معظم قطعان أغنامهم وذبحها ليحصل منها على الصوف الأبيض الذى أغرم بلبسه أهل دمشق ، بل لم يكتف بتجريدهم

---

(١) دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا (ترجمة حسن حبشى) ، ج ١ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر عن التنظيم القبلى . إحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، ص ٢٤ — ٣٠ .

(٢) الطبرى : ج ٦ ، ص ٦١٧ (طبعة دار المعارف) .

(٣) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ٧٥ .

من هذه القطعان التى كانت أهم مصادر حياتهم ، وانما اغتصب الجميلات من بناتهم وأرسلهن الى الشام ليخدمن فى القصور (١) .

وظل البربر يكظمون غيظهم أكثر من خمس سنوات يجمجمون ولا يفصحون ، ويطوون صدورهم على سخائم لا يمنعهم عن كشفة دفينها غير الخوف من وجود جيش كثيف (٢) .

الا أنهم كانوا يتهيئون للثورة التى اتخذت مظهرا دينيا أكثر منه سياسيا ، ذلك أن الشعب البربرى فى بساطته متدين بطبعه ، شديد الايمان فيما يعتقد مسرف فى توقيره للمتدينين ، ولم يكن ينظم قبائلهم فى حركة عامة الا شخصية دينية ، ولهذا لم يقدر للبربر أن يلعبوا دورا هاما على مسرح العالم الا حينما حركتهم شخصية دينية هى شخصية المرابطين ، وهم قد أسلموا قيادهم من قبل لامرأة متنبئة — هى الكاهنة — كانوا يعتقدون أن لها قوة خفية فوق الطبيعة ، قادتهم زمنا فى صراعهم ضد العرب فى أيام الفتح .

فى ذلك الوقت كان الاسلام سائدا فى أفريقية ، فقد تقدم بخطى سريعة فى أيام الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ، حتى ليقول المؤرخ ابن عبد الحكم انه لم يبق فى عهد عمر بربرى واحد لم يعتنق الاسلام ، وقد يكون فى هذا القول بعض المبالغة ، وقد لا يكون كثيرون دخلوا الاسلام عن اقتناع وأن المنفعة الشخصية لعبت دورا كبيرا فى هذا الوقت ، اذ أن عمر بن عبد العزيز كان أهم غاية له فى حياته أن ينشر الاسلام فى كل بقاع الدولة التى يحكمها العرب ، فلم يدخر وسعا فى اصطناع كل وسيلة تؤدى الى زيادة عدد المسلمين ، وكان يكفى عنده أن يقول المرء « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » لترفع عنه

---

(١) اخبار مجموعة : ص ٣١ ، ٣٢ . ابن عذارى : ج ١ ، ص ٣٩ .

(٢) دوزى : ج ١ ، ص ١٤٤ .

الجزية ، تاركا للزمن أن يقوى من ايمان هؤلاء المسـلمين الجدد الذين دخلوا في الاسلام على هذه الصورة الهينة .

ولقد أكدت الأيام بعد نظر الخليفة الورع ، وبخاصة فيما يتعلق بسكان الشمال الأفريقى ، اذ لم يلبثوا أن ألفـوا الاسلام وتعلقوا به وأصبح أعز ما لديهم . وهم حين دخلوا الاسلام دخلوه ببساطة البدوى الساذج ، فلم يفهموا بطبيعة الحال قضاياه الدقيقة التى تطرب لها العقول المثقفة ، ولكنهم فهموا منه جانبه العاطفى القومى ، ووافق هوى فى نفوسهم ما يدعو اليه من المساواة والعدالة . فلما افتقدوا تلك المساواة والعدالة فى حكم عمال بنى أمية بعد عهـد عمر بن عبد العزيز انحازوا الى جانب الخوارج الذين اتجهو الى المغرب بعد أن عصفت بهم الدولة فى المشرق ، فوجدوا فى الشمال الأفريقى البعيـد ملجأ يتخفون فيه ، ووجدوا فيه تربة صالحة لزرع مبادئهم ، فصادفوا نجاحا منقطع النظير . واذا كان المشرق الاسلامى قد ضاق بشدة الخوارج وتعصبهم ، فان سكان الشمال الأفريقى تلقوا آراء الخوارج فى حماسة بالغة دون بحث عن أفضل الجماعات التى يتصلون بها ، فلم يكن يهمهم أن تكون هذه الجماعة حرورية أو صفرية أو اباضية ، وانما أخذوا مبـادىء الخوارج عموما أخذا قويا لاحتضانها للأفكار الثورية الديمقراطية ، والتى تقنعهم بأن مضطهديهم ملعونون وسيكون مأواهم النار .

ولم يكن الخلفاء جميعهم بعـد عمر بن الخطاب — فى نظرهم — سـوى مغتصبين كفرة ، ومن ثم لم يكن من الاجرام أن يثوروا ضـد الطاغية الذى سلبهم متاعهم ونساءهم ، بل عدوا ذلك حقا واجبا عليهم .

ولمـا كان العرب قد نحوهم — حتى ذلك الحين — عن السلطة ، ولم يتركوا لهم الا ماعجزوا عن ادارته من حكومة القبائل ، فقد أصبح من اليسير عليهم أن يفهموا أن عقيدة سـيادة الشعب التى ينادى بهـا الخوارج — وهى العقيدة التى مارسها البربر من زمن بعيد فى استقلالهم

القبلى — انما هى العقيدة الاسلامية الخالصة . ولما كان هذا الشعب الذى أسرف عمال بنى أمية فى الضغط عليه ، قد أثاره متعصبون أنصاف وعاظ وأنصاف محاربين وكانت لهم ترات قديمة مع الجماعة المسماة بأهل الجماعة ، فقد كان فى طريقه الى تحطيم ذلك النير باسم الله ورسوله ، وباسم هذا الكتاب الكريم الذى يعتمد عليه الآخرون افتئاتا — فى قيام استبدادهم الجائر (١) .

كانت النفوس ثائرة اذ ذلك ، ولم تكن تنتظر الا اللحظة المناسبة لتمتشق الحسام ، وقد وانت هذه اللحظة حينما أرسل عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢ هـ قسما من جيشه فى حملة الى صقلية . فما كادت الحملة تبحر حتى كانت أدنى شرارة كافية لاشعال نار الثورة ، ولقد جاءت هذه الشرارة فى صورة عمل طائش قام به عمر بن عبد الله حاكم شمال مراكش من قبل ابن الحبحاب ، اذ أمر بربر اقليمه بدفع الجزية مضاعفة كأن لم يكونوا مسلمين ، فسرعان ما انتضوا السلاح ، وحلقوا شعورهم ورفعوا القرآن على أسنة رماحهم كما جرت سنة الخوارج (٢) . وتداعت البلاد بأسرها مسلمها وكافرها وعظم البلاء ، وقدم من بطنجة من البربر على أنفسهم واحدا منهم هو ميسرة السقاء المدغورى وكان خارجيا صفريا ، وهاجموا مدينة طنجة واستولوا عليها وقتلوا حاكمها . ثم بايعوا ميسرة بالخلافة وخاطبوه بأمير المؤمنين ، ولكنهم حين أحسوا منه عجزا قتلوه وولوا عليهم غيره رجلا من صنهاجة . وظهرت الخوارج فى كل أفريقية ، الأمر الذى حمل الوالى على استدعاء قواته من صقلية ، ودارت بين العرب والبربر معارك طاحنة كان أهمها معركة الأشراف التى انتصر فيها البربر وقتل حماة العرب وفرسانهم « وانتقضت البلاد وخرج أمر الناس » (٣) وغدت أفريقية كما يقول دوزى أشبه بقارب منساب

(١) دوزى : ج ١ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) اخبار مجموعة : ص ٢٢ .
(٣) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ٧٥ .

ليس له شراع أو ربان ، فقد خلع العرب طاعة عبيد الله وعنفوه — بحق — لأنه هو الذى جر عليهم كل هذه النكبات الجسام (١) .

لم يهدأ الصراع بين العرب والبربر فى أفريقية طيلة الأيام الباقية من حكم الدولة الأموية . فلما قامت الدولة العباسية استمر البربر فى ثورتهم . ولم يكن خروج البربر على الأمويين والعباسيين يمثل خروجا على الدين ، وانما كان خروجا على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة وفرضهم الضرائب الفادحة عليهم ، ونزعة منهم الى الحكم الاستقلالى الذى كان أساس حياتهم أزمانا طويلة . وفى العهد العباسى انضم كثير من العرب الساخطين على العباسيين الى البربر ، فقد خرج محمد بن الأشعث والى أفريقية على المنصور ، فولى المنصور أمر هذه البلاد الأغلب بن سالم بن عقال التميمى وهو أبو ابراهيم بن الأغلب الذى أسس دولة الأغالبة ، فقدم الأغلب القيروان سنة ١٤٨ هـ ، ولكن البربر ثاروا عليه بزعامة قواد من العرب وقتلوه بعد معارك طاحنة على أبواب القيروان سنة ١٥٠ هـ وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد . فولى المنصور أفريقية أبا جعفر عمر ابن حفص من آل المهلب ، فاستطاع أن يقر الأمن فى البلاد ثلاث سنوات، ما لبث البربر من الاباضية والصفرية بعدها أن ثاروا واشتعلت الثورة فى أفريقية كلها (٢) . ويقول موير « ان أفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين فى معظم عهد المنصور ، وان البربر والعرب النازلين فيها مالوا الى مبادىء الخوارج ، وخلعوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون اليهم الجيوش تلو الجيوش لاخضاعهم ولكن بدون جدوى ، واستمرت مدينة القيروان تسقط فى أيدى الثوار حينا وفى أيدى العباسيين حينا آخر ، حتى استطاع المنصور قبيل نهاية خلافته أن يرسل اليها جيشا جرارا أقر الأمن فى البلاد الى حين » (٣) ويقول ابن الأثير « كان بين الخوارج

---

(١) دوزى : ج ١ ، ص ١٤٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .
(٣) حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
The Caliphate. p. 461.

والجنود (العباسيين) من لدن قاتلوا عمر بن حفص الى انقضاء أمرهم ، ثلاثمائة وسبعون وقعة.» (١) .

واستمرت قبائل البربر تناوىء سلطان العباسيين حتى سنة ١٨١ هـ حتى أدرك العباسيون أن فوزهم على البربر أمل لا سبيل الى تحقيقه ، فتراجعوا عن المغرب الأفريقي ، مكتفين باقليم تونس الذى أقاموا فيه دولة حاجزة ما لبثت هى الأخرى أن استجابت للحركة الاستقلالية ، فاستقلت بأمرها استقلالا يكاد يكون تاما عن الخلافة العباسية مع الاعتراف لها بالسيادة الاسمية .

وانجلى هذا الصراع الطويل بين السلطة المركزية وبين البلاد التى نزعت الى الحكم المستقل تحت شعار الخوارج ، الى قيام ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالا تاما ، ومن هذه الولايات : ولاية تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة الاباضية (١٣٧ — ٢٩٧ هـ) وولاية سجلماسة التى أسسها بنو مدرار (١٦٧ — ٢٥٧هـ) وتلمسان التى أسسها أبو قرة الصنهاجى ، وبرغوانة الواقعة على ساحل المحيط الأطلسى .

لكن الحكم فى المغرب الأفريقى فى الحقيقة انقسم بين دولتين هما الدولة الادريسية التى أسسها ادريس بن عبد الله العلوى فى بلاد المغرب الأقصى (١٧٢ — ٢٧٥ هـ) ودولة الأغالبة التى أسسها ابراهيم بن الأغلب فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) الى أن قامت فى المغرب دولة شيعية ضمنت المغرب الاسلامى كله ما عدا الأندلس ، هى الدولة الفاطمية (٢٩٨ — ٥٦٧ هـ) وهكذا نجد المغرب الأفريقى خضع لعاملين هما العامل القومى والعامل المذهبى ، وقد تساند العاملان معا فى استقلال هذا المغرب وبناء شخصيته الاسلامية .

(١) ج ٥ ، ص ٢٤٢ . حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٧٨ .

المغرب الأقصى

دولة الادارســة

كما لجأت المعارضة الخوارجية الى المغرب ، كذلك لجأت اليـه المعارضة العلوية التى فرت من وجه الخلافة العباسية ، وكان الخوارج أسبق من العلويين فى المغرب ، وقد استطاعوا ، كما أوضحنا ، أن يقنعوا البربر النزاعين إلى الاستقلال بعدم شرعية الحكومات الأموية والعباسية ، اذ أنها ورثت سلطانا لا يقوم على أساس الحق ولا على أساس المبادىء الاسلامية ، وأنها مغتصبة تجب مقاومتها ، فلما وصل دعاة الشيعة الى المغرب دعوا الى نفس الفكرة وهى عدم شرعية سلطان الخلافة العباسية والأموية من قبلها ، وزادوا أن صاحب الحق الشرعى هم آل البيت أبناء النبى من ابنته فاطمة وهم الذين ثاروا فى وجه الظلم وقتلوا فى سبيل اقرار الحق . فاكتسبت الدعوة عطف البربر الذين كانوا بطبيعتهم موقرين لرجال الدين معظمين للأولياء الصالحين ، والذين يدعو لهم الشيعة هم أئمة ورثوا علم النبوة فوق أنهم من نبعتها . فكأن أرض المغرب قـد حرثها الخوارج للشيعة ، وحين قدم دعاة الشيعة كان سلطان الخوارج قد زال فانتفعوا بغرسهم ، ولم يتعرضوا لمعارضتهم .

والمعارضة العلوية للعباسيين نشأت مبكرة منذ قيام الدولة العباسية ، ولقد كان التحالف بين العلويين والعباسيين يقويه الشعور المشترك بالكره لعدو متحكم هو الأمويون ، فلما قضى على هذا العدو لم يكن هنـاك ضرورة لاستمرار هذا التحالف ، وبخاصة أن العلويين كانوا يعتقدون أن العباسيين يعاونونهم لتحقيق أهـدافهم وتولى الخلافة ، وظنـوا أن الدعوة للرضا من آل البيت انما تعنيهم هم باعتبارهم المطالبين بالخلافة ولأنهم هم الذين ثاروا فى وجه بنى أمية منذ خلافة يزيد بن معـاوية ، وتحملوا عبء الجهاد وأصابتهم كل الكوارث ، وكانوا يرون أن الشيعة انما تلتف حولهم هم ، لكن العباسيين حين انتصرت الثورة استولوا على الخلافة وتنكروا للعلويين ، بل انهم ادعوا انهم أصحاب الحق الشرعى فيها ، وأن

حقهم فى ميراث النبى أقوى من حقوق العلويين • واعتقد العلويون أن العباسيين خدعوهم واغتصبوا الخلافة منهم ، فظلوا على دعوتهم ونشاطهم، وقاموا بثورات كثيرة أولها ثورة الشقيقين : محمد الملقب بالنفس الزكية وأخيه ابراهيم ، وهما أبناء عبد الله بن الحسن بن على • ولكن المنصور أخضع هذه الثورة فى عنف شديد وقتل محمد فى المدينة سنة ١٤٤هـ ، وقتل أخاه ابراهيم فى « باخمرى » بين الكوفة وواسط سنة ١٤٥ هـ (١) • ولقى العلويون من العباسيين شرا مما لقوا من بنى أمية ، فظل العلويون يثورون وظل العباسيون يتتبعونهم بالسجن والقتل ، حتى فروا الى أطراف العالم الاسلامى •

وفى سنة ١٦٩ هـ ثار الحسين بن على بن الحسن على عامل العباسيين بالمدينة فى عهد الهادى العباسى ، لما ألحق هذا الوالى بالعلويين من أهله ، وحدثت بين الطرفين موقعة بين المدينة ومكة وعلى ستة أميال منها تعرف بموقعة (فخ) قتل فيها الحسين وعدد كبير من أفراد البيت العلوى : وقد شابهت هذه الموقعة حادث كربلاء فى العهد الأموى ، فقد أوشك البيت العلوى فيها على التفانى (٢) •

فر من هذه الموقعة ادريس بن عبد الله وأخوه يحيى بن عبد الله ، فأما الأخير فقد اتجه الى المشرق حيث لجأ الى الديلم الذين التفوا حوله حتى اشتدت شوكته وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من كل الأمصار مما يدل على عطف الناس على الشيعة وحبهم لهم ، وأصبح يحيى شجى فى حلق الدولة العباسية حتى استطاع الفضل بن يحيى البرمكى قائد الرشيد أن يصالحه باسم الرشيد ويستنزله على الأمان ، ولكن الرشيد غدر به وسجنه (٣) •

---

(١) انظر : الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٢٦٠ — ٢٧٠ ، ص ٣١٥ — ٣٨٦ •

(٢) مقاتل الطالبيين : ٤٣١ — ٤٦٠ • الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٤ — ٢٠ • ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٣٢ — ٣٤ • الفخرى : ١٧١ • ابن كثير : ج ١٠ ، ص ٤٠ •

(٣) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٤٣ — ٤٥ •

وأما ادريس فانه اتجه نحو المغرب الأقصى حيث التف حوله البربر في اقامة أول دولة علوية وهي الدولة التي نسبت اليه «دولة الأدارسة» .

وافق وصول ادريس الى المغرب نشاط الحركة الاستقلالية في هذه البلاد ، كما وافق أيضا ظهور القوات العباسية على الخوارج وكسر شوكتهم ، فلما وصل ادريس استطاع أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه ثائرا على الدولة التي يكرهونها : كما كان يمثل عندهم روح الاسلام التي لا تقر الظلم ، ويرضى بنسبه الشريف الى النبي عاطفتهم الدينية ، فانضوت الحركة الاستقلالية تحت لوائه ، واستطاع أن يكون له امارة مستقلة ظلت ترث النفوذ حتى سنة ٢٧٥ هـ ، وكانت من أطول الامارات المستقلة عمرا ، اذ كانت معاصرة للنفوذ الفاطمي في المغرب ، ولنفوذ الخلافة الأموية في الأندلس .

وكان الأدارسة يعبرون تعبيرا صحيحا عن شعور البربر أهل البلاد الأصليين ورغبتهم الحقيقية في الاستقلال ، فقد كان ادريس لا يعتمد الا على نسبه العلوي ، أما جنوده ورجاله كلهم فكانوا من أهل البلاد الأصليين .

وأدرك هارون الرشيد أن الاحتفاظ بأفريقية بالقوة لم يعد في الامكان ، فلجأ الى السياسة ، فأقام دولة موالية للخلافة العباسية ، تكون حاجزة بين أملاك الدولة العباسية في المغرب الاسلامي ، وبين هذه الامارة الناشئة التي أخذت تبدو خطورتها وتهدد بالتهام الشمال الأفريقي كله ؛ لذلك عهد الى ابراهيم بن الأغلب بولاية تونس التي نجح في الاحتفاظ بها ، ليقف في وجه الأدارسة اذا أرادوا الاغارة على أملاك الدولة العباسية الواقعة في شرق دولتهم(١) . كما كاد لادريس بأن دس له من قتله بالسم سنة ١٧٧ هـ (٢) .

---

(١) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٥٦ .
(٢) الطبري : ج ١٠ ، ص ٢٩ .

على أن مقتل ادريس لم يقف جهود العلويين فى بلاد المغـرب ، ولم يؤثر فى الحركة الاستقلالية فيها ، فقد كانت له أمة حامل ، فانتظر أشياعه حتى ولدت ذكرا أسموه ادريس والتفوا حـوله فكان ادريس الثانى هذا المؤسس الحقيقى لدولة الأدارسة ، فقد اشتد أمره واتخـذ لدولته عاصمة جديدة هى مدينة فاس التى أسسها سنة ١٩٢ هـ (١) .

وعجز ابراهيم بن الأغلب عن القضاء على الدولة الأدريسية بالقوة فى عهد ادريس الثانى ، فلجأ الى الدس لتفريق البربر عنه ، ولكن الأمر انتهى بين الطرفين بأن يكف كل منهما عن الآخر من ناحيته (٢) .

وقد حكم بعد ادريس الثانى ثمانية من الأدارسة كان أعظمهم قوة وأعلاهم قدرا هو يحيى الرابع ابن ادريس بن ادريس بن عمر (٢٩٢ — ٣١٠ هـ) الذى امتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى ، وكان كمـا يصفه السلاوى « واسطة عقد البيت الادريسى : أعلاهم قدرا ، وأبعدهم ذكرا ، وأكثرهم عدلا ، وأغزرهم فضلا ، وأوسعهم ملكا . وكان فقيها حافظا للحديث ، ذا فصاحة وبيان ، بطلا شجاعا حازما ، ذا صلاح ودين وورع (٣) » . وفى أيامه ظهر الفاطميون فى شمال أفريقيا ، وأخـذوا يمدون بنفوذهم نحو المغرب حتى وصلوا الى بلاد الأدارسـة ومـدوا سـلطانهم عليها .

وقد حكم أمراء الأدارسة البلاد باسم الفاطميين ولكن ما لبثت دولة الأدارسة أن وقعت بين خصمين متنازعين ، الفاطميون فى أفريقية والأمويون فى الأندلس ، وقد بدأ الأمويون يتجهون بنفوذهم الى المغرب الأفريقى فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وأمام هذا الضـغط من الجانبين تقهقـر النفوذ الادريسى الى الريف ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلالهم فقد أصبحوا تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب اما من الفاطميين أصحاب

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١٤ ، ص ٢٣ (طبعة بيروت) .
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٥٦ .
(٣) الاستقصا لأخبـار المغـرب الأقصى : ج ١ ، ص ٧٩ (طبـع القـاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢هـ) .

أفريقية واما بين الأمويين أصحاب الأندلس (١) .

امتد حكم الأدارسة يلاد المغرب من السوس الأقصى الى وبجران ، وكانت حاضرتهم مدينــة فاس التى بلغت حدا كبيرا من العمران والرقى وأصبحت مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية . وقد زال ملكهم بعد أن حكموا أكثر من قرنين (١٧٢ ـ ٣٧٥ هـ) . وقد أسهم الأدارسة فى خدمة العالم الاســلامى فى ناحيتهم ، فهم الذين ثبتوا البربر على الاســلام ، ويعتبرون بحق الممهدين لظهور البربر فى المجال الاسلامى ظهورا واضحا ، فان البربر لم ترسخ قدم الاسلام بينهم الا بعد أن اتخذ شكل حكومة قومية ، وأصبــح مرتبطا بتولى دول البربر الحــكم ، تلك الدول التى دخل فى عهــدها كثير من البربر فى حظيرة الاسلام ، وكانوا من قبــل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاســتقلال السياسى . وكان ظهور الأدارسة وحكمهم للمغرب حكما قوميا مقدمة لظهور المرابطين الذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة ، جذبت عددا كبيرا من قبــائل البربر نحو الاندماج فى الأمة الاسلامية . وقد قام الأدارسة بدور كبير جدا فى انتشار الاسلام فى غرب أفريقيا ، وينسب اليهم الفضل فى القيام بحركة تبشيرية فى حوض السنغال استمرت بعد ذلك فى عهــد المرابطين حتى شملت أفريقيا الغربية كلها (٢) . كما أن مدينة فاس عاصمة الأدارسة ظهرت ظهورا ثقافيا واضحا وأصبحت هى ومدينة القيروان تمثلان نموذجا للمدارس الاسلاميه فى المغرب .

تونس

دولة الاغالبــــة

كان مظهر الحركة الاســتقلالية فى تونس يتمثــل فى قيام امارة

---

(١) انظــر : الســلاوى : ج ١ ، ص ٨٠ ـ ٨٦ . ابن عذارى : البيــــان المغرب : ج ١ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) انظر : ارنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمــة حسن ابراهيم وعبد الحميد عابدين) ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ ، انظر عن دولة الادارســة : السيد عبد العــزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٤٦٥ ـ ٥٠٤ .

الأغالبة الذين ظلوا يحكمون تونس منذ سنة ١٨٤ هـ حين ولى الخليفة هارون الرشيد ابراهيم بن الأغلب منطقة تونس ، واعترف به أميرا مستقلا بامارته تحت ظل الخلافة العباسية . ثم ظل أبناء ابراهيم يتوارثون الحكم بعده معترفين بالسلطان الأسمى للخليفة العباسي . وظلت الحركة الاستقلالية واضحة فى عهد الأغالبة حتى سنة ٢٩٦ هـ وهى السنة التى نجحت فيها الدعوة الفاطمية فى بلاد المغرب واكتسحت الامارات المغربية كلها ، وقامت الخلافة الفاطمية فى الشمال الأفريقى .

أقنعت الحركات الخوارجية ثم العلوية التى قامت فى الشمال الأفريقى الخليفة هارون الرشيد بأن انفصال المغرب عن الدولة العباسية أصبح حقيقة واقعة ، فاستجاب للعرض الذى قدمه ابراهيم بن الأغلب — وكان عاملا على اقليم الزاب من قبل ابن مقاتل والى أفريقية من قبل العباسيين — وهو أن يعهد اليه الخليفة بولاية أفريقية على أن يوفر لبيت المال الاعانة التى كانت ترسلها مصر الى أفريقية ومقدارها مائة ألف دينار ، وأن يرسل الى الخلافة فوق ذلك أربعين ألف دينار سنويا(١) . وكانت موافقة الرشيد على هذا العرض تعنى الاعتراف باستقلال أفريقية تحت حكم ابن الأغلب استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية ، ومما يؤكد هذا الوضع الجديد الذى وافق عليه الرشيد لقب الامارة الذى أطلقه المؤرخون كثيرا على بنى الأغلب (٢) ، كما يؤكده قيام كل خليفة عباسى جديد باقرار الأمير الأغلبى على ولاية أفريقية(٣) . وكانت السياسة التى ابتدأها هارون الرشيد وسار عليها الخلفاء من بعده فيما يختص بأفريقية ، سياسة أملتها الظروف فى هذا الطرف البعيد ، وكانت هى نفس السياسة التى جرت عليها الدولة العباسية فى كل الأقاليم البعيدة التى كانت تنزع الى الاستقلال أو التى كانت الدولة تعجز عن حكمها حكما مباشرا ، وهى اقامة أسر حاكمة تحكم باسم الخلافة ، وهى سياسة مرنة توفق بين مصلحة

(١) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ٥٦ .
(٢) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ٥٧ ، ١٢١ ، ١٨٢ .
(٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام : القسم الثالث ، ص ١٦ .

الخلافة ومصلحة أهل الاقليم النزاعين الى الاستقلال . كما كانت الظروف الخاصة بأفريقية هى التى جعلت الرشيد يقيم هذه الامارات المستقلة ، فقد رأينا من قبل كيف كانت ثورات أهل أفريقية على حكم الخلافة ، وعجز جيوش الدولة فى قهرها ، ثم كيف استطاع ادريس العلوى اقامة دولة له بالمغرب الأقصى أيدتها قبائل البربر ، وكيف كان يتطلع الى توحيد المغرب الاسلامى كله واقتطاعه عن الخلافة العباسية حتى لقد راسل أهل مصر (١) ، فأقام الرشيد هذه الامارة المستقلة لتكون حاجزا بين أطماع الأدارسة وبين البلاد الواقعة شرق دولتهم .

ولا شك أن هذه السياسة من الرشيد كانت تنطوى على بعد نظر سياسى ، اذ قيام هذه الامارة يرفع عن كاهل الخلافة متطلبات الدفاع عن هذا الاقليم البعيد الذى كان عرضة دائما لهجمات الروم من ناحية البحر، كما كان عرضة لحركات المتغلبين من راغبى الاستقلال ، وكان ارسال الجيوش العباسية اليه من المشرق أمرا صعبا يتكلف نفقات طائلة لبعد المسافة بين العراق مركز الدولة وبين هذه الأقاليم البعيدة ، الأمر الذى يجعل الدفاع عنه بواسطة جيوش الخلافة قليل الفاعلية ، ومن ناحية أخرى فان هذه الأسرة الحاكمة فضلا عن ارضائها للنزعة الاستقلالية لأهل البلاد ، ستعمل بطبيعة الحال على اقرار الأمن لدوام حكمها ، وستكيف الحكم بما تقتضيه الظروف التى تواجهها ، وستعمل على تنمية موارد المنطقة المحلية للقيام بمتطلبات الحكم فى الاقليم والدفاع عنه ، وقد رأينا كيف عرض ابراهيم بن الأغلب تنازله عن الاعانة التى كانت تقدمها مصر لولاة هذا الاقليم ومقدارها مائة ألف دينار ، فوق أنها تمد بيت مال الخلافة بأربعين ألف دينار .

ولقد أثبت ابراهيم بن الأغلب أنه حاكم ناجح ، فقد استطاع أن يوطد الحكم فى أسرته وأن يقضى على الثورات التى قامت فى اقليمه ، كما استطاع أن يوقف طموح الأدارسة وأن يعقد معهم اتفاقا على أن

---

(١) المغرب الكبير : ص ٣٧٤ .

يكف كل منهما عن الآخر في ناحيته ، ويقول عنه ابن عذارى « لم يل افريقية أحسن سـيرة منه ، ولا سياسة ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر ، وتمهدت أفريقية في أيامه » (١) .

وقد اتخذ ابراهيم مدينة القيروان عاصمة لولايته ، ولكنه ما نبث أن شرع في سنة ١٨٥ هـ في بناء مدينة القصر القديم التي تقع أطلالهـا على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان وسـماها العباسية تعبيرا عن ولائه للعباسيين ، وانتقل اليها بأهله وعبيده (٢) ، وذلك ليكون في مدينـة يتوفر له فيها جو الثقة بين أهله ومن يثق فيهم ، وهو بذلك يسـير على سنة الحكام الكبار في ذلك العصر ، حيث كانوا ينشئون لدولهم عواصم ملكية غير العواصـم القديمة التي كانت تضـم طبقات قد لا يتوافر فيها الاخلاص لهم ، وقد رأينا كيف ترك العباسـيون الكوفة واتخـذوا لهم الهاشمية مقرا ، ثم كيف أنشأوا بغداد في عهد المنصور ، ثم سامرا في عهد المعتصم ، وكيف تركوا الفسطاط وأنشأوا العسكر في مصر ، وكيف بني عبـد الرحمن الناصر مدينـة الزهراء (٣) ، ثم كيف بني محمد بن أبي عامر مدينة الزاهرة (٤) .

وقد استطاع بنو الأغلب من بعد ابراهيم أن يقضوا على كل الثورات التي قامت في أفريقية ، وأن يوطدوا الأمن بصورة أكثر الى حـد كبير جدا عما كان عليه الحال من قبلهم ، كما استطاعوا أن ينموا موارد الاقليم لتسد النفقات الحربية الهائلة التي تطلبها التصدي لتحركات الروم ضـد السـاحل الأفريقي ، ولم يكتفوا باتخاذ موقف الدفاع ، بل انهم قاموا بحملات بحرية ناجحة أدت الى فتح صقلية ومالطة .

---

(١) ابن عذارى : ج ١ ، ص ١١٦ .
(٢) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ٥٦ . المغرب الكبير ، ص ٣٧٥ .
(٣) المجمل في تاريخ الأندلس : ص ٣٨ .
(٤) نفس المرجع : ص ١٥ .

كان الساحل الأفريقى مفتوحا أمام الأساطيل الرومية التى كانت تتخذ قواعدها فى الجزر القريبة منه ، فى صقلية ومالطة ، ولقد كانت المعارك دائمة بين البحرية الاسلامية والبحرية البيزنطية منذ فتح العرب شمال أفريقيا ، وقد وجه المسلمون حملاتهم البحرية الى صقلية منذ ولاية معاوية بن خديج ، وفى سنة ٨٦هـ أرسل موسى بن نصير حملة بحرية لغزو صقلية ، فهاجمت مدينة سرقوسة وغنمت منها غنائم هائلة ، وفى سنة ١٠٥ هـ غزا بشر بن صفوان صقلية وأصاب منها سبيا كثيرا(١) ، كذلك غزا عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢ هـ صقلية كما رأينا من قبل . لكن الثورات التى نشبت فى أفريقية بعد ذلك جعلت الولاة العباسيين ينشغلون عن غزو تلك الجزيرة ، فتجرأت سفن الروم على مهاجمة السواحل الأفريقية ، وتحول المسلمون الى مركز الدفاع بعد أن كانوا فى العصر الأموى يأخذون موقف المبادأة ونقل العمليات الحربية سواء منها البرية أو البحرية الى أرض العدو .

فلما استقل ابراهيم بن الأغلب بأمور أفريقية أخذ يعمل على تكوين قوة بحرية كبيرة لا تستطيع أن ترد هجمات الروم أو تبادلهم أعمال القرصنة التى يتبادلها الطرفان فحسب ، وانما تستطيع أن تقوم بعمل حقيقى لابعاد الأسطول الرومى نهائيا عن الساحل الأفريقى ، بالاستيلاء على قواعده المواجهة لهذا الساحل فى صقلية ومالطة وسواحل ايطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية . وقد نمت البحرية الاسلامية فى عهد الأغالبة نموا كبيرا واستطاعت أن تحقق الغرض الذى كان يرمى اليه ابن الأغلب .

وقد بدأ الغزو الحقيقى لصقلية فى عهد الأمير زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣) وقد اختير لقيادة الحملة القاضى أسد بن الفرات فقيه القيروان ومصنف الكتاب المنسوب اليه « الأسدية » فى الفقه على مذهب

(١) المغرب الكبير : ص ٣٨٥ .

الامام مالك . وقد أراد زيادة الله أن يصبغ الحملة بصبغة الجهاد الدينى ، وقد كان أهل أفريقية فى ذلك الوقت قد تفقهوا فى الدين الاسلامى ، وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وانتشر بينهم مذهب مالك الذى أصبح لديهم ليس مجرد مذهب دينى فحسب وانما أصبح لهم وطنية وعقيدة . وساعدت الأربطة — وهى أماكن محصنة ينزلها المقاتلون المعدون للدفاع عن الثغور والمتطوعون الشجعان والمستشهدون الثقاة الذين يرغبون فى القتال فى سبيل الله (١) — على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم . ولذلك خرج مع حملة أسد ابن الفرات «أشراف أفريقية من العرب ، والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر (٢) » واستمرت الحملة الأغلبية على صقلية منذ سنة ٢١٢هـ تقوم بغزو الجزيرة ، وافتتاح مدنها الواحدة بعد الأخرى حتى تم لهم فتح الجزيرة كلها سنة ٢٦١ هـ . وفى هذا العام استولوا على جزيرة مالطة ، ثم عبروا مضيق مسينا وغزوا كلابريا فى جنوب شبه الجزيرة الايطالية . ومنذ ذلك التاريخ وجزيرة صقلية تحت حكم المسلمين ، وقد تكونت بها امارة اسلامية حكمت الجزيرة فى العهد الفاطمى ، وظلت تجاهد الروم حتى أسقطها النورمان سنة ٤٨٥هـ(٣) .

وهكذا نرى كيف أدى الأغالبة واجبهم نحو العالم الاسلامى ، وكيف قاموا بنصيبهم فى الدفاع عنه على خير ما يكون الدفاع ، فقد دافعوا عن الثغر الأفريقى دفاعا ناجحا ، بل مدوا نفوذ العالم الاسلامى وضموا الى حوزته بقعة هامة هى جزيرة صقلية التى ظل يحكمها المسلمون أكثر من قرنين من الزمان كانت فيها مصدرا من اشعاعات الثقافة الاسلامية .

---

(١) انظر : محمد عبد الهادى شعيرة : بحث عن المرابطين فى الثغور البرية العربية الرومية ضمن كتاب « طه حسين بمناسبة بلوغه سن السبعين » ، ص ١٤٧ — ١٦٨ .

(٢) ابن عذارى : ج ١ ، ص ١٣ . المغرب الكبير : ص ٣٨٧ .

(٣) عن غزو صقلية : انظر المغرب الكبير ، ص ٣٨٥ — ٣٩٢ .

وفى عهد الأغالبة ازدهرت الحياة الاقتصادية فى أفريقية ازدهارا كبيرا لم تشهده منذ القرن الثالث الميلادى ، فقد وفر لها الأغالبة الأمن الذى افتقدته وقتا طويلا ، وفى ظل هذا الأمن توفر السكان على أعمالهم ، فزادت المحاصيل الزراعية ، وعمرت بالزراعات أراض لم تكن عامرة وهى الآن تبدو منطقة شبه صحراوية ، فقد عمرت المنطقة الممتدة بين قمودة والساحل بأشجار الزيتون والنخيل ، وانتظمت المنطقة الساحلية بالقرى والبساتين وبخاصة الكروم التى كان يصنع من أعنابها النبيذ ، كما كانت المنطقة الواقعة الى الشمال من قمودة مركز انتاج للقمح . كما تقدمت الصناعة وبخاصة صناعة الآلات الحديدية اللازمة للسفن ، والسيوف والدروع والسروج واللجم ، وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة ، وصناعة الزجاج وكذلك صناعة النسيج، والى سوسة تنسب الثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع ، كما ازدهرت التجارة وبخاصة فى القيروان حاضرة الأغالبة ازدهارا عظيما وكثرت فى يد أهلها الأموال بسبب هذه التجارة ، ويصف الادريسى نمو القيروان ورخاءها بقوله « أم الأمصار ، وقاعدة الأقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب طرا ، وأكثرها بشرا ، وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وأتقنها بناء ، وأنفسها همما ، وأربحها تجارة ، وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأنماها ربحا (١) » .

وقد اهتم الأغالبة بالعمارة فى تونس اهتماما كبيرا ، وأهم آثارهم مسجد القيروان العظيم الذى اختطه عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ وزاد فيه الأغالبة زيادة عظيمة ، وكذلك جامع الزيتونة بتونس ، وهو الجامع الذى يقوم بالمهمة العلمية التى يؤديها الأزهر فى مصر ، فهو جامعة علمية قديمة حفظ التراث الاسلامى وما زال حتى الآن يؤدى مهمته السامية ، وقد أسسه ابن الحبحاب فى عام ١١٤هـ ، ولكن عظمته ترجع الى الأغالبة ،

---

(١) الادريسى : صفة المغرب والأندلس (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق) ليدن ١٨٦٦ ، ص ١١٠ . وانظر عن الحالة الاقتصادية (المغرب الكبير) ، ص ٤٠٧ — ٤٦٤ .

كذلك مسجد سوسة وسورها ورباطها المشهور ، وكذلك هم الذين أنشأوا مدينة العباسية ومدينة رقادة . واهتموا بانشاء المراجل (وهى خزانات الماء يجتمع فيها المطر للشرب منه عند الحاجة) والخزانات والقناطر اهتماما كبيرا ، وبالجملة فقد كان عهد الأغالبة عهد عمران ورخاء فى تونس (١) .

أما الناحية الثقافية ، ففى عهدهم ظهرت الثقافة المغربية ذات شخصية مستقلة . فظهرت مدارس القيروان وغيرها من المدارس الاقليمية . وفى عهد الأغالبة بدأ المغرب الاسلامى يكتسب طابعا واضحا ، هو أن مذهب الامام مالك أصبح بالنسبة للمغاربة ليس مجرد مذهب دينى ، وانما أصبح لهم وطنية وعقيدة ، وظل يدفع الحياة فى المغرب ويطبعها بطابع خاص ما زال موجودا فى البلاد حتى اليوم .

وقد ظلت الدولة الأغلبية تؤدى دورها الذى اضطلعت به فى هذا الطرف الغربى حتى نجحت الدولة الفاطمية فى المغرب وامتدت الى تونس فأسقطت هذه الدولة سنة ٢٩٦ هـ ، وخلف الفاطميون الادارسة والأغالبة فى المغرب الأفريقى ثم امتدوا شرقا الى مصر .

مصر والشام

الطولونيون ، والاخشيديون

أصبحت مصر والشام منذ ابتداء الدولة العباسية تقريبا تؤلفان وحدة خاصة ، وهذه الوحدة ادارية وسياسية وثقافية ، فمن الناحية الادارية كانت الشام ومصر تابعة لولى العهد الأول الذى كانت توكل اليه ادارة المغرب فهو الذى يولى الولاة ، وان كانت تصرفاته انما تصدر باسم الخليفة ، وكانت الوظائف كوظيفة الخراج قد يجمع صاحبها بين وظيفته فى الشام وبينها فى مصر ، والواقع أن موقع مصر والشام على البحر

---

(١) المغرب الكبير : ص ٤٢٢ — ٤٦١ .

المتوسط كان يحتم عليهما أن يتعاونا من الناحية الادارية ، ومن الناحية الحربية أيضـا ، وقد كان أسـطول مصر فى العصر الأموى يدافع عن الشام ، كما أن واحدا من الأساطيل المصرية كان يدافع عن أفريقية . وقد كان الاشتراك وثيقا بين مصر والشام فى المعارك البحرية التى حدثت فى عهد عبد الله بن سعد ابن أبى سرح والى مصر ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام فى عهد الخليفة عثمان .

والارتباط الوثيق بين مصر والشـام قديم جدا يرجع الى عهـد الفراعنة ، فقد كانا يؤلفان وحدة سياسية وثقافية قوية . كما كان من الطبيعى أن تؤدى وحدة المصير فى العهـد البطلمى والعهد الرومانى الى زيادة التفاهم وزيادة الارتباط بين هذين القطرين . فاذا لم ننظر الا الى المـاضى البيزنطى القريب لوجدنا أنهما قطران كانا يدينان بمذهب دينى واحد ، وكانا يستعملان لغة ادارية واحدة هى اللغـة اليونانية ، وكانا يخضعان لدولة واحدة . وكان التجاوب ظاهرا بين كراهة أهل الشـام للسيادة البيزنطية وكراهة أهل مصر لها . ثم أن الحـدود الجغـرافية بين القطرين حدود مفتوحة بخلاف الحدود بين الشام وآسـيا الصغرى التى يفصله عنها جبال شاهقة .

لهذا كانت مصر والشام تمثلان وحدة واحدة فى العصر العباسى ، وحين بدأت الحركات الاستقلالية تظهر فى أقاليم الدولة العباسـية فى العصر الثانى ظهورا واضحا ، كان مظهر هذه الحركة الاستقلالية فى هذه الوحدة هو قيام الامارتين المستقلتين فى مصر ، وهما الامارة الطولونيـة والامارة الاخشيدية ، وقد مدت كلتا الامارتين سلطانها على مصر وعلى الشام . أما الامارة الحمدانية التى ظهرت فى شمال الشام ، فانها كانت فى الحقيقة تقوم فى المنطقة الفاصلة بين الشام والعراق أكثر من قيامهـا فى منطقة شامية خالصة .

وكان مركز الحكم الطولونى والاخشـيدى فى مصر ، والشـام مضاف اليها ، وذلك لأن مصر بموقعها ومواردها أقوى من الشـام ،

وأقدر على القيام بأعباء دولة مستقلة . وليس هذا أمرا جديدا ، وانما هو الوضع القديم الذى كان سائدا على امتداد التاريخ منذ العصر الفرعونى . لهذا فحديثنا عن الطولونيين والأخشيديين فى مصر انما هو حديث عن الشام أيضا .

ليس من شك فى أن الطولونيين والاخشيديين كانوا يمثلون عنصرا دخيلا على الحياة الاسلامية فى مصر . انما من الواضح أن الطولونيين والاخشيديين كانو ايستجيبون أو يعبرون عن حركة مصرية قومية واضحة ، ويكفى أن نلاحظ أن ظهور الطولونين كان يتمشى مع تطور عظيم فى تاريخ هذه البلاد .

هذا التطور هو انتصار الحركة الاسلامية وانتشار الاسلام ، حتى أصبح المسلمون يمثلون أغلبية فى هذه البلاد ، ولولا هذه الحقيقة لما قدر للدولة الطولونية أن تظهر فى ذلك الوقت . ولقد تأثرت مصر بأحداث العالم الاسلامى منذ فتحها على يد عمرو بن العاص ، وشاركت فيها مشاركة قوية ، تأثرت بما جلبه الفتح العربى للبلاد المفتوحة من حرية وأمن ، وتأثرت بما دار حول الخلافة من أحداث لم تكن مصر طرفا معزلا عنها ، كما تأثرت بالسياسة الأموية ، ثم ظهرت ظهورا واضحا فى العصر العباسى الثانى مشاركة فى الحركة الاستقلالية التى شملت كل أقاليم الدولة الاسلامية .

فلقد دخلت مصر فى دائرة النفوذ العربى منذ سنة ٢٢ هـ ، وطبق عليها النظام الاسلامى الذى رسمه الخليفة عمر بن الخطاب لحكم البلاد الاسلامية . وسارت عليه طوال عصر الراشدين ، الذى كان امتدادا للعصر النبوى ، وكان عصر التطبيق العالمى للدعوة الى الاسلام ، والتطبيق العملى لمبادىء الاسلام فى بيئات غير عربية . وكان هدف السياسة العمرية هو الرقابة الشديدة على الولاة ، وعدم اعطائهم اية فرصة للاثراء على حساب أهل البلاد المفتوحة ، وعدم تمكينهم من البقاء

طويلا حتى يتكون لهم طموح خاص فى الانفصال عن الدولة . ولذلك كان اختيارهم يتم من بين أكثر الصحابة فضلا وأعمقهم ايمانا ، فهم لم يكونوا ولاة أو قوادا فحسب،وانما كانوا دعاة للاسلام يطبقون مبادئه النظرية فى أسلوب عملى . وفى هذا العهد نظمت أمور الحكم فى مصر، فاستقرت قواعد الولاية ونظمت الشرطة وأحكام الخراج واستقرت قواعد القضاء ، ووضحت العلاقات بين مصر وبين الخلافة فى عهد الراشدين(١).

وفى عهد الراشدين أصبحت مصر قاعدة الدفاع عن المغرب ، كما أصبحت قاعدة التوسع العربى نحو الغرب ونحو الجنوب . ولذلك ظهرت البحرية الاسلامية فى مصر ونمت نموا كبيرا وتكفلت بالدفاع عن السواحل الشرقية للبحر المتوسط ضد غارات الروم ، واستطاعت أن تحرز نصرا كبيرا على الروم فى معركة ذات الصوارى سنة ٣١ هـ ، كما امتد منها الفتح العربى الى المغرب والى النوبة (٢) .

وفى أيام الفتنة التى انتهت بقتل عثمان ، لم تكن مصر بمعزل عن الأحداث بل كانت طرفا فيها كالشام والعراق (٣) ، ثم كان لها دور فى الصراع الذى احتدم بين الخليفة على بن أبى طالب ووالى الشام معاوية ابن أبى سفيان . ثم كانت طرفا من أطراف النزاع الذى قام بين ابن الزبير ومروان ابن الحكم .

وفى العصر الأموى تأثرت مصر بالنقلة فى شئون الحكم الى يد بنى أمية ، وشاركت فى أمجاد العصر الأموى ، كما تأثرت بمساوئه وأحداثه ، فقد شهد العصر الأموى تطورا هاما فى ادارة الاقاليم ، ذلك أن قيام الدولة الأموية لم يكن تطورا طبيعيا اعتمد على الأجهزة الاسلامية فى الحكم ، وانما وصل الأمويون الى الخلافة عن طريق القوة والاغتصاب

(١) حسن محمود : الكندى المؤرخ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) ابن الأثير : ج ٣ ، ص ٦٨ (الطبعة الثالثة) . الكندى : الولاة ، ص ١٢ .
(٣) انظر ابن الأثير : الأحداث ، سنة ٣٤ ، ٣٥ هـ .

معتمدين على قوة الجند ووفرة المـال ، فصاحب قيامهم فتن وصراعات دموية فى كل أقاليم الدولة بين الموالين لبنى أمية والسـاخطين عليهم ، ومن ثم تعكر السلام الذى كان يسود ولايات الدولة فى عهد الراشدين، ولهذا كان لزاما أن تتغير الخطوط الرئيسية للسياسة العربية فى العهـد الأموى لتستجيب لهذه الظروف الجديدة .

فالسياسة الادارية مثلا تغيرت أساسيا ، فلم تعد مركزية مطلقة فى يد الخليفة الذى لم يكن فى مقدوره بمفرده أن يواجه الفتن والثورات فى كل أقاليم الدولة ، ولذلك نمت سلطات الولاة ، حتى صاروا نوابا للخليفة فى أقاليمهم : يقررون الضرائب بحسب ما تقتضيـه ظروفهم ، فيزيدونها أو يضاعفونها ، ويجندون الجند ويقضـون على الثورات ، واستتبع ذلك أمران : ـ الأول أن الدولة تختار ولاتها على أسـاس الولاء لها والاخلاص لسياستها ، ولذا كان هؤلاء الولاة اما من رجال البيت الأموى نفسه أو من مواليهم وأشياعهم . والثانى أن مدة حكم الولاة أخـذت تطول حتى لتزيد ولاية بعضـهم على عشرين سـنة (١) وذلك حتى تتاح لهم الفرصة لتحقيق أهداف الأمويين . وكان من نتيجة الصراع الذى احتدم فى العصر الأموى ، أن تأثرت الحالة الاقتصـادية للبلاد ، فان الدولة احتاجت لقمع الثورات والفتن وكذلك لاسـتئناف الفتوح التى كانت قد توقفت فى أيام الفتنة الكبرى وما تلاها من صراع الى أموال جسـيمة كان يوفرها عمال الدولة عن طريق سياسـة مالية قاسية ، هى زيادة الخراج ، وابقاء الجـزية على من أسـلم ومضاعفتها أحيانا ، الأمر الذى أغضـب أهل البلاد المفتوحة وأثار حقدهم على بنى أمية ، وقد تأثرت مصر بهذه السياسة الأموية ، فان أهلها غضـبوا من والى مصر وثاروا عليه فى سنة ١٠٧ هـ (٢) .

---

(١) حكم مصر والمغرب : عبد العزيز بن مروان ، من سنة ٦٥ هـ الى ٨٦ هـ . الكنـدى : الولاة ، ص ٤٨ — ٥٨ . وحكم الحجاج ، العـراق والمشرق ، من سـنة ٧٥ هـ (ابن الاثير : ج ٤ ، ص ٣٣) ، الى وفاته سنة ٩٥ هـ (ابن الاثير : ج ٤ ، ص ١٧٣) .

(٢) الكندى : الولاة ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

كما شـــهدت مصر تطورا اجتماعيا آخر بدأ يأخذ طريقه فى الحياة المصرية ، وهو انتشار الاسلام الذى أخذ يسير فى خط صاعد منذ الفتح العربى ، وذلك لأن المصريين الذين كانوا يقاســون الظلم والاضــطهاد الدينى طوال العصر الرومى ، اعتبروا الفتح منقذا لهم ، ومرد ذلك الى سماحة المبادىء الأسلامية ، والى سياسة التسامح الدينى التى سار عليها العرب ، وكذلك الهجرات العربية واستقرارها فى البلاد واختلاطها بالســـكان .

وقد بدأ دخول المصريين فى الاسلام منذ وقت مبكر ، فلقد تحول كثير من القبط الى الاســلام قبل أن يتم الفتــح العربى حين كانت الاسكندرية لا تزال محاصرة بقوات المسلمين ، ثم سار كثير من القبط على نهج اخوانهم بعدذلك بسنوات قليلة (١) .وخير شاهدعلى ذلك أن خراج مصر فى عهد عثمان بلغ اثنى عشر مليونا من الدنانير ، ثم نقص فى عهد معاوية الى خمسة ملايين ، ثم استمر فى النقصان حتى تدخل عمال الدولة فأبقوا الجزية على من أسلم لتلافى هذا النقص (٢) .

لكن هؤلاء المســلمين الجدد فى مصر وفى غيرها من بلاد الدولة الاسلامية لم ينالوا حقوقهم المشروعة فى عهد الدولة الأموية ، فسخطوا على الأمويين وتمنوا زوالهم ، وأيدوا الدعاة العباسيين ، وكانوا منوراء النجاح الذى أحرزته الثورة العباسية .

وكان طبيعيــا أن يؤدى انتقــال الحــكم الى يــد العباســــيين الى ايجــاد سياســة جــديدة تنبع من هذه الظــروف وتســاير هذه التطورات . ولقد واجه العباسيون فى المغرب الاسلامى وبخاصة مصر والشام ظروفا شديدة ، فقد صاحب قيام الدولة العباسية احياء المقاومة

---

(١) انظر : ارنولد : انتشار الاسلام ، ص ٩٢ — ٩٤ :
(٢) المقــريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

البيزنطية التى بدأت تسترد فعاليتها بعد ما أصيب البيزنطيون به من هزائم كبرى ، فبدأوا ينظمون مقاومة ناجحة فى آسيا الصغرى والبحر المتوسط ، لاسترداد ما فقدوه من البلاد أو على الأقل لوقف التقدم العربى . كما أن المقاومة الأموية تقهقرت نحو المغرب وجعلت تنظم مقاومة فى مصر والشام ، حتى ان ثورات العرب فى الشام لم تنقطع زمنا طويلا . هذا فوق نمو الحركة الاقليمية التى اخذت تتطور نحو حركة استقلالية شملت العالم الاسلامى كله .

وقد عالج العباسيون هذه الظروف بأن عملوا على ايجاد وحدة ادارية كبيرة تشمل الشام ومصر وبلاد المغرب الأفريقى ، وجعلوا لها كيانا اداريا خاصا ، فكانوا يولون على هذه البلاد نائب للخليفة يختار من أمراء البيت العباسى ، وكانت العادة أن يكون ولى العهد الأول ، وكان نائب هذا أومن ينيبه عنه يقسم وقته بين مصر والشام ، فان كان بالشام أقام بمدينة دمشق ، وان كان بمصر أقام بمدينة العسكر التى أنشأها صالح بن على بعد دخوله مصر سنة ١٣٢ هـ ، وعندما يكون فى أيهما يستخلف على الأخرى .

لكن أمر الحكم فى قسمى العالم الاسلامى (المشرق والمغرب) تطور منذ عهد المأمون الى اقطاعية لها سلطانها ونفوذها الكبير ، وبدأ نواب الخليفة يقيمون فى بغداد بصفة مستمرة ، ومنحوا امتيازات كبيرة ، فخطب لهم على المنابر ، وكتبت أسماؤهم على السكة وذكرت فى الوثائق الرسمية (١) وكانت الدولة تخص رجال البيت العباسى ورجال الحزب العباسى بالولايات والاقطاعات ، ثم بدأت فى العصر العباسى الثانى تولى الولاة من الترك ، وكان هؤلاء — كما ذكرنا فى الحديث عن عصر نفوذ الأتراك — لا يرغبون فى ترك سامرا أو بغداد ، وانما كانوا

---

(١) حسن احمد محمود : الكندى المؤرخ ، ص ١٠٨ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ١٢٧ .

يقبلون الولاية ولا ينقلون اليها بل ينيبون عنهم فيها رجالا من قبلهم . ولما كانت الخلافة مغلوبة على أمرها ومشغولة بصراعها مع هؤلاء الأتراك الذين سيطروا عليها ، ولما كان هؤلاء مشغولين بمنافساتهم ، فقد تركوا الاقاليم لنوابها . وكانت أقاليم الدولة تتجه نحو الاستقلال أو الحكم الذاتى ، وتتعرض لذلك لكثير من الفتن والثورات واضطراب الأحوال الاقتصادية .

ولما كانت الجماعات الكبيرة من المسلمين فى هذه الأقاليم تواقة الى مزيد من الاستقرار والهدوء ، فقد كان الحل الحتمى لانقاذ العالم الاسلامى مما تردى فيه ، أن تظهر الامارات المستقلة لتملأ الفراغ الذى تركه ضعف الخلافة ، ولتعيد الاستقرار السياسى ، وتصلح الأوضاع الاقتصادية وترعى مصالح أهل البلاد وتدافع عنهم .

وكان ظهور الطولونيين فى مصر صورة من تلك التطورات التى سادت العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى .

ومؤسس الدولة الطولونية ـ أحمد بن طولون ـ رجل تركى ، كان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم ولاة ولايات الدولة الشرقية الى الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم للخلفاء . وقد تربى أحمد بن طولون فى بغداد ونال حظا من الثقافة الدينية كان لها أثر كبير فى حياته السياسية . فلقد خالف ابن طولون ما درج عليه الأتراك من العبث والظلم ، وما طبعوا عليه من حب المال وجمعه عن طريق الاستيلاء والمصادرة دون نظر الى رعاية مصالح الناس ، أو عمل على تنمية موارد الثروة ، حتى أصاب العراق فى عهدهم الخراب الاقتصادى ، فلما تولى أحمد بن طولون مصر نمت ثروتها على يديه نموا كبيرا بما قام به من اصلاحات اقتصادية شاملة . كما كان مثلا فى التواضع والعدل وتقريب العلماء (١) .

---

(١) ابن خلكان : ج ١ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

دخل أحمد بن طولون مصر في رمضان سنة ٢٥٤ هـ نائبا عن واليها بايكباك التركي ، ولم يكن له ولاية مصر وانما كان على الصلاة وله الحاضرة ، وكان معه آخرون على حكم الجهات الأخرى ، فقد كان على الاسكندرية اسحاق بن دينار ، وعلى برقة أحمد بن عيسى الصعيدى ، وعلى القضاء بكار بن قتيبة ، وعلى البريد شقير الخادم ، وعلى خراج مصر كلها أحمد بن المدبر . فكانت سلطات أحمد بن طولون اذن محدودة في مصر . لكننا نحس من تصرفاته أنه قد جاء الى مصر وله آمال عراض لم يشأ أن يكشف عنها دفعة واحدة ، وأن غايته أن يستقل بولاية مصر كلها تحت سلطان الخلافة العباسية وبرغبتها ، ثم يتخذ من مصر قاعدة ليلعب الدور الأول في العالم الاسلامى ، ثم يجعل الامارة وراثية في أبنائه . ولتحقيق هذه الغاية بدأ يسير في خطوات متتابعة .

كان أمام ابن طولون في مصر عقبات عليه أن يذللها ، ومشاكل يتحتم عليه حلها . كان سلطانه في مصر محدودا لأنه تقلد قصبة البلاد دون غيرها ، وقد كان يحكمها باسم والى مصر بايكباك ، وفى استطاعة هذا أن يعزله اذا لم يحز رضاه ، كما كان له منافسون أخطرهم في مصر أحمد بن المدبر عامل الخراج الذى دأب على الايقاع به وتهديد مركزه في دار الخلافة . ثم كانت الفتن والثورات مشتعلة في مصر وقد أخمد نارها الخوارج والعلويون ، وقد تأثرت حالة مصر الاقتصادية بهذه الفتن فتعطلت المرافق وتعرضت البلاد لسطوات هؤلاء الخارجين واستيلائهم على الأموال وكان على ابن طولون أن يتصدى لهذا كله .

فأما ثباته في مصر ، فقد أعانته الظروف عليه ، ذلك أن بايكباك قتل ، وأسندت ولاية مصر الى بارجوخ الذى كان بينه وبين ابن طولون مودة ومصاهرة فأقره على ما في يده وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها (١) . وقد تحرج مركز أحمد بن المدبر حين أصبحت مصر كلها

---

(١) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٦٦ . الكندى : الولاة ، ص ٢١٦ .

فى ولاية ابن طولون وتوطد مركزه فى دار الخلافة ، ولما كان ابن المدبر مكروها من أهل مصر لزيادته فى الضرائب واستعماله القسوة فى جبايتها، فقد فضل أن ينقل منها الى جهة أخرى ، فترك مصر وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن سنة ٢٥٧ هـ • وتعتبر هذه السنة حاسمة فى حياة ابن طولون ، اذ كانت بداية اطلاق يده فى البلاد المصرية كلها (١) • فقد دانت له الاسكندرية وبرقة ، وقدم له حكام الكور (المديريات) مظاهر الطاعة والخضوع ، وعندئذ بدأ يتصرف، كأنه الوالى الشرعى للبلاد ، فبدأ فى انشاء مدينة له على طراز المدن التى تنشئها الدول الجديدة كعواصم لها ، فأخذ فى انشاء القطائع وتأسيس المسجد الجامع بها (٢) • وهذا يكشف لنا عن اتجاه أحمد بن طولون نحو اقامه دوله مستقلة ثابتة الأركان • ثم سيطر على البريد فأصبح خاضعا له ، وضمن ألا تسرب أخباره الى دار الخلافة الا بالقدر الذى يريد (٣) • ولما مات بارجوخ سنة ٢٥٨ هـ توطدت قدم أحمد بن طولون بمصر وأصبح يحكمها من قبل الخلافة مباشرة (٤) • وفى سنة ٢٦٣ هـ كتب الخليفة المعتمد الى أحمد بن طولون يستحثه على ارسال الخراج ، فرد عليه « لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى » فقلده الخليفة خراج مصر ، وولاه الثغور الشامية (٥) • وبذلك أصبحت مصر كلها، فى يد ابن طولون ادارتها وماليتها وحربها وقضاؤها •

أصبح ابن طولون مطلق اليد حر التصرف ، فأخذ يعمل على بناء دولة قوية تستطيع أن تتحمل أعباء الدور الذى يصبو الى القيام به فى العالم الاسلامى ، فبدأ أولا بالعمل على اقرار الأمن فى البلاد لينصرف

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ٥٩ ، ٦٠ •
(٢) الكندى : الولاة ، ص ٢١٦ •
(٣) حسن احمد محمود : الكندى ، ص ١٧١ •
(٤) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٩١ •
(٥) الكندى : الولاة ، ص ٢١٢ •

الى تنفيذ مشروعاته فى هدوء ، ولذلك تصدى للفتن الداخلية فقمعهـا بقوة حتى استقامت له الجبهة الداخلية واعترفت جميع القوى بزعامته ، ولما كانت المشروعات الاستقلالية تتطلب الأموال للقدرة على انجازها، فقد قام باصلاحات اقتصادية كثيرة .

فحين أسند اليه ديوان الخراج ملأه بالموظفين الموالين له ، وفرض عليهم رقابة صارمة حتى لا يستغلوا وظائفهم فى النهب وارهاق الناس ، وقد استعان بأهل البلاد فاتخذ منهم الموظفين ، بل حرص على ألا يحضر لمصر موظفا من غير أهلها (١) ، ونتيجة لذلك بلغ خراج مصر فى عهـده نحوا من ٤٫٣٠٠٠٫٠٠٠ دينار (٢) ، كما عمد الى مضـاعفة الدخل فى ميادين الانتاج كلها : الزراعى والصـناعى والتجـارى ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة الدولة دون أن يرهق الناس بالمكوس والضرائب ، فعنى باقامة الجسور وحفر الترع فانصلحت أحوال الزراعة ، ولما كان قـد قضى على الفتن ونشر العـدل فان الفلاحـين قد أقبلوا على العمل فى أراضيهم آمنين حتى انتعشت الزراعة وكثرت المحاصـيل وعم الرخـاء بلاد الريف كلها ، كما أن جو الأمن نشط التجارة ، واستتبع نمو الزراعة والتجارة نشاط الحركة الصناعية فى البلاد وبفضل هذه الاصـلاحات تجمعت لدى ابن طولون أموال ضـخمة كانت عونه فى الخطوات التى خطاها فى سبيل الاستقلال .

وليسـتكمل استقلاله ويقوم بدور فعال فى العالم الاسلامى كان لابد أن يكون له جيش قوى يدين له بالولاء ويكون عـونه فى تحقيـق مشروعاته والدفاع عن الاستقلال الذى يريد تحقيقه ، فاستكثر من شراء العبيد حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف غلام تركى ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف مرتزق (٣) . وبهذا أصبحت له قوات نظامية كبيرة

---

(١) البـلوى : ص ١٠٦ .
(٢) ابن سعيد : المغرب ، ص ١٣٢ .
(٣) المقـريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٩٤ .

العدد تخضع له مباشرة . ولقد أعانه نمو الموارد الاقتصادية على هـذا الاكثار من الجند وشراء الأسلحة لجيشه ،كما أعانه على القيام باصلاحاته العمرانية وبناء القطائع والقصر المعروف بالميدان والمسجد الجامع ، كما مكنه من القيام بدوره فى الجهاد فى الثغور الشامية التى أسندت اليه . وحين اكتملت لابن طولون سـلامة الجبهة الداخليـة تفرغ لنشـاطه الخـارجى .

كانت المشـكلة الكبيرة التى اعترضت ابن طولون تقوم فى دار الخلافة نفسها ، فقد بدأت الخلافة حركة انتعاش قام بها الموفق أخـو الخليفة المعتمد ، لاستعادة فعالية الخلافة وتقوية قبضتها على ولاياتها . وقد سـيطر الموفق على الشـئون العامة فى الخلافة ولم يبق للخليفـة الا الاسم ، ولما كان الموفق يستعد للقضاء على ثورة الزنج التى هددت الخلافة تهديدا خطيرا ، فقد كتب الى أحمد بن طولون يطلب منه ارسال معونة مالية ، وعلى الرغم من أن ابن طولون أرسل مليونا ومائتى ألف دينار ، فان الموفق استقلها ، وأحس أنه يرسلها متبرعا ولا يرسلها مأمورا ، فكتب اليه كتابا ينطوى على الجفاء والشر ، ورد أحمد بن طولون عليه بكتاب شديد اللهجة ، وبذلك تصدى لأكبر قوة فى الدولة العباسية ، وهى قوة الموفق الذى كان سلطان الخلافة الفعلى فى يده . وقـد كانت مغاضبة الخلافة فى ذلك الوقت الذى أخذت تسـترد فيه فعاليتها أمرا ينطوى على خطر جسيم على ابن طولون ، ولولا أن الموفق كان مشغولا بحرب الزنج لتهدد مركز ابن طولون تهديدا حقيقيا ، ومع ذلك فقـد أرغم الموفق أخاه الخليفة على عزل ابن طولون عن ولاية مصر وتوليـة ماجور التركى بدله (١) . ولولا علو همة ابن طولون ورباطه جأشـه لذهبت آماله أدراج الرياح ولسقط أمام الخلافة العباسية .

ولكن ابن طولون اتخـذ كل سلاح للدفاع عن نفسـه ، ولكنه

---

(١) عن الخلافة بين الموفق وابن طولون . انظر ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٠٨ — ١٥٨ .

لم يشأ أن يجاهر بعداء الخلافة وانما أراد أن يظهر على أنه مطيع للخلافة خادم لها ، وحصر العداء بينه وبين الموفق على اعتبار أن الخلافة واقعة تحت نفوذ الموفق الذى حجر على الخليفة . فطلع على العالم الاسلامى بأمر جديد كان له وقع عظيم فى الأوساط المعاصرة ، ذلك أنه نصب نفسه مدافعا عن الخليفة المظلوم ، وهدد باستعمال القوة المسلحة ، فقد كتب الى المعتمد فى سنة ٢٦٨ هـ كتابا هاما يحرضه فيه على الخروج عن العراق والانحياز الى مصر ، ويشير الى أن لديه القوة الكافية لتأييد الخليفة « ... وقد جمعت عندى مائة ألف عنان أنجاء . وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب الى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يتهيأ لأخيه فيه شىء مما يخافه عليه منه فى كل لحظة .. » (١) وقد استجاب الخليفة لاغراء ابن طولون ، فخرج متظاهرا بالتصيد حتى وصل الى الرقة حيث كان فى انتظاره بعض رجال ابن طولون ، لكن الموفق اكتشف المؤامرة فأعاد الخليفة الى سامرا (٢) ، ولو نجح ابن طولون فى ايواء الخليفة لتحركت قواته الرابضة على حدود العراق ، ولدخلته دفاعا عن حق الخليفة . ويعطينا هذا التصرف صورة للوزن الكبير الذى أصبح لابن طولون فى العالم الاسلامى .

ثم ان ابن طولون أتى بما يشعر بأنه نصب نفسه وصيا على أمور الخلافة ، فقد عقد مؤتمرا فى دمشق جمع له القضاة فى الشام ومصر ، وأصدر قرارا بخلع الموفق عن ولاية العهد ، استنادا الى أن الموفق نقض البيعة بعدوانه على الخليفة ، وأنه خرج على السلطات المخولة لولى العهد ، وأنه يكون بذلك غير أهل لامامة المسلمين . ثم أتبع ذلك بأن أمر بلعن الموفق على المنابر واسقاط اسمه من الدعوة ومحوه من الطرز (٣) . وبذلك يكون أحمد بن طولون قد أعطى نفسه حق خلع ولى العهد ، وهو تصرف جرىء ، فولاية العهد ، عقدا وحلا ، من

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ٢٨١ .
(٢) الكندى : الولاة ، ص ٢٢٥ .
(٣) الكندى : ص ٢٢٦ .

اختصاص الخليفة ، ولتبرير ذلك اتخذ ابن طولون لنفسه لقبا جديدا ورد فى صيغة كتاب الخلع وهو « أحمد ابن طولون مولى أمير المؤمنين » (١) .

وبجانب هذا التصرف السياسى ، قام بعمل حربى ، فقد تصدى لقوات الموفق ، كما تصدى للعمال الذين عينهم الموفق على الشام أو على مصر ، منتهزا انشغال الموفق بحرب الزنج ، واستطاع أن يقر سلطانه على الشام وعلى الثغور بقوة السلاح ، بل ان قواته امتدت الى الحجاز ونازلت قوات الموفق فى مكة (٢) .

وقد رد الموفق على ابن طولون ، بأن اعتبره خارجا على الخلافة ، وأصدر أمرا من الخليفة ومن ولى العهد الأول ومنه بلعن ابن طولون على المنابر فى كل ولايات الدولة واعتباره من المفسدين (٣) . ومثل هذا الأمر يصدر من الخلافة كان أقوى من فعل ابن طولون وأفعل فى نفوس الناس ، وكان له رد فعل شديد ، فقد شغب الأمراء فى الولايات والمدن فى الشام والثغور على ابن طولون . ولم يستطع أن يكبح جماحهم بعد أن ضعف نفوذه الأدبى بتأثير الدعاية الواسعة التى نشرها الموفق ضده ، وكان لهذا أثره فى موقفه العسكرى ، فقد هزمت قواته فى مكة ولعن فى المسجد الحرام (٤) . كما حلت به الهزيمة لأول مرة فى طرسوس بعد أن قفل أهلها أبوابها فى وجهه ، ومات أكثر جنده من البرد وغرقت أمتعتهم فى مياه نهر البردان الذى أرسله عليهم حاكم طرسوس (٥) .

وعلى الرغم من هذا الخلاف الذى وقع بين أحمد بن طولون وبين دار الخلافة ، فانه أثبت جدارة كبيرة وأظهر تفوقا فى السياسة والحرب ،

---

(١) البلوى : ص ٢٩٥ .
(٢) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ١٤٢ .
(٣) الكندى : ص ٢٥٩ .
(٤) الطبرى : ج ١١ ، ص ٣٢٠ .
(٥) الكندى : ص ٢٢٩ .

ولم يؤخذ عليه الا هذا التصرف الذى اتخذه بازاء الموفق . ومع ذلك فقد اتسعت دولته وامتد ملكه من العراق شرقا الى برقة غربا ومن آسيا الصغرى الى النوبة ، وكان شديد البأس خبيرا بتعبئة الجيوش وقيادتها وقد أسهم الى جانب قوات الخلافة فى الدفاع عن الثغور الشمالية المواجهة للروم ، حتى خشى بأسه امبراطور الروم وترضاه بأن فك له من تحت يده من المسلمين وأهدى اليه عدة مصاحف للقرآن الكريم (١) .

مات ابن طولون فبايع الجند لابنه خمارويه ، الذى كان عليه أن يدافع عن الدولة التى أقامها أبوه فى مصر وأن يحتفظ بالشام ، كما كان عليه أن يستأنف النضال الذى كان قائما بين الطولونيين وبين دار الخلافة. وكان الموفق قد استراح من حرب الزنج وتفرغ لشئون مصر . لكن خمارويه استطاع أن يحبط كل مساعيه وأن يقر السلام فى الحدود الشرقية ، وقد امتد نفوذه من الفرات الى برقة ، وأصبح الطولونيون قوة يحسب لها حساب كبير ، وأحس الموفق أنه من الأفضل مسالمتها بعد أن أدرك أنها تملأ مكانتها فى قوة وجدارة ، كما رأى خمارويه أن من الخير له أن يسعى للسلام مع الخلافة فبدأ بطلب الصلح ، واستجابت الخلافة لهذا الطلب ، فبعث الخليفة وأخوه الموفق اليه كتابا كتبوه بأيديهم تعظيما له وتكريما (٢) . وفى هذا الكتاب أعطت الخلافة خمارويه حكم البلاد مدة ثلاثين سنة فيه وفى أولاده لايهدد بعزل أو تدخل فى شئونه ، فكان هذا أمرا جديدا فى العلاقات بين مصر وبين دار الخلافة . وبذلك استوفت الامارة الشكل وأصبحت مصر دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمى والفعلى .

وفى عهد الخليفة المعتضد تدعمت العلاقات بين الطولونيين ودار الخلافة ، حيث تمت المصاهرة بين البيتين ، فقد تزوج الخليفة قطر الندى بنت خمارويه ، وكسب بذلك البيت الطولونى مجدا ونفوذا بمصاهرته

---

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ١٢٩ .
(٢) الكندى : ص ٢٣٨ . النجوم الزاهرة : ج ٣ ، ص ٥٠ .

للخليفة ، كما كسبت الخلافة وقوف هذا الطرف الغربى الى جانبها يشد أزرها ماديا وعسكريا .

على أن خمارويه ما لبث أن توفى سنة ٢٨٢ هـ وبموته اضطربت أحوال الدولة الطولونية بسبب تدخل الجند وتنافس الأمراء الطولونيين فيما بينهم ، واشتعلت الفتن والثورات ، وأصبح من المؤكد أن أمراء البيت الطولونى فقدوا عنصر القوة الذى كان يتمتع به أحمد بن طولون وابنه خمارويه ، بحيث أصبحوا ألعوبة فى يد الجند وتعرضوا للمهانة والقتل . وفى سنة ٢٩٠ هـ ظهر القرامطة بالشام ، فأنفذت الدولة الطولونية جيشا لقتالهم فهزم ، وأدى هذا الضعف الى أن تجدد الخلافة العباسية رغبتها فى اعادة مصر الى سلطانها المباشر ، فأرسلت جيشا بقيادة محمد بن سليمان الكاتب لاسترجاع مصر ، ولم تقو القوات الطولونية على الصمود له ، فدخل الفسطاط سنة ٢٩٢ هـ وأمر باحراق القطائع فأحرقت . وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت البلاد ثمان وثلاثين سنة (١) .

عادت مصر الى حكم الخلافة مباشرة ، لكن الخلافة كانت قد انتكست مرة أخرى فى عهد المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) وعادت سلطة الأتراك على دار الخلافة مرة أخرى ، وعاد معهم استبدادهم بالخلفاء وإهمالهم لشئون الدولة ، وتأثرت مصر بهذه الظروف فأصبحت مسرحا للمنافسة بين الولاة وعمال الخراج . وقد صاحب هذا قيام الدولة الفاطمية بالمغرب واكتساحها لدولة الأغالبة فى تونس ، وبذلك تلاقت الحدود العباسية والحدود الفاطمية على حدود مصر الغربية ، وقد ظهر الاتجاه الفاطمى نحو مصر منذ ذلك الوقت فأخذوا يرسلون دعاتهم وجيوشهم الى مصر ، ولاحقوها بالحملات المتكررة ولم يكن هناك بد

---

(١) انظر عن سقوط الدولة الطولونية . النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٨٨ — ١٤٣ . الكندى ، ص ٢٤١ — ٢٤٨ ، المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٣ وما بعدها .

من وجود حاكم قوى فى مصر يستقل بشئونها ويقر الأمن فيها ، ويستخدم مواردها للوقوف فى وجه القوة الفاطمية الزاحفة نحو الشرق ، وهذا يذكرنا بموقف الخلافة العباسية من تونس بعد أن تهددت بقيام الأدارسة ، فأقام الرشيد ابراهيم بن الأغلب حاكما مستقلا ليكون حاجزا بينهم وبين الزحف الى مصر ، ونشهد هنا نفس المسألة تتكرر ، فنرى القوة الموالية للعباسيين تنحسر عن تونس ، ولا ترى الخلافة بدأ من أن تقيم دولة حاجزة فى مصر تحميها وترد عنها هذا الزحف الشيعى الجديد ، فولى الخليفة الراضى محمد بن طغج على مصر سنة ٣٢٣ هـ (١) .

الدولة الإخشيدية

كان ظهور محمد بن طغج الاخشيد فى مصر يشبه الى حد كبير ظهور أحمد بن طولون بها من ناحية ، ويشبه ظهور ابراهيم بن الأغلب بأفريقية من ناحية أخرى ، فقد ظهر الأخشيد ليخلص مصر من الفتن الداخلية العنيفة التى قامت بها بعد عودتها الى حوزة الخلافة العباسية ، وليصلح من أحوالها التى أفسدها عمال الخراج الذين عادوا الى عبثهم وافسادهم بعد زوال الحكم الطولونى . وكما تصدى الموفق لأحمد بن طولون من قبل ، كذلك تصدى محمد بن رائق للاخشيد . كذلك جاء الاخشيد الى مصر ليواجه التهديد الفاطمى الذى أخذ يتجه الى مصر ويلح عليها بالغزو ، وبعد أن اكتسح أمامه دولة الأغالبة فى أفريقية ، وقد تصدى الاخشيد للنفوذ الفاطمى كما تصدى ابراهيم بن الأغلب لنفوذ الأدارسة فى المغرب من قبل . وكذلك لعب الاخشيد نفس الدور الذى لعبه أحمد بن طولون من قبل بالنسبة للخلافة العباسية ، فقد حاول الأخشيد اغراء الخليفة العباسى المتقى بالقدوم الى مصر ليخرج عن نفوذ أمير الأمراء المتسلط فى بغداد ، كما حاول ابن طولون أن يغرى الخليفة المعتمد بالقدوم اليها بعيدا عن نفوذ أخيه الموفق ، فكلا الرجلين اذن أراد

---

(١) الكندى : الولاة ، ص ٢٨٦ .

أن يجعل من مصر مركز الثقل فى العالم الاسلامى بنقل الخليفة اليه حتى ولو الى حين .

ومحمد بن طغج بن جف تركى من فرغانة . وقد قدم جده جف الى دار الخلافة فى عهد المعتصم . وظلت أسرة جف مقيمة بدار الخلافة تعمل ضمن الأتراك الذين كانوا يعملون فى العراق . وقد بدأت حياة محمد بن طغج العملية تظهر حين اتصل بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام، ولما كانت مصر موضع نشاط للأعمال الفاطمية لغزوها . فقد وجد ابن طغج ميدانا فسيحا ليظهر فى مسرح الحوادث . فجاء الى مصر وقاتل تحت قيادة تكين التركى وظهرت شجاعته وبلاؤه فى قتال الحملة التى وجهها الفاطميون بقيادة حباسة بن يوسف الكتامى سنة ٣٠٢ (١) . وتوثقت الصلة بين محمد بن طغج وبين تكين فولاه عمان وجبل الشراة سنة ٣٠٦ هـ نيابة عنه . وقد أتيحت له الفرصة ليكسب عطف الخليفة ورضاه بعد أن كسب عطف العناصر التركية فى الشام ومصر . فقد أغار الأعراب على قافلة للحجاج المارين ببلاد الشام . وكان فيها قوم من أعيان العراق ومعهم جارية لأم الخليفة . فتصدى ابن طغج للأعراب وهزمهم وخلص القافلة منهم ، فحمد الناس له ذلك ورضى عنه الخليفة . وكان عليه بعد ذلك أن يرضى المرتزقة أصحاب السلطان الفعلى فى بغداد ، وقد تم له ما أراد حين نجح فى صد الخطر الفاطمى عن مصر متعاونا مع عاملها التركى ومع مؤنس الخادم الذى كان صاحب السلطة الفعلية فى بغداد والذى كان يقوم بمهام أمير الأمراء ، وقد جاء الى مصر ليشرف بنفسه على الاستعدادات الكفيلة بصد هذا الخطر . وعاد مؤنس الى بغداد راضيا عن محمد بن طغج ، فقلده ولاية الرملة فى فلسطين سنة ٣١٦ هـ (٢) ، ثم ولاية دمشق سنة ٣١٩ هـ . ولكن ابن طغج كان يرنو الى ولاية مصر معتمدا على الجند والأموال التى استكثر منها

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٣١ .
(٢) سيدة الكاشف . مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٦٣ .

فى بلاد الشام ، وقد واتته الفرصة حين ولى الخليفة الراضى ، وكانت الأحوال فى مصر مضطربة أشد الاضطراب بين مطامع القواد ، ومطامع صاحب الخراج محمد بن على المـاذرائى الذى استبد بأموال مصر هو وأسرته من قبله نحوا من خمسين سنة جعلوا الخراج فى مصر دولة بينهم، فكأنهم دولة فى داخل الدولة(١) . كما تحقق لابن طغج النفوذ فى حاضرة الخلافة بعد مصاهرته للفضـل بن جعفر صاحب النفوذ فى بغداد (٢) ، ولمـا كانت الخلافة محتاجة الى رجل قوى ليقر الأمن فى مصر وليجعل منها قاعدة لرد هجمات الفاطميين ، فقد ولى الخليفة محمد بن طغج على مصر ، واضطر هذا الى القدوم الى مصر فى شبه حملة عسكرية للقضاء على عامل الخراج ، فقهره واضطره الى الفرار . وكان على ابن طغج بعد ذلك أن يثبت قدمه فى مصر ، ولا يكون ذلك الا بأن يدافع عنهـا ويحميها ، ويظهر فى العالم الاسـلامى بمظهر المدافع عن أهل السـنة وعقائدهم وتقاليدهم ، وقد نجح فعلا فى التصـدى لحملات الفاطميين التى استمرت من سنة ٣٢١ الى ٣٢٤ هـ ، وبذلك حاز الاعجاب ، ونال رضاء الخليفـة الراضى الذى أمر بأن يزاد على اسم ابن طغـج لقب الاخشـيد، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة ، وقد دعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ (٣) . وفى هذا اعتراف من الخليفة بمكانة الاخشـيد ، كما كان هذا صـدى لمـا أصبح للاخشيد من مكانة فى العالم الاسلامى فى المشرق .

وكان على الاخشيد لكى يؤمن تلك المكانة التى سما اليها ، ولـيعزز سياسته الداخلية والخارجية ، أن يكون له جيش قوى . فأنشـأ الجيش على غرار ما فعل ابن طولون من قبله ، كما سـار على نفس السياسة التى سار عليها وهى تحببه للمصريين واكتساب ود أهل البلاد ، والفوز بولاء أهل الذمة الذين كانوا لا يزالون فى ذلك الوقت قوة يحسب لها حساب .

---

(١) سيدة الكاشف : ص ٣٧ — ٤٥ . حسن احمـد محمـود . الكنـدى : ص ٧٩ .

(٢) ابن سعيد المغرب : ص ١١ .

(٣) الكنـدى : الولاة ، ص ٢٨٨ .

واذا كان ابن طولون من قبل قد تصــدى لأكبر قوة فى المشرق متمثلة فى شخصية الموفق ، فان الاخشيد قد تحدى ابن رائق أمير الأمراء الذى اتســع نفوذه فتولى امرة الجيش وخراج جميع البلاد التى كانت فى حوزة الخلافة العباسية ، وخطب له على المنابر فى الشرق والغرب ، وقد هدد الأخشيد ، فلم يتردد هذا فى الاشتباك معه فى البر والبحر ، واستطاع أن يلحق به الهزيمة • ومن ثم أصبح الاخشيد من أكبر القوى فى العالم الاسلامى حتى أن الخليفة الذى عبث به الترك وأفزعه عدوان أمير الأمراء اضطر الى الاستنجاد بالاخشيد ، فقابله الاخشيد بالرقة ودعاه الى القــدوم الى مصر (١) وهكذا كرر الاخشــيد ما فعــله ابن طولون ليجعل من مصر قاعدة الخلافة العباسية • واذا كان لم ينجح فى الوصول الى هذه الغاية كما لم ينجح ابن طولون من قبل فانه قــد ظفر بعد ذلك بمثل المعاهدة التى ظفر بها خمارويه ، اذ اعترف الخليفة له بولاية مصر وراثية فى أولاده وأقره على البلاد التى استولى عليها فى الشــام ، كما دخلت مكة والمدينة فى يده . وأصبح بذلك من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عماله وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور ، وحصل من الخليفة على موافقته على هذه البيعة ، وأصبح يدعى للخليفة وللأخشــيد وأبنه على منابر مصر والشام •

وكما كان الاخشــيد يستخدم القوة مع خصــومه ، كذلك كان يســتخدم السياسة ، وكان بعيد النظر يقــدر ظروفه وظروف العــالم الاسلامى ، ويغلب المصلحة العامة اذا تعارضت مع مصلحته الخاصــة • من ذلك أنه حين قاتل محمد بن رائق وانتصر عليه في الشــام عقد معه صلحا على ما يحب ابن رائق ، وتعهد له الاخشيد بدفع مائة وأربعين ألف دينار سنويا ، وكان فى ذلك بعيــد النظر ، فانه كان يعرف مكانة ابن رائق و لايريد أن يتعرض معه لحرب، قد يوالى فيهــا ابن رائق الحملات عليه من قبل الخلافة ، هذا فوق أنه مهدد من جبهته الغربية بالفاطميين ،

(١) الكندى : الولاة ، ص ٢٩٢ .

فلم يشأ أن يشغل نفسه بالجبهة الشرقية • ومن ذلك أيضا أنه اصطدم بقوة الحمدانيين النامية فى حلب والتى تقدمت لاحتلال دمشق ، وعلى الرغم من انتصاره على سيف الدولة الا أنه تصالح مع الحمدانيين على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، كما تعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق (١) • وكان فى ذلك يغلب مصلحة العالم الاسلامى على مصلحته الخاصة ، فقد كان الحمدانيون يتصدون لمنازلة الروم الذين نشطوا فى ذلك الوقت فى الهجوم على الولايات الاسلامية المتاخمة لبلادهم • فأراد الاخشيد أن يبقى الحمدانيون حصنا منيعا يصد غارات الروم ، وهم بذلك يتحملون عنه ثقل هذه التبعة الملقاة على عاتقه أمام العالم الاسلامى بصفته واليا على الشام •

واذا كان الاخشيد قد تصدى للحملات الفاطمية على مصر وردها بنجاح ، فانه كان مرهوب الجانب عند الروم حتى ان امبراطور الروم رومانوس كاتبه دون الخليفة ومدحه وتودد اليه ، وقد رد عليه الاخشيد مؤكدا ولاءه للخليفة ؛ وأجابه فى اعتداد أنه يقبل منه ما عرضه من فداء الأسرى ومبادلتهم • ويكشف هذا الكتاب الذى أورده القلقشندى عن مدى اتساع ملك الاخشيد فانه يشمل : مصر ، واليمن ، وأجناد الشام . جند حمص ، وجند دمشق ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، ثم ما تقلده من أمر مكة والمدينة • كما يكشف أن سياسته لهذه البلاد كانت ترمى الى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة واقرار الأمن والدعة فى المعيشة (٢) •

وهكذا ارتفع شأن مصر فى عهد الاخشيد ، وتوطد فيها الأمن وسادها الرخاء نتيجة لسياسة الاصلاح التى انتهجها ، حتى ان المؤرخين

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٢) صبح الأعشى : ج ٧ ، ص ١٠ — ١٨ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٣٥٠ ، ٤٩٦ — ٤٦٧ .

يتحدثون عن الثروة الطائلة التى تركها الاخشيد (١) .

وحين مات الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ كان ولداه صغيرين ، فتولى الوصاية عليهما مربيهما كافور الاخشيد الذى أصبح صاحب السلطان المطلق فى ادارة الدولة الاخشيدية (٢) ، وقد استطاع كافور أن يحافظ على الدولة وأن يدافع عنها طوال مدة وصايته من سنة ٣٣٤ الى ٣٥٥ هـ ، حتى اذا ما مات ابنا الاخشيد أنوجور ثم أبو الحسن على أعلن كافور نفسه واليا من قبل الخليفة (٣) . ولكن الحملات المغربية توالت على مصر ، وكان الدعاة الشيعة قد نجحوا فى الدعوة الفاطمية ، حتى ان كافور نفسه تلقاهم بالقبول . ووعد كثيرا من رجال بلاطه وكبار الموظفين بالدولة بتقديم الولاء للفاطميين ، ثم لم يلبث الفاطميون قليلا بعد موته حتى وجهوا حملة الى مصر التى كان الدعاة قد حرثوها من قبل ، ونجح جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى أن يستولى عليها دون كبير عناء فى سنة ٣٥٨ هـ .

وباستيلاء الفاطميين على مصر ثم تقدمهم للشام انشطر العالم الاسلامى شطرين : شطره الشرقى تحكمه الخلافة العباسية وقاعدته العراق ، وشطره الغربى تحكمه الخلافة الفاطمية وقاعدته القاهرة التى أنشأها الفاطميون بعد دخولهم مصر بقليل .

---

(١) المقريزى : الخطط : ج ١ ص ٩٩ .
(٢) ابن سعيد : المغرب ، ص ٤٥ . ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ : ص ٣ .
(٣) ابن سعيد : المغرب ، ص ٤٦ ، ٤٩ .

الدولة الحمدانية

قامت دولة الحمدانيين فى منطقة الموصل ثم فى حلب (٣١٧—٣٩٤هـ) لتسد فراغا كان موجودا بين قوة الخلافة فى بغداد أو فى الحقيقة قوة أمير الأمراء الذى يحكم باسم الخلافة فى بغداد ، وقوة الاخشيديين ثم الفاطميين الذين يحكمون فى مصر والشام ، فقد كان نفوذ بغداد فى أقل قوته فى هذه المنطقة ، كما كان نفوذ مصر فى أضعف حالاته كذلك فى هذه المنطقة . ولما كان لزاما أن توجد قوة فعالة فى هذه المنطقة الكبيرة الأهمية لمواجهتها للجبهة البيزنطية ، فان قيام الحمدانيين كان ضرورة لسد هذا الفراغ بين هاتين القوتين الاسلاميتين اللتين بدا واضحا عدم فعالية المشاركة بينهما فى الدفاع عن هذا الثغر الهام . فكان ظهور الحمدانيين لذلك نابعا من طبيعة هذه المنطقة الثغرية ، وحاجتها الى الدفاع الناجح فى وقت انتعشت فيه الامبراطورية البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية ، ونشطت لمهاجمة العالم الاسلامى واسترداد بلاد الشام ، أو على الأقل تدمير القوة الاسلامية فى الثغور والحد من نشاطها . وقد تصدت الدولة الحمدانية لهذا النشاط الرومى ، ومن هنا تبرز أهمية الحمدانيين والدور الذى أدوه فى خدمة العالم الاسلامى .

وقد كان ظهور الحمدانيين من ناحية أخرى يمثل انتعاش العنصر العربى الذى انزوى بعد تقدم العناصر التركية فى العراق ، وبعد أن أسقط المعتصم العرب من الديوان ، ثم تتبع ابنه الواثق حركاتهم بالضرب والقمع فى مناطق التركيز العربى ، فى الجزيرة العربية وفى الشام ومصر . ثم أدى وقوع الخلافة تحت نفوذ الأتراك ثم ذلك الصراع الذى شهدناه بين الخلفاء وبين المتسلطين من قواد الأتراك الى محاولة الخلفاء انعاش هذا العنصر العربى مرة أخرى .

وقد ظهر الحمدانيون فى عهد الخليفة المعتضد ثائرين على الدولة العباسية ثم عفا عنهم وأحسن اليهم بعد أن انتصر الحسين بن حمدان على

هارون الشارى وجاء به الى المعتضد أسيرا (١) • ومن ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين ، وقد استفادت الخلافة من قيام بنى حمدان كقوة عربية فى هذه المنطقة للقضاء على المناوئين لها ، فقد اشتهر الحسين ابن حمدان فى حروبه مع القرامطة • كما تدخل فى شئون الخلافة فى بغداد وكان الحسين من القواد والرؤساء الذين حاولوا الوقوف فى وجه الأتراك والحد من سيطرتهم على الخلفاء ، وأرادوا اسناد الخلافة لابن المعتز لثقافته وقدرته على تحمل أعباء الخلافة ، ولكن الأتراك نجحوا عليهم فأسندوا الخلافة للمقتدر وقد كان طفلا • ومع غضب المقتدر على الحسين بن حمدان ، فان سياسة الخلفاء كانت تتجه الى احياء هذه القوة العربية ، لذلك قلد المقتدر رجال الحمدانيين على الموصل وديار ربيعة ، فقلد أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل وما يليها فى سنة ٢٩٢ هـ ، وولى أخاه ابراهيم ديار ربيعة فى سنة ٣٠٧ هـ ، كما ولى أخاه سعيدا نهاوند سنة ٣١٢ هـ ، وقلد غيرهم من بنى حمدان بعض مناصب الدولة • غير أن الذين اشتهروا من بنى حمدان ، وقاموا بدور هام سواء فى شئون الخلافة أو فى ميدان الجهاد ضد الروم ، هم أبناء عبد الله بن حمدان الذين اشتهر منهم : أبو محمد الحسن بن عبد الله الذى لقب « ناصر الدولة » ، وأخوه أبو المحاسن على بن عبد الله الذى لقب « سيف الدولة » • وقد انشعبت الدولة الحمدانية الى شعبتين : ، امارة الموصل وعليها الحسن بن عبد الله ناصر الدولة وامارة حلب وعليها على بن عبد الله سيف الدولة •

ولا يعنينا من دراسة الدولة الحمدانية الا نواح ثلاثة : علاقتها بالخلافة العباسية • ثم علاقتها بحكومة مصر والشام ، ثم جهادها فى الثغر الرومى •

١ — فأما علاقتها بالخلافة العباسية ، فقد رأينا كيف بدأت بالثورة على العباسيين ، ثم كيف صارت بعد ذلك الى مساعدة الخلافة • وكان

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٧ — ٧٠ •

أهم ما قام به الحمدانيون لصالح الخلافة هو الوقوف فى وجه المتسلطين عليها من أمراء الأمراء . وقد كان العراق فى الحقيقة يمثل الجبهة الخلفية للحمدانيين فى مواجهتهم للروم، ولذلك كان يهمهم أن يبقى العراق قويا ، وأن تستقر أموره ، كما كان الحمدانيون يمثلون القوة التى تلجأ اليها الخلافة العباسية اذا ضاقت بها الأحوال فى العراق ، وقد لجأ الخليفة المتقى الى الحمدانيين فارا من قوات البريدى التى زحفت على العراق والتى عجز أمير الأمراء ابن رائق عن الصمود لها ، فناصر الحمدانيون الخلافة ، وأعادوا الخليفة الى حاضرته بعد أن قتلوا ابن رائق وطردوا البريديين ، وتولى الحسن بن عبد الله امرة الأمراء فى بغداد ، وحاول اصلاح الأحوال فيها . كما تولى أخوه على بن عبد الله قتال البريديين : ولذلك رضى الخليفة عن الرجلين ولقب الأول « ناصر الدولة » كما لقب الثانى « سيف الدولة » (١) وهذان اللقبان لهما دلالتهما ، فانهما يدلان على اعتراف الخلافة بالدور العظيم الذى قام به الحمدانيون فى خدمة الدولة العباسية ، فالحسن بن عبد الله هو الذى نصر الدولة على المتسلطين عليها ، كما أن أخاه على هو الذى قاتل عنها فى العراق ، ثم هو الذى تولى القتال عنها طوال حياته فى الجبهة الثغرية . وقد درجت الخلافة العباسية بعد ذلك على اطلاق مثل هذه الألقاب على من يؤدون خدمات لها وللعالم الاسلامى ، فنراهم يلقبون محمود الغزنوى « يمين الدولة » حين كان يقوم بالمهمة الثغرية فى طرف المشرق الأيمن فى ثغر الهند . كما أطلقت مثل هذه الألقاب على بنى بويه حين تطلعت اليهم لتخليصها من عبث أمراء الأمراء فى بغداد ، فلقبت على بن بويه بلقب « عماد الدولة » ولقبت أخاه الحسن بلقب « ركن الدولة » ولقبت أخاهما أحمد بن بويه بلقب « معز الدولة » (٢) .

لكن بنى حمدان لم يستقروا فى بغداد كثيرا ، اذ كانت أمور العراق مضطربة أشد الاضطراب وكان بنو حمدان يفضلون عدم التورط

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٥ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٦١ . حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٠٤ .

فى مشاكل الخلافة التى يحسون بعجزهم عن حلها ، ويرغبون فى التفرغ لمهمتهم الثغرية التى يحسون بأن بقاءهم واكتسابهم عطف العالم الاسلامى انما هو فى احساتهم القيام بها . ومع ذلك فان علاقات الحمدانيين بدار الخلافة ظلت قائمة ، وكان أمير الأمراء فى بغداد يخشى دائما اتساع قوة الحمدانيين فى الموصل . ويعمل على الحد منها . وكان الحمدانيون يتقون مغاضبة دار الخلافة بالأموال يدفعونها لأمير الأمراء فى بغداد فى العصر البويهى (١) ، وان لم يتأخروا عن مصارعة البويهيين حينما أرادوا ازالتهم عن امارتهم . وقد ظلت الامارة الحمدانية فى الموصل تواجه هذا الضغط عليها من ناحية البويهيين حتى ضعف أمرها وخضعت للنفوذ البويهى .

٢ — أما علاقة الحمدانيين بمصر : فان الفرع الحمدانى الذى اتصلت علاقته بمصر هو امارة حلب التى كان عليها سيف الدولة . وقد أراد سيف الدولة أن يوسع ملكه فى الشام ليستطيع أن يقوى جبهته أمام الروم ، فامتد بنفوذه الى دمشق الأمر الذى أدى الى صدامه مع الأخشيد . وقد قامت الحرب بين الأخشيد وسيف الدولة ، وعلى الرغم من انتصار الاخشيد ، فانه صالح سيف الدولة وترك له حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، كما تعهد أن يدفع له جزية سنوية على الا يتعرض لدمشق (٢) . وحين مات الأخشيد عاد سيف الدولة الى طموحه فى ضم الشام اليه ، ولكن « كافور » هزمه بالقرب من مرج عذراء بجوار دمشق ، وتم الصلح بين الطرفين على شروط الصلح الأول مع الأخشيد ما عدا دفع الجزية (٣) . وكان الأخشيديون فى سياستهم مع سيف الدولة أكثر حكمة وتقديرا لمصلحة العالم الاسلامى من البويهيين ، فان الاخشيديين قدروا الدور الذى يقوم به الحمدانيون فى حماية الثغور فلم يرغبوا فى ازالة هذه الامارة التى تقوم بدورها الجهادى

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٨٣ — ١٨٩ .
(٢) نفس المصدر : ج ٨ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٣) ابن الاثير : ج ٨ ص ١٦٤ .

أمام هجمات البيزنطيين التى أخذت تشتد على العالم الاسلامى فى هذه الناحية • أما سياسة البويهيين فقد كانت أنانية قاصرة ، والحقيقة أن قضاء البويهيين على القوة الحمدانية ثم عدم قيامهم بعدهم بالجهـاد فى الثغر الرومى بصـورة مرضـية قال من قيمتهم فى العالم الاسـلامى ، كما قصر عمر دولتهم التى لم تكن سوى دولة داخلية وان حكمت باسـم الخلافة نفسها •

وبعد سيف الدولة تفككت الأسرة الحمدانية ووقعت فى صراعات داخلية أدت بها الى الانحراف عن مهمتها الثغرية فى قتال الروم ، بل ان بعض أفرادها استعان بالروم أنفسهم على البعض الآخر • الأمر الذى جعل بقاء هذه الامارة ضارا بمصلحة العالم الاسلامى ، فسقطت تحت الضغط الفاطمى المتزايد فى مصر (١) •

٣ ـ أما جهاد الحمدانيين ضـد الروم ، فهو الدور البراق الذى أظهر الحمدانيين فى العالم الاسـلامى كقوة لهـا فعاليتها واحترامها ، والواقع أن الدولة الحمدانية اذا جردناها من هذا الدور الذى قامت به فى الثغور لم تكن ذات قيمة محسوسة فى حياة العالم الاسلامى الداخلية • وقد كانت الظروف مواتيـة لظهور الحمدانيين هـذا الظهـور البراق ولاحتلالهم مكانة كبيرة فى نفس العالم الاسـلامى ، واستحقاقهم لهذا الثنـاء العظيم الذى كاله الشـعراء لهم وخـلدوا به ذكرهم من أمثال أبى الطيب المتنبى وأبى فراس • وكان سيف الدولة هو علمهم المفرد فى هـذا الجهاد ، وصفه الثعالبى فى يتيمة الدهر (ج ١ ص ١١ ـ ١٢) فقال « •• وكان غرة الزمان وعماد الاسـلام ، ومن به سـداد الثغور وسداد الأمور ، وكانت وقائعه فى عصـاة العرب تكف بأسها وتنزع لباسـها ، وتفل أنيابها وتذلل صـعابها ، وتكفى الرعية سوء آدابها • وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار ، وتحسم شرهم المثار • وتحسن

(١) ابن القـلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ ـ ٣٩ .

فى الاسلام الآثار » (١) .

فلقد كانت الدولة العباسية مشغولة بأحداثها الداخلية التى شهدتها فى عصر نفوذ الأتراك ثم فى عهد أمراء الأمراء ، كما كانت مصر طرفا بعيدا ، ولم يتح للطولونيين ثم الأخشيديين من بعدهم الفرصة كاملة للدفاع القوى الناجح ، نتيجة للخلافات التى قامت بين دار الخلافة وبين أحمد بن طولون ، ونتيجة للضغط الفاطمى على الدولة الأخشيدية من ناحية المغرب ، وان كان الطولونيون والاخشيديون بذلوا جهودا مشكورة للدفاع عن الثغور الشامية والجزرية .

وفى هذا الوقت الذى كانت فيه الجبهة الاسلامية مضعضعة . كانت الجبهة الرومية تستعد لانتهاز هذه الفرصة التى لم يكن لها نظير من قبل فى صراعها مع العالم الاسلامى ، وكانت تكمل استعدادها لتثأر من أعدائها القدماء ، وتزحزح الحدود الاسلامية الى ما وراء الخط الممتد بحذاء جبال طوروس بعد أن ظلت ثابتة هناك زمنا طويلا .

وتولى قيادة الهجوم البيزنطى على الأملاك الاسلامية القائد الرومى المجرب نقفور فوكاس ، وبدأ الهجوم البيزنطى بحريا على جزيرة كريت التى لم تلبث أمام القوة البيزنطية الكبيرة أن سقطت ، ثم تلاحقت هجماتهم البرية القوية على الحدود الاسلامية .

تصدى سيف الدولة الحمدانى لتحركات الروم البرية واشتبك معهم فى معارك كثيرة ولم يلتزم معهم فى أول الأمر خطة الدفاع وانما التزم جانب الهجوم ، ويقال انه غزا بلادهم أربعين غزوة انتصر فى بعضها وهزم فى البعض الآخر ، وقد أوغل فى آسيا الصغرى حتى وصل الى مدينة صارخة على مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية واستولى عليها وأقام المنابر وخطب له فيها (٢) . ولكنه ما لبث أن تعرض لهجمات رومية قوية

---

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ١٢٢ .
(٢) النجوم الزاهرة : ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

ألزمته خطة الدفاع ، وبلغت قوة الروم طرسوس وخربوا حصن الهارونية الذى بناه هارون الرشيد ، ثم هاجموا ديار بكر ووصلوا الى ميافارقين وعاثوا فى بلاد الحمدانيين والعباسيين ، وما زالوا حتى حاصروا مدينة حلب نفسها قاعدة سيف الدولة ، ولم ينجها الا تجمع جيش اسلامى قوى من سورية والجزيرة اضطر الروم الى التقهقر عنها بعد أن دخلوا المدينة وغنموا منها وسبوا (١) . وما زالت الحملات البيزنطية تتوالى على منطقة الثغور الاسلامية حتى سقطت قلاع الحدود القيليقية الكبرى وهى أضنة والمصيصة وطرسوس ، ثم تلا ذلك حملات استولت على معظم شمال سورية وحمص واللاذقية ، ثم سقطت حلب نفسها ، ولم تقاوم سوى أنطاكية ، أما دمشق فقد ألزمت بدفع الجزية . وكذلك اكتسحت الجيوش البيزنطية الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين ، ولم يقف فى سبيلهم شىء الا صحراء العراق ، كما استولوا على مدن الساحل الشامى مثل بيروت وصيدا وجبيل ولم تقاومهم سوى طرابلس .

وهكذا تعرضت الامارة الحمدانية لأقوى هجوم شنه الروم منذ الفتوح الاسلامية ، ومن غير شك كان تصدى الحمدانيين لهذه الموجة العاتية ذا أثر كبير فى اضعاف حدتها ، وتكسرها على صخور قوات سيف الدولة الحمدانى ، ولو لم تتح للعالم الاسلامى المتفكك هذه القوة الحمدانية فلربما استطاع الروم احتلال الشام كله (٢) ، ومع أن القوة الحمدانية هزمت آخر الأمر ، فانها من غير شك أدت دورها على قدر قوتها المحدودة وأتاحت فرصة للقوى الأخرى لتجمع شتاتها . وعوقت التقدم البيزنطى وقتا ليس بالقصير حتى انشغلت الامبراطورية بمشاكلها الداخلية وبهجوم السلاف عليها من الغرب .

---

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٠ .

(٢) انظر : أومان : ص ١٧٨ — ١٨٣ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٨ .

وهكذا كان قيام الدولة الحمـدانية ضرورة من ضرورات العـالم الاسلامى وجاء قيامها فى وقت كان العالم الاسلامى أحوج ما يكون فيه الى قوة فتية تدافع عن حدوده فى هذا الثغر الخطير • ومع ذلك لم تسقط الدولة الحمدانية الا نتيجة للضغط عليها من العراق ومن مصر فى الوقت الذى كانت تقوم فيه بهذا الدور الحيوى •

الفصل الثاني

الحـــركات الاستقلاليـــة فى المشرق

اذا كان المغرب الاسلامى بيئة معارضة للخلافة العباســية ، فان المشرق كان البيئة الصالحة التى ارتكزت عليها الدولة العباسية واستمدت منها قوتها ، فهو المجال الذى توجهت اليه الدعوة العباسية فى فتــرة التحضير للثورة ، وكانت جماهير المشرق الاسلامى هى التى التفت حول الدعوة للرضا من آل محمد وآزرتها . والدعوة العباسية حين اتجهت الى المشرق انما كانت تتجه الى بيئة شيعية حرثها العلويون من قبل . وكان العراق مركز الشيعة منذ كانت الكوفة عاصمة للخلافة فى عهد أمــير المؤمنين على بن أبى طالب . وقــد اتســم الصراع الذى قام بين على ومعاوية بمظهر الصراع الاقليمى بين العراق والشام ، واشتعلت بعد مقتل الحسين بن على . ومنذ ذلك الوقت ظل العراق ومن ورائه المشرق بيئة غير طيعة فى أيدى بنى أميــة ، بل كان مصدر قلق دائم للخلافة الأموية ، الأمر الذى جعل الدولة الأموية تقوى قبضــتها على المنطقــة الشرقية ، وتوكل أمرها الى أقدر قوادها وأشدهم بأسا وأكثرهم عنفا ، من أمثــال زياد وابنه عبد الله والحجاج بن يوسف . وقــد ازداد النشاط الشيعى فى المشرق كنتيجة لانضــمام الموالى الفرس للحــزب الشيعى ، تنفيسا عن القومية الفارســية التى بدأت تنيقظ ، وتريد أن تثبت وجودها فى المجال الاسلامى . وقــد أدت سياسة الضغط التى انتهجها بنو أمية على الموالى الى كرههم للدولة الأموية ، والى انضمامهم لأحزاب المعارضة والتى كان الحزب الشيعى أقربها الى تحقيق أهدافهم . وكان انضمام هؤلاء الموالى ذوى الملكات الممتازة إلى حزب الشيعة من أكبر الوسائل فى انجاح هذا الحزب ، ثم كانوا هم الذين حملوا عبء الدعوة العباسية وكانوا جندها حين أعلنت الثورة ، وبقوتهم انتصرت على الدولة الأموية .

وقد وصل الفرس فى الدولة العباسية الى المكانة التى كانوا يسعون اليها . فالمشرق اذن كان سند الدولة العباسية . ومن ثم ظل يعطى الخلافة العباسية ولاءه ، ويمدها بالذخيرة الحية لتثبت سلطانها وقمع كل الحركات المعادية لها طوال عصر قوتها . وفى العصر الذى تغلبت فيه اللامركزية فى شئون الحكم ، نجد المشرق يختلف تماما عن المغرب . فبينما كانت المغرب تتجه الى الاستقلال التام عن الخلافة العباسية ، وتستجيب فى تطلعها القومى الى أحزاب المعارضة الساعية الى الانفصال التام عن الدولة العباسية ومناوأتها ، كانت أقاليم المشرق الاسلامى فى اتجاهها القومى نحو الاستقلال تحرص على البقاء متصلة بالخلافة ، معترفة بسلطانها ، عاملة في مجال التعاون معها ، بل حرصت على أن يكون قيامها بتأييد من الخلافة العباسية نفسها . ولم تكن دولة من هذه الدول التى نشأت فى المشرق ترى سلطانها شرعيا الا اذا اعترف به الخليفة العباسى ، وحتى الأمراء الذين أقاموا لهم ملكا بقوتهم حرصوا أشد الحرص على أن تصدر لهم الخلافة براءة التقليد ولم يسعوا قط فى اقامة ملكهم بعيدا عن سلطان الخلافة الأسمى على الأقل . وأمام هذا الولاء العميق للخلافة العباسية ظلت الخلافة قائمة على الرغم من فترات الضعف الشديدة التى مرت بها ، ووقوعها تحت أيدى المستبدين بها من الأتراك والديلم والسلاجقة . وكان من الممكن أن تسقط الخلافة العاجزة وينقسم المشرق بين دول مستقلة منفصلة ، لولا هذا الاحترام الذى كان يكنه المشرق الاسلامى للخلافة ، وكان خلفاء بنى العباس فى عصر ضعف الخلافة يقفون مجردين الا من مركزهم السامى ، وهو المركز الذى أبقى الخلافة العباسية قائمة هذه المدة الطويلة ، ولم تسقط الا على يد مهاجم بربرى لا يدين بالاسلام وهم المغول .

وقد توزع المشرق الاسلامى فى حركته الاستقلالية بين نوعين من الدول : دول قامت لتسد حاجة ثغرية على طرف من أطراف المشرق الاسلامى ، فهى الى جانب الاستجابة للدافع القومى تستجيب أيضا للضرورة الثغرية . ودول لم تكن استجابتها الا للدافع الاقليمى ولنزعات

الطموح من جانب الراغبين فى الحكم ،وهذه الدول كانت داخلية ولم يكن لها فاعلية فى خدمة العالم الاسلامى الا بقدر حسن ادارتها للمنطقة التى قامت فيها ، ومن ثم قلت أهميتها وقصرت مدة بقائها .

ونشير فى حديثنا عن المشرق الاسلامى الى لفظ يرد كثيرا فى كتب المؤرخين ، وهو لفظ «المتغلبون» أو حكام الأطراف . ومنشأ هذا اللفظ أن كل أمير أو صاحب جند أو قائد يتغلب على ناحية من النواحى يطلقون عليه اسم « المتغلب » أو « صاحب طرف » والفرس يطلقون عليه اسم « طرفدار » . وولاة النواحى يحكمون : اما عن طريق التغلب ويطلبون من الخليفة تقليدا بمعنى مرسوم يصدر من الخليفة بتولية المتغلب على الناحية التى تغلب عليها . والخليفة هنا يقر الأمر الواقع . ولم تكن الخلافة فى العادة تؤخر التقليد الا اذا كانت قادرة على ارسال الجيوش لاسترداد ما تغلب عليه المتغلب ، أما اذا شغلت بشىء أو عجزت فهى تصدر التقليد . وأما أن الخليفة يختار بنفسه رجلا من وجوه قواده الموثوق بهم أو المشهود لهم بالكفاءة، فيوليه ناحية من النواحى ويصدر اليه تقليدا ، فيكون « طرفدار » بالتفويض . فولاية النواحى نوعان : ولاية بالتغلب بمعنى الاستيلاء ، وولاية بالتفويض .

ولفظ التغلب بمعنى الاستيلاء ، ولفظ التفويض ، من الألفاظ الاصطلاحية التى استعملها فقهاء ذلك الزمان ، ونراها فى كتاب«الأحكام السلطانية» للماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ (١) . فالخلافة قد فقدت كل سلطان على أقاليم الدولة الشرقية الا عن طريق المفوضين أو عن طريق المتغلبين . ولم يكن هذا الموقف بدعا فى تاريخ الخلافة ، وانما كان قاعدة من قواعد المرونة السياسية ، بحيث كان فقهاء ذلك الزمن يقسمون الولايات الاسلامية الى قسمين : قسم نشأت فيه الولاية باختيار الخليفة ، وفى الغالب كان يحدث ذلك فى أقاليم الثغور المواجهة

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية (طبعة الحلبى ١٩٦٠م) . ص ٣٠ — ٣٤ .

لأرض العدو لتنمية موارد الثغر وتقويته على وظيفته فى دفع العــدو ، أو مد نفوذ العالم الاسلامى • وقسم نشــأت فيه الولاية على كره من الخليفة ، وهو اذ يقر المتغلب ، انما يستجيب للأمر الواقع ، ويستجيب أيضا للمصلحة العامة التى تقضى باجتماع الكلمــة على الألفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم ، وحتى يكون تقليد هذا المتغلب استدعاء لطاعته وحسما لمخالفته ومعاندته ، وفى الغالب ما كان يحدث التغلب فى مناطق المشرق الداخلية ، فالخلافة قد فقدت كل سلطان على اقليم فارس ، وأصبحت عاجزة عن القيام بأى شىء فيه الا عن طــريق المتغلبين عليــه •

وقد بدأ الشــعور القــومى فى المشرق مبكرا ، ولكن الحــركة الاستقلالية فيه بدأت تظهر متأخرة عن ظهورها فى المغرب الاسلامى ، وذلك لأن المغرب كما أوضحنا من قبل بدأ بيئة معارضة منذ قيام الدولة العباسية • أما المشرق فانه أرضى نزعته القومية بانتصاره للدعوة العباسية واقامة الخلافة العباسية ، فقد كان احساس المشارقة بأن الدولة لهم — فهم وزراؤها ومنهم جل قوادها وجندها — مانعا عن القيام بحــركات استقلالية عنها حتى ولو كانت هذه الحركات تحت ظلها • ثم بدأ المشرق يتخذ الحركة الاستقلالية فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، ثم برزت هذه الحركة فى العصر العباسى • وكان المشرق فى أول حركته الاستقلالية يخضع لحكم واحد ، تحت سلطان دولة أنشأتها الخلافة العباسية بارادتها هى الدولة الطــاهرية التى حكمت المشرق كلــه ، ثم بدأت الحــركة الاستقلالية تتشعب الى شعب ثلاث بحسب الظروف الثغرية والاقليمية ، هذا عدا ظهور حركة المتغلبين فى الأقاليم الداخلية فى بلاد ايران •

ونحن فى استعراضنا للحركات الاستقلالية فى المشرق نتتبع التقسيم الاقليمى ولسير فيه بحسب سير الحوادث زمنيا •

الدول المستقلة فى إيران

بدأت ايران تتطور تطورا اسلاميا بعد فتحها مباشرة ، اذ بدأت الصبغة الاسلامية والثقافة الاسلامية تنتشر فيها منذ اتمام حركة الفتح العربى ، وقد اشتدت الحركة الاسلامية فيها بدخول الموالى فى الاسلام ، ثم أخذت شخصيتها الاسلامية فى الظهور معبرة عن نفسها بانضمامها الى حركات المعارضه التى قامت فى وجه الحكم الأموى ، وقد شهدنا كيف انضم الموالى من الفرس الى حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، ثم فى جيوش مصعب بن الزبير ، ثم فى ثورة محمد بن الأشعث . ولكن بداية ظهور القومية الايرانية ظهورا واضحا كانت فى سنة ١٣٢هـ ، لأن الايرانيين كانوا من وراء الحركات التى أدت الى نجاح العباسيين . وشهد العصر العباسى الأول نفوذ الموالى فى مجالات الدولة المختلفة . ولكن الوطن الايرانى بدأ يعبر عن نفسه تعبيرا قوميا بظهور الامارات المستقلة ، وهى تختلف الى حد ما عن الحركات التى ظهرت فى الأقاليم الأخرى . ووجه الاختلاف أن أقسام ايران الجغرافية ظهرت فى كل قسم منها حركة استقلالية منفصلة ، أى أن التعبير القومى لايران لم يكن شاملا . انما يمكن أن نسميه تعبيرا متجزئا للقومية الايرانية .

(١) الدولة الطاهرية

(٢٠٥ — ٢٥٩هـ / ٨٢٠ — ٨٧٢م)

أسس هذه الدولة طاهر بن الحسين أحد قواد المأمون الثقاة ، وقد ولاه المأمون خراسان سنة ٢٠٥ هـ وأضاف اليه أعمال المشرق كلها من بغداد (١) ، فاتخذ نيسابور قاعدة له فى خراسان ، وقد بدت من طاهر منذ أول الأمر ميول نحو الحكم المستقل — ولكنه مات وشيكا سنة ٢٠٧ هـ . وعلى الرغم من معرفة المأمون بميول طاهر فانه أقر ابنه طلحة على ولاية خراسان ، فقابل الطاهريون ثقة المأمون بالاخلاص من جانبهم ، فلم يفكروا بعد ذلك فى الاستقلال عن الخلافة العباسية ، بل حرصوا على التعاون معها والاعتراف بسلطانها . وكان عبد الله بن طاهر مثلا فى هذا الاخلاص . فقد ولاه المأمون فى حياة أبيه مصر وكانت تغلى بالفتن ، فقضى على الخارجين بها وأصلح أحوالها ، وأقام واليا عليها وعلى الشام والجزيرة « فأصلح الدنيا ، وأمن البرىء وأخاف السقيم واستوسقت له الرعية بالطاعة » (٢) . ولما كان للعلويين نشاط كبير بمصر وكان بنو طاهر يميلون الى ولد على بن أبى طالب ، فقد أراد المأمون اختبار اخلاص عبد الله بن طاهر ، فدس له من يسبر غور نفسه بأن يدعوه الى أحد العلويين بمصر ، وكان رد ابن طاهر مثلا فى الاعتراف بالجميل . قال « فتجىء الى وأنا فى هذه الحال : لى خاتم فى المشرق جائز ، وخاتم فى المغرب جائز ، وفيما بينهما أمرى مطاع ، ثم ما التفت عن يمينى ولا شمالى وورائى وأمامى الا رأيت نعمة لرجل أنعمها على ، ومنة ختم بها رقبتى ، ويدا لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرما ، تدعونى الى أن أكفر بهذه النعم وهذا الاحسان ، وتقول اغدر بمن كان أولا لهذا وآخرا ، واسع فى ازالة خيط عنقه وسفك دمه ، تراك لو دعوتنى الى الجنة عيانا من حيث أعلم ، أكان الله يحب على أن أغدر به

---

(١) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٤٦ — ١٤٧ .

وأكثر احسانه ومنته وآنكث بيعته !! » (١) . ومنذ ذلك الوقت لم تذهب الثقة بين العباسيين وبنى طاهر . وقد تتبع الطاهريون العلويين يقضون على حركاتهم فى كل مكان تصل أيديهم اليه ، فقد قضى عبد الله بن طاهر على الحركات العلوية فى خراسان بعد أن ولى عليها سنة ٢١٤ هـ (٢) . كما تصدى خلفاؤه للحسن بن زيد العلوى الذى ظهر فى طبرستان واجتمع اليه الديلم وأهل طبرستان فى سنة ٢٥٠ هـ ، مرة ينفردهم ومرة متعاونين مع قوات الخلافة (٣) .

وكذلك تعاون عبد الله بن طاهر مع الخلافة تعاونا صادقا فى قمع الخارجين عليها ، فقد خرج المازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان على المعتصم بتحريض من الافشين ، فاستطاع عبد الله بن طاهر كشف المؤامرة وأطلع المعتصم عليها ، وأرسل جيوشه الى قتال المازيار حتى قبض عليه وارسله الى سامرا (٤) . وتعاون بنو طاهر بعد ذلك مع الخلافة وشاركوا فى الأحداث التى كانت تجرى فى بغداد لصالح الخلافة (٥) .

وقد قدر العباسيون خدمات الطاهريين وقربوهم ، ومالوا الى جانبهم فى النزاع مع الصفاريين ، وأبقوا شرطة بغداد فى أيديهم حتى ٣١٠ هـ على الرغم من زوال ملكهم فى خراسان .

ومما لا شك فيه أن حكم الطاهريين للمشرق كان حكما صالحا . فقد اهتموا بأمر رعاياهم ، وأصلحوا الأحوال الاقتصادية للبلاد وأقروا الأمن فيها : كما تعهدوا عمالهم بالنظر والمراقبة فكانوا يضربون على يد كل من يعسف بالرعية منهم (٦) ، كما تعهدوا أهل العلم والمعرفة ، وأصبحت نيسابور فى عهدهم مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية .

---

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٧٧ .
(٢) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٦٢ .
(٣) ابن الأثير : ج ٧ ص ٤٥ ، ٥٧ — ٥٨ ، ٧١ .
(٤) الطبرى : ج ١٠ ص ٣٥٦ — ٣٦٢ . ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٨٢ — ١٨٨ .
(٥) ابن الأثير : ج ٧ ص ٥٨ ، ٥٩ .
(٦) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٨٩ .

وقد حافظوا على الثغر الشرقى ومدوا نفوذ العالم الاسلامى فى بلاد الترك ووطدوا سلطان المسلمين بالقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين كانوا قد دخلوا فى طاعة المسلمين . وحين بدت الدوله الطاهرية عاجزة عن القيام بدور فعال فى حكم الثغر الشرقى نتيجة لتعرضها لثورات العلويين ، ونتيجة لقيام الصفاريين سقطت فى سنة ٢٥٩ هـ .

(٢) الدولة الصفارية

(٢٥٤ ـ ٢٨٩هـ / ٨٦٧ ـ ٩٠٣م)

تمثل هذه الدولة امتداد الحركة الاستقلالية الى قسم من أقسام ايران الجغرافية وهو القسم الجنوبى . وتنسب الى يعقوب بن الليث الصفار ، وهو رجل مغامر انتهز فرصة ضعف الخلافة واضطراب الأحوال السياسية ، فغلب على أقاليم ايران الجنوبية وضم اليه فارس . وامتد الى خراسان وأسقط الدولة الطاهرية ، واعترفت به الخلافة أميرا مستقلا، ولكن طموحه امتد الى فتح بغداد ووضع الخلافة تحت نفوذه : فاصطدم بقوة الخلافة التى كانت قد بدأت حركة انتعاش فى عهد المعتمد وأخيه الموفق ، وكان ذلك من أكبر الأسباب فى قصر عمر هذه الدولة وسقوطها .

بدأ يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو حياتهما يشتغلان بصناعة الصفر ، ويعيشان من كسب عملهما ، ثم التحقا بفرق المتطوعة التى تكونت لقتال الخارجين على الدولة العباسية فى الأقاليم الشرقية وبخاصة فى اقليم سجستان ، ذلك أن مركز الخلافة قد تضعضع منذ سيطر الأتراك على شئون الخلافة ، فطمع كثير من الأمراء المحليين ومن الخارجين فى اقتطاع أملاكها ولاقت الدولة الطاهرية التى كانت تعتمد عليها الخلافة فى المشرق كثيرا من شرهم ، كما أدت ثورات هؤلاء الخارجين وعجز الخلافة عن قمعها الى تعرض حدود الدولة الشرقية والشمالية الى هجمات جيرانها من الترك والهنود والديلم . لذلك تكونت جماعة من المتطوعين للجهاد

صيانة للوحدة ودفعا لأذى المهاجمين(١) • وبهؤلاء المتطوعين التحق يعقوب وأخوه عمرو تحت قيادة صالح بن النضر الكنانى فى اقليم سجستان ، وقد كان يعقوب ذا مواهب عالية فما لبث أن ظهر أمره بين اخوانه من المتطوعة جنديا باسلا ، ذا تجربة وحنكة ، الى خلق عسكرى رفيع أساسه الخشونة والتواضع والمواساة •

وحين مات صالح بن النضر الكنانى خلفه على قيادة المتطوعة درهم ابن الحسين ، ولما لم يكن يملك مواهب القيادة ، فقد تطلع الجند الى شخصية قوية تستطيع مواصلة جهود صالح ، فوقع اختيارهم على يعقوب بن الليث (٢) • وقد برهن يعقوب منذ اللحظة الأولى فى القيادة على مقدرة وكفاءة ، فقد ضبط أمور الجند ووجههم الى أعمال ناجحة ، فحارب الخارجين على الدولة من الشراة وظفر بهم وخرب قراهم ، واشتدت شوكته فغلب على سجستان ، وأظهر التمسك بطاعة الخليفة وكاتبه ، وأظهر أنه يعمل بأمره وأنه أمره بقتال الشراة وملك سجستان ، فطهر الطرق وحفظها وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فأطاعه الجند وكثر أتباعه ، فتقدم الى منطقة خراسان واحتل مدينتى هراة وبوشنج بعد أن هزم جيش الطاهريين الذى تقدم لمنعه ، وعند ذلك هابه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف (٣) •

ولم يكتف الصفار بما وصل اليه ، وانما تقدم فاحتل كرمان سنة ٢٥٥ هـ وضمها الى سجستان (٤) وسار الى اقليم فارس فدخله واحتل عاصمته شيراز ، وليظهر أنه يعمل تحت طاعة الخلافة ، بادر بارسال هداياه الى الخليفة المعتز عنوانا على الطاعة(٥) ثم ليظهر بمظهر المدافع عن حدود الدولة ، ولى وجهه شطر اقليم بلخ وطخارستان

(١) محمد حلمى محمد ، ص ١١٦ •
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٢٢ ، ٦٥ •
(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣١٢ • ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٥ •
(٤) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٥٧ •
(٥) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ •

والسند فهزم من اعترضه هناك واحتل كابل ، وأوقع بالهنود والأتراك ، فأذعن له ملك المولتان ، وملك الرخج ، وملك الصبين وملك السند (١) ثم تقدم شمالا الى طبرستان فحارب الحسن بن زيد العلوى وهزمه بعد ان عجزت قوات الطاهريين عن القضاء عليه . وارسل للخليفه هداياه عنوانا على طاعته ، كما أرسل أصناما أخذها من كابل دليلا على جهاده فى سبيل الاسلام . وردت عليه الخلافة بان أرسلت اليه تقليدا بولاية بلخ وطخارستان الى مايلى ذلك من كرمان وسجستان والسند وغيرها (٢) .

الى هذا الحد كان الصفار يعمل تحت دائرة طاعة الخلافة،ويحرص على ارضائها ، ويسعى لتأييدها ، وقد إستجابت الخلافة فمنحته التقليد على ما ملك . لكن كثيرا مما وضع يده عليه كان تحت نفوذ الطاهريين الذين تعطف عليهم الخلافة ، وتعتمد عليهم لاخلاصهم فى خدمتها وطاعتهم لها . وكانت تحركات الصفار نحو هذه الجهات تهديدا خطيرا للطاهريين واضعافا لهم فى الوقت الذى كانوا يقاتلون فيه العلويين فى طبرستان ومنطقة قزوين . وقد أدت انتصارات الصفار من ناحية وانتصارات العلويين من ناحية أخرى الى اضمحلال آمر محمد بن طاهر والى خراسان وانتقاض كثير من الأعمال عليه ، فلم يبق فى يده الا بعض خراسان وأكثر ذلك مفتون منتقض بالمتغلبين فى نواحيها ، والشراة الذين يعيثون فيها فسادا ولا يمكنه دفعهم ، لتوزيع قواته وتحطيمها فى جبهة الصفار فى الجنوب وجبهة العلويين فى الشمال (٣) .

وأحس الصفار بقوته ، ووجد الفرصة مواتية ليضم المشرق كله تحت لوائه حين أدرك ضعف الطاهريين ، فتقدم الى نيسابور عاصمة خراسان ، وحين أدرك بعض أهلها أن محمدا بن طاهر غير قادر على دفعه

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١١٦ .
(٢) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٨٨ . الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٥٧ ، ٢٣٣ — ٢٣٤ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٦٦ .
(٣) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٨٨ .

عنها ، راسلوا الصفار واستدعوه فدخلها ، وأساء معاملة محمد بن طاهر وحبسه وأهل بيته ، وليبرر فعله أرسل الى الخلافة بشرح حال خراسان وأن الشراة والمخالفين قد غلبوا عليها ، وضعف محمد بن طاهر ، وأن أهل خراسان قد كاتبوه واستعانوا به فسار اليها فدفعوها اليها فدخلها(١) .

وأدركت الخلافة خطورة الصفار، فأرسل الموفق يقول له مع الرسل، « ان أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل ، وانه يأمره بالانصراف الى العمل الذى ولاه اياه ، وانه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره ، فليرجع . فانه ان فعل كان من الأولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين (٢) » لكن الصفار تحدى الخلافة معتمدا على قوة جيشه وطاعة جنده ، فتقدم نحو فارس واحتلها وثبت سلطانه بها ، ثم أظهر عزمه على السير الى العراق ، وتقدم الى الأهواز ، ورأت الخلافة أن ترضى الصفار ريثما تعد عدتها ، فأرسلت اليه تقليدا بولاية خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس ، وتعيينه أميرا على شرطة بغداد ، وبذلك حققت له جميع ما طلب (٣) . لكن يعقوب أصر على أن يجمع الخليفة الحجاج الذين أعلن عليهم عزل يعقوب وعصيانه ، لخروجه على الخلافة ، وأن يذيع فيهم كتابا آخر يعلن رضاه عن يعقوب فيبطل بهذا الكتاب الجديد الأثر السيىء الذى تركه الكتاب الأول ، ثم زاد على ذلك بأن طلب أن تضاف اليه شرطة سامرا الى شرطة بغداد . وقد رأت الخلافة أن تجيبه الى ذلك ففعلت (٤) .

تساهلت الخلافة هذا التساهل الكبير مع الصفار لأنها كانت واقعة بين قوتين ، ولم تشأ أن تواجههما فى وقت واحد ، وكانت تخشى اتفاقهما عليها ، هاتان القوتان هما قوة الصفار التى احتلت فارس وتقدمت الى

---

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٢ .
(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٢ .
(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٠٣ .
(٤) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٣١٦ .

الأهواز ، وقوة صاحب الزنج فى اقليم البصرة والتى كانت قد امتدت الى الأهواز أيضا ، ولما كان الموفق أخو الخليفة يستعد لقتال صاحب الزنج ، فانه ترضى الصفار ليكسب ولاءه وليبعده عن المعركة . وفى الوقت نفسه كانت الخلافة قد أقامت لها حكما مواليا فى المشرق وراء خراسان ، بأن جعلت من بلاد ما وراء النهر التي كانت خاضعة لولاة خراسان اقليما قائما بنفسه وعهدت بولايته الى نصر بن أحمد الساماني . وقد كان السامانيون يتولون أعمال بلاد هذا الاقليم من قبل بنى طاهر ولاة خراسان (١) . وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة موالية وراء الصفار تستخدمها عند اللزوم .

لكن الصفار غره تساهل الخلافة من ناحية ، وثقته فى ولاء جنده له من ناحية أخرى ، ففاته التوفيق فى الناحيتين . ذلك أنه لم يدرك تغير الأحوال فى مركز الخلافة التى كانت قد بدأت تسترد فعاليتها بتولية الموفق على قيادة الجيش وسيطرته عليه وضبطه لجنوده ، كما لم يدرك مرامى سياسة الموفق ، ولم يكن الصفار سياسيا بعيد النظر حين غاضب الخلافة ، وقد كان فى امكانه أن يستعين بقوات صاحب الزنج الذى طلب فعلا أن يساعده فرفض الصفار طلبه فى ازدراء (٢) . كذلك كان الصفار قصير النظر حين أفرط فى ثقته بجنده ، حقيقة كان الصفار محسنا الى رجاله مواسيا لهم ، ضابطا لأمورهم حتى أحبوه وأولوه اخلاصهم ، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا من المتطوعين الذين تجمعوا أصلا لنصرة الخلافة ، وانما انضموا تحت لواء الصفار غضبا للخلافة لا غضبا عليها ، فكان ولاء أكثرهم للخلافة أكثر من ولائهم للصفار . فلما رأوا الصفار يقاتل جيشا على رأسه الخليفة نفسه تخاذلوا عن الصفار ، بل هاجموه فى صفوف الخليفة .

لم يقنع الصفار بما ولاه الخليفة ، بل أراد أن يسير الى دار الخلافة

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٩٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٠٣ .

ليرغمها على الاذعان لقوته وليحتل منها مركز الأتراك من قبل ، لذلك لم ير الموفق بدا من الدخـــول معـــه فى معركة تكسر شوكته وتكبح جماحه . وخرج جيش الخليفة بقيادة الموفق . وخرج الخليفة المعتمـــد مع الجيش ليحدث وجوده التأثير الروحى على جند الصفار حين يرونه يقاتل صاحبهم .

وحين التقى الجيشان أحرز الصفار نصرا مبدئيا فى المعركة ، ولكن هذا النصر ما لبث أن تحول الى هزيمة ساحقة ، حين رأى جند الصفار الخليفة على رأس الجيش يحارب الصفار الذى كان فى أول أمره جنديا مع المتطوعة يحارب الخارجين على الخليفة . فانضموا للخليفة وحملوا على الصفار ومن ثبت معه للقتال . فانهزم يعقوب فى خاصة أصحابه تاركا فى الميدان غنائم كثيرة ، بلغت « الدواب والبغال فيهـــا أكثر من عشرة آلاف ، ومن الدنانير والدراهم ما يكل عن حمله ، ومن جرب المســك أمر عظيم (١) » وأصدرت الخلافة كتابا بلعن الصفار واعتباره خارجا على أمير المؤمنين ، منكرا للنعم ، ساعيا الى الفساد (٢) .

أعادت الخلافة محمد بن طاهر ، الذى تخلص فى المعركة من أسر الصفار ، الى منصبه رئيسا لشرطة بغداد ، وعاد يعقوب الى البلاد التى ملكها يحصنها ويقوى قبضته عليها ، ويستعد لمعركة أخرى ، فاستولى على الأهواز من صاحب الزنج (٣) ، وكانت الأهواز مفتاح الدخول الى العراق من ناحية فارس . ولمـا لم تكن الخلافة متفرغة لقتاله ، فقد سارت على سياسة الاستمالة كسبا للوقت ، فأرسلت الى يعقوب الصفار « رسولا يترضاه ويســتميله ويقلده أعمال فارس ، فوصـــل الرســـول ويعقوب مريض فجلس له ، وقد جعـــل عنده ســـيفا ورغيفا من الخبز الخشكار ومعه بصل ، وأحضر الرسول فأدى الرسالة . فقال له : قل

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٠٣ .
(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٨ .
(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٤٦ .

للخليفة انى عليل ، فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وان عوفيت فليس بينى وبينك الا السيف هذا ، حتى آخذ بسيفى ، أوتكسرنى وتفقرنى فأعود الى هذا الخبز والبصل . وعاد الرسول فلم يلبث يعقوب أن مات » (١) .

من هذا يتبين أن يعقوب بن الليث امتد طموحه الى الاستقلال التام عن الخلافة ، واعادة دولة الفرس بحد السيف . وكان هذا الطموح هو علة الدولة التى أقامها وسبب قصر أجلها . وعلى الرغم من أن أخاه عمرا الذى اختاره الجند خلفا له ، قد أدرك هذه الحقيقة وكان أبعد من أخيه نظرا وحسن سياسة ، فان الخلافة لم تنس للصفاريين طموحهم ، وكانت ترتقب الفرصة للقضاء عليهم .

كتب عمرو الى الخلافة بطاعته ، فأرسل اليه الموفق التقليد بولاية خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد وأرسل اليه الخلع . وبذلك تولى عمرو ما كان بيد أخيه ، وأناب عنه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى شرطة بغداد وسامرا ، وأرسل الى الموفق هدية عمودا من ذهب (٢) .

لكن الخلافة ما لبثت أن تخلصت من صاحب الزنج والقضاء على حركته ، وأصبحت حرة اليد ، تستطيع أن توجه اهتماما للصفاريين ، فأصدر الخليفة المعتمد قرارا بعزل عمرو بن الليث عن البلاد التى ولاه اياها ، وأعلن هذا الخلع على ملأ من الحجاج الذين حضروا الى بغداد من خراسان ، ولعنه بحضرتهم ، وأخبره أنه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر فلعن (٣) . ثم سير جيشا الى قتال عمرو بفارس ، فانتصر على جيوش الصفار (٤) . أما محمد بن طاهر فقد

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١١٦ .
(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٥٥ .
(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .
(٤) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٣١ .

بقى ببغداد واستخلف على خراسان رافع بن هرثمة ، وأبقى بلاد ما وراء النهر فى يد بنى سامان (١) .

ثم سار الموفق بنفسه لقتال عمرو بن الليث فى فارس ، واضطره الى التقهقر الى سجستان بعد أن ألحق بقواته الهزيمة (٢) .

وحين تولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩ هـ أرسل عمرو بن الليث هداياه الى الخليفة يعلن ولاءه ويسأله ولاية خراسان ، فأجابه الخليفة وبعث اليه التقليد . لكن رافعا ابن هرثمة رفض الاذعان وقاتل عمرا الذى قتله سنة ٣٨٣ ، وبعث برأسه الى الخليفة وطالب بولاية بلاد ما وراء النهر ، وكانت بيد اسماعيل بن أحمد السامانى .

وانتهز المعتضد الفرصة . فأراد أن يضرب عمرا بقوة السامانيين النامية فى بلاد ما وراء النهر . فأجابه الى طلبه . وهو يقدر المغامرة التى يتعرض لها عمرو ، وقد صدق تقدير الخليفة ، فان السامانيين ألحقوا بعمرو هزيمة حاسمة وأسروه وأرسلوا به الى الخليفة الذى سجنه حتى مات . وأخذت الخلافة ترسل جيوشها متوالية حتى استطاعت القضاء على بقية الصفاريين فى سنة ٢٩٨ هـ .

انتهت الدولة الصفارية بعد هذا العمر القصير الذى لم يتجاوز خمسا وثلاثين سنة ، على الرغم من قوة جيوشها وحسن تدريبها وتسليحها، وعلى الرغم من اتساع البلاد التى وقعت تحت يدها ، وامتلاء خزائنها بالأموال حتى قيل ان يعقوب بن الليث حين مات كان فى خزائنه خمسون ألف ألف درهم وثمانون ألف ألف دينار(٣) . وذلك لأن الصفاريين اتجهوا الى مجال داخلى ، واتجه طموحهم الى اقامة ملك لهم ، ولو أنهم واصلوا اتجاههم الأول الى المجال الخارجى وواصلوا جهودهم فى الثغر الذى

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٤٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٥٣ .
(٣) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٦٧ .

يليهم من ناحية الهند لاكتسبوا عطف الخلافة واحترام العالم الاسلامى ، ولكانت الخلافة قدرت لهم هذا فأعانتهم أو على الأقل لم تسع الى اسقاطهم ، ولكنهم اتجهوا الى الداخل ووسعوا ملكهم على حساب دولة كانت توالى الخلافة وتقوم بمهمة ثغرية كبيرة فى المشرق ، وزادوا بأن تحدوا الخلافة فى وقت كانت قد بدأت تنتعش فيه وتعمل على استرداد نفوذها على ولاياتها ، فتعرضوا بذلك لسخطها وسخط الموالين لها ، فلم يستطيعوا الاحتفاظ بملكهم وسقطوا وشيكا •

(٣) الدولة السامانية

(٢٦١ — ٣٨٩هـ / ٨٧٤ — ٩٩٩م)

قامت هذه الدولة فى منطقة ربما لا تدخل فى منطقة الثقافة أو الحضارة الايرانية ، وهى المنطقة التى تسمى « بلاد ما وراء النهر » ، ولكنها ما لبثت أن امتدت الى المنطقة الايرانية ، فبسطت سلطانها على بلاد خراسان كما ضمت طبرستان والرى والجبل وبلاد سجستان • واستجابت لنفس تيار الحركة الاستقلالية والقومية الايرانية ، وربما كان تعبيرها عن الحركة الايرانية القومية أكثر ظهورا ووضوحا مما رأيناه عند الدول الأخرى ، ومظهر ذلك أن السامانيين عملوا على احياء اللغة الفارسية الحديثة التى تجمع بين المؤثرات العربية والمؤثرات الفارسية ، وبدأت هذه اللغة فى عهدهم تصبح لغة الفكر والثقافة ، ترجمت اليها بعض الآثار العربية الاسلامية ، كما ظهر شعراء من الفرس (١) ، وكان ظهورهم مقدمة للشاعر الفارسى العظيم « الفردوسى » الذى يعبر تعبيرا صحيحا عن القومية الفارسية وعن الثقافة الايرانية الجديدة •

والسامانيون ينتسبون الى احدى أسر الفرس العريقة ، وهم ينسبون أنفسهم الى ملوك الفرس ، شأنهم فى ذلك شأن الأسر الفارسية

---

(١) ابن خلكان : ج ١ ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .
Browne. Lite. Hist. of Pertia. val. I, pp. 356, 369 - 399.

التى حكمت (١) . وقد ظهر أمر هذه الأسرة فى عهد الخليفة المأمون ونالت بخظوة عنده ، فولى أولاد أسد بن سامان بلاد ما وراء النهر ورفع من شأنهم : فولى نوح بن آسد سمرقند فى سنة ٢٠٤ هـ وأحمد بن أسد فرغانة ، ويحيى بن أسد الشاش وأشرو سنة . والياس بن أسد هراة . ولما ولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان اقرهم فى هذه الأعمال .

وظل السامانيون فى بلاد ما وراء النهر يتعاونون تعاونا صادقا مع الطاهريين ويحمون هذا الثغر الشرقى . كما شاركوا فى الصراع الذى قام بين الصفاريين والطاهريين . وكانوا يشدون أزر الطاهريين ، الأمر الذى جعل الطاهريين دائما يقرون السامانيين فى بلاد ما وراء النهر ، ولما ضعف آمر الدولة الطاهرية واستولى الصفاريون على اقليم خراسان، قدرت الخلافة للسامانيين اخلاصهم ، فجعلت بلاد ما وراء النهر اقليما منفصلا عن خراسان وأقرت عليه السامانيين (٢) . وظل السامانيون يعملون متعاونين مع الطاهريين من ناحية الغرب ، كما كانوا يسدون الثغر من ناحية الشرق ، ويمدون من نفوذ العالم الاسلامى فى جبهتهم ، فقد غزا اسماعيل بن أحمد السامانى بلاد الترك فى سنة ٢٨٠ هـ وأسر منهم نحو عشرة آلاف أسير (٣) . كما صد غاراتهم فى سنة ٢٩١ هـ .

كانت العلاقة بين السامانيين وبين الخلافة العباسية تقوم على المودة. والواقع أن السامانيين لم يتجهوا بأطماعهم الى البلاد الداخلية فى العالم الاسلامى ، وانما امتدوا بنشاطهم الى المجال الخارجى ، فهم يمدون نفوذ العالم الاسلامى فى الثغر التركى الى أواسط آسيا ، أما امتداد سلطانهم الى الداخل فلم يكن دافعه الطمع وانما كانوا فى الحقيقة يسدون فراغا حدث على أثر ضعف الطاهريين ، وكانت كل قوتهم مركزة فى التركستان

---

(١) نسب بنو بويه انفسهم الى ملوك الفرس الى بهرام جور الملك ابن يزدجرد . وهو نفس النسب الذى قيل عنه للسامانيين . (ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٩٩ ، ج ٨ ، ص ٩١) .

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٩٩ — ١٠٠

(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٦٦ .

شرقى نهر جيحون وفى أواسط آسيا ، واستطاعوا أن ينشروا الحضارة الاسلامية فى تلك البلاد الوثنية ، فدخل على أيديهم عـدد كبير فى الاسلام ، وأقاموا فى أيامهم بما وراء النهر مراكز ثقافية هامة كانت عاملا هاما فى صبغ الترك بالصبغة الاسلامية • وقد جعلوا من التركستان بيئة مؤثرة فى الترك فخفف من خطرهم على العالم الاسـلامى ، بل هيأتهم للقيام بدور فعال لصالح العالم الاسلامى فى الداخل والخارج •

كان السامانيون يدركون مهمتهم الثغرية ، ويفضلون ألا يدخلوا فى الصراع الداخلى مع الدول الاسـلامية الأخـرى ، ولكنهم كانوا يدخلون الحرب مع جيرانهم من المسلمين مضطرين،اما دفاعا عن أنفسهم أو دفاعا عن مصلحة الخلافه وحفظا لأملاكها • ويتبين هذا واضـحا من العـلاقات بين السـامانيين والصـفاريين ، وبينهم وبين العـلويين فى طبرسـتان •

فأما علاقتهم بالصفاريين ، فان عمر بن الليث الصفار بعد أن ولته الخلافة خراسان طمع فى بلاد ما وراء النهر وطلب من الخليفة ولايتها ، ولمـا أجابته الخلافة الى طلبه لم يشأ أن يترك السامانيين بها ، كما كان يفعل الطاهريون ، وانما سار اليها ليأخذها بالقوة من يد اسـماعيل بن أحمد السامانى ، فكتب اليه هذا يقول « انك وليت دنيا عريضة ، وانما فى يدى ما وراء النهر ، وأنا فى ثغر ، فأقنـع بما فى يدك واتركنى فى هـذا الثغر » (١) • ولكن عمر بن الليث رفض وسار بقواته فهزمه اسماعيل وأسره ، وأرسله الى دار الخلافة حيث حبس ثم قتل سنة ٢٨٩هـ وبهذا سقطت الدولة الصفارية ، وعهدت الخلافة الى اسماعيل بن أحمد السامانى بولاية ما كان فى يد الصـفار •

وأما علاقة السامانيين بالعلويين فى طبرستان فان محمد بن زيد العلوى طمع فىخراسان بعد أسر عمرو بنالليث الصفار ، فنهاه اسماعيل

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ •

وترك له جرجان على ألا يتقدم نحو خراسان ، ولما أبى الا العداء سار اليه اسماعيل وحاربه وقتله واستولى على طبرستان (١) . ثم ضم اليه الرى وقزوين ، وبذلك أعاد طبرستان الى أملاك الخلافة العباسية كما حمى هو حدوده من ناحية الغرب .

وكانت الخلافة العباسية تعتمد على السامانيين فى اقرار سلطانها فى بلاد المشرق ، وضرب المتغلبين الخارجين على طاعة الخلافة ، فسيروا جيوشهم لاقرار سلطان الخلافة عدة مرات بحسب طلبها ، فانتزعوا الرى من يد فاتك غلام يوسف بن أبى الساج الذى تغلب عليها ، كما سيروا جيشا الى كرمان ، انتزعوها من يد محمد بن الياس ، كما أعادوا الكرة على الرى وانتزعوها من يد وشمكير بن زيار ، ثم من يد ماكان ابن كالى الذى قتل ، وما زالوا يوالون انتصاراتهم على المتغلبين على البلاد فاستولوا على أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغوا حدود حلوان (٢) .

ظل السامانيون مخلصين للخلافة العباسية حتى كان العصر البويهى ، فطمع البويهيون فى التوسع فى البلاد التى فى أيدى السامانيين ، فاشتبك الطرفان فى حروب من سنة ٣٥٦ الى سنة ٣٦١ هـ وانتهت بصلح بين الأمير منصور بن نوح السامانى وبين ركن الدولة وابنه عضد الدولة ، على أن يحمل ركن الدولة وابنه الى منصور مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ثم تصاهر البيتان وتزوج ابن منصور بابنة عضد الدولة ، وبذلك استقر السلام بين الطرفين (٣) .

كانت الدولة السامانية قمينة أن تعمر طويلا ، لولا أن البيت السامانى تعرض للخلافات الداخلية بين أفراده ، مما أدى الى كثير من

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١٨٠ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٤٠ — ٤١ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٥

الفتن والثورات ، هذا فوق أنهم اعتمدوا في جيوشهم على الجنس التركي ، وهو جنس ثبتت خطورته على الدول المعاصرة له ، وقد تولى هؤلاء الأتراك مناصب عالية في الادارة وفي الجيش وأصبحوا خطيرا على الدولة . كما كان صغر الأمراء من بني سامان يعرض الدولة لتدخل النساء في شئون الحكم ، الأمر الذي يشجع القواد وأصحاب الأطراف على الاستئثار بالسلطة .

وقد تعرضت الدولة السامانية لضغط متزايد من كل الجهات ، فمن الشمال والغرب تعرضت لضغط الديلم والعلويين ، كما تعرضت للضغط البويهي ، ثم تعرضت من الشرق لضغط خانات الأتراك الذي دخلوا الاسلام على يد السامانيين ثم بدأوا يتطلعون الى الاستقلال والحلول محلهم ، كما أن محمود الغزنوي وهو حاكم المنطقة الجنوبية الغربية ، قد تطلع الى الحلول محل السامانيين بعد أن بدأت أمورهم تضطرب . وقد كان الغزنويون يحكمون هذه المنطقة باسم السامانيين ، ولكنهم حين أحسوا بضعف القوة السامانية طمعوا في الحلول محلها . وانتهى الأمر بأن سقطت الدولة السامانية لينقسم ملكها بين قوتين : قوة الغزنويين التي اتخذت من الثغر الهندي مجالا لنشاطها ، وقوة خانات الأتراك الذين تولوا أمر الثغر الشرقي في بلاد ما وراء النهر .

لقد أدى السامانيون دورهم في الحياة الاسلامية سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الحضارية ، كما أنهم استجابوا للنزعة القومية وللمصلحة الاقليمية .

فأما دورهم من الناحية السياسية ، فقد حفظوا الثغر الاسلامي الشرقي ومدوا النفوذ الاسلامي الى بلاد الترك البعيدة . وجعلوا من بيئة بلاد ما وراء النهر بيئة صقل وتهذيب للعنصر التركي الذي أسلم على يد السامانيين وبدأ يتحول الى عنصر مفيد بالنسبة للعالم الاسلامي ، وانبثق عن التأثير الساماني ذلك الدور الذي تهيأ للترك الغز في خدمة العالم الاسلامي في العصر السلجوقي . كما أنه انبثق عن النفوذ الساماني الدولة الغزنوية وهي دولة تركية اتخذت من الثغر الهندي مركزا لها وعملت باسم

السامانيين ، ثم حلت محلهم وقامت بدور كبير سنتحدث عنه حديثا خاصا . وأما دورهم من الناحية الحضارية ،فإن بلاط السامانيين فى بخارى كان مثابة العلماء وكعبة الأدباء « كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر (١) . وكانت مكتبة نوح بن نصر السامانى كما يقول ابن خلكان « عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد فى سواها ولا سمع باسمه فضلا عن معرفته » (٢) .

كما استجابت الدولة السامانية للنزعة الايرانية القومية ، فهم الذين أحيوا الثقافة الفارسية ، وفى عهدهم بدأت الكتابة باللغة الفارسية عن الأدب والشعر والتأليف الى جانب اللغة العربية ، وبدأ كثير من الكتب العربية يترجم الى الفارسية مثل كتاب الطبرى « تاريخ الأمم والملوك » . وقد بدأ الروح الفارسى يظهر فى الأدب من ذلك الوقت ، وحفل بلاط السامانيين بكثير من الشعراء الذى نظموا شعرهم بالعربية وبالفارسية ، واشتهر فى هذا العصر كثير من شعراء الفرس ، من أمثال عمر الخيام صاحب الرباعيات ، والرئيس ابن سينا أحد فلاسفة المسلمين وقد نظم كثيرا من القصائد بالفارسية (٣) .

كما أن خراسان وبلاد ماوراء النهر ازدهرت ازدهارا كبيرا ،وقد رحل المقدسى الى اقليم خراسان وماوراء النهر فى العهد السامانى ، فامتدح أهل خراسان وحبهم للخير وتمسكهم بالحق ، كما شكر السامانيين لحسن سيرتهم فى الحكم وعدلهم فى الرعية وتكريمهم لأهل العلم (٤) . وصارت مدن ما وراء النهر مراكز للتجارة والصناعة ، وعم هذه المنطقة الرخاء المادى ، كما أصبحت مركزا من مراكز الاشعاع الحضارى .

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٩٥ .
(٢) ابن خلكان : ج ١ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .
(٣) Browne. vol. I. pp. 356, 369, 399. حسن ابراهيم ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ .
(٤) احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

الهنـــــد

الدولة الغــزنوية

٣٥١ — ٥٨٢هـ / ٩٦٢ — ١١٨٦م

استطاع المسلمون أن يفتحوا شطرا من بلاد الهند ، وهــو اقليــم « البنجاب وحوض السند » فى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى والى المشرق فى خلافة عبد الملك بن مروان فى سنة ٧١٠ م . واستمر المــد الاسلامى يصبغ هذا الاقليم بالصبغة الاسلامية فى الدين والثقافة حتى سنة ٩٦٢ م وكان اكتساب اقليم السند الصبغة الاسلامية فى هذه الفترة مقدمة لظهور حركة قومية هندية تكتسب الشكل الاســلامى والطــابع الاسلامى . وهذه الحركة الاستقلالية التى تعبر عن تراث الهند وماضيها وقوميتها تتخذ صورة دولة مستقلة هى الدولة الغزنوية التى استمرت نحو قرنين وربع قرن من الزمان من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ .

ويرجع ظهور الدولة الغزنوية التى سميت بعاصمتها غزنة الى أحد المغامرين المســلمين المسمى « سبكتكين » فقد تولى منطقة غزنة من قبل السامانيين ، ثم مد سبكتكين سلطانه فى الشرق حيث ضم اليه اقليم خراسان الذى ولاه عليه نوح بن منصور السامانى فى سنة ٣٨٤ هـ ، مكافأة له على قمع الثوار فى بلاد ما وراء النهر (١) . لكن سبكتكين اتجه بأعماله نحــو الهند ولم يكن اتجاهه نحو البلاد التى كانت فى حوزة السامانيين الا تلبية لرغبته حين استعانوا به على قمع حركات الخارجين عليهم فى خراسان ، فقــد انضم بقواته الى نوح بن نصر السامانى فى قتال الخارجين عليه فى خراسان ، وفى قتاله البويهيين الذين رغبوا فى الاستيلاء على خراسان من أمــلاك السامانيين واستطاع سبكتكين وابنه محمود مع قوات السامانيين الانتصــار على هؤلاء الخارجين ، كما انتصروا على بنى بويه وأعادوا للسامانيين مدينة نيسابور . وبعودة نيسابور الى السامانيين ولى نوح السامانى محمود بن سبكتكين عليها

(١) Browns Vol. I. pp. 871 - 872.

كما ولاه على جيوش خراسان ، ولقبه « سيف الدولة » ولقب أباه سبكتكين « ناصر الدولة » (١) .

ومع أن سبكتكين كان من الناحية العملية مستقلا عن السامانيين وأكثر نفوذا منهم ، فانه كان يعترف لهم بالسيادة ويشن الحروب ويفتح البلاد باسمهم (٢) ، حتى « اتسعت رقعة ولايته ، وعظم حجم جريدته ، وعمرت أرض خزانته ، وأشفقت النفوس من هيبته » (٣) .

وقد ولى سبكتكين منذ أول الأمر وجهه شطر الأقاليم الهندية ، فاتجه الى المواقع الجبلية الواقعة فى بلاد الأفغان الآن ، واستولى على بعض المواقع فيها ، حيث مدينة كابل حاضرة بلاد الأفغان الحالية . وقد أفزعت أعمال سبكتكين أحد ملوك الهند المسمى « جيبال » الذى كانت مملكته تمتد فى شمال غربى الهند ، وقد رأى فى استيلاء سبكتكين على أطراف بلاده تهديدا خطيرا لمملكته ، فدخل مع سبكتكين فى حروب طاحنة ، لكن سبكتكين ألحق به الهزيمة فى سنة ٣٦٩ هـ وأجبره على طلب الصلح « على مال يؤديه ، وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه ، فاستقر ذلك ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد ، وسير معه سبكتكين من يتسلمها . فلما أبعد جيبال ملك الهند قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه . فلما سمع سبكتكين بذلك .. سار نحو الهند فأخرب كل مامر عليه من بلادهم ، وقصد « لمغان ، وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة ، وهد بيوت الأصنام وأقام فيها شعائر الاسلام .. ثم عاد الى غزنة وسار خلفه جيبال فى مائة ألف مقاتل ، فلقيه سبكتكين وألحق به هزيمة كبيرة وأسر منهم مالايعد وغنم أموالهم وأثقالهم . وذل الهنود بعد هذه الموقعة ، ولم يكن لهم بعد راية ، ورضوا

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٣٨ . العتبى : تاريخ اليمينى ، ج ١ ، ص ٥٠ — ٥١ ، ٥٤ .

(٢) Lane - Poole. Muhammadan Dynasties. p. 266.

(٣) العتبى : ج ١ ، ص ٦٣ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٨٦ .

بألا يطلبوا فى أقاصى بلادهم ، ولما قوى سبكتكين بعد هذه الموقعة أطاعه الأفغـــان والخلج (١) .

لكن هذه الدولة التى أقامها سبكتكين ظهرت فى المجال الاسلامى ظهورا قويا ، وكان تعبيرها القومى واضحا فى عهد محمود الغزنوى الذى استطاع أن يتولى السلطة من سنة ٣٨٨ هـ الى ٤٢١ هـ (٩٩٨ — ١٠٣٠ م) ، وامتاز عهده بالجهاد الاسلامى فى اقليم الهند ، ويقال ان غزواته وصلت الى حدود هضبة الدكن ، واعترفت به الخلافة سلطانا مستقلا ولقبه الخليفة بلقب « يمين الدولة » اعترافا بأنه كان يرعى الركن الأيمن من المشرق الاسلامى . ويقول براون « ان قوة محمود الغزنوى التى لا تحد قـد ظهرت فجأة ، وانه بدأ عهده بوضع يده على مملكته الصغيرة التى ورثها عن أبيه سبكتكين ، ولكنه لم يلبث أن غزا الهنـد اثنتى عشرة مرة ، وضم الى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد الغور ، وبلاد ما وراء النهر ، ووالى لبنى بويه ضرباته التى انتهت باستيلائه على أصـــبهان » (٢) .

حين توفى محمود الغزنوى كانت الدولة السامانية تسير الى نهايتها ، تحت ضربات خانات التركستان فى بلاد ما وراء النهر ، وتآمر المتغلبين فى أقاليم خراســان ، وكان عليه أن يؤمن جناحه الشمالى حتى يتفرغ الى غزواته التى يزمع القيام بها فى بلاد الهند ، ولكى يضيف الى قوته قوة أخرى ، فانه تقدم نحو خراسان وأحل الهزيمة بالسامانيين فى مرو سنة ٣٨٩ هـ وبذلك صفت له خراســان ، وعين أخاه نصرا على جيوشـها ، فاتخذ نيسابور قاعدة له ، وخطب للخليفـة القادر . وبذلك زالت دولة السامانيين من خراســان على يد محمود كما زالت من بلاد ما وراء النهر على يد بغراخان التركى (٣) . واتخذ محمود لنفسه لقب « سلطان » بعد

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٢) Brown, Vol. I, p. 376. حسين ابراهيم : ج ٣ ، ص ٨٧ .
(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٥٤ — ٥٦ .

أن كان يلقب بالأمير ، كما لقبه الخليفة القادر « يمين الدولة وأمين الملة ، وظهرت هذه الألقاب على السكة التى كانت تحمل اسمه » (١) . ولقبه سلطان الذى اتخذه محمود الغزنوى هو اللقب الذى سار عليه الأتراك فى الدولة الاسلامية ، فهو اللقب الذى اتخذه السلاجقة من بعد كما اتخذه العثمانيون بعد ذلك ، وكان ظهور هـذا اللقب بصـفة رسمية فى بلاد الاسلام على يـد محمود الغزنوى ، أما الحكام من الفرس فقد اتخذوا لقب « ملك » كما فعـل بنو بويه ، وكلا اللقبين أقل من لقب الخليفة الذى ظل أعلى ألقاب الدولة الاسـلامية حتى زوال الخلافة العباسية فى بغـداد .

ولم يكتف محمود بمـا استولى عليه من بلاد ، بل عمل على مد أملاكه وتوسيع رقعة دولته ، فاستولى على سجستان سنة ٣٩٣ هـ (٢) ، كما أزال سلطان البويهيين فى الرى وبلاد الجبل فى سنة ٤٢٠ هـ ثم ملك قزوين وقلاعها ودان له بالطاعة أمراء هذه الجهات(٣) . وقد أرضى محمود الخلافة العباسية حين تتبع المخالفين لها والخارجين عليها بالقتل والنفى ، فقد قتل الرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة ، كما نفى المعتزلة الى خراسان وضيق عليهم ، وأحرق كتب الفلسـفة والمعتـزلة والنجوم ، كما رفض أن يستجيب للفاطميين الذين حاولوا اسـتمالته تخفيفا من حملته على أشياعهم (٤) .

لكن الأعمال التى خلدت اسم محمود الغزنوى هى الأعمـال التى قام بها لنشر الاسلام ، وغزواته فى بلاد الهند التى وسعت رقعة العـالم الاسلامى ، وكانت بحق بداية العالم الاسلامى الهندى . ففى سنة ٣٩١هـ حارب محمود الغور ، وكانوا لا يدينون بالاسلام ، كما كانوا يتخذون

(١) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٨٤ — ٨٥ .
(٢) العـتبى : ج ١ ، ص ٩٩ — ١٠٤ . ابن الأثـير : ج ٩ ، ص ٦٤ — ٦٥ .
(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٣٩ .
(٤) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٨٩ .

من بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة ملجأ يقطعون منه الطريق ويخيفون السبيل ، فأوقع بهم محمود وأخضعهم لسلطانه ، ونشر بينهم الاسلام ، وأرسل اليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين (١) .

أما حملاته فى بلاد الهند فقد استمرت من سنة ٣٩٢ هـ الى سنة ٤١٥ هـ ، وقد اصطبغت بصبغة الجهاد الدينى ، فقد كان محمود رجلا دينا ، دفعته عاطفته الدينية الى الجهاد فى سبيل الله ، كما دفعه تأثمه من قتال المسلمين — الذى فرضته عليه ضرورة تقوية دولته وتأمين أطرافها — الى التعويض عن ذلك بقتال الكفار ونشر الاسلام فى بلادهم ، فتتالت غزواته على بلاد الهند التى أقسم على نفسه أن يغزوها فى كل عام (٢) .

كان محمود يملك مزايا فريدة من موقعه فى غزنة القريبة من بلاد الهند الشمالية ، ومن وقوعها على قمة الهضبة التى تشرف على سهولها ، وقد ساعده ذلك على نجاح غزواته فى بلاد الهند ، كما قوى مركزه الحربى استيلاؤه على بلاد ما وراء النهر من أيلك خان (٣) ، وملكه لسجستان وبلاد الغور ، الأمر الذى قوى مركزه فى الداخل وجعله مطلق اليد فى توجيه حملاته المنظمة على بلاد الهند (٤) . ولما كان جيبال ملك البنجاب الذى حارب سبكتكين حروبا طاحنة لا يزال قويا ، فقد توجه محمود لغزو شمال الهند سنة ٣٩٢ هـ فأوقع بجيبال وأسره وغنم غنائم كثيرة ، حتى قيل أن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف ، وأحب بعد نصره أن يطلق جيبال ليراه الهنود فى شعار الذل ، فأطلقه ، ولكن هذا لم يستطع أن يعيش بعد أسره وذله فحلق رأسه وأحرق نفسه (٥) . وكان من أثر ما أحرزه محمود من نصر فى هذه الغزوة أن أطلق عليه اسم « الغازى » (٦) .

---

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٨٨ .
(٢) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٨٥ .
(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٧١ — ٧٧ .
(٤) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٠ .
(٥) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٦٣ — ٦٤ .
(٦) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٠ .

بعد انتصار محمود على جيبال سار نحو « ويهند und » وانتصر على أهلها (١) ، ثم قصد اقليم الملتان ، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة ، فاستولى على مدينة «بهاطية» ، وانتصر على صاحبها سنة ٣٩٥ هـ ونشر فيها الاسلام وترك جماعة من المسلمين يعلمونه أهلها (٢) • وفى سنة ٣٩٦ هـ قصد مدينة الملتان نفسها ، وفي طريقه اليها انتصر على « أنندبال » بن جيبال ، ثم قضى على مقاومة أهل الملتان وافتتحها عنوة وفرض غرامة كبيرة على أهلها • وما زالت غزوات محمود تتتالى فى كل عام على بلاد الهند حتى استولى على منطقة البنجاب كلها ، وهزم كل من اعترضه من ملوك الهنود وراجاتهم وقضى على تحالفهم ، واستولى فى سنة ٤٠٤ هـ على ناردين ، وغنم فى غزواته هذه غنائم كثيرة « فأخذ من الجواهر مالا يحد ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ، ومن الأوانى الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة منا •• الى غير ذلك من الأمتعة ، وعاد الى غزنة بهذه الغنائم ، ففرش تلك الجواهر فى صحن داره ، وكان قد اجتمع اليه رسل الملوك ، فأدخلهم فرأوا مالم يسمعوا بمثله » (٣) •

ولم يقاوم محمودا الا قمشير التى والى عليها الغزو من سنة ٤٠٤ هـ الى ٤٠٧ هـ حتى تم له فتحها بعد جهود كبيرة ، واستولى على كل قلاع منطقتها ، وما زالت غزوات محمود مستمرة على بلاد الهند حتى توج انتصاراته فى سنة ٤١٦ باسترداد ناردين وهدم الصنم الأكبر «سومنان» وأرسل الى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين فى الهند (٤) •

وقد أعجب محمود بجبال اقليم جوجرات ففكر فى اتخاذ مدينة « الهلوار » حاضرة له ، ولكن قواده نصحوا بالعدول عن هذا الرأى ، فعاد الى غزنة ، وكانت آخر غزواته فى سنة ٤١٨ هـ حيث أدب الثوار

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٦٤ •
(٢) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٦٩ •
(٣) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٧٧ •
(٤) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٨٤ — ٨٥ •

الذين اعترضوه فى طريق عودته الى غزنة . وفى السنة التى توفى فيها استولى نائبه « ينال تكين » فى هذه البلاد على « نوس » التى كانت من أعظم مدن الهند فى ذلك الوقت (١) .

ويقول وللى هيج « يمكننا الى حد ما أن نعتبر محمودا (الغزنوى) سلطانا هنديا خالصا . فقد فتح فى خريف حياته اقليم البنجاب ، ونشر الاسلام فى ربوع الهند ، وافتتح طريقا سلكه بعده كثيرون . وقنع خلفاؤه — بعد أن جردوا من أملاكهم فى فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر — بحكم اقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » (٢) .

واصل خلفاء محمود جهوده فى فتح بلاد الهند ، ففتح ابنه مسعود (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) قلعة سرستى الجبلية جنوبى قشمير كما استولى على قلاع هانسى وسنيبات (٣) ، كما فتح ابنه مودود (٤٣٢ — ٤٤١ هـ) عدة حصون فى بلاد الهند وهزم من تعرض له من الملوك حتى هابوه ودانوا له بالطاعة (٤) . وغزا ابراهيم بن مسعود (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) بلاد الهند فحاصر قلعة « أجود » وهى على مائة وعشرين فرسخا من لاهور ، وعدة قلاع أخرى فى سنة ٤٧٢ هـ . وهكذا نرى الى أى حد امتد ملك الغزنويين فى بلاد الهند .

ويقول ستانلى لينبول « ان حملات الغزنويين فى بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقرا لهم ، يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد ، فقد مهدت الدولة الغزنوية فى لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغورى وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى ، ونشروا نفوذ

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٤٨ .
(٢) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٤ .
W. Haig, Encyclopaedia of Eslam. Vol, II, p. 134.
(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨١ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية (١) » .

وفى الوقت الذى كان فيه الغزنويون يمدون سلطانهم فى الهند كان ملكهم فى الشرق يتهدد بقوتين خطيرتين هما قبائل الغز التركية والسلاجقة ، وكان هؤلاء قد وصلوا فى هجرتهم من مساكنهم فى الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم والهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون الى اقليم خراسان . فأما الغز فقد أجلاهم مسعود بن محمود عن خراسان بعد حروب دامت زهاء سنتين (٤٢٩ — ٤٣١) .

وأما السلاجقة الذين تفاقم شرهم — فى الوقت الذى اضطربت فيه الأحوال بعد موت محمود الغزنوى نتيجة للخلاف الذى وقع بين مسعود وأخيه محمد على الحكم — فقد نهبوا هراة فى سنة ٤٢٢ هـ ، وبدءوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون على خراسان اغارات منظمة ، واضطر مسعود الى الاشتباك معهم وألحق بهم هزيمة شديدة بالقرب من نسا سنة ٤٢٦ هـ ، ولكنه كان مشغولا بغزو الهند فاضطر الى عقد صلح معهم ، ولكن السلاجقة استفادوا من صلحهم مع مسعود ، فدعموا مركزهم ، واستعدوا لاقامة دولة لهم ، فضاق مسعود بالمكانة الكبيرة التى نالوها وبتوطيد نفوذهم فى خراسان ، وحاول اجلاءهم فهاجمهم بالقرب من مدينة سرخس سنة ٤٢٩ هـ ، ولكنهم انتصروا على قواته انتصارا باهرا . وبذلك أصبحت قوتهم أعظم قوة فى خراسان ، وحماهم هذا على احتلال نيسابور واعلان دولتهم بها ، وجلس طغرليك على عرش مسعود بها وأمر بأن تقرأ الخطبة باسمه ، فأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة ، ويعتبر عام ٤٢٩ هـ بداية قيام دولة السلاجقة وان لم يعترف بها الخليفة العباسى الا فى سنة ٤٣٢ هـ حينما طلب السلاجقة منه أن يعترف بدولتهم وبطغرلبك سلطانا عليهم ، والواقع أن

---

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٤
The Muhammadan Dynasties, p. 284.

اعتراف الخليفة العباسى لم يكن الا أمرا شكليا لاعطاء الدولة صفة شرعية يرضى عنها الناس (١) .

لم يقبل مسعود الأمر الواقع ، فعزم على قتال السلاجقة بنفسه ، ولكن جهوده باءت بالفشل فقد هزمه السلاجقة هزيمة ساحقة عند دندانقان سنة ٤٣١ هـ واضطر الى العودة الى غزنة ، بل انه عزم على الانسحاب الى بلاد الهند ليجمع جيشا كبيرا يحارب به السلاجقة (٢) ، ولكنه فشل اذ ثار عليه رجاله وعزلوه وولوا أخاه محمدا . وتعتبر موقعة دندانقان من المواقع الفاصلة اذ أنها أنهت الصراع بين الغزنويين والسلاجقة وبها انحسرت الدولة الغزنوية عن كل بلاد خراسان .

وكذلك تلقت الدولة الغزنوية ضربات مماثلة من خانات التركستان فضاعت منها أملاكها فى الشرق ، ولم يلبث الغوريون فى بلاد الأفغان أن قضوا على ملك الغزنويين وحلوا محلهم ، واتجهوا بقوتهم الى بلاد الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين بها . وبذلك انتقلت رعاية الثغر الهندى من يد الدولة الغزنوية الى يد الدولة الغورية .

والواقع أن الدولة الغزنوية كانت أول انتصار للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الايرانى على السيادة النهائية فى الاسلام . ففى الوقت الذى كانت فيه الدولة الغزنوية وهى دولة مؤسسها تركى ، تحقق انتصاراتها فى ايران على الدولة البويهية الفارسية ، كان عنصر تركى جديد يستعد لاكمال الجولة بين العنصرين ، ذلك أن السلاجقة ، ما لبثوا أن دخلوا العراق بعد أن تسلموا خراسان من الغزنويين ، فقضوا على ملك البويهيين وحكموا المشرق الاسلامى .

والدولة الغزنوية من ناحية أخرى تعتبر دولة هندية ، كانت تعبر عن رغبات الهنود المسلمين فى الحصول على استقلالهم الذاتى أسوة

(١) عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، ص ٢٩ .
(٢) حسين امين : العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٥٣ .

بغيرهم من الشعب الاســلامى . وكان هؤلاء الهنود المسلمون هم عدة الدولة فى الفتح والغزو ، وكان منهم أغلب الوزراء والكتاب والموظفين ، أى أن الدولة بهذا كانت دولة اســلامية ، وكان عصر الغزنويين احياء للتراث الثقافى القديم ، ولا شك أن الثقافة التى تم احياؤها فى عهــد محمود الغزنوى كانت الثقافة الفارسية ، وقــد ظهر الشاعر الفردوسى صاحب الشــاهنامة فى بلاد الغزنويين ، كما ظهر غيره كثير من الشــعراء الذين نظموا شعرهم بالفارسية (١) .

ويمكن القول بأن اللغة الأردية لغــة الهند والباكستان وهى مزيج من الفارسية والسنسكريتية ــ ظهرت على عهد محمود الغزنوى ، وقد بدأت هذه اللغة التى ستصبح لغة الهند الاسلامية تظهر فى هــذا العصر وتعبر عن نفسها تعبيرا أدبيا .

وتلت الدولة الغزنوية دولة أخرى فى هذا الثغر هى الدولة الغورية التى كان اتجاهها هنديا خالصا ، وما زالت تقوم بدورها فى مد نفوذ العالم الاسلامى وتمكينه فى الهند ، حتى جاء المغول فأسقطوها ، ثم قاموا بأمر هذا الثغر الهندى بعد أن أسلموا ، وعلى أيديهم امتد الاسلام فى الهند وتدعم ، وكانوا أساس العالم الاســلامى الهندى الذى تعبر عنه الآن دولة باكستان .

---

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٣٦٨ .
Brown vol — 2 — pp. 115 - 117.

طبرستان (١)

الدولة الطبرية ــ الدولة الزيارية

يرجع ظهور الحركة الاستقلالية فى اقليم طبرستان الى المعارضة الشيعية التى قامت فى وجه الخلافة العباسية ، وقد فرت المعارضة الشيعية الى المناطق البعيدة من العالم الاسلامى واستطاعت أن تؤسس لها دولا فى أطراف هذا العالم ، وقد شهدنا كيف قامت دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى بعد فرار ادريس بن عبد الله العلوى بعد موقعة فخ ، ثم كيف قامت الدولة الفاطمية فى أفريقية واستطاعت أن تملك كل النصف الغربى من العالم الاسلامى . وفى الوقت الذى فر فيه ادريس بن عبد الله الى المغرب ، فر أخوه يحيى بن عبد الله الى المشرق ولجأ الى الديلم . ومنذ هذا التاريخ (١٧٦ هـ) بدأ الاسلام يدخل بلاد الديلم على يد هؤلاء الشيعة على مبدأ الزيدية .

والفرقة الزيدية من الفرق الشيعية الممتازة بطابع خاص هو طابع الجهاد الذى أوجبته على نفسها (٢) ، وتكاد كل الثورات التى قامت ، فيما عدا الفاطميين وحركة الحسن الصباح الذى أسس جماعة الحشاشين ، ترجع الى هذه الفرقة الزيدية . فالزيدية هم الذين تحملوا عبء الاضطهاد

---

(١) طبرستان احدى مناطق ايران الجغرافية ، وتقع جنوب بحر قزوين ، وقد وصفها ياقوت فى كتابه معجم البلدان (ج ١٣ ص ١٣ — ١٦ طبعة بيروت) ، فقال : فمن أعيان بلدانها دهستا وجرجان ، واستراباذ ، وآمل وهى قصبتها ، وسارية وهى مثلها ، وشالوس وهى مقاربة لها . وهذه البلاد مجاورة لجيلان وديلمان ، وهى بين الرى وقوس البحر . وبلاد الديلم والجبل وهى طول ستة وثلاثين فرسخا فى عرض ستة عشر فرسخا والعرض من الجبل الى البحر . وكانت بلاد طبرستان من الحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها ، وقد بدأ اتصال المسلمين بها منذ خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٩ هـ ولكن فتحها لم يتم الا فى عهد المأمون سنة ٢٠١هـ ، وقد تولى عليها من قبل المأمون المازيار ابن قارن ولم يزل عليها حتى عصى فى عهد المعتصم . ثم آلت الى بنى طاهر .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، ص ١٥٦ .

فى مركز الخلافة ، فهاجروا الى أطرافها ، وكانت احدى هجراتهم الى بلاد الديلم • وكان من نتيجة هذه الهجرة وضع بذرة الاسلام فى تلك البلاد ، وظلت البذرة تنمو حتى استكملت نموها ، حتى دخل الديلم جميعا فى الاسلام واعتنقوه على مبدأ الزيدية ، وصاروا شيعة يدافعون عن المبادىء الشيعية بعامة وعن الزيدية بخاصة •

وقد أدى مبدأ التسوية الذى نادت به الثورة العباسية ، الى تهيئة الظروف أمام الشعوب البربرية النازلة وراء الثغور الاسلامية ، وأن تندمج فى عداد الأمة الاسلامية ، وأن تقوم بالدور الذى تؤهلها له ملكاتها ، ومعنى هذا أن الدخول فى الاسلام فى ذلك الوقت أصبح كالتجنس تماما • فاذا دخل فرد أو اعتنقت أمة الاسلام ، صار ذلك الفرد أو هذه الأمة من عداد الرعية الاسلامية • وتحت ظل هذا المبدأ دخل الديلم فى عداد الأمة الاسلامية وتهيأ لهم بذلك أن يقوموا بدور هام فى التاريخ الاسلامى ، بعد أن انفتح خط الثغور لكى تدخل فى قلب الخلافة أمم حديثة عهد بالاسلام وحديثة عهد كذلك بالحضارة • لكننا من ناحية أخرى يجب أن نعرف أن الشعب الديلمى كان شعبا فارسيا ، وأن الفرس المتحضرين لم يعتبروه أجنبيا الى حد كبير ، ولهذا وجد تعاون بين الفرس المتحضرين وبين الديلم المتبربرين •

كان الديلم الاسلامى فى أوائل القرن الثالث وحتى منتصفه محتفظا بكثير من تماسكه القديم ، وكان من الصعب على جماعة كالديلم — وخصوصا أنهم كانوا وثنيين ، وكانوا خارجين عن نطاق أرض الاسلام ، ينزلون وراء ثغور القائمة عند قزوين وأبهر وغيرها ، وهى الثغور المعروفة بثغور قزوين أو بثغور الديلم — أن ينفذوا الى داخل العالم الاسلامى ، وكان هذا النفوذ الى الداخل أمرا صعبا حتى بالنسبة للدول الكبيرة كالروم أو بالنسبة للشعوب الكثيرة العدد كالترك ، اذ كانت حدود الثغور الاسلامية محروسة حراسة قوية ، فكان لابد أن يسلم أهل هذه الناحية • وقد أخذ الديلم والجبل الاسلام على يد أهل طبرستان

الذين كانوا قد دخلوه من قبل على يد الدعاة من الشيعة الزيديه • فطبرستان بذلك هى البيئة الأم بالنسبة لمن أسلم ممن وراءهم ، كما كانت التركستان بالنسبة لمن وراءها من أقاليم الترك •

وقد ظلت طبرستان منذ فتحها اقليما خاضعا للخلافة العباسية ، يحكمه آل طاهر الذين مدوا نفوذهم على المشرق كله باسم الخلافة العباسية ، الى أن احتاجت طبرستان فى مناسبة من المناسبات أن تقوم ضد الخلافة ، وذلك عندما قامت ثورة يحيى بن عبد الله العلوى بالكوفة سنة ٢٥٠ هـ • الذى خرج على الخليفة المستعين وخرج معه جميع الزيدية بالكوفة(١) • وقد عهد الخليفة الى محمد بن عبد الله بن طاهر بقمع هذه الثورة ، فقمعها بعد حرب حامية ، ثم أراد الخليفة أن يكافئه فمنحه اقطاعا عند ثغور طبرستان فى المنطقة التى تفصل بين اقليم طبرستان واقاليم الديلم • وقبض ابن طاهر اقطاعه ووضع يده عليه • الا أن عامله تجاوز الحدود المرسومة للاقطاع ، أو وقع خطأ أصلى فى تحديد الاقطاع حتى أدخلت فيه أرض لم يكن ينبغى أن تدخل فيه ، فقد دخل فيه أرض كان أهل الثغر يتخذونها مرافق عامة ويستفيدون منها فى الاحتطاب والرعى ، فغضب أهل الثغر الطبرى : أولا لأن بعض أرضهم أعطى لمن غلب اخوانهم فى المذهب بالكوفة — وكان أهل طبرستان قد دخلوا الاسلام منذ عام ١٧٠ هـ تقريبا على مذهب الزيدية على يد يحيى بن عبد الله الحسنى ، عند فراره بعد موقعة فخ ثم صار ملجأ الفارين من الشيعة من بعده — وثانيا لأن هذا الرجل جار على المنافع العامة فحرمهم من أرض كانوا يرتفقون منها • لذلك نهضوا يرفضون أن ينفذ هذا الاقطاع وعصوا واليهم ، وأصبح الأمر أمر ثورة وخلع للسلطان (٢) •

فى هذا المأزق الذى أوقعت الظروف فيه أهل طبرستان لم يجد الثائرون خيرا من أن يتحالفوا مع الديلم • وكان هذا التحالف ممكنا

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٣ — ٤٤ •
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٤ — ٤٥ •

لأن الثغر كان هادئا ، فلم يكن بين الشعبين عداء ولا حروب • ثم كان الظرف مواتيا لهذا التحالف ، وذلك أن بعض عمال والى طبرستان دخل بلاد الديلم ، وهم مسالمون لأهل طبرستان ، فسبى منهم وقتل ، فساء ذلك أهل طبرستان ، ووجدوا فرصة لضم الديلم الى ثورتهم ، فراسلوهم يذكرونهم بالعهد الذى بينهم ويعتذرون فيما فعله هذا العامل بهم من السبى والقتل (١) فوقع التحالف ، وأصبح أهل طبرستان ، أقوياء يستطيعون الاعتماد على معين لا ينضب من الجند الديلمى المعروف بالخشونة والطبع المتبربر وبالقدرة الفائقة على الحرب • ولم يبق أمامهم الا أن يختاروا أحد العلويين ليكون اماما لهم ورئيسا لحركتهم ، فاتصلوا بالعلويين الموجودين بالرى ، فنهض لرياستهم علوى من الرى هو الحسن ابن زيد العلوى ، فرأس الثورة وقامت بقبوله هذا دولة علوية تعرف بالدولة العلوية الطبرية الزيدية ، واستطاع الحسن بن زيد أن يحتل مدينة آمل قاعدة طبرستان ثم مدينة سارية ، وانضم اليه أهل الثغر من الديلم فى كلار وشالوس والرويان ثم أهل جبال طبرستان وجماعة من أهل السفح ، وبذلك سيطر على كل منطقة طبرستان وما يليها من بلاد الديلم ، ولم يلبث العلويون أن خرجوا بالرى واستطاعوا مع القوات التى أرسلها الحسن بن زيد أن يطردوا عمال ابن طاهر الى قزوين (٢) وما زال الحسن بن زيد يتوسع فى امتلاك المناطق حتى ضم اليه قزوين أيضا ، ثم ضم اليه اقليم جرجان •

وقد أعانت الظروف الحسن بن زيد ، فقد كان العلويون منبثين فى كل هذه المناطق وكانوا يظهرون عندما تتقدم الجيوش الطبرية فيهددون الجبهة الداخلية ، وبذلك تقع القوات الطاهرية بين نارين فتضطر الى التراجع • ثم ان الدولة الطاهرية كانت تتلقى الضربات من قوات الصفاريين التى كانت تزحف للاستيلاء على أملاك الطاهريين فى خراسان ، وكانت الخلافة كذلك مشغولة بمقاومة ثورة الزنج فى اقليم العراق

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٥ •
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٥ — ٤٦ •

والأهواز ، فلم يكن فى امكان الخلافة أن ترسل قوات قوية لمساعدة الطاهريين أو القضاء على الحركة الزيدية (١) .

وحين غلب الصفار على خراسان وجه قواته لقتال الحسن بن زيد ولكن هذا كان يجد له ملجأ فى بلاد الديلم المنيعة ، فلم يستطع يعقوب ابن الليث الصفار أن يلحق بالقوات الطبرية هزيمة حاسمة ، واضطر آخر الأمر الى التراجع بعد أن فقد عددا كبيرا من قواته فى مسالك جبال طبرستان الوعرة (٢) .

وهكذا تدعمت الدولة الطبرية التى كتب لها أن تعيش أكثر من نصف قرن من ٢٥٥ — ٣١٦ هـ لم تنقطع عن حكم طبرستان الا فترة قليلة هى الفترة الواقعة بين سنتى ٢٨٧ هـ ، ٣٠١ هـ . فى هذه الفترة استطاع السامانيون ولاة بلاد ما وراء النهر من عاصمتهم سمرقند أن يغلبوا الجيوش الطبرية فى عهد محمد بن زيد الذى تولى الامامة بعد موت أخيه الحسن سنة ٢٧٠ هـ ، وأن يستولوا على طبرستان وأن يتحالفوا مع الديلم (٣) وكان آل سامان قد ضموا الى أنفسهم بموافقة الخليفة حكم المشرق كله ، وتلقوا بذلك تراث الطاهريين . ولكى تضمن الدولة السامانية جند الديلم وبقاء حلفهم اتفقت مع رؤسائهم أن تصرف لهم أجمالا سنوية ، ورضى الديلم بهذا ولزموا أرضهم ، وبذلك حرم العلويون من هذا النصير القوى الذى كان عماد جيوشهم . فلم يستطيعوا القيام فى وجه السامانيين طوال هذه الفترة .

الى أن استطاع أحد دعاة العلويين وهو الحسن الأطروش فى سنة ٣٠١ هـ أن يجمع حوله رؤساء الديلم مرة أخرى ، وأن يهزم السامانيين ويستولى على طبرستان ويعيد الدولة سيرتها الأولى . وكان

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٧١ — ٧٢ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ .
(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٣ .
(٣) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨٤ .

العلويون ، فى أثناء هذه المحنة التى ألحقها بهم السامانيون ، منبثين فى أرض الديلم يعلمونهم الاسلام ، وينشرون فيهم حضارتهم ، ولكن الأجعال السامانية كانت تقف حجر عثرة فى سبيل هؤلاء الدعاة . فلما انقطعت السامانية انتهزت الدعوة الزيدية الفرصة ، ونهضت الدولة العلوية الطبرية مرة أخرى على يد الحسن الأطروش(١) ، ثم ظلت الامامة فى أولاده وأصهاره الى أن انتهت سنة ٣١٦ هـ (٢) ، وآل الملك الى دول زيدية لا امامة لها ، أو الى دول زيدية أخرى استغنت عن الامامة الزيدية وخولت لنفسها قبول التقليد من خليفة سنى .

* * *

الدولة الزيارية

تفرعت عن الدولة الطبرية دول أخرى ديلمية . ومن هذه الفروع الدولة الزيارية المنسوبة الى « مرداويج بن زيار » وتفسر نشأة هذه الدولة بالظروف التى أنشأت الدولة الطبرية ، فالدولة الطبرية نشأت أولا ثم اتخذت لنفسها اماما ، فلما ساءت العلاقة بين الزيدية والديلم ، عمد الديلم الى تكوين دول خاصة بأنفسهم من دون الأئمة الزيديين ، ولم يكن الديلم كلهم من ذوى الطاعة ، فان منهم من كان يسعى الى مصالحه الخاصة أو الى مصالح من التف حوله من الجند.(٣) .

وقد كان الديلم ينقسمون الى عصبيتين : عصبية الجبل الممثلة فى « أسفار ابن شيرويه » وعصبية الديلم الممثلة فى « ماكان بن كالى » ، وكانت كل طائفة من الناس تجتمع بحسب قبائلها وعصبياتها حول رئيس تتبعه ، وكان من التزامات هذا الرئيس أن يجد لجنده مجالا للحرب يرتزقون منه ، ولذلك كان بعضهم يخرج على الدولة سعيا وراء مصالح جنده . ومن أمثال هؤلاء « أسفار بن شيرويه » فانه ترك خدمة الزيدية

---

(١) الطبرى : ج ١٢ ، ص٢٥ . ابن الاثير : ج ٨ ، ص٢٨ — ٢٩ .
(٢) ابن الاثير . ج ٨ ، ص ٦٤ — ٦٧ .
(٣) انظر : ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

وخرج الى معسكر السامانيين ثم عاد مرة أخرى الى طبرستان وأساء معاملة الأئمة العلويين ، كما أساء الى جميع العلويين الذين كانوا موجودين بطبرستان ، ونذكر له أنه جمع العلويين فى احتفال بمدينة آمل فى عام ٣١٦ هـ وذبحهم . وسير ما كان لديه من بقاياهم الى اقليم ما وراء النهر ، الى السامانيين (١) ولم يلبث أن جنى ثمرة هذا الغدر وبالا ، فان أتباعه لم يقروه فى أنفسهم على ما فعل ، فتآمر عليه وزيره مع قائد من كبار قواده هو « مرداويج بن زيار » ونجحت المؤامرة فقتل ، وآلت الرياسة الى مرداويج ، واستطاع هذا أن يجمع السلطة بين يديه ، وأن يخضع رؤساء الديلم لسلطانه ، وبدأ يكون دولة نسبت إليه وهى الدولة الزيارية .

واستطاع مرداويج أن يبعد عن أرضه أحد رؤساء الديلم الأقوياء ، وهو « ماكان بن كالى » الذى ضعف أمره ولجأ الى السامانيين . فلما ضعف أمر « ماكان » تفرق عنه كثير من جنده الديلم ولجأوا الى مرداويج . ومن هؤلاء جماعة كان يرأسهم « على بن بويه » (٢) .

كان الدور الذى قامت به الدولة الزيارية يختلف عن الدور الذى قامت به الدولة الطبرية . فان الدولة الطبرية كانت دولة شيعية غير معترفة بالخلافة العباسية ، ولهذا فانها اقتطعت لنفسها بقعة من الأرض وأرست فيها قاعدة الهجرة الديلمية فى الشمال ، وأنشأت حكومة قوية تشمل طبرستان وبلاد الجبل والديلم وجرجان ، ودافعت عنها ضد قوات الخلافة أو القوات الموالية لها من الطاهريين ثم السامانيين ، فكانت لذلك علاقاتها بالدولة العباسية علاقة عداء . أما الدولة الزيارية ، فان دورها كان عبارة عن توسيع هذه القاعدة ، فمدت خط الهجرة الديلمية نحو الجنوب فاستولت على أصفهان والرى ونهاوند وهمذان ، وهذا الاقليم هو المعروف باقليم الجبل أو الجبال ، ومع كونها دولة شيعية زيدية المذهب

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٦٤ — ٦٦ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٢ .

الا أنها استغنت عن الامامة الزيدية ، واتصلت بالخلافة العباسية واعترفت بهـا وقبلت التقليد من الخليفة العباسى . ثم انها فكرت فى اقامة دولة فارسـية ، ولذلك أحيت التقاليد الساسانية فى بلادها . وامتـد بهـا الطموح الى اعادة ملك بنى ساسان .

والدولة الزيارية هى التى مهدت تمهيدا صحيحا لامتداد الهجـرة الديلمية الى مركز العالم الاسلامى ، هذه الهجرة التى تولاها بنو بويه ، فان الدولة البويهية التى تفرعت عن الدولة الزيارية ، تقـدمت بأمواج الهجرة نحو الجنوب وبلغت اقليم فارس واستقرت فى ايران حيث جعلت قاعدة ملكها مدينة شـيراز ، ثم مدت بنفـوذها الى العـراق وحكمته باسم الخلافة العباسية .

وقد عاشت الدوله الزيارية فى الشمال مستقلة عن بنى بويه أولا . ثم حليفة لهم فى آخر الأمر . ولذلك فاننا نفضل أن نكمل الحديث عن الدولة الزيارية فى خلال الحديث عن بنى بويه . لارتباط هذه الأحداث وتشابكها ، ولأن كلا الطرفين « الزياريين والبويهيين » اتصلوا بالخلافة ، وكان كل منهما « طرفدار » تولى التقليد من قبل الخليفة العباسى .

الباب الثالث

العصر البويهى والعصر السلجوقى

العصر البويهى — والعصر السلجوقى

هذان العصران يتشابهان فى نواح كثيرة ، وهذا التشابه هو الذى جعلنا نجمع بينهما فى حديث واحد ، ولم نجمعهما من حيث التتالى فى الزمن ، مع كونهما متتاليين فعلا . والواقع أن كل دولة من هاتين الدولتين حاولت أن تحكم ما نسميه فى التاريخ الاسلامى القديم بالمشرق، وكلتاهما انتزعت السلطة الفعلية من يد الخلافة ، مع اضمار الاحترام لشخصية الخليفة ولمركز الخلافة . وكلتاهما قامت على أكتاف شعوب كانت الى عهد قريب جدا لا تعرف الاسلام ، ثم دخل كل شعب من هذين الشعبين فى الاسلام بطريقة ما ، وأتاح له الاسلام أن يشارك فى حياته العامة ، وفى حياته السياسية خاصة وفى حياته الثغرية على وجه التعيين. وكلا الشعبين بعد ذلك هاجر من أطراف العالم الاسلامى الشمالية أو الشرقية نحو مركز الخلافة ، وحاول أن يحكم المشرق كله واستولى على السلطان الفعلى ، ولم يفكر قط أن يكون آداة طيعة فى يد الخلافة كما كانت حال الترك أيام أن استخدمهم الخليفتان الأخوان : المأمون ، والمعتصم . فهما أشبه بدولتين مندمجتين فى الخلافة ، أو حاكمتين باسم الخلافة ، لهما السلطة الفعلية التى يتولاها الخليفة ، ولهما الى جانب ذلك لقب الملك أو السلطان ، ولهما العواصم التى اختاروها بعيدا عن بغداد وركزوا فيها قوتهم السياسية . واذا صح الأمر ، وخير طريقة للتوضيح أن نذكر الحوادث حسب ترتيبها الزمنى — مع الاعتراف بأن فى هذا نوعا من التكرار — لنبين كيف تغيرت بحسب الظروف من حال الى حال .

كانت الدولة الأموية دولة عربية . وكانت الحكومة الاسلامية فى ظل هذا البيت الأموى القرشى المكى العربى مستندة الى العرب ، وكانت القوة العسكرية فيها عربية ، فكان الجيش عربيا ، وكانت الأمم المغلوبة النازلة فى أرض الاسلام والأمم المحالفة المعروفة بأهل العهد النازلة بأطراف العالم الاسلامى لا تشارك فى هذا المجهود الحربى الا قدار ،

فكان وضعها فى الجيوش العربية وضعا ثانويا ، وكانت بمثابة الجيوش المساعدة التى كان يستخدمها الرومان الى جانب جيوشهم الرومانية الأصلية . ثم دعت الظروف الى أن تقوم الثورة العباسية . وقد استخدمت هذه الثورة أهل خراسان أداة وجندتهم وغلبت بهم الجيوش العربية . وكان من الطبيعى بعد أن انتصرت هذه الجيوش ألا تسرح ، وان تبقى قائمة لتحافظ على الثورة وأن ترعى مبادئها التى نادت بها ، ولكى تنتفع أيضا بنتائج جهودها ، فهذا الجانب المصلحى الصرف جانب لا ينبغى اهماله فى التاريخ ، فاصبحت الجيوش الخرسانية هى الجيوش الأولى فى الدولة ، وأصبح العرب أقلية يمكن أن يقضى الأمر بدونهم ، ويمكن أن تحكم الدولة رغم أنوفهم .

فكان من نتيجة الثورة العباسية أن انتقل الحكم من يد العرب الى يد الخراسانيين . ثم دعت الظروف مرة أخرى الى الحد من غلواء الفرس، والى جند آخر من غير الجند الخراسانيين أكثر كفاءة وأكثر خشونة ، لكى يستطيعوا الدفاع عن الدولة ذات الثغور الشاسعة الممتدة . وقد كانت الأمم القديمة تفضل الخشنين من الجند على المترفين ، وكان القائد حين يدرب جيشه يحاول أن ينسيه ترف المدينة وأن يعوده على التقشف ، ليكون أقدر على الحرب . لهذه الأسباب ولغيرها بدأ الخلفاء يجندون الترك ، فأرسل الخليفة المأمون الى اقليم ما وراء النهر (التركستان الروسية الآن) دعاة يدعون رجال الترك الى الاسلام ، ويدعونهم فى نفس الوقت الى الدخول فى الجندية والانتقال الى بغداد ، فانتقل كثير منهم على يد هؤلاء الدعاة الى بغداد ، ودخلوا فى الجيش أيام المأمون الى أن عظم أمرهم أيام المعتصم ، حتى أصبحوا يؤلفون ما يعرف بجيش الحضرة بمعنى الجيش المركزى ، فلما بلغوا هذا الحد بنى لهم المعتصم عاصمة جديدة هى « سامرا » وانما أقبل هؤلاء الترك على الجندية لأنهم فى بلاد متوحشة بربرية بعيدة عن مراكز الحضارة ، وكانت بغداد يومئذ كما كانت الشرق الأدنى الحديث كله مركزا للحضارة وللتمدن ، تتطلع اليه

نفوس البرابرة بشيء من الاعجاب والدهشة ، وينجذبون اليه ويتوقون لرؤيته والارتحال للعيش فى كنفه .

كما أن الترك أقبلوا على الجندية لأنها تدر عليهم رزقا كثيرا ، وقد كان الداعى الذى جاءهم مصحوبا بفارض لهم يفرض لهم عطاء فى الديوان . هؤلاء الترك دخلوا فى الجندية كما يدخل الأفراد الذين تربطهم العصبية لا كما يدخل الأفراد العاديون ، لكنهم برغم هذه العصبية لجنسهم كانوا من حيث المبدأ يأتمرون بأمر الخلفاء وبأمر قوادهم ، ويقومون بمهمة الدفاع كما كان يقوم بها الخراسانيون والعرب من قبلهم دون فارق آخر . ونحن نسلم بأن هؤلاء الأتراك بلغ بعضهم درجة كبيرة من النفوذ ، وحاول أن يحد من سلطان الخليفة ، وزاد فى منزلته على الوزراء ، الا أن هذا كله لا يمنع من أن هؤلاء الأتراك كانوا يقومون بنفس المهمة التى قام بها الخراسانيون أنفسهم والعرب من قبلهم .

وفى العصر العباسى الثانى ظهرت قوميات فى العالم الاسلامى ، فكان كل شعب من الشعوب المنضوية تحت لواء الحكومة الاسلامية يتلمس شخصيته القومية ، ويحاول أن ينميها وأن يرتفع الى مستوى الاستقلال ، بحيث لم يمتد الزمن الا يسيرا حتى أصبحت كل قومية تحكم نفسها بنفسها رضيت الخلافة أم كرهت . ولم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية لأن المعارضة الشيعية والخوارجية كانت تشجع هذه النزعات ، وكانت الخلافة اذا قاومت لا تجنى من وراء المقاومة الا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق الاكراه لا عن طريق التقليد (الرضا ـ والاتفاق) . فى هذا الوقت حدثت هجرات ، أولها هجرة شعوب ديلمية كانت تنزل فى شمال العالم الاسلامى وجنوبى بحر قزوين . وهذه الهجرة اصطبغت بصبغة تخالف صنعته الهجرات التركية أيام المأمون والمعتصم ، لأنها هجرات حدثت فى عهد الانفصال والاستقلال ، وأنها هجرات أكبر من الهجرات التركية أيام المعتصم . فلذلك هاجر الديلم محتفظين بنظامهم الخاص

وقتلوه معهم ، وكونوا لأنفسهم سلطة فى مدينة شيراز ، وصار شأنهم كشأن غيرهم من الدول التى تظهر على أساس الشخصية القومية ، ثم عظم أمرهم تبعا لقوتهم الحربية حتى تطلعوا الى حكم المشرق ، والى انتزاع السلطان الفعلى من يد الخليفة ، بحجة التعاون معه وتقديم المساعدة له ، وايثار الصالح العام للعالم الاسلامى .

فلما انتهت هذه الهجرة وأدت رسالتها وانقرضت دولتها أو كادت ، ظهرت هجرة أخرى آتية من الشرق هى هجرة تركية من القبائل التركية المعروفة بالغز . ومن هؤلاء الأتراك الغز قبيلة قدر لها أن تكون عظيمة الشأن ، وأن تقوم بدور هام فى تاريخ العالم الاسلامى ، وأن تضفى اسمها على كل الهجرة ، وهى قبيلة بنى سلجوق . وكانت هذه الهجرة شأنها كشأن الهجرة الديلمية تماما : فقد احتفظ الأتراك بنظمهم الخاصة ، وفتحوا لأنفسهم فى داخل العالم الاسلامى دولة أرادوا بها العزة للاسلام وتوحيد المشرق ، ثم انتزعوا الأمر من يد الخليفة كما انتزعه البويهيون من قبل ، وظلوا مدة طويلة يتولون الأمر ويقومون بخدمات كبيرة جدا وبخاصة فى أيام توحدهم وطاعتهم لرئيس واحد منهم . فلما تفرقوا وتفرعوا فروعا ، وأصبح كل فرع من فروع السلاجقة أو كل قائد تابع من قوادهم ممن يسمون بالأتابكة ، منفردا باقليم معين ضاعت الوحدة وضعفت الدولة . فلما بلغت الأمور هذا الحد حاولت بعض الدول أن تنهض بالأمر ، وأن تحمل على أكتافها مسئولية الحكم كالدولة الخوارزمية ، الا أن الفرصة لم تتسع أمام هذه الدولة لأن الهجرة المغولية كانت طاغية فاجتاحت العالم الاسلامى الشرقى كله .

هذا عن الحالة فى العراق . أما بقية أجزاء العالم الاسلامى ، فان الدولة العباسية — كما ذكرنا من قبل — قد عملت على المساواة بين العرب وبين الشعوب المختلفة . وهذه السياسة أيقظت الروح القومية ، فبدأت فى أطراف الدولة حركات انفصالية انتهت فى هذا العصر العباسى الثانى باستقلال هذه الأطراف ، وقيام دول مستقلة ، وقد أعان على هذا

فمو النظام الثغرى القديم فى أيام بنى أمية وقد قامت هذه الدول فخلفت هذا النظام الثغرى القديم فى أيام بنى أمية ، وحملت عن الخلافة عبء الدفاع عن الحدود الاسلامية من ناحية ، ومد نفوذ العالم الاسلامى وراء هـذه الحدود من ناحية أخرى ، الى جانب ارضاء النزعة القوميـة ، والاستجابة للظروف الجغرافية ، فحققت بذلك الناحيتين : مصلحة العالم الاسلامى ، وارضاء الشعور القومى .

وهذه الدول فى معظمها — كما رأينا من قبـل — لم تستقل عن الدولة استقلالا تاما ، وانما استقلت استقلالا داخليا أو جزئيا ، بمعنى أن حكامها كانوا أحرارا فى ادارة هذه الدول ، وان مالية كل دولة كانت تصرف على شئونها الا مبلغا خاصا يرسل الى العاصمة كرمز شـكلى للتبعية ، كما كان لكل دولة جيشها الخاص بها ، أما السـيادة فظلت حقا من حقوق الدولة الكبرى ، وكان كل وال ، ولو أنه ولى الحكم بالوراثة يحرص على أن يصدر الخليفة العباسى الأمر أو التقليد بولايته . فهذه الدول المنفصلة أو المنقطعة كانت تتمتع بكل مظاهر الاستقلال ولكنهـا كانت تعترف بالسيادة الروحية للخليفة العباسى . ومظاهر هذه السيادة مظاهر شـكلية تتلخص فى أمور أهمها : الخطبة للخليفة على المنـابر ، ثم ضرب السكة باسمه ونقش اسـمه على الطراز (على أطراف ملابس الخليفة ، أو الخلع التى يخلعها على غيره ، ولفظ طراز لفظ فارسى ومنه أخذ « دار طراز » بمعنى « دار نسيج ») ثم ارسال الأموال سنويا ، والحرص على استصدار التقليد بالولاية .

كل هذا ينطبق على المشرق . أما المغرب فله شأن آخر وظروف أخرى فقد بدأت أجزاء المغرب تنفصل انفصالا تاما عن الخلافة العباسية منذ قيامها ، حتى تم انفصاله نهائيا على يد الفاطميين حين حكموا مصر والشام ، ثم عاد اسم الخلافة العباسية الى مصر والشام بعد زوال الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبى .

بعد هذا العرض الذى قصدنا به ترتيب سير الأحداث فى العـالم الاسلامى ، نعرض للحديث عن العصرين البويهى ثم السلجوقى .

الفصل الأول

العصر البويهى ــ الدولة البويهية

٣٢٠ ــ ٤٤٧هـ / ٩٣٢ ــ ١٠٥٥م

بنو بويه أسرة تتكون من ثلاثة رجال ظهر أمرهم وهم : على والحسن وأحمد أبناء بويه ، ولا يتفق المؤرخون على نسبهم ، فبعضهم ينسبهم الى بهرام جور أحد ملوك ساسان ، بينما يرفع بعضهم نسبهم الى الالهة كما كان يفعل الرومان فى تمجيد أبطالهم ، وينحط بهم البعض الآخر الى دهماء الناس ، كما يقول البعض انهم من العرب من بنى ضبة(١) ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا أسرة فقيرة ببلاد الديلم ، وكان أبوهم بويه رجلا من عامة الناس يتعيش من صيد السمك ، ويعينه أولاده على الحياة بالقيام بأعمال ضئيلة يتكسبون منها ، وقد كان أحمد بن بويه بعد أن ملك البلاد وتولى امرة الأمراء ببغداد يتحدث بنعمة الله تعالى عليه فيقول « كنت أحتطب الحطب على رأسى » (٢) .

لكن هذه الأسرة الفقيرة عظم أمرها حتى سمى باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية ، وقد اشتركوا مع الخلافة فى حكم العراق الى حدود الجزيرة العربية ، وبلاد الجبل أو العراق العجمى (واقليم الجبل قد يجمع فيسمى اقليم الجبال) ، كما أن اقليم طبرستان كان حليفا للبويهيين ، كما حكموا اقليم الأهواز المسمى أيضا باقليم خوزستان ، وهو الاقليم الذى يقع نصا الى الشمال من القاعدة الشمالية للخليج الفارسى ، ويقع شرقى العراق وجنوب بلاد الجبل ، وهو الممر بين الخليج الفارسى واقليم الجبل وبين العراق فى المغرب واقليم فارس فى المشرق .

(١) الفخرى : ص ٢٤٩ . حسن ابراهيم حسن : ج ٣ ، ص ٣٧ . الدورى : ص ٢٤٤ .
(٢) ابن خلكان : جـ ١ ، ص ٥٦ .

وكان اقليم فارس مركزا لكثير من آل بويه ، وكذلك حكموا اقليما يقع شرقى فارس وهو اقليم كرمان . وهذه هى البلاد التى كانت تحت حكم بنى بويه وكانوا يتولون أمرها مباشرة ، أما ما وراء ذلك من البلاد فى كل الجهات فلم يكن لهم فيها كلمة ولا شبه سيادة ولا حتى مجرد اعتراف اسمى . ونريد منذ البدء أن نبرز حقيقة هامة وهى أن بنى بويه حكموا جزءا محدودا من العالم الاسلامى . فلا يجب أن نخلط بين تاريخهم وبين تاريخ بنى حمدان فى الجزيرة . أو الأخشيديين والفاطميين فى مصر والشام ، ولا أن نخلط بين حكم بنى بويه وممالك الديلم وطبرستان وجرجان فى الشمال ، ولا بينهم وبين الدول التى كانت تتولى أمر المشرق البعيد ، ونشير هنا الى الدولة السامانية والدول الغزنوية . وان كانت قد قامت علاقات بين بنى بويه وبين هذه الدول .

جاءت هذه الأسرة من الشمال ، من بلاد الديلم ، وكان ارتفاع أمرها على يد الأخ الأكبر من الاخوة البويهيين الثلاثة ، وهو على بن بويه ، فانه كان جنديا استطاع بشجاعته أن يكون قائد جماعة مهاجرة من الديلم ، وكان الديلم بعد أن انفتح خط الثغر الطبرى يهاجرون على هيئة أجناد ، فكانوا يتخذون لأنفسهم قائدا يتبعونه ، وكان هذا القائد ينتقل من خدمة ملك الى خدمة ملك آخر حسب مصالح جماعته ، وحسب من يحتاج لخدمته ومن يدفع له ولأصحابه أكبر عطاء ممكن . ونريد أن نعرف بعد هذا خطوات على بن بويه ، وخطوات أمثاله لكى نستطيع أن نقارن بينه وبين أمثاله من الأجناد المهاجرين .

وخطوات على بن بويه جزء من الهجرة العامة التى ابتدأت من الشمال من جنوبى بحر قزوين وانتهت الى غمر كل القسم المركزى للخلافة ، والى انتشار الديلم فى أنحاء المشرق والمغرب . لكن هذه الهجرة الشاملة لم تكن قوية الا فى المناطق التى نسميها بالمجال البويهى الحقيقى الذى أشرنا اليه آنفا ، فهم فى مجالهم المركزى حول العراق

يؤلفون أغلبية الجيش وبيدهم السلطة الكاملة ، أما فيما وراء ذلك فى المشرق والمغرب فقد كان عددهم قليلا ، فانهم لم يكونوا فى هذه الأماكن البعيدة الا كآثار تبعثرت عند اندفاع الهجرة من الشمال الى الجنوب •

الخطــوط العــامة للهجرة الديامية :

اذا نظرنا الى خط سير الهجرة ، وجدناه خطا بدأ من الشمال ونفذ الى الجنوب ، ففصل بين المشرق البعيد وبين العراق ، والواقع أن وضع هذا الخط على هذا النحو انما نشأ لأن فراغا كان موجودا فى الموضــع الذى سارت فيه الهجرة ، فان الدول التى كانت تحكم المشرق بعيــدة كل البعد عن العراق ، بحيث لم يكن فى مقدورها أن تتعاون معه تعاونا ناجحا يعود بالفائدة على المشرق كله ، فانه حين انتهت الدولة الطاهرية التى كانت تحكم المشرق من نيسابور آل أمر المشرق الى دولتين : الدولة السامانية من ناحية والدولة الصفارية من ناحية أخرى •

أما الدولة السامانية فكانت تقوم فى مجال بعيد هو اقليم ما وراء النهر ، وأما الدولة الصــفارية فكانت فى أول الأمر دولة ثغرية ، قامت فى أقصى أرض المسلمين من ناحية ثغر الهند فى اقليم سجستان ، وهــو اقليم بعيد أيضا عن العراق ، وقد حاولت الدولة الصــفارية أن تتلقى تراث الظاهريين وأن تتعاون مع الخلافة فى حكم المشرق ، الا أن ظروف هذه الدولة حالت دون قيام هــذا التعاون ، اذ أنها لم تنشــأ فى كنف الخلافة وفى طاعتها كما نشأ آل سامان ، وانما اصطدمت بارادة الخلافة وتحت سلطانها ، وحاولت ارغامها ، وبذلك انحرفت عن مهمتها الثغرية ، فانتهى أمرها الى الزوال ، وأصبح المشرق كله بيد آل سامان ، وكان مقر الخلافة ضــعيفا لا يستطيع أن يقوم وحــده بمؤونة المشرق ، فان الادارة تحتاج الى أموال ، والأموال لا تجتمع كلها فى العراق ، وانما تصرف كل ناحية من أموالها ، ولا تستطيع أن ترسل الى الخلافة الا قدرا ضئيلا ، فكان الحد الفاصــل بين الاقليم الذى تديره الخلافة مباشرة ، وبين الاقليم الذى يديره آل ســامان مباشرة ، هو الخط الذى ينزل من

مدينة الرى نحو الجنوب شرقى بلاد فارس . عند هـذا الخط نهـاية دولتين ، هنا تبلغ قوة الخلافة أضعف حد ممكن ، وتبلغ قوة السامانيين أضعف حد ممكن .

وعلى هذا الخط الضعيف سارت الهجرة الديلمية ، فوجدت أمامها ظروفا مواتية ، وخطا ضـعيفا تستطيع أن تنفذ منه بسهولة ، وأن يكون قوة وسطا بين آل سامان وبين الخلافة ، ثم تطور أمر الهجرة بعد ذلك وخطت الدولة الديلمية خطوة جديدة نقلتهـا من دولة وسطى بين قوتين الى دولة تتعاون مع الخلافة وتدبر باسمها أمر العالم الاسلامى .

ولم تقف الخلافة مكتوفة اليدين أمام التقدم الديلمى ، فقد حاولت بكل وسيلة أن تمنع الهجرة الديلمية وأن تصد تيارها ، ولكن هذا التيار كان قويا بحيث اجتاح أمامه كل شىء . وأول محاولة قامت بها الخلافة لايقاف هـذا التيار هى تفويض آل سامان أمر المنطقة التى تخرج منهـا الهجرة ، فضمت هذه المنطقة مع اقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر الى السامانيين ، وقد أفادت هذه الطريقـة بعض الشىء وأدت الى نتـائج مؤقتة ، فقد نجح السامانيون فى تقويض أركان الدولة الطبرية العلوية بعـد حكم الحسن بن زيد وأخيـه محمد (١) ، وانقطعت سلسلة الأئمة الزيديين ابتداء من عام ٢٧ هـ الى أن قام الحسن الأطروش سنة ٣٠١هـ . ولجأ زعماء العـلويين فى أثناء هـذه المحنة الى داخل بلاد الديلم وظلوا يواصلون الدعوة . وفى أثناء هذه الفترة استطاع آل سامان أن يتحالفوا مع زعماء الديلم ، فوقفت الهجرة مقابل أجعال دفعها السامانيون لهم . وتلك طريقة اتبعها كل ممالك العصور الوسطى مع المتبربرين ، الا أنهـا طريقة لا تزيد المتبربرين الا جشعا ، ولا تحل الموقف الا بصفة مؤقتة (٢) . فلم تلبث الهجرة الديلمية أن استؤنفت فى أوائل القرن الرابع الهجرى

---

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٧٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٨ — ٢٩ .

مرة أخرى ، وقوى تيارها نتيجة لكثرة دخول الديلم فى الاسلام ، حتى ظهرت دولة ديلمية أخرى أخذت مكان الدولة العلوية ، وهى دولة الزيارية ، ونحتت لها مجالا جديدا فى اقليم الجبل(١) . وهنا أيضا حاولت الخلافة بطريقة أخرى أن توقف تيار الهجرة ، فاتفقت مع مرداويج ابن زيار على أن تقره على ما فى يده ، وعلى أن تمنحه التقليد بحكم هذه البلاد (٢) . وكان الغرض بطبيعة الحال أن تظل العلاقات سلمية بين مرداويج وبين الخلافة ، فلا يتعدى أحد الطرفين على الآخر ، وتقف بذلك الهجرة الديلمية . ولكن الظروف لم تساعد الخلافة على تنفيذ خطتها ، وذلك لأن تيارا جديدا قويا من تيارات الهجرة بدأ حوالى سنة ٣١٨ — ٣٢٠ هـ . فان مرداويج ما كاد يستقر فى اقليمه وينال اعتراف الخلافة ، حتى قصده الديلم من كل ناحية ، وكثروا حتى ضاقت الأرض بهم ، وحتى كان يتدخل لتوزيعهم على النواحى المختلفة ، الى أن خرجت عليه طائفة من طوائف المهاجرين وهى التى كان يقودها على بن بويه .

فاذا ابتدأت الهجرة على يد على بن بويه ، اتجهت نحو الجنوب واستقرت فى اقليم فارس ، وبهذا غمر العنصر الديلمى كل المنطقة التى تقع بين بحر الخزر وخليج العجم . ونتتبع هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الهجرة ، ولنسمها بالمرحلة البويهية على أساس أن المرحلة الأولى كانت مرحلة طبرية علوية زيدية ، وأن المرحلة الثانية كانت مرحلة زيارية .

كان على بن بويه قائدا صغيرا من قواد زعيم ديلمى هو « ماكان بن كالى » وكان « ماكان » هو ومرداويج وغيرهما من القواد الذين استخدمتهم الدولة الطبرية ومن يتبعونهم من الرجال ، فتبعية الجند فى هذا النظام لم تكن للدولة ولا لشخص الامام ، ولكن للقائد الذى يضمن لهم أرزاقهم . وكانت العادة أن ينتقل هؤلاء الأجناد من خدمة

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٧ .
(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٧٨ .

رئيس الى خدمة آخر بحسب الظروف الاقتصادية وبحسب كثرة الغنائم وقلتها . فلما ضعف « ما كان » أمام مرداويج وعجز نوعا ما عن ضمان الأرزاق للجند تفرق عنه كثير من أصحابه ، وكان ممن تفرق عنه « على ابن بويه » بجماعته ، ولجأ الى مرداويج برغم العداء الذى كان بين هذا وبين « ما كان » فكأن على بن بويه كان كالمستأمن لمرداويج ، فولاه مرداويج ولاية صغيرة فى أقصى الجنوب من ممتلكاته هى ولاية الكرج(١) الواقعة بين همدان وأصبهان ، ومن هذه النقطة ابتدأت الهجرة البويهية.

الظروف التى ابتدأت فيها الهجرة البويهية :

كان مرداويج حريصا على أن يوزع المهاجرين توزيعا يضمن به طاعتهم ، فكان اذا ولاهم لم يبقهم فى ولاياتهم مدة طويلة ، وكان اذا رأى لديهم مالا كثيرا خصص بعض هذا الدخل لجند جدد ، وكان لا يولى واليا الا بعد أن يدير الأمر فى فكره مرات ومرات ، فلما ولى عليا بن بويه الكرج عاد فوقع تحت وطأة التردد ، فأمر بأن يحال بينه وبين الوصول الى الكرج ، لولا مصادفة وقعت حالت دون تنفيذ هذا الأمر ، تلك المصادفة هى أن عليا حين مر بمدينة الرى أتيح له أن يكرم الوزير أبا عبد الله الحسين بن محمد الملقب بابن العميد والد أبى الفضل ابن العميد الذى صار فيما بعد وزيرا لركن الدولة بن بويه — فسهل له هذا الوصول الى ولايته (٢) . ثم حاول مرداويج بعد هذا أن يضعف والى الكرج بعض الشىء ، فأرسل اليه جندا من المهاجرين يتقاضون أرزاقهم من دخل الولاية ، لكن عليا استفاد من هذا ، فانه لم يكن طالب مال وانما كان طالب رجال ، ولما كان قد تعود أن يعطى كل ما يغنمه للأجناد ، فانه أكرم الوافدين عليه حتى صاروا تبعا له (٣) . وهنا حاول مرداويج أن يستقدمهم جميعا اليه ويحولهم الى مكان آخر ، فخلف هؤلاء الأجناد على أنفسهم ، وأيقنوا أن الأمور قد تحرجت بينهم وبين

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٢ .
(٢) مسكويه : ج ١ ، ص ٢٧٨ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٢ .

مرداويج . ثم ان مثل هؤلاء الأجناد لم يكونوا ليعملوا عملا الا اذا اتفق مع صوالحهم ، ولم يكن شأنهم شأن الرعية المستقرة التى تطيع اذا أمرت، وهنا بدأ النزاع بين الزيارية وبين أتباع على بن بويه .

وكانت خطة على أن يفر الى مكان لا تصل فيه اليه يد مرداويج ، وأن يدخل فى طاعة الخلافة ليكون من خدامها بدلا من أن يخدم مرداويج. فالهجرة اذن هجرة جند ينتقلون من خدمة سيد الى خدمة سيد آخر . لكن مثل هذا التنقل لم يكن ينظر اليه بعين الارتياح دائما من الولاة والملوك والخلفاء . فلما علم أن مرداويج يقصده استعد وخرج من الكرج الى أصفهان ، وأراد واليها وهو محمد بن ياقوت المظفر أن يمنعه ، فوقعت بين الطرفين وقعة بظاهر أصفهان عام ٣٢١ هـ انتصر فيها على بن بويه على والى أصفهان ، وكان سبب النصر أن جماعة من الديلم يبلغون فيما يقول ابن الأثير ستمائة — انضموا أثناء المعركة الى بنى جنسهم أتباع على بن بويه ، ووقعت المدينة فى يد هؤلاء المهاجرين (١) . وأخذ مرداويج يستعد لاخراجهم ، ولم يكن على ليبقى فى أصفهان ؟ لأن بقاءه فيها يجعله قريبا من مرداويج من ناحية ويسخط الخلافة من ناحية أخرى، لأنها كانت حريصة على موقع اصفهان . فما كاد على يعلم باستعداد مرداويج حتى سار نحو الجنوب حتى بلغ مدينة « أرجان » التى تقع فى منتصف المسافة بين أصفهان وشيراز ، فاستولى عليها بغير قتال لأن صاحبها لم يأنس من نفسه قوة للوقوف أمام جيش هزم والى أصفهان ، فانسحب نحو الجنوب ليستطيع الانضمام الى غيره وليستطيع بعد ذلك محاربة بنى بويه .

بقى على بن بويه فى أرجان مدة كما بقى من قبل فى أصفهان ، ويقصد بذلك اراحة جنده وجمع بعض المال من الناس . حتى اذا اشتد عليه الطلب من قبل مرداويج استمر فى انسحابه مع جماعته نحو الجنوب، ووصل الى مدينة « النوبندجان » وهى مدينة كبيرة تقع فى منتصف

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٩٣ .

المسافة بين أرجان وشيراز • وكان على بن بويه فى كل مرة يقطع نصف المسافة بينه وبين هدفه • ولم يأنس صاحب النوبندجان قوة من نفسه لمقاومة على ، وكان أيضا مغاضبا لآل ياقوت ملاك هذه المدينة والذين يملكون فارس أيضا ، فلم يتحمس للقتال ، ولما قدمت من شيراز طلائع جيش من جيوش آل ياقوت المظفر لصد بنى بويه لم يتعاون والى النوبندجان مع هذه الطلائع فانهزمت ، ودخل على بن بويه «النوبندجان» دون قتال كبير ، فكأنه قد وصل من الكرج الى النوبندجان دون أن يحارب الا مرة واحدة فى معركة كبيرة ، فقد كان على يقتصد فى خوض المعارك ما أمكن ، وهذا يعطينا صورة عن رجل سياسى يستعمل الحكمة أكثر مما يستعمل السيف ، فمع كونه قائدا لم يكن يتعجل القتال ، وكان يفضل التريث والسياسة •

بدأ على بن بويه بعد استيلائه على النوبندجان يستعد للزحف على شيراز هدفه الأخير ، ففرق جيوشه ليعزلها ، وأرسل جيشا نحو مدينة « كازرون » وتقع غربى شيراز ، والمراد بارسال هذا الجيش هو قطع شيراز عن المنطقة الغربية ، وكذلك أرسل جيشا آخر نحو مدينة « اصطخر » ليقطع شيراز عن المنطقة الشرقية • فلما عادت اليه قواته ظافرة تقدم نحو شيراز ، وتقدم جيش هذه المدينة نحوه فالتقوا عند قنطرة شيراز ، ووقعت بينهم موقعة كبيرة ، اسمها موقعة القنطرة عام ٣٢٢ هـ ، وكانت من المواقع التى استعد لها الطرفان ، وكانت من غير شك تفوق الاستعدادات التى أعدت لمعركة أصبهان ، وكان القتال حاميا بين الطرفين ، وقد استعمل الجيش الشيرازى النفط — وكانت الجيوش القديمة تجعل فيها فرقة من النفاطين — غير أن الريح انقلبت وقت استعمال النفط فأضرت بالجيش الشيرازى نفسه فانهزم ، واستسلمت شيراز فاستقر بها على بن بويه ، واتخذها قاعدة له • وحين انتصر على جيش ياقوت أحسن الى من وقع فى يديه من الأسرى وأكرمهم اكراما حملهم على الانضمام اليه ، فلم يقبلوا الرجوع الى آل ياقوت حين خيرهم

على بين البقاء معه أو اللحوق بياقوت . وهكذا حقق على بن بويه هدفه الأخير ، وفى نفس الوقت كثرت جموعه وزادت قوته (١) .

فنحن أمام هجرة استمرت سنتين ، وأمام شعب جديد كان فى الشمال فنزح الى الجنوب ، ولم يفتح البلاد التى أمامه فتحا وانما مر بها مرورا دون أن يترك بها حامية ، ودون أن يخضعها لنفسه خضوعا تاما ، حتى بلغ المهاجرون مكانا أحسوا فيه بالأمن وهو مدينة شيراز ، فاستقروا فيه واتخذوه قاعدة ، وكان اختيارهم لهذه القاعدة اختيارا ينم عن نظرة سياسية وحربية سليمة .

لم يحاول بعد ذلك أن يتوسع بسرعة ، وهو لم يحاول طول حياته أن توصف أعماله بالتسرع ، بل كان دائما يؤثر التؤدة ، ولا يخطو خطوة الا بعد أن تمهد لها الظروف والملابسات ، فقد استقر بشيراز بعد أن استولى عليها سنة ٣٢٢ هـ ، ولم يتجه نظره الى ما وراءها الا عام ٣٢٤ هـ اذ اتجه الى بلد بعيد عن الخلافة ، وعن السامانيين حكام المشرق ، وعن الزياريين . وهو اقليم كرمان الواقع وراء اقليم فارس من ناحية الشرق . ثم تهيأت له ظروف لكى يتدخل فى أمر الأهواز عام ٣٢٦ هـ ، فوجه اليها جيوشه وملكها ، ثم اتجهت جهوده نحو الشمال نحو أملاك الدولة الزيارية فأرسل أخاه الحسن لكى يحتل البلاد التى كانت تحت يد مرداويج بن زيار ، ولم تتعجل جيوش الحسن الحوادث بل ظلت تنتهز الفرص الى آن أخذت أقاليم الجبل شيئا فشيئا ، والى أن وضعت أملاك الزياريين تحت سلطانها على أساس الحلف بين الطرفين . أما العراق فلم يحاول على بن بويه أن يوجه اليه أحدا الا حين اقتنع أهل العراق أن لاخلاص لهم الا على يد بنى بويه ، فعلى بن بويه قد أطل على العراق منذ استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ هـ ، ولكنه مع ذلك لم يضع قدمه فى العراق الا عام ٣٣٤ هـ ، بعد استقراره فى الأهواز بثمانى

(١) عن تحركات على بن بويه السابقة ، انظر : ابن الاثير : ج ٨ : ص ٩١—٩٥ ، مسكويه ، ج ١ ، ص ٢٧٨ ، ٢٩٧—٢٩٨ .

سنوات ، وهى فترة طويلة بالنسبة لدولة فتية تملك كثيرا من الجند ، ولو كان على بن بويه شخصية متعجلة كشخصية بجكم أو كابن رائق أو كشخصية توزون ، لأعجله طمعه فأقحمه فى أمور العراق قبل أن تتهيأ الظروف ، فقد كانت امرة الأمراء هى المنصب الكبير الذى يلى منصب الخلافة مباشرة من حيث القواعد الرسمية ، ولكن شخصية أمير الأمراء هى الأولى من حيث الواقع ، وكان المنصب يحمل اغراء شديدا لكل شخصية طموحة ، ولكن عليا بن بويه كان يغلب الأناة الحكيمة على تهور الطموح . فالفترة من وقعة شيراز عام ٣٢٢ هـ الى دخول البويهيين فى العراق عام ٣٣٤هـ يمكن أن نقسمها الى قسمين : ـــ القسم الأول : من عام ٣٢٢ هـ الى استيلاء على بن بويه على الأهواز عام ٣٢٦ هـ ، وكانت مهمة على فى هذه الفترة ، كما يبدو من تصرفاته ومن سياق الأخبار أن يدعم قاعدته فى شيراز ويكون له ولأسرته ملكا موطدا . والقسم الثانى ويشمل الثمانى سنوات الباقية ، وقد ظلت فيه عين بنى بويه ترقب أمور العراق ، وظل أهل العراق أنفسهم يتطلعون الى هذه القوة الفتية لكى تنقذهم من أطماع الشخصيات الطنطانة التافهة والتى عقمت جهودها جميعا ، لأنها كانت تتحرك بدافع من الطمع ومن المصلحة الشخصية .

تدعيم الملك البويهى :

فى أول هذه الفترة ، حاول على بن بويه أن ينظم الأمور المالية ، فاستطاع بحزمه أن يستولى على كنوز آل ياقوت الذين كانوا يحكمون شيراز ، ونجح فى تدبير الأمور المالية تدبيرا حسنا ، وهنا تتكرر القصة التى تروى عقب قيام الأمراء الحازمين عادة ، وهى أن عليا بن بويه وجد مالا مخبوءا وقع عليه صدفة ، فكان هذا سببا لانتظام أحواله المالية ، ويقال أنه لولا هذا المال المخفى الذى وجده لوقع فى أزمة شنيعة لأن الجند الديلمى لا يصبر على قلة المال (١) .

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٥ .

ثم أخـذ علي بعد ذلك يعمل على أن يأمن جانب جيرانه ، فكان عليه أن يأمن جانب مرداويج الذى كان يلاحقه منذ خرج من الكرج الى أن استقر فى شيراز • وكان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه تغلب على ما تغلب عليـه برغم ارادتها • واذا كان قد تغلب على طرف من الأطراف فان أول واجب عليه أن ينال من الخلافة تقليدا يقر الأمر الواقع ، ولذلك سارع على بن بويه فطلب من الخلافة التقليد على أن يدفع ألف ألف درهم، ولما كانت ظروف الخلافة سيئة وحاجتها الى المـال شديدة ، فقد أرسلت اليه التقليد بسـهولة ، وخرج من بغداد رسول يحمل التقليد والخلع واللواء ، فتسـلم على من الرسـول ما معه ولم يعطه المـال ، وقالوا انه احتال على الرسول حتى أخذ منه التقليد والخلع واللواء قبل أن يعطيه المـال ، واستبقاه حتى مات عنده (١) • والمهم أن عليا أصبح بهذا التقليد واليا شرعيا ، وأمن بذلك جانب الخليفة ، وأمن من ناحية أخرى آل ياقوت الذين كانوا يتحفزون للوثوب على ما اغتصبه منهم • وفى نفس الوقت اتفق مع مرداويج بن زيار ، فان مرداويج قد حشد قواته لتتبعه ، فلما وصلت الى أصفهان دون أن تدرك بنى بويه أمرها مرداويج بعـد أن أمدها بمدد جديد ، أن تتجه صوب الجنوب وراء بنى بويه ، واتجهت تلك القوات نحو الجنوب فعلا بعد أن قسمت نفسها قسمين لتحصر بينها عليا بن بويه ، لكن مرداويج كان صاحب تقليد من الخليفة ، وكان هذا التقليد يتضمن تحديدا لممتلكاته ، فهو عندما بعث جيوشه نحو الجنوب كان متجاوزا لحدود التقليد ، وكان معرضا نفسـه لأن يتحول من الولاة المتقلدين الى العصاة الذين يريدون التغلب ، ولهذا بعث اليه الخليفة بمجرد سيرجنوده نحو الجنوب يطلب اليه الرجوع الى الحدود المرسومة فى التقليد ، وسيرإليه جيشا عليه ياقوت ليرده ، فكان مرداويج معرضا اذن لسخط الخليفة والوقوع فى حروب مع جنده ، فانتهز على بن بويه هـذه الفرصة وعرض عليه مرونة سياسية أن يدخل فى طاعتـه وأن يكون ما بيـده بلادا تابعة لمرداويج يخطب له فيهـا •

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٥ .

ولم يكن على بهذا العرض متنازلا عن حقيقة سلطانه ، لأنه يملك من القوات ما يستطيع به أن ينازل مرداويج ، ثم انه كان يعلم أن مرداويج لو عاد الى حدود تقليده أصبح مفصولا عنه بأقاليم تخضع للخلافة ، وأصبح محتاجا من ناحية أخرى الى أن يتكلف نفقات أخرى لتجريد جيش آخر ..فرحب مرداويج بهذا العرض واسترهن عليا بن بويه أخاه الحسن فسلمه اليه على ليكون رهينة عنده على الوفاء (١) . وبهذين العهدين : العهد الذى اعطاه الخليفة ، والعهد الذى ربط بين على ومرداويج ، أمن على على حدوده وأصبح مركزه قويا ، وقصده الرجال من كل ناحية . ويشير ابن الأثير الى تتابع هذه الأحداث فى فترة وجيزة لا تتجاوز سبعين يوما وبعدها من الاتفاقات العجيبة التى أفادت عليا ابن بويه (٢) .

فى هذه الفترة خلع الخليفة القاهر وتولى بعده الخليفة الراضى . وشغل آل ياقوت بأحداث الخلافة عن ملاحقة على بن بويه الذى اغتصب منهم أقاليمهم ، ثم ان مرداويج بعد آن اتفق مع على بن بويه عاد فأخلى أصبهان لأن الخلافة طلبت منه ذلك ، ثم لم يلبث أن قتل فى سنة ٣٢٣ هـ على يد بعض الأتراك الذين تآمروا عليه . وقد كان فى جيشه الديلمى بعض الترك ، والترك والفرس أعداء يتعصب بعضهم على بعض فى كل مناسبة ، وفى مرة من المرات أهان مرداويج الترك وأراد اذلالهم ، فتآمروا عليه فقتلوه ، وكان بين المتآمرين توزون وبجكم اللذان ذكرنا أمرهما فى الحديث عن امرة الأمراء . وكان من نتيجة ذلك أن هرب الحسن بن بويه الذى كان رهينة عند مرداويج (٣) . وكان من نتيجة ذلك أيضا أن تفرق كثير من جند الديلم واتجهوا مهاجرين نحو الجنوب وانضم فريق منهم الى بنى بويه .

---

(١) مسكويه : ج ١ ، ص ٣٠٢ . ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٩٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٩ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٠٣ — ١٠٥ . ابن خلكان : ج ١ ، ص ٣٦٤ .

شغل وشمكير أخو مرداويج الذى تولى بعده ، وشغلت الخلافة كل منهما بأمر نفسه عن على بن بويه • ووجد فراغ بين ملك مرداويج وبين ملك بنى بويه ، هـذا الفراغ هو اقليم الأهواز واقليم الجبل • فلما أفاق رجال الخلافة وقوادها وأرادوا الاستيلاء على الأهواز ، تولى أمر ذلك من قبل الخلافة ياقوت نفسه ، وهو الذى أضاع هذا الاقاليم وانهـزم أمام على بن بويه ، فلما قدم جيش ياقوت نحو الأهواز خشى على بن بويه أن يغتر ياقوت بمن معه من القوات ، وأن يدفعه طمعه الى التقدم نحو فارس ، فجند جيشا وأرسله لملاقاة ياقوت ، والتقى الجيشان عند أرجان سنة ٣٢٣ ، وفى هذه الموقعة انهزم ياقوت هزيمة حاسـمة أضاعت اسمه وقضت على مستقبله الحربى • وانما انهزم ياقوت هنـا لأن كاتبه وهو الذى كان يلى ضمان الأهواز فى نفس الوقت (وهـو عبد الله البريدى الذى ذكرناه فى فصل امرة الأمراء) لم يتعاون معه ، وكان فى الواقع يعمـل للتخلص منه والوثوب على ولايته ، فكان ذلك فى صـالح على بن بويه (١) • ولكن عليا لم يرد أن يتعجل ويسـتولى على الأهواز ، بل اكتفى بتحطيم قوة ياقوت وعاد ثانية الى شيراز ، وبذلك دعم ملكه فى اقليم فارس •ونريد أن نحدد بعد هذا موقف على ابن بويه ، وموقف اقليم فارس من باقى الأقاليم الاسلامية المجاورة له•

أصبح على بويه « طرفدار » مستوليا على هذا الاقليم بالتغلب ، وهو وان كان زيدى المذهب ، فانه لا يتصل بالامامة الزيدية التى كان مذهبه يفرض عليه أن يتبعها ، لأن المهاجرين من الديلم حين بعدوا عن بلادهم الأولى ، وحين بعدوا عن أئمتهم الزيديين الذين ضعف أمرهم ، تحرروا من فكرة الامامة وتصرفوا كيف استطاعوا ، وأباحوا لأنفسهم أشياء لم يكن المذهب يبيحها ، أهمها الاستغناء عن امامه تسيعية أياكانت، والاعتراف بالخلافة العباسية • ولم يكن على بن بويه هو الذى استحدث هذا الوضع الجديد ، وانما سبقه الى السير على هذا مولاه مرداويج

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٩ •

ابن زيار ، وسار على ذلك قبل مرداويج « أسفار بن شيرويه » . وعلى هذا تكون العلاقة بين على بن بويه وبين الزيدية علاقة روحية ليس غير، وهى علاقة روحية قوية لأن أنصار الزيدية فى الشمال من نفس أجناد على بن بويه ، ولم يكن من المنتظر أن يوجد عداء بين الطرفين .

أما موقف اقليم فارس من الزياريين فقد حدده الاتفاق الذى أشرنا اليه بين على ومرداويج ، الا أنه كان اتفاقا لايمكن تنفيذه لأن «الطرفدار» الجديد لم يكن أقل قوة من الطرفدار القديم ، وقد كانت بينهما مسافة خاضعة للخلافة تفصل بين أراضى السيد والتابع . وقد قتل مرداويج وكان أخوه وشمكير أقل منه قدرة ، وكان — على أى حال — يواجه صعوبات سياسية تحول بينه وبين جعل التبعية المتفق عليها حقيقة عملية (١) . ولو أراد فعلا تنفيذ التبعية لما استطاع بسبب قوة على بن بويه ، فالفريقان متساويان فى كل شىء ، وليس لدى ابن بويه ما يجعله يلين فى معاملة الزياريين كما كان يمكن أن يلين لو كان تعامله مع أئمة الزيدية ، فالزياريون فى نظر على بن بويه ينقصون عن الامامة الزيدية شيئا هاما هو الهيبة الروحية .

أما علاقة على بن بويه والخلافة فقد تحددت بمقتضى التقليد الذى أرسله الخليفة ، وهو تقليد قضت به الظروف ، وقد حاولت الخلافة أن تسترجع هيبتها فتطاولت جيوشها على مشارف فارس ، فكانت واقعة أرجان سنة ٣٢٣ هـ ، وفيها ردت جيوش الخلافة وتأكد قيام على ابن بويه بحق التغلب أو حق الاستيلاء ، وسنرى أن أمور الخلافة كانت الى نزول واضطراب ، بحيث لم يجد الناس فى العراق وسيلة للاصلاح الا باستدعاء بنى بويه والترحيب بهم ، ليكونوا أصحاب الأمر فى هذا الاقليم الذى هو اقليم الخلافة الأول .

أما علاقة على بن بويه بجيرانه الشرقيين وهم آل سامان وعاصمتهم

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٠٥ ، ١١٤ .

بخارى أو سمرقند بحسب العصور . فان السامانيين كانوا طرفا بعيدا وكانت دولتهم تقوم بدور خاص في حياة العالم الاسلامى وهو دور الدفاع عن الثغور ، وكان قيامها بهذا الدور يجعل لها مكانة خاصة : ويدر عليها أسباب العمران والرواج الاقتصادى ، كما يدر عليها عطف كل المسلمين ، لقيامها عن هذا العالم كله بواجب مقدس ، ولذلك لم تكن الدولة السامانية تستطيع أن تنحرف انحرافا كبيرا عن مهمتها الثغرية ، ولم تكن تتدخل فى أمور المنطقة الوسطى من العالم الاسلامى ، فان مشاكل هذه المنطقة معقدة مستمرة بحيث كان واجب السامانيين أن يتحاشوا الدخول فيها ، وحسبهم أن يقوموا بأمور ثغرهم لينالوا ثناء العالم الاسلامى بدوله المختلفة . وكانت فارس التى استقر فيها على ابن بويه فى ناحية أخرى خارجة عن المنطقة التابعة لآل سامان ، وكانت آخر منطقة من المناطق الخاضعة للخلافة فى الشرق ، فكانت الخلافة هى صاحبة المشكلة ، وكان فى وسع الخلافة أن تستعين بالسامانيين ، الا أنها انما تطلب من أمثال هؤلاء الولاة الشىء الممكن والشىء الذى تتحقق به مصالح العالم الاسلامى . ولهذا لم يتدخل السامانيون وتركوا الأمور على ما هى عليه وأصبحوا مقرين للأمر الواقع .

والنتيجة من كل ما سبق أن عليا بن بويه صار متمكنا من اقليمه معترفا به من الجميع غير متوقع لهجوم عليه ، وقد اختار مكانا ممتازا بعيدا عن مراكز القوى الاسلامية المختلفة ، وأصبح فى امكانه أن يوسع قاعدته وأن يجعل من اقليم فارس مركزا لدولة أكبر ، تجمع الى اقليم فارس كل الأقاليم ذات العصبية الايرانية التى يمكن أن تنضم الى هذا المركز الجديد .

وأول بلد أراد على بن بويه ضمه هو اقليم كرمان ، فأرسل اليه جيشا بقيادة أخيه الأصغر أحمد ظهرت شجاعته فى موقعة القنطرة(١) . وفتح هذا الاقليم كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لفارس ، فاقليم فارس

(١) ابن الاثير : ج ٨ ص ٩٥ .

محدود من الشمال باقليم الأهواز ، ومن الغرب والجنوب بالبحر ، أما من الشرق فهو محدود بكرمان فى قسمه الجنوبى وبالصحراء فى قسمه الشمالى ، فهو بطبيعة هذه الحدود يتعرض للغزو من ناحية كرمان أو من ناحية الأهواز، فلا شك أن نية البويهيين عندما بعثوا الجيوش الى كرمان كانت تهدف الى تأمين ظهر اقليم فارس . وكان اقليم كرمان اقليما سهل الفتح ، وان كان تابعا للدولة السامانية ، فهو أولا بعيـد عنها شيئا ما ، وهو غير متصل بها الا بممر من السهل حراسته عند مدينتى اسيرجان وبم، ثم ان هذا الاقليم محدودا من الشمال بالصحراء ، ومن الشمال الشرقى بالممر المذكور ، ومن الشرق بجبال وعرة ينزلها شعب ايرانى متبربر هو شعب القفص والبلوص ، والحد الجنوبى هو البحر ، أما الحد الغربى فهو اقليم فارس (١) . ومدخل كرمان من ناحية فارس مدخل سـهل ، اذا دخلت منه جيوش غازية ضيقت على الجيوش الموجودة فيه وأخـذت عليها مسالكها ، واذا آوت هذه الجيوش المدافعة فانما تأوى اما الى الجبال ، واما الى الممر للالتجاء الى أملاك الدولة السامانية . وهذا ما وقع فعلا عندما دخلت جيوش أحمد بن بويه سنة ٣٢٤ هـ ، فلم تجد عناء كبيرا فى الاستيلاء على البلاد ، وخرج والى كرمان فارا بجنده من الممر . ونزل رؤساء القفص والبلوص ليؤدوا الى المتغلب الجديد ما اعتادوا من الاعتراف بالطاعة ، وكان هذا الشعب يعيش عيشته الخاصـة مسـتقلا لا يتعرض له ولاة كرمان ولا يتعرضون هم لهم ، واستمروا على ذلك أجيالا طويلة . فلما دخل أحمد بن بويه ، وكان شابا متهورا ، غدر بالقفص والبلوص وأراد اقتحام بلادهم بالقوة فدخل الجبال معتزا بقوة جنـده ، ولكن أهل الجبال عادة ذوو حرص وحذر فعلموا بمسيره ووضعوا له كمينا فاجأوه به على حين غرة ، فقتل معظم رجاله وأصيب هو بضربة قطعت يده اليسرى من الساعد وبعض أصابع يده اليمنى ، وأشفى على الموت لولا أن عالجه زعيم القفص والبلوص وأوصله مأمنه واعتذر لأخيه . الا أن أحمد عاد بعد شفائه الى هذه البلاد ، ونكل بأهلها فشكوا الى أخيه

---

(١) انظر ياقوت : معجم البلدان : ج ١٦ ، ص ٤٥٤ (طبعة بيروت) .

الذى رأى أن الأمر قد يحرج فاستدعى أخاه ، وولى غيره من اتباعه من يستطيع أن يجرى فى سياسة هذا الاقليم على الوضع التقليدى (١) . وفى هذه الحملة برزت صفات أحمد بن بويه : فهو فارس معتد بقوته ، أحمق يتعجل فى الالتجاء الى القوة ، غير بصير بفضل السياسة لمن يملك فى نفس الوقت القوة . وسنراه يسلك نفس هذا السلوك فى كل مكان يصـــل اليه .

بعد أن آمن على بن بويه ظهره من ناحية الشرق بالاستيلاء على كرمان ، كان عليه أن يؤمن جبهته من الناحية الشمالية ، من ناحية الأهواز والأهواز اقليم هام جدا بالنسبة للعـــراق وبالنسبة لفارس ، ولم تكن أهميته تخفى على بنى بويه ، فان الذى يملك الأهواز ويستكمل قوته يستطيع أن يسد كل طريق على القوات المقيمة بفارس . فوجود سلطة قوية بالأهواز كان معناه سد الطريق على بنى بويه وحصرهم فى مجـال ضيق ، وقصر نشاطهم بالتالى على هذا المجال الاقليمى وحده ، فان كان لبنى بويه طموح فالأهواز هى باب هذا الطمـــوح ، فهى التى تصـــلهم بالشمال ببلادهم الأولى ، وهى التى تصلهم أيضا بالعراق . وهى من الناحية الاستراتيجية دهليز العراق كما هى دهليز فارس ، ومن أجـــل ذلك قرروا الاستيلاء على هـــذا الاقليم الهـــام .

وقد واتتهم الفرصة حين لجأ اليهم البريدى فارا من وجه قوات الخلافة بعـــد أن خان سيده ياقوت ـــ كمـــا أوضحنا ذلك فى حديثنا فى فصـــل امرة الأمراء ـــ فأغراهم بامداده ببعض الجند لاعادته الى الأهواز ، وحين قرر البويهيون امداد البريدى بالجند كانوا يخفون نواياهم الحقيقية ، وكانوا يطمعـــون فى الاستيلاء على الأهواز استيلاء تاما . ولمـــا لم يكونوا يثقون فى البريدى فقد استرهنوه اثنين من أبنائه ، وتقدم جيش بويهى يقوده أحمد بن بويه ذلك الفارس العنيف . واستطاع هذا الجيش متعاونا مع قوات البريدى فتح الأهـــواز دون عناء كبير .

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٣ ـــ ١١٤ .

لكن أحمد بن بويه والبَريدى لم يتفقا ، وذلك لأن البريدى كان يتوهم أن بنى بويه يساعدونه ثم يرجعون مكتفين بأن يخطب البريدى باسمهم ، وبالتبعية الاسمية لهم ،لكنه رأى جنود أحمد مستقرة فى البلاد لا تريد الخروج عنها ، والسبب الثاني هو أن جنود أحمد كانوا من الديلم وجنود البريدى كانوا من الترك وكانوا أقلية ، والشعبان متباغضان . فوقع التشاحن بين الطرفين ، وانتهزت الدولة فى بغداد فرصة هذا التشاحن فأرسلت قواتها بقيادة « بجكم » لاسترداد الأهواز ، ووقف هذا عند حدود الأهواز القريبة من العراق منتهزا الفرصة للتدخل ، وأحس أحمد ابن بويه بتحرج الموقف فأرسل الى أخيه ، فأمده بجيش تمكن به من طرد البريدى من الأهواز فتراجع الى البصرة ، كما اضطرت قوات الخلافة الى التراجع ، وأصبحت الأهواز بهذا فى يد بنى بويه (١) •

وقعت الأهواز فى يد بنى بويه وقوعا سهلا ، لأنهم انما دخلوها بارشاد رجل عاش فيها وعرف أهلها وأطمعهم فى كثير من المغانم اذا عاد ، فكان دخولهم الأهواز أمرا سهلا • وبهذا تم لبنى بويه توسيع قاعدتهم توسيعا ملائما لما يضطرب فى نفوسهم من آمال ، فهم قد ملكوا قطعة من الأرض كبيرة ، وملكوا مفتاح التوسع نحو الشمال ونحو العراق ، وأصبحت حدودهم ترتكز من ناحية على الجبال الواقعة شرق كرمان ، وعلى الصحراء التى تتوسط بلاد ايران ، وعلى الحدود الحصينة بطبيعتها التى تفصل بين اقليم الأهواز والجبل ، وأصبح نزولهم من الأهواز الى العراق أمرا ميسورا • ولم يكن على بن بويه يتعجل النزول الى العراق ، وانما ظل البويهيون يرقبون أحداث العراق حتى استدعوا اليه فدخلوه •

كانت الحالة فى العراق مضطربة أشد الاضطراب فى الوقت الذى أخذت فيه الهجرة البويهية تتجه الى الجنوب ، وكانت الخلافة واقعة

---

(١) نفس المصدر : ص ١٢٩ — ١٣٠ •

تحت نفوذ القواد الأتراك ، وكانت الأمور المالية مختلة أشد الاختلال ، وخزائن الخلافة خالية ، والخلفاء يقعون فى ضائقات كبيرة نتيجة لتحكم الأتراك وجشعهم ، كما كان الجند يلتفون حول قوادهم الذين يحققون لهم المصالح المادية ، وليس للخلافة فى واقع الأمر سلطة على هؤلاء الأجناد. ونتيجة لهذه الظروف الاقتصادية والعسكرية استدعى الخليفة الراضى والى واسط محمد بن رائق وقلده منصبا جديدا هو منصب أمير الأمراء. وكان الخليفة يرمى من وراء ذلك الى حل مشكلة الخلافة المستعصية فى العراق ، والتخلص من ربقة التسلط على شخصيات الخلفاء لمباشرتهم السلطة بأنفسهم وتعرضهم لمطالبها مع عجزهم المالى لاستقلال معظم الأطراف ، وعجزهم العسكرى لعدم خضوع الجيش للخلافة ، هذا الجيش الذى أصبح ولاؤه لقواده ولمصالحه .

لكن امرة الأمراء عجزت عن اقرار الأمور فى العراق ، وعجزت عن حل المشكلة التى كانت تواجه الخلافة نتيجة لوقوعها فى نفس الموقف الذى كان قبلها . وهو تنازع القواد ، وتحزبات الأجناد ، كما رأينا ذلك تفصيلا فى فصل امرة الأمراء .

وفى هذا الوقت كانت الهجرة البويهية قد استقرت فى فارس ، وأقامت الأسرة البويهية لها ملكا موحدا — كما رأينا — وأصبحت من موقعها تطل على العراق وترقب ظروفه ، وكان الناس فى العراق ، وقد أحسوا بفشل أمراء الأمراء ، يتطلعون الى هذه القوة الجديدة التى ظهرت قريبا منهم ، وأثبتت كفايتها وجدارتها . فكاتب القواد فى بغداد أحمد بن بويه الذى كان يحكم اقليم الأهواز منذ فتحها سنة ٣٢٦ هـ ، وطلبوا اليه المسير اليهم والاستيلاء على هذه المدينة ، ونلاحظ أن حزب الديلم فى بغداد هو الذى كان بيده الأمر بعد أن تغلب توزون على امرة الأمراء ، ثم خلفه ابن شير زاد .

وتقدم أحمد بن بويه الى بغداد ، فخرج الأتراك عنها ، واستقبله

الخليفة المستكفى واحتفى به ، وخلع عليه ، ولقبه « معز الدولة » ولقب أخاه عليا « عماد الدولة » وأخاه الحسن « ركن الدولة » وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم (١) . وبدخول أحمد بن بويه وتوليه امرة الأمراء فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ ابتدأ العصر البويهى الذى استمر حتى سنة ٤٤٧ هـ .

العلاقة بين بنى بويه والخلافة :

خلفاء العصر البويهى هم : المستكفى وقد خلع فى نفس السنة لانعدام الثقة بينه وبين أحمد بن بويه (٢) . والمطيع وقد حكم ٢٩ سنة (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) والطائع وقد حكم ١٨ سنة (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) . والقادر وحكم ٤١ سنة (٣٨١ — ٤٢٢هـ) . ثم القادر وقد حضر نهاية العصر البويهى وابتداء العصر السلجوقى .

لم يتغير الخلفاء فى هذا العصر بسرعة كما كانوا يغيرون ويخلعون بعد بضع سنين فى العصور السابقة ، ومعنى هذا أن الخلافة تعرضت مرات أقل لمهزلة الانتخاب الذى كان شكليا ، والذى لم يكن يشرف أى خليفة يقع عليه الانتخاب . ونلاحظ فى العصر البويهى شيئا من الاستقرار ، فالخلفاء ، يحكمون عشرات السنين دون أن يتعرض لهم أحد من ذوى السلطان . ومرد ذلك الى أن امرة الأمراء فى العصر البويهى كانت تتحمل كل المسئولية ، على حين بقى الخليفة رمزا لا يتولى من حقيقة السلطان شيئا قابلا لأن ينازعه أحد عليه ، فالخليفة لم يكن مسئولا قط عن الخزانة ، ولا عن الادارة المالية ، ولا عن الجند ولا عن السياسة ، وانما هو الذى يستطيع أن يعطى كل تصرفات البويهيين المالية والعسكرية والسياسية صفتها الشرعية . فالاستقرار اذن كان ناشئا عن وقوف الخلافة موقفا سلبيا ، مع أن الناس تعودوا أن يجدوا شخصية الخليفة ايجابية فعالة . وهذا التحول الذى صارت اليه الخلافة هو الذى أحزن كثيرا من الناس

(١) الاثير : ج ٨ ، ص ١٦١ .
(٢) انظر نفس المصدر والصفحة فى سبب خلع المستكفى .

مدفوعين الى ذلك بدافعين : الأول دينى ، وهو النظر الى شخص الخليفة باعتبـاره من آل البيت الذين يحملون تراث النبـوة ، والثانى قانونى فقهى ، وهو أن الخليفة رأس الدولة وصاحب الحق فى كل التصرف ، وفى الجماعات دائما طوائف من الناس تميل الى تأييد الوجهة الشرعية ، وهم الذين يرون أن تسير الأمور وفقا للتقاليد والقواعد المقررة القديمة، ولكن مسئولية هذا الوضع الجديد لاتقع اطلاقا على ملوك بنى بويه ، فهم لم يستحدثوا شيئا من النظم ، وانما ساروا على سـنة انشئت من قبـلهم ، وحلوا محل أمراء الأمراء أمثـال ابن رائق وبجكم وتوزون وغيرهم ، وكل الذى استجد انصب على التلقيب ، فقـد أصبح أمراء بنى بويه يلقبون بالملك (١) .

والواقع أن تلقيب أمراء بنى بويه بلقب «الملك» أو«شاهنشاه»(٢) كان فى محله ، لأن أمراء الأمراء من البيت البويهى كانوا أقدر وأقوى من أمراء الأمراء السابقين الذين كانوا لا يعتمدون الا على أجناد متقلبـين فى أهوائهم ، بعكس أجناد بنى بويه الذين كانوا يحسـون بقوميتهم الفارسية ، وبنوع من احياء التراث الفارسى القديم ، فكان لهم شعور قوى يهديهم الى المصالح العامة ، ويردهم عن الانطلاق وراء أهوائهم فى كل وقت .

وأكثر المؤرخين يميل الى القول بأن بنى بويه أذلوا الخلفاء بسبب مذهبهم المختلف ، وأنهم سـلبوهم سـلطانهم وجعلوا منهم العوبة فى أيديهم (٣) والحقيقة أن بنى‌بويه ورثوا وضـعا قام من قبلهم ، ولم يكن لهم يد فى هذا التطور الذى صارت اليه أمور الخلافة فى بغداد ،

---

(١) ابن العميد : ناريخ المسلمين ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ . ابن خلكان : ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٢) ابن العميد : ص ٢٤١ . ابن خلكان : ج ، ص ٤١٦ .

(٣) ابـن الأثـير : ج ٧ ، ص ١٦٢ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٤٢ ، ٤٨ - ٢٤٩ . Arnold : The Caliphate p. 68.

وقد بدأ هذا التطور من أيام الخليفة الراضى الذى ألجأته الضرورة إلى انشاء منصب أمير الأمراء ، ويقول ابن الأثير « لما رأى الراضى وقوف الحال عنده ألجأته الضرورة الى أن راسل أبا بكر محمد بن رائق وهو بواسط ، يعرض عليه اجابته الى ما كان بذله من القيام بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد ، فلما أتاه الرسول بذلك فرح به وشرع يتجهز للمسير الى بغداد ، فأنفذ له الراضى الساجية وقلده امارة الجيش وجعله أمير الأمراء ، وولاه الخراج والمعادن فى جميع البلاد ، والدواوين ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر .. وبطلت الدواوين فى ذلك الوقت ، وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور ، وانما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها . وكذلك كل من تولى امرة الأمراء بعده . وصارت الأموال تحمل الى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ، ويطلقون للخليفة ما يرون ، وبطلت بيوت الأموال »(١) .

وهكذا نرى أن بنى بويه لم يستحدثوا هذا المنصب ، وهم حين تولوا هذا المنصب لم يغيروا شيئا اطلاقا . ولم يستحدثوا قليلا ولاكثيرا ، فقد كانوا يسمون أمراء الأمراء فزادوا على ذلك لقب «الملك» وليس اللقب بشىء . ثم ان معاملة بنى بويه للخلفاء جرت على نسق السنن السابقة ، بل لعلهم كانوا أكثر مجاملة من غيرهم لأنهم كانوا أكثر قوة . ومع ذلك فهناك تغيير طفيف هو جعل امرة الأمراء وراثية فى بيت معين ، فأصبحت المناصب تورث . ولكن مبدأ الوراثة لم يحرم الخلفاء شيئا ، لأن أمراء الأمراء كانوا — كما رأينا — يتولون برغم أنف الخليفة لأنهم يتصرفون فى جند قوى غالب ، فلم يكن الخليفة يختار أمراء الأمراء . فاذا جاء أمير الأمراء القوى واستطاع أن يجعل هذا المنصب وراثيا كان ذلك مدعاة للاستقرار ، وكان فى ذلك رفع للمنصب عن مستوى النزعات العصبية بين الترك والديلم وغيرهم . ثم ان الأسرة التى تتولى هذا المنصب بصفة وراثية لابد أن تحس بما يلقى عليها من المسئولية ، ولابد أن تحس فى أغلب الأحيان بأن سلطانها مستقر متوطد ، على حين كان أمير الأمراء

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٢ .

قبل بنى بويه لا يثق بغيره اطلاقا . ولا يثق بقواده الذين لا يخلون قط من الطمع ، بل رأينا الجند يتبعون هذا القائد أو ذاك حسب تقديرهم لامكانيات ذلك القائد ، أولاقبال حظه ، أو لتوقعهم أن يظفر بذلك المنصب الكبير ، بحيث كان من المستطاع أن نعرف شخصية القائد بعدد من يلتف حوله من الأتباع . فانتقال هذا المنصب الى الأسرة البويهية كان فى ذاته خيرا لا شرا ، ولم يكن فى نفس الوقت تجديدا بل كان استمرارا فى نظام بدأ من قبل . ونحب أن ننظر فى المسألة من وجهة أخرى فنتساءل : هل فقد الخلفاء شيئا ؟ . لانظن أن الخلفاء فقدوا شيئا ، فحق التعيين فى المناصب كان حقا صوريا لا يمارسه الخليفة ، فالظروف هى التى كانت تملى عليه الوزراء ، والأزمة المالية هى التى كانت تضطره أن يعزل الوزير ليصادر ماله ، وفى سنة ٣١٢ هـ عزل الوزير ابن الفرات وسجن وعين واحد غيره ، فلما علم ابن الفرات باسم من يخلفه قال « الخليفة هو الذى نكب لا أنا » (١) فالخليفة فى الواقع لا يختار رجالا وانما هى الظروف تملى عليه الأشخاص . فالوزير حامد ابن العباس لم يكن من المؤهلين للوزارة ومع ذلك تولى هذا المنصب لأنه غنى (٢) . أما بالنسبة للقضاء فكان العرف الجارى هو أن يدفع القاضى قبل أن يولى مبلغا من المال كنوع من الواجب ، فلما تولى معز الدولة امرة الأمراء فرض على قاضى القضاة مالا سنويا ، فكان لهذا الأمر صدى أدى الى ثورة على هذه المسألة ، وقالوا انه يبيع مناصب القضاء ويقرر على القاضى وعلى المتقاضين(٣) وظنوا أن العدل لايتحقق بهذه الطريقة . ومع ذلك فالفرق يسير جدا بين أن نأخذ المال مرة واحدة وبين أن نأخذ كل سنة ، لأنه من المستطاع اخذ المال مرة واحدة ثم عزل القاضى كل سنة أو كل ستة أشهر ، وقد كان العزل يحدث كثيرا بسبب حاجة الخزانة الى المال .

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٥١ .
(٢) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢٥٧ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٩٣ . السيوطى : تاريخ الخلفاء : ص ٢٦٥ — ٢٦٦ . الصولى : ص ١٤٦ .

أما القواد الذين أصبحوا رجال الدولة ، فقد كانوا قبل العصر البويهي رجال الدولة أيضا ، فقد قال الراضي « ملكوا الأمر دوني » (١) .

أما حق التصرف في الأموال العامة ، فقد كان حقا مقررا للخليفة صوريا ، أما فعلا فان هذا الحق كان ملغيا لا يمارس لأن الأزمة المالية كانت شديدة ، بحيث لا يستطيع الخليفة ولا غيره أن يدبر الأمور تدبيرا اراديا تاما . وقد كانت الأموال قبل العصر البويهي عندما أنشئت امرة الأمراء تحمل لا الى خزائن الخلفاء ، وانما الى خزائن أمير الأمراء . فالبويهيون هنا لم يستحدثوا شيئا كذلك .

أما فيما يختص بنفقات الخليفة ، فان أمراء الأمراء كانوا قد جعلوا لتلك النفقات ضياعا خاصة تسمى الضياع المستخلصة (٢) . أما بنو بويه فجعلوا للخليفة راتبا يوميا يأخذه يسمى « مياومة » ولما وجدوا أن أن ذلك غير عملي لأن الأموال قد تتأخر ، أضافوا الى المياومة ضياعا كالضياع المستخلصة (٣) . ومع ذلك فقد كان الخليفة في بعض الأحيان يصادر فتسلب داره ويؤخذ ما فيها من نفائس (٤) ، وقد يحدث هذا نحو ثلاث مرات طوال العصر البويهي ، لكنه قد حدث كذلك من قبل . وقد يكون هذا شرا ، ولكنه شر لم يوجده البويهيون ، وانما وجد قبل عهدهم ، بل ان المصادرة في عهدهم كانت أقل . فقد نهب الراضي ، واضطر الى أن يدفع لأمير الأمراء مبالغ من المال مع أنه غير مسئول عن الانفاق ، بل انه دفع آنية الذهب والفضة ليصوغوها نقودا (٥) ، وكذلك نهب الخليفة المتقي وسمل (٦) . وكان الخليفة اذا خرج الى حملة بجيشه وانتهى ما بيده من المال لا يستطيع الاستمرار في الحروب .

---

(١) الصولي : ص ٩٦ .
(٢) الصولي : ص ١٣١ — ١٤٥ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٦١ .
(٤) نفس المصدر .
(٥) الصولي : ص ١٠١ ، ١٣١ ، ١٤٥ .
(٦) الصولي : ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

أما تصرف الخليفة في الجيوش فكان حقا ضوريا أيضا ، فاذا أصبحت الجيوش في يد بني بويه فلم يكن ذلك احداثا لسنة جديدة ، فقد كان الخليفة الراضي يقول « ليس لي جيش كجيش الأخشاد » • وقد قال مرة أخرى « لو كان مثله عندي وكان جيشه مكان هذا الجيش : فانه أشبه بجيش آبائي » (١) • فلم يكن للخليفة جيش قبل العصر البويهي ، حتى نقول مع القائلين أن البويهيين اغتصبوا من الخليفة شيئا •

أما الخطبة والسكة ، فان القاعدة كانت أن يخطب للخلفاء ولأمير الأمراء معهم على جميع منابرهم • ونظن أن العبارة كما هي تدل على أن الخطبة تكون لأمير الأمراء مع الخليفة على جميع المنابر حتى في بغداد نفسها ، لأن اللفظ ورد هكذا « على جميع المنابر (٢) » • ومع ذلك فاننا نلاحظ من سياق النصوص بعد ذلك أن بغداد كانت مستثناة ، حيث كان لايخطب الا للخليفة وحده ، فلما تولى بنو بويه خطب لهم في بغداد مع الخليفة (٣) • والمسألة لا تعدو أن تكون حقوقا • أما كتابة اسم أمير الأمراء البويهي على السكة فقد كان أمرا جرت به السنة من قبل •

اذا صح ما نذهب اليه من أن بني بويه لم يغتصبوا الخلفاء الذين عاشوا في عهدهم شيئا ، فلماذا نجد في كثير من الأخبار التاريخية أقوالا تتردد بأن الخلافة قد ذهبت بهجتها واضمحل أمرها ؟ • ونجد كثيرا من المؤرخين يحملون بني بويه مسئولية هذا الاضمحلال ؟ • كل هذا في نظرنا أقوال غير صحيحة ، وقع أصحابها في تيار المبالغة من ناحية ، وفي تيار الأسى على مصير الخلافة من ناحية أخرى • على حين نلاحظ أن بني بويه انما خدموا الخلافة ، وجعلوا منصب أمير الأمراء أكثر استقرارا ، وجعلوا اتجاه دفة السياسة اتجاها واحدا مستمرا في يد

---

(١) نفس المصدر : ص ٤٤ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٢ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٤٩ .

واحدة قوية آمنة على نفسها • ثم ان أسلوب المجاملة الذى كان يتبعه البويهيون اذا مثلوا فى حضرة الخلفاء كان يدل على عظيم توقيرهم لهم ، ويقول بعض المؤرخين « أظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة ما كان دارسا ، وجدد دار الخلافة حتى صار كل محل منها آنسا » (١) فالخلافة فى الجملة لم تفقد هيبتها فى العصر البويهى بل كان بنو بويه خير خدام الخليفة على النحو الذى صورناه •

وللعصر البويهى ميزة أخرى ، وهى أن الخلافة فى العصر البويهى أفسحت صدرها للمذاهب ، فصار الخليفة خليفة للسنة وللشيعة على حد سواء • وهذا الوضع جديد لم يحدث مثله من قبله ، فلم يكن أهل السنة أو العباسيون يجيزون للشيعة أن يجهروا بمذهبهم ، ولا أن يدعوا له ، ولم يكونوا يعترفون به اطلاقا ، وكان اذا ظهر من العلويين رئيس روقب ووضعت عليه الجواسيس ، فاذا ثار من جراء هذه المضايقات أو اذا ثار مطالبا بالخلافة حورب بجيوش الخلافة • أما فى العصر البويهى فان الشيعة والسنة اصطلحوا على أن يتمتع كل فريق منهم بالحرية المذهبية • ونستطيع أن نطلق على العصر البويهى لذلك عصر الحرية المذهبية •

ومع أن البويهيين كانوا شيعة الا أنهم لم يعاملوا أهل السنة معاملة سيئة ، بل ان صدرهم اتسع للحرية المذهبية اتساعا كبيرا ، وقد أظهروا من سعة الأفق ما كان الصاحب بن عباد خير مثال عليه ، فهو يقول فى رسائله « وقد كتبت فى ذلك كتابا أرجوه يجمع على الألفة ، ويحرس من الفرقة ، وينظم على ترك المنازعة ، والجنوح الى الموادعة ، فان المهادنة تجمل بين الملتين ، فكيف بين النحلتين ، والله نسأل توفيقا لأنفسنا ولهم (٢) » وكانوا يرون فى التدابر المذهبى ما يفرق بين الناس

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٩ •
(٢) رسائل الصاحب بن عباد : الرسالة الخامسة من الباب السادس ، ص ٩١ (تصحيح عبد الوهاب عزام الطبعة الأولى) ، وانظر كذلك الرسالة السادسة ، ص ٩٢ — ٩٤ •

بدون وجه حق ، فيتكدر الأمن العـام ، وتذهب مصـالح النـاس ومعايشهم ، ويرون أن الاسلام وقد اتسع أفقه لمعايشة الأديان الأخرى ، فان التباغض والعـداوة بين أهله أنفسـهم أمر منكر لا يصـح أن يقـره مسلم .

والبويهيون شيعة على مذهب الزيدية ، وهو مذهب تطور وتعددت فرقه ومقالات أصحابه ، وأقرب فرق الزيدية الى بنى بويه هى فرقـة السليمانية ، وهم الذين ساروا بالمذهب الزيدى نحو التسامح ، ونحو اتساع المذهب لكل مقالة ولكل ميل : فان سليمان بن جرير صاحب هذه الفرقة كان يقول « ان الامامة شورى فيما بين الخلق » ولا نميل الى جعل هذه العبارة ذات معنى مطلق ، فالشورى هنا هى نوع من الاختيار فى بيت معين ، وهو اختيار يحدث من تلقاء نفسه لخروج رجل من آل البيت والتفاف الناس حوله ، والالتفاف هو الذى يأخذ مظهر الشورى ، بدليل قول الشهرستانى . « ويصح أن تنعقد (الشورى) بعقد رجلين من خيار المسلمين » والسليمانية هم أول من قال بالمقالة التى طبقها البويهيون فى القرن الرابع : قالوا « الامامة من مصالح الدين ، ليس يحتاج اليهـا لمعرفة الله تعالى وتوحيده ، فان ذلك حاصل بالعقل ، لكنها يحتاج اليهـا لاقامة الحدود ، والقضاء بين المتحاكمين وولاية اليتامى والأيامى ، وحفظ البيضة ، واعلاء الكلمة ، ونصب القتال مع أعداء الدين ، وحتى يكون للمسلمين جماعة ، ولا يكون الأمر فوضى بين العامة . فلا يشـترط أن يكون الامام أفضل الأمة علما ، وأقدمهم عهدا ، وأسدهم رأيا وحكمة ، فان الحاجة تنسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل (١) » .

هذه المقالة السليمانية تلقى ضـوءا كثيرا على موقف البويهيين من الخلفاء العباسيين . فالخليفة العباسى مفضول لكن ولايته جائزة ، وهو ليس أفضل الناس علما ، والسليمانية تقول لا يشترط أن يكون الامام أفضل الناس علما ، ومبدأ صحة امامة المفضول مع وجود الأفضل يجيز

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ « طبعة الحلبى » .

من غير شك أن تخرج الامامة عن البيت العلوى الى بيت آخر مفضول ، ثم ان الامامة مصلحة من مصالح الدين وليست ركنا ، فلا نعجب اذا قال الشهرستانى « ومالت جماعة من السنة الى ذلك » ، والسليمانية لم تقف عند هذا الحد بل قالت انه يجوز أن يكون الامام غير مجتهد ولا خبير بمواقع الاجتهاد ، ولكن يجب أن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد فيراجعه فى الأحكام ، ويستفتى منه فى الحلال والحرام ، ويجب أن يكون فى الجملة ذا رأى متين وبصر فى الحوادث نافذ .

ونحن اذا أردنا أن نستفيد عن طريق الفرق الزيدية فى فهم المبادىء الزيدية كما اعتنقها بنو بويه ، وجب علينا أن ننتهج نهجا خاصا ، فنحن لا نفهم مبدأ بنى بويه على أساس ما كتبه الشهرستانى ، بل على أساس الواقع أولا ثم على أساس الاستنارة فقط بما كتبه الشهرستانى . وهذا هو النهج الذى نريد أن نحدد به مبادىء البويهيين الزيدية .

الملاحظ أن الممالك الزيدية كالمملكة الزيارية والمملكة البويهية قبل أن تتدخل فى أمور بغداد ، وبعد ذلك ، انتهت كلها بأن اعترفت بالخلافة وكانت قبل ذلك قد استقلت بالملك ، ولم تتبع اماما معينا من أئمة الزيدية فهى فى الحالتين لم تتبع اماما زيديا . فهل كانت خارجة على مبادىء الزيدية ؟ . الواقع يدل على أنها لم تعتبر نفسها خارجة ، فلقد ظلت قبل وبعد اتصالها بالخلافة تعتبر نفسها دولا زيدية ، وتدين بتبجيل أهل البيت وباحترام البيت الفاطمى العلوى (١) . وقد حرصت تلك الدول على تنمية العلوم الشيعية ، فليس من العدل أن نتهمهم كما اتهمهم بعض المؤرخين أنهم خانوا مبدأهم ، واتبعوا الخليفة السنى جريا وراء مصالحهم الخاصة (٢) . وهؤلاء المؤرخون كانوا يتوقعون منهم أن يعزلوا الخليفة السنى ليولوا على أنفسهم اماما من آل البيت . الا أن بنى بويه حين

(١) كانوا يزورون مشهد الحسين حفاة . انظر ابن كثير : ج ١٢ ، ص ٧ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٦٢ .

انتصروا ، انتصروا وهم لا يدينون بالــولاء لامام زيدى ، بل كانــوا مستقلين عن آل البيت يدبرون ملكهم بأنفسهم ، مكتفين بوجود مجتهدين فيما بينهم تنسد بهم الحاجة الدينية ، ويكونون الوسيلة التى يفهم الناس الدين عن طريقها ، فان الله يعرف بالعقل كما قالت بعض الفرق الزيدية . وكان فى امكانهم أن يلغوا الخلافة السنية حقيقة . ليضعوا محلها خلافة شيعية . الا أن مثل هذا كان يعرض العالم الاسلامى لهزات عنيفة ، فان مثل هذا التغيير كان أمرا لا يقبله المشرق كله : لا يقبله السامانيون، ولا الغزنويون ، ولا يقبله كثير من السنة الذين كانوا أغلبية فى العراق وفى اقليم الجبل ، وفى شيراز . فلو أن الدولة البويهية ألغت الخلافة العباسية لعرضت العالم الاسلامى الشرقى لحروب أهلية ، ولعرضت نفسها لهجمات من جانب السامانيين والغــزنويين . فكانت الحكمــة السياسية تقضى عليهم بأن يبقوا القديم على قدمه . وكانت الحكمــة السياسية تملى عليهم أن يتبعوا المبدأ الذى يقول بجواز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، فأجازوا على هذا الأساس الذى أقره المبدأ الزيدىُ، وعلى أساس المصلحة السياسية أن يدينوا بالولاء لخليفة سنى ، واكتفوا بوجود المجتهدين من بينهم كالصــاحب بن عباد باعتبــاره مجتهدا ، والقاضى عبد الجبار باعتباره قاضيا فقيها من قضاة الزيدية .

ملوك بنى بويه

ذكر ملوك بنى بويه فى هذا العصر أهم من ذكر الخلفاء ، فانه لم يكن للخلفاء شأن كبــير فى تصريف أمور الدولة البــو يهية ، وان كان نفوذهم الروحى ظل محترما فى المشرق خاصة . فقد كان المغرب بيــد الفاطميين ، وكان بنو أمية فى الأندلس لا يدينون بالولاء للخليفة العباسى بل انهم نادوا لهم بخلافة أموية ، ولم يكن لهم غير السامانيين والغزنويين وهؤلاء كانوا منصرفين لمهمتهم الثغرية فى المشرق .

وأول شىء نلاحظه عندما نذكر بنى بويه ، هو أنهم كانوا أقل ثقافة من الفرس المستقرين فى البلاد التى تغلبوا عليها ، ذلك لأنهم كانوا فى

طرف من الأطراف التى كانت خارجة عن العالم الاسلامى ، وعن نطاق الحضارة حتى منتصف القرن الثالث الهجرى • فهم قوم قريبو عهد بالحياة القبلية . وحديثو عهد بالمدينة • فلما تم لهم الغلب لم ينسوا تقاليدهم القديمة . فاعتبروا البلاد التى تغلبوا عليها ملكا خاصا لهم يرثه الأبناء . وينقسم هذا الملك بمقدار عدد الأبناء • وهذه الفكرة غير اسلامية ، لم يطبقها العرب على بداوتهم ، ولم يعتنقها العالم الاسلامى الا تحت ضغط الغارات البويهية ، والسلجوقية فيما بعد • ولهذا لم يلبث الملك البويهى أن تعرض لتقسيمات كثيرة بعد عهد البويهيين الأوائل ، وصار صاحب كل قسم يحاول أن يتغلب على القسم الآخر • ومن الانصاف أن نذكر للبويهيين وهم حين كانوا متأثرين بتقاليدهم الأعجمية غير الاسلامية ، أنهم حاولوا أن يتمسكوا بفكرة التوحيد السياسى الإسلامية ، وحاول ملوكهم لذلك أن يجمعوا أملاك البيت البويهى كلما قسمها الميراث • ولذلك تعرضت الدولة البويهية لهزات عنيفة بسبب التناقض بين هذين التقليدين •

ونلاحظ كذلك أن مركز الدولة البويهية تغير مرات كثيرة ، فقد كان مركزها فى شيراز طوال حياة « عماد الدولة البويهى » مؤسس الأسرة الى أن مات سنة ٣٣٨ هـ ، ثم انتقلت رياسة البيت وانتقل معها مركز الدولة الى الرى . حيث كان « ركن الدولة » الأخ الذى يلى « عماد الدولة » فى السن ، وظل مركزها بالرى الى أن توفى « ركن الدولة » عام ٣٦٦ هـ ، ثم انتقل مركز القوة مرة أخرى الى بغداد عندما آلت رئاسة البيت البويهى الى « عضد الدولة » ، وظلت بغداد مركزا للعالم البويهى من سنة ٣٦٧ هـ الى عهد ابنه الثالث « بهاء الدولة » الى أن نقل هذا مركز الدولة الى شيراز مرة أخرى فى سنة ٣٨٩ هـ • ومن هذه الأمثلة نستطيع أن نتصور أن الدولة كانت تتأرجح ، وأن هذا التأرجح كان يعرضها لهزات عنيفة ويجعل الحياة قلقة فى هذا العصر من الناحية السياسية على الأقل •

أول أمراء بنى بويه هو « عماد الدولة » الذى كان بالنسبة لأخويه كالأب ، وهو الذى قاد الهجرة الديلميـــة نحو الجنوب ، وكان اخوته كالقواد بالنسبة له . فلما استقر الديلم فى شيراز كان عماد الدولة هـو الذى ينشىء لاخوته الممالك ، فيرسلهم الى نواح يقتحمونهـا ويملكهم عليها ، وكان لذلك يتحمل مسئولية الاخفاق اذا حدث ، فهو الذى أصلح أخطاء أخيه معز الدولة فى كرمان (١) ، وهـو الذى أنقذه من حبائل البريدى بالأهواز (٢) ووجهه آخر الأمر الى بغداد ، فكان هو المتصرف فى أمور ملكه ، وكذلك كان أخوه الذى جاء بعده وهو ركن الدولة يطاع من بقية أفراد البيت البويهى لأنه كان من نفس الجيل ، وكانت تقاليده هى التقاليـــد الأولى .

فلما آل الأمر بعد ذلك الى طبقة عضـــد الدولة وهو الجيل الثانى تغيرت الحال بعض الشىء ، الا أن عضد الدولة استطاع بالقوة أن يفرض على كل أفراد البيت البويهى الولاء للدولة والحرص على الصالح العام . الا أن الالتجاء الى القوة صـــار سابقة يتبعها كل من راوده الطموح ، وصار الحال بعد عضـــد الدولة مختلفا . اذ أن عضـــد الدولة فتح باب الخلاف ، وقدر بعده على أفراد هذا البيت أن يفترقوا أبدا .

وجاء بعد جيل عضد الدولة جيل أبنائه الثلاثة : صمصام الدولة ، وشرف الدولة ، وبهاء الدولة ، وتولوا رئاسة الدولة واحدا بعد واحد ، وتنـــازعوا على الملك نزاعا طويلا ، حتى آل الأمر الى الأخ الأصـــغر بهاء الدولة ، فاستقرت الأمور فى أيامه .

ثم كان بعد هذه الأجيال الثلاثة جيل رابع هو جيل أبناء بهاء الدولة فانه قد كان من تمكن بهاء الدولة وعلو أمره ما مهد الأمر لأولاده فكانت الرياسة فى أولاده دون غيره من اخوته . فتولى الملك من بعده أولاده ،

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

(٢) نفس المصـــدر ، ص ١٢٠ .

سلطان الدولة ، ومشرف الدولة ، وجلال الدولة . فلما آل الأمر الى هذا الجيل الرابع غلب الانقسام فأصبح كل واحد منهم مستقلا بناحيته ، بحيث لا يدع للأكبر أو لمن يجب أن يتولى الرياسة رسميا مجالا للتدخل. وهذا الانقسام كان سببا فى ضعف الأسرة ، فان العراق بلد مضطرب يأكل كل حكامه ، فاذا كان صاحب العراق مستقلا كان الجند وكان كبار الولاة أقدر على التحكم فيه ، فكانوا يثورون وهم آمنون من أن يأتى مدد من شيراز أو من بلاد الجبل .

وفى هذا الجو المضطرب القلق اتجهت النفوس الى شيراز ، وكان فيها أحد أبنائه سلطان الدولة وهو « أبو كاليجار » فانضوى الجميع تحت لوائه ، وقد دفعهم الى هذا التضامن احساسهم بالضعف وبقرب النهاية . ثم ان أبا كاليجار لم يحكم وحده الا خمس سنين ثم آل الحكم من بعده الى ابنه الملك الرحيم ، وهو آخر ملوك بنى بويه ، وفى عهده دخل طغرلبك السلجوقى بغداد سنة ٤٤٧هـ وأزال ملك البويهيين .

بعد هذا الاجمال نعود الى شىء من التفصيل :

عماد الدولة :

كان عماد الدولة يتلقب بلقب الملك ، وليس هذا اللقب غريبا على العالم الاسلامى ، فقد اعترف به الخلفاء منذ أيام بنى أمية لرؤساء العجم فهم قد اعترفوا بملوك الترك فى بلاد ما وراء النهر ، وكانت منزلة الملك من غير شك أقل من منزلة الخلفاء . وهناك لقب آخر من ألقاب الرياسة هو لقب سلطان ، وهو لقب لم يتلقب به البويهيون ، وانما تلقب به رؤساء الدولة الغزنوية ، فهم أول من تلقب بلقب السلاطين ، ثم نراه بعد ذلك لقبا لرؤساء السلاجقة .

كان على بن بويه عماد الدولة رئيسا للدولة البويهية ، وكان أخوه معز الدولة ممثلا له فى بغداد وكان يتلقب هو وصاحب الجبل (ركن الدولة) المقيم بالرى بلقب الأمير . وظل الحال على هذا فى التلقيب الى

آخر أيام الدولة البويهيـــة ، ونلمس هـــذا واضحا فى رسائل الصاحب ابن عباد فانه فى رسائله يذكر أميره مؤيد الدولة أو فخر الدولة مقرونا باسم الامارة ، فاذا ذكر لفظ الملك فانما كان يشير فى الحقيقة دائما الى عضد الدولة ملك بنى بويه ورئيس البيت البويهى (١) .

كانت الأمور مستقرة أيام عماد الدولة مؤسس الأسرة ، ولكن من سوء حظ هذه الأسرة أن عماد الدولة لم يعمر أكثر من أربع سنوات بعد الاستيلاء على بغداد ، فلم يتح لبنى بويه الوقت الكافى لتنظيم الوضع الجديد تنظيما تاما ، ونعرف من سيرة عماد الدولة قبل ذلك أنه لم يكن يتعجل التطورات التاريخية ، بل كان دائمـا يميل الى تثبيت كل خطوة يخطوها قبل أن يفكر فى خطوة جديدة ، وتلك الأناة هى التى أفادت الدولة فى عصرها الأول وثبتت دعائمها . فلما توفى عماد الدولة عام ٣٣٨هـ(٢) جرت الأمور على طريقة غير متوقعة لرجل يعيش فى العـــالم الاسلامى ، بل جرت على سنة قبلية بربرية ، فلم يرث الأخ الأوسط ركن الدولة الا الرياسة ، وظل حيث هو :

ركن الدولة :

لم ينتقل ركن الدولة الى شيراز عاصـــمة الدولة ، وانما أنتقلت الدولة اليه ، وتحولت العاصمة من شيراز الى الرى (٣) . ثم ان ركن الدولة لم يكن فى قوة عماد الدولة ولا فى سطوته ، بحيث يقطع على كل مشاغب ميله الى الشـــغب ، بل كان منبع الشـــغب ابنا له هو عضـــد الدولة ، وهذا الابن كان قد ولى بعد عماد الدولة أمر شـــيراز ، لأن عمه لم يرزق ولدا ، فاختاره لهذا المنصب (٤) . وكان من واجب عضد الدولة أن يستشير أباه ركن الدولة فى كل شىء ، وأن تكون سياستهما

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد : على سبيل المثـــال : ص ٣ ، ٤ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ وغيرها .
(٢) ابن كثير : ج ١١ ، ص ٢٢١ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٧٤ .
(٤) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٧٤ .

واحــدة ، الا أن الذى حدث كان غير ذلك ، فان عضــد الدولة اتجه بأطماعه الى بغداد وأراد أن يجمع لنفســه السلطة فى اقليم فارس فى العراق فى وقت واحد ، فدس لابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة الذى كان قائما بعدأبيه فى بغداد ، ولم يكن هذا الدس الا فرصة اختلقها عضد الدولة لكى يبرر أطماعه ، ولكى يســير الى بغداد ويستولى على الســلطان فى حاضرة الخلافة (١) • وحدث كل هــذا الاعتداء من قبل عضــد الدولة على ابن العم بختيار وركن الدولة حى قائم ، فلما تفاقم الأمر لجأ ركن الدولة الى التهــديد بجمع الجيوش والســير لحربه ، وعندئذ فقط رجع عضد الدولة وترك ابن عمه بختيار كما هو فى بغداد وعاد الى شيراز (٢) • وهذه الحادثة تكشف أن السياسة البويهية لم تكن واحــدة ، وأن عز الدولة بختيار كان يسير فى اتجاه وابن عمه عضــد الدولة كان يسير فى اتجاه ، وأن ركن الدولة بالرى كان يسير فى اتجاه آخر ، وكان هو الوحيد الذى يمثل تقاليد الأسرة ، الا أنه كان يعرض هذه التقاليد فرضــا يحتاج منه الى شيء من العناء ، فلم يكن اذن من السهل على ركن الدولة أن يدبر هذا الملك الواحد الذى كان يدبره أخوه الأكبر عماد الدولة من قبل •

ونستطيع أن نقول بناء على هذا أن الدولة مالت منذ اللحظة الأولى الى استقلال أجزائها بعضها عن بعض ، فكان كل جزء من أجزاء الدولة البويهية الثلاثة يميل الى الاستقلال بأمر نفسه • فكان من المنتظر عند موت ركن الدولة أن تعرض الدولة لأزمة شديدة ، وفعلا وقعت الأزمة •

عضــد الدولة :

مات ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ ، وآلت رياســة البيت البويهى الى عضــد الدولة • وفى السنة التالية لوفاة أبيه سار بجيوشــه الى بغداد

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ •
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ •

وحارب ابن عمه بختيار وقتله سـنة ٣٦٧ هـ (١) ، فحقق عضـد الدولة ما كان أبوه من قبل منعه من تحقيقه . وبقتله بختيار ضـمن أن يكون الوارث الوحيد للملك بنى بويه الثلاثة ، واجتمعت لذلك رياسـة البيت البويهى لعضد الدولة واستقرت فى بغداد ، وأصبحت عاصـمة الخلافة عاصمة أيضا لبنى بويه . فالعاصـمة تتبع الرئيس وتكون حيث كان ، ولا تكون فى مركز مختار لصفاته الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية .

فلما دخل عضد الدولة بغداد كان ذلك وضعا جديدا ، فان بغداد من قبل كانت تتلقى دائما نائبـا عن البيت البويهى ، أما فى هـذه المرة فهى تتلقى ملك بنى بويه ، ولهذا اسـتحدثت بعض مراسـيم ملوكية لم تكن متبعة أيام معز الدولة ولا عز الدولة بختيار ، فألقيت الخطبـة وذكر فيها عضد الدولة ، وضربت الطبول نوبا ثلاثا على بابه (٢) . وكان طبيعيا أن يحيط عضد الدولة نفسه بهذه المراسيم لأنها نفس المراسيم التى كان يتبعها فى شيراز ، ولأن معز الدولة أو عز الدولة كانا اذا زارا ملك بنى بويه فى شيراز أو الرى يقدمان له من مراسيم الاحترام ما يقـدمه الرجل العـادى أمام ملكه ، كانوا يقفون بحضرته ولا يجلسـون برغم الالحاح ، وكانوا يقبـلون الأرض بين يديه (٣) . وها هو الذى تقبـل الأرض بين يديه يحضر الى بغداد ، فكان من الطبيعى أن يقتضى الوضع بعض مراسيم جديدة لم تكن متبعة من قبل ، فعضـد الدولة فى الحقيقة لم يكن حين احتفظ بوضعه كملك يريد الاعتداء على الخلافة كما قد يفهم من سرد خبر الخطبة والطبل مجردا من كل شرح فى النصوص التاريخية ، ونحن نعرف أن عضد الدولة كان شديد الاحترام للخلفاء (٤) ، فلم يكن اذن أمر الخطبة والطبل يتناقض قط مع احترام الخلفاء .

(١) مسكويه : ج ٢ ، ص ٣٨٠ — ٣٨٦ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٤٩ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٣ ، ص ٣٠٠ .
(٤) أنظر مسكويه : ج ٢ ، ص ٤١٧ (وصف حفلة عقـد العهد الى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ) .

كانت الدولة قوية جدا فى عهد عضد الدولة لأنه استطاع أن يجمع السلطة كلها فى يده بحيث لم يشاركه أحد فى السلطان ، ولهذا يمكن أن يقرن حكمه بحكم سابقيه ، أبيه وعمه من قبل ، وبهذه الطريقة سارت الدولة قدما لم تتأخر فى شيء ، وأوتيت مدة طويلة من الثبات من سنة ٣٣٤ — ٣٧٢ هـ أى ثمانية وثلاثين عاما الى آن مات عضد الدولة ، الا أن هذا الازدهار كان يحمل فى طياته بذرة فاسدة هى التى ابتدعها عضد الدولة وهى سنة اعتداء بعض أفراد البيت البويهى على بعض • وقد يعتذر له عن هذا بأنه انما أراد الوحدة ، متأثرا فى ذلك بالتقاليد الاسلامية القديمة من ناحية • ومستجيبا لغريزة الأثرة من ناحية آخرى • وعلى أى حال فان جيل عضد الدولة وأبنائه من بعده لم يكن كجيل آبائه ، وانما كان جيلا يطمع أفراده جميعا فى الرياسة •

ابناء عضد الدولة : صمصام الدولة ، شرف الدولة ، بهاء الدولة :

لم يعمر عضد الدولة بعد دخوله بغداد سوى خمس سنين ثم مات فى سنة ٣٧٢ هـ (١) ، ثم آل الأمر من بعده الى أولاده الثلاثة : صمصام ، وشرف ، وبهاء ، تداولوا الرياسة واحدا بعد واحد ، وأقاموا فى بغداد جميعا ما عدا الثالث وهو بهاء الدولة : فانه لم ينتقل عن بغداد الا بعد أن تغلب على كل المعارضات الناجمة ضده ، ثم تحول بعد عشر سنين من ولايته الى شيراز (٢) ، وهو موقن أن لا حياة للدولة اذا استمر مركزها فى بغداد ، وكان يدرك من غير شك أن قوة الدولة ومركزها يجب أن يعود الى شيراز ، وهذا يذكرنا بأن اختيار مؤسس البويهية لشيراز كان اختيارا موفقا ، وأن العاصمة حين تنقلت فى ارجاء الملك البويهى هذا التنقل كانت تستنفد جزءا من قوة الدولة •

كان أول من تولى بعد عضد الدولة من أبنائه ، ابنه صمصام الدولة • وظل فى بغداد زمنا ثم غلبه عليها أخوه شرف الدولة وأرسله

---

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٧ •
(٢) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٥٧ •

الى شيراز حيث اعتقله وسمله[1] . الا أن هذا المطرود المعمول أوتى من طول العمر ما لم يؤته أخوه المتغلب عليه المستمر فى بغداد ، الا أن أخاه شرف الدولة حين مات قام مقامه فى بغداد أخ ثالث هو بهاء الدولة [2] .

وعلى أى حال فمنذ أن غلب صمصام الدولة الى أن قتل فى أيام بهاء الدولة ، كانت الدولة منقسمة الى ثلاثة أقسام : قسم فيه صمصام الدولة وقاعدته شيراز ، وقسم فيه شرف الدولة ثم بهاء الدولة ومركزه فى بغداد ، وقسم ثالث هو القسم الشمالى : قسم الجبال ، وهو قسم محايد يميل أحيانا الى هذا الفريق وأحيانا الى الفريق الآخر . وظل هذا الاضطراب قائما منذ أن غلب صمصام الدولة فى بغداد عام ٣٧٧ هـ الى الى عام ٣٨٨ هـ حين انتصر بهاء الدولة على خصمه وأخيه صمصام ، فكانت الحروب تمزق جسم الدولة طوال هذه الفترة [3] . ثم ان النصر لم يأت لأن بهاء الدولة كان أقوى بكثير من أخيه ، بل ان النصر جاء دون أن يسعى له بهاء الدولة ، وذلك بسبب ثورة قامت فى شيراز ضد صمصام الدولة ، وكانت ثورة قام بها الجند الديلم وقام بها أولاد عز الدولة بختيار الذى قتله عضد الدولة ، فانهم اشتركوا فيها وقتلوا صمصام الدولة وقالوا وهم يقتلونه « هذه سنة سنها أبوك » [4] . ولحسن حظ الدولة عاد السلام من سنة ٣٨٩ هـ الى أن توفى بهاء الدولة عام ٤٠٣ هـ .

استطاع بهاء الدولة أن ينفرد وحده بالسلطان وأن ينهض بالدولة وأن يعوض ما خربته الحرب ، وبخاصة فى الأهواز التى كانت الميدان الذى تلتقى فيه الجيوش عندما تحشد اما فى شيراز واما فى بغداد . وكانت الدولة منذ نشأت تسير الى الأمام دائما ماعدا الحوادث الثلاثة التى ذكرنا : الحادث الأول هو مسير عضد الدولة ضد ابن عمه بختيار أيام ركن

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧ — ١٨ ، ٢٢ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣ .
(٣) انظر ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٩ — ٥٣ .
(٤) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٥٣ .

الدولة . والثانى هو مسيره بعد وفاة أبيه وقتله بختيار عام ٣٦٧ هـ . والثالث هو فترة الاضطراب التى استمرت اثنتى عشرة سنة بين صمصام الدولة واخوته وعلى الأخص بهاء الدولة . والى هنا نستطيع أن نقول ان سفينة الدولة سارت بسلام ، وان الحكام استطاعوا أن يبرئوا الدولة من الجروح القليلة التى كانت تصيبها . اما بعد هذا التاريخ فان النزاع يزداد ، فكان كل جيل أشد من سابقه ميلا الى التنازع والى الانانية والأثرة .

ولقد تبين لأمراء البيت البويهى فى أثناء هذا النزاع الذى كان قائما بوجه خاص بين شيراز وبغداد أن من يملك شيراز لا يكاد يغلب ، وأن من يملكها ويملك الى جانبها الأهواز يستطيع أن يتحكم فى المنطقة العراقية وفى منطقة الجبل على السواء ، ولهذا السبب حرص البويهيون على أن يكون مركز قوتهم فى شيراز ، أو على الأقل أن تكون شيراز فى متناول يدهم .

ابنـاء بهـاء الدولة : سلطان الدولة — مشرف الدولة — جلال الدولة :

اضطربت الأمور بعد بهاء الدولة لأن أبناءه الثلاثة استأثر كل واحد منهم بناحيته . فان أولهم وهو سلطان الدولة الذى ولى من ٤٠٣ — ٤١٥ هـ وأقام فى شيراز ، ولى أهل بيته النواحى ، فولى أخاه مشرف الدولة امرة الأمراء ببغداد ، وولى أخاه جلال الدولة منطقة البصرة ، وأخاه أبا الفوارس كرمان (١) فمال كل واحد منهم الى الاستقلال . أما أمير الأمراء فانه أراد أن يعتبر نفسه رئيس البيت البويهى ، فقطع الخطبة لأخيه سلطان الدولة فى النصف الأخير من ملك أخيه عام ٤١١ هـ (٢) . ثم ان جلال الدولة بالبصرة حاول من ناحيته أيضا أن يكون كما كان البريدى من قبل . واذا تتبعنا أخبار جلال الدولة وجدنا وجوه شبه كثيرة بينه وبين صاحب البصرة القديم الذى استطاع أن يقف على نحيه

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٩٠ .
(٢) نفس المصدر : ص ١١٨ .

مدة طويلة (١) وأمام أزمة عدم التضـامن هـذه كان أمام أمراء البيت البويهى حلان : اما أن يلجأوا الى العنف فيستنفدوا قوات أنفسهم ، واما أن يلجأوا الى السياسة . ثم غلبوا السياسة فى آخر الأمر واتفقوا على أن يستقل كل واحد منهم بناحيته . ثم حل موت سلطان الدولة الموقف حلا نهائيا سنة ٤١٥ هـ قالت الرياسة الى مشرف الدولة صاحب امرة الأمراء ببغداد ، وانتقلت الرياسة معه اليها ، ولكنه لم يعمر بعد أخيه الا عاما واحدا (٢) ، فتوحد الملك البويهى من جديد لجلال الدولة ، فحكم مدة طويلة تبلغ تسعة عشر عاما أتيح له فيها أن يستعيد حيوية البيت البويهى ، وبينما كان جلال الدولة يدبر أمر الملك البويهى من بغـداد ، كان فى شيراز ابن لسلطان الدولة هو أبو كاليجار واليه انتقلت الرياسة بعد جلال الدولة . وظل أبو كاليجار خمس سنين ، ثم خلفه آخر ملوك الأسرة البويهية وهو أبو نصر خسرو فيروز الملقب بالملك الرحيم . وفى عهده دخل السلاجقة العراق سنة ٤٤٧ هـ .

* * *

مما سبق نرى أن البيت البويهى لم يوجـد قاعدة ثابتة لرئاسـة الدولة ، فاختلف أفراده فيما بينهم اختلافات كثيرة أضاعوا فيها جزءا من حيويتهم ومن نشـاطهم . وكانوا فى أثناء هـذا النزاع الأسرى انما يستجيبون لطبيعتهم البدوية المتبربرة ، تلك الطبيعة التى تعتبر الملك ملكا خاصا للملك ، له أن يقسمه كيف شـاء لا كما تشـاء ظروف اسـتقرار الشعوب ، فالأرض هنا غير ثابتة ، وليست لها حدود معينة ، وانما يمتد الملك بقدر قوة الممـالك وسيوفه وجيشه .

فالسبب الأول فى ضعف البيت البويهى كما نرى ، هو أن بنى بويه لم يحتفظوا بتضامنهم فكان كل من يؤول اليه جزء من هذا الملك ينزع الى الاستقلال ، ويعتبر ما بيده ملكا خاصا موروثا ، وكان بذلك يهدد

---

(٢) نفس المصدر : ص ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٩ .
(١) نفس المصدر : ص ١٢٥ ، ١٢٩ .

الصالح العام ، ويهدد مبدأ التضامن وهو المبدأ الذى قام عليه كيان البيت البويهى فى عهد على بن بويه وأخويه . وظل هذا الانقسام يزداد الى أن أحسوا آخر الأمر بالخطر فلم يغن عنهم تضامنهم فى اللحظة الأخيرة شيئا .

والسبب الثانى هو أن ملوك بنى بويه ضيقوا على أنفسهم أفقهم ، فلم يلتفت ملوكهم الى الحوادث الكبيرة التى كانت تقع فى العالم الاسلامى فى البلاد المجاورة لهم : لم يلتفتوا غربا الى نهضة بيزنطة فى أيام الدولة المقدونية ، والى غاراتها على الشام وانتصارها انتصارا حاسما على الدولة الحمدانية . فلم يشاركوا الأمم الاسلامية المجاورة فى الذود عن الحدود ، مع أن الملاحظ بالتجربة أن الدول انما تكبر وتندعم بمقدار ما تتحمل من أعباء عامة ، فلما قصرت هذه الدولة فى تحمل الأعباء العامة انحسرت عنها الأنظار وضعف اسمها . ولم تزد مشاركة بنى بويه للأمم الاسلامية الغربية فى دفع الخطر عن التفكير ولكنهم لم ينفذوا شيئا . ولعلهم شغلوا عن الجبهة الرومية وعن التعاون مع الممالك الغربية بما كان بينهم من خلافات . ثم ان بنى بويه من ناحية أخرى لم يشاركوا فى الدفاع عن الجبهة الشرقية التى كان يحمل أعباءها السامانيون والغزنويون ، وهم حين قصروا فى هاتين الجبهتين رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مملكة اقليمية ، ولم يحرصوا على أن يكون لهم دور الصدارة فى العالم الاسلامى . وبذلك لم ينالوا حب العالم الاسلامى وعطفه ، ولعل ذلك هو الذى حدا بالمؤرخين الى ذم بنى بويه واتهامهم باذلال الخلافة ، ثم كان ذلك سببا فى قصر عمر دولتهم فلم تعمر أكثر من ١١٣ سنة .

الفصل الثانى

العصر السلجوقى

السلاجقة مجموعة من القبائل التركية التى عرفت باسم « الغز » كانت تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم (بحر آرال) فتنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيجون . وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة نسبة الى رجل منها تزعمها هو « سلجوق بن دقاق » ، ولم يكن لهذه القبائل اسم خاص تعرف به قبل تولى سلجوق هذا رئاستها ، ويبدو أنه هو الذى جمع شملها ووحدها تحت زعامته ، ثم قادها ونزل بها أرض الاسلام ، فأسلمت معه فنسبت اليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده (١) . وقد قاد أبناء سلجوق الهجرة التركية الى غرب العالم الاسلامى .

والهجرة التركية من الهجرات العالمية الكبيرة التى أثرت فى التاريخ الاسلامى ، بل أثرت فى التاريخ العام تأثيرا كبيرا ، ونقطة التحول فى حياة هؤلاء الترك ، بل نقطة الانطلاق ، كانت حين اعتنقوا الاسلام حين وصل الى بلادهم ، وباعتناقهم الاسلام انهار الحاجز الذى كان يفصل بينهم وبين الأمة الاسلامية ، بل بينهم وبين التاريخ العالمى . فأخذوا يتسربون الى ممالك المسلمين يدخلون فى خدمة ملوكها وأمرائها وقوادها ، ويمدون العالم الاسلامى بقوة جديدة ويعطونه حيوية كبيرة . ثم واتتهم الظروف بعد أن دخلوا فى المجال الاسلامى فكونوا لأنفسهم دولا وجلسوا على كراسى الملك .

وهكذا رفع الاسلام من قدر الترك ، فأدخلهم فى نطاق التاريخ

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٦٧ . عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق : ص ١٧ .

العالمى . ثم مهدوا هم لأنفسهم فيه مكانا عليا ، حين جعلوا من الاسلام الراية التى يلتفون حولها ، فانعشوا قوة الاسلام فى دار الاسلام ، ثم مضوا بهـا قدما يركزونها فى معالم الطريق الذى ساروا فيه فى البر والبحر ، حتى قدر لهم أن يزيلوا آخر الأمر أكبر دولة غربيـة كانت تنازل العالم الاسـلامى وهى الدولة البيزنطيـة . وأن يبلغوا بممالك الاسلام حتى وسط أوربا (١) .

والهجرة التركية التى تولى زعامتها بنو سـلجوق تشـبه الهجرة الديلمية التى تزعمها بنو بويه فى نواح وتخالفها فى نواح أخرى . فأما وجه الشبه بين الهجرتين ، فهو أن كلتا الهجـرتين نفذت على مـراحل ، ونفذت فى كل مرحلة منها حتى تثبت أقدامها فى المكان الذى وصلت اليه. ثم ان كلا من البويهيين والسلاجقة تطلعوا الى الوصول الى مركز الخلافة العباسية والسيطرة عليه وحكمه باسم الخلافة ، وكلاهما وصل الى غايته، وكلاهما حاول حكم العالم الاسلامى الشرقى كله ، فأما البويهيون فلم يستطيعوا تحقيق هذه الغاية . وأما السـلاجقة فقد نجحوا ، بل امتدت مطامعهم الى أكثر من ذلك . وكلا الطرفين شل يد الخلافة وقام بالحكم المباشر دونها مع اظهار الطاعة لها واظهار الاحترام لخلفائها .

وأما وجه الخلاف بين الهجرتين ، فان الهجرة البويهية سارت فى فراغ بين قوتين هما قوة الخلافة فى العراق وقوة السامانيين فى المشرق ، فكان مرورها فى الخط الضعيف هينا سهلا ، فلم تتعرض لحروب كبيرة، وأما الهجرة السلجوقية فقد اقتحمت مجالا قويا كانت تسيطر عليه قوتان، هما الدولة السامانية ، ثم الدولة الغزنوية من بعـدها ، وقد اسـتطاع السلاجقة أن يحظوا بعطف الدولة الأولى ويتعاونوا معها ، أما الثانية فقد صارعوها صراعا شديدا حتى استطاعوا أن يحلوا محلها ، ويردوها الى الركن الغربى من المشرق الاسلامى الذى بدأت منه . ثم ان الهجـرة

---

(١) عبد النعيم حسنين : انظر المقـدمة بقلم الدكتـور احمـد عزت عبد الكريم : ص ح .

البويهية كانت فى تقدمها تسير الى غاية تسعى للأمن فيها ، فكان توقفها فى أثناء سيرها توقفا بقصد الراحة فحسب ، فلم تكن تستولى على البلاد التى تمر بها ، لأنها كانت مطادرة من ورائها بقوة أكبر ولا ترغب هى فى قتالها ، فكأنها من هذه الناحية تعتبر فارة من وجه أعدائها ، ولم تتوسع الا بعد أن آمنت ، ثم كان توسعها بعد ذلك فى مجال ضعيف . ولكن الهجرة السلجوقية كانت فى تقدمها تملك ما تصل اليه يدها من البلاد ملكا تاما ، وكان توقفها فى مراحل تقدمها لكى تثبت قدمها فيما ملكت يداها ، ولكى ترسم السياسة التى تنتهجها فى المرحلة التالية . فلم يكن تقدمها فرارا من وجه خصومها وانما كان غلبة على هؤلاء الخصوم . والهجرة البويهية امتدت الى مجال محدود ، وركزت جهودها فيه ، أما الهجرة السلجوقية فقد امتدت الى مجال واسع وتطلعت الى غاية كبيرة . وقد رضى البويهيون أن يجعلوا من أنفسهم دولة اقليمية ، ولم يشاركوا فى أحداث العالم الاسلامى الخارجية ، ومن ثم لم يظفروا باحترام العالم الاسلامى ، وظل السلاجقة بعد ذلك يوالون نشاطهم فى الثغر الشرقى أول أمرهم الى المجال الخارجى ، فشاركوا العالم الاسلامى فى أهدافه العامة فى المشرق والمغرب على السواء . وقد بدأت مشاركتهم للعالم الاسلامى فى المشرق منذ دخلوا فى الاسلام ، فان «سلجوق» نفسه نشط بعد اسلامه الى قتال من وراءه من الترك الكفار وأبعد شرهم عن العالم الاسلامى ، وظل السلاجقة بعد ذلك يوالون نشاطهم فى الثغر الشرقى حين اجتمع المشرق كله فى أيديهم ، أما فى الغرب فقد توجهوا منذ وصلوا الى الثغر الغربى الى قتال الروم ، وصبغوا أعمالهم فى هذه الناحية بصبغة الجهاد الدينى ، وحملوا عن العالم الاسلامى فى هذا الثغر الهام عبء الجهاد ، فاقتطعوا من الروم الأناضول وحولوها الى أرض تركية اسلامية ، فمهدوا بذلك السبيل للترك العثمانيين للقضاء على دولة الروم والاندفاع فى الأراضى والبحار الأوروبية ، فكأنهم بذلك حملوا رسالة العرب وحققوا ما كان يصبو اليه خلفاء الأمويين منذ عهد معاوية بن أبى سفيان ، وعلى الرغم من تسلط البويهيين والسلاجقة على الخلافة ، فانها

لم تمتد بطموحها فى العصر البويهى الى استعادة سلطانها على المغـرب الاسلامى ، بل انها كانت تحس بتهديد هذا المغرب لها تحت ســلطان الفاطميين . وقد بلغ هذا التهديد مداه حين وصل النفوذ الفاطمى الى بغداد نفسها وخطب فيها للخليفة الفاطمى المستنصر بالله، أما فى العصر السلجوقى فان الخلافة طمحت الى استعادة سلطانها على المغرب ، فقد قلد الخليفة طغرلبك السلجوقى « جميع ما ولاه الله من بلاده » وخاطبه بلقب « ملك المشرق والمغرب » (١) ويدل هذا على أن الخليفة اعترف لطغرلبك بما صار تحت يده من بلاد المشرق وأذن له فى أن يستخلص المغرب من يد الفاطميين، وهكذا اتسعت آمال الخلافة بقدوم السلاجقة ، كما اتسعت آمال السلاجقة أنفسهم الى أن يمتد سلطانهم من بلاد ما وراء النهر الى مصر الغربية . واذا كان هذا لم يتحقق على يد السلاجقة أنفسهم فانه تحقق على يد صلاح الدين الأيوبى ، الذى يمكن أن نعتبر عصره وعصر مـولاه نور الدين محمود الذى كان أتابكا من أتابكة السلاجقة امتدادا للأثر السلجوقى ، فقد أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية بمصر وخطب فيها للخليفـة العباسى ، وبذلك عاد المغرب للخلافة العباسية ولو بصورة اسمية .

الخطوط العامة للهجرة التركية

بدأت الهجرة التركية الغزية بانحدار هذه القبائل من مساكنها تحت زعامة سلجوق بن دقاق الى بلاد ما وراء النهر فى عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) وأقاموا بهـا متعاونين مع الدولة السـامانية ، يجاهدون من وراءهم من الترك الكفار ، ويساعدون السـامانيين فى حروبهم مع خانات الترك ، وفى نزاعهم مع الغزنويين ، حتى اذا ما انهارت الدولة السامانية عام ٣٨٩هـ دخلت حياة السلاجقة فى طور جديد ، فقد خشـيهم الخانيون فى بلاد ما وراء النهر ، فأغروا السلطان محمودا الغزنوى بهم ، فدبر مؤامرة قبض فيها على زعيمهم اسرائيل بن سلجوق ووجوه قومه وزج بهم فى أعماق السجون . لكنه بعد ذلك أذن لهم فى العبور الى خراسان .

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٣٧ .

وبعبور السلاجقة الى خراسان تبدأ الخطوة الثانية من خطوات الهجرة السلجوقية ، وفى هذه المرحلة اصطدم السلاجقة بالدولة الغزنوية اصطداما مباشرا ، واستطاعوا التغلب على مسعود بن محمود الغزنوى فاستولوا على كل اقليم خراسان ، وأعلنوا قيام دولة السلاجقة ، وطلبوا من الخلافة الاعتراف بدولتهم وبطغرلبك سلطانا عليهم سنة ٤٣٢ هـ • وفى هذه المرحلة امتدوا بنفوذهم على كل أقاليم ايران وأزالوا عنها الملك البويهى كما أزالوا عنها الغزنويين ، وبرزوا بقوتهم فى ثغر الروم ، وأطلوا على العراق •

وكانت المرحلة الثالثة من مراحل الهجرة هى وصول السلاجقة الى العراق ودخول طغرلبك بغداد وازالة ملك البويهيين سنة ٤١٧ هـ ، ومن العراق امتد السلاجقة بنفوذهم الى كثير من بلاد الشام • وبذلك كملت الهجرة وامتد السلاجقة من بلاد ما وراء النهر الى سواحل البحر المتوسط فوجدوا العالم الاسلامى الشرقى تحت سلطانهم ، كما تطلعوا الى ضم المغرب اليه •

كان السلاجقة عنصرا غريبا على البلاد التى دخلوها وغلبوا على الحكم فيها ، فهم شعب متبربر بالقياس الى الشعب الايرانى المتحضر الذى مارس حياة الاستقرار أزمانا طويلة ، وألف الحضارة وكان له تراثه الحضارى العظيم • أما السلاجقة — ونعنى بهم العنصر التركى الذى غلب اسمهم عليه — فانهم لم يألفوا حياة المدن والاستقرار فى مواطنهم الأولى ، بل عاشوا حياة قبلية مطبوعة بطابع البداوة من ميل الى التنقل والارتحال ، طلبا للرزق وانتجاعا الى مواطن الكلأ • فلما هاجروا الى العالم الاسلامى المتحضر كانت جذور الحياة القبلية راسخة فىأعماق نفوسهم ، الأمر الذى صبغ دولتهم بهذه الصبغة ، وكان له أثر كبير فى حاضرهم ومستقبلهم • فقد اعتمد سلاطين السلاجقة على القبائل التركية اعتمادا كبيرا ، وكونوا من رجالها جيوشهم ولذلك شجعوا هذه القبائل

على الوفود الى ايران وغيرها من الأقطار الاسلامية (١)

وكان المظهر القبلى يغلب على سلاطين السلاجقة وبخاصة الأولين منهم ، فالسلطنة عندهم كانت مقترنة دائما بقيادة الجيوش ، لأنها استمرار للأصل الذى نبعت عنه ، وهو رياسة القبيلة وقيادة قواتها المقاتلة ، شأنهم فى ذلك شأن شيوخ القبائل عند العرب (٢) . ولذا نجد كل سلطان من سلاطين السلاجقة يقود الجيوش بنفسه أو يعهد بذلك لأحد من أولاده أو أقربائه أو أحد الأشخاص المقترنة أسماؤهم بأحد أفراد البيت السلجوقى (٣) .

ولغلبة الحياة البدوية على السلاجقة لم يكن سلاطينهم على درجة من الثقافة ، مما جعلهم فى حاجة ماسة الى كثير من الموظفين لاستعمالهم فى المهام المختلفة ، ولذلك برزت فى عهدهم طبقة الموظفين . وازداد نفوذ أفرادها تبعا لأهمية المناصب التى يتولونها ، أو لصلتهم بالسلطان السلجوقى،ومن أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجاب ، الذين استطاعوا أن يلعبوا دورا موجها فى كثير من الأحداث السياسية وغير السياسية ، بل استطاعوا فى كثير من الأحيان أن يسيطروا على السلاطين السلاجقة ، ويوجهوهم وفق ارادتهم (٤) .

كما أن النظام القبلى كان واضح الأثر فى حياة الدولة السلجوقية ، فقد غلبت على سلاطينهم الصبغة العسكرية ، وساعد على ذلك وجود كثير من القبائل السلجوقية فى المدن الرئيسية فى ايران والعراق ، وقد أدت قوة النظام القبلى الى اثارة الفتن والقلاقل فى كثير من مراحل تاريخ السلاجقة ، وهذا يذكرنا باشتعال الفتن بين القبائل العربية فى أمصار

---

(١) عبد المنعم حسنين : ص ١٩ .
(٢) انظر احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ، الفصل الخاص بالنظام القبلى .
(٣) حسين امين : العراق فى العصر السلجوقى : ص ١٨٢ .
(٤) عبد المنعم حسنين : ص ١٩ .

الدولة الاسلامية فى العهد الأموى • فقد كانت القبائل تشعل نيران الفتن فى العصر السلجوقى اذا حرم السلاطين أفرادها من المرتبات التى يؤدونها لهم ، فتزيد الحالة سوءا واضطرابا •

كما أثرت بداوة السلاجقة فى حالتهم الدينية ، فانهم حين دخلوا فى الاسلام تعصبوا له تعصبا شديدا ، ومالوا ميلا مفرطا لأهل السنة والجماعة حين دخلوا الاسلام على المذهب السنى ، وقد انعكس ذلك فى تصرفاتهم فجعلهم يظهرون الولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، ويسعون لازالة خصومه الفاطميين الشيعة • كما كانوا يحترمون رجال الدين احتراما شديدا ، وقد حظى شيوخ الصوفية منهم بالاجلال والتعظيم ، الأمر الذى أدى الى انتشار التصوف فى عهدهم وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام ، فارتفع شأن رجالها ، وعظم تأثيرهم فى حياة الناس (١) •

وثمة ظاهرة أخرى برزت عند سلاطين السلاجقة وهى اعتقادهم بأن حكمهم مستمد من الله ، فهم يقولون بنظرية الحق الالهى فى الحكم ، ويبدو هذا غريبا على قوم انطبعت حياتهم بالنظام القبلى ، ولعل الفكرة جاءتهم عن طريق وزرائهم الفرس وبخاصة نظام الملك ، ويبدو هذا واضحا من كلام نظام الملك نفسه فى كتابه « سياسة نامة » اذ يقول « اختار الله السلطان وميزه على عباده ، وجعلهم جميعا خاضعين له ، ومنه يستمدون نفوذهم ودرجاتهم ، أما هو فيستمد قوته من ربه الذى جعله أمينا على عباده ، وكفاه أن يتحلى بطيب الخلق وحميد الخصال (٢) .» • كما يتضح كذلك من المرسوم الذى أصدره السلطان ألب أرسلان فى تفويض ولده الأعز ملكشاه الى (الخواجا) نظام الملك « وأن نعده ونهيئه لنعمة الملوكية المفوضة من الله تعالى ، والتى حصلها بواسطة تربيتنا

---

(١) عبد المنعم حسنين : ص ٢١ •

(٢) سياسة نامة : ص ٦٢ — ٦٣ • حسين امين : ص ١٨٠ — ١٨١ ، ٣٦٥ •

له (١) » ومعنى هذا أن السلاجقة صبغوا حكمهم بصبغة إلهية دينية ، ليكسبوا حكمهم صفة القداسة وليفرضوا على الناس احترامهم وطاعتهم ، وشاركوا الخليفة العباسى فى نفس الصفة التى يدعيها لنفسه . والأمر فى كلتا الناحيتين غريب على طبيعة السلاجقة الأولى ، كما هو غريب على التفكير الاسلامى الأول . فان السلطان « طغرلبك » أول سلاطين الدولة السلجوقية انتخب على نحو ما ينتخب زعماء القبائل على أساس الخلال الكريمة التى من شأنها أن تخدم مصالح الجماعة والتى منها المقدرة وقوة الشخصية والشجاعة ، كما أن أبا بكر أول خليفة للمسلمين انتخب على أساس خلاله الكريمة وليس على أساس حق إلهى ، وقد حرص هو على ابراز ذلك فى أول خطبة له فى مسجد المدينة فى قوله « أيها الناس : فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى .. » وانما جاءت فكرة الحق الالهى فى الناحيتين من تفكير شعوب كانت قد درجت على اعطاء حكم ملوكها صفة الحق الالهى ونعنى هنا الفرس .

ومع كل هذا فقد ظلت التقاليد القبلية بارزة فى حكم السلاجقة ، ولم يخضعوا لزعيم واحد الا فى عصورهم الأولى حيث كانت الظروف تفرض عليهم التوحد ، ثم لم يلبثوا أن استقل كل واحد منهم بما ملكت يداه ، ودبت الشحناء والمنافسات بينهم حتى كان ذلك سببا فى ضياع ملكهم آخر الأمر .

ونريد بعد هذا التقديم أن نتبع خطوات الهجرة السلجوقية ، ثم نساير الحكم السلجوقى حتى نهايته .

السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر :

بدأت هجرة القبائل التركية الغزية من مساكنها فى أقصى التركستان فى خلال القرون الثانى والثالث والرابع الهجرية ، تحت ضغط ظروف

---

(١) المصدر السابق .

قاهرة ، اما لضيق اقتصادى وعجز الموارد الطبيعية عن اقامة هذه القبائل التى تزايد عددها ، واما تحت ظروف ضغط قبائل أقوى منها اضطرتها الى التخلى عن مساكنها • وقد اتجهت هذه القبائل المهاجرة نحو الغرب، نحو اقليم ما وراء النهر وخراسان •

لكن التاريخ لم يذكر اسم السلاجقة الا منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، حيث بدأ اتصالهم بالعالم الاسلامى ، على يد زعيمهم « سلجوق بن دقاق » الذى يبدو أنه نشب خلاف بينه وبين زعيم تركى آخر ، ففارقه والتجأ الى أرض الاسلام بجماعته ، حيث أملاك السامانيين فى بلاد ما وراء النهر • ولما لم يكن دخول القبائل التركية الوثنية الى بلاد الاسلام أمرا ميسورا فقد أعلن سلجوق وجماعته الاسلام • وكان دخولهم الاسلام على المذهب السنى الذى يرعاه الخليفة العباسى • ونلاحظ هنا الفرق بين دخول الديلم ودخول السلاجقة فى الاسلام ، وهو أن الديلم اعتنقوا الاسلام قبل أن تبدأ هجرتهم للعالم الاسلامى على يد دعاة الشيعة الزيديين فدخلوا الاسلام على المذهب الشيعى الزيدى ، وخضعوا قبل هجرتهم الى داخل العالم الاسلامى للأئمة الزيديين • أما السلاجقة فانهم لم يسلموا الا بعد أن لجأوا الى أرض الاسلام فعلا ، ولما كان السامانيون والخانيون وهم من نزل الترك الغز فى أملاكهم ، من المسلمين السنيين ، فقد دخل سلجوق وجماعته الاسلام على المذهب السنى • ثم لم يلبثوا أن تحمسوا للاسلام تحمسا شديدا حتى أخذ سلجوق يغير على من وراءه من الترك الكفار الذين كانوا يهددون أرض الاسلام • واستطاع القضاء على شرهم •

استطاع سلجوق أن يرضى المسلمين فى بلاد ما وراء النهر بما قام به من أعمال ضد الترك الكفار فيما وراء أرض الاسلام ، ثم أتيحت له فرصة لارضاء ملوك السامانيين حين استنجدوا به فى قتالهم مع الخانيين

(١) ابن الأثير : جـ ٩ ، ص ١٧٦ .

الطامعين فيأملاكهم ، فأرسل لهم النجدات تحت قيادة ولده آرسلان(١) . وكان لهذه المساعدة أثرها الطيب فى نفوس السامانين : فأذنوا لسلجوق وجماعته بالمرور فى أراضيهم ، والاستقرار بطوائف السلاجقة بالقرب من شاطىء نهر جيحون ، حيث اتخذ مدينة «جند» قاعدة له . ثم أخذت القبائل التركية تتوالى على بلاد ما وراء النهر ، حتى اكتملت هجرتهم الى هذه الناحية فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

وبدأ القرن الخامس والسلاجقة يستقرون فى بلاد ما وراء النهر بعد أن تمت هجرتهم من بلاد التركستان . وكانت الدولة السامانية قد انهارت فى عام ٣٨٩ هـ ، وتوزعت أملاكها بين الخانيين والغزنويين . وأخذ السلاجقة وقد كثرت أعدادهم يتنقلون فى اقليم ما وراء النهر فى شبه رحلتين ، فيتجمعون فى الشتاء حول « نور بخارى » وفى الصيف حول « سمرقند » (٢) . واستقرت حياتهم وطاب لهم العيش فى مقامهم الجديد ، ونمت ثروتهم وزاد عددهم ، فبدأوا يستعدون للقيام بدور جديد ، بعد أن جهزوا أنفسهم بالمال والعتاد ، وبعد أن أحسوا بضيق الخانيين بهم ، ومحاولاتهم المتكررة للقضاء عليهم واضعافهم (٣) .

بدأ مركز السلاجقة يتوطد فى بلاد ما وراء النهر ، وأحبهم الناس لما أظهروه من التمسك بأهداب الدين ، والغيرة على الاسلام والتقرب من علماء المسلمين ، حتى لقد أحس الخانيون بخطورتهم عليهم . ولما كان هؤلاء يدركون أنهم لا يقوون على طرد السلاجقة من البلاد ، فقد راسلوا السلطان محمود الغزنوى الذى كان القوة الوحيدة البارزة فى المشرق الاسلامى . وكانت تجمعه بالخانيين فى ذلك الوقت روابط الصداقة والمصاهرة . فأظهروه على قوة السلاجقة وصوروا له مقدار الخطورة الكبيرة التى تكمن وراء وجود هذه القوة خلف ظهره ، فى الوقت الذى

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٧٦ .
(٢) الراوندى : راحة الصدور : ص ١٤٥ .
(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٦ .

يتفرغ هو فيه الى غزواته فى الهند • ولما كان السلاجقة قد أخذوا فعلا يسعون لتوسيع ممتلكاتهم بالاغارة على المناطق المجاورة لهم ، فقد أحس السلطان محمود بخطورتهم ، وكان يدرك بتجاربه الخاصة كيف تتجمع القبائل ، ثم تكون الجيوش ، ثم تقيم الدول • لذلك استمع الى نصائح الخانيين ، وأخذ يفكر فى أنجع الوسائل للقضاء على قوة السلاجقة •

وبتدخل السلطان محمود بدأت صفحة جديدة فى سير الهجرة السلجوقية ، فقد انتقلوا من بلاد ما وراء النهر الى الأقاليم الايرانية ، واستطاعوا أن يقيموا لهم دولة ، ما لبثت أن امتدت على كل أقاليم ايران ، ونالت اعتراف الخلافة العباسية بها •

السلاجقة فى خراسان :

مات سلجوق بمدينة « جند » وترك أولادا أربعة : اسرائيل (بيغو أرسلان) وموسى بيغو ، ويونس ، وميكائيل (١) • وآلت قيادة السلاجقة الى اسرائيل • ولكن أمر السلاجقة علا من بعده على يد ابنى أخيه ميكائيل ، وهما : جغرى بك أبو سليمان داود ، وطغرلبك أبوطالب محمد وهو الذى آلت اليه رياسة السلاجقة العامة وقاد نهضتهم الكبرى •

كان السلطان محمود بالقرب من نهر جيحون سنة ٤١٥ هـ حين اشتكى اليه الخانيون من وجود السلاجقة وحذروه من خطرهم • وحين استطلع هو خبرهم وعلم بعظم قوتهم ، لم يشأ أن يلجأ الى الحرب فى كسر شوكتهم ، وانما فضل أن يأخذ الأمر بالحيلة والدهاء • فأرسل الى السلاجقة رسالة يمتدحهم فيها ، ويعجب منهم — مع حسن تدبيرهم وقوة عقلهم — كيف لا يتصلون به ولا يطلبون منه شيئا • ثم يعرض عليهم عقد ميثاق يؤكد الصداقة والود بينهم ، فهو شديد الرغبة فى مصادقتهم ،

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٦ • حسين أمين : ص ٤٠ •

لا يستغنى عن معونتهم . وهو لذلك يرغب فى أن يقـدم عليـه جميع الاخوة السلاجقة ، فان لم يستطيعوا الحضور جميعا ، فليختاروا واحدا منهم يفد اليه . وحدد مكانا للقاء بالقرب من نهر جيحون (١) .

اختار السلاجقة لمقابلة السلطان زعيمهم اسرائيل ، وسار هذا الى لقاء محمود فى جيش كبير ، لكن السلطان كان يدبر فى نفسـه أمرا ، هو القبض على زعيم السلاجقة ومن معه من الوجوه والقواد . لذلك أرسل الى اسرائيل رسولا يستقبله ، ويقول له : « لسنا الآن فى حاجة الى الاستمداد بجيشك ، وانما جملة مقصودنا أن ننعم برؤيتك والاستظهار بك ، فاترك الجيش فى مكانه ، وتعـال أنت مع خواصـك وأعيـان رجالك » (٢) . وفارق اسرائيـل حذره وانخدع بملاطفـة السلطان ، فترك الجيش وسار فى خاصة قواده ، وأتاح بذلك للسلطان فرصة القبض عليه وعلى قواده والقائهم فى غياهب السجون ، ثم أمر السلطان بحمل اسرائيـل بعيـدا حيث حبسـه فى احـدى قـلاع الهنـد حتى مات سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م (٣) .

كان لفعل محمود أثره الكبير على السلاجقة وعلى الدولة الغزنوية نفسها . فأما أثره على السلاجقة ، فان هذا العمل الذى يتنافى مع تقاليد الشهامة ومع التقاليد الاسلامية ، أحفظهم وجعلهم يصممون على الثـأر لزعيمهم ورجاله ، ولكن فى أناة ودهاء ، فقد علمهم هذا الحادث الحذر والحيطة ، وعدم الأمان لجيرانهم ، فرسموا خطتهم على مصانعة السلطان والمكر به حتى يسـمح لهم بالانتقال الى خراسـان ليبعدوا عن دسائس الخائنين ، ثم اذا وصلوا الى هذا الاقليم وثبتوا أقدامهم ، وسـعوا الى الانقضاض على الغزنويين والأخذ بالثأر منهم ، ثم لتكن خطوتهم بعـد ذلك تكوين دولة قوية لهم تخلف الغزنويين فى اقليمى خراسان وما وراء

---

(١) الراوندى : ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .
(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٧ . الراوندى : ص ١٥٠ — ١٥١ .

النهر ، وتضم اليها ما تستطيع ضمه من كل أجزاء ايران . وأما أثر هذا العمل على السلطان فانه اعتقد أنه كسر شوكة السلاجقة وفل حدهم ، ولذلك فارقته الحيطة والحذر ، فوقع فى كيد السلاجقة الذين أوقعهم من قبل فى كيده .

رأى السلاجقة أن الاشتباك فى حروب مع السلطان قد يعصف بالبقية الباقية من قوة السلاجقة ، نظرا لقوة السلطان محمود ومكانته فى العالم الاسلامى ، ولأنهم فى مواقعهم ببلاد ما وراء النهر يتعرضون كذلك لقوة الخانيين ، وبذلك يضربون من ناحيتين . فآثروا الحيلة حتى ينفذوا الى قلب الدولة الغزنوية نفسها ، فراسلوا السلطان محمود يستعطفونه ويلتمسون منه الاذن بالمرور بالأراضى التى تخضع لسلطانه ، والرحيل الى اقليم خراسان ، والاقامة فى المنطقة الواقعة بين مدينتى « نسا » و « باورد » . وعلى الرغم من تحذير حاكم طوس للسلطان وتبصيره بالخطورة التى تهدد دولته باقامة السلاجقة فى خراسان ، فان السلطان لم يأبه بهذا التحذير ، اعتقادا منه بأنه أضعف قوة السلاجقة حين قبض على اسرائيل وقواده ، فسمح لهم بعبور جيحون ، وفرقهم فى نواحى خراسان واعتبرهم من رعاياه ووضع عليهم الخراج (١) .

كان انتقال السلاجقة الى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل الهجرة السلجوقية ، وتعتبر فى الحقيقة أهم مراحل الكفاح السلجوقى للقيام بدور بارز فى تاريخ العالم الاسلامى . كما كان لهذا الانتقال أثر موجه لمستقبل ايران وما جاورها . فقد أخذ السلاجقة يدعمون قوتهم ، وينتشرون فى الأرجاء المجاورة لهم ، وهم بذلك يتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية واقتلاع جذورها من بلاد خراسان وما وراء النهر .

قاد السلاجقة فى مرحلتهم الجديدة ابنا ميكائيل بن سلجوق : جغرى

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٧ . الراوندى : ص ١٥٣ .

بك أبو سليمان داود ، وطغرلبك أبو طالب محمد . وكانا يتمتعان بنفوذ كبير بين الجند ورجال القبائل ، لما كانا يتحليان به من صفات الفروسية والشجاعة وسعة الرأى وقوة التدبير . وهما اللذان واجها القوات الغزنوية ، وقادا صراع السلاجقة فى خراسان . وذلك أن أهل « نسا » و « باورد » اشتكوا الى السلطان محمود فى أواخر عام ٤١٨ هـ ، فأمر والى طوس باجلائهم ، وكان الوالى نفسه ضيق الصدر من توسع السلاجقة ، فهاجم معسكراتهم . ولكنهم هبوا لقتاله ، واستطاعوا أن يحققوا عليه نصرا كبيرا الى أن تدخل محمود الغزنوى بنفسه وهو الذى استطاع بقواته الكبيرة أن يلحق الهزيمة بهم (١) . لكن السلطان محمود لم يستطع طردهم من خراسان ، بل انهم استطاعوا أن يجمعوا شملهم مرة أخرى ويستعدوا لجولة جديدة .

وواتتهم الفرصة فى سنة ٤٢١ هـ عندما مات السلطان محمود ، فأخذوا يوسعون أملاكهم وينشرون نفوذهم على الجهات المجاورة لهم ، حتى شمل نفوذهم أكثر جهات خراسان . وأدى توسع السلاجقة الى الاصطدام بوالى نيسابور وهى قاعدة الغزنويين فى خراسان ، فدخلوا معه فى حروب طاحنة اضطر فيها الى الاستعانة بقوات السلطان مسعود الذى تولى بعد أبيه محمود ، غير أن السلاجقة حققوا نصرا كبيرا على قوات والى نيسابور ، ثم على مسعود نفسه بعد ذلك ، واضطروه الى عقد صلح معهم (٢) .

أبدى السلاجقة بعد نظر وحكمة ، فبعد انتصارهم على السلطان مسعود ، لم يتعجلوا الأمور قبل أن تتمكن أقدامهم فى الجهات التى حصلوا عليها ، وانما رأوا أن يهادنوا السلطان وأن يحصلوا على كل ما توصله اليهم المهادنة من كسب ، فأرسلوا اليه يعتذرون عما حدث منهم ، وبأنهم انما كانوا يدافعون عن أنفسهم وعن منازلهم وأبنائهم ،

---

(١) حسين أمين : ص ٤٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٨ .

ولولا ذلك ما قاتلوا ولا رفعوا حساما فى وجه السلطان ، ثم يحاولون تخفيف وقع الهزيمة بأن جيش السلطان « أصابته عين حاسدة » فهزم على الرغم منهم . وهم لذلك يطلبون عطف السلطان وعفوه (١) .

كان السلاجقة يبغون من وراء طلب الصلح أن ينالوا وقتا من الراحة والاستقرار ، وليكسبوا شيئا من البلاد يعترف السلطان بحقهم فى ولايتها . وفعلا تحقق لهم ما أرادوا ، فتم الصلح بينهم وبين السلطان على أن تعطى الى بيغو وطغرل وداود ولايات « نسا » و « فراوة » و « دهستان » ويعطى لكل واحد منهم خلعة ومنشورا ولواء ، وأن يقوم القاضى بتسليمهم الخلع بنفسه ، ويأخذ عليهم الميثاق بالوفاء للسلطان . على أن يقتصروا على ولاياتهم هذه ، وأن يأتى أحدهم بلاط السلطان ليكون فى الخدمة (٢) .

وقد نظمت هذه الاتفاقية ، وكتبت « دهستان » باسم داود ، و « نسا » باسم طغرل و « فراوة » باسم بيغو ، ثم وقعها السلطان ، ووجهت اليهم رسائل منه ، فخوطبوا بلقب « الدهقان » (٣) .

استراح السلاجقة بعد هذا الصلح وأتيحت لهم الفرصة لتقوية مركزهم بعد أن اعترفت بهم الدولة ولاة من قبلها ، فأخذوا فى توسيع رقعة أراضيهم التى ضاقت بهم نظرا لتوارد القبائل التركية عليهم ، وتواردت أخبار تقدمهم على عاصمة الدولة فى غزنة ، فأحس رجال الدولة بخطورة تقدمهم فى خراسان ، فاجتمعوا الى السلطان الذى كان قد ركن الى الصلح مع السلاجقة ، فأعرض عن خراسان والسلجوقية وتفرغ لأمور بلاد الهند ، وأخذوا يحذرونه مغبة اهمال أمر خراسان ، وقالوا له كما يروى ابن الأثير « ان قلة المبالاة بخراسان من أعظم سعادة

---

(١) أنظر رسالة السلاجقة فى تاريخ البيهقى ، ص ٥٢٥ — ٥٢٦ .
(٢) حسين امين : ص ٥٠ — ٥١ .
(٣) البيهقى : ص ٥٢٨ . حسين امين : ص ٥١ .

السلجوقية ، وبها يملكون البلاد ويستقيم لهم الملك ، ونحن نعلم وكل عاقل أنهم اذا تركوا على هذه الحالة استولوا على خراسان سريعا ثم ساروا منها الى غزنة ، وحينئذ لا ينفعنا حركاتنا » (١) .

عندئذ نقض السلطان الصلح وأمر والى خراسان بضرب السلاجقة وطردهم ، ولكن هذا أجاب بأن « امر السلاجقة قد علا بحيث لا أستطيع أنا ولا غيرى أن نقاومهم » (٢) . فسير مسعود قوات لحرب السلاجقة ، ولكن هؤلاء راوغوها ، وما زالوا يستدرجونها حتى اذا ما وجدوا فرصة هاجموها ، فألحقوا بها هزيمة فادحة على باب مدينة سرخس سنة ٤٢٩هـ ، ثم تقدم طغرلبك الى مدينة نيسابور فدخلها وجلس على عرش الملك مسعود ، وأعلن قيام دولة السلاجقة ، ونادى بنفسه سلطانا باسم « طغرلبك السلطان المعظم ، ركن الدنيا والدين أبو طالب » (٣) ثم فرق عماله فى النواحى ، وسار أخوه داود الى مدينة هراة فاستولى عليها .

تعتبر سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م بدء قيام دولة السلاجقة ، لأن طغرل باشر مهامه كسلطان فعلى لهم منذ ذلك التاريخ ، وبذلك أصبح للسلاجقة كيان سياسى ، ورقعة فسيحة من الأرض ، وحاكم له الزعامة التى منحها اياه رعاياه ، فقد اجتمع رجال البيت السلجوقى فوجدوا صفوفهم ، وانتخبوا طغرلبك رئيسا لهم وسلطانا عليهم ، وبذلك استكملت الدولة الشكل ولم يبق الا استكمال الصفة الشرعية بالحصول على موافقة الخليفة العباسى ، والواقع أن اعتراف الخليفة لم يكن فى ذلك الوقت الا أمرا شكليا لاعطاء الدولة صفة شرعية يرضى عنها الناس ، ولم يلبث الخليفة حين طلب منه السلاجقة الاعتراف أن أصدر لهم التنفيذ .

ولم يمر اعلان دولة السلاجقة فى سهولة ، فان السلطان مسعودا ما كاد يسمع باعتلاء طغرلبك عرشه فى نيسابور وتلقبه بالسلطان « طغرل

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٧٨ .
(٢) الروانديى : ص ١٥٧ .
(٣) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٧٩ . حسين امين : ص ٥٢ .

الأول» حتى خرج بنفسه على رأس قواته لتأديب السلاجقة ، لكن هؤلاء ألحقوا به هزيمة حاسمة عند « دندانقان » فى عام ٤٣١ هـ . انقلب بعدها مدحورا الى غزنة ، وغنم السلاجقة من معسكره « ما لا يدخل تحت الاحصاء ، وقسمه داود على أصحابه وآثرهم على نفسه » ورجع طغرل الى نيسابور عزيزا منصورا (١) . فلما دخل طغرل البلد كف العيارون الذين كانوا يعيثون فى البلاد فسادا ، فسكن الناس واطمأنوا ، واستولى السلجوقية حينئذ على جميع البلاد ، فسار بيغو الى هراة فدخلها ، وسار داود الى بلخ فملكها .

كانت موقعة « دندانقان » موقعة حاسمة فى تاريخ السلاجقة والغزنويين على السواء ، فانها أنهت الصراع بين هاتين القوتين ، فلم يعد الغزنويون بعد يفكرون فى مهاجمة السلاجقة أو مناوأتهم ، ولم يحاول أحد من حكام الأقاليم فى ذلك الوقت التصدى لهم ، فقوى أمرهم وتوافد الجند اليهم من جميع أطراف خراسان ، فقويت دولتهم ، وخافها جيرانها ، حتى لقد فكر المسلمون فى ايران والعراق وغيرها من بلاد المشرق الاسلامى فى الانضمام تحت لوائها ، وحرصوا على اظهار الولاء لها ، كما أنها ظفرت برضاء الخليفة العباسى عنها واعترافه بها ، وبذلك انحسرت الدولة الغزنوية عن ايران وبلاد ما وراء النهر ، وبدأ الخيال يداعب طغرلبك فى تكوين دولة عظمى تسيطر على جميع أنحاء العالم الاسلامى ، واتجه طموحه الى العمل على أن يجعل من هذا الخيال حقيقة واقعة ، فبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل كفاح السلاجقة (٢) .

* * *

سيطرة السلاجقة على ايران :

رأى السلاجقة بعد نصرهم المؤزر فى « دندانقان » أن عليهم أن يوحدوا صفوفهم ، ويرسموا لأنفسهم خطة المستقبل ، لذلك عقد طغرل

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٨٠ . البيهقى : ص ٦٦٥ .
(٢) عبد المنعم حسنين : ص ٣٠ .

اجتماعا ضم أخاه جغرى ، وعمه موسى بيغو ، وأبناء عمه ، كما ضم غيرهم من رجالات السلاجقة ، وتدارسوا الخطوات التى ينبغى أن تتلو قيام دولتهم . فتعاهدوا جميعا على أن يظلوا متحدين متماسكين ، وآلا يدعوا للتفرق والتنازع سبيلا الى قلوبهم حتى يظلوا أقوياء ظافرين (١) . كما أكدوا اتفاقهم على تعيين « طغرل الأول » قائدا أعلى لجيوشهم وسلطانا على دولتهم ، وتعاهدوا على أن يدينوا له بالولاء دائما . ومع أن طغرل كان أصغر سنا من أخيه جغرى الا أنه كان قوى الشخصية ، متوقد الذكاء ، فائق الشجاعة ، عظيم التدين ، وهى صفات حببت فيه الجند ورجال القبائل فالتفوا حوله وأسلموا قيادتهم له .

ورأى طغرل أن تحقيق أهداف السلاجقة يقتضى جمع الكلمة ، وتكتيل القوى . ولكى يبذل كل واحد من رجال البيت السلجوقى جهده فى تحقيق الهدف الأكبر ، ولكى يبعد عنهم التنافس والخصومة ، عين كل واحد منهم على ولاية من الولايات ، وسيره اليها ، وسمح له أن يفتتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة لها ، على أن يضم ما يفتحه الى منطقة نفوذه دون منازع ، فاختص جغرى بك بأكثر خراسان على أن يتخذ مدينة مرو دارا لملكه . وتنصب موسى على ولاية بست وهرات وسجستان وما يجاور ذلك من النواحى التى يستطيع فتحها ، وتنصب قاورد وهو أكبر أولاد جغرى على ولاية الطبسين ونواحى كرمان ، واختص ابراهيم اينال ، وهو أخو السلطان طغرل من الأم ، بقهستان وجرجان ، ولأبى الحسن بن موسى هراة وبوشنج وسجستان وبلاد الغور وهى ولاية متداخلة فى ولاية أبيه موسى . أما طغرلبك فقد اتخذ مدينة الرى دارا لملكه وقرر أن يتجه بنفسه لفتح العراق والولايات القريبة منه (٢) .

بعد أن حدد السلاجقة أهدافهم ورتبوا أمرهم ، وكان عليهم أن

---

(١) الراوندى : ص ٩٦
(٢) الراوندى : ص ١٦٧ — ١٧٧ . حسين امين : ص ٥٩ .

يستكملوا الصفة الشرعية لدولتهم ، فيحصلوا على موافقة الخليفة العباسى بقيامها ، واعترافه بسيطرتها على الأقاليم التى تحت يدها والمناطق التى قد تسيطر عليها بعد ذلك • فكتبوا للخليفة فى عام ٤٣٢ هـ — ١٠٣٠ م رسالة حرصوا فيها على اظهار ولائهم للخلافة وحبهم للجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ثم يروا فيها قتلهم للغزنويين بأن السلطان محمودا غدر بهم وقبض على عمهم اسرائيل بن سلجوق وسجنه فى قلعة «كالنجر» بالهند حتى مات ، كما سجن كثيرا من اقاربهم ورجالاتهم • ثم شرحوا للخليفة كيف أن ابنه مسعودا أهمل مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب ، حتى أن أهل خراسان طلبوا منهم أن يقوموا على حمايتهم ورعاية مصالحهم • ولكن مسعودا وجه اليهم الجيوش فاضطروا لقتاله حتى أظفرهم الله به • فنشروا العدل وأصلحوا أحوال الناس • ثم طلبوا فى آخر رسالتهم أن يعترف الخليفة بقيام دولتهم وبطغرل سلطانا عليهم ، حتى تكون ولايتهم على أساس من الدين ، وأمر أمير المؤمنين (١) •

حين وصلت رسالة السلاجقة الى الخليفة القائم بأمر الله ، كان الملك البويهى يتداعى فى العراق ، فقد انتشرت الفتن بين الجند ، وبخاصة الجنود الأتراك الذين كانوا فى ثورات دائمة ، من أن الأمن أصبح مفقودا لضعف الدولة وقيام البدو والعيارين بمهاجمة المدن والأسواق ، والفرق المذهبية يضرب بعضها بعضا (٢) • وكان الخليفة يحس بهذا التفكك والانحلال ، ويرى الدولة البويهية عاجزة عن اقرار الأمور فى العراق • كما يراها عاجزة عن الصمود فى الأقاليم الأخرى أمام القوة الجديدة النامية التى اندفعت من خراسان تسيطر على كل أقاليم ايران ، لذلك فانه حين وصلته رسالة السلاجقة ، بادر بارسال رسول الى طغرلبك فى الرى ، وأمره بأن يتقرب منه ويدعوه للحضور الى بغداد لتتشرف دار الخلافة بحضوره (٣) •

---

(١) الراوندى : ص ١٦٦ — ١٦٧ • عبد المنعم حسنين : ص ٢٣ •
(٢) انظر ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٨٢ وما بعدها •
(٣) الراوندى : ص ١٦٧ •

لم يتوقف السلاجقة حتى يصل رد الخلافة ، وانما أخذوا فى تنفيذ خطتهم فى السيطرة على ايران كلها ، فاتجه كل واحد الى ولايته ليستولى على ما يقدر عليه من أقاليم ايران ، وحين وصــل رسول الخليفة لم يكن طغرلبك موجوداً بمدينة الرى ، فاضطر للبقاء بها ثلاث سنين ، فى أثنائها خاض طغرل حروبا كثيرة لاتمام سيطرة السلاجقة على ايران والعراق • اذ كان عليه أن يقضى على البقية الباقية من نفوذ الديالمة فى كل من ايران والعراق ، وقد ســاعدته الحالة السيئة فى المشرق الاسلامى فانتصر فى حروبه جميعها •

وقد بدأ طغرلبك تنفيذ خطته فى عام ٤٣٣ هـ ، فولى وجهه شطر جرجان وطبرستان فاستولى عليها من يد « آنوشيروان » الزيارى الذى قبل أن يكون واليا عليها من قبل طغرلبك ، فكان هذا ايذانا بســقوط الدولة الزيارية من ايران (١) •

ثم توجه فى عام ٤٣٤هـ الى خوارزم ، فتمكن من ضمها الى أملاك السلاجقة هى وما جاورها • ثم رحل بعد ذلك الى مدينة الرى التى كانت قد وصلتها قوات السلاجقة بقيادة ابراهيم اينال ، فتسلمها وأصلح عمارتها واتخذها مقرا لحكومته (٢) • وفى الرى قابله رسول الخليفة ، فأكد له طغرل عزمه على زيارة بغداد فى الوقت المناسب (٣) •

وفى المدة من سنة ٤٣٤ هـ الى سنة ٤٤٦ هـ اســتطاع طغرلبك أن يضع يده على كل أجزاء ايران الغربية ، فاســتولى على قزوين وأبهر وزنجان وهمذان ، واقليم آذربيجان ، فخضع له بذلك أمراء الديلم ، كما أرســل طائفة من الجند لفتح كرمان التى قاومت كثيرا حتى توجه اليها بنفسه ، وفى ســنة ٤٤٢ هـ توجه لفتح اصفهان والأجزاء الجنوبية من ايران ، فاستولى عليها وعلى اقليم فارس ، وبذلك أســقط الدولة

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٨٥ •
(٢) نفس المصــدر ، ص ١٩٠ •
(٣) عبد المنعم حسنين : ص ٣٥ •

البويهية فى هـذه المنطقة . وفى عام ٤٤٦ هـ توجه بنفسه الى اقليم آذربيجان ليؤكد سيطرة السـلاجقة عليه ، فدخل تبريز ، ومد بحدوده الى بلاد الروم ، حتى حاصر « ملاذ كرد » وضيق عليها ونهب ماجاورها من البلاد وأخربها ، وما زال فى غزوته حتى بلغ أرزن الروم (١) .

ونلاحظ أن السلاجقة منذ أول أمرهم اتجهوا الى الثغر الرومى ، وبدأوا يصبغون حركتهم بصبغة الجهاد الدينى ، فوجهوا القبائل الغزية التى وفدت عليهم فى الجهات الغربية من ايران الى قتال الروم والتوسع فى بلادهم منذ سنة ٤٥٠ هـ على ابراهيم اينال(٢) . ومنذ ذلك التاريخ اصـطدم السـلاجقة بالروم ، وتولوا عن العالم الاسـلامى أمر الثغر الرومى ، ولم تكن حروبهم حروب تخـريب وتدمير ثم عودة الى خـط الثغور كما كانت الحال من قبل على طول العصر العباسى ، وانما كان اتجاه فتح وامتلاك ، فقد اقتطعوا جزءا من آسيا الصغرى وأقام به فرع من السـلاجقة عرف باسم سلاجقة الروم . وبدخول السـلاجقة آسيا الصغرى على هذا النحو مهدوا لقيام الامارة العثمانية التى قامت على يد قبيلة غزية تركية ، فامتدت وكونت دولة كتب لها أن تقضى بعد ذلك على بيزنطة وتتوغل فى أوروبا .

فى سنة ٤٤٦ هـ كان طغرلبك قد فرغ من فتح ايران وبسـط نفوذ السلاجقة عليها وعلى بعض البلاد المجاورة لها . وبذلك أطل على العراق، فأخذ يستعد لدخول بغداد واتمام بسـط سيطرة السلاجقة على المشرق الاسلامى كله .

السـلاجقة فى العـراق :

فى الوقت الذى كانت فيـه الدولة السـلجوقية تتبوأ مقعدها فى خراسـان ، وتقهر الغـزنويين وتردهم الى الركن الجنوبى الشرقى من

(١) انظر ابن الأثير : ج ٩ فى حوادث هـذه السنوات حتى ص ٢٢٣
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٠٣ .

العالم الاسلامى ، ثم تتجه غربا لتضم كل أقاليم ايران ، كانت الدولة البويهية تتهاوى أمام ضربات معاول الهدم التى تتوالى على بنيانها المتداعى ، فالخلافات بين رجال البيت البويهى تمزق الدولة وتبدد قوتها فى صراعات أسرية ، وفروع البويهيين فى أقاليمهم يعمل كل واحد منهم منفصلا عن الآخر ، بل يسعى بعضهم لقهر بعض والاستيلاء على ما بيده ، وحتى فى الوقت الذى دهمتهم فيه القوات السلجوقية الزاحفة ، لم يتكتلوا أمام الخطر الذى يهددهم جميعا بل تراهم سادرين فى خلافاتهم يقلم بعضهم أظفار بعض ، ويتيحون بذلك للسلاجقة فرصة أخذ ما بأيديهم غنيمة هنية (١) ، فلم تلبث أقاليم الجبال وما وراءها غربا أن سقطت أمام زحف طغرلبك ، كما سقطت الأقاليم الجنوبية والوسطى من ايران فى يد قواته . ولم يبق فى يد بنى بويه غير اقليم العراق ، وهو بذاته يموج بالفتن بين الطوائف المختلفة من الجند ، كان يعمه الاضطراب بسبب النزاع المذهبى بين الشيعة والسنة (٢) .

وكانت آفة البويهيين الأخرى الى جانب خلافاتهم الأسرية ، هى استكثارهم من الأتراك فى جيوشهم ، وهؤلاء جماعة قد تخدم الدولة فى حالة قوتها وحزم ملوكها ، ولكنها تكون من أشد الأخطار على كيانها اذا ما دب الضعف فيها ، أو اذا ما تنازع رجال البيت الحاكم فيما بينهم . وقد رأينا مثلا لذلك فى حالة الخلافة العباسية قبل عصر بنى بويه ، فقد خدم الأتراك الدولة فى عصر قوتها أيام الخليفة المعتصم وابنه الواثق ، ثم فى عهد انتعاش الخلافة على يد الموفق وابنه المعتضد . لكنهم حين أحسوا من الخلافة ضعفا ورأوا فى البيت العباسى تفككا بعد الواثق ، سيطروا على الشئون العامة فى دار الخلافة وأهانوا الخلفاء واستبدوا بهم ، وأربكوا الدولة بجشعهم وتسلطهم . ولولا ما كان للخلافة من قدسية واحترام فى نظر الناس لزالت الخلافة العباسية من الوجود . ولقد

---

(١) انظر ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٠٣ وما بعدها .
(٢) نفس المصدر : ص ٢٢١ وغيرها .

تكررت المأساة فى أواخر العصر البويهى ، ولم يؤت المتأخرون من ملوك بنى بويه من نفاذ البصيرة وبعد النظر ما يتحاشون به ما وقعت فيه الخلافة من قبلهم ، فاستكثروا من الأتراك فى جيوشهم ، وكان أخطر ما فى الأمر أن الجند البويهيين كانوا من الديلم ، وبين الديلم والأتراك عداء تقليدى ، لذلك دب الشقاق بين الفريقين ، ولم يتخذ البويهيون سياسة حكيمة لازالة الجفوة بين الطرفين ، وانما لجأوا الى السياسة الهدامة ، وهى محاولة ضرب كل فريق منهما بالآخر ، والوقوف فى موقف التوازن بينهما فيقربون هذا الفريق حتى اذا أحسوا منه تغلبا ، قربوا الفريق الآخر . وقد كان البويهيون يتوخون من تطبيق هذه السياسة عدم افساح المجال للطرفين ليتفقا ضدهم ، الا أن النتيجة كانت خطرا جسيما على الدولة ، وعلى الأمراء البويهيين أنفسهم . فقد أدى التنازع بين طوائف الجند الى اضعاف الجيش البويهى بوجه عام والى احداث انشقاق خطير بين صفوفه ، كما أدى الأمر الى أن الجند من الديالمة ومن الأتراك فقدوا الثقة بالأمير ، ولم يعد لأمراء بنى بويه المتأخرين تلك الثقة وذلك الاحترام الذى كان فى نفوس الجند لأمرائهم السابقين . وتبعا لذلك لم يصبح ازالة النزاع القائم بين الديلم والأتراك أمرا ممكنا . وحين أحس الأتراك من ملوك بنى بويه ضعفا ورأوا ماوقع فيه رجال البيت البويهى من خلاف ، وكانوا قد أصبحوا هم الجند الغالب فى الجيش ، سيطروا على الدولة ووضعوها تحت نفوذهم ، حتى لقد أخذوا يوجهون سير الأمور ، ويتدخلون فى تولية ملوك بنى بويه وعزلهم ، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء . ولما كانت الخلافة مجردة من كل قوة فعلية فانه لم يكن أمام الخليفة الا أن يجيبهم الى ما يرغبون (١) .

وحين أطل السلاجقة بقوتهم على العراق ، كان أبو الحارث البساسيرى قائد الأتراك يسيطر على بغداد وما جاورها سيطرة تامة ،

---

(١) على سبيل المثال : انظر ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٣٥ — ١٣٧ وما بعدها .

ولم يكن الخليفة ، أو الملك البويهى « الملك الرحيم » يملكان شيئا أمام قوة هذا القائد وجنوده (١) . وكانت الأحوال تنذر بالخطر على الدولة البويهية وعلى الخلافة العباسية نفسها . فأما الدولة البويهية ، فكانت كل أملاكها فى ايران قد ضاعت منها وسقطت فى يد السلاجقة ، وأصبحت مهددة فى العراق نفسه ، ولم يكن الرحيم على وفاق مع قائد جنده وهو البساسيرى ولذلك كان التعاون بينهما منعدما ، وأما الخلافة العباسية فقد كانت مهددة بالنفوذ الفاطمى الذى وصل الى أعالى الشام وأطل على مشارف العراق حين استولت القوات الفاطمية على حلب سنة ٤٤١ هـ (١) ، كما وصلت دعوتهم الى العراق نفسه . ولم يكن الوضع فى العراق مطمئنا للخليفة العباسى ، اذ أن القوة المسيطرة فيه قوة شيعية ، فبنو بويه شيعة وان كانوا يحكمون باسم الخلافة العباسية ، والقائد البساسيرى متشيع وقد يجد مصلحته فى جانب الفاطميين ، وسنراه بعد ذلك يتخذ جانبهم صراحة .

فى مثل هذا الجو المضطرب تختل الأمور ويسعى كل لمصلحته . فأما الخليفة فلم تعد له ثقة فيمن حوله . وكانت مصلحته تحتم عليه الاتصال بالقوة الغالبة وبخاصة اذا كانت هذه القوة سنية تحترم الخلافة العباسية وتدين لها بالولاء . والملك البويهى مرتبك لا يجد له مخرجا من الأزمة التى هو واقع فيها ، والوزير « ابن المسلمة » الذى كان فى ذلك الوقت يلقب « رئيس الرؤساء » يرى أن يتصيد لنفسه فى هذا المجال ، فهو يسعى الى اكتساب رضاء من يرى فيه صاحب القوة الغالبة . والقوة الغالبة تظهر واضحة فى يد السلاجقة . والقائد البساسيرى وهو صاحب القوة العسكرية فى البلاد كان يرى أن قدوم السلاجقة الى العراق معناه زوال نفوذه وذهاب سيطرته ، ولذلك كان يناوىء كل اتصال بهم . ومن أجل ذلك كان الصراع بينه وبين الوزير شديدا ، كل يوجه التهم الى صاحبه ، فالبساسيرى يقول « ما أشكو الا من رئيس الرؤساء الذى خرب البلاد

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٠٧ وما بعدها .
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٠٩ .

وأطمع الغز وكاتبهم (١) . والوزير يطلق لسانه فى البساسيرى ويذمه ويتهمه بمكاتبة المستنصر بالله صاحب مصر (٢) ، وقد نجح الوزير بدعايته هذه فى افساد العلاقات بين الخليفة والقائد ، الأمر الذى جعل الخليفة يطلب من الملك ابعاد البساسيرى ومنابذته .

وواضح الأمر فى الخلاف الذى نشب بين الوزير وقائد الجند أن الأزمة فى العراق كانت مستحكمة . وكان فى تقدير الرجلين أن المخرج من هذه الأزمة معلق اما بالسلاجقة واما بالفاطميين ، فتشيع كل منهما لجهة من هاتين الجهتين ، غير أن الوضع الاستراتيجى للعراق يجعله دائما تحت رحمة من يملك اقليم الجبال الشمالية ، وكان هذا الوضع فى يد السلاجقة (٣) .

وفى المحرم من سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م كانت جيوش السلاجقة على أتم استعداد لدخول العراق ، فقد فرغ طغرلبك من أعماله فى ضم كل أقاليم ايران ، واطمأن الى أحوال دولته بها ، ورأى أن يزيل كل وجود البويهيين ، فان أحد قواد الديلم هاجم شيراز واستولى عليها وقطع الخطبة فيها للسلطان طغرلبك وخطب باسم الملك الرحيم (٤) ، فحفز هذا العمل طغرلبك على ازالة كل خطر يأتى من قبل البويهيين ، وذلك بازالتهم نهائيا من فارس ومن العراق . وسواء أوقع هذا الحادث أم لم يقع فان السلاجقة كان لابد لهم من الاستيلاء على العراق ليستطيعوا اكمال خطتهم فى توحيد المشرق الاسلامى كله تحت حكمهم ، بل السعى لتوحيد العالم الإسلامى كله وحكمه باسم الخلافة العباسية . لذلك أمر طغرلبك قواده بالاستعداد ، وأظهر أنه يريد التوجه الى مكة بقصد الحج ، واصلاح طريق مكة ، والمسير الى الشام ومصر وازالة المستنصر

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٢٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٧ .
(٣) حسين امين : ص ٦٢ .
(٤) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٢٦ .

العلوى صاحبها(١) ، ثم تقدم بقواته عنطريق حلوان ، وهوالطريق السهل الذى يوصل بشكل سريع الى قلب العراق .

لم يجد الملك الرحيم سبيلا الى المقاومة بعد أن فارقه قائد جنده ، وكان هو فى واسط فعاد سريعا الى بغداد محتميا بدار الخلافة وبنفوذها الأدبى ، فأمر الخليفة بأن يذكر اسم طغرلبك فى الخطبة ، وأن يكون لقبه « السلطان ركن الدولة أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين » على أن يذكر بعد اسم الملك الرحيم أبى نصر بن أبى كاليجار سلطان الدولة البويهى . ثم دخل طغرل بغداد فاستقبل بها أروع استقبال ، واعترف به الخليفة سلطانا على جميع المناطق التى تحت يده (٢) .

ومع أن الملك البويهى قبل أن يكون تابعا للسلطان السلجوقى ، فان هذا لم يشأ أن يبقى الى جانبه أحدا ينافسه أو تخشى مغبة وجوده ، فقبض على الملك الرحيم وسيره الى الرى حيث سجن فى احدى قلاعها حتى مات سنة ٤٥٠ هـ .

وبدخول طغرلبك بغداد وقبضه على الملك الرحيم ، أسدل الستار على الدولة البويهية التى سيطرت على الخلافة العباسية وحكمت باسمها ١١٣ سنة ، وحلت محلها فى السيطرة وفى الحكم باسم الخلافة الدولة السلجوقية ، ولكن هذه كانت أوسع رقعة وأعظم قوة وأبعد من أن تكون دولة اقليمية .

وأقام طغرل ببغداد ثلاثة عشر شهرا عمل فى أثنائها على تدعيم مركز السلاجقة فى العراق وتوثيق صلاتهم بالخليفة العباسى ، كما عملت الخلافة من جانبها على تقوية الروابط بينها وبين هذه القوة الجديدة .

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٢٧ .
(٢) الراوندى : ص ١٦٩ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٢٢٨ .

فتزوج الخليفة القائم بأمر الله من « أرسلان خاتون خديجة » ابنة جغرى بك أخي طغرل في سنة ٤٤٨ هـ • فتم بذلك التقرب بين البيتين العباسي والسلجوقي (١) • واستقر لذلك نفوذ السلاجقة في بغداد •

وفي غمرة هـذه الانتصارات التي حققها طغرلبك ، وبخاصة في توطيد العلاقة بين البيت السلجوقي وبيت الخلافة ، جاءت الأنباء تترى عن حركات عسكرية كبيرة يقوم بها القائد التركي البساسيري ، الذي جاهر بالعصيان وأعلن انضمامه الى الفاطميين • وأخذ يعد العدة للاستيلاء على الموصل ، فالتحم مع قوات السلاجقة بالقرب من سنجار ، وأوقع بها هزيمة ساحقة في شوال سنة ٤٤٨ هـ ، وواصل سيره حتى دخل الموصل وأعلن فيها الخطبة للخليفة الفاطمي الذي أرسل اليه والى القواد الذين انضموا له الخلع (٢) •

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات السلاجقة تنهزم أمام البساسيري ، كان العامة في بغداد يضجون بالشكوى من الجند السلجوقي الذي عسف بهم • والواقع أن أهل بغداد لم يستقبلوا السلاجقة بنفس الروح التي استقبلتهم بها دار الخلافة ، بل كان موقفهم منها موقف العداء ، وذلك لما كانوا يلقونه دائما عند دخول جيوش جديدة الى مدينتهم ، فوقع الاشتباك بينهم وبين الجند ، ولما انتصر هؤلاء فعلوا ما يفعله الجند المتبربرون حين يدخلون مدينة زاخرة الحضارة • حتى اضطر الخليفة الى تنبيه طغرلبك الى ما يقع من جنوده ، والى اظهار استيائه • وكان طغرل يفكر في اخراج جنده عن بغداد في الوقت الذي بلغته فيه أخبار انتصار البساسيري • كما أن الخليفة اضطرب من هذه الأنباء ، واحتمى بطغرل وعينه واليا على الموصل وبلاد الجزيرة ، فاضطر طغرل الى المسير عن بغداد قاصدا الموصل • حيث تمكن من اخماد حركة البساسيري في

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٣١ . البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٠ — ١١ .
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٣٤ .

عام ٤٤٩ هـ ، وبسـط نفوذه على ديار بكر ، وعين أخاه ابراهيم اينال واليا على الموصل والجزيرة ، وقفل راجعا الى بغداد بعد أن وطد نفوذ السلاجقة في هذه البلاد ، فأحسن الخليفة استقباله ، وجلس له مجلسا عاما قصد به اعلاء شأن السلاجقة واضعاف شـأن البساسيرى والدعاية الفاطمية ، فلقب طغرلبك بلقب « ملك المشرق والمغرب (١) » ويدل هذا التلقيب على أن الخليفة اعترف لطغرلبك بما صار تحت يده من البـلاد في المشرق ، وأذن له باستخلاص المغرب من يد الفـاطميين • وبذلك انفسح الأمل أمام الدولة الجديدة لتمد سـلطانها على المشرق من بلاد ما وراء النهر الى المغرب حتى حدود مصر الغربية •

لكن مشكلة جديدة ما لبثت أن أطلت برأسها هددت وحدة البيت السلجوقى كما هددت الخلافة العباسية • وقد جاءت هذه المشكلة من قبل رجل من رجال السلاجقة أنفسهم ذلك هو ابراهيم اينال أخو طغرلبك لأمه • فانه لم يلبث بعـد أن عاد طغرل الى بغـداد حتى ترك ابراهيم الموصل ورحل الى بلاد الجبل ، فخلت الموصـل من قوة كافية للدفاع عنها فدخلها البساسيرى مرة أخرى • وكان رحيل ابراهيم على هـذه الصورة أمرا مريبا ، فانه ترك ولايته في الموصل دون اذن من السلطان وبدون حمـاية ، فى الوقت الذى كانت فيه قوات البساسيرى تؤيدها الخلافة الفاطمية لا تزال سليمة متربصة ، وهذا أمر يوحى بالاتفاق بين الطرفين ، وقد أشارت المصادر الى مراسلة بين ابراهيم وبين الفـاطميين والبساسيرى الذين استمالوه وأطمعوه فى السلطنة والبلاد (٢) •

وكتب السـلطان الى ابراهيم يستدعيه من بلاد الجبل وأرسل اليه خلعة الخليفة التى خلعها على طغرل ، ليبين له مقـدار تقدير الخـلافة

---

(١) ابن الاثـير : ج ٩ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٧ • تاريخ ابو الفـداء : ج ٢ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ •

(٢) ابن الأثـير : ج ٩ ، ص ٢٣٩ • ابن الجـوزى : المنتظم : ج ٨ ، ص ص ١٩٠ •

للسلاجقة ومقدار تفوق النفوذ السلجوقى ، كما كتب له الخليفة بنفس هذا المعنى ، فعاد ابراهيم الى بغداد ، ولكن عودته الى جانب السلطان كانت الى حين • فان السلطان خرج الى الموصل فى جيش كبير واصطحب معه أخاه ابراهيم فما لبث هذا أن انتهز فرصة غادر فيها السلطان واتجه الى همذان ، حيث انضم اليه عدد كبير من الترك ، وهنا أدرك السلطان حقيقة الموقف ، وقدر الخطورة التى تنجم عن استقرار أخيه فى منطقة الجبال ، فصمم على حسم الداء قبل استفحاله ، فان وجود أى تفكك فى البيت السلجوقى على هذه الصورة يهدد وضعهم فى العراق تهديدا خطيرا ، بل ربما مكن للقوة الفاطمية من احتلال العراق فى الوقت الذى يقع فيه السلاجقة فى حروب أسرية ، وتضيع الخلافة العباسية فى وقت اشتغال السلاجقة ، وبذلك يقف السلاجقة أمام القوة الفاطمية من غير سند شرعى من خلافة قائمة •

لذلك توجه طغرل الى سحق حركة أخيه ابراهيم قبل استفحالها ، تاركا أمر الموصل والعراق الى حين ، واستطاع أن يوقع الهزيمة به فى معركة حاسمة بقرب مدينة الرى وأن يأسره ويقتله (١) •

لكن السلطان وقد أهمه خروج أخيه ابراهيم على هذا النحو ، وفى غمرة خوفه من انقسام البيت السلجوقى ، لم ينظم الأمور بشكل يوفر للعراق الأمن ، وكان عليه أن يقدر خطر مفارقة دار الخلافة بدون قوة كافية للدفاع عنها • ولكن يبدو أن السلطان لم يكن يقدر خروج ابراهيم من ناحية ، ولم تكن لديه القوات الكافية من ناحية أخرى ، فان ابراهيم حين خرج الى همذان انضمت اليه معظم القوات التركية التى كانت متبرمة من طغرل لطول مقامه بالعراق ، ولقلة ما يصل الى أيديهم من الغنائم بسبب هذا المقام ، وبسبب ضرب طغرلبك على أيديهم بعد أن عسفوا بالعامة وأغضبوا الخليفة فى بغداد • وعلى أى حال فان السلطان

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ . الراوندى : ص ١٧١ •

فضـــل أن يتفرغ للقضـــاء على حركة ابراهيم التى كانت تهـــدد البيت السلجوقى فى المقام الأول ٠

وانتهز البساسيرى فرصة انشغال طغرل وخلو العراق من قوة كافية للدفاع عنه ، فهاجم بغداد واستولى عليها ، وأسر الخليفة ٠ وأعلن الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وبذلك حقق حلم الفاطميين الذى راود العلويين آزمانا طويلة (١) ٠ ثم مالبث أن استولى على البصرة وواسط ، وحاول الاســتيلاء على الأهواز ولكنه اضــطر لمصالحة حاكمها اذ كان السلطان طغرل يمدها بالجنود ٠

ويبدو أن الخلافة الفاطمية فى مصر لم تكن تملك القوة الكافيــة لامداد البساسيرى حتى تحتفظ بما وصلت اليه ، كما يبدو أن ثقتها فى البساسيرى لم تكن كبيرة ، ولذلك لم تتحرك للقيام بعمل جدى ، وتركته يواجه الموقف منفردا أمام قوة السلطان ، الذى مالبث أن عاد الى العراق بعد أن فرغ من اخماد حركة أخيه ، واضطر البساسيرى الى الخروج عن بغداد متجها الى الشام ، ولكن القوات السلجوقية التحمت به قرب الكوفة وأوقعت به هزيمة حاسمة حيث قتل ، وحملت رأسه الى الخليفة العباسى الذى كان قد عاد من أسره الى بغداد ٠ وبذلك عادت الخلافة العباسية وقضى على الحكم الفاطمى نهائيا بعد أن ظل يخطب لهم فى بغداد أكثر من عام (٢) ٠ وعاد مركز السلاجقة فتدعم وعلت مكانتهم فى دار الخلافة حتى أضاف الخليفة الى ألقاب طغرل لقب « ركن الدين » (٣)

أصبح طغرل سيد الموقف بعد هذه الانتصارات المتلاحقة ، فاستتب له كل شىء ، وبسط نفوذ السلاجقة فى العراق كما بسطه فى ايران ، وبلغ من القوة حدا جعله يفكر فى مصاهرة الخليفة العباسى بالزواج من ابنته ،

---

(١) ابن الاثـــير : ج ٩ ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ٠ المنتظم : ج ٨ ، ص ١٩٦ ٠
(٢) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٤٣ ٠ المنتظم : ج ٨ ، ص ٢١٢ ٠
(٣) الراوندى : ص ١٧٥ ٠

وبذلك سما السلاجقة الى حد لم يبلغه احد من قبلهم ، وبلغت الخلافة حدا من الضعف لم تبلغ مثله من قبل • ويمكن تقدير هذا من المقـارنة بين موقف ابى جعفر المنصور الذى جعل من اسباب غضبه على أبى مسـلم الخراسانى أنه أراد أن يتخذ لنفسه جارية كانت لعبدالله بن على العباسى ، وبين طلب طغرل الزواج من ابنة الخليفة العباسى نفسه • وفزع الخليفة من فكرة مصاهرة السلاجقة ، ولكنه هدد وخـوف ، فأرغمته ظـروف الضعف والخوف على القبول مضطرا • وزفت ابنة الخليفة الى السلطان العجوز الذى يلغ السبعين من عمره ، والذى أظهر أنه لم يكن يبغى من الزواج غير اظهار سمو الهمة الى الاتصال بهذه الجهة النبوية والشرف بمصاهرتها • ولم ينعم بهذا طويلا فانه ما لبث آن مرض ومات فى رمضان من عـام ٤٥٥ هـ (١) •

مات طغرلبك بعد آن وضع أساسا متينا لدولة السلاجقة ، يبسط نفوذها على ايران والعـراق ، وعلى هذا الأساس استطاع خلفاؤها أن يرفعوا من البناء ، وأن يقيموا مجدا شامخا • وانتهى بموته دور التأسيس للدولة • وبدأت بعد ذلك تبرز فى التاريخ بروزا مرموقا ، فوقفت على سواحل البحر المتوسط وأشرفت بذلك على بلاد الروم ، وحملت فى هذه الناحية عبء الدفاع عن هذا الثغر الاسلامى من ناحية الغرب ، كما وقفت على حدود الصين والهند وحملت عبء الدفاع عن الثغر الشرقى ، وبذلك ارتبطت بالتاريخ العالمى ارتباطا قويا ، وحققت للعالم الاسـلامى خدمة كبيرة ، كان يقوم بها من قبلها مجموعة من الدول الاسلامية التى ظهرت فى كلا المجـالين •

كما برز مركز الوزارة بروزا واضحا فى عهد طغرلبك ، فقد أسهم الوزير أبو نصر منصور بن محمد السكندرى (٢) ، الذى كان يلقب بعميد

---

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٧ — ٩ • الراوندى : ١٧٧ — ١٧٨ •
(٢) راجـع عن سـيرته ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١١ — ١٢ وغيرها من الأخبـار المنثورة من قبل فى ج ٩ •

الملك بنصيب وافر فى اقامة دولة السلاجقة وتدعيم أركانها ، وكان لكفاءته أثر كبير فى ازدهارها ، فضلا عن أنه كان من الكتاب المجيدين بالفارسية والعربية . فاكتسب منصب الوزارة بفضله أهمية كبيرة جعلته هدفا تتطلع اليه النفوس وتقوم بسببه المنازعات والمنافسات التى حفل بها العصر السلجوقى ولعبت دورا مهما فى توجيه سير الأحداث فى دولة السلاجقة (١) .

(١) عبد النعيم حسنين : ص ٤٥ — ٤٦ .

المظاهر العامة للحكم السلجوقى

أستطاع السلاجقة فى مدى عشرين سنة من ٤٢٩ ــ ٤٤٩هـ/١٠٣٧ــ ١٠٥٧ م،أن ينقلوا دولتهم من دولة اقليمية الى قوة اسلامية كبيرة تسيطر على مشرق العالم الاسلامى ، وتحاول ان تمتد بنفوذها الى المغرب الاسلامى ، وتحظى باعتراف الخلافة العباسية وبتاييدها على ما تملك وعلى ما يمكن أن يقع تحت يدها • ففى سنة ٤٢٩ هـ دخل طغرلبك مدينة نيسابور وجلس على عرش الغزنويين بها ونادى بنفسه سلطانا ، وبدأ بذلك قيام الدولة السلجوقية التى مالبثت أن نالت اعتراف الخلافة ، ثم أخذت فى التوسع حتى ضمت الى حوزتها كل أقاليم ايران ، بل امتدت حتى تاخمت حدود الدولة البيزنطية ، بل اخترقت هذه الحدود وافتطعت من أملاك الروم أجزاء أقرت سلطانها فيها • وفى سنة ٤٤٧ هـ دخل طغرلبك بغداد وأنهى الحكم البويهى ، ولقبه الخليفة « يمين أمير المؤمنين » (١) ، ثم استتب له الأمر فى العراق فى سنة ٤٤٩ هـ بعد أن قضى على خصوم السلاجقة وخصوم الخلافة بالقضاء على حركة البساسيرى ، ولقبه الخليفة « ملك المشرق والمغرب » (٢). ومنذ ذلك التاريخ بدأ العصر السلجوقى فى حياة الدولة العباسية •والدارس لتاريخ السلاجقة تبدو له مظاهر وجهت الحكم السلجوقى وأثرت فى مستقبل الدولة السلجوقية ، بل أثرت فى مستقبل العالم الاسلامى •

وأول هذه المظاهر أن السلاجقة كانت تغلب عليهم حياة البداوة التى ألفوها فى موطنهم الأول ، وقد أثر ذلك فى سلوكهم وفى توجيههم لسياسة الدولة التى شادوها • فالدولة السلجوقية منذ أول أمرها كان طابعها واتجاهها عسكريا محضا ، وذلك بسبب أصالتها البدوية وتربيتها الخشنة ، وجوارها لجماعات قوية كثيرا ما تحاول القضاء على السلاجقة واستئصال شأفتهم • وقد اعتمدوا فى أول تكوينهم على القبائل التركية

---

(١) الراوندى : ص ١٦٩ •

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢١٧ •

فى الجيش وفى الغزو ، وهى قبائل رعوية كثيرة العـدد ، فكانت كثرة عددهم وضيق مراعيهم وقلة مواردهم مع طبيعتهم الخشنة ، تجعل منهم قوة خطيرة اذا اتحدوا وظهر فيهم زعيم قوى قادر على توجيههم •

وقد أثرت طبيعتهم البدوية فى فكرتهم عن معنى الوطن ، ففكرة الوطن عند السلاجقة تبدو فكرة عامة ، فهم وقد اعتنقوا الاسلام على المذهب السنى يرون أن العالم الاسلامى هو الوطن ، ولكونهم جماعات بدوية فى الأصل تنتقل من مكان الى آخر ، فانهم يفضلون الاستقرار فى الأماكن الأكثر خصوبة والأوفر ماء والأعظم خيرات ، ولذلك نراهم يستهدفون تكوين دولة تشمل العالم الاسـلامى كله معترفا بها من قبل الخليفة العباسى ، ويسعون لاضعاف جميع القوى المناهضة لدولتهم (١) •

وتحقيقا لذلك فان سياستهم تجاه الأقاليم المجـاورة لهم اتسمت بسمة الفتح والغلب واعتبروا استيلاءهم على المناطق التى استولوا عليها من البلاد الاسلامية فتحا ، ويتضح هذا من رسالتهم الى الخليفة العباسى بعد استيلائهم على كثير من المدن الايرانية جاء فيها « وشكرا لله على ما أفاء علينا من فتح ونصر » (٢) • كما يتضح كذلك من معاملتهم للملك الرحيم آخر ملوك بنى بويه ، فقد أعطى طغرلبك العهود بعد التعرض له وتعهدت الخلافة له بالأمان ، ولكن طغرل قبض عليه وأرسله الى الرى حيث سجنه حتى مات • وهذه المعاملة تكشف عن سياسة السـلاجقة العسكرية التى ترمى الى تحطيم مراكز العدو والقضاء عليه ، وعدم افساح المجال لأية قوة يحتمل أن تكون مصدرا لعرقلة التدابير العسكرية •

واذا كانت هذه سياسة السلاجقة تجاه الأطراف الاسلامية ، فانها من باب أولى تكون تجاه الأطراف المعادية للعالم الاسـلامى ، وقد أقام السـلاجقة علاقاتهم مع جيران العالم الاسـلامى على العداء الصريح ،

---

(١) حسين امين : ص ١٢٧ •
(٢) الراوندى : ص ١٦٧ •

واتجهوا بقوتهم الى فتح البلاد التى تجاور العالم الاسلامى فى الغرب والشرق على السواء . وقد وسموا اعمالهم فى الجهه الرومية بسمة الجهاد الدينى ، وفى عصر قوتهم استطاعوا أن يحققوا على البيزنطيين انتصارات رائعة وأن يقتطعوا أجزاء هامة من أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى . وكان من الممكن أن يزحزحوا البيزنطيين عن كثير من أراضيهم لو أنهم استمروا فى حالة اتحاد وقوة ، لكنهم ما لبثوا أن اختلفوا وشغلوا بمنازعاتهم الخاصة ، وأداروا ظهرهم الى الجبهة الرومية التى استنجدت بأوروبا ، فعرضوا العالم الاسلامى الى هجوم غربى كبير لم يتصدوا هم لصده فيما عرف بالحروب الصليبية . كما أن جهادهم لمصلحة الاسلام فى الجبهة الشرقية كان واضحا فى دخولهم فى حظيرة الاسلام .

والظاهرة الثانية ـ وقد تكون مرتبطة بالظاهرة الأولى — هى ميلهم الى الانفصال واعتبار الملك ميراثا يقسم بين الأبناء ، وعلى الرغم من توحدهم فى أول الأمر والتفافهم حول زعيم واحد ، فان ميلهم الى الانفصال منذ أول الأمر واضح ، وانما كان يجمع كلمتهم فى أول أمرهم هدف واحد يسعون لتحقيقه ، ووجود زعماء أقوياء يوجهونهم نحو هذا الهدف ، أو يستطيعون فرض الوحدة عليهم . ويبدو ذلك واضحا من أول قيام دولتهم ، فقد أخذ السلاجقة يتكتلون فى بداية تكوينهم ويلتفون حول زعيم واحد ، وذلك لأن القوى التى كانت تناهضهم كانت قوية ، وكانت تسعى لقهرهم . فتعاهد الزعماء الكبار ، بعد انتصارهم على مسعود الغزنوى واعلان قيام دولتهم ، على أن يحفظوا هذه الدولة، وأن يدينوا بالطاعة لزعيمهم « طغرلبك » الذى ارتضوه سلطانا ، وأن يخضع له الحكام الذين يعينهم خضوعا تاما . لكنا نلمس نزعة الاستقلال فيهم ، فى استقلال كل واحد بولايته ، واتخاذه لقب الملك ، وفى حرية تصرفه فقد أصبح « جغرى بك » كبير اخوة طغرل حاكما على مدينة « مرو » واختص بأكثر خراسان وكان يحمل لقب ملك . وأصبح

«موسى» حاكما على ولاية « بست وهراة وسجستان» وله لقب ملك أيضا . كما أصبح « قاورد » وهو أكبر أولاد جغرى بك حاكما على ولاية « الطبسين وكرمان » وله لقب ملك كذلك . وكان « ابراهيم اينال » حاكما على « قهستان وجرجان » (١) . وكان كل ملك من هؤلاء الذين أقرهم السلطان « طغرلبك » يتمتع باستقلال ذاتى فى تصريف شئون ولايته الداخلية ، كما كان له الحق فى التوسع ان وجد ذلك ضروريا لمملكته .

وقد كان ملوك السلاجقة يجدون متنفسا لميلهم الى التوسع فى الوقت الذى كانت توجد فيه أجزاء من البلاد تحت يد غيرهم ، فلما اكتملت سيطرتهم على كل المناطق الايرانية ، لم يكن هذا المتنفس موجودا الا فى محاولة الاستيلاء على ما فى يد بعضهم . ثم لم يلبث الخلاف أن نشب بينهم فزالت وحدتهم تماما بعد انتهاء عصر سلاطينهم العظام ، وأدى هذا الى ضعفهم جميعا والى زوال الملك السلجوقى كله آخر الأمر .

والظاهرة الثالثة ، أن السلاجقة لم يتخذوا لهم عاصمة ثابتة تكون مركزا لدولتهم ، ومقرا للسلطان السلجوقى ، شأنهم شأن البويهيين من قبلهم ، الا أن البويهيين جعلوا من بغداد أحد مراكزهم ، بينما السلاجقة لم يتخذوا مركزا لهم . واختلفت العواصم السلجوقية ، فطغرلبك اتخذ مدينة « نيسابور » عاصمة له ، بينما حكم « ألب أرسلان » فى مدينة « مرو » وحكم « ملكشاه » ومحمود بركيارق فى « أصفهان » كما اتخذ السلطان محمد بن محمود مدينة « همذان » عاصمة له (٢) . فالسلطان لا ينتقل الى العاصمة الثابتة التى اختيرت لموقعها الاستراتيجى أو لسهولة مواصلاتها أو لتوسطها ، وانما تنتقل الدولة الى السلطان حيث يكون . وهذا التأرجح يكلف الدولة ويقلل من قوتها ويضعف حيويتها .

---

(١) نلمس فارقا بين اخوة طغرل وبين ابراهيم اينال وهو أخوه لأمه ، فانه لم يلقب بملك . الراوندى : ص ١٦٧ . الحسينى : اخبار الدولة السلجوقية ١٧ .

(٢) حسين أمين : ص ١٨٢ — ١٨٣ .

وظاهرة أخرى وضحت فى العصر السلجوقى ولم تكن موجودة فى العصر البويهى وهى ظهور شأن الوزارة وعلو مركز الوزراء وفعاليتهم فى ادارة الدولة . وقد كانت الوزارة اقل شانا فى العهود التى سبقت السلاجقة . ففى العصر العباسى الأول كان الخليفة هو الشخصية القوية، والوزير الى جانبه منفذ لارادته ، وكأن اقوى الوزراء يخشون بأس الخليفة ويتحاشون غضبه . وفى العصر الثانى ، تضاءل شأن الوزراء أمام قوة نفوذ القواد من الأتراك ، حتى اذا ما ظهر منصب أمير الأمراء ازداد مركز الوزير ضعفا حتى لم يصبح الا مجرد كاتب للخليفة ، ولم نشهد فى العصر البويهى بروزا لشخصية الوزراء . أما فى العصر السلجوقى فقد برزت شخصية الوزير بروزا كبيرا حتى لنرى نظام الملك يكاد يكون هو صاحب الفاعلية فى حكم السلاجقة فى عهد اثنين من أعظم سلاطين السلاجقة وهما ألب آرسلان وملكشاه . وظهر فى العصر السلجوقى أسر بعينها تلى الوزارة وتتحكم فى هذا المنصب الخطير . وتبعا لعلو مركز الوزارة أصبحت مثارا للتنافس والتصارع عليها ، وفى الوقت الذى كان يشهد فيه العصر السلجوقى تنازع رجال السلاجقة على تولى السلطة ، كان يشهد تنازع الرجال الأفذاذ على تولى الوزارة . وقد كان هذا الصراع من كلا وجهيه من أسباب تمزق وحدة السلاجقة وضياع ملكهم .

ومرد ظهور الوزارة هذا الظهور الكبير الى أن السلاجقة ، وقد كانوا قليلى حظ من الثقافة ، وقد حكموا عالما متحضرا عريقا ، رأوا أنه من الضرورى أن يعتمدوا على العناصر المثقفة وبخاصة تلك التى كانت فى ايران ، من أمثال أبى نصر الكندى ونظام الملك وأبنائه من بعده وغيرهم من الشخصيات الفارسية المثقفة والتى تولت المناصب الرفيعة : الوزارة والحجابة والكتابة . وسيطرت بثقافتها على الادارة السلجوقية .

وفى الوقت الذى كان للسلطان السلجوقى فيه وزير كان للخليفة العباسى وزير ، لكن الوزير السلجوقى كان أكثر نفوذا وسطوة ، وذلك

لأنه كان يستمد قوته ونفوذه من قوة الدولة السلجوقية التى كانت صاحبة النفوذ الحقيقى ، وكان كثيرا ما يتدخل فى أمور وزير الخليفة ، بل كان يستطيع أن يعزله ، كما يستطيع أن يوصى بتعيين وزير بعينه للخليفة فيجاب الى طلبه(١) • وبدأت فى العصر السلجوقى تظهر للوزراء ألقاب لم تكن معروفة من قبل تقرن بأسمائهم ، فقد تلقب وزراء السلاجقة بألقاب « عميد الملك ، نظام الملك ، مؤيد الملك ، معين الدين ، شهاب الدين وغيرها من ألقاب » وقد قلد الخلفاء سلاطين السلاجقة فأضافوا الى وزرائهم ألقابا مثل « فخر الدولة ، أبو المعالى ، جلال الدين ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، عون الدين » (٢) • وفى العهد السلجوقى زاد راتب الوزير زيادة كبيرة ، فقد كان راتب ابن هبيرة وزير الخليفة المقتفى مائة ألف دينار سنويا (٣) • أما الوزير السلجوقى فكان يخصص له راتب مقداره عشر ما تحصل عليه الدولة من واردات الاقطاعات (٤) •

وقد كان النظام الاقطاعى هو الأساس الذى قامت عليه الملكية فى عهد السلاجقة ، فزعماء السلاجقة ـ بحسب طبيعتهم البدوية ـ كانوا يعتبرون أنفسهم زعماء أقوامهم ، ويرون أن حكمهم يمتد حيث ينتشر قومهم ، فهو لا يرتبط أو يحدد بمساحة معينة من الأرض ، وكان لكل قبيلة نصيبها من المراعى ، وزعيم القبيلة هو الذى يتولى توزيع هذا النصيب على بطون القبيلة بحسب ما تجرى عليه تقاليد العادة والعرف • ولما أصبحت ايران قاعدة للسلاجقة تأثر هؤلاء بما عرف عند الفرس الساسانيين من نظام الحكم الاستبدادى • فاعتبر السلاجقة المملكة ضيعة للسلطان يمتلكها نيابة عن قومه ، وتبعا لذلك أخذ يقطع أراضى تلك المملكة على أقربائه ومؤيديه • والى جانب هذا النوع من الاقطاع وجد

---

(١) المنتظم : ج ٩ ، ص ٥٦ • الفخرى : ص ٢١٨ •
(٢) انظر الفخرى : ص ٢١٨ — ٢٣٠ • حسين امين : ص ١٩٢ •
(٣) الفخرى : ص ٢٧٨ •
(٤) Lambton, Landlord and Peasant in, p. 44.

اقطاع آخر حربى ، وهو اقطاع الجنود اقطاعات تكون بديلا عن الرواتب التى كان يتسلمها الجند فى العصور السابقة . وقد قصد السلاجقة بذلك الى الاحتفاظ بجند ثابت قوى ، لأنهم كانوا يعتمدون على القبائل التركية التى كان من طبيعتها التنقل ، كما أنهم رأوا أن الأموال قد لا تتوفر للخزانة لسبب من الأسباب ، ففرقوا الاقطاعات على الجند ، لتتوافر لهم دواعى عمارتها واصلاحها . وان كانوا قد تحوطوا فقسموا الاقطاع الواحد على بلاد متباعدة ، فربما قرر لواحد من الجند ألف دينار فى السنة ، فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه فى أقصى خراسان ، وصاحب القرار راض (١) .

وقد أدى هذا النظام الاقطاعى الى الغرض المطلوب منه حينما كانت الدولة قوية ، الا أنه لم يلبث أن أدى الى نتيجة عكسية ، فان الذين تملكوا الأراضى صاروا يميلون الى الاستغلال واعتبار الاقطاع ملكا وراثيا ، وأخذوا فى الاساءة الى الفلاحين ومعاملتهم بالشدة ، كما أن البعض طمع فى الاستيلاء على أملاك الآخرين مما أدى الى انتشار الفتن واستشراء الظلم والفساد . والوزير الذى كان هو الشخص المسئول عن مراقبة الاقطاعات وتنظيمها أخذ يغض النظر فى بعض الحالات التى يظهر فيها الجشع الاقطاعى ، وهو ، وقد كان له عشر واردات الاقطاعات ، كان يهمه أن تزداد ايرادات الاقطاعات ليزداد راتبه . وقد أدى هذا بالطبع الى الفوضى والى ظهور الاستياء والنفور بين الفلاحين ، كما أدى الى اضعاف الروح المعنوية الأمر الذى أدى الى ضعف المجتمع السلجوقى بوجه عام (٢) .

ونتيجة لهذا النظام الاقطاعى ظهر نظام الأتابكة . والأتابكة هى امارة يقطعها السلطان السلجوقى لأحد المقربين . وقد كان للسلاجقة مماليك قربوهم وأقطعوهم اقطاعات كبيرة أقاموا بها أتابيكيات لهم .

---

(١) العماد الأصفهانى : آل سلجوق ، ص ٥٥ .
(٢) انظر حسين أمين : ص ٢٠٥ — ٢٠٩ .

ومن أشهر هذه الأتابكيات أتابكية الموصل ، ومؤسس هذه الأتابكية هو « عماد الدين زنكى بن آقسنقر » وهو من المماليك الأتراك ، تربى برعاية السلطان ملكشاه ، وقد أقطعه حلب واللاذقية وحماة ومنبج ، ثم أضاف اليها عماد الدين مدينة تكريت بعد وفاة السلطان ملكشاه (١) . وقد كان لهذه الأتابكية أثر كبير فى مناهضة الصليبيين ، كما أنه انقذ الكثير من المدن الاسلامية من أيديهم ، واستطاع أن يستولى على حلب وينقذها من الوقوع تحت الحكم الصليبى سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٩ م (٢) .. كما أن لابنه نور الدين محمود الفضل فى حركة التجميع الاسلامى ضد القوى الصليبية ، هذا التجميع الذى حقق غايته من بعد على يد صلاح الدين الأيوبى . ومن الأتابكيات المهمة أتابكية دمشق التى أسسها « طغتكين » مملوك السلطان « تتش بن ألب أرسلان » وكذلك أتابكية « سنجار » التى أسسها « عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود » والمعروف بعماد الدين زنكى الثانى . وكذلك أتابكية آذربيجان التى أسسها « أيلدكز » مملوك السلطان مسعود السلجوقى. وغير ذلك من الأتابكيات الكثيرة (أتابكية لورستان ، أتابكية اربل ، أتابكية ديار بكر ، أتابكية أرمينية ، أتابكية الجزيرة ، أتابكية فارس ، أتابكية كرمان) .

وكان الغرض من انشاء هذه الأتابكيات هواشراك الأقاليم فى حكم الدولة السلجوقية : أى أن الولايات تحكم نفسها بنفسها مع ارتباطها بالمركز فى الشئون المهمة والخطيرة ، على أن تسير تلك الأتابكيات وفق مصلحة السلجوقية وفى خدمة السلطان الكبير . والذى عمم النظام الاقطاعى بشكل كامل هو « نظام الملك » وزير السلطان ألب آرسلان ، وكان يستهدف بذلك أن يخفف الأعباء الادارية والحربية عن الحكومة المركزية ، اذ أن الأتابكيات أصبحت مستقلة بتنظيم أحوالها وصد أى اعتداء يقع عليها ، كما تستطيع التوسع اذا اقتضت مصلحة الدولة ذلك.

(١) ابن الاثير : تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ١١ — ١٨ . حسين امين ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

كما أنه وقد رأى معظم الجيش السلجوقى يتكون من القبائل المختلفة العناصر ، أراد أن يجعل تلك الجماعات تعيش فى أراض تقطع لها لتربط بالأرض وتشعر بشعور المواطنة ، وباستقرارها فى أراض محددة يمكن السيطرة عليها ، ومن ثم تخف حدة حركاتها فى الغزو والمنازعات فيما بينها • ثم انها بسكناها فى تلك الأراضى الزراعية تجد نفسها مدفوعة الى اصلاح الأرض التى تستفيد من خيراتها ، وبذلك تزدهر الحياة الزراعية التى كانت فى ذلك العصر قوام الحالة الاقتصادية •

ولقد كان لهذه السياسة أثرها الطيب فى بداية نشوء الدولة ، حيث كان السلاجقة متحدين ، وكان السلاطين أقوياء وفى مكنتهم مراقبة أصحاب الاقطاعات مراقبة مستمرة ، وطالما كانت السياسة التى رسمها نظام الملك قائمة ، وهى بعثرة اقطاعات الأمراء حتى لا يقوى الاقطاع فيكون خطرا فى المستقبل ، لكن هذه السياسة بمرور الزمن أدت الى عكس ماكان يرجوه نظام الملك والسلاجقة المخلصون منها ، فان السلاجقة ما لبثوا بعد عهد السلاطين العظام أن انحلت وحدتهم ودخلوا فى صراعات على تولى السلطنة ، كما سعى بعضهم الى التوسع على حساب البعض الآخر حين توزعت الدولة بين فروعهم • فقد أصبحت الأتابكيات تتقوى وتتوسع بسبب المشاركة فى المنازعات والخصومات بين السلاطين السلاجقة ، وصار الأتابكة يتخذون الألقاب لأنفسهم ، وبمرور الزمن وبسبب ضعف السلاطين قوى نفوذ الأتابكة • وابتعدوا عن الادارة السلجوقية المركزية ، بل ان نفوذ بعضهم قوى حتى تحكموا فى السلاطين أنفسهم ، كما تشجع بعضهم واستقل نهائيا عن الدولة السلجوقية • وما زال التنافس بين الاقطاعات يزداد والمطامع تقوى حتى أدى ذلك الى خنق الدولة المركزية وأعان على انهيارها آخر الأمر (١) •

---

(١) عن الاقطاع فى العصر السلجوقى : انظر حسين امين : ص ٢٠٥ — ٢١٣ •

ابراهيم طرخان : الاقطاع الاسلامى (بحث من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) ، ص ٧٣ — ٧٦ •

أما الظاهر فى علاقة السلاجقة بالخلافة ، فانها بدأت طيبة فى أول الأمر ، وكانت الظروف المحيطة بالخلافة وبالسلاجقة على حـد سواء تحتم أن تبدأ هذه العلاقة طيبة ، فأما الخلافة فقد كانت الظروف المحيطة بها سيئة ومعقدة ، فالدولة البويهية التى تسيطر على شئون الدولة فى العراق أخذت فى الانهيار ، وفقدت قدرتها على ضبط الأمور . ووقع آخر ملوكها « الملك الرحيم » تحت نفوذ القائد التركى البساسيرى ، الذى وضح اتصاله بأعداء الخلافة « الفاطميين » والذى استولى على الموصل وخطب فيها للفاطميين وانضم اليه ولاة هذه المنطقة وقوادها ، ثم ما لبث بعد ذلك أن استطاع أن يدخل بغداد ويخطب فيها للفاطميين . الأمر الذى جعل الخليفة يلجأ الى طغرلبك ويطلب منه القضاء على حركة البساسيرى وحماية الخلافة العباسية . والخلافة العباسية تخشى القوة الفاطمية فى مصر ، وفى الوقت الذى كانت فيه الخلافة العباسية فى حالة شديدة من الضعف ، كانت الخلافة الفاطمية فى مصر فى أوج قوتها وعظمتها وقد اتسعت رقعتها من المحيط الأطلنطى غربا الى نهر الفرات شرقا . واعترف الصليحى الشيعى بسلطان المستنصر بالله الفاطمى باليمن سـنة ٤٥٥ هـ ، وما زال النفوذ الفاطمى يمتد حتى وصل الى بغداد نفسها . وفى بغـداد كانت الأمور مضطربة أشـد الاضطراب بين الطوائف المختلفة من سنة وشيعة ، وبين الحنابلة والشافعية . والخليفة العباسى يتلفت حوله فلايجد الا هذه القوة السلجوقية التى برزت على مسرح العالم الاسلامى والتى تدين بالمذهب السنى ، وهى تتلاقى بمذهبها مع آمال الخلافة العباسـية فى مقاومة النفوذ الشيعى الذى أخذ يهدد الخلافة تهديدا خطيرا : لذلك رحبت الخلافة العباسية بالسلاجقة ورأت فيهم القوة الفتية التى تستطيع أن تدعم الخلافة وتدافع عنها ، لذلك نجد الخليفة القائم العباسى يتغاضى عن أعمال طغرلبك وجنوده فى بغداد ، فانه حين عسف الجند السلجوقى بالأهالى لم يطلب من السلطان أكثر من منع جنوده وعتابه على أعمالهم ، كما يكبح غضبه حين نكث طغرل بوعده بتأمين الملك الرحيم وقبض عليه ،

فاستسلم للأمر الواقع ، بل أخذ يتقرب من البيت السلجوقى وتزوج من « أرسلان خاتون » ابنة داود أخى طغرلبك (١) .

أما السلاجقة فقد كانوا من السنة الحنفية ، وقد صاروا يفتحون المدن والبلدان ويتوسعون على حساب الدويلات الضعيفة ، وسيطروا على أملاك البويهيين فى ايران حتى أصبحوا على أبواب العراق ، وكان لابد لهم لكى يصبغوا عملهم بالصبغة الشرعية أن ينالوا اعتراف الخلافة وتأييدها ، وقد انتهزوا الظروف السيئة المحيطة بالخلافة لكى يلبوا دعوة الخليفة الذى أرسل يستنجد بطغرلبك ويدعوه للقدوم الى دار الخلافة ، فأظهر السلطان حين قدم الى بغداد غاية الاحترام للخليفة العباسى الذى استقبل السلطان بدوره أروع استقبال ولقبه ملك المشرق والمغرب . والأمر واضح فى حسن استقبال الخلافة للسلاجقة . أما السلاجقة ، فانهم كانوا يعلمون أن مهمتهم لم تنته بعد ، وأنهم سيصطدمون حتما بدول أجنبية من أجل توسع دولتهم ، كما أن السلاجقة وهم سنيون متحمسون كانوا من أشد المنافسين والمعارضين للمذهب الشيعى ، وكانت مصلحتهم فى هذا الصراع المرتقب أن تبقى الخلافة العباسية بأية صورة من الصور ، ليستفيد السلطان السلجوقى من الاعتراف الذى يمنحه له الخليفة ، اذ بذلك الاعتراف يحصل على التأييد الشعبى من العالم الاسلامى السنى كله . ولكنهم لكى يسيطروا على شئون الخلافة نفسها رأوا أن يرتبطوا بها برباط وثيق من شأنه أن يرفع من مقامهم ، بل امتد بهم الطموح الى خلط البيت العباسى بالبيت السلجوقى خلطا غير مباشر ، وذلك بأن يتزوجوا هم من بيت الخلافة ، وهذا مطمح لم يسم اليه أحد من قبلهم ، وقد تم لهم ذلك حين خطب طغرلبك ابنة الخليفة العباسى لنفسه واضطر الخليفة الى قبول طلبه وتزويجه ، وفى هذا رفع لمكانة السلطان السلجوقى الذى أصبح صهر الخليفة ، ومن المحتمل أن تلد ابنة الخليفة من السلطان ولدا يرث العرش العباسى اذ فيه يجرى دم الخلفاء ، كما أنهم

(١) المنتظم : ج ٨ ، ص ١٩٦ — ١٧٠ .

من ناحية أخرى أصهروا الى البيت الخلافى بتزويج بناتهم من الخلفاء ، وحين ولدت ابنة السلطان من الخليفة ولدا ، أجبر السلطان ملكشاه الخليفة على أن يجعل هذا الولد وليا لعهده ، ولما رفض الخليفة هدده السلطان باخراجه من بغداد (١) .

لكننا نلاحظ أن العلاقات الودية بين الخلافة والدولة السلجوقية لم تستمر طيبة على طول المدى ، فان البيت السلجوقى لم يستمر فى قوته واتحاده اذ ما لبث الخلاف أن نشب بين أفراده ، واتخذت الخلافة موقف المتفرج ، وكانت تتأرجح باعترافها بين مراكز القوة فهى تمنح الاعتراف للغالب ، ولا يمنع لديها من أن تمنح الاعتراف بالسلطة لأكثر من واحد فى وقت واحد (٢) ، ثم وجدت الخلافة فرصتها حين أصبح الصراع يهدد البيت السلجوقى كله ، فنشطت لاستعادة سلطانها وفعاليتها ، ووجدت فى قيام الدولة الخوارزمية فى المشرق وانتصارها على سلاجقة ايران خير معين لها على اكمال القضاء على القوة السلجوقية .

ونلاحظ أن السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزا من مراكزهم ، ولم يبقوا فيها أميرا سلجوقيا يتولى امرة الأمراء كما كان الحال فى العصر البويهى ، وانما استحدثوا منصبين للاشراف على الأمور العسكرية والمدنية ، هما : وظيفة « الشحنة » وهى أشبه ما تكون بوظيفة المتصرف أو محافظ المدينة ، ويتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وادارية وهو مسئول عن ادارة المدينة والمحافظة على أمنها واستقرارها ، وملاحقة الخارجين على النظام ، ومعاقبة المسيئين . ثم وظيفة « العميد » وسلطته أهم من وظيفة الشحنة ، اذ هو يشرف على العراق بأجمعه ، ويتعاون الشحنة والعميد فى ادارة الولاية والوقوف جنبا الى جنب على رأس قوات حربية اذا ما حدث ما يعكر الأمن (٣) . ولم يكن قدوم السلاطين أو المسئولين

---

(١) الفخرى : ص ٢١٧ .
(٢) انظر ابن الاثير فى حوادث سنة ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ هـ .
(٣) حسين امين : ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

السلاجقة الى بغداد الا بقصد التعرف على الأحوال أو التمتع بترف المدينة • واتخذوا دائما من ايران مقرا لهم لأنهم لم يرغبوا فيما يبدو فى وجود زعامة منافسة لهم فى مقر الحكم • ولما كان الخليفة فى بغداد فانهم لم يرغبوا فى جواره ، واكتفوا بنيابة أحد موظفيهم فى العراق يدير شئونه ويرتب أموره • وقد أدى هذا فيما بعد الى أن تنشط الخلافة فى جو بعيد عن الوجود المباشر للسلطان السلجوقى • حتى تمكنت آخر الأمر من استرداد سلطانها وفعاليتها •

هذه هى المظاهر العامة للعصر السلجوقى أحطنا بها فى ايجاز ، أما العصر السلجوقى فيمكن تقسيمه الى قسمين : عصر وحدة السلاجقة ، ثم عصر انقسام السلاجقة • والعصر الأول يشمل حكم السلاطين العظام : طغرلبك ، وألب آرسلان ، وملكشاه • وينتهى بموت السلطان بركيارق سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م • أما العصر الثانى فيبدأ من سنة ٤٩٨ هـ الى آخر العصر السلجوقى سنة ٥٩٠ هـ • وسنلم بأهم الأحداث فى كل من هذين العصرين •

عصر وحدة السلاجقة

يشمل هـذا العصر حكم السلاطين العظـام من آل سلجوق ، وهم : طغرلبك ، وألب آرسلان ، وملكشاه ، وبركيارق ، وقد استطاع هؤلاء السلاطين أن يحتفظوا بوحـدة السلاجقة برغم ما قام حـول العرش من خلافات وحروب ، وبرغم ما أثير حول منصب الوزارة من منافسات ، فانهم بقوة شخصياتهم استطاعوا أن يقـروا الوحدة ، كما استطاعوا أن يتجهوا الى المجال الثغرى فى المشرق والمغرب ، وأن يظهروا بأس العالم الاسلامى فى الجبهة الرومية بصفة خاصة •

لكن الخلافات التى ثارت حول تولى عرش السلطنة ، والمنازعات التى نشبت حول تولى الوزارة ، كانت عميقة متأصلة بحيث استطاعت أن تفرض نفسها على الوحدة السلجوقية وأن تؤدى آخـر الأمر الى تفكك وحدة السلاجقة ، ثم تقضى على ملكهم •

كما أن أعمال السلاجقة فى الجبهة الرومية ، وانتصاراتهم على الدولة البيزنطية وتهديدهم لممتلكاتها تهـديدا خطيرا ، أدى الى أن تستنجد بيزنطة بالقوى الأوروبية • وحين استجابت هـذه القوى لى استنجاد الامبراطور البيزنطى فى حركة صليبية متحمسـة ، فاتجهت الحملات الأوربية الى العالم الاسلامى كانت عوامل الفرقة قد سيطرت على الحيـاة السلجوقية وانشغل بهـا السلاجقة ، فحقق الصليبيون انتصارات على المسلمين ، وانتزعوا منهم معظم بلاد الشام وهددوا مصر تهـديدا خطيرا ، ولولا حيوية العالم الاسلامى وقيام قوى فى الموصل وفى مصر لتغير مجرى التاريخ الى حـد كبير •

أما علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية ، فقد بدأت طيبة فى هذا العصر ، وزادها قوة ودعما المصاهرات التى تمت بين السلاجقة وبيت الخلافة ، لكن هـذه العلاقات ما لبثت أن شابتهـا الأكدار فى الفترة الأخيرة ، حين بدا للسلاجقة طموح خرج عن مستوى مجرد التعاون مع الخلافة ووصل الى حـد فرض القوة على الخليفة وتهديده باخراجه

من بغداد ، الأمر الذى أرخى عقـدة الرباط بين البيتين • مما جعل الخليفة فيما بعد يقف موقف المتفرج من الصراع السلجوقى ويتحين الفرص لاعادة قوة الخلافة وفعاليتها • حتى اذا ما سنحت للخلافة هذه الفرصة فى عهد تمزق الوحدة السلجوقية وانهيار قوتها فى المشرق والمغرب ، ضربت الخلافة ضربتها فأكملت اسقاط السلاجقة وأعادت نفوذها متعاونة مع قوى جديدة ظهرت فى مشرق العالم الاسلامى •

طغرلبك :

يعتبر طغرلبك رأس السلاجقة من الوجهة العملية ، فهو الذى تولى السلطنة بعد انتصار السلاجقة على مسعود الغزنوى فى سنة ٤٢٩ هـ ، وتحت زعامته أقام السلاجقة دولتهم التى شملت المشرق الاسلامى والعراق وأطلت على المغرب الاسلامى وعلى حدود الدولة البيزنطية • وهو الذى وضع الأساس المتين لهذه الدولة ، فأقام خلفاؤه البناء شامخا من بعده ، فدوره فى الحقيقة يعتبر دور التأسيس للدولة السلجوقية — وقد عرضنا لأعمال طغرلبك فيما سبق — حتى اذا ما مات فى سنة ٤٥٥هـ ، تولى عرش السلاجقة ابن أخيه ألب آرسلان•

الب آرسلان :

حين مات طغرلبك ، لم يكن له ابن يرث العرش ، فبرزت مشكلة ولاية السلطنة بعد وفاته ، وأصبحت مثار التنافس بين أفراد البيت السلجوقى •

وكان أخوه جغرى قد توفى من قبله فى عام ٤٥١ هـ ، تاركا عددا من الأبناء كان أكبرهم ألب آرسلان الذى خلف أباه فى حكم خراسان وما وراء النهر (١) ، وكان على حكمها حين مات عمه سنة ٤٥٥ هـ ، وكان طبيعيا أن يعتبر ألب آرسلان نفسه أحق أفراد البيت السلجوقى بعرش السلطنة ، كما كان له وزير قوى النفوذ عظيم الكفاية هو أبو على

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣ •

حسن بن على بن اسحاق الطوسى الملقب بنظــام الملك ، وكان هــذا الوزير واسع الطموح ، يرغب فى أن يكون وزيرا لسلطان السلاجقة ، فشجع ألب آرســلان على طموحه وزكى رغبته فى عرش السلطنة .

وكان ـ ا، قــد تزوج بأرملة أخيه جغرى بعد موته ، ولها ابن منه يسمى سليمان ، فاستطاعت أن تؤثر على السلطان حتى اختار ابنهــا وليا للعهد برغم صغر سنه . ونفــذ وزير طغرلبك أبو نصر الكندرى وصية مولاه فأجلس سليمان على عرش السلطنة بمدينــة الرى وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه .

لم يقبل ألب آرسلان سلطنة أخيه الأصغر ، فصمم على السير الى الرى ، ولقى تصميمه هــذا هوى فى نفوس كثير من أفراد البيت السلجوقى فاختاروا جانبه ، بل ان بعضهم نادى به سلطانا وخطبوا له فى قزوين باسم عضد الدولة ألب آرسلان محمد بن داود جغرى بك ، وخشى الكندرى مغبة الأمر ، فانضم الى ألب آرسلان وأمر بأن تقرأ الخطبة باسمه فى الرى وبأن يكون سليمان وليــا لعهده (١) . وبذلك استتب الأمر للســلطان ألب آرســلان فى ذى الحجة سنة ٤٥٥ هـ واعترف به رئيسا للبيت السلجوقى وسلطانا على السلاجقة .

لكن أميرا سلجوقيا آخــر رأى أنه أحق بالسلطنة هو « قتلمش ابن اسرائيل » بن عم جغرى بك وسار الى الرى بقــواته واستولى عليها وأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة . فأسرع ألب آرسلان ومعه وزيره نظام الملك الى الرى على رأس جيش كبير ، والتحم مع قتلمش فى معركة طاحنة بالقرب من مدينة الرى انتهت بانتصار ألب آرسلان وقتل قتلمش ، ودخل ألب آرســلان الرى فى عام ٤٥٦ هـ ، وبذلك انتهت مشكلة السلطنة واستتب الأمر لألب آرسلان دون منازع (٢) .

وفى الوقت الذى كان الصراع يجــرى فيــه بين أفــراد البيت

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١١ . الراوندى : ص ١٨٥ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٣ — ١٤ .

السلجوقى على تولى عرش السلطنة ، كان صراع آخر يحتدم على الوزارة ، بين نظام الملك الذى لم يشأ أن يبقى الى جانبه من ينافسه ، وبين الكندرى وزير طغرلبك الذى أراد أن يحتفظ بمركزه . وعلى الرغم من أن الكندرى تقرب الى نظام الملك وأكد ولاءه للسلطان الجديد ، فان نظام الملك خوف السلطان من الكندرى حتى حمله على القبض عليه وسجنه فى مدينة نسا (١) ، ثم ما زال يغرى السلطان به حتى أمر بقتله .

وقد نجح نظام الملك فى التخلص من منافسه ، ولكنه استن بذلك سنة سيئة فى عصر السلاجقة ، أدى العمل بها الى قتل عدد من وزراء السلاجقة ، وقد اكتوى بها نظام الملك نفسه ، وتحقق ما قاله الكندرى لقاتله منبها لخطر هذه السابقة « قل لنظام الملك : بئسما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر قليبا وقع فيه » (٢) .

وعلى أى حال فان مشكلتى العرش والوزارة حلتا بعد أن استنفدتا أكثر من عام من عصر ألب آرسلان ، ثم أخذت أوضاع السلاجقة تستقر فى بداية عام ٤٥٧ هـ ، وبدأ ألب آرسلان يسير فى بناء الدولة قدما على الأساس ألذى أرساه طغرلبك فى ايران والعراق ، ويرسم الأهداف التى يسعى الى تحقيقها .

كان ألب آرسلان قائدا ماهرا ، كما كان وزيره نظام الملك سياسيا محنكا بعيد النظر ، فرسما خطة العمل على الأساس العسكرى والسياسى معا ، وذلك بأن يدعما سيطرة السلاجقة على العالم الاسلامى بالاتجاه الى التوسع فى البلاد المعادية للاسلام ، وهى الأقاليم المسيحية المجاورة لايران كبلاد الأرمن وبلاد الروم ، ولأن

---

(١) عبد المنعم حسنين : ص ٥٠ . يقول ابن الاثير انه سجنه فى مدينة مرو الروذ ، ج ١٠ ، ص ١١ .
(٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ١٢ .

هـذا سوف يطبع أعمالهم بطابع الجهـاد الدينى مما يكسبهم عطف العـالم الاسلامى ورضاءه ، وبهـذا يستقر حكم السلاجقة فى البلاد الاسلامية وتتسع فى نفس الوقت أرجاء دولتهم .

وبينما كان ألب آرسلان يستعد لتحويل نشاطه نحو هذا الاتجاه ، فوجىء بما جعله يعدل خطته ويؤجل أعماله الخارجية الى حين ، وذلك أن فتنة جديدة أطلت برأسها يقودها عمه « بيغو » الذى كان حاكما على هراة ، والذى عز عليه أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن العصيان وحاول الاستقلال بالمناطق الخاضعة لحكمه ، فأدرك ألب آرسلان أن عليـه أولا أن يثبت أركان حكمـه فى جميع أجـزاء دولته ، بتأديب المتمردين ، واقرار هيبة السلطان فى كل أنحاء الدولة ، حتى يتجه الى أهدافه الخارجية وهو مطمئن الى جبهته الداخلية . وعلى هذا الأساس أصبح له أهـداف قريبة وأهداف بعيدة . فأما أهدافه القريبة فهى تثبيت أركان حكمه فى كل البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة ، وأما أهدافه البعيدة ، فهى فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته ، ثم العمـل على اسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر ، وتوحيد العالم الاسلامى تحت راية الخلافة العباسية السنية ، وحكمه بواسطة السلاجقة .

ولتحقيق أهدافه الأولى ، ولى وجهـه شطر هراة فقاتل عمـه « بيغو » وألحق به هزيمة فى سنة ٤٥٧ هـ . جعلته يتعهد بعدها باطاعة السلطان ، وانتهز ألب آرسلان فرصة وجوده فى هـذه البلاد ، فقام بتأديب كل من تخشى ثورتهم من أمراء هـذه النواحى ، وأعاد الأمن الى نصابه فى جميع أنحاء خراسان وما وراء النهر ، ثم رجع الى مدينة نيسابور(١) . ثم أخذ بعد ذلك يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف ، وقـد استغرقت هـذه الجولة نحو خمس سنوات ، أقر فيها الأمن فى كل البلاد السلجوقية . وحتى لا يترك ظهره معرضا لطعنة تأتى من

---

(١) ابن الأثـير : ج ١٠ ، ص ١٢ — ١٣ . عبد النعيم حسـنين : ص ٥٣ .

الخلف فى أثناء تحركه غربا نحو البلاد المسيحية ، رأى أن يؤمن جانبه من ناحية الدولتين الشرقيتين اللتين لا تزال فيهما بقية من القوة على حـــدوده الشرقية ، وهمــا الدولة الغزنوية فى غزنة والهند ، والدولة الخانية فى ما وراء النهر . ورأى نظام الملك أن السياسة أنفع فى معاملة هاتين الدولتين ، وخير وسيلة لذلك هى ربطهمــا برباط المصاهرة مع البيت السلجوقى ، فزوج السلطان ابنـــه ملكشاه بابنـــة خاقان ملك ما وراء النهر ، وزوج ابنه آرسلان شاه بابنة صاحب غزنة ، وبذلك ارتبطت الدول الثلاث برباط المصاهرة . واتفقت الكلمة (١) ، وهدأ بال السلاجقة فانصرف السلطان الى تحقيق أهدافه الكبرى ، وقرر أن يبدأ بفتح الأقاليم المسيحية المجـــاورة لدولته وهى بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم ، لأنهـــا كانت المنافذ التى تطل على ممتلكات الدولة البيزنطية .

وفى مدة قصيرة تمكن ألب آرسلان ـــ بعد أن تجاوز آذربيجان ـــ من الاستيلاء على الجـــزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتى وان وأورومية ، كمـــا فتح جورجيا وبلاد الأرمن ، وبسقوط مدينـــة « آن Ani » عاصمة أرمينية القديمة وهى الحصن الذى وقى الامبراطورية البيزنطية شر الغزوات الشرقية ، انفتح المجال أمام القوات السلجوقية لتكيل الضربات السريعة للروم فى الولايات الأرمينية والأناضـــولية والكبادوكية ، وتتوسع فى حركاتها فى آسيا الصغرى حتى وصلت الى عمورية فى مقاطعة فريجيا . بعد أن ضربت كبادوكيا كلها (٢) .

وأغضبت فتوحات ألب آرســـلان امبراطور الروم « رومانوس ديوجينس Romanos Diogénes » الذى قاد فى حماس بالغ الى ميـــدان القتال كل رجل استطاع أن يجنده من الولايات الأوروبيـــة والآسيوية ، وظـــل ثلاث سنوات متواليـــة يروح ويجىء فى أرمينيا

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٥ .
(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية : ص ١٩٦ — ١٩٧ .

وكبادوكيا محاولا ضرب القوات السلجوقية بدون جدوى ، ثم قصد سورية لضرب القوات الاسلامية ، وفعلا ألحق الهزيمة بقوات أمير حلب الذى كان يدين بالولاء للفاطميين ، ولكنه لم يستطع تحقيق نصر دائم واضطر الى التراجع (١) .

وأتاحت أعمال امبراطور الروم فى الشام للسلطان ألب آرسلان الفرصة لتحقيق هدف آخر من أهداف السلاجقة وهو القضاء على الخلافة الفاطمية فى الشام تمهيدا للقضاء عليها فى مصر ، فأرسل جيشا بقيادة ابنه ملكشاه لفتح بلاد الشام ، وحين أحس أمير حلب بقدوم الجيش السلجوقى خلع طاعة الفاطميين وانضم للسلاجقة وخطب للخليفة العباسى ، وبذلك اتقى خطر الغزو السلجوقى لبلاده . كما تمكن ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام ، ووضع يده على بيت المقدس عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ثم حاصر دمشق ، غير أنه لم يتمكن من فتحها فى ذلك الوقت (٢) . وبهذه الأعمال فى بلاد الشام نجح السلاجقة فى تأمين الجيش السلجوقى الرئيسى الزاحف الى بلاد الروم وتمهيد سبيله .

وأدرك الامبراطور ما يرمى اليه السلاجقة فقام بحركة مضادة ، فقد جمع جيشا جرارا يضم أخلاطا من الشعوب المسيحية ، تمثل الروم والفرنسيين والبلغار واليونانيين والجورجيين ، وذرع به آسيا الصغرى ، وتوغل شرقا حتى عسكر عند « ملاذكرد Mansikert » الواقعة على الحد الأرمنى بالقرب من مدينة « خلاط » . وبعد مناوشات مع مقدمة الجيش الرومى أدرك السلطان أن من الصعب عليه أن يقاتل مثل هذا الجيش ، وبخاصة أنه لم يستطع أن يجمع قواته التى كانت مبعثرة ، ففضل أن يطلب الصلح ، وأن يؤجل ما عزم عليه من غزو بلاد الروم حتى يكمل استعداده . ولكن امبراطور الروم

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص . اومان : ص ١٩٧ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٣ — ٢٥ .

وكان معتدا بقوته ومتلهفـا على ضرب السلاجقة ، رد على رسـول السلطان بأن الصلح لا يتم الا فى الرى عاصمة السلاجقة .

أزعج السـلطان هـذا الرد المتكبر من الامبراطور ، وألهب فى الوقت نفسه حماسه الدينى ، فأعلن لجنوده أن الاسـلام فى خطر ، واستثار عواطفهم الدينية بما أبداه من تضرع لله حتى لقـد نزل عن جواده ومرغ وجهه فى التراب خضوعا لله واستمطارا لنصره . وبذلك صبغ عمله بصبغة الجهاد الدينى .

وفى حماسـة بالغـة من كلا الطرفين التحم الجيشان فى معركة عاصفة انتهت بسحق الجيش الرومى سحقا تاما ، حتى فرشت ساحة القتال بجثث رجاله ، ووقع رومانوس نفسه أسيرا فى أيدى السلاجقة . وحمل الى السلطان فى ذلة ، ولكن هـذا عامل عدوه المهزوم بكرم ، وقبل أن يفتدى نفسه بعد أن عقد معه معاهدة مدتها خمسون عاما ، تعهد فيها امبراطور الروم بدفع الجزية للسلاجقة ، وبأن يرسل الى السلطان عساكر الروم حين يطلبها ، وبأن يطلق له كل أسير من المسلمين فى بلاد الروم .

وحين عاد الامبراطور الى بلاده لقى مصيرا مؤلمـا ، فقد وثب « جون دوكاس » على السلطة ، وقبض على الامبراطور المهزوم وعذبه وسمله فمات بعد أيام قليلة ، ولكن خلفه لم يستطع الا أن يقر المعاهدة التى وقعها مع ألب آرسلان . وبذلك صرف الروم نظرهم نهائيا عن آسيا الصغرى (١) .

كانت موقعـة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م نقطة تحـول فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة ، وتاريخ منطقة غربى آسيا بصفة خاصة . فأما فى التاريخ الاسلامى ، فان السلاجقـة قـد واصلوا

---

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٢٤ — ٢٥ . الراوندى : ص ١٨٩ . أومان : ص ١٩٧ — ١٩٩ .

كفاح العرب ضد الروم ، واستطاعوا بهذا النصر أن يزيلوا الروم كعدو ظل يصارعهم منذ خروج العرب من الجزيرة العربية الى المجال الخارجى فى الفتوح الكبرى ، وقد كان الروم يحرصون على وضع أيديهم على بلاد الأرمن وما جاورها ويعتبرونها القنطرة بين الغرب والشرق مما جعل هذه البلاد ميدان صراع بين الفرس والروم قبل الاسلام ، ثم حاول المسلمون وضع أيديهم عليها وبسط نفوذهم فيها بكل السبل ، لكن النفوذ الرومى بقى قويا طاغيا ، حتى كانت موقعة ملاذكرد هذه فأخذ النفوذ الرومى ينحسر شيئا فشيئا حتى زال تماما . ثم ان انحسار الروم عن هذه المنطقة أدى الى تدخل قوى أخرى فيما بعد هى القوة الأوروبية ، فاشتبك المسلمون فى صراع مع قوى أوروبا المسيحية فيما عرف بالحروب الصليبية التى استمرت نحو قرنين . ثم ان انحسار الروم عن هذه المنطقة أدى من الناحية الحضارية الى انتشار الحضارة الاسلامية فى هذه البلاد بعقائدها ونظمها وآدابها وجميع مظاهرها .

وأما من ناحية تاريخ منطقة غربى آسيا ، فان موقعة ملاذكرد يسرت القضاء على النفوذ الرومى فى أكثر أجزاء آسيا الصغرى مما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها بعد ذلك على أيدى الأتراك العثمانيين . وبذلك شمل الاسلام كل منطقة غربى آسيا بل قفز منها مع التقدم العثمانى الى شرق أوربا .

أما السلطان ألب آرسلان فانه لم يعش طويلا بعد انتصاره فى ملاذكرد ، فقد قتل بعد عام وبضعة أشهر من هذا الفوز العظيم ، على يد أحد الثائرين فى المشرق . وذلك أنه بعد أن فرغ من قتال الروم توجه الى المشرق لقمع فتنة قام بها الخانيون ، وعبر نهر جيحون فى أوائل عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م وهاجم احدى القلاع الثائرة واستولى عليها . ولما قبض على قائدها وكان يسمى يوسف الخوارزمى أراد السلطان أن يقتله بنفسه لشدة عناده وشتمه

للسلطان ، ولكن هـذا هاجمه بسكين كان يخفيها وطعنه طعنة نافذة مات منها بعد أيام ، ودفن بمدينة مرو بعد حكم دام تسعة أعـوام ونصف تقريبا (١) .

ملكشاه :

كان ملكشاه مع والده فى حملته على المشرق . فلمـا قتل والده جلس على العرش بوصية منه ، وكتب السلطان ملكشاه الى الخليفـة فى بغداد ليصدر له التفويض بالسلطنة وليأمر بذكر اسمه فى الخطبة فأجيب الى ما طلب (٢) . غير أن عمـه « قاورد » الذى أوصى له ألب آرسـلان بكرمان وفارس ، لم يطب نفسـا بتولى ابن أخيـه السلطنة ، فخـرج بقواته من كرمان قاصدا الرى معلنـا أنه أحق بالسلطنة . ولكن ملكشاه ووزيره نظـام الملك سبقاه اليها ، ثم سار اليه فالتقيا به بالقرب من همذان ، وتمكنا بمساعدة أمراء العـرب والأكراد من الانتصار عليه ، حيث أمر ملكشاه بقتله تخلصا من شره ، ولكنه أقر كرمان بيـد أولاده ، فتوارثوا حكمها زمنا طويلا الى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وسميت دولتهم فى التـاريخ باسم « سلاجقـة كرمان » . وكذلك كافأ السلطان العـرب والأكراد باقطـاعات كثيرة لمـا أبدوا فى الحرب من بسالة وبلاء . أما نظام الملك فقد علا شأنه ، فرد السلطان الأمور كلها اليه وأقطعه اقطاعا وافرا وخلع عليه ولقبه ألقابا من جملتها لقب « أتابك » ومعناه الأمير الوالد ، وذلك لمـا أظهر من كفاية وشجاعة وحسن سيرة (٣) .

فتوحات ملكشاه :

ما كاد الأمر يستقر لملكشاه حتى انصرف الى اكمال « البرنامج » الذى رسمه أبوه ، وهو بسط نفوذ دولة السلاجقة حتى تشمل جميع

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٧ .
(٢) نفس المصدر : ص ٢٨ .
(٣) نفس المصدر : ص ٢٩ — ٣٠ .

أنحاء العالم الاسلامى • وبدأ فولى وجهه شطر الشام وكان هو قــد دخلها من قبل فى حياة أبيه حتى وصل الى بيت المقدس عام ٤٦٣ هـ فلما ولى العرش اتجه الى اتمام ما بدأه فى عهد أبيه ، فتوغلت جيوشه حتى استولت على معظم بلاد الشام ، ثم أرسل جيشا دخل الأراضى المصرية وتوغل حتى وصل القاهرة وحاصرها ، ولكنه لم يستطع فتحها لاستماتة الفاطميين فى الدفاع عنهــا (١) • فاضطر جيش السلاجقة الى الارتداد الى الشام ، ولم يفكر بعد ذلك فى غزو مصر مرة أخرى ، غير أن السلاجقة حرصوا على تأمين بلاد الشام وانتزاعها نهائيا من الفاطميين ، ولذلك أسند السلطان ملكشاه أمر بلاد الشام الى أخيه تاج الدين تتش فى عام ٤٧٠ هـ ، وسمح له بفتح ما يستطيع فتحه من الأقاليم المجاورة وضمه الى حوزة السلاجقة •

وفى سنة ٤٧١ هـ اتجه « تتش » الى حلب ليعيدها الى حوزته ، ولكنه علم بحصــار جيش الفاطميين لمدينــة دمشق ، فخف بقواته لنجدتهـــا ، فانسحب الجيش الفاطمى دون قتال ودخل تتش مدينة دمشق واتخــذها قاعدة لحكمه ، وأسس فيهــا دولة « سلاجقــة الشـــام » (٢) •

وفى نفس الوقت الذى عين فيه ملكشاه أخاه تتش على الشـــام عين سليمان بن قتلمش واليا على البلاد التى فتحها السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فوضع سليمان يده على ولايتى قونية وآق سرا • ويعــد سليمان هذا هو المؤسس الحقيقى لدولة « سلاجقة الروم » التى كتب لها أن تكون أطول دول السلاجقة عمرا ، فقد ظلت تحكم هــذه البلاد الى عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م • وقــد تمكن سليمان من توطيد نفــوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى • ثم حاول التوسع بفتح أقاليم جديدة • ففتح أنطاكية عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م • وكانت أنطاكية من بلاد الشام

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣٧ — ٣٩ •
(٢) نفس المصــدر : ص ٤١ •

غير أنهـا كانت تحت حـكم الروم منـذ عام ٣٥٨ (١) • ولذلك فان فتحها كان بالغ الأهمية لأنه أوصل نفوذ السلاجقة الى سواحل البحر المتوسط •

لكن فتح سليمان لمدينة أنطاكية أوقـع الفرقة بين أفراد البيت السلجوقى ، اذ بدأ التنازع بين سليمان وتتش ، فقد حاول كل منهما أن يوسع منطقة نفوذه ، ففكر فى الاستيلاء على جـزء من الأقاليم الخاضعة للآخر • وقـد بدأ سليمان بالعدوان ، اذ أنه بعد أن فتح أنطاكية اتجه الى حلب ليضمها لحكمه ، وحاصرها حصارا شديدا حتى استنجد حاكمهـا بتتش ، وصادف هـذا هوى فى نفس تتش فتقدم بقواته لصد سليمان عنها • ودارت بين الطرفين معركة حامية قتل فيها سليمان عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ودخل تتش حلب •

غير أن السلطان ملكشاه أحس بخطـورة الخـلاف بين فروع السلاجقة ، فتقدم بنفسه الى بلاد الجزيرة والشام ، وأخضع فى طريقه ما صادفه من قلاع كانت لا تزال تحت حكم الروم مثل الرها • فلما اقترب من حلب رحل عنها تتش الى دمشق ، فدخلها السلطان وطمأن أهلها (٢) ، وفصل بين الطرفين المتنازعين ، فأقر تتش على بلاد الشام ، كما أقر أبناء سليمان على بلاد الروم •

وحين فرغ ملكشاه من اقرار الأمور فى الجزء الغربى من دولته رحـل الى بغداد حيث توطدت بينه وبين الخـلافة أواصر الصلة • اذ زوج ابنته الى الخليفـة العباسى المقتدى بأمر اللـه أوائل عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (٣) ، فازداد نفـوذ السلاجقة بذلك استقرارا فى جميع المناطق التى تحت أيديهم وأصبحت قوتهم أكبر قوة فى المشرق الاسلامى • وآن لملكشاه وقـد وطد دولته فى المغرب أن يتجه الى

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٤١ •
(٢) نفس المصـدر : ص ٥٥ •
(٣) [illegible]

المشرق لبخضع اقليم ما وراء النهر ، حتى يثأر لمقتل والده فى هــذه الديار ، وقــد واتته الفرصة حين شكا اليه علماء ما وراء النهر من ظلم أميرها أحمــد خان وكان صــبيا قبيح السيرة فى الناس ، حتى استغاثوا بالسلطان وسألوه القــدوم عليهم ليملك بلادهم • ولهــذا دلالته فان المسلمين فى تلك البقاع كانوا ينظرون الى الســلاجقة على انهم حمــلة الاســلام والمسلمين • ولم يفوت السلطان هذه الفرصة بل تقــدم بقواته الى بلاد ما وراء النهر ، فهزم احمد خان واستولى على بلاد ما وراء النهر كلها ، ثم تجاوزها الى اقليم كاشغر حيث خضع له واليها (١) ، وبذلك بلغ ملك السلاجقة أقصى اتساعه شرقا وغربا ، فقد شــمل المناطق الواقعة بين كاشغر فى الشرق وأنطاكية فى الغرب ، أى من حدود الهند شرقا الى البحر المتوسط غربا ، وضم تحت لوائه أقاليم ما وراء النهر وايران وآسيا الصغرى والعــراق والشــام • وليؤكد نظام الملك مدى قوة السلاجقة أمام خصومهم ، أمر رســول ملك الروم الذى جاء بالجزية المفروضة على بلاده ، منــذ موقعــة ملا ذكرد ، أن يحملها الى السلطان وهو فى كاشغر ، كما أمر الملاحين الذين يعملون فى نهر جيجون بأن يحملوا الرسوم المقــررة عليهم الى عامل السلطان فى أنطاكيــة •

بعد أن نجح ملكشاه فى اقرار هيبته فى جميع أجزاء دولته المترامية الأطراف عاد الى أصفهان ، غير أن الأحــداث لم تلبث أن تطــورت تطورا آخــر ، فقد أطلت برأسها على مسرح الأحداث فى ايران قــوة رهيبــة ، أخذت تمثــل دورا موجها فى تاريخ الدولة السلجوقيــة كان له آثار واضحة فيما بعد ، ونعنى بهــذه القــوة طائفة الاسماعيلية •

الاسماعيلية :

الاسماعيلية احدى فرق الشيعة ، ويقــولون باثبات الامامة الى

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٦٣ — ٦٤ •
(٢) نفس المصدر : ص ٦٣ • عبد النعيم حسنين : ص ٦٩ •

اسماعيل بن جعفر الصادق ، ويرون أنه أحق بالامامة من أخيه موسى الكاظم • ومن أهم مبادئهم ايمانهم بالامامة ، لأن العقل وحده يقصر عن الوصول الى معرفة اللـه معرفة حقة ، ولذلك يرون أنه لابد أن يعرف النـاس امامهم وأن يبايعوه ، ومن أجل ذلك قالوا « ان من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية • وكذلك من مات ولم يكن فى عنقه بيعة امام مات ميتة جاهلية » (١) •

ومن أهم الأسس التى يقوم عليها مذهبهم ايمانهم بأن للعقيدة ظاهرا وباطنا • وللتنزيل معان ظاهرة يعرفها النـاس وأخرى باطنة يعرفها الامام ولذلك سموا بالباطنية •

وقـد انتشر دعاة الاسماعيلية فى جميع الأقطـار الاسـلامية لترويج لدعوتهم • وقـد تمكنوا من اقنـاع بعض الأمراء والقبائل والأفراد باتباع مذهبهم • وأتيح لهم أن يقيموا لهم دولا : منها دولة القرامطة فى عام ٢٨٠ هـ / ٨٩١ م • وقـد تمكن القرامطة من بسط سلطانهم على كثير من مدن الشام والعراق وعمان والبحرين ، كمـا استولوا على مكة ، وظلوا يبعثون الرعب فى تلك النواحى • كمـا استطاعت طائفة من الاسماعيلية أن تصل الى شمال أفريقية وأن تنجح فى عام ٢٦٩ هـ / ٩٠٨ م فى اقامة الدولة الفاطمية التى امتـدت على الشمال الأفريقى وأخذت مصر والشام وبلغ نفوذها بغداد نفسها •

اما فى ايران فقد انتشر النفوذ الاسماعيلى فى بعض أجزائها ، وازداد هذا النفوذ فى العصر السامانى فى عهد نصر بن أحمد ، وكذلك فى أثناء حكم الزياريين •

ولكن هـذا النفوذ ضعف بعد غلبة الغزنويين ، وتلاشى تقريبا فى بداية العهـد السلجوقى لشدة تحمس السـلاجقة للمذهب السنى وتعقبهم للاسماعيلية •

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل : ج ١ ، ص ١٩١ — ١٩٢ •

غير أن النفـوذ الاسماعيلى عاد الى الظهور فى عصر ملكشاه ، وأصبح قويا مرعبا على يد الحسن بن محمد بن الصباح ، الذى طوف فى البلاد حتى وصـل الى مصر وأقام فيها عاما ونصف عام ، انضم فى خلال هذه المدة الى أنصار نزار بن المستنصر •

وذلك أنه حـدث نزاع حول ولاية العهد بين ابنى المستنصر : نزار ، والمستعلى • فانقسم الاسماعيلية بينهما ، ولم يتمكن نزار من الوصول الى العرش ، فقد هزم وأسر ومات فى الأسر ، ولكن أتباعه انتشروا يروجون للمذهب النزارى •

وقـد استطاع الحسن الصباح أن يكون قوة كبيرة من الأتباع فى ايران وبهذه القوة استولى على قلعة (ألموت) فى عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٧ م وكـون له دولة وكثر مريدوه • وقـد ربى أتبـاعه على الفدائيـة ، واستطاعوا تكوين معـاقل قوية حصينة لهم فى أقاليم الجبال • اتخذ الاسماعيلية طريق اغتيال أعدائهم من القواد والأمراء والخلفاء والسلاطين ، وسيلة لازالة كل معترضيهم ، الأمر الذى أثار قلقا شديدا فى جميع أنحاء الدولة السلجوقية فعاش الناس فى خوف واضطراب يتوجسون خيفة من هؤلاء الفدائيين •

وكان أبرز عمل ينسب الى الاسماعيلية فى عهد السلطان ملكشاه هو قتلهم لوزيره نظام الملك فى شهر رمضان من عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ويقال ان السلطان كان قـد ضاق بقوة نفوذ نظام الملك ، فدبر مؤامرة للقضاء عليه ، فتم قتله على يد فتى من فتيان الاسماعيلية الفدائيين(١)•

والواقع أن مكانة نظـام الملك كانت قـد تزعزعت فى أيامه الأخيرة ، وذلك لأن أهله وأتباعه استغلوا مركزه ونفوذه فسيطروا على مراكز الدولة ، ولم يحسنوا السيرة معتمدين على قوة شخصية نظام

---

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٧٦ •

الملك وسوابق خدمته ، ولما كان نظام الملك قد تقدمت به السن وأصبح شيخا كبيرا محطما فانه كان فى حاجة الى الاستعانة بأهله وأتباعه ، ولم يكن فى مكنته السيطرة عليهم وتقويم معوجهم ، الأمر الذى جعل السلطان ملكشاه ينفر من نظام الملك ويحاول التخلص منه ، وقد أتاح هذا الشعور من السلطان لمنافسى نظام الملك وحساده فرصة الدس بينه وبين السلطان حتى يزيدوا من حدة الخلاف بينهما . كما أن نظام الملك قد وقع فى خلاف مع « تركان خاتون » زوجة السلطان التى كانت ترغب فى أن يكون ابنها محمود وليا للعهد ، بينما كان نظام الملك يريد تولية « بركيارق » الابن الأكبر اذ أن محمودا كان طفلا لا يتجاوز الرابعة . ولذلك انضمت تركان خاتون الى أعداء نظام الملك . ولما كانت ذات نفوذ قوى على السلطان وكانت تتدخل فى السياسية وفى تصريف شئون الدولة ، فانها تمكنت من التأثير على السلطان حتى ساء ظنه بنظام الملك وفكر فى عزله .

وجاء حادث أتم صورة الخلاف بين الرجلين ، وأعلن الوحشة بينهما ذلك أن حفيدا لنظام الملك كان جده قد ولاه رئاسة مدينة مرو فثار نزاع بينه وبين متولى الشحنة من قبل السلطان ، فحملت « عثمان » حفيد نظام الملك حداثة سنه وتمكنه وطمعه بجده على أن يقبض على متولى الشحنة ويهينه ، ثم أطلقه فقصد السلطان مستغيثا شاكيا .

ولما كان السلطان قد أبغض نظام الملك وأحب القضاء على نفوذه ونفوذ أبنائه وأتباعه ، فانه هم بخلع وزيره ، غير أنه خشى إن فعل أن تنتشر الفوضى والاضطرابات فى أنحاء الدولة ، نظرا لكثرة أتباع نظام الملك ، ولأن كثيرا من رجال الجيش كانوا يحبونه ويؤيدونه ويحمونه هو وأتباعه وأبناؤه . فآثر السلطان أن يلجأ الى التهديد بالعزل لعله يرهب نظام الملك فيخفف من سيطرة أتباعه ، فأرسل له رسالة شديدة اللهجة ، وأمعن فى اغاظة الوزير واغضابه ، فأرسل

الرسالة مع جماعة من أرباب دولته منهم شخصان من ألد أعداء نظام الملك ، هما تاج الملك الشيرازى ومجد الملك القمى . وقد وجه السلطان الكلام الى الوزير قائلا « ان كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة فلذلك حكم . وان كنت نائبى وبحكمى فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة . وولى ولاية كبيرة . ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة ، وطمعوا الى أن فعلوا كذا وكذا ، وأطال القول » (١) .

ولما وصلت رسالة السلطان الى نظام الملك كان رده منبئا عن اعتدائه واستمساكه بمركزه . وكان يحمل من التهديد للسلطان أكثر مما كانت تحمل رسالة السلطان له ، فقد قال لمبلغى رسالة السلطان « قولوا للسلطان : اذا كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأيى . أما يذكر حينما قتل أبوه ، فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم منهم فلان وفلان — وذكر جماعة من خرج عليه — وهو ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ولا يخالفنى ، فلما قدت الأمور اليه ، وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعه القاصى والدانى ، أقبل يتجنى لى الذنوب . ويسمع فى السعايات » . قولوا له عنى « ان ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وان اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك . فان عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه » . ثم وجه الكلام اليهم قاصدا اشعارهم بقوته فقال لهم « قولوا للسلطان عنى مهما أردتم ، فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه ، وفت فى عضدى » (٢) .

وحين أحيط السلطان علما بقول نظام الملك لم يجرؤ على عزله

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٧٦ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٧١ .

مع شدة حفيظته عليه ، وانما سلك طريق المؤامرة للايقاع به دون أن تثور من وراء ذلك فتن وقلاقل ، حتى تم قتل نظام الملك على يد فتى من فتيان الاسماعيلية .

ولم يعمر السلطان طويلا بعد نظـام الملك ، فقد توفى بعد ذلك بخمسة وثلاثين يوما . وبموت نظـام الملك والسلطان انفرط عقـد السلاجقة وتمزقت وحدتهم وحكم السيف بينهم ، وقـد صدقت نظرة نظام الملك وتقديره كما أرسل الى السلطان .

والواقع أن الدارس لتاريخ الدولة السلجوقية لا يجـد مفرا من الوقوف وقفة طويلة عند الدور الذى قام به نظـام الملك على مسرح الدولة السلجوقية ، فقد قام نظـام الملك بدور كبير الأثر من جميع النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية .

فأما من الناحية السياسية : فان نظام الملك بقى وزيرا للسلطان السلجوقى ثلاثين سنة شملت عهد ألب آرسلان وملكشاه سوى ما وزر لألب آرسلان أيام أن كان على خراسان فى عهـد عمه طغرلبك ، وهى مـدة طويلة شهدت معظم بناء الدولة السلجوقية . وكان نظام الملك فى خـلال هـذه المدة الطويلة يعد الأستاذ الأعظم وسيد الوزراء ، فكان فى يده زمام الأمور فى دولة السلاجقة المترامية الأطراف ، وكان واسـع الثقافة عظيم الخبرة ، توفر فى شبابه على تحصيل العلوم ، ثم تمرس بالأعمـال السلطانية المختلفة حتى وصـل الى الوزارة . وقـد استخدم علمه وخبرته ، فأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة فى الداخل والخارج ، وحـدد أهدافها ورسم الطرق التى توصل الى هـذه الأهداف ، واستطاع بحسن سياسته ودقة تدبيره أن يجعـل الأمور منتظمة فى جميع أنحـاء الدولة ، كما استطاع أن يجعـل من السلاجقة أكبر قوة فى العـالم الاسـلامى ، وكان لتوجيهه سياسـة

السلاجقة نحو الثغور الاسلامية أكبر الأثر فى اكتساب السلاجقة احترام المسلمين وتقديرهم ، وبث رهبتهم وخشية بأسهم فى نفوس غير المسلمين ، حتى تجمع العالم المسيحى للقضاء عليهم ، فتوالت الحملات الصليبية على العالم الاسلامى ونشب ذلك الصراع المرير بين أوربا المسيحية وبين المسلمين نحو قرنين خرج منه المسلمون ظافرين آخر الأمر على يد صلاح الدين •

وكان توجيه نظام الملك لقوى السلاجقة نحو الدولة البيزنطية أول معاول الهدم الحقيقى لهذه الدولة التى صمدت للمسلمين نحو خمسة قرون تحافظ رغم هزائمها على خط الحدود بينها وبين العالم الاسلامى ، حتى نفذ السلاجقة الى أرضها فمهدوا لسقوطها بعد ذلك على يد العثمانيين • ولم يكتف نظام الملك بتوجيه السياسة توجيها عمليا فى حياته ، وانما وضع سفرا جليلا ضمنه آراءه فى السياسة ونظم الحكم ، وهو كتابه المشهور « سياستنامة » ويعتبر من أشهر الكتب التى تبحث فى نظم الحكم ، وكيفية ادارة البلاد وكسب رضاء المحكومين • والواقع أن ما تضمنه كتاب « سياستنامه » من آراء ووصايا يصلح لأن يكون أساسا لفن الحكم ، الأمر الذى جعل هذا الكتاب يحظى بشهرة واسعة ويترجم من الفارسية الى عدة لغات مختلفة •

وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد شجع نظام الملك على تعمير المدن واصلاح البلاد ، وشيد كثيرا من المساجد والمدارس ، وخلف كثيرا من الأبنية والآثار العظيمة فى مختلف البلاد وبخاصة فى بغداد وأصفهان • كما كان نظام الملك خيرا عادلا أقر الأمن والنظام فى جميع أرجاء ملك السلاجقة فانتعش المجتمع ، واتحد أفراده وتماسكوا واتجهوا الى تحقيق أهداف الدولة التى اصبغت بصبغة الجهاد فى سبيل الله لنشر الاسلام واعلاء كلمته ، وبذلك نشطت قوى المجتمع واحتفظ البيت السلجوقى بوحدته •

أما من الناحية الثقافية ، فان نظام الملك بنفسه كان عالما أديبا ، فشجع على نشر العلم والثقافة ، وأنشأ كثيرا من المدارس التى أخذت طابعا خاصا فى الدراسة وحملت اسمه فعرفت بالمدارس النظامية ، وكانت نشأة هذه المدارس فى الحقيقة مرتبطة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية • وقد انتشرت هذه المدارس فى بغداد ونيسابور وطوس وهراة وأصفهان وغيرها من البلاد ، وكان أشهرها المدرسة النظامية فى بغداد • وقد شمل العلماء والكتاب والشعراء برعايته وتشجيعه ، فاجتمع حوله الكثيرون منهم ، وألفوا الكتب وقدموها له ، ونظموا الأشعار فى مدحه والاشادة بذكره • فراجت سوق العلم وازدهرت الثقافة فى دولة السلاجقة (١) •

وقد وضحت مكانة نظام الملك بعد مقتله ، فقد زلزلت الدولة السلجوقية بعد مدة زلزالا شديدا ، وانتكست انتكاسا عنيفا ، فانتهى بموته عصر التماسك والقوة ، وبدأ عهد التفكك والضعف ثم الانهيار • كما أن مكانة أسرته ونفوذها لم يزل بزواله ، بل ظل الشعب يحبها ويلتف حولها ، وقد تمتع كثير من أبنائه وأحفاده بكثير من النفوذ ، وولوا الوزارة فى أحيان كثيرة فى أثناء حكم أبناء ملكشاه وغيرهم من سلاطين السلاجقة ، وكان لأسرة نظام الملك وزن كبير فى التنافس الذى قام بين فروع البيت السلجوقى ، فكثيرا ما كان يكفى تأييد أسرة نظام الملك لفرد من أفراد البيت السلجوقى ليتفوق على منافسيه ، كما كان يكفى تخليها عن حاكم من السلاجقة ليتخلى الشعب عنه ويلقى الهزيمة ، وما ذلك الا لحب الشعب لهذه الأسرة وثقته بها •

بركيارق :

يعتبر عهد بركيارق بن ملكشاه وسطا بين عصرين : عصر وحدة السلاجقة وعصر انقسامهم ، وعلى الرغم من أن بركيارق استطاع

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٧٧ — ٧٨ . عبد النعيم حسنين : ص ٧٩ — ٨١ •

بأن يكون سلطانا على السلاجقة ، الا أن عهده كان عهد اضطراب وحروب بين أفراد البيت السلجوقى ، انتهى بانقسام الدولة السلجوقية الى أقسام تكاد تكون منفصلة بعضها عن بعض ، ومنذ نهاية عهد بركيارق لم تتوحد الدولة الا فترة قليلة تحت حكم أخيه سنجر • فلقد كان قتل نظام الملك وموت ملكشاه بعده بقليل من أهم الأحداث التى وقعت فى تاريخ السلاجقة ، اذ انتهى باختفاء السلطان ووزيره من المسرح السياسى عهد القوة والاتحاد ، وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام ، وكان أهم مظهر من مظاهر هذا العهد الجديد هو أن الظفر بمنصب السلطنة أصبح غاية فى ذاته • فكثر النزاع بين أفراد البيت السلجوقى ، ولم تعد الدولة فى هذا العهد تخضع لسلطان واحد ، بل كان يتنازعها أكثر من سلطان فى وقت واحد ، ولم يعد هم أمراء السلاجقة نصرة الاسلام وتوسيع أملاك الدولة السلجوقية كما كان الحال فى عهد طغرل وألب آرسلان وملكشاه ، وانما كان همهم القضاء على بعضهم البعض حتى يخلو الجو للمنتصر منهم ، ومن ثم وقعوا فى حروب أسرية أدت الى اضعافهم جميعا والى اسقاط دولة السلاجقة آخر الأمر •

وكانت أولى المشاكل التى واجهت الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه هى مشكلة اختيار السلطان الذى يخلفه ، ولقد برزت هذه المشكلة قبل موت السلطان وكانت سببا من أسباب الجفوة بين السلطان ووزيره ، وقد مات الرجلان قبل الوصول الى رأى حاسم فى هذه المسألة •

كان التنافس على العرش محصورا بين بركيارق الابن الأكبر لملكشاه يؤيده أتباع نظام الملك ، وبين أخيه الطفل محمود الذى تعمل أمه تركان خاتون باسمه ويناصرها تاج الملك الشيرازى الوزير الذى احتل مكان نظام الملك • وبذلك انقسم السلاجقة الى معسكرين متنازعين يجاهر كل منهما بعدائه للآخر • وكانت الظروف فى أول الأمر تبدو فى

صالح تركان خاتون ، فقد مات ملكشاه فى بغـداد مقر الخليفة العباسى الذى يرجع الى رأيه فى تعيين السلطان ، بينما كان بركيارق فى أصفهان ، ولذلك استطاعت تركان خاتون أن تجعل الخليفة يعترف بابنها محمود سلطانا ، وخطب له فى ٢٢ شوال من عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م • ثم أمرت بالقبض على بركيارق ، فقبض أتباعها عليه وسجنوه فى أصفهان •

لكن أتباع نظام الملك هبوا لنصرة بركيارق ، واستطاعوا اخراجه من السجن ونادوا به سلطانا ، وبذلك أصبح للسلاجقة سلطانان فى وقت واحـد : محمـود فى بغـداد وبركيارق فى أصفهان ، وأصبح لا مفر من الاحتكاك بين الطرفين • وقـد بدأت تركان بالهجوم ، ولكن قوات بركيارق تؤيدها النظامية ألحقت الهزيمة بها ، كما قبض النظامية على الوزير تاج الملك وقتلوه انتقاما لمصرع نظـام الملك ، فقد كان الوزير متهما بالتآمر على نظام الملك وولى النظامية « عز الملك » بن نظام الملك الوزارة ، وقـد كان مقيما بأصفهان عند حصار بركيارق لها (١) •

وفى الوقت الذى كان الصراع قائما فيه بين بركيارق وتركان خاتون ، ولم يوصل فيه الى نتيجة حاسمة ، ظهر فى الأفق منافس آخر لبركيارق هو عمـه تاج الدولة تتش الذى كان واليا على دمشق وما جاورها من بلاد الشام من قبل أخيه ملكشاه ، فلما رأى الخلاف بين أولاد ملكشاه ، ظن الفرصة سانحة للوصول الى عرش السلطنة ، واستعدادا لذلك سار الى حلب وبسط سلطانه عليها ، ثم دانت له أنطاكية والرها وحـران والرحبـة ونصيبين بالولاء ، ثم ما لبث أن ضـم الموصل وديار بكر وآذربيجان • وأحس بركيارق بالخطر يتهدده من ناحيـة عمه تتش ، فتقدم بقواته الى آذربيجان ، فلمـا أحس تتش بقوته وبميل أمراء الأقاليم اليه ، عاد الى الشام تاركا البلاد التى فتحها لبركيارق الذى استقامت له البلاد فى عام ٤٨٦ هـ (٢) • وكذلك استطاع بركيارق حسم

---

(١) انظر تفصيل هذه الأحداث فى ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٧٨—٨١ •
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨١ — ٨٣ •

فتنة أخـرى قام بهـا خاله اسماعيل بن ياقوت بتحريض من تركان خاتون التى منته بالزواج منها ، وقـد كان أميرا على آذربيجان فجمع جيشا قويا واتجه لقتال بركيارق ولكن هـذا أوقع به الهزيمة قـرب الكرج حيث فـر الى أصفهان للقـاء تركان خاتون التى أكرمت وفادته، ولكن لم تستقم له الأحوال لمعارضـة الأمراء له . فلجأ الى أختـه أم بركيارق وهناك أحس أتباع بركيارق منه الغـدر فقتلوه ، وبذلك انتهت فتنته . وصفا الجو لبركيارق فتوجه الى بغداد حيث اعترف به الخليفة المقتدر بالله سلطانا على السلاجقة وخطب له فى ١٤ من المحرم سنة ٤٨٧هـ /١٠٤٩م ، غير أن الخليفـة مات فجأة فى اليوم التـالى وبويع لابنـه المستنصر بالله ، فأقر هـذا « بركيارق » على السلطنة وأرسل اليه الخلع والتقليد (١) .

ولكن تتش لم يقبـل الأمر الواقع بل أخذ منذ تراجعه يجمـع القوات ويستعد لانتزاع السلطنة من ابن أخيه ، واستطاع أن يعـود ويستولى على حلب وديار بكر وأذربيجان وهمـذان وأن يقتل الأمراء الموالين لبركيارق . وقد لاحظ أن الناس يميلون الى أسرة نظام الملك ، فلما وجد أحد أبنـاء نظام الملك فى همذان وهو « فخر الملك » اتخـذه وزيرا استجلابا لميل الناس اليه ، ثم طلب من الخليفـة الاعتراف به سلطانا ، ولمـا كان بركيارق قـد هزم أمام عمـه ورجع الى أصفهان حيث قبض عليه رجال محمود ، فان الخليفة اعترف بتتش سلطانا (٢) .

غير أن الظـروف تحولت الى صـالح بركيارق ، وذلك أن تركان خاتون كانت قـد ماتت ، ثم ما لبث محمود أن مات ، فانحاز أنصاره اليه وبايعوا بركيارق ، ثم انضم اليه « مؤيد الملك » أكفـأ أبنـاء نظام الملك ، فأسند اليه الوزارة ، فاستطاع أن يعيـد الاستقرار الى

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٥ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٦ — ٨٧ .

دولة بركيارق المختلة وأن يضم الى سلطانه الأمراء العراقيين والخراسانيين ، فعظم شأن بركيارق وكثر جنده حتى استطاع الانتصار على عمه تتش فى معركة بالقرب من مدينة الرى عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م انتهت بمصرع تتش (١) •

لم تكد الأمور تهدأ وتستقيم السلطة لبركيارق حتى اشتعلت المنازعات بين الوزراء ، فتنافس ابنا نظام الملك على الوزارة ، فلما عزل السلطان « مؤيد الملك » بن نظام الملك وولى أخاه « فخر الملك » لم يستطع هذا أن ينهض بالأمر لتفوق « مجد الملك القمى » الذى كان وزيرا لزبيدة خاتون أم السلطان ، ونلاحظ فى أيام دولة السلاجقة أن النساء من زوجات السلاطين كن يتدخلن فى شئون الحكم والسياسة وكان لهن نفوذ كبير على أزواجهن ، كما كن يتخذن لأنفسهن وزراء يعملون لهن ويتمتعون بما لهؤلاء النسوة من نفوذ على السلاطين ، واستطاع مجد الملك القمى بنفوذ سيدته ومهارته أن يسيطر على كل مرافق الدولة ويتصرف فى كل مهامها حتى استحالت وزارة فخر الملك الى مجرد جسم لا حياة فيه • ووقع الصراع بين هذين الرجلين فعزل السلطان بركيارق فخر الملك وعين مجد الملك القمى وزيرا بصفة رسمية، فانزوى فخر الملك فى نيسابور ، ولكن انزواءه لم يدم طويلا فقد عينه سنجر أخو بركيارق وحاكم خراسان وزيرا له وظل وزيرا له الى عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م حين قتله الاسماعيلية • وأما مؤيد الملك فانه أخذ يتصل بأعداء السلطان ومنافسيه حتى استقر به الأمر عند محمد ابن ملكشاه أخى بركيارق وحاكم اقليم آذربيجان •

كان تخلى بركيارق عن أسرة نظام الملك خطأ كبيرا ، اذ كانت هذه الأسرة تتمتع بحب السواد الأعظم من الناس ومن أمراء الجيش وكبار رجال الدولة ، فبدأ هؤلاء يتخلون عن بوكيارق ، وبذلك اشتعلت الفتن والثورات فى كل أجزاء الدولة المترامية الأطراف •

---

(١) البغدادى : ص ٨٥ . ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١

وكان أخطر ما واجه بركيارق هو الصراع الذى احتدم بينه وبين أخويه محمد وسنجر ، وقد استمرت المعارك بينهم نحو خمس سنوات من عام ٤٩٢هـ — ٤٩٧هـ تداولوا فيها النصر والهزيمة ، وذهبت فى غمرة الصراع زبيدة خاتون أم بركيارق ، فقد وقعت فى يد مؤيد الملك فأمر بقتلها وكذلك قتل وزير السلطان وصنيعة أمه « مجد الملك القمى » . والخلافة فى كل ذلك لا تتحرك لشىء الا أن تستجيب للغالب : فتعترف بهذا سلطانا وبذاك سلطانا وتخطب لهذا أو لذاك ، فهى لا ترد طلب من بدا غالبا (١) .

وقد أدت هذه الصراعات الى انتشار الفساد والاضطراب فى الدولة ، وقد أصبحت وحدة السلاجقة وقد كتب عليها التفرق أبدا . وفى عام ٤٧٩هـ سئم بركيارق كثرة الحروب ورأى ضعف السلاجقة وتفككهم ، فكاتب أخاه محمدا فى طلب الصلح ، فاتفق الطرفان على أن يحمل كل منهما لقب سلطان ، وأن تكون الأقاليم الشمالية لمحمد ، وأن تكون الأقاليم الجنوبية لبركيارق ، وأن تبقى خراسان وما جاورها تحت حكم سنجر . واستمر هذا الاتفاق قائما حتى توفى بركيارق عام ٤٩٨هـ / ١١٠٤م ، وقد جعل ولده الطفل ملكشاه وليا لعهده على أن يكون الأمير اياز أتابكا عليه (١) .

امتاز عهد بركيارق بالشقاقات العنيفة بين أفراد البيت السلجوقى، ولم يستطع خلالها أن يقر الوحدة السلجوقية كما كانت فى عهود من سبقه على الرغم من الجهود الشاقة التى بذلها ، وحين مات كان كل جزء من أجزاء الدولة يتبع واليا يكاد يكون مستقلا ، فالأجزاء الشرقية تخضع لحكم سنجر ، بينما تخضع الأجزاء الشمالية لحكم محمد ، وبلاد الشام فى قبضة أبناء تتش وآسيا الصغرى تحت حكم أبناء سليمان بن قتلمش ، وكان كل يسيطر على ما تحت يده سيطرة تامة ،

---

(١) انظر ابن الأثير عن هذه الأحداث ، ج ١٠ ، ص ١٠٤ — ١٣٨ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٤٢ .

فتقسمت بذلك الدولة السلجوقية العظيمة ، ولم تعد تلك الوحدة الرائعة التى رأيناها فى عهد طغرل وألب آرسلان وملكشاه ، ولم يكتب لها أن تتوحد بعد ذلك الا فترة قليلة من عهد سنجر .

وكان لهذا النزاع السلجوقى آثاره الخطيرة كذلك على العالم الاسلامى ، فان الاسماعيلية نشطوا فى تلك الفترة فوسعوا منطقة نفوذهم ووصلت دعوتهم وأعمالهم الى أصفهان احدى عواصم الدولة السلجوقية ، وبثوا الرعب فى قلوب الناس بما كانوا يقومون به من الخطف والقتل ، وأمعنوا فى قتل كل مخالفيهم . وعلى الرغم مما قام به السلطان محمد — الذى ضم اليه ابن أخيه واسترضى اياز حتى مالأه فأصبح سلطانا دون منازع — من جهود للحد من قوة الاسماعيلية، فانه عجز عن القضاء عليهم ، ولم يستطع الجيش السلجوقى الاستيلاء على قلعتهم الكبرى « ألموت » وظلوا هم يهددون المناطق المجاورة كلها بل امتد نشاطهم الى جهات بعيدة من العالم الاسلامى .

وكذلك أدى انقسام السلاجقة وانشغالهم بصراعهم الداخلى الى انشغالهم عن الخطر الخارجى ، الذى أخذت تتجمع نذره فى الجبهة الغربية ، فان السلاجقة فى وقت توحدهم وقوتهم ألحقوا هزائم كبيرة بالدولة البيزنطية واقتطعوا جزءا كبيرا من أملاكها فى آسيا الصغرى ، وما زالوا يكتسحون هذه البلاد حتى بحر مرمرة حتى هددوا القسطنطينية نفسها ، الأمر الذى جعل الامبراطور ألكسيوس كومنين يستنفر البابا أوريان الثانى فى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، فوجد هذا الفرصة سانحة لارجاع الكنيسة اليونانية (كنيسة القسطنطينية) الى حظيرة روما ، ثم ازجاع بيت المقدس ، واعادة مجد البابوية ، فألقى خطبة فى كليرمنت من أعمال فرنسا الجنوبية حث فيها «المؤمنين» على سلوك الطريق الى كنيسة القيامة وانتزاعها من أيدى المسلمين . وقد وجد نداء البابا أذنا صاغية لدى فرسان الاقطاع فى أوربا الذين ضاقت أوربا بطموحهم ، كما وجد فيه الناس فرصة للخروج من البؤس

الاقتصادى الذى يعانونه ، وكذلك وجد فيه الملوك فرصة لتحقيق مغانم كبيرة من كنوز الشرق ، وليستطيع الأمراء تحقيــق مطامعهم بتكوين امارات وممالك لهم • وهكذا كان يجرى كل منهم وراء غرض خاص ، ولكن الجميع حملوا شعار الصليب فكان هــذا الشعار هو العـــلامة الوحيدة على وحدتهم التى لم تكن موجودة فى حقيقة الأمر •

وبدأت الحملات الصليبية على العالم الاســلامى فى الوقت الذى كان فيه السلاجقة يزاولون هــذا النشاط الخطير فى القضاء بعضــهم على بعض والقضاء بذلك على قوتهم ؛ وهم بعملهم الأحمــق هــذا يديرون ظهورهم للجبهة التى وجهــوا نشاطهم اليهــا من قبل والتى اكتسبوا بعملهم فيها رضاء العالم الاسلامى واحترامه •

واذا كان المشرق الاسلامى يموج بصراع السلاجقة الداخلى ، فان المغرب الاسلامى كان يحكمه الفاطميون ، ولمـا كان هؤلاء فى عداء مذهبى مع السلاجقة فان الطرفين كانا فى صراع دائم فى الشام ، وهو الهدف الرئيسى للحملات الصليبية ، فكانت المنطقة فى الحقيقة منطقة ضعف ، وكان الفاطميون أنفسهم يسيرون نحو الضعف فلم يستطيعوا الصمود على الرغم من قوة أسطولهم الذى حاول التصدى للغــــزو الصليبى بالاستيلاء على جميع مدن الساحل الشامى • ولكن الغــزو الصليبى نجح فى الاستيلاء على بلاد الشام وكون الصليبيون بهـــا أمارات لاتينية لهم هى امارة الرها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م وامارة أنطاكية ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، وامارة بيت المقدس ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م ، وهى أعظم الولايات اللاتينية مرتبـــة ، ثم استطاع الصليبيون الاستيلاء على مدن الساحل بمساعدة السفن الايطالية ، وهى سفن البندقية وجنوه وبيزا التى أدرك أصحابها أن امتلاك المدن الساحلية يفتح أســواقا جديدة وموانى حــرة لبضائعهم ، وهكذا سيطر الصليبيون على ســـواحل الشام وعلى كثير من بلاد الشرق الاســلامى وأصبحوا أعظم خطـر

يتهدد العالم الاسلامى فى ذلك الوقت (١) . وما زالت الحملات الصليبية تتوالى على الشرق الاسلامى والمسلمون يصارعونها مدة قرنين انتهى الأمر فيها بفوز المسلمين على يد صلاح الدين الأيوبى ثم القضاء عليهم على يد المماليك بمصر .

وفى كل هذا الصراع المحتدم فى الشام كان السلاجقة مشغولين بحروبهم الداخلية ، وبالتطاحن للظفر بالعرش ، عن التنبيه للخطر العظيم ، أو كانوا غير مقدرين خطورته تقديرا صحيحا ، كما كانت الخلافة العباسية من الضعف بحيث لم يكن فى مكنتها المساهمة الفعلية لصد هذا الخطر ، ولذلك ترك الصليبيون يغزون سوريا وفلسطين . دون أن يقوم السلاجقة أو البيت الخلافى بدور ايجابى ذى بال .

وبهذا التحول من التماسك الى الفرقة ، ومن الجهاد فى سبيل حماية العالم الاسلامى ومد نفوذه ، الى الانصراف الى الصراع الداخلى . خرجت الدولة السلجوقية من دور القوة الى دور الضعف ودخلت فى عصر الانقسام .

---

(١) انظر ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٥ — ١٠٧ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ — ١٤٠ . حتى : تاريخ العرب : ج ٢ ص ٧٥٦ — ٧٥٧ . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (طبع بيروت ١٩٠٨) ١٣٦ — ١٣٨ .

عصر انقسام السلاجقة

انتهى عهد بركيارق بانقسام دولة السلاجقة وتفكك وحدتهم ، نتيجة للنزاع الذى قام حول العرش السلجوقى ، ونتيجة للخصومات التى وقعت بين الوزراء والأمراء • يضاف الى ذلك الأخطار التى هددت كيان الدولة من خارجها وأهمها ، قدوم الصليبيين وسيطرتهم على معظم بلاد الشام وتهديدهم للدولة السلجوقية من هذه الناحية • ثم الاسماعيلية الذين كانوا يكمنون فى داخل الدولة ويسيطرون على القلاع الحصينة ، وعجز الجيوش السلجوقية عن القضاء على قوتهم أو الحد من نشاطهم • ولقد ظلت هذه العوامل كلها تنخر فى جسم الدولة حتى أتت عليها آخر الأمر •

وقد حاول السلطان محمد الذى اعتلى العرش بعد موت بركيارق أن يقضى على الفتن المختلفة التى تهدد دولة السلاجقة ، فلم يستطع على الرغم مما قام به من جهود صادقة ، فان النزعة الانفصالية لدى أمراء السلاجقة كانت أقوى من أن تتغلب عليها جهود السلاطين ، لأنهم هم بذاتهم كانوا يشعلون نارها ليصلوا الى العرش ، ولم يكن للوصول الى العرش قاعدة ثابتة يمكن السير عليها ، فكان كل من يأنس فى نفسه القدرة يسعى لفرض سلطانه • ومن ثم كانت تظهر المطامع بعد موت كل سلطان وتشتعل الحروب ، حتى يتحقق النصر للأقوى ، فاذا ما مات هذا الأقوى اشتعلت الحروب للوصول الى العرش مرة أخرى • ومن ثم ضعفت قوة السلاجقة نتيجة لخلافاتهم الداخلية وانقسام الجيوش بين الأمراء المتصارعين ، فعجزت عن التصدى للأخطار التى تواجهها ، ولذلك استفحل أمر الباطنية ، كما انتصر الصليبيون ، كما برزت على الحدود الشرقية دول فتية استطاعت أن تقهر السلاجقة فى المشرق • كما أن الخلافة أخذت تسترد قوتها وفعاليتها فى العراق ، فعملت على القضاء على السلاجقة فى العراق •

وفى هـذا العصر الذى تلا موت بركيارق لا نستطيع أن نتحدث عن السلاجقة كوحدة ، وانما نتحدث عن أقسام الدولة السلجوقية ، وأهم هـذه الأقسام سلاجقة خراسان ، وسلاجقة العراق .

* * *

سلاجقـة خراسان :

أهم حكام سلاجقة خراسان هو السلطان سنجر . ويعد سـنجر من السلاطين العظام ، فقد اعترف به السلاجقة سلطانا وزعيما عليهم ، كما اعترف له الخليفة العباسى بهـذه المنزلة ، فعد لذلك آخر سلاطين السلاجقة العظام الذين اعترف لهم جميع حكام السلاجقـة بالزعامة والسلطنـة .

وكان سنجر واليـا على خراسان وما وراء النهر فى عهد كل من أخويه بركيارق ومحمد ، وكان يسمى ملك المشرق . وقـد ظل سنجر فى المشرق بعد توليه عرش السلطنة فأطلق على السلاجقة الذين يمثلهم اسم « سلاجقة خراسان » تمييزا لهم عن « سلاجقة العراق » وقـد استطاع سنجر — قبل توليه عرش السلطنة — أن يوطد نفـوذه ، وأن يقوم بفتوحات بسطت هـذا النفوذ على جهات أخرى ، فقد تمكن من فتـح « ترمذ » و « طخارسـتان » فى عام ٤٩١هـ وضمهما الى ملكه (١) . كما استطاع أن يبسط نفوذه على اقليم ما وراء النهر فى عام ٥٩٥ هـ (٢) . وبلغت قوته حـدا جعله يتقدم نحو مدينة « غزنة » ويستولى عليها بعد هزيمة ملكها آرسلانشاه الغزنوى سنة ٥٠٨هـ(٣).

وقـد ازدادت قوة سنجر بعد توليه عرش السلطنـة ، وتجلت هـذه القـوة فى انتصاره على ابن أخيه محمـود الذى تولى السلطنة بعد أبيـه محمد ، فبسط سنجر نفوذه على أكثر أجزاء ايران والعراق،

---

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ١٠٤ .
(٢) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ١٣٠ — ١٣١ .
(٣) نفس المصـدر : ج ١٠ ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

وصارت له الكلمة العليا فى أقاليم ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان وأصفهان وهمذان والرى وآذربيجان وأرمينية وبغداد والعراقين والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين. وصارت تضرب له السكة فى كل هذه الأقاليم ويطأ بساطه كل ملوك هذه الجهات (١) .

أصبح سنجر سلطان السلاجقة وزعيمهم ، ولكنه أناب عنه محمود ابن أخيه فى العراق وسمح له بالتلقب بلقب سلطان فأصبح سلطان العراق من الناحية الرسمية تابعا لسلطنة سنجر ، كما أصبحت سلطنة العراق فى عهد سنجر ، الذى إمتد حكمه أربعين سنة ، لا يرتقى عرشها الا من ارتضاه هذا السلطان . وقد كان سلاطين العراق يدفعون الجزية لسنجر ويذكرون اسمه فى الخطبة قبل أسمائهم(٢).

غير أن الحروب لم تنقطع فى عهد سنجر ، وكان مثار الحروب التى واجهها سنجر وأخطرها هى الحروب بينه وبين دولتين جديدتين ظهرتا على مسرح الأحداث فى المشرق ، وكان لهما دور موجه فى تاريخ السلاجقة بصفة خاصة وفى توجيه سير الأحداث بصفة عامة ، وهما الدولة « القرة خطائية » والدولة « الخوارزمية » ، وهذه الأخيرة هى التى أنهت حكم السلاجقة فى المشرق كما أعانت على القضاء عليهم فى العراق .

الدولة القره خطائية :

تنسب هذه الدولة الى مجموعة من القبائل التركية تعرف بقبائل الخطا كانت تسكن شمال شرقى ايران فىعهد السلاجقة ، وقد استطاعت هذه القبائل أن تثبت أقدامها فى هذه المنطقة وأن تؤسس لها دولة فى حوالى عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، عرفت بالدولة « القرمخطائية » وكان

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٩ . الراوندى : ص ٢٥٩ وما بعدها . عبد النعيم حسنين : ص ١١٥ .
(٢) حسين أمين : ص ٩٥ .

يطلق على ملوكها لقب « كرخان » وقد اتخذت لها عاصمة هى مدينة « بلاغستون » •

وقد عظم نفوذ هذه الدولة حتى أخضعت القبائل التركية التى كانت تعرف باسم « فرفيز » ثم هاجمت « كاشغر » و « ختن » • ثم أخذت فى الاغارة على البلاد الاسلامية فى عام ٥٢١هـ / ١١٢٦م ، وقامت بأعمال مدمرة حتى أصيب الناس بذعر تسديد ، واستنجدوا بالسلطان سنجر •

ولم يجد سنجر بدا من قتال هذه القبائل فتوجه بقواته الى ما وراء النهر فى عام ٥٢٥ هـ ، ولما أحس هؤلاء بقوة سنجر أرسلوا اليه يعتذرون ويتعهدون بالطاعة والخضوع له • ولكنه صمم على استئصالهم ، فنازلوه مستميتين واستطاعوا أن يلحقوا به هزيمة منكرة فى سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م فى موقعة عند « قطوان » بالقرب من سمرقند • حيث فر تاركا زوجته أسيرة فى يد « القرمخطائيين » (١) •

وقد كانت معركة « قطوان » حدا فاصلا بين عهدين من سلطنة سنجر : — عهد القوة وسعة النفوذ ، وعهد الضعف والانهيار • كما كانت ذات آثار خطيرة فى تاريخ السلاجقة ، فقد قوى أمر الخطائيين ، وأخذوا يمدون نفوذهم على اقليم ما وراء النهر وكاشغر ، ووقعت فى أيديهم سمرقند وبخارى ، وتعهد الخانيون بدفع الخراج لهم ، وبذلك صاروا خطرا جسيما يهدد سلاجقة المشرق • وقد استمرت دولتهم حتى عام ٦٠٩هـ/١٢٠٢م ، حينما قضى عليها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمى •

ولقد كان من نتيجة انهزام سنجر فى موقعة قطوان أن تجرأ عليه حكام الدولة الخوارزمية ، فتمردوا عليه ، ومنذ ذلك الوقت أخذ

---

(١) ابن الأثير : ج ١١ ، ص ٣٢ •

نجـم السـلاجقـة يأفل تدريجيـا حتى تم سـقوطهم على يــد الخـوارزمية .

الدولة الخوارزمية :

يرجع نسب ملوك هـذه الدولة الى عبـد تركى كان يسـمى « أنوشتكين » اشتراه أحد أمراء السلاجقة فى « غرجستان » ، وقـد أظهر هـذا العبد من الليـاقة والكفاءة ما فتح أمامه باب الترقى فى عهد السلطان ملكشاه ، فعينه واليـا على خوارزم ، وقد ظل فى منصبه هـذا حتى سنة ٤٩٠هـ حيث توفى ، وخلفه ابنـه قطب الدين محمـد الذى أطلق على نفسـه لقب « خوارزمشاه » أى « ملك خوارزم » وأسس دولة عرفت فى التاريخ باسم « الدولة الخوارزمية » (١) ، وقد أخذت هـذه الدولة تظهر على مسرح التاريخ تدريجيا ولو أن ملوكها تظاهروا بالخضـوع والطـاعة للسـلاجقة ، فاعتبروا أنفسـهم معينين من قبلهم .

وقـد أسند سنجر ولاية خـوارزم الى « علاء الدين أتسز » بعد وفاة أبيه قطب الدين محمد . وظل أتسز على وفاق مع السلطان سنجر ، الذى وثق به وصحبه معـه فى أسفاره وحروبه فعـلا أمره وظهرت كفايته . فلما اطمأن الى قوته حاول أن يجعل دولته مستقلة استقلالا تاما عن السلاجقة ، فثار على السلطان سنجر فى سنة ٥٣٠ هـ واستطاع أن يضم الهضاب الواقعة فى أسفل نهر جيجون الى ملكه . وبذلك بدأت مرحلة جـديدة من مراحـل النزاع بـين السلاجقـة والخـوارزميين .

وفى هذه المرحلة التحم السلطان سنجر بقوات أتسز عدة مرات منذ سنة ٥٣٣ هـ الى سنة ٥٤٣ هـ ، وكانت كفـة سنجر هى الراجحة فى الغالب ، ولكن أتسز أظهر كثيرا من الدهاء والبراعة كما أظهر سنجر

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

كثيرا من السذاجة ، ففى كل مرة كان يتغلب فيها سنجر على خصمه ، كان هـذا يعتذر له ويلتمس عفـوه ، فيجـاب الى ذلك . وبهـذه الطريقة المـاكرة ، طريقة الضرب ثم الاعتذار عند الشعور بالغلب ، مع السعى للتوسع ، استطاع أتسز آخر الأمر أن يحظى بالاستقرار فى خوارزم ، فرسخت أقدام الدولة الخوارزمية ، وأخذت تظهر بقوة على مسرح التاريخ ، بينما أخذت قوة سنجر تنهار وتسير نحو النهاية بخطى سريعـة .

ان كثرة الحروب التى خاضها سنجر للدفاع عن حدود دولته ، ولصون نفوذه واقرار هيبة السلاجقة هدت قوته وفلت من شوكته . حقيقـة انه انتصر فى أكثر هـذه الحروب التى تعددت ميادينهـا ، ولكن انكساره أمام الخطائيين وضياع اقليم ما وراء النهر من يده كان ضربة قوية وجهت الى الدولة السلجوقية وحربة نافذة فى ظهرها .

ونتيجة لهذا كله فقدت دولة السلاجقة السيطرة على أطرافها ، فكثرت الدول والامارات المستقلة حولهـا ، وأخـذت تتوسع على حسابهـا . وأهم هـذه الدول التى أحاطت بدولة السلاجقة بالمشرق واشتبكت معها فى حروب هى الدولة القره خطائية والدولة الخوارزمية — وقـد عرضنا للنزاع بينهما وبين السلاجقة — ثم الدولة الغورية .

وكانت الدولة الغـورية تسيطر على جبـال الغـور ومدينـة « فيروزكوه » بالقرب من غزنة ، ثم امتد نفوذها الى هراة وحاصر ملكهـا علاء الدين حسين الغـورى مدينة بلخ . واضطر سنجر الى الاشتباك معـه فى معركة انتهت بانتصار سنجر وأسر علاء الدين ، ولكن سنجر عفا عنه وأطلقه . فازدادت قوته وزحف نحو غزنة واستولى عليها ، وعين عليها أخاه سيف الدين ، وحين ثار أهل غزنة بسيف الدين وقتلوه عاد علاء الدين اليها ونكل بأهلهـا سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م . وبذلك أخـذت الدولة الغورية تظهر على المسرح السياسى وتشترك

فى توجيه الأحداث فى ايران والهند منذ ذلك الحين (١) .

كل هـذه الأحـداث سارت بالسلاجقة فى المشرق الى الانهيار لكن الحادث الذى عجل بالخاتمة هو تلك الفتنة التى قامت بهـا قبائل الغز . وقد أشعل الغز هذه الفتنة فى مستهل عام ٤٥٨ هـ / ١١٥٣ م . وكان الغـز من القبائل التركية المسلمة التى تسكن فى اقليم ما وراء النهر ، فلما استولى الخطائيون على هذا الاقليم هاجرت طوائف الغز وسكنت بالقـرب من بلخ ، وحين أراد حاكم بلخ ابعادهم استرضوه بالمـال والهـدايا ، فسمح لهم بالبقاء ، وأقاموا فى هـذه النواحى فى حالة حسنة ، لكن هـذا الحاكم عاود مطالبتهم بالانتقال عن بلده ، فاستعطفوه فأصر على طردهم ، فلمـا فشلوا فى ارجاعه عن عزمه ، جمعوا شملهم وقاتلوه فألحقوا به هزيمة كبيرة اضطرته الى الفـرار الى مرو حيث كان السلطان سنجر . وحـين أعلمه حاكم بلخ بواقع الحال ، كتب الى الغز يأمرهم بمغادرة بلاده ، وهددهم فاعتذروا اليه وحاولوا استرضاءه ، ولكنه جمع جيوشـه وسار اليهم فقاتله الغـز ببسالة عظيمة واستطاعوا أن ينزلوا بجيشه هزيمة ساحقة ، ووقع هو بنفسه أسيرا فى أيديهم (٢) . وقـد ظل سنجر أسيرا فى أيدى الغـز ثلاث سنوات استطاع بعدها الهرب والوصول الى عرشه فى مرو (٣) .

وحين وصل سنجر الى عرشه كان قـد صار شيخا مهدما نالت منه السنون وحطم نفسه ما رأى من خراب بلاده على يد هؤلاء الغز الذين عاثوا فى الأرض فسادا فخربوا البلاد ونهبوها وقتلوا النـاس رجالا ونساء شيوخا وأطفـالا ، فلم يحتمل سنجر الصدمة فمات كمدا فى ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م (٤) .

---

(١) ابن الأثير : ج ١١ ، ص ١٠٩ . عبد النعيم حسنين : ص ١٣٣ .
(٢) الرواندى : ص ٢٧١ .
(٣) الرواندى : ص ٢٧٧ .
(٤) انظر ابن الأثير : ج ١١ ، ص ٧١ — ٩٠ . الرواندى ، ص٢٧٨ .

وبموت سنجر انتهى عهد السلاطين العظام ، وأخذت دولة السلاجقة فى الانهيار ، فلم يلبث حكام خوارزم أن استولوا على ممتلكات السلاجقة فى خراسان ، فسقطت بذلك دولة خراسان أو دولة سلاجقة المشرق العظام ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

أما سلاجقة العراق فانهم أخذوا يسيرون نحو الضعف والانهيار حتى سقطت دولتهم فى عام ٥٩٠ هـ على أيدى حكام الدولة الخوارزمية أيضا .

سلاجقة العراق

فى الوقت الذى كانت الاضطرابات فيه تعم الأجزاء الشرقية من دولة السلاجقة ، كانت أجزاؤها الغربية تموج باضطرابات أشد . وكان مرد هذه الاضطرابات الى عدة أمور أهمها : النزاع الذى كان يحتدم دائما حول تولى عرش السلطنة . ثم الخلاف الذى نشب بين الخلافة العباسية وبين السلاجقة واستفحل حتى أخذ مظهر الحرب بين الطرفين . ثم بروز نفوذ الأتابكة .

النزاع حول العرش :

لم يكد السلطان محمد بن ملكشاه يتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م حتى قام نزاع حول العرش ، وانقسم السلاجقة على أنفسهم فى الوقت الذى كان فيه أعداؤهم يحدقون بهم من كل جانب . ذلك أن السلطان محمدقبيل وفاته أمر باسناد السلطنة الى ابنه محمود ، وحين وليها هذا وكان صغيرا لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره ، أنف عمه سنجر — والى خراسان وما وراء النهر — أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة . وبذلك أصبح للسلاجقة سلطانان انقسمت بينهما الدولة الى قسمين القسم الشرقى وعليه سنجر ، والقسم الغربى وعليه محمود ، واشتعلت الحرب بين الطرفين . فانتصر سنجر واعترف له الخليفة العباسى بالسلطنة على السلاجقة (١) .

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٩ .

ولكن سنجر بعد انتصاره عطف على ابن أخيه « محمود » فصالحه وعينه وليا لعهده ، وكتب بذلك الى الولايات ، كما أحاط به الخليفة العباسى علما . وأعاد اليه جميع البلاد التى كانت تحت حوزته ما عدا مدينة الرى التى اتخذها سنجر قاعدة يراقب منها أعمال محمود خشية أن تحدثه نفسه بالخروج مرة أخرى (١) .

انتهى بانتصار سنجر التنازع على العرش ، ولكنه لم يحل المشكلة ، فان الدولة انقسمت الى قسمين رئيسيين ، واذا كان سنجر قد استطاع أن يفرض شخصه فى القسم الشرقى ، فان القسم الغربى ظل مجالا للتنافس عند خلو عرشه دائما ، كما أن أجزاءه المختلفة فى ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام يكاد كل جزء منها يكون مستقلا بصرف شئونه حكامه دون اتصال أو تعاون بين هؤلاء الحكام ، وكانت خلافاتهم الداخلية تشغلهم عن أى هدف آخر ، وكان سنجر برغم انشغاله بقتال الخطائيين والخوارزميين يضطر أحيانا للتدخل لقمع الفتن واقرار الأوضاع . لكن كل فرد من أفراد البيت السلجوقى كان يعد نفسه فى الجزء الذى يحكم فيه ، ويحاول أن يوسع منطقة نفوذه ، ويسعى للوصول الى السلطنة ما استطاع الى ذلك سبيلا ، الأمر الذى أدى الى كثرة الحروب وتعدد ميادينها . وشملت الخلافات الأسرية معظم هذا العهد من حكم سلاجقة العراق : فقد خرج مسعود حاكم الموصل وآذربيجان على أخيه محمود وقاتله (٢) ، وبعد وفاة محمود سنة ٥٢٥ هـ تنازع ابنه داود مع عمه مسعود وبدأت الحرب بين الطرفين ، كما تقاتل مسعود بعد استقرار السلطنة له مع أخيه سلجوقشاه (٣) ثم تدخل سنجر فدارت الحرب بينه وبين مسعود ، وكذلك بين مسعود وبين أخيه طغرل ، ولم يستقر الأمر لمسعود الا بعد صراع طويل (٤) .

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٠٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٣١ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٥٧ .
(٤) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٥٧ — ٢٦٢ .

ولقد كان لهذا الصراع الأسرى الذى حفل به هـذا العصر أثره البالغ على البلاد الاسلامية وعلى السلاجقـة أنفسهم • فقـد أدى اضطراب الحالة الى تجرؤ أعـداء الدولة على الهجـوم على البلاد الاسلامية ، فقد أغار حكام جورجيا على بلاد المسلمين فى آذربيجان فى عام ٥١٣ هـ ، وتصدى لهم طغرل أخو السلطان محمود ولكنه هـ م ، وأخـذ الكرج يغيرون على البلاد الاسـلامية حتى حاصروا تفليس واضطروا أهلها الى التسليم ، واضطر السلطان محمود الى الخروج لقتالهم ، ولم ينتصر على الكرج الا بعد أن وقع الخلاف بين صفوفهم فجلوا عن بلاد المسلمين فى عام ٥١٧ هـ (١) •

أما الحالة فى سورية وفلسطين فانها بلغت حدا كبيرا من الضعف والفوضى ، وقـد كان جزء منها تحت الحكم الفاطمى • والفاطميون فى مصر كانوا فى حالة من الضعف جعلت خلفاءهم دمية فى يد الوزراء وقواد الجيش ، وهؤلاء كانوا مشغولين بتدبير المؤامرات فيما بينهم بغرض الظفر بالنفوذ والسلطان • فاذا انضاف هـذا الى انشـغال السلاجقة والى ضعف الخليفة العباسى الواقع تحت نفوذهم ، تسبب كل ذلك فى ضعف العـالم الاسلامى فى الغرب أمام الهجوم الصليبى الموجه اليه ، وقـد تمكن الصليبيون نتيجة لذلك من شق طريقهم الى بيت المقـدس • وتثبيت أقدامهم فى كثير من أجزاء الشـام وآسيا الصغرى ، وأخذوا فى توسيع رقعة الأراضى التى تحت أيديهم فاحتلوا مدينـة صـور سنة ٥١٨ هـ وكانت أمنع حصـون المسلمين ، وبذلك ازدادوا قوة وأصبحوا شوكة فى جنب المسلمين (٢) •

كمـا أن ضعف السلاجقـة وتفـرقهم أدى الى أن عظم أمر الاسماعيلية حتى لقد ملكوا قلعة « بانياس » بالشام فى سنة ٥٢٠ هـ وقتلوا « قسيم الدولة آقسنقر البرسقى » صاحب الموصل (٣) •

---

(١) انظر ابن الأثير فى حوادث بين سنتى ٥١٤ — ٥١٧ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .
(٣) نفس المصـدر : ص ٢٤١ .

النزاع بين الخلافة العباسية والسلاجقة :

بدأت العلاقات بين السلاجقة والخلافة طيبة كما رأينا من قبل ، وكان كل من الطرفين يرى مصلحته فى مصانعة الآخر والاحتفاظ بوده . ولتدعيم هـذه العـلاقة قامت المصـاهرات بين البيتين : العباسى والسلجوقى . ولكن هـذه العلاقات كانت تفرضها المصلحة المشتركة ولم تكن طبيعية . فالخلافة كانت تحيط بها ظروف قاسية تهدد كيانها ، وقـد وجدت فى الدولة السلجوقية السنية قوة تستند اليهـا لتدعيم مركزها الذى تهدد أمام الزحف الفاطمى . والسـلاجقة وقـد كانوا يقيمون دولتهم كانوا فى حاجة الى سند شرعى من اعتراف الخـلافة بهم وتأييدها لسلطانهم . لكن قـوة السلاجقة ما لبثت أن طغت على الخلافة ، وأصبح الخليفة العبـاسى تحت نفس النفـوذ الذى كان للبويهيين من قبل . حقيقـة ان السلاجقـة جاملوا الخلافة العباسية فى أول الأمر وأظهـروا الاحترام والطاعة للخليفـة العباسى ، لكن الطموح دفعهم الى التسامى لمـا لم يسم اليه أحـد من قبلهم وهو الاصهار للخلافة بأن يتزوج سلطانهم من ابنـة الخليفة نفسه . ثم سموا الى اقـرار الخلافة لابن بنتهم من الخليفة المقتدر العباسى ، وتدخل ملكشاه تدخلا سافرا وهـدد الخليفة بترك بغداد والانصراف عنها الى أى البلاد شاء ، الأمر الذى أزعج الخليفة أيما ازعاج وجعله يتوسل الى السلطان أن يمهله شهرا حتى يعد نفسه ، ولكن السلطان رفض أن يؤخره ساعة ، وبلغ الاذلال حـد التوسط بوزير السلطان فأمهل الخليفة عشرة أيام ، ولم ينج الخليفة من هـذه المحنة الا موت السلطان قبل نهاية المدة (١) .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت النفوس تتغير بين الخلافة والسلاجقة ، واتخـذت الخلافة موقف المتفرج من الصراعات السلجوقية ، وكانت تستجيب لكل غالب منهم فتصدر له الاعتراف بالسلطنة وتخطب له ،

---

(١) الفخرى : ص ٢١٧ . المنتظم : ص ٦٢ . الراوندى : ص ٢١٠ .

وقــد تعترف بأكثر من واحد فى وقت واحد • وهى بذلك ترقب الفرصة لاستعادة سلطانهم • وقــد بدأت الخلافة كفاحها منذ عهد المسترشد بالله بن المستظهر الذى بويع سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م وقــد رأى انقسام السلاجقة ، ووجد الفرصة سانحة لاسترداد قــوة الخلافة ونفوذها ، فبدأ بأعمال اصلاحية فى المجتمع حببته الى الفقهاء ورجال الدين ، وذلك بتتبعه لبيوت الفسق وحوانيت الخمور يغلقها ويهريق خمورها ، ثم أخــذ فى تتبع المفسدين وعمل على نشر العدل ، وهــو بذلك يريد تقوية المجتمع وصيانته استعدادا لمـا يسعى اليه من اظهار قوة الخلافة وضرب قوة السلاجقة •

كما أن الخليفة المسترشد أراد أن يبرز فعالية الخلافة وقوتها ، فضرب على يد رجل كان دائمـا مصدر القلق والخطر فى الدولة وهو « دبيس بن صــدقة » الأزدى صاحب الحــلة ، وكان كثيرا ما يثير القلاقل للدولة العباسية كمـا كان مصدرا للفتنة • وفى سنة ٥١٧ هـ أطلق « عفيفا » خادم الخليفة وكان مأسورا عنده ، وحمله رســالة فيهـا تهديد للخليفة بارسال الجند لقتاله وتخريب بغداد ، فانتهزها الخليفة فرصة لاظهار بأس الخلافة ، فجهز الجيوش وسار على رأسها لحرب دبيس • واستطاع انزال الهزيمة به والجاءه الى الفرار حتى استقر به الأمر عند الملك طغرل بن السلطان محمد (١) •

وليجعل الخليفة بغداد مستعدة للحرب قادرة على الصمود أمر ببناء سور بغــداد ، ويعد هــذا من الأعمــال الجليلة للمسترشد • وسيحمى هــذا السور بغداد من الغارات والاعتداءات •

ثم ما لبثت الجفوة أن وقعت بين الخليفة وبين السلطان مسعود ، وقامت الحروب بينهما ، حتى أجبر الخليفة السلطان على طلب الصلح

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ . المنتظــم : ج ٩ ، ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

سنة ٥٢٠ هـ (١) ، ثم خرج الخليفة لحربه مرة أخرى ، ولكن الخيانة وقعت فى جيشه الذى كان يضم عددا من أمراء السلاجقة ورجالهم ، فوقع الخليفة فى الأسر ، ثم اغتاله الباطنية وهو فى خيمة وضعه بها السلطان (٢) وبويع لولده الراشد بالخلافة .

وهكذا سقط المسترشد شهيدا كأول خليفة عباسى خرج مجاهدا منذ العهد البويهى من أجل استقلال الخلافة واعادة هيبتها ، فكان خير مثال يحتذيه الخلفاء من بعده . وقد سار الخلفاء على نهجه فى مقاومة السلاجقة واضعاف نفوذهم .

وقد كانت خلافة الراشد امتدادا للصراع الذى بدأه أبوه ، وقد لقى نفس المصير ، بعد أن ألحق الهزيمة بقوات السلطان مسعود (٣) .

وقد أثارت صور هذا الاستشهاد نفوس الناس فى العراق وألهبت صدورهم لنصرة الخلافة والوقوف فى جانبها ، الأمر الذى أدى الى تدعيم قوة الخلافة واضعاف السلاجقة وانهيارهم .

وبويع للخليفة المقتفى الذى أخذ بدوره يرقب الحوادث ويتحين الفرص لضرب السلاجقة . وكانت الأمور بعامة تسير فى غير مصلحة السلاجقة ، فالسلطان سنجر ينهزم أمام الخطائيين فى سنة ٥٣٦ هـ ، والخلافات تنشب بين أفراد البيت السلجوقى فى ايران والعراق ، والحالة الاقتصادية تزداد سوءا مما أدى الى تبرم الناس . والخليفة المقتفى يحكم استعداده بتقوية الجيش وتدريبه ، ويأمر العامة بجمع السلاح ، ويحفر الخنادق حول بغداد ، ويصلح السور . والعامة تلتف حول الخلافة وتتعاون معها . والسلطان مسعود تنهكه الحروب المنازعات وتتقدم به السن . وحين توفى فى سنة ٥٤٧ هـ فقدت الدولة

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .
(٢) ابن الأثير : ج ١١ ، ص ١٠ — ١١ .
(٣) المنتظم : ج ١٠ ، ص ٧٢

ركنا كبيرا واخــذت تتداعى وتموج بالفتن والمنازعات • بينما قوى جانب الخليفة وأصبح هــو السيد المطاع وصاحب الكلمة العليــا فى دولتــه ، وأخــذ يسترد امتيــازاته ، بل ويسيطر على الاقطــاعات السلجوقية ويضعف قوة الأمراء • وقــد برز الى جانب الخليفة وزير قوى هو « عون الدين ابن هبيرة » وكان شخصية فــذة عاونت الخلافة معاونة صادقة • وأخــذت الخــلافة بسياسة مزدوجة ، فهى تضرب السلاجقــة بعضهم ببعض وتشجع بذلك قيام الخلافات بينهم • ثم تحارب ان وجــدت فرصة للحرب وتنتصر فيعلو قدرها ويضعف شأن خصومها (١) • وحين ضعف سلاطين السلاجقة برز على حسابهم قوة أتباعهم فيمن عرفوا بالأتابكة •

نفــوذ الاتابكة :

كان أمراء الجيش والأتابكة ذوى نفوذ كبير فى دولة السلاجقــة بعامة وسلاجقة العراق بخاصة • وكان هــذا النفوذ يظهر بين الحين والحين فيمــا كان منهم من تحريض أفراد البيت السلجوقى بعضهم على بعض وفى بث روح الغدر وعدم الثقة بينهم • غير أن هذا النفوذ كان يتستر وراء السلاطين فى وقت قوتهم • فلما ضعف السلاجقــة بعــد موت السلطان مسعود ظهر هؤلاء الأتابكة على المسرح وبرزت شخصياتهم وأسماؤهم وأخــذوا يقومون بالدور الرئيسى ، وصــار السلاطين أدوات فى أيديهم يأتمرون بأمرهم وينفذون رغباتهم دون أن يكون لهم نفوذ أو شخصية واضحة •

وقــد تميز العصر الأخير من حكم السلاجقة بأسماء عــدد من الأتابكة أشهرهم « أيلدكز » أتابك آذربيجان الذى سيطر على أمور السلطنة السلجوقية فى العراق وصــار هو الحاكم الفعلى حتى توفى ســنة ٥٦٨ هـ ، فاحتل ابنه « جهــان بهلوان » مكانه وظل يسير أمر السلطنة حاجبا السلطان « آرســلان » ثم ابنه السلطان « طغرل »

(١) انظر : حسين امين : ص ١٥٠ وما بعدها •

الذى تولى السلطنة وهو طفل ، وما زال الأتابكة يسيطرون على الدولة حتى كانت نهايتها .

وقد جاءت هذه النهاية على يد حكام خوارزم (١) الذين أخذوا يتدخلون فى المنازعات بين أمراء البيت السلجوقى ، وقد وجدوا فى ذلك فرصة لمد ملكهم على بلاد السلاجقة ، كما وجدت الخلافة فرصتها للاستعانة بهم على انهاء الحكم السلجوقى . ففى سنة ٥٨٨ هـ استعان « قتلوغ اينانج بن جهان بهلوان » بعلاء الدين تكش حاكم خوارزم على السلطان طغرل ، فأمده بحبش استولى على مدينة الرى ، ولكن طغرل هزمه . وفى سنة ٥٩٠ هـ أعاد قتلوغ استنجاده بحاكم خوارزم ، كما كتب الخليفه الناصر لدين الله اليه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومع الرسول منشور من الخليفة باقطاعه البلاد ، فسار « خوارزمشاه » من نيسابور الى الرى حيث انضم اليه قتلوغ بقواته ، وأسرع طغرل للقائه ، ولكنه هزم وقتل وحملت رأسه الى الخليفة العباسى الذى كان قد سير نجدات الى خوارزمشاه ، وبقتل طغرل الثالث زالت دولة السلاجقة فى ايران والعراق على يد الخوارزميين وأقرت الخلافة العباسية هذا الوضع . وخلفت الدولة الخوارزمية دولة السلاجقة لكنها لم تسيطر على الخلافة العباسية كما سيطر عليها السلاجقة ومن قبلهم البويهيون .

---

(١) الراوندى : ٥٠٥ — ٥٠٦ .

تطور الأحداث خارج الدولة السلجوقية

فى الوقت الذى كانت فيه الدولة السلجوقية تسير نحونهايتها ، كانت الأحداث خارج الدوله تتطور تطورا فى صالح المسلمين بعامة ، وأهل السنة بخاصة . فان أتابك عماد الدين زنكى ، حكم الموصل ، ثم خلفه من بعده ابنه نور الدين محمود الذى وهب نفسه لحركة تجميع اسلامية لمواجهة الغزو الصليبى والجهاد ضد الصليبيين الذين رسخت أقدامهم فى الشام ، ولم يكن فضل نور الدين فى جهاده فى الشام وحده ، وانما فضله الأكبر فى ارساله حملة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الى مصر ، فقد ردت هذه الحملة الامتداد الصليبى عنها ، كما خلصتها من الفوضى التى أحدثها الوزراء الفاطميون بتنافسهم . ثم استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يسقط الدولة الفاطمية بمصر فى عام ٥٦٧ هـ ، وبذلك أعاد الوحدة المذهبية للعالم الاسلامى .

ثم تولى مهمة التجميع الاسلامى بعد وفاة نور الدين ، واستطاع أن يجعل من مصر والشام وحدة فى وجه الصليبيين . ولم يلبث الخليفة العباسى فى عام ٥٧١ هـ أن أقره على حكم مصر والمغرب والنوبة وغربى الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا الوسطى . وبذلك تفرد بالسلطنة (١) . وفى سنة ٥٨١ تمكن من اخضاع الموصل وادخال أمراء العراق تحت نفوذه ، وبذلك أحاط بالصليبيين وحصرهم بين شقى رحى : أحدهما العراق وسورية ، والآخر مصر (٢) .

وبهذه الوحدة الاسلامية واجه صلاح الدين القوة الصليبية ، فاستولى على طبرية فى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٨ م . ثم تلتها موقعة

---

(١) ابو الفردا : ج ٣ ، ص ٦٠ .
(٢) انظر عن اعمال صلاح الدين : ابن الاثير : ج ١١ ، ص ١٦٨ — ٢١٥ .

حطين التى انتصر فيها انتصارا حاسما تلاه سقوط بيت المقدس وكثير غيرها من المدن الساحلية : عكا ويافا وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها (١) •

ولم تأت سنة ٥٨٥ هـ الا وقد سقطت أخطر معاقل الصليبيين • وكادت هزيمة الصليبيين تؤدى الى طردهم من الشام نهائيا ، لولا أن تحمس ملوك أوروبا فجاءت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد ، وامبراطور ألمانيا فريدريك بربروسا ، وملك فرنسا فليب أغسطس •

وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على عكا سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٢م • ولم يؤت صلاح الدين فسحة من العمر فمات بعد قليل • ولكن انتصاراته فلت حد الصليبيين فأخذت كفة المسلمين ترجح منذ ذلك الحين • حتى تم طردهم بعد ذلك على يد المماليك فى مصر •

هذا فى المغرب الاسلامى ، أما فى المشرق فان الخوارزميين ورثوا ملك السلاجقة ، واستطاعوا القضاء على دولة الخطائيين الوثنية واستردوا ثغور ما وراء النهر ، وواجهوا العاصفة العاتية التى هبت من شرق آسيا على عالم الحضارة بظهور المغول •

وأما الخلافة العباسية فقد استردت استقلالها ، وانصرف الخلفاء الى الأعمال الحضارية والعمرانية • وعادت الخطبة للخليفة العباسى تتلى على منابر المسلمين من حدود الصين حتى الأندلس مرة أخرى(٢)•

وفى هذا الوقت الذى كان العالم الاسلامى يموج فيه بهذه الأحداث كانت هناك فى الشرق البعيد من وراء العالم الاسلامى سيول

(١) ابن الأثير : ج ١١ ص ٢١٦ — ٢٢٧ •
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٥٠ •

من قوى بشرية تتجمع فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صــحراء جوبى وهى ممتدة فى أواسط آسيا جنوبى سيبيريا وشمال التبت وغربى منشــوريا وشرقى التركستان ، بين جبــال ألتاى غربا وجبــال خنجان شرقا • حتى اذا ما تجمع فيضــها والتحم خضمه اندفعت فى موجة عاتية كسرت الخط الفاصل بينها وبين عالم الحضارة ، وما زال يهدر هديرها ، تدفعها قوة باطشة نشيطة لرجل قوى الأسر ، حــديد العقــل والقلب ، عرفه التاريخ باسم « جنكيز خان » حتى اقتحمت كل سد وتخطت كل عقبة ، وما زالت فى تدفقها ، والقــوى الاسلامية بقيادة ملوك خوارزم : محمد خوارزمشاه ثم ابنه من بعده جلال الدين منكبرتى تصدها حينا ، وتتراجع أمامهــا أحيانا ، وهى فى كل مرة تحاول أن تكسر من حدتها ، حتى عجزت تماما عن الصمود لتيارها الدافق ، فانسابت فى منطقة ايران كلهــا ، ثم ابتلعت العراق وأغرقت بغــداد فى ســنة ٦٥٦ هـ ، وتدفقت سيولها على المغــرب الاسلامى ، ولكن بعد أن فقدت كثيرا من حدتهــا • وحين وصلت الى فلسطين فى عين جالوت استطاعت مصر أن تقيم ســدا أمامها كسرها وحطم موجتها لأول مرة من يوم أن تدفقت من وسط آسيا • فحمى مغرب العالم الاسلامى وحمى الحضارة •

ومنذ ذلك التاريخ تغير وجه العــالم الاسلامى الذى شهدناه فى عصر الدولة العباسية • ودخل فى طور جديد من التاريخ •

* * *

تلك هى أحداث العالم الاسلامى أحطنا بها على قــدر ما سمح الجهد فى كتاب ، وان كانت لجديرة بأن تدرس فى أسفار • ومهما يكن رأى المؤرخين فى تكييف هــذه الأحداث ، ومهما يكن اختلاف وجهات النظر بينهم بالنسبة للعالم الاسلامى فى هــذا العصر من ناحية القوة

أو الضعف . فانه لا خلاف على أن الوطن الاسلامى على الرغم من تعدد القوى السياسية فيه واختلافها وتصارعها ، ظل وطنا اسلاميا لجميع المسلمين . وفى الوقت الذى تشعبت فيه الأحـداث السياسية ، وبدأ الخط السياسى متكسراً أو مستقيما فان الخط الحضـارى فيه مضى صاعدا مستقيما لا عوج فيه ، وأن الأمة الاسلامية فى هذا الوطن العربى الاسـلامى المترامى الأطراف ظلت تنفعل بحضارة واحـدة تصعد فى معارج الرقى والتقدم ، تسهم فى انمائها كل العقول والملكات فى المشرق والمغرب وتضم فى طياتها كل تراث الأمم من قبلها وفى وقتها فى حركة أخذ وعطاء متساوق مع تفكيرها الانسانى العالمى .

والجانب الحضارى من حياة الأمة الاسلامية جـدير بدراسـة مستفيضة عميقة نأمل أن نجعلها موضوع الجـزء التالى من هـذا الكتاب ان شـاء اللـه .

(تـم بحمـد الله)

ثبت المصادر والمراجع

ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٣ جزءا — بولاق ١٢٤٧ .

احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهليةوعهد الرسول . دار الفكر العربى ١٩٦٦ .

احمد امين : ضحى الاسلام — القاهرة ١٩٣٦ وطبعة دار المعارف .

ظهر الاسلام : طبعة دار المعارف .

احمد زكى صفوت : جمهرة رسائل العرب — ٣ اجزاء — القاهرة ١٩٣٧ .

آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع (نقله للعربية ابو ريده) . القاهرة ١٩٥٧ .

اخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها — مدريد ١٨٦٧ م .

الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق — ليدن ١٨٦٦ .

ارشيبلد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط — القاهرة ١٩٦٠ .

ارنولد : سير . ت . و : الدعوة الى الاسلام . (ترجمة حسن ابراهيم) .

الاصطخرى : المسالك والممالك . ليدن ١٩٢٧ .

الأصفهانى : كتاب الأغانى . القاهرة ١٢٨٥ هـ

مقاتل الطالبيين — القاهرة ١٩٤٩ م .

ابن أبى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . القاهرة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ .

أومان : الامبراطورية البيزنطية . دار الفكر العربى بالقاهرة .

الباز العرينى : الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٦٠ .

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى (ترجمة احمد السعيد) . القاهرة ١٩٥٨ .

Barthold : Hist. of Central Asia. Leiden 1956.

براون : Brawne : Literary Hist. of Persia. 3. vols. : 1909.

ابن بسام : كتاب الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة . القاهرة ١٩٤٥ .

برنارد لويس : العرب فى التاريخ . بيروت ١٩٥٤ .

البغدادى (محمد بن حديد) : المحبر . حيدر اباد . ١٩٤٢ .

البلاذرى : فتوح البلدان . القاهرة ١٩٠١ ، ١٩٥٩ .

البلخى : كتاب البـدء والتاريخ . باريس ١٩٠٧ .

البلوى : سيرة احمد بن طولون . المكتبة العربية بدمشق .

بكلـر : Buckler : Harunul - Rashid and Charles the greet.

بول رو : Poul - Roux : L'Islam en Asie Paris. 1958.

البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق . مطبعة المرسوعات ١٩٠٠ .

البيهقى : تاريخ البيهقى (ترجمة يحيى الخشاب) مطبعة الأنجلو ١٩٥٦ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـاهرة — دار الكتب المصرية .

التنوخى : نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة . القاهرة ١٩١٨—١٩٢١ .

تيمور (احمد باشا) : التصوير عند العرب — القاهرة ١٩٤٢ .
: نظرة تاريخيـة فى حـدوث المذاهب الأربعـة وانتشارها . القـاهرة ١٣٥١هـ .

الثعالبى : يتيمة الدهر — ٤ اجزاء — القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م .

الجاحظ : رسائل الجاحظ — القـاهرة ١٣٤٤م .
: التاج فى اخبار الملوك — القاهرة ١٩١٤م .
: كتاب الحيوان — القاهرة ١٩٠٧م .
: البيان والتبيين — ٤ اجزاء — القاهرة ١٩٢٨م .

جوبينو : Gabineau : Histoire des Perses. Paris. 1869.

جورجى زيدان : التمـدن الاسلامى — القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦ .

جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى — القاهرة ١٩٥٨ .

ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم — طبع الهند ١٣٥٨هـ .
: مناقب عمر بن عبد العزيز — ليبزج ١٨٩٩ م .

الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب — القاهرة ١٩٣٨م .

حـتى : تاريخ العرب — الجزء الثانى — بيروت ١٩٥٠ م .

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى — القاهرة ١٩٥٣،١٩٥٥م .
: النظم الاسلامية — القـاهرة ١٩٣٨م .

حسن احمد محمود : حضارة مصر فى العصر الطولونى — القاهرة ١٩٦٠م .
: الكندى المؤرخ — القاهرة ١٩٦٦ م .

حسن الباشا محمود : الألقاب الاسلامية .
ابن حوقل : المسالك والممالك — ليدن ١٨٩٩م .
الحسينى : اخبار الدولة السلجوقية — لاهور ١٩٣٣م .
ابن خرداذبة : المسالك والممالك — لبدن ١٨٩١م .
الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) — القاهرة ١٩٣٠م .
الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد أو مدينة السلام — ١٤ جزءا — القاهرة ١٩٣١ .
ابن خلدون : المقدمة — بولاق ١٣٢٠
: العبر وديوان المبتدأ والخبر — القاهرة ١٢٨٤هـ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان — المطبعة اليمنية — مصر ١٣١٠
ابن الخياط : كتاب الانتصار الرد على ابن الراوندى الملحد — القاهرة١٩٢٥
الدباغ : معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان — تونس ١٩٣٠هـ
ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار — القاهرة ١٨٩٣ .
دوزى : Dozy : Essoir sur L'Histoire de L'Islamisme 1819.
: تاريخ مسلمى اسبانيا (ترجمة حسن حبشى) نشر وزارة الثقافة
الديار بكرى : تاريخ الخميس — القاهرة ١٩٦٦ .
الدينورى : الأخبار الطوال — ليدن ١٨٨٨ .
الراوندى : راحة الصدور وآية السرور (ترجمة ابراهيم الشواربى وزملاؤه) .
ابن رستة : الأعلاق النفسية — ليدن ١٨٩١ .
رانسيمان :
Runciman : Charleimagne and Palestine, English Historical review. vol. 1. 1935.
زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى — القاهرة ١٩٥١ .
زكى محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية .
: فنون الاسلام — القاهرة ١٩٤٨ م .
: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٤٥ .
سايكس : Sykes : History of Perșia, London 1921.
سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان — شيكاغو ١٩٠٧ .

لى سترينج :
Le Strange : Baghded During the Abbasid Caliphate. Oxford, 1924.

سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى — القاهرة ١٩٦٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى — جزءان .

السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى — القاهرة ١٣١٢ ، الدار البيضاء ١٩٥٤ .

السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير — القاهرة ١٩٦٦ .

السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — القاهرة ١٣٥١ .

الشهرستانى : الملل والنحل — القاهرة ١٩٤٨ ، ١٩٦١ .

ابو شامة : الروضتين — مطبعة وادى النيل ١٢٨٧هـ .

ابو شجاع : ذيل تاريخ مسكويه — اكسفورد ١٩٢١ — مطبعة التمدن١٩١٦

الصابى : رسوم دار الخلافة — بغداد ١٩٦٤ .

الصاحب بن عباد : رسائل الصاحب بن عباد . تصحيح عبد الوهاب عزام وشوقى ضيف .

الصولى : اخبار الراضى والمتقى من كتاب الأوراق — مطبعة الصاوى .

الصياد (فؤاد عبد المعطى) : المغول فى التاريخ — نشر دار القلم بالقاهرة.

ضياء الدين الريس : الخراج .

ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية — القاهرة ١٩٢٣ وبيروت ١٩٦٠ .

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك — القاهرة ١٩٢٦ .

الطرطوشى : سراج الملوك .

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب — القاهرة ١٩٦١ .
: سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز — القاهرة ١٩٢٧ .

عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب .
: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة — بغداد ١٩٤٥ .

ابن عبد ربه — العقد الفريد — القاهرة ١٩٤٨ .

العتبى : تاريخ اليمن — القاهرة ١٢٨٦هـ .

ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار المغرب — ليدن ١٩٤٨ ، ١٨٥١ م

عزيب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى — ليدن ١٨٩٧ — القاهرة ١٣٢٠هـ.

العمـــرى : مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار ـــ القاهرة ١٩٢٤ .

الغـــزالى : فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة . القاهرة ١٩٠١ .

فازيلييف : العرب والروم (ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة) .

ابو الفـــــدا : المختصر فى اخبـــــار البشر ـــ القسطنطينية ١٢٨٦هـ . القـــاهرة ١٣٢٥هـ .

ابن العميـــد : تاريخ المسلمين ـــ ليدن ١٦٢٥ م .

فلهـــــوزن : الدولة العربية (ترجمة أبو ريده) القاهرة ١٩٥٨ .

فامبرى : تاريخ بخـــارى ـــ القـــاهرة ١٩٦٥ .

فنـــــلى :
Finaly : Hist. of the Byzantine Empire. London 1856.

عبد النعيم حسنين : سلاجقة العراق ـــ القاهرة ١٩٥٩ .

ابن قتيبـــة : كتاب المعارف ـــ القاهرة ١٩٣٤ .
: عيون الأخبار ـــ القاهرة ١٣٤٨هـ .
: الامامة والسياسة ـــ القاهرة ١٣٢٥هـ .

قدامة بن جعفر : الخـــراج ـــ ليـــدن ١٨٨٩ .

القـــرمانى : اخبار الأول وآثار الدول ـــ بغداد ١٢٨٢هـ .

القزوينى : آثار البـــلاد واخبار العباد ـــ جوتنجن ١٨٤٨ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ـــ بيروت ١٩٠٨ .

الـــكتبى : فوات الوفيات ـــ القـــاهرة ١٢٩٩ .

ابن كثير : البداية والنهاية ـــ القاهرة ١٣٤٨هـ .

الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ـــ القاهرة ١٩٣٩ .

الكندى : الولاة والقضاة ـــ طبعة رفن جست ١٩١٢ ـــ بيروت ١٩٠٨ .

ليـــــفى :
Levy : The Social structure of Islame Combridge. 1965.

لويس ، برنارد :
Lewis; Bernard : The Origins of Ismailism. Combridge. 1940.

لينبول ، ســـتانلى :
Lane - Poole; Stanley : The Muhammaden Dynsties. Paris, 1925.

المـــالكى : رياض النفوس ـــ القاهرة ١٩٥١ .

الماوردى : الأحكام السلطانية ــ القاهرة ١٢٩٧هـ و ١٩٦٠م .

محمد توفيق أحمد محمد خفاجي : اثر الأتراك السياسى والاجتماعى فى العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجرى (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة لم تنشر) .

محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ــ نشر دار الفكر العربى .

: انقسام الدولة الاسلامية الى دول مستقلة بالشرق ــ القاهرة.

محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ــ مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٦١ .

محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية (بحث ضمن كتاب « طه حسين » بمناسبة بلوغه السبعين) .

المماليك الحليفة ، او : ممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية الى ايام المعتصم (بحث بمجلة كلية الآداب ــ جامعة فاروق الأول ــ المجلد الرابع سنة ١٩٤٨) .

: محاضرات بجامعة عين شمس عن العصر البويهى .

المراكشى :المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ــ ليدن ١٨٨١ .

المسعودى : مروج الذهب ــ القاهرة ١٢٧٠هـ و ١٩٤٨م .

: التنبيه والاشراف ــ ليدن ١٩١٤ .

: تجارب الأمم وتعاقب الهمم ــ ليدن ١٩٠٦ ــ القاهرة ١٩١٤ ، ١٩١٥ .

لامبتون :

Lambton : Landlord and Peasant in Persia. (Oxford, 1953).

مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ــ القاهرة ١٩٥٨ .

المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ــ القاهرة ١٢٧٠ .

مويـر :

Muir, Sir William : The Caliphate. Edinburge. 1925

ابن النديم : الفهرست ــ القاهرة ١٣٤٨ .

النوبختى : كتاب فرق الشيعة ــ استامبول ١٩٣١ .

هيد :

Heyd : Histoire du Commerce de Levant au Moyenage. 2. vol. Leipzig 1885 - 1886.

اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ــ النجف ١٣٥٨هـ .

ابو يوسف : كتاب الخراج ــ القاهرة ١٣٠٢هـ .

فهرس

صفحة

صفحة

الباب الثانى

الحركات الاستقلالية فى العالم الاسلامى

الباب الثالث

العصر البويهى والعصر السلجوقى

صفحة

للمــؤلف

* دراسات فى الحضارة الاسلامية .
* دور الحجاز فى الحيـــاة السياسية .
* العـــالم الاسلامى فى العصر العباسى .
* مكة والمدينـــة فى عصر الجاهليـــة وعصر الرســـــول (صـــلى الله عليــه وســـلم)

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها
وتوزيعها داخل جمهورية مصر العربية وخارجها
دار الفكر العــربى
١١ ش جواد حسنى ـــ بالقاهرة
ص.ب ١٣٠ ـــ ت : ٧٥٠١٦٧